

نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِن
غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التلياني

حقيقته
الدكتور احسان عباس

المجلد الرابع

دار صادر
بيروت

مجموع الحقوق محفوظة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار صادر : متلوق برید ١٠ - بیروت



الباب السابع

(تمة)

٤٧٦ - وقال ابن ظافر^١ : أخبرني مَنْ أتق به قال : اجتمع الوزير أبو بكر ابن القبطرنة والأستاذ أبو العباس ابن صارة في يوم جلا ذهب برقه ، وأذاب ورق ودقّه ، والأرض قد ضحكت لتعيس السماء ، واهترت وربّت عند نزول الماء ، فترافدا في صفتها ، فقال ابن صارة :

هندي البسيطة كاعب أبرادها حنل الربيع وحلّيتها النوار

فقال ابن القبطرنة :

وكانّ هذا الجوّ فيها عاشق قد شفّه التعذيب والإضرار

فقال ابن صارة :

فإذا شكسا فالبرق قلب خافق وإذا بكى فدموعه الأمطار

فقال ابن القبطرنة :

فمن أجل عزة ذا وذلة هذه تبكي الغمام وتضحك الأزهار

١ البدائع ١ : ١٨٦ وهذا مكرر ، انظر ج ٣ : ٣٥٥ .

٤٧٧ - وقال أبو بكر محمد بن [الحسن] الزبيدي النحوي صاحب الشرطة
 يخاطب الوزير أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي لما كتب كتاباً له فيه « فاضت
 نفسه » بالضاد - ميبناً له الخطأ دون تصريح :

قل للوزير السني محته
 عناية بالعلوم معجزة
 يقر في عمرها ومعمرها
 قد كان حقاً قبول حرمتها
 وفي خطوب الزمان لي عظة
 إن لم تحافظ عصابة نسبت
 لا تدعن حاجتي بمطرحة
 لي ذمة منك أنت حافظها
 قد بهظ الأولين باهظها
 فيها ونظامها وجاحظها
 لكن صرف الزمان لافظها
 لو كان يثني النفوس واعظها
 إليك قدماً فمن يحافظها
 فإن نفسي قد فاظ فائظها

فأجابه المصحفي :

خفص فواقاً فانت أوحدها
 كيف تضيع العلوم في بلد
 أفاظهم كلها معطلة
 من ذا يساويك إن نطقت وقد
 علم ثني العالمين عنك كما
 وقد أتحتي فديت شاغلة
 فأوضححتها تقز بنادرة
 علماً ونقائبا وحافظها
 أبناؤها كلهم يحافظها
 ما لم يعول عليك لافظها
 أقر بالعجز عنك جاحظها
 ثني عن الشمس من يلاحظها
 للنفس أن قلت فاظ فائظها
 قد بهظ الأولين باهظها

فأجابه الزبيدي ، وضمن شعره الشاهد على ذلك :

أتاني كتاب من كريم مكرم
 فنفس عن نفس تكاد تفيظ

فَسَرَّ جَمِيعَ الْأَوْلِيَاءِ وَرَوَدَهُ
لَقَدْ حَفِظَ الْعَهْدَ الَّذِي قَدْ أَضَاعَهُ
وَبَاخَثَتْ عَنْ فَاطِمَةَ وَقِيلِي قَالَهَا
رَوَى ذَلِكَ عَنْ كَيْسَانَ سَهْلٍ وَأَنْشَدُوا
« وَسَمِيَتْ غِيَاظًا وَلَسْتَ بِغَائِظٍ
« فَلَا رَحِمَ الرَّحْمَنِ رُوْحَكَ حَيَّةً
وسيء رجالٌ آخرونَ وغيظوا
لدي سواه والكريمُ حفيظُ
رجالٌ لديهم في العلومِ حظوظُ
مقالَ أبي الغياظِ وهو مغيظُ
عدوًّا ولكن للصديقِ تغيظُ
ولا هي في الأرواحِ حين تغيظُ

قلت : وفي خطاب الوزير بهذا البيت وإن حكى عن قائله ما لا ينبغي أن
اجتنابه المطلوب ، على أنه قد يقال « فاضت نفسه » بالضاد ، كما ذكره ابن
السكيت في خلل « الألفاظ » له ، والله أعلم .

وكتب الزبيدي المذكور إلى أبي مسلم ابن فهد^١ :

أبا مسلم إنَّ القَتِيَّ بِجَنَانِهِ وَمِقْبُولِهِ ، لا بِالْمَرَاقِبِ وَاللَبْسِ
وليس ثيابُ المرءِ تَغْفِي قَلَامَةً
وإذا كان مقصوداً على قِصْرِ النَّفْسِ
وليس يفيدُ العلمَ والحلمَ والحجى
أبا مسلم طولُ القعودِ على الكرسي

وقال ، وقد استأذن الحكم المستنصر في الرجوع إلى أهله بإشيلية ولم يأذن
له ، فكتب إلى جاريته سلمى^٢ :

ويحك يا سلمَ لا تُرَاعِي
لا تخسِني صبرتُ إلا
لا بدَّ للينِ من زماعِ
كصبرِ مَيِّتٍ على التُّرَاعِ
أشدَّ من وقْفَةِ الْوَدَاعِ
لولا المناحاتُ والنواعي
ما خلَقَ اللهُ من عذابِ
ما بيَّنَّهَا وَالْحِمَامِ فَرَّقَ

١ الخذوة : ٤٣ .

٢ المصدر نفسه .

إن يفترق شملنا وشيكاً من بعد ما كان ذا اجتماع
فكل شمل إلى افتراق وكل شعب إلى انصداع
وكل قرب إلى بعد وكل وصل إلى انقطاع

٤٧٨ - واجتمع جماعة من الأدباء فيهم أبو الحسن سهل بن مالك والمهر
ابن الفرس وغيرهما بمدينة سبته سنة ٥٨١ ، فتذاكروا محبوباً لهم يسكن الجزيرة
الخضراء أمامهم ، فقالوا : ليقول كل واحد منكم شيئاً فيه ، فقال سهل بن
مالك^١ :

لما حططت^٢ بسبته قتب النوى والقلب يرجو أن يحول حاله
والجو مصقول الأديم كأنما يبدي الخفي من الأمور صقاله
عاينت من بلد الجزيرة مكنساً والبحر يمنع أن يصاد غزاله
كالشكل في المرأة تبصره وقد قربت مسافته وعز مناله

فقال الجماعة : والله لا يقول أحد منا بعد هذا شيئاً .

٤٧٩ - ولما قرأ أبو محمد عبد الله بن مطروح البكسنسي صداق إملاك ،
وغيره فيه حال القراءة لفظه « غير » برفع ما كان منصوباً أو بالعكس ، أنشد بديهاً
بعد الفراغ معتزلاً عن لحنه :

غيرتُ غيراً فصرتُ غيراً وهكذا من يجد سيرا

فأجابه الحافظ أبو الربيع ابن سالم الكلاعي ، وكان إلى جانبه ، بديهة :

ما أنت ممن يُظنُّ فيه بذاك جهلٌ فظنٌ خيراً

١ اختصار القلح : ٦٢ .

٢ القلح : أنحت .

٤٨٠ - ووقف أبو أمية ابن حَمْدُون بِيَاب الأَسْتَاذِ الشُّلُوبِين ، فَكَتَبَ فِي ورقة « أبو أمية بالبَاب » وَدَفَعَ الورقة لِخَادِمِ الأَسْتَاذِ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا الأَسْتَاذُ نَوَّنَ تَاءَ أُمِيَّةٍ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَمَرَ الخَادِمَ بِدَفْعِ الورقة إِلَيْهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ فِيهَا أَبُو أُمِيَّةٍ انصَرَفَ ، عَلِمًا مِنْهُ أَنَّ الأَسْتَاذَ صَرَفَهُ ، فَانظَرَ إِلَى فِطْنَةِ الشَّيْخِ وَالتَّلْمِيزِ ، مَعَ أَنَّ الشَّيْخَ مَنْسُوبٌ إِلَى التَّغْفَلِ فِي غَيْرِ العِلْمِ .

٤٨١ - وَمِنْ حِكَايَاتِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ فِي العَفْوِ أَنَّ المَعْتَصِمَ بْنَ صُمَادِحَ كَانَ قَدْ أَحْسَنَ لِلنَّحْلِيِّ البَطَلَيْوَسِيِّ ، ثُمَّ إِذَا النَّحْلِيُّ سَارَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ ، فَمَدَحَ المَعْتَصِمَ ابنُ عِبَادٍ بِشِعْرِ قَالَ فِيهِ :

أَبَادِ ابْنَ عِبَادِ البَرْبَرَا وَأَفِي ابْنَ مَعْنٍ دِجَاجِ القُرَى

وَنَسِيَ مَا قَالَه ، حَتَّى حَلَّ بِالمَرِيَّةِ ، فَأَحْضَرَهُ ابنُ صُمَادِحَ لِمُنَادِمَتِهِ ، وَأَحْضَرَ لِلعِشَاءِ مَوَائِدَ لَيْسَ فِيهَا غَيْرُ دِجَاجٍ ، فَقَالَ النَّحْلِيُّ : يَا مَوْلَايَ ، مَا عِنْدَكُم فِي المَرِيَّةِ لَحْمَ غَيْرِ الدِّجَاجِ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَكْذِبَكَ فِي قَوْلِكَ :

وَأَفِي ابْنَ مَعْنٍ دِجَاجِ القُرَى

فَطَارَ سَكْرَ النَّحْلِيِّ ، وَجَعَلَ يَعْتَذِرُ ، فَقَالَ لَهُ : خَفِّضْ عَلِيكَ ، إِنَّمَا يَنْفَقُ مِثْلَكَ بِمِثْلِ هَذَا ، وَإِنَّمَا العُتْبُ عَلَى مَنْ سَمِعَهُ فَاحْتَمَلَهُ مِنْكَ فِي حَقِّ مَنْ هُوَ فِي نِصَابِهِ ، ثُمَّ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَخَافَ النَّحْلِيُّ ، فَفَرَّ مِنَ المَرِيَّةِ ، ثُمَّ نَدِمَ فَكَتَبَ إِلَى المَعْتَصِمِ :

رَضِيَ ابْنُ صُمَادِحَ فَارَقْتُهُ فَلَمْ يُرْضِنِي بَعْدَهُ العَالَمُ
وَكَانَتْ مَرِيَّتُهُ جَنَّةً فَجِئْتُ بِمَا جَاءَهُ آدَمُ

فَمَا زَالَ يَشْفِقُهُ بِالإِحْسَانِ عَلَى بُعْدِ دِيَارِهِ ، وَخُرُوجِهِ عَنِ اخْتِيَارِهِ ، انْتَهَى .

٤٨٢ - وَقَالَ فِي بَلَنَسِيَّةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرِّصَافِيُّ ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْهَا صَغِيرًا :

بلادي التي ريشت قويدمتي بها فريحاً وآوتني قرارها وكرا
مهادي ولين العيش في ريت الصبا أبا الله أن أنسى اعتيادي بها خيرا

٤٨٣ - وقال أبو بكر محمد بن يحيى الشلطي^١ :

وفاة المرء مير^٢ لم يكشف ولم تثبت حقيقته دراية
سيفي كل ذي شبح ونفس وتلتحق النهاية بالبداية
وينصدع الجميع إلى صدوع تعود به البرية كالبراية
كان مصائب الدنيا سهام لها الأيام أغراض الرماية
فقل ما شئت إن الفقر حد وعش ما شئت إن الموت غاية

٤٨٤ - وقال أبو بكر محمد بن العطار الياسي ، وهو من رجال الذخيرة :

أمطيت عزمك منه متن ساجحة خلت الحجاب على لبتاتها ليا
تبلو على الموج أحيانا ويضميرها كالعيس تعسف الأهضام والكثبا

٤٨٥ - وقال محمد بن الحسن الجيلي النحوي^٣ :

وما الأوس بالناس الذين عهدتهم بأوس ولكن فقد رؤيتهم أنس
إذا سلمت نفسي وديني منهم فحسبي أن العريض مني لهم ترس

٤٨٦ - وقال محمد بن حرب^٤ :

طوبى لروضة جنة لك قد نويت ورودها
نظمت على لبتاتها أيدي الغمام عقودها

١ يعرف بابن القابلة ، انظر المغرب ١ : ٣٥٢ والمسالك ١١ : ٢٢٧ .

٢ الجلوة : ٤٧ .

٣ هو محمد بن مروان بن حرب (الجدوة : ٨٥ ومقطوعته وردت فيها) .

وسقت بماء الوردِ والـ حسلِكِ الفَتَيْتِ صعيدها
والطيرُ تشدو في الغصو نِ المائداتِ قصيدها
وتعيرُ سمعَ المستعيرِ رِ نظيمها وتَشيدَها

٤٨٧ - وكان في دار محمد بن اليسع شاعر الدولة العامرية وردة^١ ، وكان يهدي وردها كلَّ عام إلى عارض الجيش أحمد بن سعيد^٢ ، فغاب العارض سنة فقال :

قال لي الوردُ وقد لا حَظُّنُهُ في روضتَيْهِ
وهو قد أَيْنَعَ طيباً جَمَعَ الحسَنَ لِدَيْهِ
أين مولاي الذي قد كنتَ تهديني إليه
قلتُ غابَ العامَ فأياسُ أن تُرى بينَ يَدَيْهِ
فبدا يذبلُ حتّى ظَهَرَ الحُزُنُ عليه

٤٨٨ - وقال أحمد بن أفلح^٣ :

ما أستريحُ إلى حِصالِ فأحمدَها بالينِ قلبي وقيلَ الينِ قد ذهبها
إن كان لي أربُّ في العيشِ بعدكمُ فلا قَضيتُ إذنَ من حَبِّكم أربا

٤٨٩ - وقال أحمد بن تليد الكاتب^٤ :

لم أرضَ بالذلِّ وإنْ قَلَّ والحُرُّ لا يَحتمِلُ اللِّلا
يارُبَّ نَحيلٍ كان لي نَحاملٍ صارَ إلى العزَّةِ فأحولاً
حَرَمْتُ لِلمامي على بابِهِ وَوَصَلُّهُ لم أرَهُ حِلا

١ ترجمته ومقطوعته في البغوة : ٩٠ - ٩١ .

٢ البغوة : سد .

٣ ترجمته وشعره في البغوة : ١١٠ : زاد في م : وهو من الشعراء المجيدين .

٤ البغوة : ١١١ .

تأبى عليّ النفسُ من أن أرى يوماً عليّ مستقلاً ككلاً

٤٩٠ - وقال إسحاق بن المنادي ، وقد أهدى له مَنْ يهواه تفاحة^١ :

جمالُ العينِ في وردِ الخلودِ يُذكرُ طيبَ جناتِ الخلودِ
وآرجةٌ من التفاحِ تزهو بطيبِ النشْرِ والحسنِ الفريدِ
أقول لها فضحتِ المسكَ طيباً فقالت لي بطيبِ أبي الوليدِ

٤٩١ - وقال غالب بن عبد الله الثغري^٢ :

يا راحلاً عن سوادِ المقتلينِ إلى سوادِ قلبٍ عن الأضلاعِ قد رحلا
غدا كجسمٍ وأنتَ الروحُ فيه فما ينفكُ مرتحلاً ما دمتُ^٣ مرتحلاً
وللفراقِ جوى لو مرَّ أبردُهُ من بعدِ فرقَتكمُ بالماءِ لا اشتعلا^٤

٤٩٢ - وقال الوزير أبو الحسن ابن الإمام الفرناطي يهجو مراکش
المحروسة^٥ :

يا حضرةَ الملكِ ما أشهاك لي وطناً لولا ضروبُ بلاءٍ فيكِ مَصبوبِ
ماءِ زُعاقٍ وجوٍّ كلَّه كَدَرٌ وأكلةٌ من بذنجانِ ابنِ معيوبِ

وابن معيوب هذا كان من خدام أبي العلاء ابن زُهْر ، يزعم الناس أنه سمَّ

١ الجلوة : ١٥٨ - ١٥٩ .

٢ الجلوة : ٣٠٦ .

٣ الجلوة : إذ ظلت ؛ م ب : ما دام .

٤ الجلوة : بجاء الماء من البرق .

٥ زاد في م بعد هذه الأبيات : وقال المذكور من قصيدة وهو يدعي :

وما شجاني أنني كنت نائماً أطل من فرط الكرى بالتشم

(في أربعة أبيات . . .)

٦ هو أبو الحسن علي بن الإمام الفرناطي كاتب تميم بن يوسف بن تاشفين (المغرب ٢ : ١١٦) .

ابن باجة لعداوته لابن زهر في باذنجان .

٤٩٣ - ولما بنى الفقيه أبو العباس ابن القاسم^١ قصره بسلا وشيّدَه وصفّته الشعراء ، وهنّته به ، ودعت له ، وكان بالحضرة حينئذٍ الوزير أبو عامر ابن الحمارة ، ولم يكن أعدى شيئاً ، فأفكر قليلاً ثم قال :

يا واحدَ الناسِ قد شيّدتَ واحدةً فحلّ فيها محلّ الشمسِ في الحملِ
فَمَا كَدَارِكَ في الدُّنْيَا لذي أملٍ ولا كَدَارِكَ في الأخرى لذي عملِ
وفيهم^٢ يقول ابنُ بقيّ في موشحته الشهيرة التي آخرها^٣ :

إن جئتَ أرضَ سَلا تلقاكَ بالمكارمِ فتبانُ
همُ سَطورُ العُملَا ويوسفُ بنُ القاسمِ عنوانُ

٤٩٤ - وكان محمد بن عبادة بالمرية ، ومعه ابن القابلة السبتي ، فنظر إلى غلام وسيم يسبح ، وقد تعلق بمركب ، فقال ابن عبادة^٤ :

انظر إلى البدرِ الذي لاح لك

فقال ابن القابلة :

في وَسَطِ اللجّةِ تحتِ الحلكِ

قد جعل الماء مكان السما واتخذ الفلّك مكان الفلّك

١ أبو العباس ابن القاسم من بني عشرة أعيان سلا وقد ملّحهم كثيرون من شعراء الأندلس والمغرب ومن مداحهم الأصبى التطيلي وابن بقي .

٢ يريد بني عشرة .

٣ انظر هذه الموشحة في ديوان التطيلي : ٢٧٢ .

٤ : فيدان .

٥ انظر ما تقدّم ج ٣ : ٦١٠ .

٤٩٥ - وقال ابن خروف ، ويروى لغيره ١ :

أَيْتَهَا النَّفْسُ لِإِيهِ إِذْهَبِي فَحِبُّهُ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِي
مَفْضَضُ الثَّغْرِ لَهُ شَامَةٌ مَسْكِيَةٌ فِي خَدِّهِ الْمَذْهَبِ
أَبَاسِي التَّوْبَةَ مِنْ حُبِّهِ طَلُوعُهُ شَمْساً مِنَ الْمَغْرَبِ

٤٩٦ - واجتمع في بستان واحد ثلاثة من شعراء الأندلس ، وهم : ابن خفاجة ، وابن عائشة ، وابن الزقاق ، فقال ابن خفاجة يصف الحال هنالك ٢ :

لِلَّهِ نَوْرِيَّةٌ الْمَحْيَا تَحْمَلُ نَارِيَّةَ الْحُمَيَّا
دُرْنَا بِهَا تَحْتَ ظِلِّ دَوْحٍ قَدْ رَاقَ مَرَأَى وَطَابَ رِيَّا
تَجَسَّمِ النُّورُ فِيهِ نَوْرًا فَكَلُّ غَصْنٍ بِهِ ثَرِيَّا

وقال ابن عائشة ٣ :

وَدُوْحَةٌ قَدْ عَلَتْ سَمَاءَ تَطْلُعُ أَزْهَارُهَا نَجُومًا
هَفَا نَسِيمُ الصَّبَا عَلَيْنَا فَخَلَّتْهَا أَرْسَلَتْ رَجُومًا
كَأَنَّهَا الْأَفْقُ غَارَ لَمَّا بَدَّتْ فَأَغْرَى بِهَا النَّسِيمَا

وقال ابن الزقاق ٤ :

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِقِ أَضْحَتْ يَشْتَهَادِي بِهَا نَسِيمُ الرِّيَاحِ
زَرْتَهَا وَالْغَمَامُ يَجْلِدُ مِنْهَا زَهْرَاتٍ تَفُوقُ لَوْنَ الرَّاحِ

١ نسيها ابن سعيد (في القسم الخامس بصقلية) لأبي القاسم ابن طلحة الصقلي وكان في دولة منصور

بني عبد المؤمن .

٢ ديوان ابن خفاجة : ٧٢ .

٣ المغرب ٢ : ٣١٤ .

٤ ديوانه : ١٢٥ وقد مرّت الأبيات ج ٣ : ٢٠٠ : ٣٥٦ .

قلتُ ما ذنبها فقال مجيباً سرقتُ حمرةَ الحدودِ الملاحِ

٤٩٧ - وقال الأديب أبو الحسن ابن زنون : وقع بيدي وأنا أسير بقيجاطة^١
- أعادها الله تعالى دار إسلام - كتابُ ترجمته «كتاب التحف والطرف» لابن
عفيون فوجدت فيه : قال الحسين بن الضحاك^٢ :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ في وسطه ألفُ دينارٍ على فرسٍ
في كفه حربةٌ يقرى الدروعَ بها وصارمٌ مرهفُ الحدين كالقَبَسِ
فلو رجعتُ ولم أظفرُ بمهجتِهِ وقد خضبتُ ذبابَ الصارمِ الشكسِ
فلا اغتبطتُ بعيشٍ وابتليتُ بما يحولُ بيني وبين الشادنِ الأتيسِ
ووقف على هذه القطعة أبو نواس فقال :

ما كان أحوجني يوماً إلى خنثٍ حلوا الشمائل في باقٍ من الغلَسِ
في كفه قهوةٌ يسي^٣ النفوسَ بها محكَمِ الطرفِ للألبابِ مختلسِ
فلو رجعتُ ولم أظفرُ بتكتهِ وقد رويتُ من الصهباءِ كالقَبَسِ
فلا هنتُ بعيشٍ وابتليتُ بما يكونُ منه صدودُ الشادنِ الأتيسِ
هذا ألدُّ وأشهى من منى رجلٍ في وسطه ألفُ دينارٍ على فرسٍ

ووقف على ذلك الوزير أبو عامر ابن يتق فقال :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ يرددُ الذكرَ في باقٍ من الغلسِ
في حلقه غنَّةٌ يشفي النفوسَ بها وفي الحشا زفرةٌ مشبوبةُ القَبَسِ
فلو رجعتُ ولم أوتر تلاته على سماعِ غناءِ الشادنِ الأتيسِ

١ تمد قيحاظة من أعسال جيان ، وكانت مدينة زهرة في نهاية من الحصب .

٢ لم ترد في ديوانه ، جمع الأستاذ عبد الستار فراج .

٣ ق : يشي .

فلا حمدت إذن نفسي ولا اعتمدتُ
ولا أسلتُ بقبرِ المصطفى. مَقْلًا
بني النجائبُ قصدَ البيتِ والقدسِ^١
تبكي عليه بهامي الدمعِ منبجسِ

فوقفت على ذلك - يقول ابن زنون - فقلت : وكلُّ يتفق ممّا عنده ، ومن
عجائب الله أنه عند فراغي من كتّيب هذه القطعة وصل الفكّالك إليّ ، وحل قيودي
وأخرجني إلى بلاد المسلمين ، وهي :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ
يفكُّ قيدي وغلّي غير مرتقبٍ
وقوله لي تأنيساً وتسليّةً
فلو جبّنتُ ولم أقبلْ مقالتهُ
إذن خلعتُ لباسَ المجدِ من عنقي
وأخلفتني أمانيّ التي طمّحتُ
يأتي فينبهني في فحمةِ الغلسِ
ولا مبالٍ^٢ من الحجّابِ والحرسِ
هذا سلاحيّ فالبسهُ وذا فرسي
وأمتطي الطرفَ وثباً فعل مفترسِ
وصار حظيّ منه حظّاً مختلسِ
نفسيّ إليها وإحسانيّ لكلِّ مُسي

٤٩٨ - وقال أبو بكر ابن حبيش ، وقد زاره بعضُ أودّائه في يوم عيد فطر :

أكلُّ ذا الإجمالِ في ذا الجمالِ
يا مالكا بالبرِّ رقيّ أما
سرتَ إلى ربّعي زوراً كما
العيدُ لي وحدى بين الوري
صوميّ مقبولٌ وبرهائهُ
أني أدخلتُ جنانَ الوصالِ
اللهَ أستحفظُ ذاكَ الكمالِ
يكفيك أن تملكني بالوصالِ
سرى إلى المهجورِ طيفُ الخيالِ
حقّاً لأنّي قد رأيتُ المللِ
أني أدخلتُ جنانَ الوصالِ

٤٩٩ - وقال أبو بكر ابن يوسف اللخمي ، وقد عادته في شكايته فتى وسيم
من الأعيان كان والده خطيب البلد :

١ ق ب : في القدس ؛ وأثبتنا رواية م .
٢ ب : ولا يبالي ؛ والبيت متأخر عن تاليه في م .

يا عائدي وهو أصل ما بي
أصميت لما رميت قلبي
وجئتني منكراً لسقمي
يا ساعة قد غفرتُ فيها
ما كان في فضلها مقال*
أفديك من ممرض طيب
بسهم الحائك المصيب
وتلك من عادة الحبيب
ما كان للدهر من ذنوب
لو لم تكن جلسة الخطيب

٥٠٠ - وخاطب أبو زيد ابن أبي العافية أبا عبد الله ابن العطار القرطبي

بقصيدة منها هذا البيت :

وكيف يُفنيقُ ذو صبرٍ قصيرٍ حليفٌ وساوسٍ حولٍ طوالٍ

يعرض له بطوله وحوله ، ولصاحبه أبي محمد ابن بلال بقصره ، فراجعه أبو عبد الله المذكور بهذه الأبيات يعرض له فيها بجزبه ، وكان أبو زيد أصابه جربٌ كثير :

أجل* يا نافثَ السحرِ الحلالِ
يروقكَ أولاً لفظاً ومعنى
تعرضُ فيه أنكَ ذو مطالٍ
كأنك لم تجربَ قطُ خلقاً
أنسيتَ التجاربَ إذ تجاري
فلا تغفلَ عن التجريبِ يوماً
وجربَ جارَ بيتك واختبره
وجارُ بنيك لا تستحي منه
وأجرُ بيالك الجرباء تبصرُ
وجربَ أهلَ جربة تُلَفِ قوماً
تجاراً باعةً تجرّوا بزيتٍ
أتاني منكَ نظمٌ كاللآلي
ويلدغُ آخرأ لدغِ الصلالِ
حليفٌ وساوسٍ حولٍ طوالٍ
ولم تعرف بتجربة الليالي
بينَ الجرباء مع الشمالِ
ولو أعطيتَ فيه جرابَ مالٍ
وجرّ برجله إن كان قالي
ومن نجار بابك لا تبالِ
نجومَ الأفقِ تجري بانتقالِ
أبوا لبسَ الجواربِ والتعالِ
تسموا بالتجارِ بغيرِ مالٍ

إذا سمعوا بتمرٍ في جريبٍ جَرَوْا ببطاء ذي التمر^١ البوالي
إذا جَرَّبْتَ هذا الخَلْقَ أبدي لك التجريبُ أجْرِبَةً خوالي
جری بالنُّجْحِ دهرًا جرًّا بؤسًا عليكَ وجارِ بالنُّوبِ الثقالِ

٥٠١ - وخرج ثلاثة أدباء لتزفة خارج مرسية ، وصلّوا خلف إمام بمسجد قرية ، فأخطأ في قراءته ، وسها في صلاته . فلما خرج أحدهم كتب على حائط المسجد :

با خَجَلْتِي لصلاةٍ صَلَّيْتُهَا خَلْفَ خَلْفٍ^٢
فلما خرج الثاني كتب تحته :
أغضُّ عنها حياءَ من المهيمنِ طرْفِي
فلما خرج الثالث كتب تحته :

فليسَ نُقْبِلُ منّا لو أنّها ألفُ ألفِ

٥٠٢ - وقال أبو إسحاق ابن خفيف الأندلسي^٣ في أحدب أخذ مع صبي في خلوة فضربا . وطيفَ بهما ، والأحدب على عنق الصبي :

رأيتُ اليَوْمَ مَحْمُولًا وَأعجبُ منه مَنْ حَمَلَهُ
جِمالُ الناسِ تحمّلهمْ وهذا حاملُ جَمَلَهُ

٥٠٣ - وقال أبو الصلت الأندلسي^٤ :

١ ب : ابطاء للتمر ؛ م : ببطانة التمر .

٢ الخلف : المتخلف الذي لا خير فيه .

٣ الأندلسي : زيادة من م .

٤ مر البيتان ج ٣ : ٣٥٦ وزاد بهما في م : وقوله أيضاً فيما قرب من هذه :

وقائلة ما لي أراك مجانياً أموراً وفيها لتجارة مريح

فقلت لها ما لي بربحك حاجة ونحن أناس بالسلامة نفرح

وقائلة ما بالٌ مثلكَ خاملاً أنتَ ضعيفُ الرأي أم أنتَ عاجزٌ
فقلتُ لها ذنبي إلى القومِ أتني لما لم يجوزوه من المجدِ حائزٌ

٥٠٤ - وكتب بعض المغاربة لأبي العباس ابن مضاء يذكره بحاله :

يا غارساً لي ثمارِ مجدٍ سقيتها العذبَ من زلالِكُ
أخافُ من زهرِها سُقوطاً إن لم يكنْ سقيتهاً ببالِكُ

٥٠٥ - وكتب الكاتب أبو عبد الله القرطبي مستنجزاً وعداً :

أبا عبد الإله وعدتَ وعداً فأبجزُ تريحَ الشكرَ الجزيلاً
ولا تمطلُ فإنَّ المَطلَ يحو من الإحسانِ رونقَهُ الصقيلاً
إذا كانَ الجميلُ يُحبُّ طبعاً فإني أكره الصبرَ الجميلاً

٥٠٦ - وكتب ابن هذيل الفزاري للغني بالله سلطان لسان الدين بن الخطيب :

ليسَ يا مولاي لي من جابري إذ غدا قلبي من البلوى جُداذا
غيرَ صكِّ أحمرٍ تكتبُ لي فيه يَمناكَ اعتناءً : صحَّ هذا

٥٠٧ - وقال أبو الحسن ابن الزقاق في غلام يهودي كان يجلس معه وينادمه

يوم سبت^١ :

وحبَّ يومَ السَّبْتِ عندي أتني ينادمني فيه الذي أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياءِ أتني مسلمٌ حنيفٌ، ولكن خيرُ أيامي السبْتُ

٥٠٨ - وقال أبو حيان^٢ :

ويعجبني رشفُ تلكَ الشفاهِ وعضُ الخلودِ وهصرُ القوامِ

١ ديوان ابن الزقاق : ١١٣ .

٢ زاد في م : النحوي في الأوصاف .

عابسنُ فاتتُ قضيبَ الأراكِ ووردَ الرياضِ وكأسَ المدامِ

٥٠٩ - وكتب أحد الأدباء بمرسية إلى فتى وسيم من أعيانها كان يلزم حانوت بعض القضاة بها للتفقه عليه ، بأبيات في غرض ، فراجعه عنه أبو العباس ابن سعيد بقوله :

ما للمحبِّ لديٍّ غير صبايةٍ تقضي عليه ولوعةٍ وغرامِ
فدع الطماعةَ واسترخِ باليأسِ من وصلٍ عليك إلى المماتِ حرامِ
٥١٠ - وقال السميسر^١ :

قرايةُ سوءٍ شرٌّ داءٍ فاحملْ أذاهمْ تعشْ حميدا
ومن تكنْ قرحةً بفيهِ يصبرْ على مصه الصليدا
٥١١ - وقال ابن خفاجة^٢ :

إنَّ للجنَّةِ بالأندلسِ مجتلى عينٍ وريًّا نفَسِ
فَسْنَا صُبْحَتَا من شَنَبٍ ودُجى ليلتها من لَعَسِ
فإذا ما هبَّتْ الريحُ صباً صيحتُ واشوقى إلى الأندلسِ

٥١٢ - وقال بعض الأندلسيين ممن لم يحضرني اسمه الآن :

إذا صال ذو ودٍ بودِّ صديقه فيا أيها الخللُ المصاحبُ لي صلِّ بي
فإنِّي مثلُ الماءِ لينا لصاحبي وناهيك للأعداءِ من رجلٍ صلِّبِ

٥١٣ - وقال أبو يحيى ابن هشام القرطبي :

وخائطٍ رائعٍ جمالاً وصاله غايةٌ اقتراحي

١ زاد في م : الشاعر ، في قرياء السوء .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٣٦ وزاد في م : السابق ذكره أولا .

تعمُّ منه الخيوطُ فتَلَاً بينَ أقاحٍ وبينَ راحِ
 تراه في السلمِ ذا طعانٍ بنافذاتٍ بسلا جراحِ
 حَلَقَتُهُ أَشْبَهَتْ فُوادي لكثرةِ الوخزِ في النواحي
 تُقَطِّعُ الثوبَ راحته كصنعِ الحَاظِهِ الملاحِ
 فقبله ما رأيتُ بدمراً ممزقاً بُرْدَةَ الصباحِ

٥١٤ - وقال أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البكئسي ٢ :

غصبتِ الثرياً في البعادِ مكانها وأودعتِ في عينيَّ صادقَ نوئها
 وفي كلِّ حالٍ لم تزالِي بِخيلةٍ فكيفِ أعرتِ الشمسَ حِلَّةَ ضوئها

قال ابن الأثير : أنشد مؤلف « قلائد العقيان » هذين البيتين لأبي جعفر النبي العمري ، وأحدهما غالط من قبل اشتباه نسبهما ، والفرقة بينهما مستوفاة في تأليفي المسمى بـ « هداية المعتسف في المؤلف والمختلف » انتهى .

وأبو جعفر ابن عبد الولي المذكور أحرقة القنيطور - لعنه الله تعالى - حين تغلبه بالروم على بكئسية . قال ابن الأثير : وذلك في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وقيل : إن إحراقه كان سنة تسعين وأربعمائة ، انتهى .

٥١٥ - وقال أبو العباس القيجاطي فيما أنشده له ابن الطليسان ٣ :

ليسَ الخمولُ بعارٍ على امرئٍ ذي جلالِ
 فليلهُ القدرِ تخفَى وتلك خَيْرُ الليالي

١ ب : الوجد .

٢ التكملة : ٢٤ ؛ وفي م : وكتب أبو جعفر ابن عبد المولى إلى أحمد البكئسي ؛ وانظر ج ٣ : ٤٨٧ .

٣ التكملة : ٤٦ .

٥١٦ - وقال أبو محمد ابن جحاف المَعافري البِلنْسِي ١ :

أقولُ وقد خوّفوني القِرانَ وما هو من شرّه كائنُ
ذنوبي أخافُ وأما القِرانُ فإِنِّي مِن شرّه آمِنُ

وأبوه أبو أحمد هو المحرّق بيلنسية كما ذكرناه في غير هذا الموضع .

٥١٧ - وقال أبو العباس المالقي ٢ :

وبينَ ضلوعي للصبابةِ لوعةٌ بحكمِ الهوى تقضي عليّ ولا أقضي
جنى ناظري منها على القلبِ ما جنى فيا مَنْ رأى بعضاً يُعِينُ على بعضِ

٥١٨ - ودخل أبو القاسم ابن عبد المنعم ، وكان أزرق وسيماً ، ومعه أبو
عبد الله الشاطبي وأبو عثمان سعيد بن قوشرة ، على صاحب كتاب « مشاهد
الأفكار في مأخذ التُّظَّار » فقال ابن قوشرة :

عابوه بِالزَّرَقِ الذي يَجفونهِ والماءُ أزرقُ والسنانُ كذلكا

فقال الشاطبي :

والماءُ يُهدي للنفوسِ حياتها والرمحُ يشرعُ للمنون مسالكا

فقال أبو بكر ابن طاهر صاحب كتاب « المشاهد » :

وكذلك في أجفانه سببُ الردى لكنْ أرى طيبَ الحياة هنالكا

وهذا من بارع الإجازة ، وكَمْ لأهلِ الأندلس من مثلِ هذا الديقاج
الخُسْرَوانِي ، رحمهم الله تعالى وسامحهم .

١ التكملة : ٥٦ .

٢ التكملة : ٦٩ .

٥١٩ - وكتب الشيخ الإمام العالم العلامة أبو عبد الله محمد بن الصائغ الأندلسي التحوي عند قول الحريري^١ «أما أن يُعززا بثالث» ما نصه : قد جيء لهما بثالث ورابع في قافيتهما . وهو قول بعض الفضلاء :

ما الأمة الكعاء بين الورى كسليم حرّ أتى ملامه
فمه إذا استجديت من قول لا فالحرُّ لا يملأ منها قمه
ثم قال : وبخامس وسادس :

انقد مهوى أزره فأننى مه يا عنولي في الذي انقدمه
مندمه قتل المعنى فلا ترسل سهام اللحظ تأمن دمه

قلت : رأيت في المغرب^٢ في هذا المعنى ما ينيف على سبعين بيتاً كلتها مساجلة لبيبي الحريري ، رحمه الله تعالى^٣ .

٥٢٠ - وقال أبو بكر عبادة الشاعر في أبي بكر والد الوزير أبي الوليد ابن زيلون :

أي ركن من الرياسة هيفاً وجموم من المكارم غيفاً
حملوه من بلدة نحو أخرى كي يوافقوا به ثراه الأريفاً
مثل حمل السحاب ماء طيباً لتداوي به مكاناً مريضاً

وكان المذكور توفي في ضيعة له . ونقل تابوته إلى قرطبة فدفن في الربض سنة ٤٠٥ ، وولد سنة ٣٠٤ .

٥٢١ - وقال أبو بكر ابن قزمان صاحب الموشحات^٤ :

١ ق : قول بيبي الحريري .
٢ أكبر الظن أنه يعني هنا بلاد المغرب لا كتاب المغرب .
٣ انظر الذيل والتكملة ٤ : ٤٩ - ٥٣ حيث أورد نماذج من هذه المساجلة لبيبي الحريري .
٤ الأصح أن يقول : صاحب الأزجال .

وعهدي بالشبابِ وحُسنِ قَدَي
 فصرْتُ اليومَ منحنيًا كَأَنِّي
 حكي ألفَ ابنِ مُقلَّةٍ في الكتابِ
 أفتتَشُّ في الترابِ على شبابي

وقال^١ :

يا ربَّ يومٍ زارني فيه مَنْ
 ذو شَفَّةٍ لَمِيَاءٍ معسولةٍ
 أطلع من غُرَّتِه كوكبا
 ينشعُ من خَدَّيهِ ماءُ الصبا
 قلتُ له هَبْ لي بها قبلةً
 فقال لي مبتسماً مَرِحَبًا
 فذقتُ شيئاً لم أذقُ مثلهُ
 لله ما أحلى وما أعذبا
 أسعدني الله بإسعادِهِ
 يا شقوتي يا شقوتي لو أبى

قال لسان الدين : كان ابن قزمان نسيجَ وَحَدِهٍ أديباً وظرفاً ولؤذعية وشهرة ، قال ابن عبد الملك : كان أديباً بارعاً ، حلو الكلام ، مليح التندير ، مبرزاً في نظم الزجل^٢ ، قال لسان الدين : وهذه الطريقة الزجلية بديعة تنحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيِّق على الشاعر سلوكه ، وبلغ فيها أبو بكر ، رحمه الله تعالى ، مبلغاً حَجَّرَه اللهُ عن سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها المُعلِّم ، والمبتدئ فيها والمتمم .

وقال الفتح في حقه^٣ : مبرز في البيان ، ومُحَرِّزٌ للسُّبْقِ عند تسابق الأعيان ، اشتمل عليه المتوكِّل على الله فرقاؤه^٤ إلى مجالس ، وكساه ملابس ، فامتطى أسْمَى الرتب وتَبَوَّأَهَا ، ونال أسنى الخَطَطِ^٥ وما تَمَلَّأَهَا ، وقد أثبتُّ

١ م : وقال المذكور أيضاً في زيارة الحبيب .

٢ قال لسان . . . الزجل : سقطت هذه العبارة من ق .

٣ القلائد : ١٨٧ .

٤ القلائد : الخصل .

٥ القلائد : اشتمالاً أرقاه إل . . .

٦ القلائد : الخطوظ .

له ما يُعلم به رفيع قدره^١ ، ويُعرف كيف أساء له الزمان بغدّره ، كقوله :
 ركبوا السيولَ من الخيولِ وركبوا فوقَ العوالي السُمُرِ زُرُقَ نطافِ
 وتجلّوا الغدرانَ من ماذِيهِمْ مرتجّةً إلا على الأكتافِ^٢
 والمأذِيّ : العَسَل ، والنطاف : جمع النطفة ، وهي الماء الصافي قل أو كثر.

٥٢٢ - [تقول من المطمح]

1 - وقال الفقيه أبو بكر ابن القوطية صاحب «الأفعال» في اللغة
 والغريب ، في زمن الربيع^٣ :

ضحك الثرى وبدا لك استبشاره^٤ فاخضرَ شاربُه^٥ وطرَّ حِذارُه^٦
 ورتتَ حدائقه^٧ وزررَ نبتُه^٨ وتعطرت^٩ أنواره^{١٠} وثمراره^{١١}
 واهترَّ ذابيلُ كلِّ ماء^{١٢} قرارة^{١٣} لما أتى منطلعا^{١٤} آذاره^{١٥}
 وتعمّست^{١٦} صلحُ الرُّبى بنباته^{١٧} وترنمت^{١٨} من عجمة^{١٩} أطياره^{٢٠}

وقال في المطمح في حق ابن القوطية المذكور^٦ : إنه ممن له سلف ، وثنية
 كلتها شرف ، وهو أحد المجتهدين في الطلب ، والمشتهرين بالعلم والأدب ،
 والمتدبين للعلم والتصنيف ، والمرتبين له بحسن الترتيب والتأليف ، وكان له
 شعر نبيه ، وأكثره أوصاف وتشبيه ، انتهى .

2 - وقال القاضي الأجل^٧ بونس بن عبد الله بن مغيث^٨ :

١ القلائد : ما تعلم به حقيقة قدره .

٢ ب : الأعطاف .

٣ المطمح : ٥٩ ، والبديع : ٢٠ .

٤ المطمح : ودنت . . . وآزر . . . ؛ البديع : وربت . . . وآزر . . . وتعطرت .

٥ البديع : كل نبت .

٦ المطمح : ٥٨ .

٧ المطمح : ٥٩ .

أتوا حسبةً إذ قيل جدّ نُحوله فلم يبقَ من لحمٍ عليه ولا عظمٍ .
فعادوا قميصاً في فراشٍ فلم يروا^١ ولا لمسوا شيئاً يدلُّ على جسمٍ .
طواه الهوى في ثوبٍ سقمٍ من الضنى وليس بمحسوسٍ بعينٍ ولا وهمٍ .

وقال في المطمح فيه : إنّه قاضي الجماعة بقرطبة ، فاضل ورع مبرز في
النسك والزهد ، دائم الأرق في التخشع والسهاد ، مع التحقق بالعلم والتمييز
بجملة^٢ ، والتحيز إلى فئمة الورع وأهله ، وله تأليف في التصوف والزهد^٣ ، منها
كتاب « المتقطعين إلى الله » وكتاب « المجتهدين » وأشعار في هذا المعنى ، منها
قوله :

فررتُ إليك من ظلمي لنفسي وأوحشني العبادُ وأنت أنسي
قصدتُ إليك متقطعاً غريباً لتؤنسَ وحلتي في قعر رمسي
وللعظمى من الحاجاتِ عندي قصدتُ وأنت تعلمُ سرَّ نفسي

ولما أراد المستنصر بالله غزو الروم تقدّم إلى أبي محمد والده بالكون في
صحبته ، ومسايرته في غزواته ، فاعتذر بعذر يجده ، وألم لا ينجده ، فقال له
الحكم : إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب
الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعقبت من الغزاة ، وجازيته أفضل المجازاة ،
فأجابه إليه على أن يؤلفه بالقصر ، فزعم أنّه رجل مزور ، وأن ذلك الموضع
ممتنع على من يلمُّ به ويزور ، فألّفه بدار الملك المطلّة على النهر ، وأكمله فيما
دون شهر ، وتوفي والمستنصر بعد في غزاته^٤ .

١ م ق ب : فلم يجد .

٢ المطمح : والتمييز بفضله .

٣ المطمح : وله تصانيف في الزهد والتصوف .

٤ في الأصول : وتوفي المستنصر إذ ذاك ؛ وهو خطأ واضح لأن المستنصر توفي سنة ٣٦٦ ؛ وفي
المطمح : وتوفي بعد المستنصر في غزاته .

3 - وقال ابن سيده صاحب « المحكم » يخاطب إقبال الدولة :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى سبيل^١ فإن الأمن في ذلك واليمنا

قال في الملمح^١ : الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن سيده إمام في اللغة والعربية ، وهُمام في الفنة الأدبية ، وله في ذلك أوضاع ، لأفهام أخلافها استدرار واسترضاع ، حررها تحريراً ، وأعاد طرّف الذكاء بها قريراً ، وكان منقطعاً إلى الموفق صاحب دائية ، وبها أدرك أمانيه ، ووجد تجرده للعلم وفراغه ، وتفرد بتلك الإراغة ، ولا سيما كتابه المسمى بالمحكم ، فإنه أبدع كتاب^٢ وأحكم ، ولما مات الموفق راثش جتاحة ، ومثبت غرره وأوضاحه ، خاف من ابنه إقبال الدولة ، وأطاف به مكروهاً^٣ بعض من كان حوله ، إذ أهل الطلب كحيات مساورة ، ففر إلى بعض الأعمال المجاورة ، وكتب إليه منها مستعظماً :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى
فتنضى هموم^١ طلّحت خطوبها
غريب^٢ نأى أهلوه عنه^٣ وشقه
فيا ملك^٤ الأملاك^٥ إني محلأ
تحققت^٦ مكروهاً فأقبلت^٧ شاكياً
وإن تتأكد^٨ في دمي لك نية^٩
إذا ما غدا من حرّ سيفك بارداً
وهل هي إلا ساعة^{١٠} ثم^{١١} بعدها

سبيل^١ فإن الأمن في ذلك واليمنا
ولا غارباً^٢ يبقين^٣ منه ولا متنا
هواهم^٤ فأمسى لا يقر^٥ ولا يهنا
عن الورد^٦ لا عنه أذاد^٧ ولا أدنى
لعمري^٨ أمأذون^٩ لعلك أن يعنى
فإني^{١٠} سيف^{١١} لا أحب^{١٢} له جفنا
فقدماً^{١٣} غدا من برد نعماكم^{١٤} سخنا
ستقرع^{١٥} ما عمّرت^{١٦} من ندم^{١٧} سننا

١ الملمح : ٦٠ .

٢ الملمح : كتاب في الفنة ؛ م : في فنه .

٣ الملمح : مكروه .

وما لي من دهري حياةً أذها فتجعلها نُعمى عليّ وتمتًا
إذا ميتةً أرضتك عنا فهاتها حبيبٌ إلينا ما رضيت به عنا

4 - وقال الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد الأندلسي المخزومي المالقي^١ :

صبرٌ فؤادك للمحبوبٍ منزلةٌ سَمُّ الخياطِ مجالٌ للمحبِّينِ
ولا تسامحٌ بغيضاً في معاشرَةٍ فقلِّما تسعُ الدنيا بغيضينِ

وله :

الصبرُ أولى بوقارِ الفتي من قلَّتْ يهتكُ سترَ الوقارِ
مَنْ لزمَ الصبرَ على حالةٍ كانَ على أيتامِهِ بالخيارِ

وقال في المطمح فيه : إنَّه عالمٌ مُتفرِّسٌ ، وفقهه مُدرِّسٌ ، وأستاذٌ متجردٌ^٢ ،
وإمامٌ لأهل الأندلس مجودٌ ، وأمَّا الأدب فكان جُلَّ شِرعته ، ورأس بغيته ،
مع فضلٍ وحسن طريفةٍ ، وجدِّ في جميع الأمور وحقيقةً ، انتهى .

د - وقال المحدث الحافظ أبو عمر ابن عبد البر يوصي ابنه بمقصورة^٣ :

تَجافَ عن الدنيا وهونٌ لقدرها ووفَّ سبيلَ الدين بالعروة الوثقى

١ المطمح : ٦٠ - ٦١ ؛ وفي م لم يرو هذين البيتين له وأورد بدلها قوله :

أهل الحرابة والفساد من الورى يعزون في التشبيه للذكار
مرآهم ذكراً إذا ما أبصروا فوق الجفوع وفي ذرى الأسوار
لو عم فضل الله جملة خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار

وقوله : الصبر أولى بوقار الفتي

والأولان وردا في ج ٣ : ٢٦٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٧ ، والتاليان وردا في ج ٣ : ٣٩٨ .

٢ المطمح : مجود .

٣ المطمح : ٦٢ ، وترجمة ابن عبد البر : ٦١ .

وسارعُ بتقوى الله مرآً وجهرةً
ولا تنسَ شكرَ الله في كلِّ نعمةٍ
فَدَعُ عَنْكَ مَا لَا حَظَّ فِيهِ لِعَاقِلٍ
وَشَحَّ بِأَيَّامٍ بَقِيْنَ قَلَائِلٍ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَمَرَ يَمْضِي مَوْلِيَاً
نَحْوُضُ وَنَلْهُو غَفْلَةً وَجَهَالَةً
تَوَاصَلْنَا فِيهِ الْخَوَادِثُ بِالرَّدَى
عَجِبْتُ لِنَفْسٍ تَبْصُرُ الْحَقَّ بَيِّنَاً
وَتَسْعَى لِمَا فِيهِ عَلَيْهَا مَضْرَّةٌ
ذَنُوبِي أَخْشَاهَا وَلَسْتُ بِأَيْسَ
وَإِنْ كَانَ رَبِّي غَافِرًا ذَنْبِ مَنْ يَشَاءُ
فَلَا ذِمَّةَ أَقْوَى هُدَيْتَ مِنَ التَّقْوَى
يَمُنُّ بِهَا فَالشُّكْرُ مُسْتَجَلِبُ النُّعْمَى
فَإِنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ أَبْلَجُ لَا يَنْفَى
وَعَمْرٍ قَصِيرٌ لَا يَدُومُ وَلَا يَبْقَى
فَجِدَّتْهُ تَبَلَى وَمَدَّتْهُ تَفَى
وَنَشَرُ أَعْمَالًا وَأَعْمَارَنَا تُطْوَى
وَتَتَابُنَا فِيهِ النُّوَابِثُ بِالْبَلْوَى
لَدَيْهَا وَتَأْبَى أَنْ تَفَارِقَ مَا تَهْوَى
وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْ سَوْفَ تَجْزَى بِمَا تَسْعَى
وَرَبِّي أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ وَأَنْ يُرْجَى
فَإِنِّي لَا أُدْرِي أَلْأَكْرَمُ أَمْ أَخْزَى

وقال في المطمح^١ : الفقيه الإمام العالم الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، إمام الأندلس وعالمها ، الذي التاحت به معالمها ، صحح المتن والسند ، وميز المرسل من المسند ، وفرق بين الموصول والقاطع ، وكسا الملة منه نوراً ساطعاً ، حصر الرواة ، وأحصى الضعفاء منهم والثقات ، وجدد في تصحيح السقيم ، وجدد منه ما كان كالكهف والرقيم ، مع معلقات العلل ، وإرهاق ذلك العلل ، والتنبيه والتوقيف ، والإتقان والتشيف ، وشرح المغفل ، واستلراك المغفل ، وله فنون هي للشريعة رتاج ، وفي مفرق الملة تاج ، أشهرت للحديث ظبي ، وفرعت لمعرفته ربي ، وهبت لفهمه شمال^٢ وصبا ، وشفقت منه وصبا ، وكان ثقة ، والأنفس على تفضيله متفقة ، وأما أدبه فلا تُعبّرُ

١ م : وقال في حقه .

٢ المطمح : شمالا .

لجته ، ولا تُدحض حُجته ، وله شعر لم نجد منه إلا ما نفث به أنفه ، وأقصى^١
فيه عن معرفة ، فمن ذلك قوله - وقد دخل إشبيلية فلم يلقَ فيها مبرة ، ولم يلقَ
من أهلها تهللَ أسيرةً ، فأقام بها حتى أخلقه مقامه ، وأطبقه اغتمامه ، فارتحل
وقال :

تنكَّرَ مَنْ كُنَّا نُسْرُ بِقَرْبِهِ وعاد زعافاً بَعْدَما كانَ سلسلا
وَحَقُّ بِلْجَارِهِ لَمْ يُوَافِقْهُ جَارُهُ ولا لآمتهُ الدارُ أن يتحوَّلَا
بُلِيَتْ بِمَحْصٍ وَالْمَقَامُ بِيْلِدَةٍ طويلاً لعمري مَخْلُقُ يورث البيلي
إِذَا هَانَ حُرٌّ عِنْدَ قَوْمٍ أَتَاهُمْ ولم يئأ عنهم كان أعمى وأجهلا
وَلَمْ تُضْرَبِ الْأَمْثَالُ إِلَّا لِعَالِمٍ وما عوتبَ الإنسانُ إلا ليعقلا

6 - وقال الفقيه أبو بكر ابن أبي اللوس^٢ :

إِلَيْكَ أبا يحيى مَدَدْتُ يَدَ الْمُنَى وقَدِمْأَغْدَتْ عَن جودِ غَيْرِكَ تُقْبِضُ
وَكَانَتْ كَنُورِ الْعَيْنِ يَمْعُ بِالْفَسْجَى فلَمَّا دَعَاهُ الصَّبْحُ لَبَّاهُ يَنْهَضُ

وقال في المَطْمَح : إنَّه من أبلدِ النَّاسِ خَطِّاً ، وأصحهم نَقْلاً وَضَبْطاً ،
اشتهر بالإقراء ، واقتصر بذلك على الأمراء ، ولم ينحطْ لسواهم ، ومطل
الناسَ بذلك ولَوَاهم ، وكان كثيرَ التحوُّلِ - عظيمَ التجوُّلِ - لا يستقر في بلد ،
ولا يستظهر على حرمانه يجلِّد ، فقدفته النوى ، وطرده عن كل ثوا ، ثم
استقر آخر عمره بأغبات ، وبها مات ، وكان له شعر بديع يصونه أبداً ، ولا
يمدَّ به يدأ . أخبرني مَنْ^٣ دخل عليه بالمريَّة فرآه في غاية الإملاق ، وهو في
ثياب أخلاق . وقد تواری في منزله تواری المذنب ، وقعد عن الناس قعود

١ المَطْمَح : وأوسى .

٢ المَطْمَح : ٦٤ ، وفي ق : ابن اللوس ، وانظر ترجمته في المَطْمَح : ٦٣ .

٣ م : أخبرني من أتق به أنه .

مجتنب ، فلما علم ما هو فيه ، وترفعه عن بجثته ، عاتبه في ذلك الاعتزال ،
 وأخذته حتى استترله بفيض الاستتال ، وقال له : هلا كتبت إلى المعتصم ،
 فما في ذلك ما يصم ، فكتب إليه : إليك أبا يحيى مددت يد المني - البيتين ،
 انتهى .

7 - وقال الفقيه القاضي الفاضل أبو الفضل ابن الأعلم ، حين ألقه وأتاب ،
 وودع ذلك الجتاب ، وتزهّد وتنسك ، وتمسك من طاعة الله بما تمسك : وتذكر
 يوماً يتجرد من أمله ، وينفرد فيه بعمله :

الموتُ يشغلُ ذكراً	عن كلِّ معلومٍ سواه
فأعمرُ له ربَّعَ أدكاً	رك في العشيّة والغداة
واكحلُ به طرفَ اعتبا	رك طولَ أيامِ الحياه
قبل ارتكاضِ النفس ما	بين الترائبِ واللّهاه
فيقالُ هذا جعفرُ	رهنٌ بما كسبت يداه
عصفتُ به ریحُ المنو	ن فصيرتهُ كما تراه
فضعوه في أكفانِه	ودعوه يجني ما جناه
وتمتعوا بمتاع	المخزونِ واحووا ما حواه
يا منظرأ مستبشعاً	بلغ الكتابُ به مداه
لُقيتُ فيه بشارة	تشفي فؤادي من جواه
ولقيتُ بعدك خيرَ من	تباه ربّي واجتباه
في دارِ حَقْضٍ ما اشتهدتُ	نفسُ المقيمِ بها أتاه

وقال في المطمح : إنّه كهلُ الطريقة ، وفنّى الحقيقة ، تدرّع الصيانة ،

١ المطمح : ٦٦ ، وتبدأ ترجمته ص : ٦٤ .

وبرع في الورع والديانة ، وتماسك عن الدنيا عتافاً ، وما تماسك^١ التماساً بأهلها
 والنفاء ، فاعتقل النهى ، وتنقل في مراتبها حتى استقر فيها في السها ، وعطل
 أيام الشباب ، ومطل فيها سعاد وزينب والرباب ، إلا ساعات وقفتها على المدام ،
 وعطفها إلى الندام ، حتى تخلّى عن ذلك واترك ، وأدرك من المعلومات ما
 أدرك ، وتعرّى من الشبهات ، وسرى إلى الرشد مستيقظاً من تلك السنات ،
 وله تصرف في شتى الفنون ، وتقدم في معرفة المقروض والمسنون ، وأما
 الأدب فلم يجاره في ميّدانه أحد ، ولا استولى على إحسانه فيه حصّر ولا حدّ ،
 وجدّه أبو الحجاج الأعم هو خلّد منه ما خلّد ، ومنه تقلّد ما تقلّد ، وقد
 أثبت لأبي الفضل هذا ما يسقيك ماء الإحسان زلالاً ، ويريك سحر البيان حلالاً ،
 فمن ذلك ما كتب به إليّ ، وقد مررت على شنت مربة بعدما رحل عنها وانتقل ،
 واعتقل من نوانا^٢ وبتيننا ما اعتقل ، وشنت مربة هذه داره ، وبها كل هلاله
 وإيداره ، وفيها استقصي ، وشيم مضاهوه وانتضي ، فالتقينا بها على ظهر ،
 وتعاطينا ذكر ذلك الدهر ، فجددت من شوقه ، ما كان قد شبّ عن طوقه ،
 فرامني على الإقامة ، وسامني على ذلك بكل كرامة ، فأبيت إلا النوى ، وانثيت
 عن الثوا ، فودعني ، ودفع إلي تلك القطعة حين شيعني :

بشراي أطلعت السعود على	آفاق أنسي بدرها كعلا
وكسا أديم الأرض منه سناً	فكست بسائطها به حلاً
إيه أبا نصر ، وكم زمن	قصر اذكارك عندي الأمل
هل تذكرن والعهد ينجلي	هل تذكرن أيامنا الأولا
أيام نعر في أعنتنا	ونجر من أبرادنا خيلا
ونخل روض الأنس مؤتفاً	وتحل شمس مرادنا الحملا

١ المطح : وما تماك .

٢ ب : نوانا .

ونرى لياالينا مساعفةً تدعو إلينا رفقنا الجفلي
زمنٌ نقول على تذكره ما تم حتى قيلَ قد رحلاً
عرضت لزورتكم وما عرضت إلا لتمحقَ كلَّ ما فعلاً

ووافيته عشيةً من العشايا أيام ائتلافنا ، وعودنا إلى مجلس الطلب واختلافنا ،
فرايته مستشرفاً متطوعاً ، يرتاد موضعاً يقيم به لثغور الأنس مرتشفاً ولثديه
مرتضعاً ، فحين مقلي^١ ، تقلدني إليه واعتقلي ، وملنا إلى روضة قد سئدس
الربيعُ في بساطها ، ودبجَ الزهر درآنك أوساطها ، وأشعرت النفوسَ فيها
بسرورها وانبساطها ، فأقمنا بها نتعاطى كؤوس أخبار ، ونهادى أحاديثَ
جهايزة وأخبار ، إلى أن نثر زعفران العشي ، وأذهب الأنس خوف العالم
الوحشي ، فقامت وقام ، وعودُ الرعب من ألسنتنا ما كان استقام ، وقال :

وعشية كالسيفِ إلا حده بسطَ الربيعُ بها لنعلي خدهُ
عاطيتُ كأسَ الأنسِ فيها واحداً ما ضره أن كان جمعاً وحدهُ

وتنزه يوماً بحديقة من حدائق الحضرة قد اطررد نهرها ، وتوقد زهرها ،
والريحُ يسقطه فينظم بلبنة الماء ، ويتبسم به فتحاله كصفحة خضرة السماء ،
فقال :

انظر إلى الأزهار كيف تطلعتُ بسماوة الروضِ المَجُودِ نُجوما
وتساقطتُ فكانَ مسترقاً دنا للسمع فانقضتُ عليه رُجوما
وإلى مسيلِ الماء قد رقمتُ به صَنَعُ الرياحِ من الحبابِ رُقوما
ترمي الرياحُ لها نثيراً زهره فتمده في شاطئيه رقيما

وله يصف قلم يراعة ، ويزرع في صفته أعظم براعة :

١ ب : رمقي .

ومفهف ذليق صليب المكسر سبب لنيل المطلب المتعذر
 متألّق تنيك صفرة لونه بقديم صحبته لآل الأصفر
 ما ضره أن كان كعب يراعة وبحكمه اطردت كعوب السمهري

وله عندما شارف الكهولة ، واستأنف قطع صرة كانت موصولة :

أما أنا فقد ارعويتُ عن الصبا وعضضتُ من ندمٍ عليه بناني
 فأطعتُ نصّاحي ورُبَّ نصيحة جاءوا بها فلججتُ في العصيان
 أيامَ أسحبُ من ذيولِ شيبتي مَرِحاً وأعثرُ في فضولِ عناني
 وأجلُّ كأمي أن تُرى موضوعةً فعلى يدي أو في يديّ ندماي
 أيامَ أحيا بالغواني والغنا وأموتُ بين الراح والريحان
 في فتيةٍ فرضوا اتصالَ هواهمُ فمناهمُ دنٌ من الأدنان
 هزتُ علاهم أريجياتُ الصبا فهي النسيمُ وهم غصونُ البان
 من كلِّ مخلوع الأعتة لم يُبلِّ في غيهِ بمصارفِ الأزمان

إلى أن قال : ومن نثره يصف فرساً : انظر إليه سليم الأديم ، كريم
 القديم ، كأنما نشأ بين الغبراء واليحموم^١ ، نجم إذا بدا ، ووهم إذا عدا ،
 يستقبل بغزال ، ويستدبر برال ، ويتحلّى بشيات^٢ تقسيمات الجمال .

وله يصف سرجاً : بزة جياذ ، ومركب أجواد ، جميل الظاهر ، رحيب
 ما بين القادمة والآخر ، كأنما قدّ من الخلود أديمه ، واختص بإتقان الحُبك
 تقويمه .

وله في وصف لجام : متناسب الأشلاء ، صريح الانتماء ، إلى ثريّ السماء ،
 فكلّه نكال ، وسائرهِ جمال .

١ م ب : والنجوم .

٢ ب : شيبات ؛ المطيح ؛ بشتات .

وله في وصف رمح : مُطَرَّد الكعوب ، صحيح اتصال الغالب والمغلوب ،
أخ ينوب كلما استنيب ويصيب .
وله في وصف قميص : كافوري الأديم ، بابلي الرسوم ، تباشر منه الجسوم ،
ما يباشر الروض من النسيم .
وله في وصف بغل : مُقْرِف^١ النسب ، مستخبر الشرف ، آمن الكعب ،
إن ركب امتنع اعتماله ، أو ركب استقل به أخواله .
وله في وصف حمار : وثيق المفاصل ، عتيق^٢ النهضة إذا وتت^٣ المراسل ،
انتهى ببعض اختصار .

8 - وقال الأديب الشاعر أبو عمر^٢ يوسف بن هرون الكندي ، المعروف
بالرمادي^٣ :

أومى لتقبيل البساط خنوعاً	فوضعتُ خدتي في التراب خضوعاً
ما كان مذهبه الخنوعَ لعبده	إلاّ زيادةً قلبه تقطيعاً
قولوا لمن أخذ الفؤادَ مسلماً	يمنّ عليّ برده مصدوعاً
العبدُ قد يعصي ، وأحلفُ أنني	ما كنتُ إلاّ سامعاً ومطيعاً
مولاي يحيى في حياة كاسمه	وأنا أموتُ صبايةً وولوعاً
لا تنكروا غيثَ الدموعِ فكلُّ ما	ينحلُّ من جسمي يكونُ دموعاً

والرمادي المذكور عرّف به غير واحد ، منهم الحافظ أبو عبد الله الحميدي
في كتابه « جنوة المقتبس » وقال^٤ : أظن أن أحد آبائه كان من أهل الرمادة ،
وهي موضع بالمغرب ، وهو قرطبي ، كثير الشعر ، سريع القول ، مشهور عند

١ م ق ب : مترف .

٢ ق : أبو عمرو .

٣ المطمح : ٧١ .

٤ جنوة المقتبس : ٣٤٦ .

الخاصة والعامة هنالك ، لسلوكه في فنون من المنظوم والمثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فُتِحَ الشعر بِكِنْدَةَ ، وَخُتِمَ بِكِنْدَةَ ، يعنون امرأ القيس والمنيبي ويوسف بن هرون ، على أن في كون المنبي من كِنْدَةَ القبيلة كلاماً مشهوراً .

وأخذ أبو عمر ابن عبد البر عن الرمادي هذا قطعة من شعره ، وضمَّنها بعض تأليفه .

قال ابن حيَّان : توفي الرمادي سنة ٤٠٣ ، وذكر ابن سعيد في « المغرب » أن الرمادي اكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر يحيى بن هذيل الكفيف عالم أدباء الأندلس ، وهو القائل رحمه الله تعالى :

لا تلمني على الوقوفِ بدارٍ أهلها صيَّروا السَّقامَ ضجيجي
جعلوا لي إلى هواهم سبيلاً ثمَّ سدُّوا عليَّ بابَ الرجوعِ .

وروى الرمادي عن أبي عليّ كتاب « النوادر » ومدح أبا علي بقصيدة كما أشرنا إليه في غير هذا الموضع .

وقال في المطمح^١ : إنَّه شاعر مُفْلِقٌ ، انفرج له من الصناعة المُغْلَقُ ، ومَمَّضٌ له برقها المؤتلق ، وسال بها طبعه كالماء المندفق ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق ، فتارة يُحزِنُ وأخرى يُسهلُ ، وفي كليهما بالبديع يعلُّ وينهل ، فاشتهر عند الخاصَّة والعامة بانطباعه في الفريقين ، وإبداعه في الطريقتين ، وكان هو وأبو الطيب متعاصرين ، وعلى الصناعة متغايرين ، وكلاهما من كِنْدَةَ ، وما منهما إلا من اقتدح في الإحسان زَنَدَةَ ، وتمادى بأبي عمر^٢ ، طَلَّقُ العُمرُ ، حتى أفرده صاحبه ونديمه ، وهريقَ شبابه واستشن أديمه ،

١ المطمح : ٦٩ .

٢ ق ب والمطمح : ص ٥٥ .

ففارق تلك الأيام وبهجتها ، وأدرك الفتنة فخاض بلحتها ، وأقام فرقاً من هيجانها ،
 شرقاً بأشجانها ، ولحقته فيها فاقة نهكتته ، وبعدت عنه الإفاقة حتى أهلكته ،
 وقد أثبت من محاسنه ما يعجبك سرده ، ولا يمكنك نقده ، فمن ذلك قوله :

شطت نواهم بشمس في هواجهم لولا تالأؤها في ليلهن عسوا
 اشكت محاسنها عيني وقد غلرت لأنها بضمير القلب تنجمش
 شعر ووجه تبارى في اختلافهما بحسن هذا وذاك الروم والحباش
 شككت في سقمي منها أفي فرشي منها نكست وإلا الطيف والقرش

إلى أن قال : وكان كلفاً بفتى نصراني استسهل^١ لباس زنتاره ، والخلود معه
 في ناره ، وخلق بروده لمسوحه ، وتسوغ الأخذ عن مسيحه^٢ ، وراح في
 بيعته ، وغدا من شيعته ، ولم يشرب نصيبه ، حتى حط عليه صليبه ، فقال :

أدرها مثل ريقك ثم صلب كعادتهم^٣ على وهمي وكاسي
 فيقضى ما أمرت به اجتلاباً لسروري وزاد خضوع^٤ راسي

وله في مثله :

ورأيت فوق النحر در عاً فاقعاً من زعفران
 فزجرته لونا سقا مي بالنوى ، والزجر شاني
 يا من نأى عني كما تنأى العيون^٥ الفرقدان
 فأرى بعيني الفرقدي ن ولا أراه ولا يراني

١ المطح : استحسن .

٢ خطأ في الأصلين ؛ وأثبتنا عبارة المطح .

٣ المطح : كعادتكم .

٤ المطح : فقضى . . . خنوع ؛ م : خنوع .

٥ المطح : يتأى لعيني .

لا قُدِّرَتْ لكَ أوبةٌ حتى يَؤوبَ القارظانِ
هل ثمَّ إلا الموتُ فر دأ لا تكونُ منيَّتانِ

وله أيضاً :

اشربِ الكاسِ يا نصيرُ وهاتِ إنَّ هذا النهارَ منُ حسناتي
بأبي غرَّةٌ ترى الشخصَ فيها في صفاءِ أصفى من المرآةِ
تترعُ^١ الناسِ نحوها بازدحامِ كازدحامِ الحجيجِ في عَرَقاتِ
هاتها يا نصيرُ إنَّا اجتمعنا بقلوبِ في الدينِ مختلفاتِ
إنما نحنُ في مجالسِ لهوٍ نشربُ الراحَ ثمَّ أنتِ مواتي
فإذا ما انقضتِ ذنابةُ ذا اللّهِ و^٢ اعتمدنا مواضعَ الصلواتِ
لومضى الدهرُ دونَ راحٍ وقصيفِ لعددنا هذا من السيئاتِ

وشاعت عنه أشعار في دولة الخلافة^٣ وأهلها ، سدّد إليهم صائبات نبلها ،
وسقاهم كؤوس نهلها ، أوغرت عليه الصُّلور ، ونفرت^٤ عليه المنايا ولكن
لم يساعدها المقذور ، فسجنه الخليفةُ دهرأ ، وأسكنه^٥ من النكبةِ وعراً ، فاستعطفه
أثناء ذلك واستلطفه ، وأجناه كل زهر من الإحسان وأقطفه ، فما أصغى إليه ،
ولا ألغى موجدته عليه ، وله في السجن أشعار صرّح فيها بيئته ، وأفصح
فيها عن جُلّ الخطب لفقد صبره ونكته ، فمن ذلك قوله :

لك الأمنُ من شجورٍ يزيدُ تشوئي

-
- ١ ق : تترع ؛ المطمح : ترع ؛ م : ترع .
٢ المطمح : ذنان على الهو ؛ م : ذنانات ذا الهو .
٣ المطمح : الخليفة .
٤ المطمح : ونفرت .
٥ المطمح : وأسلكه .

ومنها :

فوافوا بنا الزهراء في حالِ خالعِ الـ
وحوليَ من أهلِ التأديبِ مأمٌ^١
فلو أنْ في عيني الحمامِ كروضها
ونادى حمامي مهجتي لتقلقت^٢
أعيني إن كانت للدمعيّ فضلةً
فلو ساعدتْ قالتْ أمنَ عُدَّةِ الأسي

أيمّة^١ لاستيفائهم في التوثقِ
ولا جؤذراً إلا بثوبٍ مُشققِ
وإن كان في ألوانه غير مشفقِ
فهلا أجابتْ وهوَ عندي لمحقِ
تثبتُ صبري ساعةً فتدققِ
تنقتْ دمومي أم من البحر تستقي

ومنها :

وقالت تظنُّ الدهرَ يجمع بيننا
ولكنّي فيما زجرتُ بمقلتي
فقد كانت الأشفارُ في مثلِ بُعدنا
أباكيةً يوماً ولم يأتِ وقتُهُ
إلى أن قال : وله أيضاً :

فقلتُ لها مَنْ لي بظنِّ محققِ
زجرتُ اجتماعَ الشملِ بعد التفرقِ
فلما التقتُ بالطيفِ قالتْ سنلتقي
سينفدُ قبلَ اليومِ دمك فارقتي

على كبري تهمي السحابُ وتندرفُ
كأنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسلي
ألا ظعننْ ليلى وبان قطينها
وآنستُ في وجه الصباحِ ليينها
وأقربُ عهدٍ رشفةً بلسّ الحشا
وكانت على خوفٍ فولّتْ كأنّها

ومن جزعي تبكي الحمامُ وتهتفُ
وتلك على فقدي نوائحُ هتفُ
ولكنّي باقٍ فلوموا وعنّفوا
نحولاً كأنَّ الصبحَ مثلي مدتفُ
فعاد شتاءً بارداً وهو صيفُ
من الردفِ في قيدِ الخلاخلِ ترسفُ

١ المطع : حلة ثلاثم .

٢ المطع : فتناقلت .

وله :

قَبَّلْتَهُ قُدَّامَ قَسِيْسِهِ شَرِبْتُ كَاسَاتٍ بِتَقْدِيْسِهِ
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ فَرَطِ شَوْقِي قَرَعُ نَاقُوسِهِ

وسُجِنَ مَعَهُ غَلامٌ مِنْ أَوْلَادِ الْعَبِيدِ فِيهِ مَجَالٌ ، وَفِي نَفْسٍ مُتَأَمِّلَةٍ مِنْ لَوْعَتِهِ
أَوْجَالٌ ، فَكُتِبَ يَخاطِبُ الْمُوَكَّلَ بِالسَّجْنِ بِقِطْعَةٍ مِنْهَا :

جَلِيْسُكَ مَمَّنْ أَتَلَفَ الْحَبُّ قَلْبَهُ وَيَلْدَعُ قَلْبِي حَرَقَةٌ دُونَهَا الْجَمْرُ
هَلالٌ وَفِي غَيْرِ السَّماءِ طَلُوعُهُ وَرِيْمٌ وَلَكِنْ لَيْسَ مَسْكَنُهُ الْقَفْرُ
تَأَمَّلْتُ عَيْنِيهِ فَخَامِرُنِي السَّكْرُ وَلَا شَكَّ فِي أَنْ الْعُيُونَ هِيَ الْحَمْرُ
أَنَا طَقَهُ كَيْما يَقولُ ، وَإِنَّمَا أُنَاطِقُهُ عَمداً لِيَبْتَثِرَ الدُّرُ
أَنَا عِبْدُهُ وَهُوَ الْمَلِيكُ كَمَا اسْمُهُ فلي مِنْهُ شَطْرٌ كَاملٌ وَلهُ شَطْرُ

انتهى باختصار .

9 - وقال محمد بن هانيء^١ :

قَدَّ مَرَرْنَا عَلى مَغَانِيكَ تِلْكَ فَرَأَيْنا بِها مِشابِهَ مَنكَ
عَارِضَتْنَا الْمَها الْخِواذِلُ سِرْباً عِنْدَ أَجْرا عِها فَلَمَّ نَسَلِ عَنكَ
لَا يُرَعُ لِلْمَها بِذِكْرِكَ مِربٌ أَشْبَهَتْكَ فِي الوَصْفِ إِنْ لَمْ تَكُنْكَ
كُنْ عَذِيري لَقَدْ رَأَيْتُ مَعاجِي يَوْمَ تَبْكِي بِالْجُرْعِ وَلِهي^٢ وَأَبْكِي
بِجَنسِينَ مَرَجَّعٍ وَتَشكَّ وَأَنْسِينَ مَوْجِعٍ كَتَشكِي

وقال صاحب المطمح في حقّه : الأديب أبو القاسم محمد بن هانيء ، ذخر^٣ .

١ المطمح : ٧٧ ، وترجمته ص : ٧٤ .

٢ المطمح : وجدأ .

٣ المطمح : علق .

خطير ، وروضُ أدبِ مطير ، غاص في طلب الغريب حتى أخرج درة
المكنون ، وبهترج بافتنانه فيه كلَّ فنون ، وله نظم تتمنى الثريا أن تتوج به
وتقلد ، ويودُّ البلرُّ أن يكتب ما اخترع فيه وولد ، زهت به الأندلس وتاهت ،
وحاسنت ببدائعه الأشمس وباهت ، فحسد المغرب في المشرق ، وغصَّ به
من العراق وشرق ، غير أنه نبت به أكنافها ، وشمخت عليه آناقها ،
وبرئت منه ، وزويت الخيرات فيها عنه ، لأنه سلك مسلك المعري ، وتجرد
من التدين وعري ، وأبدى الغلو ، وتعدى الحق المجلو ، فمجته الأنفس ،
وأزعجت الأندلس ، فخرج على غير اختيار ، وما عرج على هذه الديار ،
إلى أن وصل الزاب واتصل بجعفر ابن الأندلسية ، مأوى تلك الجنسية ، فناهيك
من سعد ورد عليه فكرع ، ومن باب ولج فيه وما قرع ، فاسترجع عنده
شبابه ، واتجع وبَّله وربابه ، وتلقاه بتأهيل ورُحْب ، وسقاها صوب تلك
السُّحب ، فأفرط في مدحه فيه في الغلو وزاد ، وفرغ عنده تلك الزاد ، ولم
يتورع ، ولا ثناه ذو ورع ، وله بدائع يتحير فيها ويبحار ، ويخال لرقتها أنها
أسحار ، فإنه اعتمد التهذيب والتحرير ، واتبع في أغراضه الفرزدق مع جرير ،
وأما تشبيهاته فخرق فيها المعتاد ، وما شاء منها اقتاد ، وقد أثبت له ما تحين
له الأسماع ، ولا تتمكن منه الأطماع ، فمن ذلك قوله :

أليتنا إذ أرسلتْ وارداً وحفاً وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شتفاً
وبات لنا ساقٍ يقومُ على الدجى بشمعةٍ صبيحٍ لا تقطُ ولا تطفأ
أغنُّ غضيضٌ خصف اللينُ قدَّه وثقلتِ الصهباءُ أجفانهُ الوطفا
ولم يُبقِ إرعاشُ المدام لهُ يداً ولم يُبقِ إعناتُ الثني لهُ عطفاً
نزيفٌ نضاه السكرُ إلا ارتجاجةً إذا كلَّ عنها الحصرُ حملها الردفا
يقولون حِقْفٌ فوقهُ خيزرانةُ أما يعرفونَ الخيزرانةَ والحقفا
جعلنا حشايانا ثيابَ مُدامنا وقدَّتْ لنا الأزهارُ من جلدها الحفا

فمن كبد توحى إلى كبد هوى ومن شفة تُومي إلى شفة رَشفا

ومنها :

كَأَنَّ السَّمَاكِينَ الَّذِينَ تَرَاهُمَا
فَذَا رَامِحٌ يَهْوِي إِلَيْهِ سَنَانُهُ
كَأَنَّ سُهَيْلًا فِي مَطَالِعِ أَفْقِهِ
كَأَنَّ بَنِي نَعَشٍ وَنَعَشًا مَطَافِلُ
كَأَنَّ سُهَاهَا عَاشِقٌ بَيْنَ عُوْدٍ
كَأَنَّ قُدَامَى النَّسْرِ وَالنَّسْرِ وَقَعَ
كَأَنَّ أَخَاهُ حِينَ حَوْمَ طَائِرُ
كَأَنَّ ظِلَامَ اللَّيْلِ إِذْ مَالَ مَيْلَةً
كَأَنَّ عُمُودَ الصَّبْحِ خَاقَانُ مَعْشَرِ
كَأَنَّ لَوَاءَ الشَّمْسِ غُرَّةُ جَعْفَرِ

وله أيضاً :

فُتِّقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بَعْنِيرِ
وَجَنِيمٌ ثَمَرُ الْوَقَائِعِ يَانِعًا
أَبْتِي الْعَوَالِي السَّمْهَرِيَّةِ وَالسِّيُوعِ
مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمَطَاعُ كَأَنَّهُ
جَيْشٌ تَعَدَّ لَهُ اللَّيْثُ وَفَوْقَهَا
وَكَأَنَّمَا سَلَبَ الْقَشَاعِمَ رِيَشَهَا
لَحِقَ الْقَبُولَ مَعَ الدَّبُورِ وَسَارَ فِي

١ المطح : لطفًا .

٢ المطح : ورق .

في فتيه صدأ الحديد لباسهم
وكفاه من حب السماحة أنه
في عبقرى البيض جنة عبقرى
منها بموضع مقلة من محجر
ومنها :

نعاؤه من رحمة ، ولباسه
من جنة ، وعطاؤه من كوثر
وله أيضاً من قصيدة في جعفر بن علي :

ألا أيها الوادي المقدس بالندى^١ وأهل الندى قلبي إليك مشوق
ويا أيها القصر المنيف قبابه^٢ على الزاب لا يسدّد إليك طريق
ويا ملك الزاب الرفيع عماده^٣ بقيت لجمع المجد وهو فريق
فما أنس لا أنس الأمير إذا غدا تروع بحوراً فلكه وتروى^٤
ولا الجود يجري من صفيحة وجهه إذا كان من ذاك الجين شروق
وهزته للمجد حتى كأنما جرّت في سجاياه العذاب رحيق
أما وأبي تلك الشائل إنتها دليل على أن النجار عتيق
فكيف بصبر النفس عنه ودونه من الأرض مغبرّ الفجاج عميق
فكن كيف شاء الناس أو شئت دائماً فليس لهذا الملك غيرك فوق
ولا تشكر الدنيا على نيل رتبة فما نلتها إلا وأنت حقيق
وله من أخرى :

خليلي أين الزاب مني وجعفر
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم
لقد سرّني أنني أمر بباله
وجنات عدن بنت عنها وكوثر
فما راقه من جانب الأرض منظر
فيخبرني عنه^٣ بذلك مخبر

١ المطح : بالطوى .

٢ هذا الشطر مضطرب في الأصل ، ولا يزال - على التصويب - قلقاً .

٣ ب : فيخبره عني .

وقد ساعني أنني أراهُ ببلدة
وقد كان لي منه شفيعٌ مشفعٌ
أتى الناسُ أفواجاً إليك كأنما
فأنت لمن قد مزقَ اللهُ شمله

بها منسكٌ منه عظيمٌ ومشعرٌ
به يمحصُ الله الذنوبَ ويغفرُ
من الزاب بيتاً أو من الزاب محشرُ
ومعشرهُ والأهلَ أهلٌ ومعشرُ

وله أيضاً :

ألا طرقتنا والتجومُ ركودُ
وقد أعجلَ الفجرُ الملمعُ خطوها
سرت عاطلاً غضبي على الدرِّ وحدهُ
فما برحت إلا ومن سلك أدمعي
ويا حسنها في يومٍ نصت سوالفأ
ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا
ولا كالليالي ما هنَّ موائقُ
ولا كالمعز ابن النبي خليفةُ

وفي الحي أبقاظٌ وهن هجودُ
وفي أخريات الليل منه عمودُ
ولم يدر نحرٌ ما دهاهُ وجيدُ
قلائدُ في لباتها وعقودُ
تريحُ إلى أترابها وتعيدُ
وأنا بلينا والزمانُ جديدهُ
ولا كالغواني ما هنَّ عهودُ
لهُ الله بالفخر المين شهيدُ

وله من قصيدة يمدح بها يحيى بن علي بن رمان :

فقا بي فلامسرى سريتنا ولا تسري
فقا تئين أين ذا البرق منهم
لعل ثرى الوادي الذي كنت مرة
ولاً فما واد يسيل بعنبر
أكل كيناس بالصرير نظنه
وهل عجبوا أنني أسائل عنهم
وهل علموا أنني أيم أرضهم
ولي سكن تأتي الحوادث دونه

وإلا نرى مغي القطا الوارد الكدر
ومن أين تأتي الريح طيبة النشر
أزورهم فيه توضع للسفر
وإلا فما تدري الركاب ولا ندري
كيناس الأطباء الدعج والشدن العفر
وهم بين أحناء الجوانح والصدري
وما لي بها غير التعسف من خبر
فيعد عن عيني ويقرب من فكري

إذا ذكرته النفسُ جاشتُ بذكره
فلا تسألاني عن زماني الذي ختلا
وآليتُ لا أعطي الزمانَ مقادتي
حيني إليه ظاعناً ومُخيماً

وله من قصيدة :

فتكاتُ طرفكِ أم سيوفُ أبيكِ
أجلادُ مرهفةٍ وقتكُ محاجرُ
يا بنتَ ذي السيفِ الطويلِ نجادةُ
عينكِ أم مغناكِ موعدنا ، على

وله أيضاً :

أحبُّ بهاتيكِ القبابِ قبابا
فيها قلوبُ العاشقينَ تخالها
والله لولا أن يعنفي الهوى
لكسرتُ دملجها بضيقِ عناقها
بنمُ فلولا أن أُغَيِّرَ لمتي
لخضبتُ شيباً في مفارقِ لمتي
وخضبتُ مبيضَ الحدادِ عليكمُ
وإذا أردتَ على المشيبِ وفادةً
فلتأخذنَّ من الزمانِ حمامةً

ومنها :

قد طيبَ الأقطارَ طيبُ ثنائهِ
لم تُدني أرضُ إليك وإتما
من أجلِ ذا نجدِ الثغورِ عذابا
جئتُ السماءَ ففتحتُ أبوابا

ورأيتُ حولي وقدَ كلُّ قبيلةٍ
 أرضٌ وطئتُ الدرَّ من رضراضها
 حتَّى توهمتُ العراقَ الزابا
 والمسكَ ترباً والرياضَ جَنابا
 فحسبتها مَدَّتْ إليك رقابا
 هَزَمَ النبيُّ بقومك الأحزابا
 سدَّ الإمامُ بها الثغورَ وقبلها

وقال ابن هانئ يصف الأسطول :

مُعَطَّفَةُ الأعناقِ نحوَ مُتونِها
 إذا ما وردنَ الماءَ شوقاً لبرِّدهِ
 كما نَبَّهَتْ أَيْدِي الحِوَاةِ الأفاعيا
 صدرنَ ولم يشرنَ غرقاً صواديا
 ترى عقرباً منها على الماء ماشيا
 إذا أعملوا فيها المجاذيفَ سرعةً

10 - وقال الأديب أبو عمر أحمد بن فرج الجياني رحمه الله تعالى^١ :

وطائفةُ الوصالِ عدوتُ عنها
 بدتُ في الليلِ ساترةً ظلامِ الـ
 وما من لحظةٍ إلّا وفيها
 فملكتُ النهيَ جمّحاتٍ شوقي
 وبتُ بها مبيتَ الطفلِ يظما
 كذاك الروضُ ليس بهِ لمثلي
 ولستُ من السوائِمِ مهمّلاتِ
 وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
 دياجي منه^٢ سافرةً القناعِ
 إلى فِتْنِ القلوبِ لها دواعي
 لأجرى بالعفافِ على طباعي
 فيمعه العظامُ عن الرِّضَاعِ
 سوى نظري وشمِّ من متاعِ
 فأتحذَ الرياضَ من المراعي

وقال :

للروضِ حسنٌ فقِفْ عليهِ
 واصرفْ عنانَ الهوى إليهِ

١ الملمح : ٨٠ ، وقد سقطت القطعة من ب م ، وألحقت التالية بأشمار ابن هانئ ؛ وانظرها في

ج ٣ : ١٩٦ .

٢ ق : ظلام الليالي وهي ؛ الملمح : ساترة دياجي ظلام الليل .

٣ ق : حجاج .

أما ترى نرجساً نضيراً يرنو إليه بمقلتيه
نشرُ حبيبي على رباه وصفرتي فوق وجنتيه

وقال :

بمهلكة يستهلكُ الحمدُ عَفْوَهَا وَيَبْرِكُ شَمْلَ الْعِزْمِ وَهُوَ مُبَدَّدُ
ترى عاصفَ الأرواحِ فيها كأنَّها من الأبنِ تمشي ظالِعٌ أو مقيَّدُ

وقال فيه في المطمح : مُحَرِّزِ الحِصْلِ ، مُبَرِّزِ فِي كُلِّ مَعْنَى وَفَضْلٍ ١ ،
متميز بالإحسان ، مُنْتَمِ إلى فِئَةِ البَيَانِ ، ذِكِّي الحِلْدَ مع قوَّةِ العارِضَةِ ، والمنَّةِ
الناهضة ، حضر مجلس بعض القضاة وكان مشتهر الضبُّط متتهراً^٢ لمن انبسط فيه
بعض البسُّط ، حتى إن أهله لا يتكلمون فيه إلا رمزاً ، ولا يخاطبون إلا
لإيماء فلا تسمع لهم ركزاً ، فكلم في خصماً له كلاماً استطال به عليه لفضل
بيانه ، وطلاقة لسانه ، ففارق عادة المجلس في رفض الأنفة ، وخفض الحجّة
المؤتفة ، وهز عطفه وحسّر عن ساعده ، وأشار بيده ، ماداً بها لوجه خصمه ،
خارجاً عن حد المجلس ورسمه ، فهم الأعوان بتقويمه وتثقيفه ، ووزعهم
رهبة منه وخشية ، حتى تناوله القاضي بنفسه ، وقال له : مهلاً عافاك الله
اخفض صوتك : واقبض يدك ، ولا تفارق مركزك ، ولا تعد حقتك ،
وأقصر عن إدلالك^٣ ، فقال له : مهلاً يا قاضي ، أمن المخدرات أنا فأخفض
صوتي وأستر يدي ، وأعطي معاصمي لديك ؟ أم من الأنبياء أنت فلا يُجهر
بالقول عندك ؟ وذلك لم يجعله الله تعالى إلا لرسوله عليه الصلاة والسلام ، لقول
الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ -

١ المطمح : وفضل .

٢ في الأصول والمطمح : مشهراً .

٣ المطمح : انصتاك وإدلالك .

إلى قوله : لا تَشْعُرُونَ ﴿ (الجمرات : ٢) ولستَ به ولا كرامة ، وقد ذكر الله تعالى أن النفوس تُجَادِلُ في القيامة في موقف المَوَلِّ الذي لا يَعْدِلُهُ مَقَامٌ ، ولا يشبه انتقامه انتقام ، فقال تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا - إلى قوله تعالى : وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ (النحل : ١١١) . لقد تعديت طَوْرَكَ ، وَعَلَوْتَ في منزلك^١ ، وإنما البيان ، بعبارة اللسان ، وبالنطق يستبين الحق من الباطل ، ولا بد في الخصام ، من إفصاح الكلام . وقام وانصرف . فبُهِتَ القاضي ، ولم يُحِرْ جواباً . وكان في الدولة صدرأ من أعيانها ، وناسق درر تبيانها ، ونَفَقَ في سوقها وصنّف ، وقَرَطَ محاسنها وشنّف ، وله الكتاب الرائق ، المسمى بالحدائق ، وأدركه في الدولة سَعِي ، ورُقُص له فيها الرَّعِي ، واعتقله الخليفة وأوقفه في مكان أخيه فلم يَوْمِض له عَقْو ، ولم يشب كدر حاله صَقْو ، حتى قضى معتقلاً ، ونُعيَ للناثبات نعيًا مشكلاً ، وله في السجن أشعار كثيرة ، وأقوال مُبْدَعَات منيرة ، فمن ذلك ما أنشده ابن حزم يصف خيالاً طرّقه ، بعدما أسهره الوجد وأرقّه :

بأيتها أنا في الشُّكْرِ بادي بشُكْرِ الطَّيِّفِ أم شكر الرقادِ
سَرَى وازداد في أملي ولكن عَقِفْتُ فلم أجِدْ منه مُرَادِي
وما في النومِ من حرج ولكن جريت من العفافِ على اعتيادي

11 - وقال الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن الحدّاد^٢ :

يا غائباً خَطَرَاتُ القَلْبِ مَحْضَرُهُ الصبرُ بعدك شيءٌ لستُ أقدِرُهُ
تركتَ قلبي وأشواقي تُفَطِرُهُ ودَمْعُ عَيْني وأحدأقي تُحَدِّدُهُ
لو كنتَ تبصرُ في تدميرِ حالتنا إذَنْ لأشَفقتَ ممّا كنتَ تبصرُهُ

١ المطح : منزلتك .

٢ المطح : ٨١ ؛ وترجمته ص : ٨٠ - ٨٣ .

فالعينُ دونك لا تحلتي بلذتها والدهرُ بعلك لا يصفو تكدرُهُ
أخفي اشتياقي وما أطويه من أسفٍ عن البريةِ والآنفاسُ تُظهرُهُ

قال في المطمح : هو شاعر مباح ، وعلى أيلك الندى صادق ، لم ينطقه
إلا معن^١ أو صُمادح ، فلم يرمِ مثواهما ، ولم يتججع سواهما ، واقتصر
على المريّة ، واختصر قطع المهامه وخوض البرية ، فعكف فيها ينثر درره
في ذلك المنتدَى ، ويرشف أبداً ثغورَ ذلك الندَى ، مع تميزه بالعلم ،
وتحيزه إلى فئة الوقار والحلم ، وانتمائه إلى آية سلف ، ومذهبه لمناهب أهل
الشرف ، وكان له لسن^٢ ورؤاء يشهدان له بالنباهة ، ويقلدان كاهله ما شاء
من الوجاهة ، وقد أثبت له بعض ما قذفه من درره ، وفاه به من محاسن غرره ؛
فمن ذلك قوله :

إلى الموت رُجئى بعد حين فإن أمت فقد خُلدَت خُلدَ الزمان مناقبي
وذكري في الآفاقِ طار كأنه بكلّ لسانٍ طيبٍ عنراء كاعيبِ
ففي أيّ علمٍ لم تبرزُ سوابقي وفي أيّ فنٍّ لم تبرزُ كتابي

وحضر مجلس المعتصم بحضور ابن البانّة فأنشد فيه قصيداً أبرز به من عرى
الإحسان ما لم ينقصم واستمر فيها يستكمل بدائعها وقوافيها ، فإذا هو قد أغار
على قصيد ابن الحداد الذي أوّله :

عُجّ بالحمى حيثُ الطباءُ^٢ العينُ

فقال ابن الحداد مرتجلاً :

حاشا لعدلك يا ابن معنٍ أن يرى في سلكٍ غيري دريّ المكنونُ

١ المطمح : جود معن .

٢ المطمح : الحماس .

واليكها تشكو استلابَ مطيِّها
فاحكم لها واقطع لساناً لا يدا
عُجُ بالحمى حيثُ الطبَّاءُ العَيْنُ
فلسانُ من سَرَقَ القريضَ يمينُ
وله :

إنَّ المدامعَ والزفيرَ
فعلامَ أخفي ظاهراً
قد أعلنَّا ما في الضميرِ
هبْ لي الرضى من ساخطِ
سَقَمي عليَّ به ظهيرُ
قلبي بساخطِهِ الأسيرُ
وله أيضاً :

أيتها الواصلُ هجري
ليت شعري أيُّ نفعِ
أنا في هجرانِ صبري
لكَ في إدمانِ ضُرِّي
وله أيضاً :

يا مُشبهَ الملكِ الجَعَلِيَّ تسميةً
ومُخجَلِ القمرِ البدرِيَّ أنواراً
وله ١ :

تُطالبني بنفسي بما فيه صَوْنُها
ووالله ما يَخْفَى عليَّ ضلالها
فأعصي ويسطر شوقها فأطيعها
ولكنها تهوي فلا أستطيعها
وقال :

بِخافِقَةِ القَرطِينِ قَلْبِكَ خافِقُ
وفي مشرقِ الصُدُغينِ للبدرِ مغربُ
وعن خَرَسِ القَلْبِينِ دمعَكَ ناطقُ
ومِحَلَّةُ عَنهُ الطبَّاءُ السوابِقُ

١ سقط البيتان من ق .

وحشوقباب الرقم أحوى مقرطق^١ كما آس روض عطفه^٢ والقراطق^٣
انتهى باختصار .

12 - وقال الأسعد بن بليطة^١ :

برامة ريم^٢ زارني بعدما شطًا
رعى من أفانين الهوى ثمر الحشا
خيال لمرقوم غريب برامة^٣
فأكسبني من خدّها روضة الجنى
وبانت ذراعاها نجاداً لعاتقي
وسلّ اهتصاري غصنّها من مخصر^٤
وقد غاب كحلّ الليل^٥ في دمع فجره

ومنها في وصف الديك :

وقام لها ينعى الدجى ذو شقيقة^١
إذا صاح أصغى سمعه^٢ لأذانه
كأنّ أنوشروان^٣ أعلاه^٤ تاجه^٥
سبي حلّة الطاووس حسن لباسها

ومن غزلها :

غلامية^١ جاءت وقد جعل الدجى
فقلت أحاجبها بما في جفونها
محيرة العينين من غير سكرة^٢

١ الملمح : ٨٣ - ٨٤ .

٢ ب : العين .

أرى نكهة المسواك في حُمرة اللَّمي وشاربك المخضَّر بالمسكِ قد خطأ
عسى قُزحٌ قبَّلتِه فإخاله على الشفةِ الميَّاء قد جاء مخطئاً

وقال في المطمح في تحلية الأسعد : إنه سرَدَ البدائع أحسن السَرَد ،
وافترس المعاني كالأسد الورْد ، وأبرَزَ درر المحاسن من صدفها ، وحاز من
بجر الإجابة وشرفها ، ومدح ملوكاً طَوَّقهم من مدائحهم قلائد ، وزفَّ إليهم
منها خَرَائِد ، وجلاها عليهم كواعب ، بالألِّباب لواعب ، فأسالت العوَّارف ،
وما تقلصَ له من الحظوة ظلِّ وارف ، وقد أثبتُّ له ما يعترف بحقه ، ويُعرف
به مقدار سبِّقِه ، فمن ذلك قوله :

لو كنتَ شاهداً لنا عشيةَ أمسنا والمُزْنُ يبيِّنا بعيني مسنَّب
والشمسُ قد مدتْ أديمَ شعاعها في الأرضِ تجنحُ غير أن لم تغربِ
وقوله :

وتلذُّ تعذبي كأتكَ خلتي عوداً فليس يطيبُ ما لم يُحرقِ
وهو مأخوذ من قول ابن زيدون :

تظنونني كالعودِ حقاً وإنما تطيبُ لكم أنفاسه حينَ يُحرقُ
انتهى ببعض اختصار^١ .

13 - وقال الأديب أبو بكر عبادة بن ماء السماء ، وهو كما في المطمح^٢ :
من فحول الشعراء ، وأثمتهم الكبراء ، وكان متجعماً بشعره ، مسترجعاً من
صروف دهره ، وكانت له همَّة أطالت همَّه ، وأكثرت كمده وغمَّه :

١ هو كما في المطمح المطبوع دون اختصار .

٢ المطمح : ٨٤ .

يؤرقني الليلُ الذي أنا نائمُهُ فتجهلُ ما ألقى وطرفك عالمُهُ
وفي الهودج المرقوم وجهٌ طوى الحشا على الحزن فيه الحسن قد حار راقمه
إذا شاء وفقاً أرسل الحسنُ فرعَهُ يُضِلُّهُم عن منهجِ القصدِ فاحمه
أظلماً رأوا تقليده الدرُّ أم زرواً بتلك اللآلي أنهنَّ تئاتمه

14 - وقال الأديب أبو عبد الله ابن عائشة في فتي طرزت غلالة خده ،
وركب من عارضه سنان على صعدة قده ١ :

إذا كنت تهوى خدّه وهو روضةٌ به الوردُ غصُّ والأقاحُ مفلجُ
فزدُ كلكاً فيه وفرطَ صبايةٍ فقد زيدَ فيه من عذارٍ بنفسجُ

وحلّاه في المطمح بأن قال : اشتهر صوناً وعفافاً ، ولم يخطب بعقيلة
حضرة زفافاً ، فآثر انقباضاً وسكوناً ، واعتمد إليها ركوناً ، إلى أن أنهضه
أميرُ المسلمين إلى بساطه فهبَّ من مرقد خموله ، وشبَّ لبلوغ مأموله ، فبدا
منه في الحال أنزواء ، في تسم تلك الرسوم والتواء ، وعود عن مراتب الأعلام ،
وجمود لا يُحمد فيه ولا يُلام ، إلا أن أمير المسلمين ألقى عليه منه محبة ،
جلبت إليه مسرى الظهور ومهبة ، وكان له أدب واسع المدى ، يانع
كالزهر بلّله الندى ، ونظم مشرق الصفحة ، عبق التفحة ، إلا أنه قليلاً
ما كان يحلُّ ربه ، ويذيل له طبعه ، وقد أثبت له منه ما يدع الأبواب حائرة ،
والقلوب إليه طائرة ، فمن ذلك قوله في ليلة سمحت له بفتى كان بهواه ،
ونفحت له هبةً وصلَّ بردتُ جواه :

لله ليلٌ باتَ عندي به طوعَ يدي من مهجتي في يديه
وبتُ أسقيه كؤوس الطلأ ولم أزل أسهرُ شوقاً إليهِ
عاطيتهُ حمراء ممزوجةٌ كأنها تُعصرُ من وجتيةُ

١ المطمح : ٨٤ - ٨٦ .

وخرج من بلنسية يوماً إلى منية الوزير الأجل^١ أبي بكر ابن عبد العزيز ، وهي من أبداع منازل الدنيا ، وقد مدت عليها أذواحها الأفيا ، وأهدت إليها أزهارها العرفَ والرَّيَّا ، والنهر قد غص بمائه ، والروض قد خص بمثل أنجم سمائه . وكانت لبني عبد العزيز فيها أطراب ، تهاهم فيها من الأيام آراب ، فلبسوا فيها الأشرحى أبلوه . ونشروا فيها الأنسَ وطَوَّوه . أيام كانوا بذلك الألق طلوعاً ، لم تضمَّ عليهم النَّوْبُ ضلوعاً ، فقعده أبو عبد الله مع لُمة من الأدباء تحت دَوْحة من أذواحها ، فهبت ريح أنس من أرواحها : سطت بإعصارها . وأسقطت لؤلؤها على باسم أزهارها ، فقال :

ودوحة قد علَّتْ سماءَ تطلُّ أزهارها نجوما
هفا نسيمُ الصِّبَا عليها فأرسلتْ فوقنا رجوما
كأنما الجوّ غار لنا بدتْ فأغرى بها النسيما

وكان في زمان عطلته . ووقت اصفراره وعلته . ومقاساته من العيش أنكدته . ومن التخوف أجهدته . كثيراً ما ينشرح بجزيرة شُقر ويستريح . ويستطيب تلك الريح ، ويتجول في أجارع وادياها . وينقل من نوادياها إلى بَوادياها ، فإنها صحيحة الهواء ، قليلة الأدواء ، خَضيلة العُشْب والأزهار^١ . قد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور . والأيكُ قد نشرت ذوائبها على صفيحه ، والروض قد عطَّر جوانبه^٢ بريجه . وأبو إسحاق ابن خفاجة هو كان مترع نفسه . ومصرع أنسه . ففح له بالمنى عبق وشذا ، ومسح عن عيون مسرَّاته القنْدَى . وغدا على ما كان وراح ، وجرى متهافتاً في ميدان ذلك المراح . قريب عهدٍ بالقطام . ودهره ينقاد في خطام . فلما اشتعل رأسه شيباً ، وزرَّت عليه الكهولة جيباً . أقصر عن تلك الهنات . واستيقظ من تلك السَّنات . وشبَّ

١ المطبخ : زاهية الأزهار .

٢ المطبخ : جوانبها .

عن ذلك الطوق ، وأقصر عن الهوى والشوق ، وقنع بأدنى تحية ، وما يستشعره
في وصف تلك العهد من أريحية ، فقال :

ألا خلتاني والأسي والقوافيا أرددُها شجوي^١ وأجهشُ باكيا
أمن شخصاً للمسرةِ بادياً وأندبُ رسماً للشيبةِ باليا
تولّى الصبأ إلا تواليَ فكرةً قدحتُ بها زنداً وما زلتُ واريا
وقد بان حلوُ العيش إلا تعلقةً تحدثني عنها الأمانى^٢ خالياً
ويا بردَ هذا الماء هل منك قطرةٌ تهلُّ فيستسقى غمامكَ صاديا
وهيهات حالت دون حُزوي وأهلها ليالٍ وأيامٌ تُخالُ اللياليا
فقلْ في كبيرٍ عاده صائد الطبا إليهنَّ مهتاجاً وقد كان ساليا
فيا راكباً يستعملُ الخطو قاصداً ألا عَجُّ بشقيرٍ رائحاً أو مغاديا
وقف حيثُ سال النهرُ ينسابُ أرقماً وهبَّ نسيمُ الأيكِ ينفثُ راقيا
وقل لأثيلاتٍ هناك وأجرعِ سقيتِ أثيلاتٍ وحييتِ واديا
انتهى ببعض اختصار^٣ .

وابن عائشة أشهر من أن يطال في أمره ، وليس الخبر كالعيان .

٥٢٣ - وقال أبو عمرو يزيد بن عبد الله بن أبي خالد اللخمي الإشبيلي
الكاتب في فتح المهديّة سنة ٦٠٢ :

كم غادرَ الشعراءُ من مُترَدِّمٍ ذُخِرَتْ عظامه لخيرٍ مُعظَمِ
تبعاً للذخورِ الفتحِ فإنه جاءتْ له بخوارقٍ لم تُعلمِ
من كلِّ ساميةِ المنالِ إذا انتمتْ رَفَعَتْ إلى اليرموكِ صوتَ المتَمي

١ ب : شكوى ؛ م : شجوا .

٢ المطمح : خواليا .

٣ لم يختصر شيئاً من المطمح المطبوع .

وتوسّطت في النهروان بنسبةٍ كَرُمَتْ ففازت بالمحلّ الأكرمِ

قال ابن الأبار في «تحفة القادِم»^١ : هو صدر في نبهائها وأدبائها ، يعني إشبيلية ، وممن له قدر في منجبيها ونجباتها ، وإلى سلفه يُنسب المعقل المعروف بحجر أبي خالد^٢ ، وتوفي بها سنة ٦١٢ ، وأورد له قوله :

ويا للجوّاري المُشآت وحُسْنها طوائرَ بينَ الماءِ والجوِّ عوْماً
إذا نشرتْ في الجوِّ أجنحةً لها رأيتَ بهِ روضاً ونوراً مكمّماً
وإن لم تهجه الرّيحُ جاء مصافحاً فمدتْ له كفاً خضيباً ومعصماً
مجاذِفُ كالحياتِ مدّتْ رؤوسها على وجَلٍ في الماءِ كي ترويَ الظما
كما أسرعَتْ عدداً أناملُ حاسبٍ يقبضُ وبسطُ يسبقُ العينَ والقما
هي الهدبُ في أجفانٍ أكحلَّ أوطفٍ فهل صنعتْ من عندمٍ أو بكتْ دما

قال ابن الأبار : أجاد ما أراد في هذا الوصف ، وإن نظر إلى قول أبي عبد الله ابن الحداد يصف أسطول المعتصم بن صُمداح :

هام صرّف الردي بهامِ الأعادي أن سمّتْ نحوهم لها أجيادُ
وتراءتْ بشرعها كميونٍ دأبها مثلُ خائفها سهادُ
ذات هُدبٍ من المجاذيفِ حاكٍ هُدبَ باكٍ للدمعِ إسعادُ
حُممٌ فوقها من البيضِ نارٌ كلُّ من أرسلتْ عليه رمادُ
ومن الخطّ في يدي كلّ درٍ أليفٌ خطّها على البحرِ صادُ

قال : وما أحسن قول شيخنا أبي الحسن ابن حريق في هذا المعنى من قصيدة أنشدنيها :

١ تحفة القادِم : ١٢٠ وفي الأشار حتى قوله : انتهى ؛ والنص هنا أوفى بما هو في المقتضب .
٢ كذا في الأصول ؛ وفي التحفة : ابن أبي خالد .

وكأنما سكن الأرقامُ جوفها من عهدِ نوحٍ خشيةَ الطوفانِ
فلذا رأين الماءَ يطفحُ نضنضتُ من كلِّ خرْقٍ حيةً بلسانِ

قال : ولم يسبقهم إلى الإحسان ، وإنما سبقهم بالزمان ، عليُّ بن محمد
الإيادي التونسي في قوله :

شرعوا جوانبها مجاذفَ أتعبتُ شادي الرياح لها ولما تعبِ
تنصاعُ من كَثَبٍ كما نفر القطا طورا وتجتمع اجتماعَ الرَبْرَبِ
والبحرُ يجمعُ بينها فكأنته ليلٌ يقربُ عقرباً من عقربِ
وعلى جوانبها أسودُ خلاقه تخالُ في عددِ السلاحِ المذهبِ
وكأنما البحرُ استعارَ بزيمهم ثوبَ الجمالِ من الريحِ المُعجبِ

ومن هذه القصيدة الفريدة في ذكر الشراع :

ولها جناحٌ يُستعارُ يُطيرها طوعَ الرياحِ وراحة المتطربِ
يلعبها حدبُ العبابِ مطاره في كلِّ ليجٍ زاخرٍ معلولِ
يسمو بأخر في الهواءِ منصّبِ عريانَ منسرحِ الذؤابةِ شوذبِ
يتزلُّ الملاحُ منه ذؤابةً لو رام يركبها القطا لم يركبِ
وكأنما رامَ استراقَةَ مقعدِ للسمعِ إلا أنه لم يُشهبِ
وكأنما جينُ ابنِ داودِ هم ركبوا جوانبها بأعنفِ مركبِ
سجروا جواهرهم بينهم فتقاذفوا منها بالسُنِّ مارجِ متلهبِ
من كلِّ مسجونِ الحريقِ إذا انبرى من سجنه انصلت انصلات الكوكبِ
عريانِ يقدمهُ اللخجانُ كأنه صبَّحُ يكرُّ على ظلامِ غيبِ

ومن أولها :

١ م : وإن ؛ الصفحة : وإن كان .

أعجِبُ بأسطول الإمامِ محمدٍ ويحسُّه وزمانه المستغربِ
لبستُ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ يبدو لعينِ الناظرِ المتعجبِ
من كلِّ مشرفةٍ على ما قابلتُ إشرافَ صدرِ الأجلِ المنتصبِ
ومنها :

جوفاء تحملُ موكباً في جوفها يومَ الرهانِ وتستقلُّ بموكبِ
وهي طويلة من غرر القصائد ، وقد سرَدَ جملة منها صاحب « المناهج »
وغيره .

وقال أبو عمر القسطلِّي^١ :

وحال الموجُ بينَ بني سبيلٍ يطيرُ بهمُ إلى الغولِ ابنُ ماء
أغرُّ له جناحٌ من صباحٍ يرفرفُ فوقِ جنحٍ من سماء
وأخذه أبو إسحاق ابن خفاجة فقال^٢ :

وجاريةٍ ركبتُ بها ظلاماً يطيرُ من الصباحِ بها جناحُ
إذا الماءُ اطمأنَّ ورقٌ خصرأ علا من موجهِ ردفٍ رداحُ
وقد فغر الحِمَامُ هناكُ فاه وأتلعُ جيدهُ الأجلُ المتاحُ

ولا يخفك حُسنُ هذه العبارة الصقيلة المرأة ، فالله تعالى يرحم قائلها .
وقال ابن الأبار : وقد قلت أنا في ذلك :

يا حبيدا من بناتِ الماءِ سابحةً تَطْفُو لما شبَّ أهلُ النارِ تطفئهُ
تطيرها الريحُ غريباناً بأجنحةٍ حمائمِ البيضِ للأشراكِ ترزؤه

١ ديوانه : ٣٢٣ ورفغ الحجب ١ : ١٤٢ .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٣٨ .

من كل أدمم لا يُلْفَى به جَرَبٌ^١ فما لراكبه بالقارِ بهنؤه
يدعى غُرَاباً وللفَتْخَاءِ سرعته وهو ابن ماءٍ وللشاهين جُوْجُوْه

واجتمع ابن أبي خالد وأبو الحسن ابن الفضل الأديب عند أبي الحجاج ابن
مرطير الطيب بمحضرة مراکش ، وجرى ذكر قاضيتها حيثئذ أبي عمران موسى
ابن عمران بينهم ، وما كان عليه من القصور والبعد عما أتيج له ، وأوثر به ،
فقال أبو الحجاج :

ليس فيه من أبي موسى شبة^٢

فقال أبو الحسن :

فأبوه فِضَّةٌ وهو شبة^٣

فقال ابن أبي خالد :

كم دعاه إذ رآه عُرَّةٌ وأباه إذ دعاهُ يا أبة^٤

٥٢٤ - وقال أبو العباس الأعمى^٥ :

بهيمة لو جرى في الخليل أكبرها لقاتت الريح في الأحجال والنور^٦
تَجْرِي فللماء ساقا عائمٍ دربٍ وللرياح جناحا طائرٍ حَدْرٍ^٧
قد قَسَمْتَهَا يدُ التقدير^٨ بينهما على السواء فلم تسبح ولم تَطِيرِ

٥٢٥ - وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأسطول^٩ :

١ هو الأعمى التظيل ، انظر ديوانه : ٥١ .

٢ رواية الديوان :

٣ بهيمة لو ترفى كنه شرتها لقاتت الخليل في الأحجال والنور

٤ الديوان : ذكر .

٥ الديوان : التدبير .

٦ النخيرة (٢ : ٢٠٧) .

يا حسنها يوماً شهدتُ زفافها
ورقاء كانتْ أَيْكَةً فتصوّرتْ
حيثُ الغرابُ يجرُّ شملةً عَجْبِيهِ
من كلِّ لايِسَةِ الشَّبَابِ مُلَاءَةً
شهدتْ لها الأعيانُ أنْ شَوَاهِنَا
من كلِّ ناشرةٍ قوادمَ أجنُحِ
زأرتْ زئيرَ الأسدِ وهي صوامتٌ
ومجاذفٌ تحكي أرقامَ ربوةٍ

٥٢٦ - وقال ابن خفاجة ٢ :

سَقِيًّا لها من بطاحِ خَزْ
فما ترى غيرَ وجهِ شمسِ
ودَوَّخِ نهرِ بها مُطَلِّ
أطلَّ فيه عِذارُ ظَلِّ

وهو من بديع الشعر ، وكم لابن خفاجة من مثله .

٥٢٧ - [قطعة منقولة عن المغرب]

1 - وقال عبيد الله بن جعفر الإشبيلي ، وقد زار صاحباً له مرات ولم
يزره هو ، فكتب على بابه ٣ :

يا من يزارُ على بُعدِ المحلِّ ولا
زُرْ من يزوركِ واحترقِ قولَ عاذلةٍ
يَـزُورنا مرةً مِـنْ بَـيـنِ مَـراتِ
تقولِ عنكِ : فتى يوتى ولا ياتي

١ ب : حسرة ؛ ق : حرة ؛ وأثبتنا رواية م .
٢ ديوانه : ١٤٠ وقد مر البيتان ج ١ : ١٩ .
٣ ترجمته والبيتان الأولان في المغرب ١ : ٢٦٢ .

ومن مجونياته ، ساعه الله تعالى :

وأغيدَ لَيْسَ تعلوهُ الأمانِي ولو حكمتَ عَلَيهِ بِاشتطاطِ
سَقَيْتُ الرَّاحَ حتَى مالَ سكرًا ونامَ عَلَي النمارقِ والبساطِ
وأسلم لي على طول التجني وأمكني على فرط التعاطي
فأولجتِ المقادرُ جيدَ بكَرٍ ولا كفرانَ في سَمِّ الخياطِ
وغناني بصوتٍ من حشاه فأطربني وبالغِ في نشاطي
فما نَقَرُ المثلثِ والمثلاني بأطربَ من تلاحينِ الضراطِ
ولولا الريقُ لم أظفرُ بشيءٍ على عدمِ اهتبالي واحتياطي
فلا تسخرُ بريقٍ بَعْدَ هذا فإنَّ الريقَ مفتاحُ اللواطِ

2 - وقال أبو الحسن علي بن جحدر الزجال^١ :

كيفَ أصبحتَ أيهذا الحبيبُ نحن مَرَضَى الهوى وأنت الطيبُ
كلُّ قلبٍ إِلَيْكَ يهفو غرامًا ويحها يا علي^٢ منك القلوبُ
إن تَلَحَّ حَوَمَتُ عليك هيامًا أو تَغيبُ حنَّها عَلَيكَ الوجيبُ
غيرَ أَنِّي من بينهم مستريبٌ حينَ تبلو وليس لي ما يريبُ
كلُّ ما قد ألقاه منك ومني دونَ هذا له تُشَقُّ الجُيوبُ

3 - وقال أحمد المعروف بالكساد ، في موسى الذي كان يتغزل فيه شعراء

إشيلية^٣ :

ما لموسى قد خرَّ لله لَمًا فاض نوراً غشاه ضوء سناهُ
وأنا قد صُعِقْتُ من نور موسى لا أطيعُ الوقوفَ حينَ أراهُ

١ المغرب ١ : ٢٦٢ والفتح : ١٧٢ .

٢ هذه رواية الفتح ؛ وفي الأصول : وتجانى علي .

٣ ترجمة الكساد ومقطعاته في المغرب ١ : ٢٨٨ .

ولله درّه في رثاء موسى المذكور إذ قال :

فرّا إلى الجنة حوريتها وارفع الحسن من الأرض
وأصبح العشاق في مآتم بعضهم يبكي إلى بعض

وقوله فيه :

هتَفَ الناعي بشجور الأبد إذ نعى موسى بن عبد الصمد
ما عليهم ويحهم لو دفنوا في فؤادي قطعة من كبلي
ولقّب بالكساد لقوله :

وبيع الشعر في سوق الكساد

4 - وقال أبو القاسم ابن أبي طالب الحضرمي المنيشي^٢ :

صاغت يمين الرياح محكمة في نهر واضح الأسارير
فكلما ضاعفت به حلقاً قام لها القطر بالمسامير

5 - وقال أبو زيد عبد الرحمن العثماني ، وهو من بيت إمارة^٣ :

لا تستني عن حالي فهي هندي مثل حالي لا كنت يا من يراني
مكتني الأهل والأخلاء لما أن جفاني بعد الوصال زماني
فاعتبر بي ولا يفرّك دهر ليس منه ذو غبطة في أمان

6 - وقال أبو زكريا يحيى بن محمد الأركشي^٤ :

١ المغرب : رد .

٢ هو الملقب بمصا الأعمى لأنه كان في صحبة الأعمى التليلي ، انظر المغرب ١ : ٢٨٩ .

٣ ترجم ابن سعيد في القلح : ١٩٦ لعبد الرحمن العثماني وقال فيه : « كان من الخواص في جميع ما به تلبس » إلا أنه كناه أبا القاسم . ويبدو أن ترجمته سقطت من المغرب .

٤ ترجمة الأركشي في المغرب ١ : ٣١٦ والتكملة رقم : ٢٠٥٢ . وصلة الصلة : ١٨٤ .

لا حبّنا المالُ والإفضالُ يُتلفه والبخلُ يحميه والأقدارُ تعطيه

وقال :

لا تبكينَ لإخوانٍ تفارقهم فإنتي قبلك استخبرتُ إخواني
فما حمدتهمُ في حالِ قربهم فكيف في حالِ إبعادٍ وهجرانِ

7 - وقال أبو عمران موسى الطرياني لما دخلَ يومَ نيروز إلى بعض
الأكابر ، وعادتهم أن يصنعوا في مثل هذا اليوم مدائن من العجين لها صور
مستحسنة ، فنظر إلى صورة مدينة ، فأعجبه ، فقال له صاحب المجلس :
صفا وخّدها^١ :

مدينةٌ مسورةٌ تحارُ فيها السحرةُ
لم تبها إلاّ يدا عذراء أو مخدّرةُ
بدتُ عروساً تجتلي من درمكٍ مزعفرهُ
وما لها مفاتحٌ إلاّ البتان العشرةُ

8 - وقال أبو عمرو ابن حكيم^٢ :

حاشا لمن أملككم أن يخيبُ وينثني نحوَ العدا مستريبُ
هذا وكم أقرأني بيشركم ﴿ نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ ﴾

9 - وقال أبو الحسن علي بن الجعد القرموني^٣ :

إياكَ من زللِ اللسانِ فإنهُ قدَرُ النقي في لفظهِ المسموعِ

١ ترجمته وشعره في المغرب ١ : ٢٩٤ والقلح : ٢٠٢ ..

٢ ترجمة ابن حكيم وشعره في المغرب ١ : ٢٩٢ والقلح : ٢٠٠ ؛ وفي م : ابن حاكم .

٣ ترجمته في المغرب ١ : ٣٠٠ ، وقد جاءت هذه الفقرة في م بعد مقطعات ابن لبّال .

فالمرء يختبرُ الإِنَاءَ بِتَقْرِهِ ليرى الصحيحَ به من المصلوعِ

10 - وقال الفقيه أبو الحسن علي بن لبال في محبرة عناب محلاة بفضة^١

مُنْعَلَةٌ بِاللَّحْلِ ، مُلْجَمَةٌ بِالنَّسْرِ ، مجلولةٌ من الشَّفَقِ
كَأَنَّمَا حَبْرَهَا تَمِيعٌ فِي فُرْضَتِهَا سَائِلًا مِنَ الْفَسَقِ
فَأَنَّتْ مَهْمَا تَرَدُّ تَشْبَهَهَا فِي كُلِّ حَالٍ فَانظُرْ إِلَى الْأَنْقِ

وقال في محبرة ابنوس :

وَخَدِيمَةٌ لِلْعِلْمِ فِي أَحْسَانِهَا كَلَّفَ بِجَمْعِ حَرَامِهِ وَحِلَالِهِ
لَبَسَتْ رِذَاءَ اللَّيْلِ ثُمَّ تَوَشَّحَتْ بِنُجُومِهِ وَتَوَجَّتْ بِهَلَالِهِ

11 - وقال أبو جعفر أحمد الشريشي^٢ :

عَلَى حُسْنِ نَوْرِ الْبَاقِلَاءِ أَدْرَهُمَا عَلَى صَبِّ كَأَمِيٍّ خَمْرَةٍ وَجَفُونِ
يَذَكِّرُنِي بِمُلْتَقَى الْحَمَامِ وَتَارَةِ يُوَكِّدُ لِلْأَشْجَانِ شَهْلَ عَيُونِ

12 - وقال أبو العباس أحمد بن شكيل الشريشي^٣ :

تُفَاحَةٌ بِتُّ بِهَا لَيْلِي أَبْتَهَا سَرِّي وَالشُّكُوي
أَضْمُهُا مَعْتَقًا لِأَمَّا إِذَا ذَكَرْتُ خَدَّ مِنْ أَهْوَى

وقال :

تُفَاحَةٌ حَامِضَةٌ عَضَّهَا فِي ثَمَلٍ مِّنْ قَطَبِ الْوَجْهِا

١ المغرب ١ : ٣٠٣ ؛ والحاشية في مصادر ترجمته ؛ والذيل والنكلمة ٥ : ١٦٩ .

٢ ترجمة أحمد الشريشي في المغرب ١ : ٣٠٤ .

٣ انظر المغرب ١ : ٣٠٤ .

ولم أخلّ من قبلها محسناً يُجزى عليه العَضّ والنجها

13 - وقال أبو عمرو ابن غياث^١ :

وقالوا مشيبٌ قلتُ واعجبا لكم أينكرُ صبحٌ قد تخلّلَ غيها
وليسَ مشياً ما ترونَ وإنما كَبِتُ الصِّبَا لما جرى عادُ أشها

14 - وقال الوزير أبو بكر محمد بن ذي الوزارتين أبي مروان عبد الملك

ابن عبد العزيز يخاطب ابن عبلون^٢ :

في ذمّة الفضلِ والعلياء مُرتحلٌ فارقتُ صبري إذ فارقتُ موضعه
ضاعت به برهةٌ أرجاء قرطبة ثم استقلّ فسدّ الينُ مطلعَه
عنداً إلى المجد عني حين فارقتي ذلك الجلالُ فأعيا أن أشيعه
قد كنتُ أصحبه قلبي وأقلني ما كان أودعني عن أن أودعه

وفيهم يقول ابن عبلون :

بجورُ بلاغةٍ ونجومُ عزّ وأطوادُ رَأسٍ من جلالِ

15 - وقال الوزير الكاتب أبو القاسم ابن أبي بكر ابن عبد العزيز :

نديمي لا علمتُك من نديمٍ أدريها في دجى الليلِ البهيمِ
فخيرُ الأنسِ أنسٌ تحتَ سترٍ يُصانُ عن السفهٍ أو الخليمِ

16 - وقال الشاعر أبو عبد الله الجزيري^٣ :

في أمّ رأسي سرٌّ يبلى لكم بعدَ حينِ

١ انظر المغرب ١ : ٣٠٥ وترجمته في التكملة : ٦١٠ والصحفة : ١٢٩ والوافي ٤ : ١٠ .

٢ المغرب ١ : ٣٠٧ .

٣ المغرب ١ : ٣٢٣ .

لأَبْلُغَنَّ مَرَادِي إِنْ كَانَ سَعْدِي مُعِينِي
أَوْ لَا فَأَكْتُبُ مِمَّنْ سَعَى لِإِظْهَارِ دِينِ

وسبب قوله هذا أن بني عبد المؤمن لما غيروا رَسْمَ مَهْدِيَتِهِمْ، وصيروا الخلافة مُلْكًا ، وتوسَّعوا في الرفاهية ، وأهملوا حقَّ الرعية ، جعل يتسرَّ ، وقال هذه الأبيات ، وشاع سرّه في مدة ناصر بني عبد المؤمن ، فطلبه ، فلم يزل يتنقل مستخفياً مع أصحابه إلى أن حصل في حصن قولية من عمل مدينة بسطة ، فينما هو ذات يومٍ في جامعها مع أصحابه وهم يأكلون بطيخاً ويرمون قشره في صحن الجامع ، إذ أنكر ذلك رجل من العامة ، وقال لهم : ما تتقون الله تعالى ؟ ! تنهاونون بيت من بيوته ؟ فضحكوا منه ، واستهزأوا به ، وأهلُ تلك الجهة لا تحتمل شيئاً من ذلك ، فصاح بفتية من العامة ، فاجتمع جمع وحملوا إلى الوالي فكان عند الوالي مَنْ عرّفه ، فقتلوا جميعاً ، وأمر الناصر أن يُرفع عن جميع أرض قولية جميع تكاليف السلطان .

17 - ولَمَّا عَتَبَ المنصور بن أبي عامر على الكاتب عبد الملك الجزيري ، وسجنه في الزاهرة ، ثُمَّ صَفَحَ عَنْهُ ، قَالَ وَكَتَبَ بِهِ إِلَيْهِ ١ :

عَجِبْتُ مِنْ عَقْوِ أَبِي عَامِرٍ لَا بَدَّ أَنْ تَتَّبِعَهُ مِنْهُ
كَذَلِكَ اللَّهُ إِذَا مَا عَفَا عَنْ عَبْدِهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ
فَاسْتَحْسِنِ ذَلِكَ ، وَأَعَادِهِ إِلَى حَالِهِ .

وَقَالَ عَلَى لِسَانِ بَهَارِ الْعَامِرِيَةِ ، وَهُوَ الرَّجْسُ ٢ :

حَدَقُ الْحَسَانِ تَقِيرٌ لِي وَتَغَارُ وَتَضَلُّ فِي وَصْفِي النَّهْيِ وَتَحَارُ

١ المغرب ١ : ٣٢١ وقد مر البيتان (ج ١ : ٤١٩) منسويين لغيره .

٢ تقلمت هذه الأبيات والقطعتان بعدها ، ج ١ : ٥٣١ ، ٥٨٨ .

طلعت على قضيبي عيونٌ تئامني مثلَ العيونِ تحفُّها الأشْفارُ
وأخصُّ شيءٌ بي إذا شبهتهُ دُرٌّ تمنطقَ سلكه دینارُ
أنا نرجسٌ ، حقاً بهرتُ عقولهم ببدیع ترکیبی فقيلَ بهارُ

وقال في بنفسجها :

شهدتْ لتَوَارِ البنفسجِ ألسنٌ من لونه الأحمى ومن لِناعِهِ
بمِشابهِ الشَّعْرِ الأحمِ أعاره الـ قمرُ المنيرِ الطلقُ نورُ شعاعِهِ
ولربما جمد النجيجُ من الطلئِ في صارم المنصورِ يومِ قِرَاعِهِ
فحكاهُ غيرِ مخالفٍ في لونه لا في روائحه وطيبِ طباعِهِ

وقال في القمر حين جعل يخفي بالسحاب ويبدو أمام المنصور :

أرى بدر السماء يلوحُ حيناً فيظهرُ ثمَّ يلتحفُ السحابا
وذلك أنه لما تبدى وأبصر وجهك استحيا وغبابا

18 - وقال الحِجَارِي في « المسهب »¹ : سألت أبا الحسن علي بن حَقَّصِ
الجزيري أن ينشدني شيئاً من شعره ، فقال : يا أبا محمد ، إذا لم ينظم الإنسان
مثل قول ابن شرف :

لم يبقَ للجورِ في أيامكم أثرٌ إلا الذي في عيونِ الغيدِ من جورِ
فالأولى له أن يترك نظم الشعر . إلى أن خرجتُ معه يوماً إلى سيفِ الجزيرة
الخصراء ، فلقني غلاماً قد كلر رونقَ حسنه السفرُ ، وأثر في وجهه كآثار
الكلف في القمر ، فصافحه ، ثم قال :

بأبي النبي صافحته فتوردتُ وجناته وأناة نحوي قدُهُ

١ المغرب ١ : ٣٢٥ .

قمرٌ بدا ككَلَفِ السُّرى في خدّه لما توالى في الترحل جهدهُ
لكنّ معالِمُ حسنه تمت كما قد تم عن صدم الحسام فيرندهُ

فحفظتها من سمعه ، ثم قلت له : قد أخذت عنك من نظمك ، بغير شكرك ،
فضحك وقال : فاحفظ هذا ، وأنشد :

لا تقولنّ فلانٌ صاحبٌ قبلَ اختبارِ
وانظرُ ويحك تقدّ الـ ليلٍ فيه والنهارِ
أنا جرّبتُ فلم ألدُ فِ صديقاً باختيارِ

وأنشد :

كم قد بكرتُ إلى الرياضِ وقُضِبتُها قد ذكرتني موقفَ العشاقِ
يا حسنها والريحُ يلحفُ بعضها بعضاً كأعناقِ إلى أعناقِ
والوردُ خدٌّ والأفاحي ميسمٌ وغدا البهار ينوبُ عن أحداقِ
لم أنفصلُ عنها بكأسِ مُدامةٍ حتى حملتُ محاسنَ الأخلاقِ

19 - ولما كتب أبو الحسن ابن سعيد إلى الأديب القائل أبي العباس أحمد
ابن بلال يستدعيه ليوم أنس بقوله ١ :

أبا العباس لو أبصرت حولي ندامى بادروا العيش الهنيئاً
يُبيحون المدامَ ولا انتقادٌ وقارهمُ ويزدادون غيئاً
وهم مع ما بدالك من عفافٍ يجبّون الصبيسة والصبيبا
ويتهوونَ الثالثَ والثاني وشربَ الراح صباحاً أو عشياً
على الروض الذي يُهندي لطرفٍ وأنفٍ منظرأً بهجاً وريئاً
فلا تكلمِ السريَّ على ارتياحٍ حكى طرباً بجانبه سريئاً

١ المغرب ١ : ٣٢٦ والفتح : ٨٦ .

وبادرٌ نحوَ نادٍ ما خلا من نذاك فقد عهدتك لَوذَعِيًّا
أجابه بقوله :

أبَيْتَ سَوَى المَعَالِي يَا عَلِيًّا فَمَا تَنْفَكُ دَهْرَكَ أَرْبِحِيًّا
تَمِيلُ إِذَا النَسِيمُ سَرَى كغصنٍ وتسري للمكارم مَشْرِفِيًّا
وَمِرْتاحُ ارْتِياحاً لِلْمَثَانِي^١ وتقتنص الصبية والصبيا
وتَهْوَى الرَوْضَ قَلْدَهُ نَدَاهُ وألبسه مع الخللِ الحليًّا
وَإِنْ غَنَى الحَمَامُ فَلَإِ اصْطِبَارُ^٢ وَإِنْ خَفِقَ الخَلِيجُ فَنَيْتَ حَيًّا
تَذَكِّرُنِي الشَّبَابَ فَلَسْتُ أُدْرِي أصبَحاً حينَ تَذَكَّرُ أم عشيًّا
فَلَوْ أُدْرِكُنِي وَالغصنُ غَضُّ^٣ لأدركتَ الذي تهوى لَدَيَّا
وَلَمْ أَتْرُكْ وَحَقِّكَ قَدَرَ لِحَظٍ وقد ناديتني ذاك النديًّا

٥٢٨ ٢ - وقال بعض أهل الأندلس :

وَفَرَعٍ كَانَ يُوعِدُنِي بِأَسْرِ وَكَانَ القَلْبُ لَيْسَ لَهُ قَرَارُ
فَنَادَى وَجْهَهُ لَا خَوْفَ فَاسْكُنْ^٤ « كَلَامُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَهَارُ »

ولست على يقين أن قائلهما أندلسي ، غير أنني رأيت في كلام بعض
الأفاضل نسبتها لأهل الأندلس ، والله تعالى أعلم .

20 - وقال أبو الوليد القسطلي^٥ :

وَفَوْقَ الدَّوْحَةِ الغَنَا غَدِيرُ^٦ تَلَأُ صَفْحَةً وَسَجَا قَرَارًا
إِذَا مَا انْصَبَّ أَزْرَقَ مُسْتَقِيمًا تَدَوَّرَ فِي البَحِيرَةِ فَاسْتَدَارًا
يُجَرِّدُهُ فَمُ الأَنْبُوبِ صَلْتًا حَسَامًا ثُمَّ يُفْلِتُهُ سَوَارًا

١ م : بالثاني .

٢ ميزنا هذه القطعة برقم لأنها ليست من المغرب ثم يعود الترقيم إلى ما نقله المقرئ عن المغرب نفسه .

٣ المغرب ١: ٣٢٨ والتكملة رقم : ٢١٠١ وزاد المسافر : ١٥-١٩ وانظر الخريدة ١/٤ : ٤٤٣ .

21 - ولأبي كثير الطريفي يمدح الناصر بن المنصور^١ :

فُتُوحٌ لها يهترُّ شرقٌ ومغربٌ كما اطَّردتْ في السمهرية أكَعْبُ
تَجَلَّتْ على الدنيا شمسٌ منيرةٌ فلم يبقَ في ليلِ الكآبةِ غَيْهَبُ
أقام بها الإسلامُ شَدْوً مغرَدٍ وظلت بأرض الشرك بالخطبِ تخطبُ
فلا سمعَ إلا وهو قد مال نحوها ولا قلبَ إلا في مُناها يقلِّبُ

22 - وقال أبو عامر ابن الجلد^٢ :

الله ليلةٌ مشتاقٍ ظفرتُ بها قَطَعْتُهَا بوصولِ اللثمِ والقُبَلِ
نعمتُ فيها بأوتارٍ تعلقني أحلى من المنّ أو أمنيّةِ الغزلِ
أحبُّ إليَّ بها إذ كلها سحرٌ أراحتِ الصبَّ من عذري ومن عذلي

23 - وقال الكاتب أبو عبد الله محمد الشَّدي^٣ كاتب ملك إفريقية عبد

الواحد بن أبي حفص :

مدَّةٌ إليَّ الكاسَ من لحظةٍ لا يهوجُ الشَّرْبَ إلى الكاسِ
ومنذُ حيَّاني بآسٍ فلم أياسُ ولكن كان لي آمي
وقال لولا الناسُ قبَّلْتُه ما أشأمُ الناسَ على الناسِ

24 - وقال أبو بكر محمد بن الملح^٤ ، وهو من رجال النخيرة ، على لسان

حال سوار مذهب :

أنا من الفضةِ البيضاءِ خالصةٌ لكن دهنِي خطوبٌ غيرتْ جسدي

١ المغرب ١ : ٣١٩ واسمه عنده « كثير » ، والطريفي نسبة إلى جزيرة طريف .

٢ المغرب ١ : ٣٤٢ وبغية الوعاة : ٢٧٥ .

٣ لم يرد ذكره في المغرب في القسم الخاص يشلب .

٤ المغرب ١ : ٣٨٣ والقلائد : ١٨٧ والنخيرة (٢ : ١٨٢) ومسالك الأبطال : ٨ : ٢٥٧ .

علقتُ غصناً على أحوَى فأحسدني جَرِيّ الوشاح وهذي صفرةُ الحسدِ

وما أحسن قوله من قصيدة في المعتضد والد المعتمد :

غُرَّتُهُ الشمسُ والحيا يَدُهُ بينهما للتجيع قوسُ قَزَحُ

25 - وأمّا ابنه أبو القاسم¹ فهو من رجال « المسهب » وكان اشتغل أوّل أمره بالزهد وكتب التصوّف ، فقال له أبوه : يا بني ، هذا الأمر ينبغي أن يكون آخر العمر ، وأمّا الآن فينبغي أن تعاشر الأدباء والظرفاء ، وتأخذ نفسك بقول الشعر ، ومطالعة كتب الأدب ، فلمّا عاشرهم زيّنوا له الراح ، فتهتك في الخلاعة ، وفر إلى إشبيلية ، وتزوَّج بامرأة لا تليق بحاله ، وصار يضرب معها بالدف ، فكتب إليه أبوه :

يا سُخْنَةَ العَيْنِ يا بُنيًا ليتك ما كنتَ لي بُنيًا
أبكِتَ عيني ، أطلتَ حزني أمتّ ذكري وكان حيا
حطّطتَ قلدري وكان أعلى في كلِّ حالٍ من الثريا
أما كفاك الزنا ارتكاباً وشربُ مشمولة الحميا
حتى ضربتَ الدفوفَ جهراً وقلتَ للشرِّ جيءُ إليّ
فاليومَ أبكيكَ ملءَ عيني إن كان يُغني البكاءُ شيئاً

فأجاب أباه بقوله :

يا لائمَ الصبِّ في التصابي ما عنك يُغني البكاءُ شيئاً
أوجفتَ خيلَ العتابِ نحوي وقبلُ أوثبها إليّ
وقلتَ هذا قصيرُ عمري فأربحُ من الدهرِ ما تهياً
قد كنتُ أرجو المتابَ ممّا فتنتُ جهلاً بهِ وغياً

١ انظر المغرب ١ : ٢٨٤ .

لولا ثلاثُ شيوخُ سوء أنتَ وإبليسُ والحُمَيّا

26 - وقال أبو بكر محمد بن عبد القادر الشُّلبي^١ يستدعي :

فديتك باكرُ نحو قُبّةِ روضةٍ تسبحُ بها الأمواهُ والطيرُ تهتفُ
وقد طلعتُ شمسُ الدنانِ بأفقهَا ونحنُ لديها في انتظارك وقَفُ
فلا تتخلفُ ساعةً عن محلةٍ صلودك عمّن حلَّ فيها تخلفُ

27 - وقال أحو إمام نحاة الأندلس أبي محمد عبد الله بن السيد البطلانيّوسي ،

وهو أبو الحسن عليّ بن السيد^٢ :

يا رَبِّ ليلٍ قد هتكتُ حجابهُ بزجاجةٍ وقّادةٍ كالكوكبِ
يسعى بها ساقٍ أغنُ كأنها من خدّه ورُضابٍ فيه الأشنبِ
بلدانٍ بلرُ قد أمنتُ غروبهُ يسعى يبدرُ جانحٍ للمغربِ
فاذا نعمتَ برشّفٍ بديرٍ طالعٍ فانعمُ يبدرُ آخريّ لم يغربِ
حتى ترى زهرَ التجومِ كأنها حولَ المجرةِ رَبَّربٍ في مشربِ
والليلُ منخفُزٌ يطيرُ غرابهُ والصبحُ يطرده ييازُ أشهبِ

28 - ولما مدح أبو بكر محمد بن الروح الشُّلبي^٣ الأميرَ إبراهيمَ الذي

خطب به الفتح في القلائد ، وهو ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكان يُدلُّ عليه ويناديه ، بقصيدته التي أولها :

أنا شاعرُ الدنيا وأنتَ أميرُها فما لي لا يسْري إليّ سرورها

أشار الأمير إلى مضحك له كان حاضراً أن يحق له لقوله « أنا شاعر الدنيا »

١ لم ترد ترجمته في المغرب المطبوع بين رجال شلب .

٢ يد ابن السيد من شلب في الأصل (انظر المغرب ١ : ٣٨٥) ، وكل هذا يدل على أن المقرئ ينقل نقلاً متتابعاً عن نسخة من المغرب غير التي وصلتنا .

٣ المغرب ١ : ٣٨٦ .

فقال له ابن الروح : على من حبقت ؟ يعني أنه يحتمل أن يكون ذلك الفعل لقوله « أنا شاعر الدنيا » أو لقوله « وأنت أميرها » ، ففطن الأمير لما قصده ، وضحك وتغافل .

29 - وقال أبو بكر ابن المنخل الشلبي^١ :

كم ليلة دارت عليّ كواكبٌ للخمير تطلع ثم تغربُ في فمي
قبّلتها في كفّ مَنْ يسمي بها وخلطت قبلتها بقبلة معصم
وكانَ حُسنَ بنانه مع كأسه غيمٌ يشيرُ لنا ببعضِ الأنجم

30 - وقال ذو الوزارتين أبو بكر ابن عمّار^٢ :

قرأتُ كتابك مستشفعاً بوجهِ أبي الحُسنُ من رده
ومن قبّلِ فضّ ختام الكتاب قرأتِ الشفاعة في خده

وقال :

غزا القلوبَ غزالٌ حَجَّتْ إليه العيونُ
قد خطّ في الخلدِ نوناً وآخِرُ الحسنِ نونُ

قال الحجاري : وإكثار ابن عمار في المعذّرين وإحسانه فيهم يدلّك على أنه ، كما قيل عنه ، كان مشغولاً بالكاس ، والاستلقاء من غير نُعاس .

31 - وكان أبو الفضل ابن الأعلم^٣ أجمل الناس وأذكرهم^٤ في علم الأدب والنحو ، وأقرأ علم النحو قبل أن يلتحي ، فقال ابن صارة فيه :

١ المغرب ١ : ٣٨٧ والواقي ٢ : ٧ وزاد المسافر : ٨٧ والتكملة : ٤٩٦ .

٢ المغرب ١ : ٣٨٨ .

٣ المغرب ١ : ٣٩٦ .

٤ م : وأذكاهم .

أَكْرَمُ بِجَفْرِ اللَّيْبِ فَلَانَهُ ما زال يوضح مُشْكَلَ «الإبْصَاحِ»
 ماءَ الْجَمَالِ بِخَدِّهِ مَتَرَقِقُ فالعينُ منه تجولُ في ضَحْضَاحِ
 ما خَدُّهُ جَرَحَتْهُ عَيْنِي ، إِنَّمَا صَبَغَتْ غِلَالَتَهُ دِمَاءُ جِرَاحِي
 اللَّهُ زَايَ زَبْرَجْدٍ فِي عَسْجَدِ في جَوْهَرٍ فِي كَوْثَرٍ فِي رَاخِ
 ذِي طُرَّةٍ سَبْجِيَّةٍ ، ذِي غُرَّةٍ عَاجِيَّةٍ ، كَاللَّيْلِ وَالْإِصْبَاحِ
 رَشَأُ لَهُ خَدُّ الْبَرِيءِ وَلِحْظُهُ أبدأ شريكُ الموتِ في الأرواحِ

32 - وقال الرمادي ١ :

نوءٌ وَغَيْثٌ مُسْبَلٌ وقهوةٌ تَسَلْسَلُ
 تدورُ بَيْنَ فَتِيَّةٍ بخلقهم تَمَثَّلُ
 وَالْأَفْقُ مِنْ سَحَابِهِ طَلٌّ ضَعِيفٌ يَتَزَلُّ
 كَأَنَّهُ مِنْ فِضَّةٍ بُرَادَةٌ تَغْرِبَلُ

وقال ٢ :

بِلرِّ بَدَا يَجْمَلُ شَمْساً بَدَتْ وَخَدُّهَا فِي الْحَسَنِ مِنْ خَدِّهِ
 تَغْرُبُ فِي فِيهِ وَلَكِنَّهَا مِنْ بَعْدِ ذَا تَطَلُّعٍ فِي خَدِّهِ

33 - ومن نظم أبي الفضل ابن الأعلم السابق الذكر :

وعشيةٌ كَالسَيْفِ إِلَّا حَدَّهُ بَسَطَ الرِّيبُ بِهَا لِنَعْلِي خَدَّهُ
 عَاطَيْتُ كَأَسِّ الْأَنْسِ فِيهَا وَاحِدًا مَا ضَرَّهُ أَنْ كَانَ جَمْعًا وَاحِدَهُ

وهو جعفر ابن الوزير أبي بكر محمد ابن الأستاذ الأعلم ، من رجال « القلائد »

١ المغرب ١ : ٣٩٢ والأبيات في كتاب التشبيهات : ٣٦ .

٢ المغرب : ٣٩٣ . والبيتان للصنوبري في القوات ١ : ١١٢ وتهذيب ابن حساكر ١ : ٤٥٨

والوافي ٧ : ١٨٥ .

و « المسهب » و « سمط الجمان » ، وكان قاضي شنتميرية ، والأستاذ الأعلام هو إمام نخاعة زمانه أبو الحجاج يوسف بن عيسى من رجال « الصلة » و « المسهب » و « السمط » ، وهو شارح الأشعار الست ، ومن نظمه يخاطب المعتمد بن عباد :

يا من تملكني بالقول والعمل ومبليغي في الذي أملتُه أُملي
كيف الثناء وقد أعجزتني نعماً ما لي بشكري عليها الدهر من قبيل
رفعت للجودِ أعلاماً مشهرةً فبابك الدهر منها عامرُ السبلِ

34 - وقال أبو علي إدريس بن اليماني العبدري¹ :

قُبلةٌ كانت على دَهَشٍ أذهبتُ ما بي من العطشِ
ولها في القلبِ منزلةٌ لو عدتُها النفسُ لم تعشِ
طرقتني والدُّجى لبستُ خِلعاً من جلدة الحبشِ
وكانَ النجمَ حينَ بدا درهمٌ في كفِّ مرتعشِ

وسأله المعتضد أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها ابن حمّود فقال له : أشعاري مشهورة ، وبنات صليبي كريمة ، فمن أراد أن ينكح بكبرها ، فقد عرف مهرها ، وكانت جائزته مائة دينار .

ومن مشهور شعره بالمغرب والمشرق قوله :

ثقلتُ زجاجاتُ أتنا فرغاً حتى إذا ملئتُ بصرفِ الراحِ
خفتُ فكادت أن تطير بما حوتُ وكذا الجسومُ تخفُّ بالأرواحِ

35 - وكانت بين الأديب الحسيب أبي عمرو ابن طينفور والحافظ المهيم

١ المغرب ١ : ٤٠٠ وانظر الجذوة : ١٦٠ والنخيرة ٣ : ١١٥ والمساك ١١ : ٢٠٤ .

مُهَاجَاةٌ ، فَقَالَ فِيهِ الْخَافِظُ ١ :

لَا بِنَ طَيْفُورٍ قَرِيضٌ فِيهِ شَوْكٌ وَغَمُوضٌ
عُدِمَتْ فِيهِ الْقَوَائِي وَالْمَعَانِي وَالْعَرُوضُ

وَقَالَ فِيهِ ابْنُ طَيْفُورٍ :

إِنَّمَا الْهَيْمُ سِفْرٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ضَخْمٌ
لَا تُطَالِبُهُ بِفَهْمٍ لَيْسَ لِلدِّيَوَانِ فَهْمٌ

36 — وَقَالَ أَبُو عَمْرَانَ ابْنُ سَعِيدٍ : أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّهُ زَارَ ابْنَ حَمْدَانَ بِقَرْطَبَةَ فِي مَدَّةٍ يَجِبِي بِنَ غَانِيَةَ ، [قَالَ] : فَوَجَدْتَهُ فِي هَالَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْيَاءِ ، فَقَامَ وَتَلَقَّانِي ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا هَذَا الْجَفَاءُ ؟ فَاعْتَذَرْتُ بِأَنِّي أَخْشَى التَّثْقِيلَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ سَيِّدِي مَشْغُولٌ بِمَا هُوَ مُكَبَّبٌ عَلَيْهِ ، فَأَطْرَقَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ :

لَوْ كُنْتُ تَهَوَّنَا طَلَبْتَ لِقَاءَنَا لَيْسَ الْمَحِبُّ عَنِ الْحَيِيبِ بِصَابِرٍ
فَدَعِ الْمَعَاذِرَ إِنَّمَا هِيَ جُنَّةٌ لِمُخَادَعٍ فِيهَا ، وَلَسْتُ بِعَاذِرٍ

فَقُلْتُ : تَصَدِّقْ سَيِّدِي عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ وَإِنْ تَرْتَبْتُ عَلَيَّ فِيهِ الْمَلَامَةَ مِنْ مَنَازَعَتِهِ مُتَّصِرًا لِحَقِّي ، فَاسْتَحْسَنَ جَوَابِي ، وَقَالَ لِي : كَرَّرَهُ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَاحٍ لِكُلِّ ذَنْبٍ ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ كَتَبَ الْبَيْتَيْنِ عَنْهُ ، فَقَالَ لِي : وَمَا تَكْتُبُ فِيهِمَا ؟ فَقُلْتُ : أَلَيْسَ فِي الْإِنْعَامِ ذَلِكَ لِأَجْدَ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَالَّذِي إِذَا أُبْتُ إِلَيْهِ ؟ فَأَمْلَاهُمَا عَلَيَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ قَاتِلُهُمَا ؟ قَالَ : قَاتِلُهُمَا ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُمَا لَهُ ، وَقَنَعْتُ بِذَلِكَ .

٥٢٩ — وَقَالَ الْحِجَارِيُّ صَاحِبُ « الْمَسْهَبِ فِي أَنْجَارِ الْمَغْرِبِ » :
كَمْ بَتُّ مِنْ أَسْرِ السَّهَادِ بِلَيْلَةٍ نَادَيْتُ فِيهَا هَلْ بَلَّحُنْحِكِ آخِرُ

١ المغرب ١ : ٤٠٤ .

إذ قام هذا الصبحُ يُظهر ملّةً حكمتُ بأن ذُبِحَ الظلامُ الكافرُ

وعلى ذكر « المسهب » فقد كنت كثيراً ما أستشكل هذه التسمية ، لما قال غير واحد : إن المسهب إنما هو بفتح الهاء ، كقولهم سَيْلٌ مُفْعَمٌ — بفتح العين — والفقرة الثانية وهي « المغرب » تقتضي أن يكون بكسر الهاء ، ولم يزل ذلك يتردد في خاطري إلى أن وقفت على سؤال في ذلك رفعه المعتمد بن عبّاد سلطان الأندلس إلى الفقيه الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري المشهور بالأعلم ، ونص السؤال :

سألك — أبقاك الله — الوزيرُ الكاتبُ أبو عمرو ابن غطمش ، سلّمه الله ، عن « المسهب » وزعم أنك تقول بالفتح والكسر ، والذي ذكر ابن قتيبة في « أدب الكاتب » والزبيدي في « مختصر العين » أسهبَ الرجلُ فهو مُسْهَبٌ إذا أكثر الكلام ، بالفتح خاصة ، فبيّن لي — أبقاك الله تعالى — ما تعتقد فيه ، وإلى أي كتاب تسند القولين ، لأقف على صحّة من ذلك .

فأجابه : وصل إليّ — أدام الله تعالى توفيك — هذا السؤال العزيز ، ووقفت على ما تضمنته ، والذي ذكرته من قول ابن قتيبة والزبيدي في الكتابين موضوع كما ذكرته ، والذي أحفظه وأعتقده أن المسهب بالفتح المكثّر في غير صواب ، وأن المسهب بالكسر البليغ المكثّر من الصواب ، إلا أنّي لا أسند ذلك إلى كتاب بعينه ، ولكنّي أذكره عن أبي علي البغدادي من كتاب « البارع » أو غيره ، معلقاً في عدّة نسخ من كتاب « البيان والتبيين » على بيت في صدره لمكي بن سواده وهو :

حَصِرَ مُسْهَبٌ جَرِيءٌ جَبَانٌ خَيْرَ عِيٍّ الرِّجَالِ عِيٌّ السُّكُوتِ

والمعلقة : « تقول العرب : أسهب الرجل فهو مُسْهَبٌ وأحصن فهو مُحْصَنٌ وألّج فهو مُلْجَجٌ ، إذا افتقر ، قال الخليل : يقال رجل مُسْهَبٌ ومُسْهَبٌ ، قال أبو علي : أسهب الرجل فهو مُسْهَبٌ بالفتح إذا أكثر في

غير صواب ، وأسهب فهو مُسْهَب بالكسر إذا أكثر وأصاب ، قال أبو عبيدة : أسهب الرجل فهو مُسْهَب إذا أكثر من خرف وتلف ذهن ، وقال أبو عبيدة عن الأصمعي : أسهب الرجل فهو مُسْهَب بالفتح إذا خرف وأهتر ، فإن أكثر من الخطأ قيل : أفند فهو مُفند ، انتهت المعلقة . فرأي مملوكك – أيدك الله تعالى – واعتقاده أن المُسْهَب بالفتح لا يوصف به البليغ المحسن ، ولا المكثّر المصيب ، ألا ترى إلى قول الشاعر « حصر مسهب » أنه قرن فيه المسهب بالحصير وذمه بالصفيتين ، وجعل المسهب أحقّ بالعمي من الساكت والحصير فقال :

خيرُ عمي الرجالِ عمي السكوتِ

والدليل على أن المُسْهَب بالكسر يقال للبليغ المكثّر من الصواب أنهم يقولون للجواد من الخيل مُسْهَب بالكسر خاصة لأنها بمعنى الإجادة والإحسان ، وليس قول ابن قتيبة والزبيدي في المُسْهَب بالفتح هو المكثّر من الكلام بموجب أن المكثّر هو البليغ المصيب ، لأن الإكثار من الكلام داخل في معنى الذم ، لأنه من الثرثرة والملمر ، ألا تراهم قالوا : رجل مِكْثَار ، كما قالوا : ثرثار ، مهذار ، وقال الشاعر :

فلا تُمارُونَ إن ماروا بإكثار

فهذا ما عندي ، والله تعالى الموفق للصواب .
قال الأعمش : ثمّ نظمت السؤال العزيز والجواب المذكور ، فقلت :

سلامُ الإلهِ وربّحانهُ	على الملك المجتبي المتخلف
سلامَ امرئٍ ظلّ من سيّبه	خصيبَ الجناحِ رحيبَ المحلّ
أتاني سؤالكَ أعزّزُ بهِ	سؤالَ مبرّ عليّ من سأل
يسأل عن حالتي مُسْهَبِ	ومُسْهَبِ المُبتلى بالعلل

لم اختلفا في بناءيهما وحكمهما واحد في فعل
 أتى ذا على مفعّل لم يُعَلَّ وذلك على مفعّل قد أعلَّ
 فقلتُ مقالاً على صدقه شهيدٌ من العقل لا يسترل
 بناء البليغ أتى سالماً سلامته من فضول الخطل
 وأسهبَ ذلك مسيئاً فزلَّ زليلاً ثني متته فأنخذل
 وأحسنَ ذا فجرى وصفهُ على سننِ المحسن المستقل
 فهذا مقالي مستبصراً ولستُ كمن قال حدساً أفضل
 تقلدتُ في رأيه مذهباً يخصك بين الظبي والأسل
 سمّوك في الروع مستشرفاً إلى مهجة المستميت البطل
 كأنك فيها هلالُ السما يزيدُ بهاءً إذا ما أهلَّ
 بل أنت مظلٌ كبر السماء يُمضي الظلام إذا ما أطلَّ

قلت : رأيت في بعض الحواشي الأندلسية : أن ابن السكيت ذكر في بعض
 كتبه في بعض ما جعله بعضُ العرب فاعلاً وبعضهم مفعولاً : رجل مُسْنَب
 ومُسْنَب ، لكثير الكلام ، وهذا يدل على أنّهما بمعنى واحد ، انتهى .

٥٣٠ - وسأل بعضُ الأدباء الأستاذَ الأعلّم المذكور عن المسألة الزنبورية ،
 المقترنة بالشهادة الزورية ، الجارية بين سيويه والكسائي أو القراء ، والقضاء
 بينهم فيها ، وهي « ظننت أن العقرَبَ أشدُّ لسعةً من الزنبور ، فإذا
 هو هي ، أو إياها » ، وعن نسب سيويه : هل هو صريح أو مؤلّي ؟ وعن سبب
 لزومه الخليل بعد أن كان يطلب الحديث والتفسير ، وعن علّة تعرضه لمناظرة
 الكسائي والقراء ، وعن كتابه الجاري بين الناس : هل هو أولُ كتاب أو
 أنشأه بعد كتاب أول ضاع كما زعم بعض الناس ؟

فأجاب : أما المسألة الزنبورية الماثورة بين سيويه والكسائي ، أو بينه وبين

الفراء على حسب الاختلاف في ذلك ، بحضرة الرشيد ، أو بحضرة يحيى بن خالد البرمكي فيما يروى ، فقد اختلفت الرواة فيها : فمنهم من زعم أن الكسائي أو الفراء قال لسيبويه : كيف تقول « ظننت أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو إياها » ؟ فأجاب سيبويه - بعد أن أطرقَ شيئاً - « فإذا هو إياها » في بعض الأقاويل ، وزعم آخرون أنه قال « فإذا هو هي » ففيها من الاختلاف عنهم ما ترى ، فإن كان أجاب بإذا هو هي ، فقد أصاب لفظاً ومعنى ، ولم تلخل عليه في جوابه شُبُهَةٌ ، ولا علقه لمعترض ، لأن « إذا » في المسألة من حروف الابتداء المتضمنة للتعليق بالخبر ، فإذا اعتبرت المضمير بعدها بالاسمين المظهرين لزمك أن تقول « فإذا الزنبورُ العقربُ » أو « اللسعة اللسعة » أي مثلها سواء ، فلو قلت « فإذا هو إياها » بنصب الضمير الأخير لزمك أن تقول : فإذا الزنبورُ العقربَ ، بالنصب ، وهذا لا وجه له ، فإذا لم يجوز نصب الخبر المظهر فكيف يجوز نصب الخبر المضمير الواقع موقعه ؟ ويروى في المسألة أن الكسائي أو الفراء قال لسيبويه بعد أن أجاب برفع الضميرين على ما يوجبه القياس : كيف تقول يا بصري « خرجت فإذا زيد قائم ، أو قائماً » ؟ فقال سيبويه : أقول « قائم » ولا يجوز النصب ، فقال الكسائي : أقول قائم وقائماً ، والقائمُ والقائمَ ، بالرفع والنصب في الخبر مع النكرة والمعرفة ، فتأول الكسائي والفراء في اختيارهما « فإذا هو إياها » حمل الخبر المضمير في النصب على الخبر المظهر المعرفة مع الإعراب بوجه النصب ، فكأنه قال : فإذا الزنبور العقربَ ، كما تقول : فإذا زيد القائمَ ، فيجري المعرفة في النصب مجرى النكرة ، وقولهما في هذا خطأ من جهتين : إحداهما : أن نصب الخبر بعد إذا لا يكون إلاّ بعد تمام الكلام الأول في الاسم مع حرف المفاجأة ، ومع كون الخبر نكرة ، كقولك : خرجت فإذا زيد قائماً ، لأنك لو قلت « خرجت فإذا زيد » تمّ الكلام ، لتعلق المفاجأة بزيد على معنى حضوره ، ثم تبين حاله في المفاجأة المتعلقة به فتقول « قائماً » أي : خرجت ففاجأني زيد في هذا الحال ،

وقوله في المسألة « إياها » لا يتم الكلام في الاسم الأول دونها ، ألا ترى أنك لو قلت « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو » وسكت ، لم يتم الكلام أولاً ، ولا أفدت بذكر المفاجأة وتعليقها بالزنبور فائدة ، وإنما المفاجأة للضمير الآخر ، فلا بد من ذكره والاعتماد عليه ، وهذا يوجب الرفع في الخبر ؛ لأن الظرف له ، لا للمخبر عنه ، فهذا بيّن واضح ، والجهة الأخرى في غلطهما أن « إياها » معرفة ، والحال لا تكون إلا نكرة ، فقد اجتمع في قولهما أن أتياً بحال لم يتم الكلام دونها ، معرفة ، والحال لا تكون إلا بعد تمام الكلام ومع التنكير ، فقد تبين خطأهما وإصابة سيويه في لزوم الرفع في الخبر فقط .

وأما من زعم عن سيويه أنه قال « خرجت فإذا زيد قائم » بالرفع لا غير فباطل ، وكيف يُنسب إليه وهو علمنا أن الظرف إذا كان مستقراً للاسم المخبر عنه نصب الخبر ، وإذا كان مستقراً للخبر رفع الخبر ، ونحن نقول « خرجت فإذا زيد » فيتم الكلام ، و « نظرت فإذا الهلال طالع » فيتبعه الخبر رفعاً ، كما تقول « في الدار زيد قائم ، وقائماً » و « اليوم سيرك سريع ، وسريعاً » ، ولكن الخبر إذا كان الظرف له ولم يتعلّق إلاّ به لم يكن إلا رفعاً ، كقولك « اليوم زيد منطلق ، وغداً عمرو خارج » لأن الظرف لا يكون مستقراً للاسم المخبر عنه إذا كان زماناً ، والمخبر عنه جثّة ، وكذلك المفاجأة إذا كانت للخبر لم يكن إلاّ مرفوعاً ، معرفة كان أو نكرة ، فإذا كانت للمخبر عنه والخبر نكرة انتصب على الحال ، فجرى قولك « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي ، وظننت زيدا عالماً فإذا هو جاهل » في لزوم الرفع في الخبر مجرى « اليوم زيد منطلق ، وغداً عمرو خارج » كما جرى « خرجت فإذا زيد قائم ، وقائماً » في جواز الرفع والنصب مجرى « في الدار زيد جالس ، وجالساً » ، فتأمل الفرق بينهما وحصله ، فإن النحويين المتقدمين والمتأخرين قد أغفلوا الفرق بين المفاجأتين .

وأما نصب الخبر المعرفة بعد إذا ، تم الكلام أو لم يتم ، فباطل لا تقوله

العرب ، ولا يميزه إلا الكوفيون .

وإن كان سيويه رحمه الله تعالى أجاب بقوله « فإذا هو إياها » كما روى بعضهم فظاهر جوابه مدخول ، لما قدمت ، والخطأ فيه بين من جهة القياس كما ذكرنا ، فإن كان قاله والتزمه دون الرفع فقد أخطأ خطأ لا مخرج له منه ، وإن كان قد قاله وهو يرى أن الرفع أولى وأحق ، إلا أنه أثر النصب للإعراب حملاً على المعنى الخفي ، دون ما يوجب القياس واللفظ الجلي ، فلجوابه عندي وجهان حسنان :

أحدهما : أن يكون الضمير المنصوب وهو « إياها » كنايةً عن السعة ، لا عن العقرب ، والضمير المرفوع كناية عن الزنبور ، فكأنه قال « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا الزنبور لسعة العقرب » أي فإذا الزنبور يلسع لسعة العقرب ، فاختزل الفعل لما تقدم من الدليل عليه ، بعد أن أضمر السعة متصلة بالفعل ، فكأنه قال « فإذا الزنبور يلسعها » فاتصل الضمير بالفعل لوجوده ، فلما اختزل الفعل انفصل الضمير ، لعدم الفعل .

ونظير هذا من كلام العرب قولهم « إنتما أنت شرب الإبل » أي : إنتما أنت تشرب شرب الإبل ، فاختزل الفعل ، وبقي عمله في المصدر ، ولم يرفع لأنه غير الاسم الأول ، فلو أضمرت شرب الإبل بعدما جرى ذكره فقلت « ما يشرب زيد شرب الإبل ، إنتما أنت تشربه » لاتصل الضمير بالفعل ، فلو حذفته لانفصل الضمير فقلت « إنتما أنت إياه » فتدبره تجده منقاداً صحيحاً .

والوجه الآخر : أن يكون قوله « فإذا هو إياها » محمولاً على المعنى الذي اشتمل عليه أصل الكلام من ذكر الظن أولاً وآخرأ ، لأن الأصل في تأليف المسألة « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فلماً لسعي الزنبور ظننته هو إياها » فاختصر الكلام لعلم المخاطب ، وحذف الظن آخرأ لما جرى من ذكره أولاً ، ودلت « إذا » لما فيها من المفاجأة على الفعل الواقع بعد لما الدالة على وقوع الشيء لوقوع غيره ، فإذا جاز حذف الكلام إثارة للاختصار مع وجود الدليل على

المحذوف . كان قولنا « فإذا هو إياها » بمتزلة قولنا « فلما لسغي الزبور ظنته هو إياها » فحذف الظن مع مفعوله الأول ، وبقي الضمير الذي هو العماد والفصل مؤكداً للضمير المحذوف مع الفعل ودالاً على ما يأتي بعده من الخبر المحتاج إليه ، فيكون في حذف المخبر عنه لما تقدم من الدليل عليه مع الإتيان بالعماد والفصل المؤكد له المثبت لما بعده من الخبر المحتاج إليه مثل قوله ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (آل عمران : ١٨٠) فحذف البخل الذي هو المفعول الأول لقوله « يحسبن » وبقي الضمير مؤكداً له مثبتاً لما بعده من الخبر ، وجاز حذفه للدلالة « يبخلون » عليه ، والمعنى : لا يحسبن الذين يبخلون البخل هو خيراً لهم ؛ فهو في المسألة عماد مؤكد لضمير الزبور المحمول على الظن المضممر ومثبت لما يجيء بعده من الخبر الذي هو « إياها » فتفتهمه فإنه متمكن من جهة المعنى ، وجازٍ من الاختصار لعلم المخاطب على قياس وأصل ، وشاهدُه القرآنُ في الحذف واستعمالُ العرب النظائرَ ، وهي أكثر من أن تحصى ، فمنها قولهم « ما أغفله عنك شيئاً » أي تثبت شيئاً ودع الشك ، وقولهم لمن أنكر عليه ذكر إنسان ذكره « من أنت زيداً » أي : من أنت تذكر زيداً ، وربما قالوا « من أنت زيد » بالرفع على تقدير : من أنت ذكرك زيد ، فحذفوا الفعل مرةً وأبقوا عمله ، وحذفوا المبتدأ أخرى وأبقوا خبره ، وكل ذلك اختصار ، لعلم المخاطب بالمعنى ، وكذلك قولهم « هذا ولا زعماتك » أي هذا القول والزعم الحق ولا أتوهم زعماتك ، فحذف هذا لعلم السامع مع تحصيل المعنى وقيامه عند المخاطب ، والحملُ في كلامهم على المعنى أكثر من أن يحصى .

فإن كان الضمير الأول في المسألة للزبور والضمير الآخر للعقرب لم يجوز البتة إلا رفع الضميرين بالابتداء والخبر ، على حد قولك « ظننت زيداً عاقلاً فإذا هو أحمرق ، وحسبت عبد الله قاعداً فإذا هو قائم » ولو تقدم ذكر الخبر والمخبر عنه لقلت « فإذا هو هو » ولم يجوز فإذا هو إياه البتة . ويجوز في المسألة

إذا قلت : فإذا هو ، لأبى أن يكون الضمير للزبور والعقرب على حد قولك « الزبور العقرب » ويجوز أن تقول « فإذا هي هو » على التقديم والتأخير على حد قولك « فإذا العقربُ الزبورُ » أي سواء في شدة اللسعة كما تقول « خرجت فإذا قائم زيد » على تقدير فإذا زيد قائم ، ويجوز أن يكون « هو » كناية عن اللسع بدلالة اللسعة عليه ، وتكون « هي » كناية عن اللسعة على تقدير : فإذا لسع الزبور لسعة العقرب ، ويجوز « فإذا هي هو » على إضمار اللسعة والسع ، والتقدير : فإذا لسعة الزبور لسع العقرب ، وهذا كله لا يجوز فيه إلا الرفع عند البصريين ؛ لأن الآخر هو الأول ، والخبر معرفة متعلق بالمفاجأة فلا يجوز فيه الحال ، والكوفيون يميزون النصب كما تقدم ، وهو غلط بين ، وخطأ فاحش ، لا تقوله العرب ، ولا تعلق له بقياس ، فاعلمه .

ويجوز في المسألة « فإذا هو هو » على تقدير : فإذا اللسع اللسع ، ويجوز « فإذا هي هي » على تقدير : فإذا اللسعة اللسعة ، وفي هذا كفاية إن شاء الله تعالى .
وأما نسب سيويه فقارسي مولى لبني الحارث بن كعب بن علة بن خلدة ابن مالك ، وهو مدحج ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه الذي شهر به سيويه ، ومعناها بالفارسية رائحة التفاح ، وكان من أطيب الناس رائحة ، وأجملهم وجهاً ، وقيل : معنى « سي » ثلاثون ، ومعنى « بويه » رائحة ، فكان معناها : الذي ضوعف طيب رائحته ثلاثين مرة .

وأما سبب تعويله على الخليل في طلب النحو - مع ما كان عليه من الميل إلى التفسير والحديث - فإنه سأل يوماً حماد بن سلمة فقال له : أحَدَثَكَ هشام ابن عروة عن أبيه في رجل رَعَفَ في الصلاة ، بضم العين ، فقال له حماد : أخطأت ، إنما هو رَعَفَ بفتح العين ، فانصرف إلى الخليل ، فشكا إليه ما لقيه من حماد ، فقال له الخليل : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا ، ورَعَفَ بضم العين لغة ضعيفة ، وقيل : إنه قَدِمَ البصرة من البَيْداء من قرى شيراز من عمل فارس ، وكان مولده ومنشؤه بها ، ليكتب الحديث ويرويه ، فلزم حلقة حماد

ابن سَلَمَة ، فبينما هو يستملي على حماد قولَ النبي صلى الله عليه وسلم « ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأهدتُ عليه ، ليس أبا الدرداء » فقال سيويه « ليس أبو الدرداء » بالرفع ، وخمّنه اسم ليس ، فقال له حماد : لخت يا سيويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، إنّما ليس ههنا استثناء ، فقال سيويه : سأطلب علماً لا تلحنني فيه ، فلزم الخليل ، وبرع في العلم .

وأما سبب وفوده على الرشيد ببغداد وتعرّضه لمناظرة الكسائي والقراء ، فلما كانا عليه من تمكّن الحال ، والقرب من السلطان ، وعلوّ همّته ، وطلبه للظهور مع ثقته بعلمه ؛ لأنّه كان أعلم أهل زمانه ، وكان بينه وبين البرامكة أقوى سبب ، فوفد على يحيى بن خالد بن برمك وابنيه جعفر والفضل ، فعرض عليهم ما ذهب إليه من مناظرة الكسائي وأصحابه ، فسعوا له في ذلك ، وأوصلوه إلى الرشيد ، فجرى بينه وبين الكسائي والقراء ما ذكر واشتهر ، وكان آخر أمره أن الكسائي وأصحابه لما ظهروا عليه بشهادة الأعراب على حسب ما لقنوا أن قال يحيى بن خالد أو الكسائي للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن لا يرجع خائباً فعلت ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وانصرف إلى الأهواز ، ولم يُعرج على البصرة ، وأقام هنالك مدّة إلى أن مات كنداً ، ويروى أنّه ذرّبت معدته فمات ، فيرون أنّه مات غمّاً ، ويروى أن الكسائي لما بلغه موته قال للرشيد : ده يا أمير المؤمنين فإنّي أخاف أن أكون شاركتُ في دمه ، ولما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فقطرت دمعة من دمعه على خده ، فرفع عينيه وقال : أحيّين كناً فرّق الدهرُ بيّننا إلى الأمد الأقصى ، ومن يأمن الدهرا؟

ومات على السنّة والجماعة ، رحمه الله تعالى .

وأما كتابه الجاري بين الناس فلم يصح أنّه أنشأه بعد كتاب آخر قبله ، على أن ذلك قد ذُكر .

فهذا ما حضر فيما سألت عنه ؛ فمن قرأه وأشرف فيه على تفصير فليسط

العذر فإنه لساعتين من نهار ، إملأه يوم الثلاثاء عشي النهار لثمان خلون لصفرة سنة ٤٧٦ ، انتهى .

٥٣١ - وقال الإلييري ، رحمه الله تعالى ^١ :

لا شيء أخسرُ صَفْقَةً مِّنْ عَالَمٍ لَعِبْتُ بِهِ الدُّنْيَا مَعَ الْجُهَالِ
فَقَدْ يَفْرُقُ دِينَهُ أَيْلِي سَبَاً وَيَذِيلُهُ حِرْصاً يَجْمَعُ الْمَالَ
لَا خَيْرَ فِي كَسْبِ الْحَرَامِ ، وَقَلَّمَا يُرْجَى الْخِلَاصُ لِكَاسِبِ الْحَلَالِ
فَخِذْ الْكِفَافَ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ فَالْفَضْلُ تُسْأَلُ عَنْهُ أَيُّ سْؤَالِ

٥٣٢ - وكان أبو الفضل ابن الأعلم من أحسن الناس وجهاً ، وأذكرهم في علم النحو والأدب ، وأقرأ النحو في صباه ، وفيه يقول ابن صارة الأندلسي ، رحمه الله تعالى ^٢ :

أكرمٌ يجعفرُ الليبِ فإنه ما زال يوضحُ مشكلَ «الإيضاح»
ماءُ الجمالِ بوجهه مترقُّقٌ فالعينُ منه تجُولُ في ضَحَضَاحِ
ما خدُّه جرحته عيني ، إنَّما صبغتُ غِلاَّتَهُ دماءَ جراحي
لله زاي زبرجدٍ في عسجدٍ في جوهرٍ في كوثرٍ في راحِ
ذي طُرَّةٍ سَبَجِيَّةٍ ، ذي غُرَّةٍ عاجية ، كالليلِ والإصباحِ
رشأ له خدُّ البريء ، ولحظه أبدأ شريكُ الموتِ في الأرواحِ ^٣

٥٣٣ - وقال محمد بن هانيء الأندلسي من قصيدة ^٤ :

السافراتُ كأنهنَّ كواكبٌ والناعماتُ كأنهنَّ غصونُ

١ ديوان الإلييري : ٨١ .

٢ قد مر هذا ص : ٧٣ - ٧٤ من هذا الجزء .

٣ زاد في م بعده : وقد سبقت هذه الأبيات قبل هذا .

٤ ديوان ابن هانيء : ١٧١ .

ماذا على حُلل الشقيق لَوَّأنا
لأعشنَّ الروض بعدهمُ ولا
أعير لحظَّ العين بهجةً منظرٍ
لا الجوّ جوَّ مشرقٌ وإن اكتسى
لا يبعدنَّ إذ العبيرُ لهُ ثرى
الظلُّ لا منتقلٌ ، والحوضُ لا
عن لابسها في الخلود تينُ
يرويه لي دمعٌ عليه هَتُونُ
وأخونهم ؟ إني إذن لخوونُ
زهواً ، ولا الماء المعينُ معينُ
والبانُ روح ، والشموسُ قطينُ
متكدرٌ ، والأمنُ لا ممنونُ

٥٣٤ - وقال القَسَطَلَتِي في أسطول أنشأه المنصور بن أبي عامر من قصيدة^١ :

تَحَمَّلَ منهُ البحرُ بجرأ من القنا
بكلِّ ممالات الشراع كأتها
إذا سابقتُ شأوَ الرياح تخيلتُ
سحائبُ تزجِجها الرياحُ فإن وفّت
ظباء سمام ما لهنَّ مفاحصُ
سواكنُ في أوطاننَّ كأنَّ سَمَا
كما رفعَ الآلُ الهوادجَ بالضُّحى
أراقمُ تحوي ناقعَ السمِّ ما لها
يروعُ بها أمواجهُ ويهولُ
وقد حملتُ أسدَ الحقائقِ غيلُ
خيولاً مدى فرسانهن خيولُ
أطافتُ بأجبادِ النعام فيولُ
وزرق حمامٍ ما لهنَّ هديلُ
بها الموجُ حيث الراسياتُ نزولُ
غداةً استقلتُ بالخليطِ حمُولُ
بما حملتُ دونَ العُداةِ مَقِيلُ

وقد أطنب الناس في وصف السفن وأطابوا ، وقَرَّطَسُوا القَرِيضَ
وأصابوا ، وقد ذكرنا نبذة من ذلك في هذا الكتاب .

٥٣٥ - وقال أبو بحر صَفْوَان بن إدريس التُّجَيْبِي : حدثني بعض الطلبة
بمراكش أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت ورَّاق بتونس ، وهناك فتي
يميل إليه ، فتناول الفتي سَوَسَنَةَ صفراء ، وأوماً بها إلى خديه مشيراً ، وقال :
أين الشعراء ؟ تحريكاً للجراوي ، فقال ارتجالاً :

١ ديوان ابن دراج : ٥ .

وعُلُوِّيَ الجمال إذا تبدَّى أراكَ جبينهُ بدرأً أنارا
أشار بسوسنٍ يحكيه عرفاً ويحكي لونَ عاشقِه اصفرارا

قال أبو بجر : ثم سألتني أن أقول في هذا المعنى ، فقلت بديهاً :

أومى إلى خدهِ بسوسنةِ صفراءِ صيغتُ من وجنتي عبدهِ
لم ترَ عيني من قبله غصناً سوسنهُ نابتُ إذا وردهِ
أعملتُ زَجْرِي فقلتُ ربّتما قرَّبَ خدَّ المشوق من خدهِ

فحدثني المذكور أنه اجتمع مع أبي بكر ابن يحيى بن مجبر ، رحمه الله تعالى ،
قبل اجتماعه بي في ذلك الموضوع الذي اجتمع فيه بي بعينه ، فحدثه بالحكاية كما
حدثني ، وسأله أن يقول في تلك الحال ، فقال بديهاً :

بي رشاً وسنانُ مهما انثى حار قضيبُ البان في قدّه
مُذْ وَلِيّ الحسَنَ وسلطانهُ صارت قلوبُ الناس من جنده
أودع في وجته زهرةً كأنها تجزعُ من صدّه
وقد تفاعلتُ على فعله أتى أرى خدّي على خدهِ

فتعجبت من توارد خاطرينا على معنى هذا البيت الأخير .

قال أبو بجر : ثم قلت في تلك الحال :

أبرزَ من وجته وردةً أودعها سوسنةً صفراً
ولئما صورتهُ آيةً ضمّنها من سوسنٍ عشرا

٥٣٦ - وقال بعضهم^١ في الباذنجان :

ومستحسنٍ عند الطعامٍ مُدَحْرَجٍ غَدَاهُ نَمِيرُ المَاءِ في كلِّ بستانٍ

١ م : بعض شعراء الأندلس .

تَطَّلَعَ فِي أَفْئَاعِهِ فَكَأَنَّهُ قُلُوبُ نَعَاجٍ فِي مَخَالِبِ عَقْبَانٍ

٥٣٧ - وقال ابن خروف ، ويقال إنَّها في وصف دمشق :

إِذَا رَحَلْتُ عَرُوبَهُ عَنْ حِمَاها
إِلَى سَبْتِ حَكِي فِرْعَوْنَ مَوْسَى
فَتَبَصَّرُ كُلَّ أُمَّلُودٍ قَوْمِي
إِذَا انْسَابَتْ أَرَاقِمُها عَلَيْها
وَشَاهَدْنَا بِها فِي كُلِّ حِينٍ
جَبَّالاً أَلْقَيْتُ نَحْوَ الْكَلِيمِ

٥٣٨ - وقال أبو القاسم ابن هشام^١ ارتجالاً في وسيم عض وردة ثم رمى بها ، وسئل ذلك منه امتحاناً :

وَمَعْجَزَ الْأَوْصَافِ وَالْوَصَافِ فِي
سُوسَانٍ أَمَلَهُ تَنَاوَلَ وَرَدَةً
فَكَأَنَّيْ شَبِهْتُ وَجَنَّتَهُ بِها
فَرَمَى بِها غَضَباً عَلَى التَّشْبِيهِ

وقال أيضاً^٢ فيمن عض كلبٌ وجنَّته :

وَأَغْيِدَ وَضَاحِ الْمَحَاسِنِ بِاسْمِ
تَعَمَّدَ كَلْبٌ عَضَّ وَجَنَّتَهُ الَّتِي
فَقَلْتُ لَشُهْبِ الْأَفْقِ كَيْفَ صُمَاتِكُمْ
إِذَا قَامَرِ الْأَسْيَافِ نَاطِرُهُ قَمَرٌ
هِيَ الْوَرْدُ إِينَاعاً وَأَبْقَى بِها أَثْرٌ
وَقَدْ أَثَّرَ الْعَوَاءُ فِي صَفْحَةِ الْقَمَرِ

٥٣٩ - وقال آخر يصف شجرة في خلد وسيم :

عَذِيرِي مِنْ ذِي صَفْحَةٍ يُوسُفِيَةٍ
بِها شَجَّةٌ جَلَّتْ عَنِ الثَّمِّ وَاللَّمَسِ

١ ترجمة أبي القاسم ابن هشام في زاد المسافر : ٦٢ .

٢ م : وقال آخر .

يقولون من عَجَبٍ : أَحْسَنُ وَصْفِهَا قَلْتُ : هَلَالٌ لَاحٌ فِي شَفَقِ الشَّمْسِ .

٥٤٠ - وقال القاضي أبو الوليد الوقشي فيمن طَرَ شاربُهُ ١ :

قَدْ بَيَّنَّتْ فِيهِ الطَّبِيعَةُ أَنَّهَا لَبْدِيعِ أَعْمَالِ المِهْنَدِسِ بِاهِرَةٍ
عُنِيَتْ بِمِسْمِهِ فَخَطَّتْ فَوْقَهُ بِالمَسْكِ خَطًّا مِنْ مِحِيطِ الدَّائِرَةِ

٥٤١ - وقال أبو الحسن ابن عيسى :

عَابُوهُ أَسْمَرَ نَاحِلًا ذَا زُرْقَةٍ رَمَدًا وَظَنُّوا أَنَّ ذَاكَ يَشِينُهُ
جَهْلُوا بِأَنَّ السَّمْهَرِيَّ شَبِيهَهُ وَخَضَابَهُ بِلَمِّ القُلُوبِ يَزِينُهُ

٥٤٢ - وقال الأستاذ أبو ذر الحشبي :

أَنْكَرَ اصْحَابِي إِذْ رَأَوْا طَرْفَهُ ذَا حَمْرَةٍ يَشْفَى بِهَا المَغْرَمُ
لَا تَتَكْرَوْنَ مَا أَحْمَرَّ مِنْ طَرْفِهِ فَالسَيْفُ لَا يُنْكَرُ فِيهِ الدَّمُ

٥٤٣ - وقال أبو عبد الله محمد ٢ بن أبي خالص الرندي :

يَا شَادِنَا بَرِزِ العِنَارُ بِخَدِّهِ وَازْدَادَ حُسْنًا ، لَيْتَهُ لَمْ يَبْرِزِ
الْآنَ أَعْلَمُ حِينَ جَدِّي الهَوَى كَمْ بَيْنَ مَخْتَصِرٍ وَبَيْنَ مَطْرَزِ

٥٤٤ - وقال أبو الحسين عبد الملك بن مفوز المَعَاْفَرِي :

وَمَعْدَرٍ مِنْ خَدِّهِ وَرَقِيْبِهِ شَغْلَانٌ حَلًّا عَقْدَ كُلِّ عَزِيمَةٍ
خَدٌّ وَخَبٌّ عَيْلِ صَبْرِي مِنْهُمَا هَذَا بِنَمْنَةٍ وَذَا بِنَمِيمَةٍ

٥٤٥ - وقال أبو الوليد ابن زيدون فيمن أصابه جُدْرِي ٣ :

١ مر البيتان ، انظر ج ٣ : ٣٧٦ .

٢ محمد : سقطت من م .

٣ ديوان ابن زيدون : ١٢٤ .

قال لي اعتلّ من هويّتَ حَسودٌ قلتُ : أنت العليلُ ويحك لا هو
 ما الذي قد نكرتَ من بَشَرات ضاعفتَ حسنهُ وزانتَ حُلَاهُ
 جسمهُ في الصفاء والرقة الما ء فَلَ غرَوَ أنُ حِبابُ عَلاهُ
 ٥٤٦ - وقال الهيثم^١ :

قالوا : به جَرَبٌ فقلت لهم قِفُوا تلكَ التَدوبُ مواقعُ الأَبصارِ
 هو روضةٌ والقدُّ غصنٌ ناعمٌ أرايتمُ غصنًا بِيلا نَوَارِ
 ٥٤٧ - وقال أبو بكر محمد بن عياض القرطبي^٢ في مخضوبة^٣ :
 وَعَلِقَتْهَا فَتَاتَةٌ أَعْطَافُهَا تُزْرِي بَغْضُنِ الْبَاتَةِ الْمِيَادِ
 مِنَ الْغَزَالِ وَالغَزَالِ بِحَسَنِهَا فِي الْخَلْدِ أَوْ فِي الْعَيْنِ أَوْ فِي الْمَادِي
 خَضِبَتْ أَنَامِلُهَا السَّوَادَ وَقَلَمًا أَبْصَرْتُ أَقْلَامًا بَغَيْرِ مَدَادِ

٥٤٨ - وقال أبو الحسين النفزي^٣ :

بدا يوسفًا وشَدًا معبدًا فللعينِ ما تشتهي والأذنُ
 كأنَّ بأَعلاهُ قُمْرِيَّةً تغردُ من قدّه في غُصْنِ

٥٤٩ - وقال ابنُ صارة :

مُقامٌ حَرٌّ بِأَرْضِ هونٍ عجزُ لَعَمْرِي مِنَ الْمُقِيمِ
 سافرٌ فإن لم نجد كَرِيمًا فمن لثيمٍ إلى لثيمِ

١ زاد في م : في من اعتل بجر ب .

٢ ترجمته في التكملة : ٥١٥ .

٣ م : وقال أبو الحسن النفزي في مهفوف أميف .

وقال المعتمد بن عباد ، رحمه الله تعالى ^١ :

مولاي أشكو إليك داءً أصبح قلبي به قريحاً
سخطك قد زادني سقاماً فابعث إليّ الرضى مسيحاً

قال بعضهم : وقوله « مسيحاً » من القوافي التي يتحدى بها .

وكتب إلى أبيه جواباً عن تحفة ^٢ :

يا مالكا قد أصبحت كفهُ ساخرةً بالعارضِ الهائلِ
قد أفحمتني منةٌ مثلها يُضيقُ القولَ على القائلِ
وإن أكنُ قصرتُ في وصفها فحسنتُها عن وصفها شاغلي

وكتب إلى وزيره ابن عمار :

لما نأيت نأى الكرى عن ناظري ووددتُه لما انصرفتُ عليه
طلب البشيرُ بشارةً يُجزى بها فوهبتُ قلبي واعتذرتُ إليه

وقال في جارية له كان يحبها ، وبينما هي تسقيه إذ لمع البرق فارتاعت :

يرُوعُها البرقُ وفي كفِّها برقٌ من القهوةِ لتاعُ
ياليت شعري وهي شمس الضحى كيف من الأنوارِ ترتاعُ

ومن توارد الخواطر أن ابن عبّاد أنشد عبد الجليل بن وهبون البيت

الأول ، وأمره أن يذيله ، فقال :

ولن ترى أعجبَ من أنسٍ منٍ مثلٍ ما يمسك يرتاعُ

١ ديوان المعتمد : ٢٣ .

٢ وردت هذه القطع في ديوان المعتمد ٤٢ ، ٦٣ ، ٣١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٣ ، ١٠ ، ٢٥ ، ٧ .

وقال المعتمد ، رحمه الله تعالى :

داوى ثلاثته بلطف ثلاثة ففنى بذاك رقيبَه لم يشعِرِ
أسرارهُ بتستر ، وأوارهُ بتصبر ، وخبائلهُ بتوقُّرِ

وكانت له جارية اسمها « جوهرة » وكان يحبها ، فجرى بينهما عتاب ،
ورأى أن يكتب إليها يسترضيها ، فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها ، فقال :

لم تصف لي بعدُ وإلاّ فلمْ لم أرَ في عنوانها جوهرة
درتْ بأنتي عاشقٌ لاسمها فلم تُردْ للغيط أن تذكره
قالتْ : إذا أبصره ثابتاً قبله ، والله لا أبصره

وقال في هذه الجارية :

سرورنا بعدكم ناقصٌ والعيشُ لا صافٍ ولا خالصُ
والسعدُ إن طالعتنا نجمه وغبتِ فهو الآفلُ الناكصُ
سموكِ بالجوهريِّ مظلومةٌ مثلك لا يدركه غائصُ

وقال فيها أيضاً :

جوهرةٌ عذبتني منك تمادي الغضبِ
فزفرتي في صعدي وعبرتي في صيبِ
يا كوكبَ الحسن الذي أزرى بيزهرِ الشهبِ
مسكنك القلبُ ، فلا ترضي له بالوصبِ

وقال في جارية اسمها وداد :

اشرب الكأسَ في ودادٍ ودادك وتأنسْ بذكرها في انفرادك

١ ق : وغيث .

قمرٌ غابَ عن جفونكَ مرآهُ وسكناهُ في سوادِ قوادكُ

وقال ١ :

لكَ اللهُ كم أودعتَ قلبيَ من أسَى
لحاظكَ طولَ الدهرِ حربٌ لمهجتي
وكم لك ما بين الجوانح من كَلِمٍ
ألا رحمةٌ تثنيك يوماً إلى سِلْمِي

وقال :

قلتُ : متى ترَحمني ؟ قال : ولا طولَ الأبدِ
قلتُ : فقد أبأسني من الحياة ، قال : قد

٥٥١ - وأهدى أبو الوليد ابن زيدون باكورة تفاحٍ إلى المعتضد والد المعتد ، وكتب له معها ٢ :

يا من تزينت الريا سةٌ حينَ ألبسَ ثوبها
جاءتك جامدةٌ المدا مٍ فخذ عليها ذوبها

٥٥٢ - وقال المعتد وقد أمره أبوه المعتضد أن يصف مجناً فيه كواكب فضة ٣ :

مجنٌ حكى صانعه السما لتقصر عنه طوال الرماحُ
وقد صوروا فيه شبهَ الثريا كواكبَ تقضي لهُ بالنجاحُ

٥٥٣ - وقال ابن اللبابة : كنتُ بينَ يدي الرشيد ابن المعتد في مجلس أنسه ، فورد الخبير بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣ ، ففتح جمع وتلف ،

١ سقط البيتان من م .

٢ ديوان ابن زيدون : ٢٢١ .

٣ ديوان المعتد : ٢٩ .

واسترجع وتأسف ، وذكر قصر غرناطة ، فدعونا لقصره باللوام ، والملكه
بترأخي الأيتام ، وأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء ، فغنى :

يا دار مية بالعلياء فالسندِ أقوت وطال عليها سالف الأمدِ

فاستحالت مسرته ، وتجهمت أسرته ، وأمر بالغناء من ستارته ، فغنى :

إن شئت أن لا ترى صبراً لمضطربٍ فانظر على أي حال أصبح الطللكُ

فتأكد تطيره ، واشتد اربيدادُ وجهه وتغيره ، وأمر مغنية أخرى من

سرايه بالغناء ، فغنت :

يا لهف نفسي على مالٍ أفرقه على المقلين من أهل المروءاتِ

إن اعتداري إلى من جاء يسألني ما لست أملك من إحدى المصيباتِ

قال : فتلافت الحال بأن قلت :

محلٌ مكرمة لا هدً مبناهُ وشملٌ مائرة لا شتت اللهُ

البيتُ كالبيت لكن زاد ذا شرفاً أن الرشيد مع المعتد ركناهُ

ثاب على أنجم الجوزاء مقعدهُ وراحل في سبيل السعد مسراهُ

حتم على الملك أن يقوى وقد وصلت بالشرق والغرب يمناهُ ويسراهُ

بأس توقد ، فاحمرت لواحظهُ وناثل شب ، فاخضرت عذاراهُ

فلعمري لقد بسطت من نفسه ، وأعادت عليه بعض أنسه ، على أنني وقعت

فيما وقع فيه الكل لقولي « البيت كالبيت » . وأمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء ،

فغنى :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ولم يبقَ إلا أن نؤمَّ الركائبُ

١ ب : لاشته .

فأيقنًا أن هذا التطير ، يعقبه التغير .

٥٥٤ — وقد كان المعتضد بن عباد — حين تصرمت أيامه ، وتداني حيامه — استحضر مغنياً يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألاً ، وكان المغني السوسي ، فأول شعر قاله :

نَطْرِي المَنازِلَ علماً أن ستَطُونَا فَشَعَشَعِيهَا بِماءِ المُزْنِ واسقينا
فمات بعد خمسة أيام ، وكان الغناء من هذا الشعر في خمسة أبيات .

٥٥٥ — وقال المعتمد بعلمنا خُلع وسجن^١ :

قَبِحَ الدهرُ فماذا صَنَعَا كَلِّمَا أعطى نفيساً نزعا
فَكَدَّ هوى ظُلماً بمن عادائِهِ أن ينادي كلَّ من يهوي : لَعَا
من إذا قيل الخبي صمَّ ، وإن نطق العافونَ همساً سمعا
قُلْ لمن يطمعُ في نائلِهِ قد أزال اليأسُ ذاك الطمعا
راحَ لا يَمْلِكُ إلاَّ دعوةً جَبَرَ اللهُ العُفَاةَ الضُّيْعَا

٥٥٦ — وقال ابن الببَّانة : كنت مع المعتمد بأغمات ، فلما قاربت الصِّدْرَ ، وأزمت السفر ، صرف حَيْلَهُ ، واستنفد ما قَبِلَهُ ، وبعث إليَّ مع شرف الدولة ولده — وهذا من بنيه أحسنُ الناسِ سَمْتاً ، وأكثرهم صَمْتاً ، تحججه اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، مسارع في اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ اللواوين ، مفتوح فيها من خطه زهر الرياحين — بعشرين مثقالاً مرابطة ، وثوبين غير مخيطين ، وكتب معها أبياتاً منها^٢ :

إليكَ النَّزْرَ من كَفِّ الأسيرِ وإن تقنعَ تكنَ عَيْنَ الشُّكُورِ

١ ديوان المعتمد : ١٠٨ .

٢ ديوانه : ١٠٢ .

تقبَّلْ ما ينوبُ لهُ حياةٌ وإن عَدَرْتَهُ حالاتُ الفقيرِ

فامتنت من ذلك عليه ، وأجبتَه بأبيات منها :

تركتُ هواك وهو شقيقُ ديني لئن شُقَّتْ بُرودي عن غدورِ
ولا كنتُ الطليقَ من الرزايا إذا أصبحتُ أجحفُ بالأسيرِ
جديمةُ أنت ، والزبَاءُ خانتُ وما أنا من يقصرُ عن قصيرِ
تُصَرِّفُ في الندى حيلَ المعالي فتسمعُ من قليلٍ بالكثيرِ
وأعجبُ منك أتك في ظلامِ وترفعُ للعفاةَ منارَ نورِ
رويدك سوف توسعني سروراً إذا عادَ ارتقاؤك للسريـرِ
وسوف تحلّني رتبَ المعالي غداةَ تحلُّ في تلك القصورِ
تزيدُ علي ابن مروانِ عطاءً بها وأزيدُ ثمَّ علي جريـرِ
تأهبُّ أن تعودَ إلى طلوعِ فليس الحسفُ ملتمَّ البـدورِ

وأتبعها أبياتاً منها :

حاشَ لله أن أجيحَ كريماً يتشكى فقراً وقد سدَّ فقرا
وكفاني كلامك الرطبُ نيلاً كيف ألغي درأً وأطلب تبرا
لم تمّتْ إنمّا المكارمُ ماتتْ لا سقى الله بعدك الأرضَ قطـرا

ورأى ابن اللبّانة أحد أبناء المعتمد ، وهو غلام وسيم ، وقد اتخذه الصياغة صناعة ، وكان يلقب أيام سلطانهم من الألقاب السلطانية بفخر الدولة ، فنظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ ، وقد جلس في السوق يتعلّم الصياغة ، فقال :

شكأتنا لك يا فخرَ العلاء عظمتُ والرزءُ يعظمُ ممّن قدَرُهُ عظُما
طوّقتُ من نائباتِ الدهرِ مُخنّقةً ضاقتُ عليكَ وكم طوّقتنا نِعما
وعاد طوّقتُ في دكانِ قارعةٍ من بعد ما كنتَ في قصرِ حكي إرما

صرّفتَ في آلة الصوّاعِ أنملةٌ
 يدٌ عهدتُكَ للتبصيلِ تبسطها
 يا صائغاً كانت العليا تُصاغ لهُ
 للنفخ في الصُّورِ هَوَلٌ ما حكاه سوى
 وددتُ إذ نظرتُ عيني إليكَ بهِ
 ما حطّكَ الدهرُ لما حطَّ عن شرفِ
 لُح في العلا كوكباً، إن لم تلح قمرأً
 واصبر فرمما أحمدتَ عاقبةً
 والله لو أنصفتك الشهبُ لأنكسفتُ
 أبكى حديثك حتى المرّ حينَ غدا
 لم تدّر إلا الندى والسيفَ والقلم
 فتستقلُّ الثريا أن تكون فما
 حلّياً وكان عليه الحليُّ منتظماً
 هولٍ رأيتك فيه تنفخ الفَحماً
 لو أن عيني تشكو قبلَ ذلك عسى
 ولا تحيِّفَ من أخلاقك الكرماً
 وقم بها ربوة ، إن لم تقم علماً
 من يلزم الصبرَ يحمدُ غباً ما لزم
 ولو وقي لك دمعُ الغيثِ لانسجماً
 يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسماً

٥٥٧ - وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى^١ : وقتتُ على قبر
 المعتمد بن عبّاد بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية ،
 باعشها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ ، وهو بمقبرة أغمات في نشز
 من الأرض ، وقد حفّت به سِدْرَةٌ ، وإلى جانبه قبر اعتماد حطّيته مولاة
 رُمَيْتِك ، وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الحمول من بعد الملك ، فلا تملك العين
 دمعها عند رؤيتها ، فأنشدت في الحال :

قد زرتُ قبرك عن طَوَعِ بأغماتِ
 لمْ لا أزورك يا أندى الملوكِ بدأ
 وأنت من لو تخطى الدهرُ مصرعهُ
 أنافَ قبرك في هَضْبٍ يميّزهُ
 كرمتُ حياً وميتاً واشتهرتُ علاً
 رأيتُ ذلك من أولى المهماتِ
 ويا سراجَ الليالي الملهماتِ
 إلى حياتي بلحادثٍ فيه أبياتي
 فتتحيه حفياتُ التحياتِ
 فأنتَ سلطانُ أحياءِ وأمواتِ

١ انظر مشاهدات لسان الدين : ١٣٣ نقلا عن نقاضة الجراب ، وأزهار الرياض ١ : ٢٩٧ وستاتي
 القصيدة في الباب الخامس بشر لسان الدين .

ماريء مثلك في ماضٍ ، ومعتقدي أن لا يرى الدهرَ في حال وفي آت
وقد زرت أنا قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات سنة ١٠١٠ ، ورأيت فيه
مثل ما ذكره لسان الدين رحمه الله تعالى ، فسبحان من لا يبئدُ ملكه ،
لا إله إلا هو .
وأخبار المعتمد كثيرة .

٥٥٨ — وقال وزيره أبو الوليد ابن زيلون^١ :

متى أخف الغرام يصفه جسمي بالسنة الضنى الخرس الفصاح
فلو أن الثياب نزعن عني خفيت خفاء خصرك في الوشاح
وقال يخاطب المعتمد :

وطاعة أمرك فرض أراه من كل مفترض أوكد
هي الشرع أصبح دين الضمير فلو قد عصاك لقد أخلدا
وقال فيه :

يا ندى يبنى أبي القاسم عم يا سنا بشر المحيا أشمس
وارتشف معسول نغري أشنب لحبيب من عجاج العس
وقال :

مهما امتلحت سواك قبل فإتما مدحى إلى مدحى لك استطراد
تغشى الميادين الفوارس حبة كيما يعلمها التزال طراد
وقال :

١ وردت هذه المقطعات في ديوان ابن زيلون : ٤٢٩ ، ٢١٦ ، ٢١٢ ، ٤٦٥ ، ٤٣٦ ، ٢٢٩ .

بِحَيْبِي بِرِيحَانِ التَّجْنِي وَيصحبني مُعْتَقَةَ السَّمَاحِ
فَهَا أَنَا قَدْ ثَمَلْتُ مِنَ الْأَيَادِي إِذَا اتَّصَلَ اغْتَبَاتِي بِاصْطِبَاحِي
وكتب إلى أبي عامر يستدعيه :

أَبَا الْمَعَالِي نَحْنُ فِي رَوْضَةٍ فَانْقُلْ لَنَا الْقَدَمَ الْعَالِيَةَ
أَنْتَ الَّذِي لَوْ نَشَرْتِي سَاعَةً مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ غَالِيَةَ
وتذكرت هنا قول بعض المشاركة فيما أظن :

لِلَّهِ أَيَّامٌ مَضَتْ مَأْنُوسَةٌ مَا كَانَ أَحْسَنَهَا وَأَنْضَرَهَا مَعَا
لَوْ سَاعَةٌ مِنْهَا تَبَاعَ شَرِيئَتُهَا وَلَوْ أَنَّهَا بِيَعْتُ بِعَمْرِي أَجْمَعَا
رجع :

٥٥٩ - وقال أبو القاسم أسعد من قصيدة في المعتمد بن صُادح^١ :

وَقَدْ ذَابَ كَحَلِّ اللَّيْلِ فِي دَمْعِ فَجْرِهِ إِلَى أَنْ تَبَدَّى اللَّيْلُ كَاللَّمَّةِ الشَّمْطَا
كَأَنَّ الدُّجَى جَيْشٌ مِنَ الزَّنَجِ نَافِذٌ وَقَدْ أَرْسَلَ الْإِصْبَاحُ فِي إِثْرِهِ الْقَبْطَا
ومنها :

إِذَا سَارَ سَارَ الْجُودُ تَحْتَ لَوَائِهِ فَلَيْسَ يَحِطُّ الْمَجْدُ إِلَّا إِذَا حَطَا

٥٦٠ - وقال ابن خَلِصَةَ الْمَكْفُوفِ^٢ النَّحْوِي مِنْ قَصِيدَةٍ :

مَلِكٌ تَمَلَّكَ حُرَّ الْمَجْدِ، لَا يَدُهُ نَالَتْ بِظَلْمٍ وَلَا مَالَتْ إِلَى الْبَخْلِ
مَهْدَبٌ الْجِدِّ مَاضِي الْجِدِّ مَضْطَلَعٌ لَمَّا تُحَمَلَةُ الْعِلْيَاءِ مِنْ ثِقَلِ

١ المطمح : ٨٣ وقد مرت بمض أبيات هذه القصيدة ص : ٥١ .
٢ ترجمة ابن خَلِصَةَ فِي التَّحْفَةِ (ص : ١) وَالْوَافِي ٢ : ٤٢ ، ٤٣٢ .

أغرُّ ، لا وعده يحشى لهُ أبدأ
 قد جاوزتُ نطقَ الجوزاءِ همته
 يأبى لهُ أن يجلِّ الدمُّ ساحتَهُ
 خُلِفُ ، ولا رأيه يؤتى من الزللِ
 به ، وما زحلتُ عن مرتقى زُحلِ
 ما صدَّ من جلالٍ أو سدَّ من خللِ
 ومنها :

إن لم تكن بكم حالي مُبدلةً
 فما انتفاعي بعلمِ الحالِ والبدلِ
 ٥٦١ - وقال ابن الخلداد يمدح المعتصم بن صُدام :

عُجُّ بالحمى حيثُ الغياضُ العينُ
 واستقبلنُ أَرَجَ النسيمِ فدارهمُ
 أفقُ إذا ما رمتَ لحظةَ شموسهِ
 أتى أراعُ لهمُ وبينَ جوانحي
 أتى يهابُ ضيرابهم وطيعانهمُ
 فكأنما بيضُ الصفاحِ جداولُ
 ذرني أسرُ بينَ الأسننةِ والظُبي
 يا ربةَ القرطِ المعيرِ خفوقهُ
 توريدُ خدكِ للصبابةِ موردُ
 فإذا رمقتِ فوحى جِبكِ مُنزَلُ
 فعسى تعنُّ لنا مهاهُ العينُ
 نديَّة الأرجساء لا دارينُ
 صدَّتكَ للنفعِ المثارِ دُجونُ
 شوقُ يهونُ خطبهمُ فيهونُ
 صبُّ بالحاظِ العيونِ طعينُ
 وكأنما سمرُ الرماحِ غصونُ
 فالقلبُ في تلكِ القبابِ رهينُ
 قلبي ، أما لحراكه تسكينُ ؟
 وفتورُ طرفكِ للنفوسِ فتونُ
 وإذا نطقتِ فإنهُ تلقينُ

ومنها في وصف قصر :

رأسُ بظهر النون إلا أنهُ
 هو جنةُ الدنيا تبوأ نزلها
 فكانتُما الرحمنُ عَجَلتُها لهُ
 وكانَ بانيهُ سينمارُ فما
 سامٍ ، فقبتته بحيثُ النونُ
 ملكُ تملكهُ الثمقي والدينُ
 ليرى بما قد كان ما سيكونُ
 يعلوه تحسينُ ولا تحصينُ

وجزاؤه فيه نقيضُ جزائه شتانَ ما الإحياءُ والتحيينُ

ومنها في المديح :

لا تُلقحُ الأحكامُ حَيْفًا عندهُ فكانتْها الأفعالُ والتتوينُ

ومنها :

وبدا هلالُ الأقبِ أحنى ناسخاً عهدَ الصيامِ كأنه العُرْجُونُ
فكانَ بَيْنَ الصومِ خَطَطٌ نحوه خطأً خفياً بانَ منه النونُ

٥٦٢ - وقال عبد الجليل بن وهبون :

زعموا الغزالَ حكاةً قلتُ لهم : نعم في صدّه عن عاشقيه وهجره
وكذا يقولون الملامُ كريقه يا ربُّ ما علموا مذاقة ثغره

٥٦٣ - وقال أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي وهب الأندلسي :

قالوا : تدانيت من وداعهم ولم ترَ الصبرَ عنك مغلوباً
قلتُ : للعلمِ أتى بغدٍ أسمعُ لفظَ الوداعِ مغلوباً

وهذا كقول بعض شعراء اليتيمة^١ :

إذا دماك الوداعُ فاصبرُ ولا يروعنك البعادُ
وانتظر العودَ عن قريبٍ فإنَّ قلبَ الوداعِ عادوا

٥٦٤ - وقال ابن اللبانة^٢ :

إن تكن تبتغي القتالَ فدعني عنك في حومة القتالِ أحمي

١ مر البيتان في ج ١ : ٩٢ .

٢ زاد في م : في التورية .

خذ جناني عن جنّةٍ ، ولساني عن سنانٍ ، وخاطري عن حُسامٍ - ٥٦٥
 وقال القزاز يمدح ابن صُمّاح ، وخطب النسيب بالمديح :

نفى الحبُّ عن مقلبي الكرى كما قد نفى عن يديّ العدمُ
 فقد قرَّ حبُّك في خاطري كما قرَّ في راحتك الكرمُ
 وفرَّ سلوكك عن فكري كما فرَّ عن عرضه كلُّ ذمِّ
 فحبِّي ومفخره باقيان لا يذهبان بطولِ القلمِ
 فأبقي لي الحبَّ خالٌ وجدٌ وأبقي له الفخرَ خالٌ وعمُّ

٥٦٦ - وقال أبو الحسن ابن الحاج :

أذوبُ اشتياقاً يومَ يحجبُ شخصهُ ولأتي على ريبِ الزمانِ لقاسي
 وأذعرُ منه هيئةٌ وهو المني كما يذعرُ المخمورَ أولُ كاسِ

وقال :

من لي بطرفٍ كأنني أبداً منهُ بغيرِ المدامِ مخمورُ
 ما أصدقُ القائلين حينَ بنا : عاشقُ هذا الجمالِ معنورُ

وقال ١ :

أبا جعفرٍ ، مات فيك الجمالُ فأظهرَ خسدك لبسَ الحدادِ
 وقد كان يُنبِتُ نورَ الربيعِ فقد صار يُنبِتُ شوكَ القتادِ
 فهل كنتَ من عبدِ شمسٍ فأخشى عليكَ ظهورَ شعارِ السوادِ

وقال ، وما أحكمه :

ما عجبي من بائعٍ دينهُ بلنقٍ يبلغُ فيها هواهُ

١ انظر المغرب ٢ : ٢٨١ والقلائد : ١٤٤ .

ولتأما أعجبُ من خاسرٍ يبيعُ أخراهُ بدنيا سواهُ
وقال من مُخَمَّسةٍ يرثي فيها ابن صمادح ، ويندب الأندلس زمن الفتنة :

من لي بمجبولٍ على ظلم البشرِ صَحَّفَ في أحكامه حياءَ الحورِ
مرَّ بنا يسحبُ أذيالَ الحفرِ ما أحسدَ الظبيَ له إذا نقرَ
وأشبه الغُصنَ به إذا خطرَ

كافورةٌ قد طُرِّزتْ بمسكِ جوهرةٌ لم تمتهنُ بسلكِ
نبتتُ فيها ورعي ونُسكي بَعَدَ بلحاجي في التقى ومعكي
فاليومَ قد صحَّ رجوعي واشتهرُ

نهيتُ قديماً ناظري عن نظري علماً بما يجني ركوبُ الغريرِ
وقلتُ: عرَّجَ عن سبيلِ الخطرِ فاليومَ قد عينَ صدقَ الخبرِ
إذ باتَ وقفاً بينَ دمعٍ وسهرِ

سقى الحيا عهداً لنا بالطاقِ معتركِ الألبابِ والأحداقِ
وملتقى الأنفسِ والأشواقِ أيا أس فيه الدهرُ عن تلاقي
وربما ساءك دهرٌ ثمَّ سرَّ

أحسِنُ بهِ مُطلِعاً ما أغرباً قابلٍ من دجلةٍ مرأى معجبا
إن طلعتْ شمسٌ وقد هبتْ صبا حسبته ينشرُ بُرداً مُذهبا
بمنظرٍ فيه جِلاءٌ للبصرِ

ياربِّ أرضٍ قد دخلتْ قصورها وأصبحتْ أهلةً قبورها
يشغلُ عن زائرها مزورها لا يأملُ العودةَ من يزورها
هيهات: ذاك الورد ممنوع الصدَّرُ

تتحبُّ الدنيا على ابنِ مَعْنٍ كَأَنَّهَا تُكَلِّمِي أُصَيْبَتُ بَابِنِ
أَكْرَمِ مَأْمُولٍ وَلَا أُسْتَنْبِي أَنِّي بِنُعْمَاهُ وَلَا أُثْنِي
وَالرَّوْضُ لَا يُنْكِرُ مَعْرُوفَ الْمَطَرِ

عهدي به والملكُ في ذِمَارِهِ والنصرُ فيما شاء من أنصارِهِ
يطلعُ بَدْرُ التَّمِّ من أزرارِهِ وتكمنُ العَفَّةُ في إزارِهِ
ويحضرُ السُّوددُ أَيْتَانَ حَضَرَ

قلْ للتوى جَدًّا بنا انطلاقُ ما بعدتُ مصرُ ولا العِراقُ
إذا حدا نحوهما اشتياقُ ومن دواءِ المللِ الفِراقُ
ومن نأى عن وطنٍ نالَ وطَرُ

سارِ بِنِي بَرْدٍ من الإصباحِ رَاكِبُ نَشْوَى ذاتِ قَصْدِ صَاحِ
مَسودَّةٍ مِيضَتِ الجِناحِ تَسِجُ بَيْنَ المَاءِ والرِّياحِ
بِزَوْرَها عن طافِحِ المَوجِ زَوْرُ

يقتحمُ الهولَ بها اغترارا في فنيةٍ تحسبها سُكاري
قد افترشنَ المَسَدَ المَغَارَا حَتَّى إذا شارفتِ المَنارا
هَبَّ كما بَلَّ العَليْلُ المَحْتَضِرُ

يَوْمُ عَدَلِ المَلِكِ الرَضِيِّ المَاشِمِيِّ الطَّاهِرِ النَقِيِّ
والمَجْتَبِيِّ مِنَ ضَنْضِيِّ النَبِيِّ من وَلدِ السَّفاحِ والمَهْدِيِّ
فَخَرَّ مَعْدِيَّ وَنَزَارِيَّ وَمُضَرَّ

حيثُ تَرى العِباسَ يُسْتَسْقَى بِهِ والشرفُ الأعظمُ في نِصابِهِ
والأمرَ موقوفاً على أربابِهِ والدينَ لا تَخْتَلطُ الدُّنيا بِهِ
وسِيرةَ الصِّدِّيقِ تَمْضِي وَغُمرَ

وقال ابن خفاجة في صفة عوس^١ :

عوجاء تُعْطَفُ ثُمَّ تُرْسَلُ تَارَةً
فكأنما هي حيةٌ تنسابُ
وإذا انحنت، والسهمُ منها خارجٌ
فهي الهلالُ انقضى منه شهابُ

وقال :

وعسى الليلي أن تمنَّ بنظمننا
عقداً كما كنا عليه وأكلا
فقرّبنا نُشِرَ الجُمانُ تعمّداً
ليعاد أحسنَ في النظامِ وأجملا
وهو من قول مهيّار :

عسى اللهُ يَجْعَلُها فُرْقَةً
تَعُودُ بِأَكْثَلِ مُسْتَجْمِعِ

وقول المتنبي :

سألتُ اللهَ يَجْعَلُهُ رَجِيلاً
يعينُ على الإقَامَةِ في ذَرَاكَا

وقال :

اقضِ على خَلْكَ أو ساعِدِ
عشتَ يَجِدُ في العُلا صاعِدِ
فقدَ بكى جفني دماً سائلاً
حتى لَقَدَ ساعِدَهُ ساعِدِي

وقال :

وأسودُ يسبحُ في بركةِ
كأنها في صفوها مقلّةُ
لا تكتمُ الحصباءُ غُدْرانها
زرقاءُ ، والأسودُ إنسانها

١ راجع ديوان ابن خفاجة : ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، والثانية مرت في ج : ٢١

وقال :

حيًا بها ونسيمها كنسيمه
فشربتها من كفه في وده
منساعة فكانتها من ريقه
محمرة فكانتها من خده

وقال :

لعمري لو أوضعتُ في منتهج التقى
فما يستقيم الأمرُ ، والمملك جائر
لكان لنا في كلّ صالحه نهجُ
وهل يستقيم الظلُّ ، والعودُ معوجُ

وقال يرثي صديقاً من أبيات :

تيقنَ أنّ الله أكرمُ جيرةٍ
فإن أقررتُ منه العيونُ فإنه
ولم أرَ أنساً قبله عادَ وحشةً
ومن تكُّ أيامُ السرورِ قصيرةً
فأزمعَ عن دار الحياة رَحِيلاً
تعوّضَ منها بالقلوبِ بديلاً
وبرداً على الأكبادِ عاد غليلاً
به كان ليلُ الحزنِ فيه طويلاً

وقال :

تفاوت نجلا أبي جعفر
فهنا يمينا بهسا أكله
فمن متعال ومن منسقل
وهذا شمال بها يغتسل

٥٦٨ - وقال ابن الرقاء :

ولمّا رأيتُ الغربَ قد غصّ بالدجى
توهمتُ أنّ الغربَ بحرٌ أخوضه
وفي الشرقِ من ضوء الصباحِ دلائلُ
وأنّ الذي يبئلو من الشرقِ ساحلُ

٥٦٩ - وقال أبو محمد ابن عبد البر الكاتب :

لا تُكثرنَّ تاملًا
وامسكْ عليك عنان طريفك

فلربما أرسلته فرماكَ في ميدانٍ حتفِكَ

٥٧٠ - وقال أبو القاسم السميسر^١ :

يا آكلًا كلَّ ما اشتهاهُ وشاتمَ الطَّبِّ والطَّيِّبِ
ثمَّار ما قد غرستَ تجي فانتظرِ السقمَ عن قريبِ
يجتمعُ الداءُ كلَّ يومٍ أغذيةُ السوءِ كالذنوبِ

وكان كثير الهجاء ، وله كتاب سماه بـ « شفاء الأمراض في أخذ الأعراض »
والعباد بالله تعالى .

ومن قوله :

ختمَ فهنمٌ وكم أهتمُّ زمانَ كنتمُ بلا عيونِ
فأنتمُ تحتَ كلِّ تحتٍ وأنتمُ دونَ كلِّ دونِ
سكنتمُ يا رياحَ عادٍ وكلُّ ربحٍ إلى سكونِ

وقال^٢ :

يا مُشفقاً منِ خُمُولِ قومٍ ليسَ لهم عندنا خلاقُ
ذَلُّوا ويا طالما أذلُّوا دعهمُ بنوقوا الذي أذاقوا

وقال :

وليتمَّ فما أحسنتمُ منذ وليتمُ ولا صنتمُ عمَّن يصونكمُ عِرْضاً
وكنتمُ سماءَ لا يُنالُ منالها فصرتمُ للذي منَ لا يسألُكمُ أرضاً
ستسرجُ الأيامُ ما أقرضتكمُ ألا إنها تسرجُ الدينَ والقرضا

١ اللخيرة ٢/١ : ٣٨٠ .

٢ اللخيرة ٢/١ : ٣٧٥ .

٥٧١ - وقال ابن شاطر السرقسطي :

قد كنتُ لا أدري لأيةِ علّةٍ صارَ البياضُ لباسَ كلِّ مصابٍ
حتى كساني الدهرُ سَحَقَ ملاءةٍ بيضاءٍ مِن شبيبي لفقدي شَبَابِي
فبذا تبينَ لي إصَابَةُ مَنْ رَأَى لبسَ البياضِ على نَوَى الأَحْجَابِ

٥٧٢ - وهذه عادة أهل الأندلس ، ولهذا قال الحُصْرِي :

إذا كان البياضُ لباسَ حُزْنٍ بأندلسٍ فذاك من الصوابِ
ألم تَرَني لبستُ بياضَ شبيبي لأنني قد حزنتُ على الشَّبَابِ
وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

لو كنتَ زائرتي لراعك منظرِي ورأيتَ بي ما يَصْنَعُ التفريقُ
ولحال من دمعي وحرَّ تنفُسي بيّتي وبينك بلحّةٌ وحرِيقُ

٥٧٣ - وقال ابن عبد الصمد يصف فرساً :

على سابحٍ فرَدٍ يفوتُ بأربعٍ له أربعاً منها الصبَا والشمائلُ
من الفُتُخِ خوارِ العنانِ كأنه مع البرقِ سارٍ أو مع السيلِ سائلُ

٥٧٤ - وقال ابن عبد الحميد البرجي :

أرِحْ مَنْ المهنّدِ والجوادِ فقدَ تعبًا يجِدْكَ في الجهادِ
قضيتَ بعزيمةٍ حقَّ العوالي ققضُ براحةٍ حقَّ الهوادي

٥٧٥ - وقال عبادة :

إنما الفتحُ هلالٌ طالعٌ لاحَ من أزراره في فلكِ
خَدَّةِ شمسٍ ، وليلٌ شَعْرُهُ مَنْ رَأَى الشمسَ بَدتْ في حلكِ

٥٧٦ - وقال ابن المطرف النجم :

يرى العواقبَ في أثناء فكرته كأنّ أفكاره بالغيب كهُنَّ
لا طرفةً منه إلا تحتها عملٌ كالدهر لا دورةٌ إلا لها شأنٌ

٥٧٧ - وقال أبو الحسن ابن اليسع :

راموا ملامي ، وكان إغرا ودمٌ حي ، وكان إطرا
لو علم العاذلون ما بي لا تقلبت فيه لامهم را

وقال :

لما قدّمت وعندي شطرٌ من الشوقِ وافي
قدّمتُ قلبي قبلي فصنّه حتى أوافي

٥٧٨ - ولما خاطب المستنصر ملك إفريقية ابن سيد الناس بقوله :

ما حالُ عينيكَ يا عينَ الزّمانِ فقد أورتني حزناً من أجلِ عينيكَا
وليس لي حيلةٌ غيرُ الدعاءِ فيا ربّ براوي الصّحيحينِ حنائيكَا

أجابه الحافظ أبو المطرف ابن عميرة المخزومي خدّمة عن الحافظ أبي بكر ابن
سيد الناس :

مولايَ حالهما واللهِ صالحةٌ لما سألتَ فأعلى اللهُ حاليكَا
ما كان من سفرٍ أو كان من حضرٍ حتى تكونَ الثرياً دونَ تعليكَا

٥٧٩ - وقال الأديب أبو العباس الرّصافي ، وهو من أصحاب أبي

حيّان :

هذا هلالُ الحسنِ أطلعَ بيننا وجميعنا بجلى محاسنه شُغِفُ

لَمَّا رَأَى صَيْلُ الْعِنَارِ بِنَدَاهُ مَاءَ النِّعِيمِ أَتَى إِلَيْهِ لِيَرْتَشِفُ
فَكَأَنَّ ذَاكَ الْخَلْدُ أَنْكَرَ أَمْرَهُ فَاحْمَرَّ مِنْ حَنْقٍ عَلَيْهِ وَقَالَ قَيْفُ

وقال :

وعشيةً نعمتُ بها أرواحنا والحمرةُ قد أخذتُ هنالكَ حصَّها
وكأنما إبريقنا. لَمَّا جئنا ألقى حديثاً للكؤوسِ وقهقهها

٥٨٠ - وقال الإمام الخافظ أبو الربيع ابن سالم :

كأنما إبريقنا عاشقٌ كَلَّ عن الخطوِ فما أعمله
غازل من كأسٍ حبيباً له فكَلَّمنا قبلَه أنجمله

٥٨١ - وقال أبو القاسم ابن الأبرش :

رأيتُ ثلاثةً تحكي ثلاثاً إذا ما كنتَ في التشبيهِ تُنصِفُ
فتنَجوا النيلُ منفعةً وحسناً وشننرينُ مصرُ ، وأنتَ يوسفُ

وقال في غريق ، وقيل : إنَّه ممَّا تمثَّل به ٢ :

الحمدُ لله على كلِّ حالٍ قد أطفأ المَاءَ سراجَ الجَمالِ
أطفأه ما كانَ محيياً له قد يطفىء الزيتُ ضياءَ الذبَالِ

وهو القائل أيضاً :

لو لم يكن لي أباءُ أسودُ بهم ولم يؤسس رجالُ الغربِ لي شرفاً
ولم أنلُ عند ملكِ العصرِ منزلةً لكانَ في سيبويه الفخرُ لي وكفى
فكيف علمٌ ومجدٌ قد جمعتهما وكلَّ مخلوقٍ في مثلِ ذا وقفا

١ كذا ولعله فتجو أي « تاجه » اسم النهر (Tagus) .

٢ وقيل . . . به : سقطت من م .

٥٨٢ - وقال أبو الحسن ابن حريق :

أصبحت تدميرُ مصرأ كاسمها وأبو يوسفَ فيها يوسفَا

٥٨٣ - وقال أبو القاسم ابن العطار الإشبيلي في بعض الموزنين وقد غرق في نهر طلييرة عند فتحها^١ :

ولما رأوا أن لا مقرَّ لسيفه سوى هاميهم لاذوا بأجرأ منهم
فكان من النهر المعين معينهم ومن ثلَمِ السدِّ الحسامُ المثلُمُ
فيا عجباً للبحرِ غالته نُطفةً وللأسدِ الضرغامِ أرداهُ أرقمُ

٥٨٤ - [نقول من التكملة]

1 - وقال أبو العباس اللص^٢ :

وقائلةً والضمنى شاملي علامَ سهرتَ ولم ترقدِ
وقد ذاب جسمك فوق الفرا شِ حتى خفيت على العودِ
قلتُ : وكيف أرى نائماً ورائي المنية بالمرصدِ

ولما قرىء عليه ديوان أبي تمام ، ومرّ فيه وصف سيف ، قال : أنا أشعر منه حيث أقول :

تراه في غداةِ الغيمِ شمساً وفي الظلماءِ نجماً أو ذبالا
بروعهمُ معاينةً ووهماً ولو ناموا لروّعهم خيالا

2 - وقال أبو إسحاق الإلبيري^٣ :

١ الشعر في القلائد : ٢٨٨ والبيت الثالث في المغرب ١ : ٢٥٤ .

٢ القطمتان في التكملة : ٨٠ .

٣ التكملة : ١٣٧ وديوانه : ١٥٩ .

تمرُّ لِدَآيِ واحدًا بعد واحدٍ وأعلم أنني بعدهم غيرُ خالدٍ
وأحملُ موتاهم وأشهدُ دفنهم كأنني بعيدٌ عنهم غيرُ شاهدٍ
فها أنا في علمي لهم وجهالي كستيقظٍ يرنو بمقلةٍ راقبٍ

قيل : ولو قال في البيت الثاني :

كأنني عنهم غائبٌ غيرُ شاهدٍ

لكان أحسن وأبدع وأبرع في الصناعة الشعرية ، قاله ابن الأبار رحمه الله تعالى .

3 - وقال الوزير أبو الوليد ابن مسلمة^١ :

إذا خانك الرزقُ في بلدةٍ ووافقك من همها ما كثرُ
فمفتاحُ رزقك في بلدةٍ سواها فردُّها تنلُ ما يسرُ
كذا المبهماتُ بوسطِ الكتا ب مفتاحها أبدأ في الطررُ

4 - وقال أبو الطاهر إسماعيل الحشني الجياني المعروف بابن أبي ركب ، وقيل : إن أخاه الأستاذ أبا بكر هو المعروف بذلك^٢ :

يقولُ الناس في مثلٍ تذكّرُ غائباً ترهُ
فما لي لا أرى سكتي ولا أنسى تذكّرهُ

5 - وأنشد أبو المعالي الإشبيلي الواعظ بمسجد رحبة القاضي من بلنسية أبياتاً منها^٣ :

١ التكملة : ١٨٤ .

٢ التكملة : ١٨٥ .

٣ التكملة : ١٩٦ .

أنا في الغربية أبكي ما بكت عينُ غريبِ
لم أكن يومَ خروجي من بلادي بمصيبِ
عجباً لي ولتَرَكي ووطناً فيه حبيبي

6 - وقال أبو القاسم ابن الأنقر السرقُسطي^١ :

احفظ لسانكَ والجوارحَ كلَّها فلكلِّ جارحةٍ عليكَ لسانُ
واخزنْ لسانكَ ما استطعتَ فإنه ليثٌ هَصُورٌ والكلامُ سينانُ

7 - وقال أبو القاسم خلف بن يحيى بن خطاب الزاهد ، ممّا نسبهُ لأبي وهب الزاهد^٢ :

قد تخيرتُ أن أكونَ مخفّاً ليس لي من مطيهمُ غيرُ رجلي
فإذا كنتُ بين ركبٍ فقالوا قدّموا للرحيلِ قدّمتُ نعلي
حيثما كنتُ لا أخلفُ رحلاً من رأني فقد رأني ورحلي

8 - وقال أبو عبد الله ابن محمد بن فتح الأنصاري الشَّغري^٣ :

كَمْ من قويّ قويّ في تقلّبهٍ مهذبِ الرأيِ عنه الرزقُ ينحرفُ
ومن ضعيفٍ ضعيفِ الرأيِ مختبِلِ كأنه من خليجِ البحرِ يغترفُ

9 - وقال أبو القاسم محمد بن نصير الكاتب^٤ :

مضتْ أعمارنا ومضتْ سنوننا فلم تظفرْ بندي ثقة يدانِ
وجربنا الزمانَ فلم يفدنا سوى التخويفِ من أهلِ الزمانِ

١ التكملة : ٣٠١ .

٢ التكملة : ٣٠٤ .

٣ التكملة : ٣٧٥ .

٤ التكملة : ٣٧٨ .

10 - وحكي عن الفقيه الأديب النحوي أبي عبد الله محمد بن ميمون الحسيني ، قال ١ : كانت لي في صَبَوْتِي جارية ، وكنت مُغْرَى بها ، وكان أبي رحمه الله يَعْدِلُنِي ويعرض لي ببيعها ، لأنها كانت تشغلني عن الطلب والبحث عليه ، فكان عَدْلُهُ يُزِيلُنِي إِغْرَاءَهَا ، فرأيت ليلة في المنام كأن رجلاً يأتيني في زي أهل المشرق كلُّ ثيابه بيض ، وكان يُلْتَمَى في نفسي أنه الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما ، وكان ينشدني :

تَصَبُّوْ إِلَى مَيِّ ، وَمَيِّ لَا تَنِي تَزْهُوْ بِبَلْوَاكَ الَّتِي لَا تَنْفِضِي
وَفَخَارِكَ الْقَوْمُ الْأَلَى مَا مِنْهُمْ إِلَّا إِمَامٌ أَوْ وَصِيٌّ أَوْ نَبِيٌّ
فَأَنْ عَانَاكَ لِلْهَلْدَى عَنِ ذِي الْهَوَى وَخَفِ الْإِلَهَ عَلَيْكَ وَيْحَكَ وَارْعَوِي

قال : فانتبهت فزعا مفكراً فيما رأيت ، فسألت الجارية : هل كان لها اسم قبل أن تسمى بالاسم الذي أعرفه ؟ فقالت : لا . ثم عاودتها حتى ذكرت أنها كانت تسمى مَيَّة ، فبعثتها حينئذ . وعلمت أنه وعظُّ وعظمي الله به ، عز وجل ، وبشري .

11 - وقال ابن الحداد أول قصيدته « حديقة الحقيقة » ٢ :

ذَهَبَ النَّاسُ فَأَنْفَرَادِي أَنْيْسِي وَكِتَابِي مَحْدَثِي وَجَلِيسِي
صَاحِبٌ قَدْ أَمَنْتَ مِنْهُ مَكَلَالاً وَاخْتِلَالاً وَكُلَّ خَلَقْتِي يَثِيسِي
لَيْسَ فِي نَوْعِهِ بَحِيٌّ وَلَكِنْ يَلْتَمِي الْحَيُّ مِنْهُ بِالْمَرْمُوسِ

12 - وقال بعض أهل الجزيرة الخضراء ٣ :

١ التكملة : ٣٩٦ .

٢ التكملة : ٣٩٩ .

٣ التكملة : ٤١٥ .

الحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخلود
جرح يجرح فاجعلوا ذا بذنا فما الذي أوجب جرح الصلود

وقال ابن النعمة : إنهما لابن شرف ، وقد ذكرناهما مع جوابهما في غير
هذا الموضع .

13 - وقال المعتمد بن عباد^١ :

اقنعُ بِحظِّكَ في دنيَاكَ ما كانا وعزَّ نفسك إن فارقتَ أوطانا
في الله من كلِّ مفقودٍ مضى عِوَضٌ فأشعيرِ القلبِ سلواناً وإيماناً
أكلِّمنا سنحتَ ذكري طربتَ لها مَجَّتْ دموعُك في خديك طوفانا
أما سمعتَ بِسلطانِ شيبهيكَ قد بزَّتهُ سودُ خطوبِ الدهرِ سلطانا
وطنٌ على الكرهِ وارقبُ إثره فرجاً واستغفرِ الله تغمُّ منهُ غفرانا

14 - وقال أبو عامر البرياني في الصنم الذي بشاطبة^٢ :

بقيةٌ من بقايا الرومِ معجبةٌ أبدى البُناةُ بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمرُوا فيه سوى أممٍ تتابعتْ بعدُ سموه لنا صنما
كالبردِ الفردِ ما أخطا مشبهه حقا لقد بردَ الأيامَ والأما
كأنهُ واعظٌ طالَ الوقوفُ به مما يحدثُ عن عاد وعن إراما
فانظرِ إلى حجَرِ صلْدٍ يكلمنا أسمى وأوعظُ من قُسِّ لمن فهما

قيل : لو قال مكان حكما علما لأحسن .

15 - وقال السمسير^٣ :

١ التكملة : ٤٢٧ وديوانه : ١١٤ .
٢ التكملة : ٤٣٦ .
٣ التكملة : ٤٧٠ وفيه التلمة التالية أيضاً .

إذا شئت إبقاء أحوالكا فلا تُجْرِّجها على بالكا
وكن كالطريق لمجتازها يمرُّ وأنت على حالكا

وقال :

هْنُ إذا ما نلتَ حظاً فأخو العقلِ يهونُ
فمتى حطتْ دهرٌ فكما كنتَ تكونُ

16 - وقال أبو الربيع ابن سالم الكلاعي : أنشدني أبو محمد الشلبي ، أنشدني أبو بكر ابن منخل ، لنفسه^١ :

مضت لي ست بعد سبعين حجةً ولي حركاتٌ بعدها وسكونُ
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى يكونُ الذي لا بدءٌ أن سيكونُ

17 - وقال أبو محمد عبد الحق الإشبيلي^٢ :

لا يخذعتك عن دين الهدى نقرٌ لم يرزقوا في التماسِ الحقِّ تأييداً
عُمي القلوبِ عروا عن كلِّ فائدةٍ لأنهم كفروا باللهِ تقليداً

18 - وقال أبو محمد ابن صارة^٣ :

بنو الدنيا بجهلٍ عظموها فعزّت عندهم وهي الحقيرةُ
يهارشُ بعضهم بعضاً عليها مهارشةِ الكلابِ على العقيرةُ

وقال :

اسعد بمالك في الحياة ولا تكن تُبقي عليه حذاراً فقيرٍ حادثٍ

١ التكملة : ٤٩٦ .

٢ التكملة : ٦٩٩ .

٣ التكملة : ٨١٧ وفي القطعة التالية أيضاً .

فالبخلُ بينَ الحادِثينِ ، وإنّما مالُ البخيلِ لحادثٍ أو وارثٍ
 19 - ودخل أبو محمد الطائي القرطبي على القاضي أبي الوليد ابن رشد ،
 فأنشده ارتجالاً^١ :

قام لي - السيدُ الهمامُ قاضي قضاةِ الورى الإمامُ
 فقلتُ قمُ بي ولا تقمُ لي فقلّما يؤكلُ القيامُ

20 - وقال الحافظ أبو محمد ابن حزم^٢ :

لا تلمني لأنّ سبقتُ لحظاً فات إدراكهُ ذوي الألبابِ
 يسبقُ الكلبُ وثبةَ الليثِ في العَدِّ وِ يعلو النُخالُ فوقَ اللُّبابِ

21 - وقال أبو عبد الله الجبلي الطيب القرطبي^٣ :

اشددْ يديك على كلبٍ ظفرتَ بهِ ولا تدعهُ فإنّ الناسَ قد ماتوا
 قلت : تذكرت بهذا قول الآخر :

اشددْ يديك بكلبٍ إن ظفرتَ بهِ فأكثرُ الناسِ قد صاروا خنازيراً

22 - وقال محمد بن عبد الله الحضرمي مولى بني أمية :

عاشِرِ الناسَ بالحميةِ لِ وسدّدْ وقاربِ
 واحترس من أذى الكرا م وجُدْ بالمواهبِ
 لا يسودُ الجميعَ من نَمّ يَقمُ بالنوائبِ
 ويحوطُ الأذى وير عى ذِمّ الأكاربِ

١ التكملة : ٨٢٤ .

٢ التكملة : ٨٧٥ ومر البيتان ج ٢ - ٨٤ .

٣ التكملة : ٩٠٩ .

لا تواصل إلا الشريه فَا الكَرِيمَ الْمُنَاصِبِ
 من له خيرُ شاهدٍ وَلَهُ خَيْرُ غَائِبِ
 واجتنب وصل كل وعغ لِي دَنِيءِ الْمَكَّاسِبِ

[ابن الأبار]

٥٨٥ - وقال الكاتب الحافظ أبو عبد الله ابن الأبار :

لله نهرٌ كالحباب تَرْقِيشُهُ سامي الحبابِ
 يصفُ السَّمَاءَ صفاؤُهُ فحِصاهُ لَيْسَ بِنَدِي احتجابِ
 وكأتما هو رِقَّةٌ من خالصِ الذهبِ المُنْدَابِ
 غارتَ على شطبيهِ أبٌ كَارُ المُنَى عَصَرَ الشَّبابِ
 والظلُّ يَبْدُو فوقَهُ كالحالِ في خَدِّ الكَتَابِ
 لا بلُّ أدارَ عليه خو فَا الشمسِ منه كالنقَابِ
 مثلَ المجرَّةِ جرٌّ فيهِ ها ذيلُهُ جَوْنُ السحابِ

وقال :

شَتَى محاسنُهُ ، فمن زَهَرَ على نهرٍ تسلسل كالحُبابِ تسلسلاً
 غربتْ به شمسُ الظهيرةِ لاني لإحراقِ صَفْحَتِهِ لِهَيِّاً مُشعلاً
 حتى كساهُ الدوحُ من أفنانه برداً بَمَزْنِ في الأصيلِ مسلسلاً
 وكأتما لمسُ الظلالِ بمتنه قِطْعُ الدماءِ جمِدتْ حينَ تحللاً

وقال بمدح المستنصر صاحب إفريقية :

إنَّ البشائرَ كلَّها جُمِعَتْ للدينِ والدنيا وللأممِ

١ أزهار الرياض ٣ : ٢٢٢ وفي القطعة التالية أيضاً .

في نعمتين جسيمتين هما براء الإمام وببيعة الحرم.

قال ابن الأبار : وأخبرني بعض أصحابنا - يعني أبا عمرو ابن عبد الغني - أنه أنشدهما الخليفة فسبقه إلى عجز البيت الثاني ، فقلت له على البديهة :

فخر لشعري على الأشعار يحفظه خليفة الله كان الله حافظه

وأشار بقوله «وبيعة الحرم» إلى ما ذكره ابن خلدون وغير واحد من المؤرخين أن أهل مكة خطبوا للمستنصر صاحب تونس بعرقه ، وكتبوا له بيعة من إنشاء ابن سبعين المتصوف ، وقد ذكر ابن خلدون نص البيعة في ترجمة المستنصر ، فليراجعها من أرادها .

وقال ابن الأبار :

ألا اسمع في الأمير مقال صدق وخذه عن امرئ خدم الأميرا
متى يكتب ترد وشلا أجابا وإن يركب ترد عذبا نميرا

وقال مجيباً للتجاني :

أيتها صاحب الصفي ، مباح لك عني فيما نصصت الرواية
إن عتاني إسعاف قصلك فيها فلکم لم تزل بها ذا عناية
ولها شرطها فحافظ عليه ثم كافيء وصيبي بالكفاية
ونحام الإخلال جهلك ، لاقية ت من الله عصمة وحمایه

ونص استدعاء التجاني :

إن رأى سيدي الذي حاز في العلم مع الحلم والعلا كل غاية
وحوى المجد عن جلود كرام كلهم في السماح والفضل آية
أن أرى عنه بالإجازة أروي كل ما فيه لي تصح الرواية

من حديثٍ وكلّ نظمٍ ونثرٍ وفنونٍ لهُ بينَ درايه
 فلهُ في ذاكَ الثوابُ من الآ ه ومنّا الثناء دونَ نهاية
 دام في رفعةٍ وعزٍّ وسعدٍ وأمانٍ ومُكِنَّةٍ وحمايه
 ما تولى جيشُ الظلامِ هزيماً وعلتُ للصباحِ في الأفقِ رايه

ولابن الأَبَر ترجمة واسعة ذكرتها في «أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض» فلتراجع فيه .

٥٨٦ — وأمّا التجاني أبو عبد الله هذا المذكور فقد وصفه قريبه أبو الفضل محمد حفيد عمّه في كتابه «الحلى التيجانية والحلل التيجانية» ، قال ابن رشيد : وجمعه باسمنا حفظه الله تعالى وشكره ، وقال في موضع آخر : إنّه باسمه واسم صاحبه الوزير ابن الحكيم ، رحمهما الله تعالى ، انتهى .

٥٨٧ — وقال ابن مفوّز أبو الحسين :

إذا عرّتكَ عَيْلَةٌ يَعْجُزُ عنها ما تجِدُ
 فلتقتصدْ فإنّه ما عالَ قطُّ مقتصدْ

وقال :

حازَ دُنْيَاهُ كُلَّهَا مُحْرِزاً أَكْبَرَ المِنِّ
 مَنْ حَوَى قُوتَ يَوْمِهِ آمِناً سَالِمَ البَلَدِ

وقال :

أعينَ أخاكَ في الذي يأمُلهُ ويرتجيه
 فاللهُ في عَوْنِ الفَتَى ما كانَ في عونِ أخيه

وقال :

أنفَسُ ما أودعتهُ قَلْبِكَ ذكْرِي موقظه

وخيرُ ما أتلفتَهُ مالٌ أفادَ موعظَهُ

٥٨٨ — وقال أبو البركات القميحي : أنشدنا أبو العباس ابن مكنون ،
وقد رأى اهتزاز الثمار وتمايلها ، مرتجلاً :

حارَتْ عقولُ الناسِ في إبداعِها ألسُكْرِها أمْ سُكْرِها تتأوَدُ
فيَقُولُ أربابُ البطالةِ : تنثي ويقولُ أربابُ الحقيقةِ : تسجدُ

قال الشيخ أبو البركات القميحي : قلت لابن مكنون : ما الذي يدل على
أنهما في وصف الثمار ؟ فقال : وطئُ أنت لهما ، فقلت :

يا من أتى متزّهاً في روضةٍ أزهارها من حسنِها تتوقدُ
انظرُ إلى الأشجارِ في دوحاتها والريحُ تنسفُ والطيورُ تغردُ
فترى النصونَ تمايلتْ أطرافُها وترى الطيورَ على الغصونِ تعربدُ

قال ابن رشيد : غلط المذكور في نسبه البيتين لابن مكنون ، وإنما هما
لأبي زيد الفازازي من قصيدة أولها :

نعمُ الإلهِ بشكرِهِ تقيّدُ فاللهُ يُشكّرُ في النّوالِ ويُحمّدُ
مدّتْ إليه أكفُنًا محتاجةً فأنا لها مِنْ جودهٍ ما تعهدُ

والبيتان في أثنائها ، غير أن أولهما في ديوانه هكذا :

تاهتْ عقولُ الناسِ في حركاتِها

انتهى .

ورأيت في « روضة التعريف » لسان الدين بعدهما بيتاً ثالثاً ، وهو :

وإذا أردتَ الجمعَ بينهما فقلْ في شكرِ خالقِها تقومُ وتقعُدُ

٥٨٩ - وحكي أن حافظ الأندلس إمام الأدباء^١ ، رئيس المؤتلفين ، حسنة الزمان ، نادرة الإحسان ، أبا محمد عبد الله بن إبراهيم الصنهاجي الحِجَارِي صاحب كتاب « المسهب » كان سبب اتصاله بعبد الملك بن سعيد جدّ علي بن موسى صاحب « المغرب » أنّه وفد عليه في قلعته ، فلما وقف على بابه وهو بزّي بدّاوة ازدراه البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لي على القائد ، فضحكوا به ، وقالوا له : ما كان وجَدَ القائد مَنْ يدخل عليه في هذه الساعة إلاّ أنت ؟ فمدّ يده إلى دواة في حزامه وسحاة ، وكتب بها : بباب القائد الأعلى - لا زال أهلاً بأهل الفضيلة - رجلٌ وفد عليه من شِلْبَ بقصيدة مطلعها :

عليك أحالي الذّكرُ الجميلُ

فإن رأى سيدي أن يحجب مَنْ بلدُه شِلْبَ ومنّ قصيدُه هذا فهو أعلم بما يأتي ويَدَر ، ولا عتب على القلر ، ورغب إلى أحد غلمانه ، فأوصل الورقة ، فلما وقف عليها القائدُ قال : من شِلْبَ ، وهذا مطلع قصيدته ، ما لهذا إلاّ شأن ، ولعلهُ الوزير ابن عمّار ، وقد نُشِر إلى الدنيا ، عجلوا بالإذن له ، فأذنوا له ودخل وبقي واقفاً لم يسلم ولا كلم أحداً ، فاستنقله الحاضرون ، واستبردوا مقصده ، ونسبوه للجهل وسوء الأدب ، فقال له أحدهم : ما لك لا تسلم على القائد ، وتدخل مداخل الأدباء والشعراء ؟ فقال : حتى أخجل جميعكم قدَر ما أخجلتموني على الباب مع أقوام أنذال ، وأعلم أيضاً مَنْ هو الكثير الفضول من أصحاب القائد أعزّه الله تعالى فأكون أتقيه إن قُدر لي خلمته ، فقال له عبد الملك : أتأخذنا بما فعل السفهاء منّا ؟ قال : لا . والله : بل أغفر لك ذنوب الدهر أجمع ، وإنّما هي أسباب تقصدها لنحاور بها مثلك أعزّك الله تعالى . ويتمكّن التائيس . وينحلّ قيد الهيبة ، ثمّ أنشد من رأسه ولا ورقة في يده :

١ ب : الأدب .

عَلَيْكَ أَحَانِي الذِّكْرُ الْجَمِيلُ فَصَحَّ الْعَزْمُ وَاقْتَضَى الرَّحِيلُ
وودعتُ الحبيبَ بغيرِ صبرٍ ولم أسمعْ لما قال العذولُ
وأسبَلْتُ الظلامَ عليَّ سراً ونجمُ الأفقِ ناظرُهُ ككَلِيلُ
ولم أشكُ الهجيرَ وقدْ دعاني إلى أرجائكَ الظلُّ الظليلُ

وهي طويلة ، فأكرمه وقربه ، رحم الله تعالى الجميع .

٥٩٠ - وأهديت للمعمد بن عبّاد شمعة ، فقال في وصفها أبو القاسم ابن
مرزقان الإشبيلي وهو ممن قُتل في فتنة المعتمد :

مدينةٌ في شمعةٍ صوّرتُ قامت حُماةٌ فوق أسوارها
وما رأينا قبلها روضةً تتقيدُ النارُ بنوارها
تُصيرُ الليلَ نهاراً إذا ما أقبلتُ ترفلُ في نارها
كأنها بعضُ الأيادي التي تحت اللجى تسري بأنوارها
من ملكٍ معتمدٍ ماجدٍ بلادهُ أوطانُ زوارها

٥٩١ - وقال أبو الأصبح ابن رشيد الإشبيلي لما هطلت بإشبيلية سحابة
بقطر أحمر يوم السبت الثالث عشر من صفر عام أربعة وستين وخمسمائة :

لقد آن للناس أن يُقلعوا ويمشوا على السننِ الأقومِ
متى عهدَ الغيثُ يا غافلاً كلونِ العقيقِ أو العندمِ
أظنُّ الغمامَ في جوّها بكّت رحمةً للورى بالدمِ

وفيها أيضاً :

لا تكنِ دائمَ الكتابةِ ممّا قد غدا في الثرى نغماً

لَطَمَ البرقُ صفحةَ المزنِ حتى سال منه على الرياضِ نجيعا

وله في دولا ب :

وَمَنْجَنُونَ إذا دارتُ سمعتَ لها صوتاً أجشّ وظلّ الماءُ ينهملُ
كانَ أقداسها ركبٌ إذا سمعوا منها حُداءً بكتوا للين وارتحلوا

وله فيمن اسمه مالك :

غزاليُّ الجفونِ شقيقٌ بلدرِ تبسمَ عن عقيقٍ فوقَ درٍ
له نفحاتُ مسكٍ أيّ مسكٍ له نفثاتُ سحرٍ أيّ سحرٍ
شكوتُ له الهوى والهجرَ منهُ فقال : عليك باسمي سوف تدري
تعلمتُ القساوةَ من سميّي وأحرقتُ القلوبَ بنار هجري

٥٩٢ - وقال أبو بكر ابن حجاج الغافقي في موسى وسيم إشبيلية الذي

كان شعراؤها يتزلون فيه^١ :

من مُبلغٍ موسى الملبح رسالةٌ بُعثت له من كافري عشاقه
ما كان خلقٌ راغباً عن دينه لو لم تكن توراته من ساقه

وقال :

إنّ الزويلي فتى شاعرٌ قد أعجب العالم من نظمه
وأنت يا موسى قد اخترته واختار موسى قبل من قومه

وقال :

على معاذٍ قرونٌ لو يُعابنها فرعونُ ما قال أوقد لي على الطينِ

١ المغرب ١ : ٢٦١ .

قالتُ نه عِرْسُهُ إِذْ جَاءَ يَنْكحُهَا ماذا دُهيتُ به من كلِّ عُنِينِ
هَلَّا اسْتَعْنَتَ بِمِيمُونٍ ، فقال لها إِنِّي اسْتَعْنَتُ عَلَى نَفْسِي بِمِيمُونِ

٥٩٣ - وقال أبو وهب ابن عبد الرؤوف النحوي ، وكان له حظ في قرض الشعر ، وكان سناطاً^١ :

لَيْسَ لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُ الْحَيَّةُ بَأْسٌ إِذَا حَصَلَتْهُ ، لَيْسَا
وَصَاحِبُ اللَّحْيَةِ مَسْتَبَحٌ يَشْبَهُ فِي طَلْعَتِهِ التَّيْسَا
إِنْ هَبَّتِ الرِّيحُ تَلَاهَتْ بِهِ وَمَاسَتِ الرِّيحُ بِهِ مَيْسَا

٥٩٤ - وقال أبو عبد الله محمد بن يحيى القلقاط :

يا غزلاً عَنْ لِي فاب تَرَّ قَلْبِي ثُمَّ وَلَّتِي
أنت مني بفوادي يا منى نفسي أولى

٥٩٥ - وقال أحمد بن المبارك الحبيبي في الناصر قبل أن يلي عهد جده^٢ :

يا عابدَ الرحمن فُتَّتَ الوري بهذه العليا وهذا الكرم
ما جعل الله الندى في امرئ إلا وقد جنبه كلَّ ذم

٥٩٦ - واستدعى الوزير عبيد الله بن إدريس أبا بكر أحمد بن عثمان المرواني : ونادمه ليلة : فلما قرب الصباح قال له : أين ما يحدث عنك من حسن الشعر ؟ فهذا موضعه . فقال : الندوة والقرطاس . فأمر له بإحضارهما ، فجعل يفكر ويكتب إلى أن أنشده هذه الأبيات :

بتنا نندأمي صفاء يستحثُّ لنا في جامدِ الفضةِ التبرُّ الذي سُبِكَا

١ السناط : الذي نيس في عارضيه شعر .

٢ إلى هنا انتهت نسخة ب . وسقطت سائر الأوراق منها .

كُلُّ مُصَيِّخٍ إِلَى مَا قَالَ صَاحِبُهُ وَلَا يَبَالِي أَسِيدًا قَالَ أَمْ أَفْكََا
مَوْقَرُونَ خَفَافٌ عِنْدَ شَرِبِهِمْ وَلَا يَخَافُونَ فِيمَا أَحْدَثُوا دَرَكَا
لَا تَعْلَمَنَّ إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ فَرِحًا أَمَا تَرَى الصَّبْحَ مِنْ بَشَرِهِمْ ضَحْكَا

٥٩٧ - وقال أبو محمد عبد الله المرواني في الخيري :

عَجِبْتُ مِنَ الْخَيْرِيِّ يَكْتُمُ عَرْفَهُ نَهَارًا وَيَسْرِي بِالظَّلَامِ فَيُعْرَبُ
فَتَجْنِي عُرُوسَ الطَّيِّبِ مِنْهُ يَدُ الدَّجِيِّ وَيَبْدُو لَهُ وَجْهُ الصَّبَاحِ فَيُحْجَبُ

٥٩٨ - وقال إبراهيم بن إدريس العلوي :

لِلْبَيْنِ فِي تَعْدِيْبِ نَفْسِي مَذْهَبٌ وَلِنَائِبَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي مَطْلَبٌ
أَمَّا دِيُونُ الْحَادِثَاتِ فَلِإِنْتَهَا تَأْتِي لَوْقَتِ صَادِقٍ لَا يَكْذِبُ

٥٩٩ - وخرج الأديب النحوي هذيل الإشبيلي يوماً من مجلسه ، فنظر إلى سائل عاري الجسم ، وهو يُرْعَدُ وَيُصْبِحُ : الجوع والبرد ، فأخذ بيده ، ونقله إلى موضع بكتفته الشمس ، وقال له : صِحِ الْجُوعَ ، فقد كفك الله مؤونة البرد .

٦٠٠ - ومر المتمدن بن عباد ليلة مع وزيره ابن عمّار بباب شيخ كثير التهكم والتندير ، يمزج ذلك بانحراف يُضْحِكُ الثَكْلِي ، فقال لابن عمّار : تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه ، فضربا عليه الباب ، فقال : مَنْ هَذَا ؟ فقال ابن عباد : إنسان يرغب أن تَقْدَ له هذه الفتيلة ، فقال : والله لو ضرب ابنُ عباد بابي في هذا الوقت ما فتحت له ، فقال : فإنّي ابنُ عباد ، فقال : مصفوع ألف صفقة ، فضحك ابن عباد حتى سقط إلى الأرض ، وقال لوزيره : امض بنا قبل أن يتعدى الصفح من القول إلى الفعل ، فهذا شيخ ركيك ؛ ولما كان من غد تلك الليلة وجّه له ألف درهم ، وقال

١ راجع هذه الحكاية في المغرب ١ : ٢٨٦ - ٢٨٧ .

لموصلها : قل له هذه حقُّ الألف صفقة التي كانت البارحة .

٦٠١ - وكان في زمان المعتمد السارق المشهور بالبازي الأشهب ، وكان لهُ في السرقة كلُّ غريبة ، وكان مسلطاً على أهل البادية ، وبلغ من سرقة أنه سرق وهو مصلوب ؛ لأن ابن عباد أمر بصلبه على ممرِّ أهل البادية لينظروا إليه ، فبينما هو على خشبته علي تلك الحال إذ جاءت إليه زوجته وبناته ، وجعلن يبكين حوله ويقلن : لمن تركنا نضيع بعلك ؟ وإذا يبدي علي بغل وتحت حمل ثياب وأسباب ، فصاح عليه : يا سيدي ، انظر في أي حالة أنا ، ولي عندك حاجة فيها فائدة لي ولك ؛ قال : وما هي ؟ قال : انظر إلى تلك البئر ، لما أرهقني الشرط رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال في إخراجها ، وهذه زوجتي وبناتي يُمسكن بَعْلَكَ خلالَ ما تخرجها ، فعمد البديوي إلى حبس ودلى نفسه في البئر بعدما اتَّفَق معه علي أن يأخذ النصف منها ، فلما حصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبلَ ، وبقي حائراً يصيح ، وأخذت ما كان علي البغل مع بناتها ، وفَرَّتْ به ، وكان ذلك في شدة حرٍّ ، وما سَبَّب الله شخصاً يغيثه إلاّ وقد غيَّبَ عن العين وخلصن ، فتحبَّل ذلك الشخص مع غيره علي إخراجها ، وسأله عن حاله ، فقال : هذا القاعل الصانع احتال عليّ حتى مضت زوجته وبناته بئياي وأسبابي ، ورُفِعَت هذه القصة إلى ابن عباد ، فتعجب منها ، وأمر بإحضار البازي الأشهب ، وقال له : كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الملكة ؟ فقال له : يا سيدي لو علمت قدر لذتي في السرقة خليت ملكك واشتغلت بها ، فلعنه وضحك منه ، ثم قال له : إن سَرَّحْتُك وأحسنْتُ إليك وأجريت عليك رزقاً يقلق أتتوب من هذه الصنعة الذميمة ؟ فقال : يا مولاي كيف لا أقبل التوبة وهي تخلصني من القتل ؟ فعاهده وقدمه علي رجال أنجاد ،

١ م : ألف .

وصار من جملة حراس أحواز^١ المدينة .

٦٠٢ - ويحكى أن منصور بن عبد المؤمن لما أراد بناء صومعة إشبيلية العظيمة القدر أحضر لها العرّفاء والصنّاع من مظانّهم ، فعُرّف بشيخ مُغفَل صحيح المذهب عارف بالبناء الذي يجمله كثير من الصنّاع ، فأحضر ، فقال له المنصور : كم تقدّر أن يُنفق على هذه الصومعة ؟ فضحك وقال : يا سيدي ، البيان إنّما هو مثل ذكرٍ ليس يُقدّر حتى يقوم ، فكاد المنصور يفتضح من الضحك ، وصرف وجهه عنه ، وبقيت حكايته يضحك عليها زماناً .

٦٠٣ - وكان أحمد المقرئ المعروف بالكساد شاعراً وشاحاً زجالاً إشبيلياً ، وقال في موسى الذي تغزّل^٢ فيه ابنُ سهّل^٣ :

ما لمُوسى قَدْرٌ خَرَّ لَهِ لَمَّا فَاضَ نَوْرٌ غَشَاهُ ضَوْؤُهُ سَنَاهُ
وَأَنَا قَدْ صُعِقْتُ مِنْ نَوْرِ مُوسَى لَا أَطِيقُ الْوُقُوفَ حِينَ أَرَاهُ
وقال في رثائه^٤ :

فَرَّ إِلَى الْجَنَّةِ حُورِيَّهَا وَارْتَفَعَ الْحَسَنُ مِنَ الْأَرْضِ
وَأَصْبَحَ الْعِشَاقُ فِي مَأْتَمٍ بَعْضُهُمْ يُبْكِي عَلَى بَعْضِ
وقال فيه :

هتف الناعي بشجور الأبد إذ نعى موسى بن عبد الصمد
ما عليهم ويحهم لو دفنوا في فؤادي قطعة من كبدي

١ أحواز : سقطت من م .

٢ م : يتغزل .

٣ مر البيعان ص : ٦١ .
٤ هذه القطعة والتي تليها لم تردا في م ، وتعليل ذلك أنّهما وردتا قبلا ص : ٦١-٦٢ ونسخة م .
قد جرى فيها بعض الحذف المكرر ، كما أن فيها زيادات انفردت بها مستثبها في مواضعها .

ولابن سهيل الإسرائيلي في موسى هذا ما هو مثبت في ديوانه .

٦٠٤ - وكان محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة : المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب ، فيلسوفاً طبيياً ماهراً ، آية الله في المعرفة بالأندلس ، يقرىء الأمم بألستهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها ، ولما تغلب طاغية الروم على مرسية عرف له حقه ، فبنى له مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود ، وقال له يوماً وقد أدنى منزلته : لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندي كذا ، وكنت كذا ، فأجابه بما أقنعه : ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمري كله أعبد إلهاً واحداً ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالي لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك مني ؟ انتهى .

٦٠٥ - وقال أبو عبد الله محمد بن سالم القيسبي الغرناطي يخاطب السلطان على ألسنة أصحابه الأطباء الذين يبابه مؤروباً بأسمائهم :

قد جمَعنا ببابكم^١ سطرَ علمٍ لبلوغِ المنى ونيلِ الإرادة^٢
ومِنَ أسمائنا لكم^٣ أحسنُ قالِ سالمٌ ثمَّ غالبٌ وسعادة^٤

٦٠٦ - وقال أبو عبد الله ابن عمر^٣ الإشبيلي الخطيب :

وكلُّ إلى طبعه عائدٌ وإن صدَّه المنعُ عن قصده
كذا الماء من بعدِ إسخائه يعودُ سريعاً إلى برده

٦٠٧ - وقال الكاتب أبو زيد عبد الرحمن العثماني لما تغير حاله بإشبيلية^٤ :

١ م : بياهم .

٢ م : لهم .

٣ م : عمرو .

٤ قد مررت الأبيات في ما تقدم من : ٦٢ من هذا المجلد ؛ وقد سقطت من م .

لا تسلي عن حالي فهي هذي مثل حالي لا كنت يا من يراني
 ملكي الأهل والأحلاء لما أن جفاني بعد الوصال زماني
 فاعتبر بي ولا يفرك دهر^١ ليس منه ذو غبطة في أمان

٦٠٨ - ودخل الأديب النحوي أبو عمران موسى الطرياني^١ إلى بعض
 الأكابر يوم نيرُوز ، وعادتهم أن يصنعوا في مثل هذا اليوم مدائن من العجين
 لها صور مستحسنة ، فنظر إلى مدينة أعجبتة ، فقال له صاحب المجلس : صفها
 وخذها ، فقال :

مدينة مسورة تحارُ فيها السحرة
 لم تبنيها إلاّ يدا عذراء أو مُخدّرة
 بلدت عروساً تجتلي من درمك مزعفرة
 وما لها مفاتح إلاّ البنان العشرة

ورفع إلى القائد أبي السرور صاحب ديوان سبّنة قصيدة يعرض له فيها
 يزاد ، وقد عزم على سفر ، فأنعم عليه بذلك ، ثم أتبعه بتحف مما يكون
 في الديوان ممّا يجلبه الإفرنج إلى سبّنة ، ولم يكن التمس منه ذلك ولا خطر
 بخاطره ، فكتب إليه :

أيا سابقاً بالذي لم يجلُ بفكري ولم يبند لي في خطاب
 ويا غائصاً في بحار الندى ويا فاتحاً للعلا كل باب
 كذا فلتكن نعم الأكرمين تفاجي بنيل المني والطلاب
 ولم أرَ أعظم من نعمة أتني ولم تك لي في حساب
 سأشكرها شكر عهد الرضى وأذكرها ذكر غصّ الشباب

١ قد مر هذا الخبر والأبيات ص : ٦٣ وقد سقطا من م .

٦٠٩ - وكتب مجاهد صاحب دانيّة إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر
ملك بكنسية رقعة ، ولم يضمّنّها غير بيت الخطيئة^١ :

دَعِ الْكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبَغِيَّتِهَا واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
فأخرجت^٢ المنصور ، وأقامته وأعدته ، فأحضر وزيره أبا عامر ابن التاكرني
فكتب عنه :

شمتت مواليتها عبيد نزارٍ شيم العبيد شتيمه الأحرارِ
فسلا المنصور عما كان فيه .

ومن شعر المذكور في المنصور :

انهض على اسمك إته منصورٌ وارم العلو فإنه مقهورٌ
ولو اغتيت عن النهوض كفتيتهم فبذكر بأسك كلهم مدعورٌ
ولتبلغن مدى مرادك فيهم ويكون يوم في العدا مشهورٌ

وقال له المنصور يوماً : والله لقد شمت من هؤلاء الجند ، ووددت الراحة
منهم ، فقال له : يصبر مولاي فلا بدّ من السامة ، فهي على حالتين : إمّا
من يكون أمرك إليه ، أو يكون أمره إليك ، والحمد لله الذي رفعه عن الحالة
الأولى .

٦١٠ - وقال بعض المجائين في رندة^٣ :

قبحاً لرندة مثلما قبحت مطالعة الذنوب

١ المغرب ١ : ٣٣٢ .

٢ كذا في ق م والتقدير « فأخرجته عن طوره » .

٣ هو أبو الفتح ابن فاجر التونسي (المغرب ١ : ٣٤٤) .

بلدٌ عَلَيهِ وحشةٌ ما إن يفارقه القُطُوبُ
ما حَلَّها أحدٌ فينـ وي بعد بَيِّنٍ أن يؤوبُ
لم آتِها عندَ الضُّحَى إلاّ وخيـلَ لي غروبُ
أفقٌ أغمُّ وساحةٌ تملأ القلوبَ من الكروبُ

٦١١ - وقال جِلاص الشاعر الرندي^١ :

لا تَفْرَحَنَّ بولايةِ سَوَّغَتَها فالثورُ يُعَلِّفُ أشهراً كي يُدبجا

وله في بعض رؤساء^٢ المثلثين من قصيدة :

ولولم تكُنْ كالبدرِ نوراً ورفعةٌ لما كنت غراً بالسحاب ملثماً
وما ذاكَ إلا للنوالِ علامةٌ كذا القَطْرُ مهمالٌم الأفقَ أنهى

فاهتر المثلّم وأعجبه ، وأمر له بكسوة وذهب .

٦١٢ - ولما ذُكر أبو بكر ابن عمر الأندي في مجلس بعض الرؤساء بحضوره
أبي الحسن علي بن سعيد ، وأطنب في الثناء عليه ، وعمر المجلس بشكره ،
وأخبر بذلك ، أطرق ساعة ثم قال^٣ :

لا تذكِرَنَّ ما غابَ عني من ثنا أطنبتَ فيه فليس ذلك يُجهلُ
فمتى حضرتُ بمجلسٍ وجرى بهِ خبري فإنَّ الذكْرَ فيهِ يجمَلُ

٦١٣ - ولما نفى بنو ذي النون أرقم من نسبهم لأنه كان ابن أمة مهينة ،
واقعتها أبو الظافر في حال سكره ، ولم يكن فيهم من ينظم ويتولع بالأدب غيره ،

١ المغرب ١ : ٣٢٦ .

٢ م : شعراء .

٣ المغرب ١ : ٣٢٨ وترجمته في القلح : ١٦٨ .

وولي ابنه يحيى ، وكان أحسد من طلعت عليه الشمس ، فمال على أرقم بالأذية ففرَّ عن مملكته ، وقال مرتجلاً^١ :

لئن طيتمُ نفساً بركي دياركم فنفسِيَ عنكمُ بالثفوقِ أطيبُ
إذا لم يكنْ لي جانبٌ في دياركم فما العذرُ لي أن لا يكونَ تجنُّبُ
زعمتمُ بآتي لستُ فرعاً لأصلكم فهلاًّ علمتمُ أنّي عنه أرغبُ
وحسبي إذا ما البيضُ لم ترعَ نسبةً بآتي إلى سفي ورحي أنسبُ
وإن مدّت الأيامُ عمري للعلا يسُترقُ ذكري في الوري ويغربُ

٦١٤ - وكتب الوزير الكاتب أبو محمد ابن سفيان إلى أبي أمية ابن عصام^٢ قاضي قضاة شرق الأندلس « عين زمانه » ، فوقعت نقطة على العين ، فتوهما ، وظن أنه أبهما واعتقدها ، وعددها وانتقدتها ، فقال :

لا تُلزمني ما جنتهُ يراعةً طمست بريقتها عُيونَ ثناء
حققتُ عليّ لزامها فتحولتُ أفعى تمجُّ سامها بسحاء
غدر الزمان وأهله عرف ولم أسمعَ بغدر يراعةٍ وإباء

٦١٥ - وشرب المأمون بن ذي النون مع أبي بكر محمد بن أرفع رأسه الطليطي وحفّظ من رؤساء ندمائه كابن لبون وابن سفيان وابن الفرج وابن مثنى ، فجرت مذاكرة في ملوك الطوائف في ذلك العصر ، فقال كل واحد ما عنده بحسب غرضه ، فقال ابن أرفع رأسه ارتجلاً^٣ :

دعوا الملوكَ وأبناء الملوكِ فمَنّ أضحي على البحرِ لم يشقْ إلى نهرِ
ما في البسيطة كالمأمونِ ذو كرمٍ فانظر لتصديق ما أسمعت من خبرِ

١ المغرب ٢ : ١٤ .

٢ القلائد : ١٣٩ .

٣ المغرب ٢ : ١٨ والصلة رقم : ٨٧٤ .

يا واحداً ما على علياه مُختلف
 وقد طلعت لنا شمساً فما نظرت
 مد جاد كفضك لم نحتج إلى المطر
 عين إلى كوكب يهدي ولا قمر
 وقد بدوت لنا وسطي ملوكهم
 فلم نُعرج على شذر ولا درر
 فداخل ابن ذي النون من الارتياح ما ليس عليه مزيد ، وأمر له بإحسان
 جزيل عتيد .

٦١٦ - وقال أبو أحمد عبد المؤمن الطليلي :

رأيت حياي قادحاً في معيشتي
 وقد فسدت الناس الذين عهدتهم
 ويصعبُ تركي للحياء ويقبحُ
 وقد طال تأنيبي لمن ليس يصلحُ
 وله :

ولما غنوا بالغيد فوق جملهم
 عسى عيس من أهوى تجود بوقفة
 طفقت أنادي لا أطيق بهم همسا
 ولو كوقوف العين لاحظت الشمساً

٦١٧ - وقال الزاهد أبو محمد عبد الله بن العسال :

أعندكم علمٌ يأتي متيمٌ
 وما بال عيني لا تغمض ساعة
 وإلا فما بال المدامع تسجمُ
 كأتي في رعي الدراري منجمُ

٦١٨ - وكان الوزير أبو جعفر الوقشي تياهاً مُعجباً بنفسه ، ومن شعره
 في غرضه الفاسد :

إذا لم أعظم قدر نفسي وإتي
 فغيري معذور إذا لم يبرني
 عليم بما حازته من عظيم القدر
 ولا يكبر الإنسان شيء سوى الكبير

١ في م ق : العسال ؛ وانظر ترجمته في المغرب ٢ : ٢١ .

وله :

يرومون بي غيرَ المكان الذي لهُ خُلقتُ، وبعضي منكرٌ ذاك من بعضي
فَقُولُوا لبدري الأقرِ يتركُ سماءهُ ويحتلُّ من أجلِ التواضعِ في الأرضِ

وقال :

تكبّرُ وإن كنتَ الصغيرَ تظاهراً وباعدُ أخا صدقٍ مَي ما اشتهى القربا
وكنُ تابِعاً للهراً في حفظِ أمره ألسَتَ تراه عندما يبصرُ الكلبا

وقال له بعض ندماء ملكه يوماً صاحب جيان ، ابن همشك : يا أبا جعفر ،
أنت جملة محاسن ، وفيك الأدوات العلية التي هي أهل لكل فضيلة ، غير أنك
قد قلحت في ذلك كله بكثرة عجبك ، وإذا مشيت على الأرض تشمئز منها ،
فقال له : كيف لا أشمئز من شيء أشرك معك في الوطاء عليه ؟ فضحك جميع
من حضر من جوابه . وله جواب لمن اعتلر عن غيبته عنه :

لك الفضلُ في أن لا تلوح لناظري وتبعدَ عني ما بقيت مدى الدهرِ
فوجهك في لحظي كما صور الردي ولفظك في سمعي حديثٌ عن الفقيرِ
ومن حاز ما قد حزنته من ركافةٍ وغاب فلا يمتحج إلى كلفة العذرِ

وله أيضاً ٢ :

لكَ يومان لم تلبحَ لعياني ولك الفضلُ في زيادةِ شهرِ
ولك الفضلُ في زيادةِ دهرِ ذلك الوجهَ ما تناول عمري
ولك الفضلُ أن تُغيبَ عني

١ ق : للمهر .
٢ أيضاً : سقطت من م .

وله ، وقد شرب على صهرريح فاختنق الأسد الذي يرمي بالماء ، فنفخ فيه
رجل أبخر ، فجرى :

لَيْتُ بَدِيعُ الشَّكْلِ لَا مِثْلَ لَهُ صَبِغَ مِنَ الْمَاءِ لَهُ سَلْسَلَةٌ
يَقْدِفُ بِالْمَاءِ عَلَى حِينِهِ كَأَنَّهُ عَافَ الَّذِي قَبْلَهُ

٦١٩ - وقال أبو الوليد هشام الوقشي :

بَرَّحَ بِي أَنَّ عُلُومَ الْوَرَى اثْنَانِ مَا إِنْ فِيهِمَا مِنْ مَزِيدٍ
حَقِيقَةً يُعْجِزُ تَحْصِيلُهَا وَبَاطِلٌ تَحْصِيلُهُ لَا يُفِيدُ

وله ١ :

وْفَارِهِ يَرْكَبُهُ فَارُهُ مَرَّ بِنَا فِي يَدِهِ صَعْدَةٌ
سَنَانُهَا مُشْتَمِلٌ لِحَظَّتِهِ وَقَدَّهَا مُنْتَحِلٌ قَدَّةُ
يَزْحَفُ لِلنَّسَاكِ فِي جِحْفَلٍ مِنْ حَسَنِهِ وَهُوَ يُرَى وَحْدَهُ
قَلْتُ لِنَفْسِي حِينَ مَدَّتْ لَهَا إِلَى آمَالٍ وَالْآمَالُ مَمْتَدَّةُ
لَا تَطْمَعِي فِيهِ كَمَا الشَّعْرُ لَا يَطْمَعُ فِي تَسْوِيدِهِ خَدَّةُ ٢

وقال :

عَجَبًا لِلْمُدَامِ مَاذَا اسْتَعَارَتْ مِنْ سَجَايَا مَعْدَبِي وَصَفَاتِهِ
طِيبَ أَنْفَاسِهِ وَطَعْمَ ثَنَائِي هِ وَسُكْرَ الْعُقُولِ مِنْ لِحَظَاتِهِ
وَسَنَا وَجْهِهِ وَتَوْرِيدَ خَدِّي هِ وَلَطْفَ اللَّيْبَاجِ مِنْ بَشْرَاتِهِ
وَالْتَدَاوِي مِنْهَا بِهَا كَالْتَدَاوِي بَرَضِي مِنْ هَوَيْتِ مِنْ سَطَوَاتِهِ ٣

١ ق : وله أيضاً .

٢ ق م : الشمس لا يطعم في تدنيسه حده .

٣ البيت والذي يليه سقطا من م .

وهي من بعد ذا عليّ حرامٌ مثل تحريمه جتّى رَشَقَاتِهِ
ومن تأليفه « نكت الكامل للمبرد » ، وقد مر ذكر هذا الرجل الفرد
قبل هذا .

وحضر يوماً مجلس ابن ذي النون ، فقُدّم نوع من الحلوى يُعرف بأذان
القاضي ، فتهافت جماعة من خواصّه عليها يقصلون التندير فيه ، وجعلوا يكثرون
من أكلها ، وكان فيما قدم من الفاكهة طبق فيه نوع يسمى عيون البقر ، فقال له
المأمون : يا قاضي أرى هؤلاء يأكلون أذنك ، فقال : وأنا أيضاً أكل عيونهم ،
وكشف عن الطبق ، وجعل يأكل منه ، وكان هذا من الاتفاق الغريب .

٦٢٥ - وكان القاضل أبو الحسين ابن الوزير أبي جعفر الوثقشي آية الله
في الظرف ، وكيف لا ووالده الوزير أبو جعفر ، وصهره أبو الحسين ابن جبير ،
وشيخه في علم الموسيقى والتهذيب والظرف والتلريب أبو الحسن ابن الحسن
ابن الحاسب شيخ هذه الطريقة ، وقد رزق أبو الحسين المذكور فيها ذوقاً مع
صوت بديع ، أشهى من الكأس للخليع ، قال أبو عمران ابن سعيد : ماسمته
إلا تذكرت قول الرصافي ^١ :

ومُطَارِحٍ مِمَّا تَجَسُّ بُنَاتُهُ لِحْنًا أَفَاضَ عَلَيْهِ مَاءَ وَقَارِهِ
يَشْتِي الْحَمَامَ فَلَا يَرُوحُ لَوْ كَرِهَ طَرِبًا ، وَرَزَقُ بَنِيهِ فِي مَنقَارِهِ

وكنت أرتاح إلى لقائه ، ارتياح العليل إلى شفائه ، ولم أزل أقرع باباً فباباً ،
وأخترق للاتصال حجاباً فحجاباً ، حتى هجمت مع شفيح لا يُرد عليه ، وجلست
بين يديه ، فحيثنذ حرّضه حسبه على الإكرام ، وتلقّى بما أوسع من البشر
والسلام . وقال : ليعلم سيدي أنّي كنت أودّ الناس في لقائه ، وأحبّهم في

١ ديوان الرصافي : ١٠١ (نقلا عن النفع) .

إنخائه ، والحمد لله الذي جعلني أنشد :

وليس الذي يتَّبَعُ الوَبْلَ رائداً كمن جاءه في داره رائدُ الوَبْلِ ،
ثمَّ قام إلى خزائنه ، فأخرج منها عود غناء يطرب دون أن تُجس أوتاره ،
وتلحن أشعاره ، واندفعَ يغني دون أن أسأله ذلك ، ولا أتجشم تكليفه الدخول
في تلك المسالك :

وما زلتُ أرجو في الزمان لقاءكم فقد يسَّرَ الرحمنُ ما كنتُ أرتجي
فذكركمُ ما زلتُ أتلوهُ دائماً إذا ذكروا ما بينَ سَلَمَى ومُنَعَجِ

فلما فرغ من استهلاله وعمله قبَّلت رأسه ، وقلت له : لا أدري علامَ
أشكرك قبلُ ، هل على تعجيلك بما لم تدعني أسألك في شأنه أم علي ما تفردت
بإحسانه ؟ فما هذا الصوت ؟ قال : هذا نشيد خسرواني من تلحيتي ، قال :
وأنشدني لنفسه :

حنتُ إلى صوتِ النواعيرِ سُحرَةً فأضحى فؤادي لا يقرُّ ولا يهدأ
وفاضتُ دموعي مثلَ فيضِ دموعها أطارحُها تلكَ الصبايةَ والوجداء
وزادَ غرامي حينَ أكثرَ عاذلي فقلتُ لهُ أقصرُ ولا تقدحِ الزنادا
أهيمُ بهم في كلِّ وادٍ صبايةً وأزدادُ مع طولِ البعاد لهم ودًا
وأنشدني لنفسه :

ولقد مررتُ على المنازلِ بعدهم أبكي. وأسألُ عنهمُ وأنوحُ
وأقولُ إن سألوا بحالي في النوى ما حالُ جِسْمِ فارقتهُ الروحُ
قال : وكتب إليَّ :

يا حسرةً ما قصتُ من لذةٍ وطرا أين الزمانُ الذي يُرجى به الخلفُ ؟

أبكيكَ مِلاً جفوني ثم يَرْجِعِي إلى التَّصَبُّرِ أنِّي سوفَ أنصرفُ
قال أبو عمران : وكنت في أيام الفتنة إذا ركنت إلى الآمال ، هونت على
نفسي ما ألقى من أهوالها بقولي مع خاطري قوله :

أين الزمانُ الذي يُرجى به الخلفُ

انتهى .

٦٢١ — وكان أبو الحسين علي بن الحمارة^١ ممتن برع في الألحان وعلمها ،
وهو من أهل غرناطة ، واشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعراء^٢ ، فيقطع العود
بيده ، ثم يصنع منه عوداً للغناء ، وينظم الشعر ويلحنه ، ويغني به ، فيطرب
سامعيه ، ومن شعره قوله :

إذا ظنَّ وكراً مُقلتي طائرُ الكرى رأى هُدبها فارتاع خوفَ الحباثلِ

وقال بعض العلماء في حقه : إنه آخر فلاسفة الأندلس ، قال : وأعجب ما
وقع له في الشعر أنه دخل سلا وقد فرغ ابن عشرة من بناء قصره ، والشعراء تنشده
في ذلك ، فارتجل ابن الحمارة هذين البيتين ، وأنشدهما بعدهم :

يا واحدَ الناس قد شَيِّدَتَ واحدةً فحلَّ فيها محلَّ الشمسِ في الحملِ
فما كَدَّ أركَ في الدُّنيا لذي أملٍ ولا كدَّ أركَ في الأخرى لذي عملِ

وسياتي ذكر هذين البيتين .

٦٢٢ — وكان أهل الأندلس في غاية الاستحضار للمسائل العلمية على البديهة ،

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٢٠ وفيه أبو عامر محمد بن الحمارة ، وانظر الواقي ٢ : ٢٤٢ وبغية
الملتصم ص : ٥١٧ .
٢ م : الشجر .

قال ابن مسدي : أملى علينا ابن المناصف النحوي بدائيةً على قول سيويه « هذا باب ما الكلم من العربية » عشرين كراساً ، بسط القول فيها في مائة وثلاثين وجهاً ، انتهى .

وهذا وأشباهه يكفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم ، وربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة وتظنر ، فلم يحتاج إلى ذلك ، ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة .

٦٢٣ - ومن الحكايات في مثل ذلك أن الأديب البليغ الحافظ أبا بكر ابن حبيش لما قال في تخميسه المشهور :

بماذا على كل من الحقّ أوجبت

اعترض عليه أبو زكريا اليفرنى بما نصّه : استعمل المخمّسُ « ماذا » في البيت تكثيراً وخبراً ، والمعروف من كلام العرب استعمالها استفهاماً ، فجأوبه بقوله : أما استعمالها استفهاماً كما قال فكثير ، لا يحتاج إلى شاهد ، وأما استعمالها في السنن فصحاء العرب للكثرة فكثير لا يحتاج إلى شاهد لو وصل بحث ، واستعمل مكث ، فلم يعترض علي ولي ، ولا تشكك في جلي :

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

قال الله تعالى في سورة يونس ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ، وما تُغشي الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ١٠١) ووقع في صحيح البخاري في رثاء المقتولين من المشركين يوم بدر^١ :

وماذا بالقليبِ قلبِ بدرٍ من الفتيان والشرب الكرام^٢

١ الشعر لشداد بن الأسود ؛ انظر أنساب الأشراف ١ : ٣٠٧ وابن هشام : ٥٣٠ وفي مناقب الأنصار من البخاري ٦٣ / ٤٣ (حديث : ٢١) .

٢ روايته في البلاذري :

ونقب عن أخيك أبي يزيد أخي القينات والشرب الكرام

وماذا بالقليبِ قليبِ بدرٍ من الشيزى تُكَلَّلُ بالسنامِ^١
وفي السيرِ في رثاء المذكورين أيضاً^٢ :

ماذا ببدرٍ فالعقنقلِ من مرآزية ججاجِ
وهذا الشعر لأميّة بن أبي الصلت الثقفي ، ووقع في الأغاني للوليد بن يزيد
يرثي نديماً له يُعرف بابن الطويل^٣ :

للهِ قَبْرٌ ضُمَّتْ فِيهِ عِظَامُ ابْنِ الطَّوِيلِ
مَاذَا تَضَمَّنَ إِذْ ثَوَى فِيهِ مِنَ الرَّأْيِ الْأَصِيلِ

والخبر طويل ، وأجلى من هذا وأعلى ، وأحق بكل تقديم وأولى ، ولكن
الواو لا تفيد رتبة ، ولا تتضمن نسبة ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم
« ماذا أنزل الليلة من الفتن » وهو في الصحاح^٤ ، ووقع في الحماسة ، وقد
أجمعوا على الاستشهاد بكل ما فيها :

ماذا أجالَ وثيرة^٥ بن سِمَاكِ من دمعِ باكيةٍ عليه وبالكِ^٦
وفي الحماسة أيضاً وأظنها لأبي دهب^٧ :

ماذا رزتنا غداةَ الحلِّ من زَمَعٍ عندَ التفروقِ من خيمٍ ومن كرمٍ
ووقع في نوادر القالي لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار^٨ :

١ القليب : البئر ؛ والشيزى : جفان تصنع من خشب هذا الاسم .

٢ الأبيات في أنساب الأشراف ١ : ٣٠٦ وابن هشام : ٥٣١ - ٥٣٢ .

٣ انظر ديوانه : ٥٨ (نقلا عن الأغاني ٦ : ١٣٣) .

٤ م : الصحيح .

٥ م ق : أحال ؛ ق : وثيرة ؛ وهو رواية ثانية .

٦ الحماسية رقم : ٣٢٠ من شرح المرزوقي .

٧ هي الحماسية رقم : ٧٠٦ لأبي دهب .

٨ أمالي القالي ٢ : ١٤٦ .

هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَبْعُثُ الصَّبِيحُ غَادِيَا وَمَاذَا يَرِدُ اللَّيْلُ حِينَ يُؤُوبُ

ووقع في شعر الخنساء ترثي أختها صخرًا :

أَلَا ثَكَلْتُ أُمَّ الَّذِينَ غَدَوَا بِهِ إِلَى الْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ
وَمَاذَا يُوَارِي الْقَبْرُ تَحْتَ تَرَابِهِ مِنَ الْجُودِ فِي بُؤْسِ الْحَوَادِثِ وَالْدَهْرِ

ولحرير وهو في الحماسة^١ :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوَا بِلَبِّكَ غَادِرُوا وَشَلَّا بِعَيْنِكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيِّضْنَ مِنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقَلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

وفي الحماسة أيضًا^٢ :

مَاذَا مِنَ الْبَعْدِ بَيْنَ الْبُخْلِ وَالْجُودِ

ووقع في الحماسة أيضًا ، وهو لامرأة^٣ :

هَوَتْ أُمُّهُمْ مَاذَا بِهِمْ يَوْمَ صُرِعُوا بِجَيْشَانَ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرَّمَا

أَرَادَتْ مَاذَا تَصَرَّمْ لَهُمْ يَوْمَ صُرِعُوا بِجَيْشَانَ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرَّمَا .
وممّا يُسْتَظْهَرُ بِهِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي :

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبْتُهَا أَتَيْتِي بِمَا أَنَا بِأَكْبَرُ مِنْهُ مُحْسُودٌ

وقوله أيضًا :

وَمَاذَا بِمَصْرَ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالْبُكََا

١ ديوان جرير : ٤٧٦ .

٢ الحماسة رقم : ٦٨٥ وصدره : ألا ترين وقد تطلعتني عدلا

٣ هو لأم الصريح ، الحماسة : ٣١٨ .

ومن مُلَحِّحِ المتأخرين : كان بمُرْسِيَّةِ أبو جعفر المذكور في المطمح ، وكان يلقَّبُ بالبقيرة ، فقال فيه بعض أهل عصره :

قالوا : البقيرةُ يهجوننا فقلتُ لهم : ماذا دُهِيتُ به حتى من البَقَرِ
هذا وَلَيْسَ بثورٍ بَلْ هو ابنتهُ وأين منزلةُ الأثني من الذكرِ
وأشدُّ صاحبِ الزهر ، ولا أذكِرُ قائله ١ :

ماذا لقيتُ من المستعربين ومن قياسِ قولهم هذا الذي ابتدعوا
إن قلتُ قافيةً بكرأ يكونُ لها معنى يخالفُ ما قالوا وما وضعوا
قالوا لحنَتَ وهذا الحرفُ مُتَّصِبٌ وذلك خفضٌ ، وهذا ليس يرتفعُ
وضرَبُوا بينَ عبدِ الله واجتهدوا وبينَ زيدٍ فطالَ الضربُ والوجعُ

وقال صاحب الزهر ٢ : أنشد أبو حاتم ولم يُسمِّ قائله :

ألا في سبيلِ الله ماذا تَضَمَّنْتَ بطونُ البُريِّ واستبُودِعَ البلدُ القَفَرُ

هذا ما حضر بفضل الله من الاستشهاد على أن «ماذا» تُستعمل بمعنى الخبر والتكثير ، والله الذي لا إله غيره ما طالعتُ عليه كتاباً ، ولا فتحت فيه باباً ، وإنما هو ثمالة من حوض التذكار ، وصُباية مما علق به شَرَكُ الأفكار ، وأثر مما سَدِكَ به السمع ، أيام خلوا الذرَّع ، وعقدت عليه الحُبي ، في عصر الصبأ ، ورحم الله من تصفَّح ، وتلمَّح فتسمَّح ، وصحح ما وقع إليه ٣ من الاعتلال ، وأصلح ما وضع لديه من اختلال ، فخير الناس ، من أخذ بالبر والإيناس ، فبصر من جهلة ، وادَّكر عن وهلة ، وإنما المؤمنون إخوة ،

١ لم أجده في زهر الآداب .

٢ م : الروض ؛ وانظر زهر الآداب : ٧٩٦ .

٣ م : له .

وتحاجبهم في الله رفعة وحُظوة ، ولهم في السلف الكريم ، ومحافظتهم على الود القديم ، أسوة كريمة وقُدوة .

قال ابن الطراح : انظر تحصيل هذا الإمام الرئيس ، والأسمى النفيس ، واستحضاره كلام الأدباء ، وسير النقاد البلغاء ، ومُساجلته مع فرسان المعاني ، ووصفه تلك المعاني ، وقد كان حامل لواء الأدب ، وفاق أبناء جنسه في مرقب الطلب ، وهذه الكلمة - أعني « ماذا » - جرت بسببها مناظرة بين الأستاذ أبي الحسين^١ ابن أبي الربيع النحوي المشهور وبين مالك بن المرحّل بسببته ، حتى ألّف مالك كتاب « الرمي بالحصى والضرب بالعصا » وفيه هتات لا ينبغي لعاقل أن يذكرها ، ولا لذي طي في البيان أن ينشرها ، وفي ذلك قال الأستاذ أبو الحسين رحمه الله تعالى :

كان ماذا ليّتها عَدَمٌ جَنَّبُوهَا قُرْبُهَا نَدَمٌ
ليّني يا مالٍ لَمْ أَرَهَا إنَّهَا كَالنَّارِ تَضْطَرُّمُ

وقوله « يا مال » ترخيم مالك .

وحكى الأستاذ ابن غازي أنهم اختلفوا : هل يقال : كان ماذا أم لا ؟ وقال : إن الأستاذ ابن أبي الربيع تطفّل على مالك بن المرحّل في الشعر ، كما أن ابن المرحّل تطفّل عليه في النحو ، قال : ومن نظم مالك بن المرحّل في هذه القضية :

عابَ قومٌ كانَ ماذا ليّتَ شعري كانَ ماذا
إن يكنْ ذلك جهلاً منهمُ فكانَ ماذا

ومن نظم ابن حبيش المذكور قوله :

١ م : الحسن ، في الموضعين .

إذا ما شئت أن تحيا هنيئاً رفيع القدر ذا نفسٍ كريمه
فلا تشفعَ إلى رجلٍ كبيرٍ ولا تشهدُ ولا تحضرُ وليمه

وله أيضاً :

لأعملنَّ إلى لقياكمُ قَدَمي ولو نُجشمتُ بينَ الطينِ والماءِ
لأنَّ بيلَ ثيابي الغيثُ أهونُ بي من أن تحرقَ نارُ الشوقِ أحشائي

[ترجمة اليفرنى النحوي]

وأبو زكريا المعترض على ابن حبيش هو الفقيه النحوي الأديب أبو زكريا يحيى بن علي بن سلطان اليفرنى^١ ، وُلد سنة ٦٤١ ، وبرع في العربية ، وكان يلقب في المشرق « جبل النحو » وكان عند نفسه مجتهداً ، وكان لا يجيز نكاح الكتابيات ، خلافاً للإمام مالك ، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، ويتمسك بقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم : ٢١) . وكان يرى أن الطلاق لا يكون إلا مرتين : مرة للاستبراء ، ومرة للانفصال ، ولا يقول بالثلاث ، وهو خلاف الإجماع ، وكان يقول في نهيهِ عليه الصلاة والسلام عن أكل ذي ناب من السباع : أي مأكول كل ذي ناب ؛ وتبقى هي على الإباحة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ (المائدة : ٣) وكان يقول في قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ (طه : ٦٣) الهاء اسم إن ، وذان لساحران جملة خبر لإن ، ولا تحتاج لرابط لأنها تفسيرية ، والمعنى عنده وأسروا النجوى قالوا إنها أي نجوانا هذان لساحران ، أي قولنا هذان لساحران ، تثبيطاً للناس عن اتباعهما ، وخطأ المصحف يرده ، لكن في المصحف أشياء كُتبت على غير المصطلح ، مثل (مال هذا) و (لا أوضعا)

^١ انظر ترجمته في بغية الوعاة : ٤١٢ وفيه نقل عن رحلة ابن رشيد .

و (لا أذبحه) . قال ابن الطراح : ورأيت هذا المعنى لغيره ، وأظنه ابن النحاس ،
وتوفّي اليفرنّي المذكور سنة ٧٠٠ ، ومن شعره :

ماذا على الغُصْنِ الميَّاسِ لو عَطَفَا على صَبَابَةِ صَبِّ حَالَفِ الدَّنَقَا
يا رحمةً لفؤادي مِنْ مُعَدِّ بِهِ كم ذا يَحْمَلُهُ أَنْ يَحْمَلَ الكَلْفَا
ويارعى اللهُ داراً ظلاً يَجْمَعُنَا في ظلِّ عَيْشٍ صَفَا مِنْ طَيْبِهِ وَضَفَا
مودّةً بَيْنِنَا في الحُبِّ كَامِلَةً ونحن لا نعرفُ الإِعْرَاضَ وَالصَّلَا

رجع إلى كلام الأندلسيين :

٦٢٤ - قال صالح بن شريف الرُّنْدِي رحمه الله تعالى في سكين الكتابة :

أنا صمصامةُ الكتابةِ ، ما لي من شبيهٍ في المُرْهَفَاتِ الرِّقَاقِ
فكأنّي في الحسَنِ يومٌ وصالٍ وكأنّي في القِطْعِ يومٌ فِراقِ

وقال في المقصّ :

ومصطحبين ما اتَّهَمَا بعشقي وإن وُصِفَا بضمٍّ واعتناقِ
لعمراً أيبك ما اجتمعاً لشيءٍ سوى معنى القِطِيعَةِ والفِراقِ

٦٢٥ - ولبعض الأندلسيين :

هلاًّ اقْتَدَى ذُو خُلَّةٍ بِفِعَالِنَا فيكونَ واصلَ خَلِّهِ كوصالِنَا
مهما يجيءُ أحدٌ ليقطعَ بَيْنِنَا نقطعُهُ ثم نَعُدُّ لأَحْسَنِ حالِنَا

٦٢٦ - وجرح بعض الكتاب يده بالمقص ، فأنشده أحد جلسائه ، وغالب

ظني أنه أندلسي :

١ م : ضفا من طيبه وصفا .

عداوةُ « لا » لكفك من قديمٍ . فلا تعجبَ لمقراضِ لثيمٍ .
لئن أدماكَ فهوَ للا شبيهٌ وقد يعلو اللثيمُ على الكريمِ .

٦٢٧ - ولما أَلَّفَ ابنُ عصفور كتابه « المقرب » في النحو انتقده جماعة
من أهل قطره الأندلسيين وغيرهم ، منهم ابن الصائغ وابن هشام والجزيري ،
وله عليه « المنهج المعرب في الرد على المقرب » وفيه تخليط كثير وتَعَسَّف :

وفي تَعَبٍ من يحسدُ الشمسَ نورها ويأملُ أن يَأْتِيَ لها بضربِ
ومنهم ابن الحاج وأبو الحسن حازم القرطاجني الخزرجي ، وسمَّاه « شد
الزيار على جَحْفَلَة الحمار » ، وابن مؤمن القابسي ، وبهاء الدين ابن النحاس .

٦٢٨ - ومن شعر حازم الأندلسي المذكور قوله :

لم تدرِ إذ سألتك ما أسلاكها أبكتَ أسيَّ أم قَطَعْتَ أسلاكها
وعارضه التجاني بقوله :

يا ساحرَ الأَلاظِ يا فتاكها فُتِيًا جوازِ الصدِّ مَنْ أفتاكها

٦٢٩ - ومن حكاياتهم في المُجون^١ وما يجري مجراه أن الوزير أبا بكر
ابن الملح كان له ابنٌ شاب ، فاسترسل مع الأدب إلى أن خرج من القول إلى
الفاعل ، وأتى بأشياء لا تليق بمثله ، فكتب إليه أبوه :

يا سَخْنَةَ العينِ يا بُنيًا ليتكَ ما كنتَ لي بُنيًا
أبكِتَ عيني ، أطلتَ حزني أمتَّ صيتي وكان حيًا
حططتَ قلري وكان أعلى في كلِّ حالٍ من الثريا

١ قد وردت هذه القصة والشعر فيما مر ص : ٧١ وسقطت من م .

أما كفاك الزنا ارتكاباً
حتى ضربت الدفوفَ جهراً
فاليوم أبكيك ملء عيني
لو كان يُغني البكاء شيئاً
وشربُ مشمولة الحميماً
وقلت للشرِّ : جيء إلياً

فأجابه ابنه بقوله :

يا لائم الصبِّ في التصابي
أوجفت حيلَ العتابِ نحوي
وقلت عمرُ الهنا قصيرٌ
قد كنتُ أرجو المتابَ ممّا
لولا ثلاثُ شيوخٍ سوء
ما عنك يُغني البكاء شيئاً
وقبلُ وتبّتها إلياً
فأربحُ من العيش ما تهياً
فُتنتُ جهلاً بهِ وغياً
أنتَ وإبليسُ والحميماً

٦٣٠ - وقال أبو جعفر ابن صفوان الملقبى رحمه الله تعالى :

سألتُه الإتيانَ نحوي مُقبِلاً
قرأتُ بابَ الجمعِ من شوقي لهُ
للاستغائسةِ ابتدأتُ تاليساً
وكلّما طلبتُ منهُ في الهوى
وإن أُرْمُ محضَ إضافةٍ لهُ
في ألفِ الوصلِ ظللتُ باحثاً
فلستُ موصولاً وليس عائداً
فيا منى نفسي ومن لفهمه
وجدني موقوفاً عليك لا أرى
فما الذي يمنعُ من تسكينه
والحبُّ مرفوعٌ إليك مفردٌ
فالضمُّ للرفعِ غداً علامةٌ
فقال سلْ نحوي كي تُحصلاً
وهو بالاشتغالِ عنّي قد سلا
وهو لأفعالِ التعدّي قد تلا
عطفاً غدا يطلبُ مني بدلا
أعملَ في قطعي عنه الحيلا
وهو يبابِ الفصلِ قد تكفلاً
وليس حالي عن أسمى متقلا
دائتُ فهمُ الأذكياءِ النُبلا
عنك مدى الدهر لهُ تنقلاً
والوقفُ بالتسكينِ حكْمُ أعمالِ
فلم تُرى لضمي مستقلا
في مفردٍ مثلي فأوضحُ مشكلا

لا زلتَ للهيامِ عنِّي رافعاً للوصلِ ناصباً ، لقولي مُعملاً
للسوقِ مُسكناً ، لهجري صارفاً بالقربِ من حالِ البعادِ مبدلاً
تجزمُ أمراً في الأمانِ ماضياً وتبندى بما تشا مستقبلاً

٦٣١ - وقال محمد بن إدريس القُضاعي الأصبطوني :

علاهُ رياضُ أورقتِ بمحامد تُنورُ بالجدوى وتُثمرُ بالأملِ
تسحُ عليها من نداهِ غمامةٌ تروي ثرى المعروفِ بالعلِّ والتَهَلِّ
وهلِّ هوَ إلا الشمسِ نفساً ورفعةً فيقربُ بالجدوى ويعدُّ بالأملِ
تعمُ أياديه البريةَ كلَّها فدانِ وقاصِ جودِ كفيهِ قد شملِ

٦٣٢ - وقال محمد التطيلي الهذلي ، من أعيان غرناطة ١ :

جارتِ عليَّ لواحظُ الآرامِ لما رمتَ أجفانها بسهامِ
حكمتِ عليَّ بحكمها فتبسَّتْ فغدا الضنى منها لدى أحكامِ
يا قاتلي عمداً بسيفِ لحاظهِ اغمدُ ظبَاهُ قبلَ وَقَعِ حِمامي
كم رمتُ وصلك والصلودُ يُصلني ويفلُّ عَزَمي أمرهُ ومرامي
لإني علمتُ النفسَ يومَ فراقكم والينُ أسلمها إلى الإعدامِ
كيف المقامُ وأصلُ جسمي ناحلُ إنَّ النفوسَ مقيمةُ الأجسامِ
صعبَ العلاجِ فليس يمكنَ برؤها حتى يعودَ الشهرُ مثلَ العامِ
قد كنتُ أفرحُ بالسُّلُوِّ فيها أنا قد زُمَ قلبي في الهوى بزمامِ
مالت به نحو الفتونِ بدائعُ من شادنِ يحكيه بدرُ تمامِ
فقوامُ أنفسنا بللةٌ وصلهِ وجميعُ أعيننا عليه سَوَامِ
قد أبرزتُ خداهِ روضَ محاسنِ عظمتُ على الأفكارِ والأوهامِ

١ ترجمة الهذلي التطيلي في المغرب ٢ : ٤٥٠ وبرنامج الربيعي : ٢٠٢ ؛ والمقري يتقل عن الإحاطة.

تندى بماء شيبية وتنعم
فكأنما وجناتها في لونها
وكأنما درع اللجى من شعره
وكأنما ريق حواه ثغره
وكأنما سيف نضت الحاظه
ذاك الأمير محمد بن محمد
ملك علا فوق السماك علاؤه
لو كان يعقل السها لأتاه في
أو كان يرضى بالمجرة أجرداً
فالسعد يفعل للأمانى قولها
واليوم يعشقه ويحسد ليلته
نامت عيون الشرك خوف سنانه
بهر الأنام بسيفه وبيأسه
فالمعتضى ينجي جزيل هباته
مهما استعنت به فضينغم معرك
أجرى مياه العدل بعد جفوفها
كم من كتيبة جحفل قد هدتها
المقتنى الجرد المتداكي عدة
من كل مبيض كان أديمه

ومنها :

يا خير من ركب الجياد وقادها
لا زلتُ والسعدُ يخلمُ أمركم
حتى يصير الأمنُ في أرجائنا
تحت اللواء ، وعمدة الأقبام
في غبطة موصولة بلوام
عبداً يقوم لنا على الأقبام

والله ينصركم ويعلي مجدكم ما سَحَّ إثر الصحو ماء غمام

٦٣٣ - وكان يحيى السرقسطي أديباً ، فرجع إلى الجزارين ، فأمر
الحاجبُ ابنُ هود أبا الفضل ابن حسداي أن يوبخه على ذلك ، فكتب إليه ١ :

تركت الشعرَ من عَدَمِ الإِصَابَةِ وملتَ إلى التِجَارَةِ والقِصَابَةِ

فأجابه يحيى :

تَعِيبُ عَلِيٌّ مَأْلُوفَ القِصَابَةِ وَمَنْ لَمْ يَدْرَ قَدْرَ الشَّيْءِ عَابَهُ
ولو أَحْكَمْتَ مِنْهَا بَعْضَ فَنٍ لِمَا اسْتَبَدَلْتَ مِنْهَا بِالْحِجَابَةِ
ولو تَدْرِي بِهَا كَلْفِي وَوَجْدِي عَلِمْتَ عِلَامَ أَحْتَمَلُ الصَّبَابَةَ
وَإِنَّكَ لَوْ طَلَعْتَ عَلَيَّ يَوْمًا وَحَوْلِي مِنْ بَنِي كَلْبٍ عَصَابَهُ
لَهَالِكَ مَا رَأَيْتَ وَقَلْتَ هَذَا هَزْبِي صَيَّرَ الْأَوْضَامَ غَابَةَ
وَكَمْ شَهِدْتُ لَنَا كَلْبٌ وَهَرٌ بَأَنَّ الْمَجْدَ قَدْ حَزُنَّا لُبَابَهُ
فَتَكُنَّا فِي بَنِي الْعَنْزِيِّ فَتَكَا أقرَّ الذعرَ فِيهِمُ وَالْمَهَابَةَ
وَلَمْ نُقْلِعْ عَنِ الثَّوْرِيِّ حَتَّى مَزَجْنَا بِالدَّمِ الْقَانِي لُعَابَهُ
وَمَنْ يَغْتَرُّ مِنْهُمْ بِامْتِنَاعٍ فَإِنَّ إِلَى صَوَارِمِنَا إِيَابَهُ
وَيَبْرُزُ وَاحِدٌ مِنَّا لِأَلْفٍ فِيغْلِبُهُمْ وَذَلِكَ مِنَ الْغَرَابَةِ
ومنها :

أبَا الْفَضْلِ الْوَزِيرِ أَجِبْ نَدَائِي وَفَضْلُكَ ضَامِنٌ عَنْكَ الْإِجَابَةُ
وإِصْغَاءٌ إِلَى شَكْوَى شَكُورٍ أَطَلْتَ عَلَى صِنَاعَتِهِ عِتَابَهُ
وَحَقِّكَ مَا تَرَكْتُ الشَّعْرَ حَتَّى رَأَيْتُ الْبُخْلَ قَدْ أَوْصَى صَحَابَهُ

١ المغرب ٢ : ٤٤٤ والنخيرة (٣ : ٢٨٦) وزاد المسافر : ٩٨ .

٢ م : الملل .

٣ المغرب : أذكى شهابه .

وحتى زرتُ مشتاقاً خليلي^١ فأبدي لي التحيل^٢ والكآبه
وظنَّ زيارتي لطِلابِ شيءٍ فنافرني وغلظَ لي حِجابَه

٦٣٤ - وقال الأديب أبو الحسن ابن الحداد :

قالتُ وأبدتُ صفحةً كالشمسِ من تحتِ القناعِ
بعتَ الدفاترَ وهي آ خرُ ما يُباعُ من المتاعِ
فأجبتُها ويدي على كبدي وهمتُ بانصداعِ
لا تعجبي ممّا رأيتِ فنحن في زمنِ الضياعِ

٦٣٥ - وقال الأديب أبو زكريا ابن مطروح من أهل مدينة باغه ، وقد
عُزل والٍ فترل المطر على إثره ، وهو من أحسن شعر قاله ، وكان الوالي غير
مرضى :

ورُبَّ والٍ سرّنا عزلهُ فبعضنا هنأه البعضُ
قد واصلتنا السحبُ من بعده ولدتْ في أجفاننا الغمضُ
لو لم يكن من نجسٍ شخصهُ ما طهرت من بعده الأرضُ

٦٣٦ - وقال القاضي أبو البركات ابن الحاج البليقي ، رحمه الله تعالى :

وعشية حكمتُ على من تاب من أهلِ الخلاعةِ أن يعودَ لما مضى
جمعتُ لنا شملَ السرورِ بفتيةٍ جمعوا من اللذاتِ شملاً مرتضى
ما عاقتي عن أن أسيرَ بسيرهم إلا الرياء مع الخطابةِ والقضا

٦٣٧ - وقال أبو الحجّاج يوسف الفهري من أهل دانية :

١ المغرب : حبيباً .

٢ ق : التخييل ؛ المغرب : التجهيم .

أبى الله إلا أن أفارقَ منزلاً يطالغني وجهُ المني فيه سافراً
كانَ على الأيتام أن لا أحلَّهُ رويداً فما أغشاهُ إلا مسافراً

٦٣٨ - وقال بعضهم في الرثاء :

عبّراتٌ تفيضُ حزناً وثكلاً وشجونٌ تعمُ بعضاً وكُلاً
ليس إلا صُبابةُ أضرمتها حسرةٌ تبعثُ الأسى ليس إلا

٦٣٩ - ولأبي جعفر البغيل أحد شعراء المريّة وكتّابها :

عزاءً على هذا المصابِ الذي دهمي وشتت شمل الأُنسِ من بعد ما انتهى
بفرعِ علاءٍ في منابتِ سُوددٍ تسامى رُقيّاً في المعالي إلى السُّها
أصببتَ به من بعد ما تمَّ مجدهُ وقد شمختُ منه الشماريخُ وازدهي
قأية شمسٍ فيه للمجد كُورَتُ وأيُّ بناءٍ للمكارمِ قدْ وهى
فصبراً عليه لا رُزئتَ بمثله فمثلك من يُعزى إلى الحلم والنُّهى

٦٤٠ - وقال الكاتب الماهر أبو جعفر أحمد بن أيوب اللماثي المالقي^١ :

طلعتُ طلّاحُ للربيعِ فأطلعتُ في الروضِ ورداً قبل حينِ أوانِهِ
حيّاً أميرَ المؤمنينِ مبشراً ومؤملاً للنيلِ من إحسانِهِ
ضنّتُ سحائبهُ عليه بمائه فأتاه يستقيه ماءً بتّانِهِ
دامتْ لنا أيامهُ موصولةً بالعزِّ والتمكينِ في سلطانهِ

٦٤١ - وقال أبو جعفر أحمد بن طلّحة من جزيرة سُقُر^٢ :

يا هل ترى أظرف من يومنا قلّدَ جيّدَ الأفقِ طوقَ العقيقِ
وأنطقَ الورقِ بعيدها مطربةً كلّ قضيبيّ وريقِ

١ الإحاطة ١ : ١١٠ .

٢ اختصار القلح : ١١٤ والإحاطة ١ : ١١٢ .

والشمسُ لا تشربُ خمرَ الندى في الروضِ إلاّ بكؤوسِ الشقيقِ

٦٤٢ - وقال أبو جعفر الغساني من أهل وادي آش ، واستوطن غرناطة ، ثم مات بالمريّة ، فكتب على حمالة قرابٍ لموطئ الإمام مالك ، بعدما استنجد قرائح أدياء عصره ، واستصرخ اختراعاتهم لنصره ، فكلّتهم قَصَرَ عن غرضه ، وأداء مقترضه ، فقال هو :

يا طالباً لكمالٍ حفطي أتمّ كمالكِ
فما تقلّدتِ مثلي إذ لم تقلّدي كمالكِ

٦٤٣ - وقال أبو بكر يحيى بن بقيّ :

خذها على وجهِ الربيعِ المُخصبِ لم يقضِ حقّ الروضِ من لم يشربِ
هممي سماءَ علّاً وهمّي ماردٌ فارجمه من تلك الكؤوسِ بكوكبِ

وهو رحمه الله تعالى صاحب الأبيات المشهورة :

زَحزَحْتُهُ عن أضلعٍ تشنّاقهُ كيلا ينامَ على فراشِ خاققِ

وانتقد عليه بعض اللطفاء فقال : إته كان جاني الطبع حيث قال « زحزحته » ولو قال « باعدت عنه أضلعاً تشنّاقه » لكان أحسن .

٦٤٤ - وقال السلطان المتوكل بن الأفتس صاحب بطليّوس يستدعي^١ :

انفضْ أبا طالبِ إلينا واستقطْ سقوطَ الندى علينا
فنحنُ عقيدٌ بغيرِ وسطي ما لم تكنْ حاضراً لدينا

وتذكرت هنا قول بعض المشاركة فيما أظن والله تعالى أعلم :

١ القلائد : ٤٦ وانظر ج ١ : ٦٦٦ .

نحنُ في مجلسِ أنسٍ ما بهِ غيرُ محبِّكَ
فتصدِّقُ بمحضورٍ واجمع الوقتَ بقربك
وخفِ الآنَ عتايي مثلَ خوفاي عندَ عتبك

٦٤٥ - وقال أبو عبد الله ابن خلصة الضرير^١ :

ولو جادَ بالدُّنيا وثنتي بمثلها لظنَّ من استصغارها أنه ضنَّ
ولا عيبَ في إنعامه غيرَ أنه إذا منَّ لم يتبعْ مواهبه منَّا
وله أيضاً^٢ :

يا مالكا حسدتَ عليه زمانه أم خلَّتَ من قبله وقرونُ
ما لي أرى الآمالَ بيضاً وضحاً ووجوهُ آمالي حوالك جونُ
أنا أمينُ فرقٍ ، وراجِ آيسُ وروِّ صدِّ ، ومُسرحُ مسجونُ
لا تعدُّني أنواء سيِّبك لا عداك النصرُ والتأييدُ والتمكينُ

٦٤٦ - وقال ابن اللبَّانة :

كرمتَ فلا بجرُّ حكاكٍ ولا حياً وقُتَّ فلا عجمُ شاتكٍ ولا عرْبُ
وأوليتني منك الجميلَ فواللهِ عسى السحُّ من نعماك يتبعه السكبُ

٦٤٧ - وقال أبو علي ابن اليمان^٣ :

أبناتُ الهديلِ أسعدنَ أو عدنَ قليلَ العزاءِ بالإسعادِ
بيدَ أنِّي لا أرتضي ما فعلتَ نَ فأطواقكُنَّ في الأجيادِ

١ هو أبو عبد الله محمد بن خلصة الشنوفي ويقال له الضرير تمييزاً عن من ينسب سواء إلى خلصة ، انظر الجلوقة : ٥١ ونكت الحميان : ٢٤٨ والمسالك : ١١ : ٤٥ والنخيرة (٣ : ١٠٩) .

٢ النخيرة : ١١١ .

٣ هو إدريس بن اليمان ؛ ووهم المقرئ أو من ينقل عنه في نسبة البيتين له فهما لأبي العلاء المعري من دالته « غير مجد في ملي واعتقادي » ، ولعل سبب الوهم أبيات ابن اليمان في الحماسة (النخيرة : ٣ : ١١٩) .

٦٤٨ - وقال أبو جعفر أحمد بن اللودين من كلمة^١ :

فغدتْ غواني الحبيِّ عنكَ غوانياً وأسلنَ الحاظَ الربابِ ربابا

٦٤٩ - وقال ابن أبي الخصال في مليحة لها أربع جوارٍ قبيحات :

وليلةٌ طولها على سَنَةٍ باتَ بها الجفنُ نادباً وَسَنَةً
بأربعٍ بينهنَّ واحدةٌ كسيئاتٍ وبَيْنها حسنةٌ

٦٥٠ - وقال غالب بن تمام الملقَّب بالحجَّام :

صغارُ الناسِ أكثرهمُ قبيحاً ولَيْسَ لهمُ بصالحَةٍ نُهوَضُ
ألم ترَ في سباعِ الطيرِ نسرأُ يُسالننا ويؤذينا البعوضُ

٦٥١ - وقال ابن عائشة^٢ :

وروضةٌ قد علت سماءَ تطلعُ أزهارها نجوما
هنا نسيمُ الصِّبَا عليها فخلتها أرسلت رجوما^٣
كأنما الجوّ غارَ لما بدتْ فأغرى بها التسيما

وله يصف فرساً ، وهو من بدائعہ :

قَصُرَتْ له تسعٌ وطالت أربعٌ وزكّت ثلاثٌ منه للمتأملِ
وكأنما سالَ الظلامُ بمتته وبدا الصباحُ بوجهه المتهللِ
وكانَ راكبه على ظهرِ الصِّبَا من سرعةٍ أو فوق ظهرِ الشمالِ

١ هو من رجال النخيرة (٣ : ٢١٩) والمغرب ٢ : ٣٢٢ ؛ والبيت فيه .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ٥٤ وانظر النخيرة (٣ : ٢٧٩) .

٣ سقط هذا البيت من م .

وقال :

تربةٌ مسك ، وجوُّ عنبرةٍ وغيمٌ ندّ ، وطشٌّ ما وردِ
كأتما جائلُ الحباب بهِ يلعبُ في جانبيه بالردِ
وتروى هذه الأبيات لغيره ^١ .

وقال ^٢ :

همُ سلبوني حُسنَ صبري إذ بانوا بأقمارِ أطواقٍ مطالعها بانُ
لئن غادرُوني باللوى إنَّ مهجتي مسابرةٌ أظعانهم حيثما كانوا

٦٥٢ - وقال أبو محمد ابن سفيان ، وهو من أبداع التخلص :

قلقتُ وجفني قد تداعَتْ شؤونُهُ وحرَّ ضلوعي مُقعدٌ ومُقيمُ
لئن دهمتْ دُهمُ الخطوب وآلتْ فإنَّ أبا عيسى أغرُّ كريمُ

٦٥٣ - وقال ابن الزقاق ^٣ :

بأبي وغيرِ أبي أغنَّ مهفهُفٌ مهضومٌ ما تحتَ الوشاح خميصُهُ
لبسَ الفؤادَ ومزقته جفونُهُ فأثى كيوسُفَ حينَ قدَّ قميصُهُ

وقال :

سلامٌ على أيامكم ما بكى الحيا وسقياً لذاك العهد ما ابتسم الزهرُ
كانُ لم نبتْ في ظلِّ أمنٍ تضمُّنا من الليلةِ الظلماءِ أرديةٌ خضُرُ
ولم نغتنقْ تلكَ الأحاديثَ قهوةً وكم مجلسٍ طيبُ الحديثِ بهِ خمرُ
ألا في ضمانِ الله في كلِّ ساعةٍ يجدُّ لي فيها بشوتي لهُ ذكرُ

١ وتروى . . . لغيره : سقطت من م .

٢ وردت التصيدة بتمامها في أزهار الرياض ٣ : ١٢١ منبوية لابن السيد البطليوسي .

٣ وردت قطعاً ابن الزقاق في ديوانه : ١٩٦ ، ١٧١ .

يُذَكِّرُنِيهِ الْبَرْقُ جَدُّ لَانَ بِاسْمًا وَيُذَكِّرُنِي إِسْفَارَ غُرَّتِهِ الْفَجْرُ
وَمَارِقَ زَهْرِ الرُّوضِ إِلَّا تَمَثَّلْتُ لِنَاطِرِ عَيْنِي مِنْهُ آدَابُهُ الزُّهْرُ

٦٥٤ - وقال يحيى السَّرْقُسْطِي :

هَاتِمَا عَسْجَلِيَّةٌ كَوَثْرِيَّةٌ بِنْتَ كَرَمٍ رَحِيقَةٌ عَطْرِيَّةٌ
كَلَّمَا شَقَّهَا النَّحُولُ تُقَوَّتْ فَاعْجَبُوا مِنْ ضَعِيفَةٍ وَقَوِيَّةٌ
رَبَّ خَمَّارَةٍ سَرِبَتْ إِلَيْهَا وَاللَّجَى فِي ثِيَابِهِ الزَّنْجِيَّةُ

ومنها :

كَمْ عُقَارٍ بَدَّلْتُهُ بِعُقَارٍ وَثِيَابٍ صَبَغْتُهَا خَمْرِيَّةً
إِنَّ خَيْرَ الْبُيُوعِ مَا كَانَ نَقْدًا لَيْسَ مَا كَانَ أَجْلًا بِنَسِيَّةً

وله^١ :

نَسِبْتُمُ الظُّلْمَ لِعَمَالِكُمْ وَنَتَمُّ عَنْ قَبِيحِ أَعْمَالِكُمْ
وَإِنَّ اللَّهَ لَوْ حَكَمْتُمْ سَاعَةً مَا خَطَرَ الْعَدْلُ عَلَى بِالِكُمْ

٦٥٥ - وقال الرصافي في الدولاب^٢ :

وَذِي حَنِينٍ يَكَادُ شَجْوًا يَخْتَلِسُ الْأَنْفُسَ اخْتِلَاسًا
إِذَا غَدَا لِلرِّيَاضِ جَارًا قَالَ لَهَا الْمَحَلُّ لَا مَسَاسَا
يَبْتَسِمُ الرُّوضُ حِينَ يَبْكِي بِأَدْمَعٍ مَا رَأَى بِنَاسَا
مَنْ كُلَّ جَفْنٍ يَسَلُّ سَيْفًا صَارَ لَهُ عَقْدُهُ رِثَاسَا

٦٥٦ - وخرج أبو بكر الصابوني لتزهة بوادي إشبيلية ، وكان يهوى

١ زاد المسافر : ٩٩ .

٢ ديوان الرصافي : ١٠٢ والمغرب ٢ : ٣٥١ والمعجب : ١٤٣ ورفع المعجب : ١٣٥ .

فتى اسمه علي ، فقال :

أبا حسنٍ أبا حسنٍ بَعادُكَ قد نفي و سني
وما أنسى تذكُّره فهل أنسى فيذكرني

ويشبه هذا قول الطاهر بن أبي ركب^١ :

يقولُ الناسُ في مثلي تذكُّرٌ غائباً تره
فما لي لا أرى سكي وما أنسى تذكُّره

٦٥٧ - وكتب بعض الأدباء إلى ابن حزم الأندلسي بقوله :

سألتُ الوزيرَ الفقيهَ الأجلَّ سؤالَ مُدلِّ علي من سأل
قلقتُ أيا خيرٍ مسترشدٍ ويا خيرَ مَنْ عن إمامٍ نقل
أبحرمُ أن نالي قبلةً غزالٌ ترشفُ فيه الغزل
وعانقتي والذبي خاضبٌ فبتنا ضجيعين حتى نصل
وجئتك أسأل مسترشداً فبينتُ فديت لمن قد سأل

فأجابه ابنُ حزم بقوله :

إذا كان ما قلته صادقاً وكنت تحريت جهده المقل
وكان ضجيعك طاوي الحشا أعار المهابة احمرار المقل
قريب الرضى وله غنة تيمت الهموم وتحيي الجدل
ففي أخذ أشهب عن مالك عن ابن شهاب عن الغير قُل
بترك الخلاف على جمعهم على أن ذلك حل وبيل

٦٥٨ - ونظر الرصافي يوماً إلى صبي يبكي ، ويأخذ من ريقه ويبل^٢

١ انظر ما تقدم ص : ١١٣ .

عينيه ، كي يخفي أثر البكاء ، فارتجل الرصافي ١ :

عذيري من جدلان يبدي كآبةً وأضلعه مما يحاوله صفرُ
أميلدُ مياسُ إذا قاده الصبا إلى ملح الإدلال أئده السحرُ
يبل ماقي مقلتيه بريقه ليحكي البكا عمداً كما ابتم الزهرُ
أيوهم أن الدمع بل جفونه وهل عصرت يوماً من الرجس الخمرُ

وكان المذكور - أعني الرصافي - يميل في شببته لبعض فتيان الطلبة ، وأجمع الطلبة على أن يصنعوا نزهة بالوادي الكبير بمالقة ، فركبوا زورقاً للمسير إلى الوادي ، فوافق أن اجتمع في الزورق شمل الرصافي بمحبوبه ، ثم إن الريح الغربية عصفت وهاج البحر ، ونزل المطر ، فترلوا من الزورق ، وافترق شمل الرصافي من محبوبه ، فارتجل في ذلك ، ويقال إنها من أول شعره :

غارَ بيَ الغربُ إذ رأني مجتمعَ الشملِ بالحبيبِ
فأرسلَ الماءَ عن فراقٍ وأرسلَ الريحَ عن رقيبِ

فلما سمع ذلك أستاذه استنبه ، وقال له : إنك ستكون شاعر زمانك .

٦٥٩ - وحكي أن أبا بكر ابن مجبر قال في ابن لأبي الحسن ابن القطان

بمحضر والده :

جاء وفي يساره قوسٌ وفي اليمنى قدحٌ
كأنه شمسٌ بليتٍ وحوطاً قوسٌ فزحٌ
يا لائمي في حبه ما كلُّ من لام نصحٌ

فقال ابن عياش الكاتب : هذه أبيات لأندلسي استوطن المشرق في تركي ،

١ ذبوان الرصافي : ٦٧ .

فأقسم أبو بكر أنه لم يسمع شيئاً من ذلك ، وإنما ارتجلها ، وقيل : إنَّها لأبي
الفتح محمد بن عبيد الله من أهل بغداد ، وأولها :

جَدَّ بقلبي ومَزَحْ

فالله أعلم بحقيقة الأمر .

٦٦٠ - وخرج أبو بكر ابن طاهر وأبو ذر الحُشْتِي والقاضي أبو حفص
ابن عمر ، وهو إذ ذاك وَسِيمٌ ، فأثرت الشمس في وجهه ، فقال أبو ذر :

وسمكتَ الشمس يا عمرُ سِمةً في القلبِ تنترُ

فقال الآخر :

عَلِمْتَ قَدَرَ الذي صَنَعْتَ فَآتَتْ صفراءُ تعنذُ

٦٦١ - وقال أبو الحسين البلنسي الصوفي : كان لي صديق أُمِّي لا يقرأ
ولا يكتب ، فعلق فتى ، وكان خرج لتزهة فأثرت الشمس في وجهه ، فأعجبه
ذلك ، وأنشد :

رأيتُ أحمدَ لما جاء من سفرٍ والشمسُ قد أثرت في وجهه أثرا
فانظرُ لما أثرتَه الشمسُ في قمرٍ والشمسُ لا ينبغي أن تُدرك القمرا

٦٦٢ - واجتمع أبو الوليد الوقشي وأبو مروان عبد الملك بن سراج
القرطبي ، وكانا فريدي عصرهما حفظاً وتقدماً ، فتعارفا ، وتساءلا ، ثم بادر
أبو الوليد بالسؤال ، وقال : كيف يكون قول القائل :

ولو أنَّ ما بي بالحصى فعلُ الحصى وبالريح لَمْ يُسمعُ لمن هبوبُ

١ م : فلي .

ما ينبغي أن يكون مكان « فعل الحصى » ؟ فقال أبو مروان « فلق الحصى » ، فقال :
 وهمت ، إنما يكون « فلق الحصى » ليكون مطابقاً لقوله « لم يُسمع لمن هبوب »
 يريد أن ما به يحرك ما شأنه السكون ويسكن ما شأنه الحركة ، فقال أبو مروان :
 ما يريد الشاعر بقوله :

وراكعة في ظلّ غصنٍ منوّطةٍ بلؤلؤة نيطت بمنقارٍ طائرٍ

وكان اجتماعهما في مسجد ، فأقيمت الصلاة إثر فراغ ابن سراج من إنشاد
 البيت ، فلماً انقضت الصلاة قال له الوقشي : ألغز الشاعر باسم أحمد ، فالراكعة
 الحاء ، والغصن كناية عن الألف ، واللؤلؤة الميم ، ومنقار الطائر الدال ، فقال
 له ابن سراج : ينبغي أن تعيد الصلاة لشغل خاطرِكَ بهذا اللغز ، فقال له الوقشي :
 بين الإقامة وتكبيرة الإحرام فككته .

والبيت الأول لعبد الله بن الدمينية ، وبعده :

ولو أتني أستغفرُ الله كلما ذكرتُك لم تُكتبُ عليّ ذنوبُ

٦٦٣ - وقال الوزير أبو الحسن ابن أضحى :

ومستشفعٍ عندي بخير الورى عندي وأولاهمُ بالشكر منّي وبالحمدِ
 وصَلتُ فلماً لم أقم بجزائه « لفتُ له رأسي حياءً من المجدِ »^١

وكان سبب قوله هذين البيتين أنه كتب إليه بعض الوزراء شافعاً لأحد
 الأعيان ، فلماً وصل إليه برّه وأنزله وأعطاه عطاءً استعظمه واستجزله ، وخلع
 عليه خلعاً ، وأطلعه من الأحمال بدمراً لم يكن مطلعاً ، ثم اعتقد أنه قد جاء
 مقصراً ، فكتب إليه معتذراً بالبيتين ، هكذا حكاها الفتح^٢ ، وقال بعد ذلك
 ما صورته : ومن باهر جلاله ، وظاهرٍ جلاله ، أنه أعفُ الناس بواطن ،

١ عجز بيت لأبي تمام وصدره : « أتاني مع الركبان ظن ظنته » .

٢ القلائد : ٢١٧ ومر بعضه .

وأشرفهم في التقى مواطن ، ما علمت له صبوة ، ولا حلت له إلى مستنكر
حبوة ، مع عدل لا شيء يعدله ، وتحجب عما يتقى مما يرسل عليه حجاب
ويسد له ، وكان لصاحب البلد الذي كان يتولى القضاء به ابن من أحسن الناس
صورة ، وكانت محاسن الأقوال والأفعال عليه مقصورة ، مع ما شئت من لسن ،
وصوت حسن ، وعفاف ، واختلاط بالبهاء والتفاف ، قال الفتح : وحمكتنا
لإحدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر ، أحسن من
شاذمهر ، تشقها جداول كالصلال ، ولا ترمقها الشمس من تكائف الظلال ،
ومعنا جملة من أعيانها ، فأحضرنا من أنواع الطعام ، وأرانا من فرط الإكرام
والإنعام ، ما لا يُطاق ولا يحد ، ويقصر عن بعضه العدة ، وفي أثناء مقامنا بدا
لي من ذلك القتي المذكور ما أنكرته ، فقابلته بكلام اعتقده ، وملام أحقده ،
فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابه ، ولم أر منه ما عهدته من الإثابه ، فكفيت
إليه مُداعباً له ، فراجعني بهذه القطعة :

أتنتني أبا نصيرٍ نتيجةً خاطيرٍ	سريعٍ كرجع الطرف في الخطراتِ
فأعربتَ عن وجدٍ كمينٍ طويته	بأهيفٍ طاوٍ فاتر اللحظاتِ
غزالٍ أحَمُّ المُقلتينِ عرفتهُ	بجيفٍ منىً للحسنِ أو عرفاتِ
رماكَ فأصمى والقلوبُ رميةُ	لكلِّ كحيلِ الطرفِ ذي فتكاتِ
وظنَّ بأن القلبَ منك مُحَصَّبٌ	فلبأكَ من عينيهِ بالجمراتِ
تقربَ بالنسأكِ في كل منسكٍ	وضحى غداةَ النحرِ بالمهجاتِ
وكانت له جيانٌ مثوى فأصبحتُ	ضلوعكَ مشواهُ بكلِّ فلاةِ
يعزُّ علينا أن تهيمَ فتنتطوي	كثيباً على الأشجانِ والزفراتِ
فلو قبِلتَ للناسِ في الحبِّ فديةُ	فدينأكَ بالأموالِ والبشراتِ

ومن إثار ديانته ، وعلامة حفظه للشرع وصيانته ، وقصده مقصد المتورعين ،
وجزيه جري المتشريعين ، أن أحد أعيان بلده كان متصلاً به اتصال الناظر

بسواده ، محتلاً في عينه وفؤاده^١ ، لا يُسَلِّمُه إلى مكروهه ، ولا يفرده في
 حادث يَعْرُوه ، وكان من الأدب في منزلة تفتضي إسعافه ، ولا تورده من
 تشفيعه في مورد قد عافه ، فكتب إليه ضارعاً في رجلٍ من خواصه اختلط بامرأة
 طلقها ، ثم تعلقها ، وخاطبه في ذلك بشعر ، فلم يسعفه ، وكتب إليه مُراجِعاً :

ألا أيها السيدُ المجتبي	ويا أيها الألميُّ العلمُ
أنتنيَ آياتك المحكماتُ	بما قد حوت من بديع الحكم
ولم أرَ من قبلها مثلها	وقد نَفثت سحرها في الكلم
ولكنهُ الدينُ لا يُشترى	بنيرٍ ولا بنظامٍ نُظِم
وكيف أبيعُ حِمِّيَ مانعاً	وكيف أحلُّ ما قد حرم
ألستُ أخافُ عقابَ الإله	وناراً مؤجَّجةً تضطرم
أأصرفُها طالقاً بتةً	على أنوك قد طغى واجترم
ولو أن ذلك الغويُّ ^٢ الزريُّ	ثبَّتَ في أمره ما ندم
ولكنهُ طاشَ مستعجلاً	فكانَ أحقَّ الوريِّ بالندم

انتهى كلام الفتح الذي أردت جَلِّبه هنا .

ولا خفاء أن هذه الحكاية ممّا يدخل في حكايات عدل قضاة الأندلس .
 ومن نظم ابن أضحى المذكور ما كتب به إلى بعض مَنْ يعز عليه^٣ :

يا ساكنَ القلبِ رفقاً كم تُقَطِّعه	اللهَ في منزلٍ قد ظلَّ مشواكا
يُشيدُ الناسَ للتحصينِ منزلهم	وأنتَ تهلمه بالعنفِ عيناكا
واللهَ والله ما حَبِيَّ لفاحشةٍ	أعاذني الله من هذا وعافاكا

١ م : محضلاً في عينيه وفؤاده .

٢ م : الغبي .

٣ القلائد : ٢١٨ .

وله في مثل ذلك^١ :

روحي إليك فردّيه إلى جسدي من لي على فقده بالصبر والجلدِ
بالله زوري كئيباً لا عزاء لهُ وشرفيه ومثواه غداة غدِ
لو تعلمين بما ألقاهُ يا أملي بايعتني الودّ تُصفيه يداً بيدِ
عليك مني سلامُ الله ما بقيتُ آثارُ عينيك في قلبي وفي كبدي

٦٦٤ - وإذا وصلت إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس ، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي هنّ اليدُ الطولى في البلاغة ، كمن يُعلم أن البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى في نسايمهم وصيانيهم .

١ - فمن النساء المشهورات بالأندلس : أم السعد بنت عصام الحميري^٢ ، من أهل قرطبة ، وتُعرف بسعدونة ، ولها رواية عن أبيها وجدّها وغيرهما ، كما حكاه ابن الأبار في ترجمتها من « التكملة » . وأنشدت لنفسها في تمثال نعل النبي صلى الله عليه وسلّم تكلمة لقول غيرها ما صورته^٣ :

سألتم التمثالَ إذ لَمَ أجدُ لثم نعلِ المصطفى من سبيلِ
لعلني أحظى بتقبيله في جنة الفردوسِ أسنى مقيلِ
في ظلّ طُوبى ساكناً آمناً أسقى بأكواسٍ من السلسيلِ
وأمسحُ القلبَ به عتّه يسكنُ ما جاش به من غليلِ
فطالما استشفني بأطلالِ مَنْ يهواه أهلُ الحبّ في كل جيلِ

وأنشدني ابن جابر الوادي آشي عن شيخه المحدث أبي محمد ابن هرون

١ في مثل ذلك : سقطت من م .
٢ ترجمة أم السعد في التكملة (رقم : ٢١٢٨) والذيل والتكملة (آخر قسم الفرياه) والسيوطي :
٢٦ ؛ وساق ابن عبد الملك نسبها وقال : توفيت بمالقة سنة أربعين وستمائة أو نحوها .
٣ يريد أن البيت الأول ليس من نظمها .

القرطبي لجدته سعدونة ، وأظنها هذه :

أخِ الرجالَ من الأبا عِدِ والأقاربَ لا تُقارب
إنَّ الأقاربَ كالعقبا ربِّ أو أشدَّ من العقارب

هكذا نقله الخطيب ابن مرزوق ، ورأيت نسبة البيتين لابن العميد^١ ،
فأله أعلم .

2 - ومنهن حسانة التميمية بنت أبي المخشبي الشاعر^٢ .

تأديت وتعلمت الشعر ، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم ، وهي
إذ ذاك بكر لم تتزوج :

إنِّي إليك أبا العاصي موجعة أبا المخشبي سقته الواكفَ الدَّيْمُ
قد كنتُ أرتعُ في نعماهُ عاكفةً فاليومَ آوي إلى نعماك يا حكمُ
أنت الإمام الذي انقاد الأنامُ لهُ وملكتهُ مقاليدَ النهي الأمامُ
لا شيء أخشى إذا ما كنتَ لي كنفاً آوي إليه ولا يعرفني العلمُ
لا زلتُ بالعزةِ القعساءِ مرتدياً حتى تذللَّ إليك العُربُ والعجمُ

فلما وقفَ الحكم على شعرها استحسنته ، وأمر لها بإجراء مرتب ، وكتب
إلى عامله على البيرةَ فجهزها بجهاز حسن .

ويحكى أنها وفدت على ابنه عبد الرحمن بشكوية من عامله جابر بن لييد

١ انظر بقيمة الدر ٣ : ١٨٣ - ١٨٤ حيث نسبهما لابن العميد .

٢ ترجمة حسانة التميمية في الذيل والتكملة (آخر قسم الغرياه) وكتاب ذكر بلاد الأندلس (١٠٩) ،
(١١٧) وذكر أنها كانت بالبيرة وأورد الأبيات التي كتبها للحكم بن هشام ثم وفادتها حل عبد
الرحمن وما أنشدته من شعر ؛ وأبو المخشبي والدعا هو عاصم بن زيد أحد قدامى الشعراء بالأندلس
وهو تميمي عبادي وقد قطع لسانه هشام بن عبد الرحمن الداخل (انظر المغرب ٢ : ١٢٣ والجلوة :
٣٧٧ والبتية رقم : ١٥٤٣ وقد كتب في أصول النسخ خطأ - أبو الحسين) .

وَأَلِي الْبَيْرَةَ ، وكان الحكم قد وَقَعَ لها بِنَظِّ يده تَحْرِيرَ أَمْلَاقِهَا ، وحملها في ذلك على البر والإكرام ، فتوسلت إلى جابر بِنَظِّ الحكم ، فلم يفدها ، فدخلت إلى الإمام عبد الرحمن ، فأقامت بِنِائِهِ ، وتلطفت مع بعض نسائه ، حتى أوصلتها إليه ، وهو في حال طرب وسرور ، فانتسبت إليه ، فعرفها وعرف أباه ، ثم أنشدته :

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبِي على شَحَطِ تَصَلَّى بنارِ الهواجرِ
ليجير صدّعي إنّه خيرُ جابِرِ ويمنعني من ذي الظلامَةِ جابِرِ
فإني وأيتامي بقبضَةِ كَفِّهِ كذي ريشٍ أضحى في محالبِ كاسِرِ
جديرٌ مثلي أن يقالَ مَرُوعَةٌ لموتِ أبي العاصي الذي كان ناصِرِ
سقاها الحيا لو كان حياً لما اعتدى عليّ زمانٌ باطشٌ بَطْشَ قادِرِ
أيمحو الذي خطّته يميناهُ جابِرُ لقد سامَ بالأَملاكِ إحدى الكبائرِ

ولما فرغت رفعت إليه خط والده ، وحكت جميع أمرها ، فرق لها ، وأخذ خط أبيه فقبله ووضع على عينيه ، وقال : تعدّي ابنُ لييد طَوْرِهِ ، حين رام نقض رأي الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، انصرفي يا حسّانة فقد عزلته لك ، ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم ، فقبلت يده ، وأمر لها بجائزة ، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها :

ابن المشامين خيرُ الناسِ مَأْتِرَةٌ وخيرُ مُنْتَجِعِ يوماً لروادِ
إن هزَّ يومَ الوغى أثناء صعده روى أنابيهما من صرفِ فِرْصادِ
قلْ للإمامِ أيا خيرَ الورى نسباً مقابلاً بينَ آباءِ وأجدادِ
جوَدَتِ طبعي ولم ترضِ الظلامَةَ لي فهاكَ فضلَ ثناءِ رائعِ غادِ
فإن أقمْتُ فني نَعْمَاكَ عاطفة وإن رحلتُ فقد زوَدْتِني زادي

3 - ومنهن أم العلاء بنت يوسف الحجارية^١ .

ذكرها صاحب « المغرب » وقال : إنها من أهل المائة الخامسة ، ومن شعرها :

كلُّ ما يصدرُ منكم حسنٌ وبعلياًكم تحلّى الزمنُ
تعطفُ العينُ على منظركم وبذكراكم تلدُّ الأذنُ
من يعيشُ دونكمُ في عمره فهو في نيلِ الأمانِ يُغبنُ

وعشيقها رجلٌ أشيب ، فكتبت إليه :

الشيْبُ لا يُخدَعُ فيه الصِّبا بحيلةٍ فاسمِعْ إلى نُصحي
فلا تكن أجهلَ من في الوري بيتٌ في الجهلِ كما بُضحي

ولها أيضاً :

افهم مطارحَ أحوالي وما حكمتُ به الشواهدُ واعذرنِي ولا تلمِ
ولا تكلّتي إلى عُدُرِ أبيته شرُّ المعاذيرِ ما يحتاجُ للكلمِ
وكلّ ما جثته من زلّةٍ فما أصبحتُ في ثقةٍ من ذلك الكرمِ

والحجارية - بالراء المهملة - نسبة إلى وادي الحجارة .

4 - ومنهن أمةُ العزيز^٢ .

قال الحافظ أبو الخطاب ابنُ دحية في كتاب « المطرب من أشعار المغرب » :
أنشدتني أخت جلدي الشريفة الفاضلة أمة العزيز الشريفة الحسينية لنفسها :

١ ترجمة أم العلاء الحجارية في المغرب ٢ : ٣٨ والسيوطي : ٢٢ وأشعارها في المصدر الثاني .
٢ انظر المطرب : ٦ ، والبيتان يفسبان لغيرها ، ولم يقل ابن دحية إن البيتين لها وإنما قال « وأنشدتني » .
وراجع السيوطي : ٢٤ .

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخلود
جرحٌ يجرحُ فاجعلوا ذا بذًا فما الذي أوجبَ جرحَ الصلودُ

قلت : هذا السؤال يحتاج إلى جواب ، وقد رأيت لبلدينا القاضي الإمام
الفاضل أبي الفضل قاسم العقباني التلمساني رحمه الله تعالى جوابه ؛ والغالبُ أنه
من نظمه ، وهو قوله :

أوجبَّه مُنيّ يا سيدي جرحٌ بخدليس فيه الجحود
وأنتَ فيما قلتَه مُدعٍ فأين ما قلتَ وأين الشهود

انتهى .

5 - ومنهن أم الكرام بنت المعتم بن صُمّادح ملك الميريّة^١ .

قال ابن سعيد في « المغرب » : كانت تنظم الشعر ، وعشقت الفتي المشهور
بالجمال من دانيسة المعروف بالسمار ، وعملت فيه الموشحات ، ومن
شعرها فيه :

يا معشرَ الناسِ ألا فاعجبوا مما جنته لوعةُ الحبِّ
لولاه لم يتزلْ بيلدِ الدجى من أفضه العلويِّ للتربِ
حسبي بمن أهواه ، لو أنه فارقني تابعه قلبي

6 - ومنهن الشاعرة الغسانية البجائية^٢ - بالنون - نسبة إلى بجاعة ، وهي
كورة عظيمة ، وتشتهر بإقليم المرية ، وهي من أهل المائة الرابعة ، فمن نظمها
من أبيات :

١ أم الكرام ، وتكتب أحياناً « أم الكرم » الصمادية : ترجم لها في المغرب ٢ : ٢٠٢ والسيوطي :

٢٠ .

٢ ترجمة الغسانية في الجفوة : ٢٧٩ (وبغية المتنصر رقم : ١٥٨٥) والعللة : ٦٥٧ والسيوطي :

١٠٧ وقد مدحت خيران العامري ، أبي أدركت آخر الدولة الأموية وعهد الفتنة وأوائل حكم

الطوائف .

عهدتُهُمُ والعيشُ في ظلِّ وَصلهم أنيقُ وروضُ الوصلِ أخضرُ فَيَتَانُ
لياليَ سعدٍ لا يُخَافُ على الهوى عتابٌ ولا يُخشَى على الوصلِ هجرانُ

7 - ومنهن العروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب .

سكنت بِلَنَسِيَّةَ ، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة ،
لكنها فاقته في ذلك ، وبرعت في العروض ، وكانت تحفظ « الكامل » للمبرد
و « النوادر » للقالي وتشرحهما ، قال أبو داود سليمان بن نجاح : قرأت عليها
الكتابين ، وأخذت عنها العروض ، وتوفيت بدانية بعد سيدها في حدود
الخمسين والأربعمائة ، رحمة الله تعالى .

8 - ومنهن حفصة بنت الحجاج الركونية ، الشاعرة الأدبية المشهورة بالجمال ،
والحسب والمال . ذكرها الملاحى في تاريخه ، وأشد لها ممّا قالته في أمير المؤمنين
عبد المؤمن بن علي ارتجالاً بين يديه :

يا سيّدَ الناسِ يا مَنْ يُؤمَلُ الناسُ رِفْدَةً
امننْ عليّ بطيرِمْسٍ يكونُ للدهرِ عُدَّةً
تخطّ يمنساك فيه : الحمدُ لله وحده

وأشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين ، فإنها كانت أن يكتب
السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور « الحمد لله وحده » .

٦٦٥ - [استطراد بقصتين]

وتذكرتُ بذلك ، والشيء بالشيء يُذكر ، أنه لما قفلَ السلطانُ الناصر أمير

١ ترجمة حفصة الركونية في الإحاطة ١ : ٤٩٩ والمغرب ٢ : ١٣٨ والطرب : ١٠ والسيوطي :
٤٠ والتحفة : ١٦٧ ومعجم الأدباء ١٠ : ٢١٩ .

المؤمنين ابن أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي سلطان المغرب والأندلس من إفريقية سنة ثلاث وستمائة بعد فتح المهديّة هنأته الشعراء بذلك ، ثم اجتمع أبو عبد الله ابن مَرَج الكحل بالشعراء والكتّاب ، فتذكروا الفتح وعظمه ، فأشدهم ابن مرج الكحل في الوقت لنفسه :

ولمّا تَوَالَى الفتحُ من كلِّ وجهةٍ ولم تبلغ الأوهامُ في الوصفِ حدَّهُ
تركنا أميرَ المؤمنين لشكره بما أودع السرُّ الإلهيُّ عندهُ
فلا نعمةٌ إلّا تؤدّي حقوقها علامتهُ بالحمدِ للهِ وحدهُ
فاستحسن الكتّابُ لهُ ذلك ، ووقع أحسن موقع .

وحكى صاحب كتاب « رُوح الشعر وروح الشجر » وهو الكاتب أبو عبد الله محمد بن الجلاب الفهري أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور لما قفلَ من غزوة الأراكة المشهورة ، وكانت يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسائة ، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كلُّ إنسان قصيدته ، بل كان يختصُّ منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة ، فدخل أحد الشعراء فأشده :

ما أنتَ في أمراءِ الناسِ كلِّهمُ إلّا كصاحبِ هذا الدِّينِ في الرُّسلِ
أحييتَ بالسيفِ دينَ الهاشميِّ كما أحياهُ جدُّك عبدُ المؤمنِ بنُ عليِّ

فأمر لهُ بالفي دينار ، ولم يصل أحداً غيره لكثرة الشعراء ، وأخذ بالمثل « متعُ الجميع ، أرضى للجميع » ، قال : وانتهت رِقاعُ القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين مَنْ كان أمامه لكثرتها ، انتهى .

رجع إلى أخبار حفصة :

وأشدها أبو الخطاب في « المطرب » قولها :

ثنائي على تلك الثنايا لأتني أقول على علم وأنطق عن خبير
وأنصفها لا أكذبُ الله إنتي رشفْتُ بها ريقاً أرقاً منِ الحمرِ

وتولّع بها السيدُ أبو سعيد ابن عبد المؤمن ملك غرناطة ، وتغير بسببها على
أبي جعفر ابن سعيد ، حتى أدى تغييره عليه أن قتله ، وطلب أبو جعفر منها
الاجتماع ، فمطلته قدر شهرين ، فكتب لها :

يا مَنْ أجانِبُ ذَكَرَاسِ مَه وَحَسْبِي عِلَامَةٌ
مَا إِنْ أَرَى الْوَعْدَ يُقْضَى وَالْعَمْرُ أَنْحَشِي انْصِرَامَةٌ
الْيَوْمَ أَرْجُوكَ لَا أَنْ تَكُونَ لِي فِي الْقِيَامَةِ
لَوْ قَدْ بَصُرْتَ بِحَالِي وَاللَّيْلُ أَرْخِي ظِلَامَةٌ
أَنْوَحُ وَجِدًا وَشَوْقًا إِذ تَسْرِيحُ الْحَمَامَةِ
صَبٌّ أَطَالَ هَوَاهُ عَلَى الْحَبِيبِ غَرَامَةٌ
لَمَنْ يَتِيهِ عَلَيْهِ وَلَا يَرُدُّ سَلَامَتَهُ
إِنْ لَمْ تُنِيلِي أَرْجِي فَالْيَأْسُ يُبْنِي زَمَامَةٌ

فأجابته :

يَا مُدَّعِي فِي هَوَى الْحَسَنِ وَالغَرَامِ الْإِمَامَةِ
أَتَى قَرِيضُكَ ، لَكِنْ لَمْ أَرْضَ مِنْهُ نِظَامَتَهُ
أَمْدَعِي الْحَبَّ يَتْنِي يَأْسُ الْحَبِيبِ زِمَامَةٌ ؟
ضَلَلْتَ كُلَّ ضَلَالٍ وَلَمْ تُفِدْكَ الزَّعَامَةَ
مَا زِلْتَ تَصْحَبُ مَذَكَّةً تَ فِي السَّبَاقِ السَّلَامَةَ
حَتَّى عَثَرْتَ وَأَخْجَلْتَ تَ بِاِفْتِضَاحِ السَّامَةِ
بِاللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ يُبْلِي السَّحَابُ انْسِجَامَتَهُ
وَالزَّهْرَ فِي كُلِّ حِينٍ يَشُقُّ عَنْهُ كَمَامَتَهُ

لو كنتَ تعرفُ عذري كفتَ غرَبَ الملامه

ووجهت هذه الأبيات مع موصل أبياته ، بعدما لعنته وسبته ، وقالت له : لعن الله المرسل والمرسل ، فما في جميعكما خير ، ولا لي برؤيتكما حاجة ، وانصرف بغاية من الخزي ، ولما أطلَّ على أبي جعفر وهو في قلقٍ لانتظاره قال له : ما ورامك يا عصام ؟ قال : ما يكون وراء من وجهه خلف إلى فاعلة تاركة ، اقرأ الأبيات تعلم ، فلما قرأ الأبيات قال للرسول : ما أسخف عقلك وأجهلك ! إنها وعدتني للقبّة التي في جنتي المعروفة بالكمامة ، سر بنا ، فبادروا للكمامة ، فما كان إلا قليلاً ، وإذا بها قد وصلت ، وأراد عتّبها ، فأنشدت :

دعي عدّ الذنوب إذا التقينا تعالي لا نعدُّ ولا تعدّي

وجلسا على أحسن حالة ، وإذا برقعة الكتندي الشاعر لأبي جعفر ، وفيها :

أبا جعفر يا ابن الكرام الأماجدِ خلوت بمن تهواه رغباً لحاسدِ
فهل لك في خيل قنوع مهذبِ كتومٍ عليمٍ باختفاء المراصدِ
بيتٌ إذا يخلو المحبُّ بحبه ممتعٌ لذاتٍ بخمسٍ ولائدِ

فقرأها على حفصة ، فقالت : لعنه الله ، قد سمعنا بالوارش على الطعام والواغل على الشراب ، ولم نسمع اسماً لمن يعلم باجتماع محبّين فيروم الدخول عليهما ، فقال لها : بالله سميه لنكتب له بذلك ، فقالت : أسميه الحائل ، لأنه يحول بيني وبينك إن وقعت عيني عليه ، فكتب له في ظهر رقعته :

يا من إذا ما أتاني جعلته نصبَ عيني
تراك ترصّي جلوساً بين الحبيب وبيني ؟
إن كان ذلك فماذا تبغي سوى قرب حيتي

والآن قد حصلت لي بعد المطال بديتي
 فإن أتيت قد فعا منها بكلتا اليدين
 أو ليس تبغي وحاشا ك أن تُرى طير بين
 وفي مبيتك بالحم س كل قبح وشين
 فليس حقاك إلا الـ مخلو بالقمرين

وكتب له تحت ذلك ما كان منها من الكلام ، وذيل ذلك بقوله :

سماك من أهواه حائل^١ إن كنت بعد العتب واصل^٢
 مع أن لونك مزعج^٣ لو كنت تُحسُّ بالسلاسل^٤

فلما رجع إليه الرسول وجده قد وقع بمطمورة نجاسة ، وصار هتكة ،
 فلما قرأ الأبيات قال للرسول : أعلمهما بحالي ، فرجع الرسول ، وأخبرهما
 بذلك ، فكاد أن يُغشى عليهما من الضحك ، وكتب إليه كل واحد بيتاً ،
 وابتدأ أبو جعفر فقال :

قل للذي خلصنا منه الوقوع في الخرا
 ارجع كما شاء الخرا يا ابن الخرا إلى ورا
 وإن تعد يوماً إلى وصالنا سوف ترى
 يا أسقط الناس ويا أنظم بلا ميرا
 هذا مدى الدهر تلا في لو أتيت في الكرى
 يا لحيه تشغف في الـ خرة وتشنا العنبرا
 لا قرب الله اجتما عاً بك حتى تقبرا^١

ومن شعرها :

سلام^٢ يفتح في زهره الـ كمام وينطق ورق الفصون^٣

١ سقط البيت من م .

على نازح قد ثَوَى في الحشا
فلا تحسبوا البعدَ يُنسيكم^١
وإن كان تحرم منه الجفون^٢
فذلك والله ما لا يكون^٣

وقولها من أبيات :

ولو لَمْ يكن نجماً لما كانَ ناظري
سلامٌ على تلك المحاسنِ من شَجِ
وقد غبتُ عنه مُظلماً بعد نورهِ
تناوت بنعماه وطيبِ سرورهِ

وقولها :

سلوا البارقَ الخفّاقَ والليلُ ساكنُ
لعمري لقد أهدى لقلبي خفقةً
أظلُّ بأحبّائي يذكّرني وهنّا
وأطرني منهلٌ عارضه الجفنا

ونسب بعض إليها البيتين الشهيرين^٤ :

أغارُ عليك من عَيْتي رقيبي
ولو أتني خبأتك في عيوني
ومنك ومن زمانك والمكانِ
إلى يومِ القيامةِ ما كفاني
والله تعالى أعلم .

وكتبت إلى أبي جعفر :

رأست فما زال العداة بظلمهم^٥
وهل منكرٌ أن سادَ أهلَ زمانه
وعلمهم النامي يقولون ما^٦ رأس
جموحٌ إلى العليا حرّونٌ عن الدنس

وقال ابن دحية : حفصة من أشرف غرناطة ، رخيمة الشعر ،
رقيقة النظم والنثر ، انتهى .

١ ق : العبد ينساكم .

٢ م : وما ينسب إليها .

٣ م : لم ؛ ق : لي .

ومن قولها في العيد أبي سعيد ملك غرناطة تهته بيوم عيد ، وكتبت
بذلك إليه :

يا ذا العُلا وابن الخلية فمة والإمام المرتضى
يهنيك عيدٌ قد جرى فيه بما تهوى القضا
وأناك من تهواهُ في قيدِ الإنابة والرضى
ليعيدَ من لذاته ما قد تصرّم وانقضى

وذكر الملاحى في تاريخه أنها سألتها امرأة من أعيان أهل غرناطة أن تكتب
لها شيئاً بخطها ، فكتبت إليها :

يا ربة الحسن ، بل يا ربة الكرم غُضِي جفونكِ عما خطه قلبي
تَصَفِّحِهِ بلحظِ الودِّ منعمةً لا تخفلي برديء الخط والكلمِ

وافتح أن بات أبو جعفر ابن سعيد معها في بستان بحور مؤمل ، على ما
بييت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان
الانفصال ، قال أبو جعفر وكان يهواها كما سبق :

رعى الله ليلاً لم يَرُحْ بلمم عشية واراننا بحور مؤملِ
وقد خفقت من نحو نجدٍ أريجةً إذا نفحت هبت برياً القرنفلِ
وغرد قمرى على الدوح واثنى قضيب من الريحان من فوق جدولِ
يُرى الروضُ مسروراً بما قد بداله : عناقٌ وضمٌّ وارتشافٌ مقبَلِ

وكتب بها إليها بعد الافراق ، لتجيبه على عاداتها في مثل ذلك ، فكتبت
إليه بقولها :

لعمرك ما سرّ الرياضُ بوصلنا ولكنه أبدى لنا الغلّ والحسدُ
ولا صفقَ النهرُ ارتياحاً لقربنا ولا غرّدَ القمريُّ إلاّ لما وجدُ

فلا تحسن الظنّ الذي أنتَ أهلهُ فما هو في كلّ المواطن بالرشدُ
فما خلّت هذا الأفقَ أبدى نجومه لأمرٍ سوى كيما تكونَ لنا رصداً

وقال ابن سعيد في «الطالع السعيد» : كتبت حفصة الركونية إلى بعض أصحابها :

أزوركَ أم تزورُ فإنّ قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميلُ
فشغري موردٌ عذبٌ زلالٌ وفرعُ ذؤابتي ظلٌ ظليلُ
وقد أمّلتُ أن تظما وتضحى إذا وافى إليك بيّ المقيّلُ
فعجّلْ بالجوابِ فما جميلٌ إباؤك عن بُئينةٍ يا جميلُ

٦٦٦ - [سلمى بنت القراطيسي]

قال التجاني : تشبه أبيات حفصة هذه أبيات أنشدتها ابن أبي الحصين في تاريخه لسلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد ، وكانت مشهورة بالجمال ، وهي :

عيونُ مَها الصريم فداء عيني وأجبادُ الطباء فداء جبدي
أزبنُ بالعقودِ وإنّ نحري لأزبنُ للعقودِ من العقودِ
ولا أشكو من الأوصاب ثقلاً وتشكو قامتي ثقلَ النهودِ

وبلغت هذه الأبيات المقتني أمير المؤمنين فقال : اسألوا هل تصدق صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها ، فقال : اسألوا عن عفافها ، فقالوا له : هي أعفُ الناس ، فأرسل إليها مالاً جزيلاً ، وقال : تستعين به على صيانة جمالها ، وروثق بهجتها ، انتهى .

رجع إلى حفصة :

وقال أبو جعفر ابن سعيد : أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة ، ومن

بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمي ، وبر قسمي ، أنني كنت يوماً في منزلي مع من يجب أن يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام ، فلم نشعر إلا بالباب يُضرب ، فخرجت جارية تنظر من الضارب ، فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدن ؟ فقالت : ادفعي لسيدك هذه الرقعة ، فجاءت برقعة فيها :

زائرٌ قد أتى بجيدِ الغزالِ مُطَّلِعٌ تحتَ جناحهِ للهِلالِ
بلحاظٍ من سحرِ بابلَ صيغَتِ ورُضابٍ يفوقُ بنتَ الدَّوالي
يفضحُ الوردَ ما حوى منه خدٌ وكذا الثغرُ فاضحٌ للآلي
ما تَرى في دخولهِ بعدَ إذنِ أو تراه لعارضٍ في انفصالِ

قال : فعلمتُ أنها حفصة ، وقيمت مبادراً للباب ، وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حُسْنُهُ وآدابه والغرام به ، وتفضُّله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في الأُنس به ، انتهى .

٦٦٧ - [أبو جعفر ابن سعيد]

قلت : وإذ قد جرى ذكر أبي جعفر ابن سعيد سابق الحلببة فلنلم ببعض أحواله فتقول^١ : هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، قال قريبه أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد في « المغرب » : سمعت أبي يقول : لا أعلم في بني سعيد أشعر منه ، بل لا أعلم في بلده . وعشق حفصة شاعرة الأندلس ، وكانا يتجاوبان تجاوب الحمام ، ولما استبد والده بأمر القلعة حين ثار أهل الأندلس بسبب صولة بني عبد المؤمن على الملتحمين اتخذه وزيراً ، واستتابه في

١ ترجمة أبي جعفر ابن سعيد في الإحاطة ١ : ٩٤ والمغرب ٢ : ١٦٤ والمساك ١١ : ٢٧٩ وما أورده المقرئ بعد أكثر شيء إسهاباً في أخباره .

أموره ، فلم يصبر على ذلك ، واستعفى فلم يُعْفِهِ ، وقال : أفي مثل هذا الوقت الشديد تركز إلى الراحة ؟ فكتب إليه :

مولايَ في أيِّ وقتٍ	أنالُ في العيشِ راحهٗ
إن لم أنلها وعمري	ما إن أنارَ صباحهٗ
وللمساح عيونٌ	تميلُ نحوَ الملاحهٗ
وكأسُ راحيَ ما إن	تملُّ منيَ راحهٗ
والخطبُ عنيَ أعمى	لم يقترُبْ ليَ ساحهٗ
وأنتَ دونيَ سُورٌ	من العُلا والرِجاحهٗ
فأعفني وأقلني	مما رأيتَ صلاحهٗ
ما في الوزارة حظٌ	لمن يريدُ ارتِباحهٗ
كلُّ وقالٌ وقيلٌ	ممن يطيلُ نباحهٗ
أنسي أتى مستغنياً	فاتركُ فُديتَ سراحهٗ

فلما قرأ الأبيات قال : لا ينفع الله بما لا يكون مركباً في الطبع مائلة له النفس ، ثم وقَّع على ظهر ورقته : قد تركنا سراح أنسك ، وألحقنا يومك بأمسك . ولما رجع ثوار الأندلس إلى عبد المؤمن وباعه عبدُ الملك بن سعيد فغمره إحساناً وبراً ، وولي السيد أبو سعيد ابن عبد المؤمن غرناطة طلب كاتباً من أهلها ، فوصف له فضل أبي جعفر وحسبه وأدبه ، فاستكتبه ، فطلب أن يعفيه ، فأبى إلى أن شرب أبو جعفر يوماً مع خواصه ، وخرج ثاني يوم إلى الصيد وكان اليوم ذا غيم وبرد ، ولما اشتد البرد مالوا إلى خيمة ناطور ، وجعلوا يصطلون ويشربون على ما اصطادوا ، فحمل أبا جعفر بقية السكر على أن قال يصف يومه ، ويستطرد بما في نفسه :

ويومٍ تجلَّى الأفقُ فيهِ بعنبرٍ	من الغيم لُذنا فيه باللهو والقنصِ
وقد بقيتُ فينا من الأمسِ فضلةٌ	من السكر تُغرِينا بمتهبِ الفُرصِ

ركبنا لهُ صباحاً وليلاً وبعضنا
 وشهبٍ بزاوةٍ قد رجمننا بشهبها
 وعن شفقٍ تغري الصباح أو الدجى
 وملنا وقد نلنا من الصيدِ سُؤلنا
 بنخيمةٍ ناطورٍ توسطَ عذبها
 أدرنا علىهٍ مثلهُ ذهبيّةٌ
 فقل لحريصٍ أن يراني مقيّداً
 وما كنتُ إلا طوعَ نفسي فهل أرى
 أصيلاً وكلُّ إن شدا جليجلُ رقصُ
 طيوراً يساغُ اللهُ إن شكتِ الغصصُ
 إذا أوثقت ما قد تحركُ أو قمصُ
 على قنصِ اللذاتِ والبردُ قد قرصُ
 جحيمٌ به من كان عذبَ قد خلصُ
 دعتهُ إلى الكبرى فلم يجب الرخصُ
 بخدمته لا يُجعل البازُ في الفقصُ
 مطيعاً لمن عن شأوٍ فخريّ قد نقصُ

فكان في أصحابه من حفظ هذين البيتين ، ووشى بهما للسيد ، فعزله أسوأ
 عزل ، ثم بلغه بعد ذلك أنه قال لحفصة الشاعرة : ما تحبين في ذلك الأسود وأنا
 أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه^١ ؟ وكان لونه مائلاً إلى
 السواد ، فأسرّها في نفسه إلى أن فرَّ عبدُ الرحمن بن عبد الملك بن سعيد إلى ملك
 شرق الأندلس محمد بن مردنيش ، فوجد له بذلك سبباً ، فقتله صبراً بالقتة .
 وكان عبد الملك بن سعيد يذكر ابنه أبا جعفر لعبد المؤمن ، وينشده من
 شعره رغبة في تشريفه بالحضور بين يديه وإنشاده في مجلسه ، فأمره بحضوره ،
 فعندما دخل عليه قبّل يده وأنشد قصيدة منها قوله :

عليك أحالتي داعي النجاحِ ونحوك حثي حادي الفلاحِ
 وكنتُ كساهرٍ ليلاً طويلاً ترنحَ حينَ بُشّرَ بالصباحِ
 وذو جهلٍ تغلغلَ في قفارٍ شكاً ظمأً فدلّ على القراحِ
 دعانا نحو وجهك طيبُ ذكرٍ ويذكرُ للرياضِ شتأ الرياحِ

١ دوزي : أحسن منه .

٢ ق م والمغرب : هادي .

وله في غلام أسود ساق ، ارتجالاً :

أدارَ علينا الكأسَ ظبيٌ مهفهُفٌ غدا نَشْرهُ واللونُ للعنبرِ الشحري
وزادَ لنا حُسناً بزهرِ كؤوسِهِ وحسنُ ظلامِ الليلِ بالأنجمِ الزُّهرِ
وقوله فيه وقد لبس أبيض :

وغصنٍ من الآبنوس ارتدى بعاجٍ كليلٍ علاه فلقُ
يُحاكي لنا الكأسَ في كفهِ صباحٍ يجحُ علاه شفقُ

وقوله ممّا كتب به إلى أخيه محمد وقد ورد منه كتاب بإنعام :

وافي كتابك يُنْبي عن سابغِ الإنعامِ
فقلتُ درٌّ ودرٌّ من زاخِرِ وغمامِ

وقوله يذم حمّاماً :

يا رَبَّ حمّامٍ لعنّا بما أبدى إلينا كلَّ حمّامِ
أفقتُ له قَطْرٌ حميمٌ كما أصمتُ سهامٌ من يدي رامي
يجرقُ سُجْباً للبخانِ الذي لاحَ لغيِمِ العارضِ الهامي
وقيّمِ يَجْدُبُني جَدْبَةً وتسارةٌ يكسرُ إيهامي
ويجمعُ الأوساخَ من لؤمهِ في عضدي قصداً لإعلامي
وازدحمَ الأندالُ فيه وقد ضجّوا ضجيجاً دون إفهامِ
وجملةُ الأمرِ دخلنا بني سامٍ وعدنا كيني حامِ

وله في ضد ذلك ، والنصف الأخير لابن بقي :

لا أنسَ ما عشتُ حمّاماً ظفرتُ به وكان عندي أحلى من جتى الظفْرِ
نَعَمْتُ جِسمي في ضدينِ مغتنماً «تَنَعَّمُ الغُصْنُ بينَ الشمسِ والمطرِ»

وقال له السيد أبو سعيد ابن عبد المؤمن صاحب غرناطة : ما أنت إلا حسنُ
الفراسة وافر العقل ، فقال :

نسبتم لمن هذَّبتموه فِرَاسَةً وعقلاً ولولاكم لتلازمه الجهلُ
وما هوَ أهلٌ للشَّناء وإتِّما علاكم لتقليد الأيادي له أهلُ
وما أنا إلا منكمُ وإليكمُ وما فيَّ من خيرٍ فأنتم له أصلُ

وقال :

ولما رأيتُ السعدَ في صفحِ وجهه منيراً دعاني ما رأيتُ إلى الشكرِ
وأقبلَ يبسدي لي غرائبَ نُطقه وما كنتُ أدري قبله مترعَ السحرِ
فأصغيتُ لإصغاءِ الحديدِ إلى الحيا وكان ثنائي كالرياضِ على القَطْرِ

وله :

لا تُكثِرَنَّ عِسابي إن طالَ عَنكَ فِراقِي
فما يضرُّ بعِبادُ يطولُ والودُّ باقي

وله :

ما خدمناكمُ لأن تشفعوا في لنا بدارِ الجزاءِ يومَ الحسابِ
ذاكَ يومٌ أنا وأنتَ سَوَاء فيه ، كلُّ يخافُ سوءَ العقابِ
إنما الشأنُ النَّبُّ في هذه الذِّ يا بسلطانكم عن الأصحابِ
وإذا ما خذلتهمُ بشكوى وبخلمٍ عنهمُ بَرْدَ الجوابِ
فاعذروهم أن يطلبوا مِن سواكمُ نصرةً وارفعوا حِجالَ العتابِ
وإذا أرضُ مجدِبٍ لَقَطَّتْه فلهُ العنرُ في اتِّباعِ السحابِ

وله وقد تقدّم أمامه في ليلة مظلمة أحدُ أصحابه ، فطفىء السراج في يده ،

فقال لوقته :

لي من جبينك هادي في الليل نحو مُرادِي
 فما أريدُ سراجاً يدلّسني لرشادِ
 أنّي وكفئك سحْبُ يبلو بها ذا اتقادِ

وله في قوادة :

قوادةٌ تَفخَرُ بالعارِ أقوَدُ من ليلٍ على سارِ
 ولاجّةٌ في كلِّ دارٍ وما يدري بها من حذقها داري
 ظريفةٌ مقبولةٌ الملتقى خفيفةُ الوطاء على الجارِ
 لحافها لا ينطوي دائماً أقلقُ من رايةٍ بيطارِ
 قد ربيت مذ عرفت نفعها ما بين فتاك وشطّارِ
 جاهلةٌ حيث ثوى مسجدٌ عارفةٌ حانةَ خمّارِ
 بسامةٌ مكثرةٌ برّها ذاتُ فكاهاتٍ وأخبارِ
 علمُ الرياضات حوتهُ وسا ستهُ بتقويمٍ وأسحارِ
 مناعةٌ للنعلِ من كيسها موسرةٌ في حالِ إعسارِ
 تكادُ من لطفِ أحاديثها تجمعُ بينَ الماءِ والنّارِ

وما سمعنا في هذا الباب أحسن من هذا ، والبيت السائر :

تقودُ ، من السياسةِ ، ألف بغلٍ إذا حرنت ، بجيظِ العنكبوتِ
 وشربَ ليلةً مع أصحاب له وفيهم وسيم ، فأعرض بجانبه وقطب ،
 فتكدر المجلس ، فقال أبو جعفر :

يا من نأى عنا إلى جانبِ صدأ كَيْلِ الشمس عند الغروبِ
 لا تزوِ عنا وجهك المجتلى فالشمسُ لا يُعهدُ منها قُطوبِ
 إن دام هذا الحالُ ما بيننا فلإننا عمّا قريبٍ نتوبُ

ما نشككي الدهرَ ولا خَطْبَهُ لولاكَ ما دارتْ علينا خطوبُ
وله أيضاً :

أيا لائمي في حملِ صعبةِ جاهلٍ
لمنفعةٍ تُرْجَى لديهِ صحبتهُ
كما احتمل الإنسانُ شربَ مرارةِ
وله ، وقد أحسن ما شاء :

تركتكمُ لا كارهاً في جنابكمُ
وطاحتْ بي الأطماعُ في كلِّ وجهةٍ
وما باختيارٍ فارقَ الخلدَ آدمُ
ولكنها الأيامُ ليستْ مقيمةً
وإنك إن فكّرتَ فيما أتيتهُ
ولكن بلحاجٍ في النفوس إذا انقضى
ولاني لمنسوبٌ إليكم وإن نأتُ
ولاني لئثنٍ بالذي نلتُ منكمُ
وإن خننتم يوماً فخاني المني
على أنني أقررتُ أني مذنبُ
وله يصف ناراً :

نظرتُ إلى نارٍ تصولُ على الدجى
تُرفَعها أيدي الرياحِ ، وتارةٌ
وإلا فمن لا يملكُ الصبرَ قلبهُ
لها ألسنٌ تشكو بها ما أصابها
إذا ما حسبناها تدانتْ تبَعَدُ
تخفَضُها مثلَ المكبرِ يسجدُ
يقومُ بهِ غيظٌ هناكَ ويقعدُ
وقد جعلتْ من شدةِ القرّ ترعدُ

وله على لسان إنسان أخلقت بُردتُه :

مولاي هذي بُردتي أخلقتُ وليسَ شيءٌ دونها أملكُ
وصرتُ من بأسٍ ومن فاقةٍ أبكي إذا أبصرتها تضحكُ

وله يستدعي أحد أبناء الرؤساء إلى يوم اجتماع :

تداركنا فإننا في سرورٍ وما بسواك يكتملُ السرورُ
أهيلةٌ أنسينا بكَ في تمامٍ أليسَ تمُّ بالشمسِ البدرُ

وله ، وقد خطر على منزله من إليه له مئيل ، وقال : لولا أخاف التثميل
لدخلت ، وانصرف ، فلما أعلم أبو جعفر كتب إليه :

مولاي لِمَ تقصدُ تعذيبَ مَنْ يهوى وما قصدكَ مجهولُ
طلبتَ تخفيفاً ببعدي وفي تخفيفٍ مَنْ تهواهُ تثقيلُ
غيرك إن زارَ جنى ضجرةً ولجَّ منه القالُ والقييلُ
وأنتَ إن زرتَ حياةً وما الـ ميسُ إذا ما طالَ مملولُ^١

وله ، وقد جلس إلى جانبه رجل تكلم فأنبأ عن علو قدر ، فسأله عن بلده ،
فقال : إشبيلية ، ففكر ثم قال :

يا سيداً لم أكن من قبلُ أعرفهُ حتى تكلمَ مثلَ الروضِ بالعَبقِ
وزادني أن غدا في حمصَ منشؤه لقد تشاكلَ بينَ البدرِ والأفقِ

وله وقد حضر مجلساً مع إخوان له في انبساط ومزاح ، فدخل عليهم أحدُ
ظرفاء الغرباء^٢ بوجه طلق وبشاشة ، فاهتر لما سمع بينهم ، وجعل يصل ما

١ دوزي مطول

٢ م - أحد الثرثرة

يحتاج من مزاحهم إلى صلة بأحسن مترع وأنبل مقصد ، فأنشده أبو جعفر ارتجالاً :

يا سيداً قد ضمه مجلسٌ حلّ به للمزح إخوانُ
لم نلقَ من فجأته خجلةٌ ولا ثنائاً عنه كتمانُ
كأنه من جمعنا واحدٌ لم ينّب منّا عنه إنسانُ
ولم نكنْ فدرهه لكنّ بدا في وجهه للظرف عنوانُ

وله وقد لقي أحد إخوانه وكان قد أطال الغيبة عنه ، فدار بينهما ما أوجب أن قال :

إنّ لُحْت لم تلمح سواك الأعينُ أو غبتَ لم تذكر سواك الألسنُ
أنتَ الذي ما إن يُملّ حضوره ومغيبه السلوانُ عنه يؤمنُ
وله وهو من آياته :

إنّي لأحمدُ طيفها وألومها والفرقُ بينهما لديّ كبيرُ
هي إن بدت لي شيةٌ في جفوةٍ والطيفُ في حين المشيب يزورُ
وإذا توالى صدّها أو بيئتها وافى على أنّ المزارَ عسيرُ

وله وقد سافر بعض الأراذل بماله ، فنكب في سفره ، وعاد فقيراً بأسوله
أحواله :

اغدُ ولا يُغنِ عنك القيلُ والقيلُ فالجودُ مبتسمٌ والفضلُ يختالُ
قالوا فلانُ رماه اللهُ في سفرٍ رآه رأياً بما حالت به الحالُ
قآب منه سيباً مثلَ مولده عليه ذلٌّ وتفجيعٌ وإقلالُ
فقلتُ لا خففَ الرحمنُ عنه ، فلم يكنْ لديه على القُصادِ إقبالُ
فقل له - دام في ذلٍّ ومسغسةٍ ولا أعيدتْ له في المالِ آمالُ

١ ق م : احد .

قد كان حُمُكُك حَسَنُ المَالِ يَسْتَرُهُ ۱ فاليومَ أَصْبَحْتَ لَا عَقْلَ وَلَا مَالُ

وله وقد سافر أحد الرؤساء من أصحابه :

أيا غائِباً لم يَغِيبُ ذَكَرُهُ ۱ ولا حالَ عن ودّه حائلُ
لئن مالَ دَهْرِيَّ بي عنكمُ ۱ فقلبيَ نَحَوَكُمُ مائلُ
فإِنِّي شَاهَدْتُ مِنْكُمْ عُلّاً ۱ من العجزِ قُسٌّ بها باقلُ
لئن طالَ بي البعدُ عن لحظكم ۱ فَمَا في حَيَاتِي إِذْ أَنْ طائلُ

وله وهو من حسناته :

شُقَّتْ جُيُوبٌ فَرِحاً عندما ۱ آبَتْ ، رَوِي البعدُ تُشَقُّ القُلُوبُ
فَقُلْتُ هَذَا مَوْقِفٌ مَا يَشُقُّ ۱ ۱ جِيبَ فِيهِ بَحِيرَةٌ صَبَّ طَرُوبُ
فَابْتَسَمْتُ زَهْواً وَقَالَتْ كَذَا ۱ ۱ أَفَقُ لِعَبُودِ الشَّمْسِ شَقَّ الجُيُوبُ

وله وقد أجمع ١ رأيه على أن يَفِدَ على أمير المؤمنين عبد المؤمن ، فأخذ في ذلك مع أصحاب له ، فجعلوا يَثْنُونَه عن ذلك ، وظهر عليهم الحسد له ، فقال :

سر نحو ما تختارُ لا تَسْمَعَنَّ ۱ ما قاله زيدٌ ولا عمرو
كلُّهُمُ يَحْمَدُ ما رُمَتْهُ ۱ مهما يساعداً رأيتك الدهرُ
عجبتُ ممَّنْ رامَ صدرَ العُلا ۱ يرومُ أن يصفوا له دهرُ

فقالوا له : أهتمنا في الود ، فقال : لو لم أهتمكم كنت أهتم عقلي ، والعياذ بالله تعالى من ذلك ، وكيف لا أهتمكم وقد غلوتهم ثنوني عن زيارة خليفة لوالدي عنده مكانٌ ، وله علينا إحسان ، ولي شافعٌ عنده مقرب لمجلسه عقلي ولساني ، ولكنني أنا المخطيء الذي عدلت عن العمل بقول القائل ٢ :

١ دوزي : اجتمع .

٢ هو سعد بن ناشب (الحماسية : ١٠ من المرزوقي) .

ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

وله في شعاع القبر والشمس على النهر :

ألا حبذا نهرٌ إذا ما لحظتهُ
أبى أن يردَّ اللحظَ عن حسنه الأتسُ
ترى القَمَرين الدهرَ قد عُنيا بهِ
يفضضه بدرٌ وتُذهبهُ شمسُ

وله في والده وقد سنَّ عليه درعاً :

أيا قائدَ الأبطالِ في كلِّ وجهةٍ
تطيرُ قلوبُ الأُسُدِ فيها من الذعيرِ
لقد قلتُ لَمَّا أن رأيتك دارعاً
أيا حُسنَ ما لاحَ الحجابُ على البحرِ
وأنشدتُ والأبطالُ حولك هالةٌ
أيا حُسنَ ما دارَ النجومُ على البدرِ

وقوله وقد بلغه أن حاسداً شكره :

متى سمعتَ ثناءً
فكان منك انخداعٌ
بصدره منك نارٌ
وعلَّه لك ما زدُ
وإنما ذاكَ منه
كالحبِّ في فحِّ صائدٍ
عمتَ غدا لك حاسدٌ
به قرأيتك فاسدٌ
لهيها غيرُ خامدٍ
تَ في السعادةِ زائدٌ
كالحبِّ في فحِّ صائدٍ

وله :

أبصره من يلومُ فيه
أما ترى ما دُهِيتُ منه
فقال ذافي الجمالِ فائقٌ
كان عنولاً فصارعاشقٌ

وله في أبيه وقد سجنه عبد المؤمن :

مولايَ إن يجسِّكَ خيرُ خليفةٍ
فالجفنُ يجبسُ نورهُ من غبطةٍ
فبيذاكَ فخرُكَ واعتلاءُ الشانِ
والمرهفاتُ تصانُ في الأجنانِ

فابشرُ فترعُ الدَّرَّ من أصدافه يُعليه للأسلاكِ والتيجانِ
ولئن غدا مَن ظَلَّ دونك مطلقاً إنَّ القذى مُلقَى عن الأجفانِ
والعينَ تحبسُ دائماً أجفانُها وهدايةُ الإنسانِ بالإنسانِ
والطرسُ يُخَمُّ ما حواه نفاسةً ويهانُ ما يبدو من العنوانِ
فاهناً به لكنْ مَلِيّاً مكثُهُ سجناً لغيرِ مذلَّةٍ وهوانِ
فلتعلوَنَ رغمَ الأعداي بعده بنرى الخليفةَ في ذرى كيوانِ

مولاي غيرك يُعزِّي بما لم يزل يجري على الكرام ، ويُذكرُ تأنيساً له في
الوحشة بما يطرأ من الكسوف والخسوف على الشمس المنيرة والبلد التمام :

وأنتَ تُعلِّمُ الناسَ التعزِّي وخوضَ الموتِ في الحربِ السجالِ^١

وقد كان مولاي أنشدني لعلني بن الجهم قائلاً^٢ : إن أحداً لم يُسَلِّ نفسه
عماً ناله من السجن بمثله^٢ :

قالوا سُجنتَ فهلَّتْ ليس بضائرٍ سجني وأيُّ مهندي لا يُغمد ؟

الآبيات ، ماذا تفيدك من العلم وصدرك ينبوعه ، وبخاطرك لا يزال غروبه
وظلوعه ، وإنما هي عادة تبعناها أديباً ، وقضينا بها ما في النفس من الإعلام
بالتوجع والتضجع أرباباً ، ولعل الله تعالى يُتبع هذه التسلية بتهنئة ، ويعقب بالنعمة
هذه المرزئة . قال : فأمر الملك بتسريحه إثر ذلك ، فلما اجتمع وجهه بوجهه
جعل يحمد الله تعالى جهرأ ويفرد بهذه الآبيات ، وكان سراحه بكرة :

طلعتَ علينا كالغزاةِ بالضحى وعزكَ طمَّاحٌ ووجهك مُشرقُ

١ البيت المتنبي من قصيدته في رثاء أم سيف اللولة .

٢ انظر ديوان ابن الجهم : ٤١ .

ففقراً لذنب الدهر أجمع إته أتى اليوم من حسناه ما هو أليق
فلح في سماء العز بالسعد طالماً وقدرك سام أفقه ليس يلحق
فقد سرحت لما غلوت مسرّحاً قلوب وأفكاراً وسمع ومنطق

فاهتر أبوه من شدة الطرب ، وقال له : والله إنك لتملأ الدلو إلى عقده
الكرب .

وله يعتذر ، وقد دعني إلى مجلس أنس : سيدي ساعدك سولك ، لما وصل
إلى أخيك المعتد بك رسولك ، قابله بما يجب من القبول ، وأبدى له من الشغل
ما منع من الوصول :

ومن ذا الذي يدعى لعدهن فلا يرى على الرأس إجلالاً ليتها يبادر

ولكن الاضطراب ، لا يكون معه اختيار ، وإني لأشوق الناس إلى مشاهدة
تلك المكارم ، وأحبهم في محاضرة تلك الآداب المترادفة ترادف الغمام ، ولكن
شغلي عارض قاطع ، وبرغمي أتني لدعوتك عاصٍ وله طائع ، وإني بعد ذلك
لحامل على تلك السجية الكريمة في الغفران ، مستجير بالخلاص الذي أعهد من
خرق فلان ومكر فلان ، فإني متى غبت لا أعدم مترصداً قرحة يقع عليها
ذبابه ، ومستجعماً إذا أبصر فرصة سلّ عليها ذبابه :

ولكنني أدري بأني نازح ودانٍ سواء عند من يحفظ العهدا

وإني لأقول وقد غبت عن تلك الحضرة العلية ، وجانبت ذلك الجنب السامي
والمثابة السنية :

لئن غبتُ عن نورهِ نورُ ناظري فحسبي لديه أن أغيبَ عقابا
وسوف أوافيه مقيراً بزلي وفي حلمه أن لا يطيلَ حسابا

وله في قصر النهار ، ولو لم يكن له غيره لكفاه :

للهِ يَوْمُ مَسْرَةٍ أَضْوًا وَأَقْصَرُ مِنْ ذُبَالِهِ
لَمَّا نَصَبْنَا لِلْمَنَى فِيهِ بِأَوْتَارِ حِبَالِهِ
طَارَ النَّهَارُ بِهِ كَمَرٍ تَاعٍ وَأَجْفَلَتِ الْغَزَالُهُ

وهذا المعنى لم يُسَبِّقْ إليه ، ولم يقدر أحد أن ينزعه من يديه .

ولمَّا وصل صحبة والده إلى إشبيلية افتتن بواديه ، واعتكف على الخلاعة فيها ، مُصْعَدًا ومنحطراً بين بساتينه ومنازله ، فمر ليلة بطريانة فمال نحو متره فيه طربٌ سَمِعَهُ ، فاستوقفه هنالك ، وهو في الزورق متكىء وأصحابه وأصحاب أبيه مظهرون انحطاطهم عنه في المرتبة ، فأخرج رأسه أحدُ الأندال المعتادين بالنادر من شرجب ، - والشرجب : هو الدرايزين من خشب فيه طاقات ، وطريانة مقابلة لإشبيلية ، وبها المنازه والأبنية الحسنة - فضرط له ذلك النذل بغاية ما قدر ، فرفع رأسه وقد أخذ منه السكر ، ولم يعتد مثل ذلك في بلده ، وقال : يا سفلة ! أتقدم علي بهذا قبل معرفتي ! فثنى عليه واحدة أخرى ، ثم رفع ثوبه عن ذكره وهو منعظ ، وقال : يا وزير اجعل هذا عندك وديعة حتى أعرف من تكون ، ثم رفع ما على استه من ثيابه وقال : واعمل من هذا غلافاً للحيثك فإذا عرفناك ذهبناه لك ؛ فغلبه الضحك على الحرج ، وجعل أصحابه يقولون له : ما سمعت أن من دخل هذا الوادي يعول على هذا وأمثاله ؟ فمال عن ذلك المتره قليلاً ، وأطرق ساعة وقال :

نهرَ حمصٍ لا علمنا كَ فما مثلكَ نهرُ
فيك يُلْتَدُّ ارتياحٌ أبدَ الدهرِ وسكرُ
كلُّ عمرٍ قد خلا من كَ فما ذلكَ عمرُ
خصَّه اللهُ بمعنى فيه للألبابِ سرُّ

١ م : يا سفية .

يُلْعَنُ الْإِنْسَانُ فِيهِ وَهُوَ يَصْغِي وَيُسْرُ

ثمَّ سأل بعد ذلك عن ربِّ المتزه ، فسُمِّي له ؛ وأعلم أن ابن سيد الشاعر المشهور باللص كان حاضراً وأنه أملى على السفلة^١ ما قال وصنع ، فكتب له أبو جعفر :

يا سميِّ وإن أفادَ اشتراكُ غيرَ ما يرتضيه فضلٌ وودٌ
أكذا يُزدرى الخليلُ بأفقى أنت فيه ولم يكن منك ردٌ
لا أرى من سلطتَ وغداً ولكن ليس يخفى عليك من هو وغدٌ

فلما وقف على هذه الأبيات كتب له : يا مولاي وسيدي ، وأجلّ ذخري للزمان وعصدي ، الذي أفخر بمشاركة اسمه ، وتتيه هذه الصناعة بذكره ورسمه^٢ :

وخيرُ الشعرِ أشرفه رجالاً وشرُّ الشعرِ ما قال العبيدُ

سلام كتسينيم ، على ذلك المقام الكريم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وإن كان مولاي لم يفتأخني بالسلام ، ولا رأني أهلاً لمقاومة الكرام ، لكن حظّ قلدي عنده ما نُسب لي من الذنب المختلّق ، ولا والله ما نطقت بلسان ولا كنت ممن رمى ، بل الذي زور لسيدي في هذه الوشاية كان المعين^٣ عليها ، والملم إليها ، فبادر إليكم قبل أن أسبقه فاتسم بأسقط خطتين : الندالة الأولى والوشاية الأخرى ، ولولا أن المجالس بالأمانات ، وأن الخلاعة بساط يطوى على ما كان فيه ، لكنت أسبق منه ، لكنني بأبي ذلك خلقي ، وما تأدبت به ، ومع ذلك فإنني أقول :

١ م : السفيه .

٢ م : ووسيه .

٣ ق : العين .

فإن كنتُ ذا ذنبٍ فقد جئتُ تائباً ومثلُكَ غفَّارٌ ومثلُكَ قابلٌ

ولولا ما أخشى من التثقيب ، وما أتوقع من الخجل إذا التقى الوجهان ،
لأتيت حتى أبلغت في الاعتذار بالمشافهة ما لا يسع القراطاس ، لكنني متكل على
حلم سيدي وإغضائه ، متوسل إليه في الغفران بعَلَّاه ، وكتب تحت ذلك شعراً
طويلاً منه :

ولا غرواً أن تغفروا أنت ابن من غدا
لكم آل عمَّار بيوت رقيقة
إذا نحن أذنبنا رجونا ثوابكم
وانتك فرع من أصول كريمة
وانتي مظلوم لزور سمعته
وقد جئت أرجو العفو في زي ظالم
تعود عفواً عن كبار الجرائم
تشيّد من كسب الثنا بدعائم
ولم نقنع بالعفو دون المكارم
ولا تلد الأزهار غير الكمام

فأجابه أبو جعفر بما نصّه : سيدي الذي أكبر قدره ، وأجل ذكره ،
وأجزل شكره ، وصل جوابك الذي لو كان لك من الذنب ما تحمّله ابن ملجم ،
لأضربت لك عنه صفحاً ونسيت بما تأخّر ما تقدم ، ومعاذ الله أن أنسب
لفضلك عيباً ، فأذم لك حضوراً أو غيباً ، وإنما قصدت بالمعاتبه ، ما تحتها
من المطارحة والمداعبة ، على أن سيدي لو تيقنت أنه ظالم لأنشدت :

منذُ غدا طرفك لي ظلماً آليت لا أدعو على ظالم

لكنني أتيقنُ خلافَ ذلك ، وأعلم حتى كأنني حاضر ما كان هنالك ،
وقد أطلت عليك ، وبعد هذا فلتعتمد على أن تصل إلي أو أصل إليك ، فهذا
يوم كما قال البستي^٢ :

يومٌ له فضلٌ على الأيامِ مزجَ السحابُ ضياءهُ بظلامِ

٢ البيتة ٤ : ٣٠٤ .

١ م : وأجل .

فالبرقُ يُخفقُ مثلَ قلبِ هائمٍ والغيمُ يبكي مثلَ جفِّينِ هامٍ
فاختر لنفسك أربعاً من المني وبين تصفو لذّة الأيتامِ
وجه الحبيب ومنظراً مستشرفاً ومغنياً غرداً وكأس مدامِ

وقد حضرت عند محبك الثلاثة فكن رابعها ، ونادت بك همم الأماشي فكن
بفضلك سامعها ، ومركز أفلاك هذه المسرة حين كتّبت هذه الرقعة إلى مجدك
متزه مطلّ على جزيرة شتتوس لا أزال أترنم فيه بقول ابن وكيع :

قم فاسقني والخليجُ مضطربٌ والريحُ تثني ذوائب القُصْبِ
كأتها والرياحُ تعطفها صفُّ قنّاً سنديّة العذبِ
والجوُّ في حلّةٍ ممسّكةٍ قد طرزتها البروقُ بالذهبِ

فإن كان سيدي في مثل هذا المكان ، جرينا إليه جري الخلبة لحصل الرهان ،
وإن كان في كِسْرٍ بيته فليبادر إلى محل تقصر عنه همّة قيصر وكسرى ، وإن
أبطأ فإن الرقاع بالاستدعاء لا تزال عليه تتّرى ، وإن كان لا يجدي هذا الكلام ،
فما نفع من العقوبة المؤلمة بالملام ، وعلى المودة المرعية الداعية أكمل ما يكون
من السلام .

فعندما قرأ الرقعة ركب إليه زورقاً وصنع هذه الأبيات في طريقه ، فعند
وصوله أنشده إياها :

ركبتُ إليكَ النهرَ يا بحرُ فالتقنا بما يتلقى جودهُ كلَّ قادمٍ
بفيضٍ ولكن من مدامٍ وهزّةٍ ولكن إلى بذل الندى والكارمِ
وكتنا نسمةً قبلَ كونك حاتماً ومذُ لُحْتِ فينالُم نُعيدُ ذكرَ حاتمِ
بال سعيدي يفخرُ السعدُ والعلا فأيديهمُ تلغي أباي العتائمِ

فامتلاً أبو جعفر سروراً ، وخلع عليه ما كان عنده هنالك ، ووعد به غير
ذلك ، فأطرق لينظم شيئاً في شكره ، فأقسم عليه أن لا يشغل خاطره في ذلك

الوقت عن الارتياح ، وحثَّ أكؤس الراح ، فأقبلوا على شأنهم ، وكان ابن سيد في ذلك الحين مستراً بشرب الراح ، وكان عند أبي جعفر خديم كثير النادر والالتفات ، يخاف أهل التستر من مثله ، فقال ابن سيد : هاتِ دواة وقرطاساً ، فأعطاه ذلك ، فكتب :

يا سيدي قد علمت أنني	بهذه الحال لا أظاهرُ
أخشى أناساً لهم عيونٌ	نَواظرٌ منِّي المعاييرُ
أحذرُهُم طاقتي وإنِّي	وثقتُ بالله فهو غافرُ
ولا تقيسُ حالتي بحالِ	منك اعتذاراً فالفرقُ ظاهرُ
فأنتَ إن كنتَ ذا جهارٍ	غيرَ مبالٍ فإلجأهُ ساترُ
لا تخشَ من قولِ ذي اعتراضِ	ولا حسودٍ عليكَ قادرُ
وإنِّي قد رأيتُ ممن	يكثُرُ القولَ وهو ساخرُ
ما قد أرابَ العفيفَ منه	ضحكٌ وظنٌ به يجاهرُ
أخشى إذا قيلَ كيف كنتمُ	قالَ بحالِ تسرُّ ناظرُ
واللصُّ ما بيننا صريعاً	بكلِّ كأسٍ عليه دائرُ
مطرحاً للصلاةِ يُصغي	لصولَةِ الدفِّ والمزامرُ
فأغتدي سيدي مشاراً	إليَّ مهما مررتُ خاطرُ
وإن أتيتُ الملوكَ أبغي	نوالهم قيلَ أيَّ شاعرُ
يذكرُ في شعره خلافاً	وهو لزورِ المحالِ ذاكرُ
بالأس قد كان ذا انتهاكٍ	فما له بعدَ ذلكَ عاذرُ
إن كان هذا فإنَّ حظي	واقى لربحٍ قآبَ خاسرُ

فقال له أبو جعفر : يا أبا العباس ، اشرب هنيئاً غير مقلد ما قلدت ، فلو

١ م : هذا .

٢ م : خلافاً .

كان هذا المضحك على الصفة التي ذكرت كان الذنب منسوباً إلي في كوني
أحضر في مجلسي من يهتك ستر المستورين ، ومهما تره هنا بهذه الخفة والطيش
والتسرع للكلام فإنه إذا فارقتنا أثقل من جبل ، وأصمت من سمكة ، متريّ بيزي
خطيب في نهاية من السكون والوقار :

وتحت الثياب العار لو كان بادياً

فكن في أمن ما شربت معي ، فإنني والله لا أسمع أحداً من أصحابنا تكلم في شأنك
بأمر إلا عاقبته أشد العقاب ، والذنب في ذلك راجع إليّ . فسكن ابن سيد وجعل
يحث الأقداح ، ويمرح أشد المراح ، على ما كان يظهره من الانقباض ، تقيّةً
لما يخشاه من الاعتراض ، إلى أن قاربت الشمس الغروب ، ومدّ لها في النهر
معصم مخضوب ، فقال أبو جعفر :

انظر إلى الشمسِ قد أُلِّصقتْ على الأرضِ خدّاً

فقال ابن سيد :

هي المِرآةُ ولكنْ من بعدها الأفقُ يصدأ

فقال أبو جعفر :

مدّت طرازاً على النهْرِ عندَ ما لاحَ بُرداً

فقال ابن سيد :

أهدتْ لطرفكِ منهُ ما للأكارِمِ يُهدى

فقال أبو جعفر :

درعُ البُجِينِ عليهِ سيفٌ من التبرِ مُدّاً

فقال ابن سيد :

فاشربَ عليه هنيئاً وزدْ سروراً وسعداً
ثم لما أظلم الليلُ نظرُوا إلى منارة شنتبوس قد عكست مصابيحها في النهر ،
وإلى النجوم قد طلعت فيه ، فقال ابن سيد :

اخْلَعْ عَلَى النهرِ ثوبَ الِ كرى فذلك واجبٌ

فقال أبو جعفر :

وانظرْ إلى السُّرْحِ فيه كالزُّهرِ ذاتِ النوائِبِ
وحينَ صَفَّقَ للأفْ قِ نَقَطَتَهُ الكواكبُ

فقبل ابن سيد رأسه ، وقال : ما تركت بعد هذا مقالاً لقاتل ، ثم جعلوا
يشربون .

فقال أبو جعفر :

سَمِّيَ والأفقُ بُرْدٌ بنجومِ الليلِ معلَمٌ

فقال ابن سيد :

وبساطُ النهرِ منها وهو فِضْيَةٌ مُدْرَهَمٌ

فقال أبو جعفر :

ورواقُ الليلِ مُرْحَى والشذا بالروضِ قد نمٌ

فقال ابن سيد :

والتدى في الزهرِ مثو رٌ على عقدي منظمٌ

فقال أبو جعفر :

والصبا جرت على مية تِ الطلى كف ابن مريم

فقال ابن سيد :

كان مبهوتاً فلماً نفخت فيه تكلم

فقال أبو جعفر :

وكان الكأس والقهوة ديناراً ودرهم

فقال ابن سيد :

وبدا الدف يناغي الهمود والمزمار هيم

فقال أبو جعفر :

فأذاع الأنس من كل ما قد كان مكنم

فقال ابن سيد :

أي عيش يهتك المسبور لو كان ابن أدهم

فقال أبو جعفر :

هكذا العيش ودعتي من زمان قد تقدم

فقال ابن سيد :

حين لا خمر سوى ما بكؤوس البيض من دم

فقال أبو جعفر : والله ما تعديت ما جال الساعة في خاطري ، فإنني ذكرت أيام الفتنة وما كابدنا فيها من المحن ، وأنا لم نزل في مصادمة ومقارعة ، ثم رأيت ما نحن الآن فيه بهذه الدولة السعيدة التي أمنت وسكنت ، فشكرت الله تعالى ، ودعوت بلوامها .

ثم لما طلع الفجر قال أبو جعفر :

نثر الطل عقودة ونض الليل برودة

فقال ابن سيد :

وبدا الصبحُ بوجهٍ مُطلعٍ فينا سعودةً

فقال أبو جعفر :

وغدا ينشرُ لنا فتر الليلُ بُنودةً

فقال ابن سيد :

فهلُمَّ اشربْ وقبلْ مَنْ غدا يُنطقُ عودةً

فقال أبو جعفر :

ثمَّ صافحه على رءمِ النوى وافركْ نهودةً

فقال ابن سيد :

واجعلِ الشكرَ على ما نلتَهُ منه جُحودةً

فقال أبو جعفر : يا أبا العباس ، إنك أغرت على التهامي في هذا البيت في

قوله :

وشكرُ أيادي الغايات جُحودُها

قال : فلم لُصِّبت باللص ؟ لولا هذا وأمثاله ما كان ذلك .

واللص المذكور اسمه أحمد بن سيد ، يكنى أبا العباس ، وهو من مشهوري شعراء الأندلس . ولما أنشد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بجبل الفتح قوله :

غمّص عن الشمس واستقصيرُ مدى زحلِ وانظرْ إلى الجبلِ الراسي على جبلِ

قال له : أنت شاعر هذه الجزيرة ، لولا أنك بدأتنا بغمّص وزحل والجبل .

ومن بديع نظم اللص قوله :

سكّبتَ قلبي بلحظِ أبا الحسينِ خكُوبِ

فَلِمَ أَسْمَى بِلِصِّ وَأَنْتَ لِصُّ الْقُلُوبِ

ولما اجتمع أبو جعفر ابن سعيد المترجم به باللص أبي العباس المذكور في جبل الفتح عندما وفد فضلاء الأندلس على عبد المؤمن ، واستنشده ، فجعل ينشده ما استجفاه به لخروجه عن حلاوة مَنزَع أبي جعفر ، إلى أن أنشده قوله :

وما أفنى السؤالُ لكم نوالا ولكن جودكم أفنى السؤال

فقال له أبو جعفر : لا جعلك الله في حل من نفسك ، يكون في شعرك مثل هذا وتشدني ما كان يحملني على أن أسأتُ معك الأدب ؟ والله لو لم يكن لك غير هذا البيت لكتبت به أشعر أهل الأندلس .

وكتب إلى أبي جعفر أبو الحكم بن هرودس^١ في يوم بارد بغرناطة :

يا سَمِيَّ ، في علم مجدك ما يح
تأجُّ فيه هذا النهارُ المطيرُ
ندفَ الثلجِ فيه قُطُنًا علينا
فقررنا بعدلكم نستجيرُ
والذي أبتغيه في اللحظِ منه
ورضاب الذي هويت نظيرُ^٢
يومُ قرَّ يودُّ من حلِّ فيه
لو تبدَّى لمقلتيه سَعِيرُ

فوجه بما طلب ، وجاوبه بما كتب :

أيها السيد الأجلُّ الوزيرُ
ألذي قدره معلّى خطيرُ
قد بعثنا بما أشرتَ إليه
دمتَ للأنسِ والسرورِ بشيرُ
كان لغزاً فككته دون فكري
إنَّ فهمي بما تريدُ خبيرُ

١ هو أبو الحكم أحمد بن هرودس كاتب عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة (توفي سنة ٥٧٣ هـ أو في التي قبلها) انظر المغرب ٢: ٢١٠. والحاوية ، وسيأتي ذكره عند الحديث عن الموشحات والأزجال.
٢ المغرب : ورضاه في كل أمر يسير .

ومن نظم أبي الحكم :

إذا ضاقتْ عَلَيْكَ فَوْلاً عَنْهَا وَسِرٌّ فِي الْأَرْضِ وَاخْتِبِرِ الْعِبَادَا
وَلَا تَمْسِكْ رِحَالَكَ فِي بِلَادٍ غَدَوْتَ بِأَهْلِهَا خَبِيراً مُعَادَا

٦٦٨ - [أخيل الرندي]

ولما مدح أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي عبد المؤمن في جبل الفتح
بقصيدة أولها :

مَا الْفَخْرُ إِلَّا فَخْرُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنِّي عَلَيْهِ كُلُّ عَبْدِ مُؤْمِنٍ

قال أبو جعفر ابن سعيد : دعاه التجنيس إلى الضعف والخروج عن المقصود ،
والأولى أن لو قال « شاد الخلاقة وهو أول مُبْتَنِي » .

ومن هذه القصيدة :

أَمَا ابْنُ سَعْدٍ فَهُوَ أَوْلُ مَارِقٍ يَا لَيْتَهُ بِأَبِيهِ سَعْدٍ يَكْتَتِي
مَا قَلَرُ مَرْسِيَةٍ وَحَكْمِكَ نَافِذٌ إِنْ شَتَّ مِنْ عَدَنِ لِأَرْضِ الْمَعْدَنِ

فلما أكملها قال له عبد المؤمن : أجدت ، فقال ارتجالاً :

مَنْ لِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَوْقِفِي هَذَا وَقَوْلِكَ لِي أَجَدْتَ وَلَمْ تَنْ
فَلَقَدْ مَلَحْتِكَ خَائِفاً أَنْ لَا يَفِي لَسْتِي بِمَا يُعْجِبِي جَمِيعَ الْأَلْسَنِ

ولابن إدريس المذكور :

أَيُّهَا الْبَدْرُ هَلْ عَلِمْتَ بِأَنِّي لَمْ أَبْتُ رَاعِيًا مُحَيَّاكَ وَدَا
أَنَا لَوْ بَاتَ مَنْ حَكَيْتَ بِنَجْوِي لَمْ يَكُنْ عَنْهُ نَاطِرِي يَتَعَدَّى

وله :

شَتَانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الْهَوَى أَنَا أَبْتَغِيكَ وَأَنْتَ عَنِّي تَصَدْفُ
وَإِذَا عَتَبْتُكَ وَارَعَوَيْتُ بَيْنِي لِي فِي الْحَيْنِ مِنْكَ بَأَنَّ ذَاكَ تَكَلَّفُ
يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يُقْضَى وَصَلْنَا وَالْعَمْرُ يُقْنَى وَالْمَوَاعِدُ تُخْلَفُ

وقيل له لما هجره عبد المؤمن : اكتب له واعتذر وبرهن عن نفسك ، فقال :
ما يكون أمير المؤمنين هجرني إلاّ وقد صحّ عنده ، ولا أنسبه في أمري لقلّة
الثبت والجور ، وإنّما أرغب في عفوه ورحمته ، فكأن هذا الكلام ألان عليه
قلب عبد المؤمن لما بلغه ، وكان قد نقل عنه حسّاده أنّه قال : كيف تصحّ
له الخلافة ، وليس بقرشي ؟

٦٦٩ - [ترجمة اللص]

ولا بأس أن نزيد من أخبار اللص الذي جرى ذكرنا له مع أبي جعفر ابن
سعيد فنقول^١ :

هو النحوي المبرز في الشعر أبو العباس أحمد بن سيد ، الإشبيلي ، ذكره
ابن دحية في « المطرب » وأخبر أنّه شيخه ، وختم كتاب سيبويه مرتين على
النحوي أبي القاسم ابن الرماك ، واجتمع به أبو جعفر ابن سعيد ببجل الفتح كما
سبق ، ولقّب اللص لإغارته على أشعار الناس .

وله :

شَامُوا الرِّدَى فَأَشْمُوا التُّرْبَ أَنْفَهُمْ^٢ وَلَمْ يُبَالُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الشَّمَمِ
ثم جعل يقول : قطع الله لساني إن كان اليوم على وجه الأرض من يعرف

١ ترجمة اللص في المغرب ١ : ٢٥٢ والمطرب : ٢٠٠ وبغية الوعاة : ١٤٩ والتكملة : ٨٠ .

أن يسمعه ، فضلاً عن أن يقوله .

وله القصيدة الشهيرة :

نَدَاكَ الْغَيْثُ إِنْ مَحَلُّ تَوَالِي وَأَنْتَ الْغَيْثُ إِنْ شَاءُوا الْقِتَالَ
سَلَبْتَ الْغَيْثَ شِدَّةَ سَاعِدَيْهِ نَعَمْ ، وَسَلَبْتَ عَيْنَيْهِ الْغَزَالَ
وَمَا أَفْنَى السُّؤَالُ لَكُمْ نَوَالًا وَلَكِنْ جُودَكُمْ أَفْنَى السُّؤَالَا

وقد تقدّم هذا البيت في حكايته مع ابن سعيد

وقال في حلقة خياط ، وهو من محاسنه :

كَأَنَّهَا بِيضَةٌ وَخَزُّ الرَّمَاكِ بِهَا بَادٍ وَقُونَسُهَا بِالسَّيْفِ قَدْ قُطِعَا

وقال :

فَاللَّيْلُ إِنْ وَاصَلْتُ كَاللَّيْلِ إِنْ هَجَرْتُ أَشْكُو مِنَ الطُّوْلِ مَا أَشْكُو مِنَ الْقِصْرِ

رجع إلى أخبار أبي جعفر ابن سعيد :

قال في « الأزهار المنثورة في الأخبار الماثورة » ما نصّه : لما قبض على الوزير أبي جعفر ابن عبد الملك بن سعيد العنسي ، وثقف بمالقة ، دخل إليه ابن عمه ، ووصل إلى الاجتماع به ريشما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن في أمره ، قال : فدمعت عيناï حين رأيتَه مكبولا ، فقال لي : أعليّ تبكي بعدما بلغتُ من الدنيا أطايب لذاتها ، فأكلتُ صلور الدجاج ، وشربت في الزجاج ، وليست الديباج ، وتمتعت بالسراي والأزواج ، واستعملت من الشمع السراج الوهاج ، وركبت كل هملاج ، وما أنا في يد الحجاج ، منتظر محنة الحلّاج ، قادم على غافرٍ لا يحتاج إلى اعتذار ولا احتجاج ، قال فقلت : أفلا يؤسف

١٠ م : عليه .

على من ينطق بهذا الكلام ، ثم يُفقد ؟ و قمت عنه فكان آخر العهد به ، انتهى .

رجع إلى أخبار النساء :

9 - ومن أشهرهن بالأندلس ولآدة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن ابن عبيد الله بن الناصر لدين الله^١ ، وكانت واحدة زمانها ، المشار إليها في أوانها ، حسنة المحاضرة ، مشكورة المذاكرة ، كتبت بالذهب على طرازها الأيمن :

أنا والله أصلحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتبهُ تيتها

وكتبت على الطراز الأيسر :

وأمكنُ عاشقي من صحنِ خلدي وأعطي قبلي من يشتبهها

وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف ، وفيها خلج ابن زيدون عذاره ، وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات ، وكانت لها جارية سوداء بديعة المعنى ، فظهر لولادة أن ابن زيدون مال إليها ، فكتبت إليه :

لو كنت تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخيرِ
وتركت غُصناً مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يُثمرِ
ولقد علمت بأنتي بدرُ السما لكن ولعت ، لشقوتي ، بالمشتري

ولقبت ابن زيدون بالمسلس ، وفيه تقول :

ولُقبت المسدس وهو نعتُ تفارقت الحياة ولا يفارقُ
فلوطي ومأبون وزانٍ وديوثٌ وقرنانٌ وسارقُ

وقالت فيه :

١ ترجمة ولادة في اللخيرة ١/١ : ٢٧٦ والمطرب : ٧ والصلة : ٦٥٧ والسيوطي : ١٠١ .

إنَّ ابنَ زيدونَ على فضلهِ
يلحظني شراً إذا جثتهِ
يغتَابني ظلماً ولا ذنب لي
كأنتي جثتُ لأخصي علي

وقالت فيه أيضاً :

إنَّ ابنَ زيدونَ على فضلهِ
لو أبصرَ الأيرَ على نخلةِ
يعشقُ قُضبانَ السراويلِ
صارَ من الطيرِ الأبايلِ

وقالت ولادة تهجو الأصبحي :

يا أصبحيُّ اهنأ فكم نعمة
قد نلتَ بأسَتِ ابنتك ما لم ينلْ
جاءتكَ من ذي العرش ربَّ المنزِ
بفرج بُورانَ أبوها الحسنِ

وكتبت إليه لما أولع بها بعد طول تمنع :

ترقبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلحْ
فلأنتي رأيتُ الليلَ أكمَّ للسرِّ
وبالبلدِ لم يطلعْ وبالنجمِ لم يسرِ

ووقت بما وعدت ، ولما أرادت الانصراف ودعته بهذه الأبيات :

ودعَّ الصبرَ محبُّ ودَّعكُ
يقرعُ السنَّ على أن لم يكنْ
يا أختا البلدِ سناءً وسناً
إن يطُلْ بَعْدك ليلي فلکم
ذائعٌ من سره ما استودعكُ
زاد في تلك الخُطى إذ شيعك
حفظ الله زماناً أطلعك
بتُّ أشكو قِصرَ الليل معك

وكتبت إليه :

ألا هلِّ لنا من بعد هذا التفرقِ
وقد كنتُ أوقاتَ التزاورِ في الشتا
سبيلٌ فيشكو كلُّ صبِّ بما لقي
أبيتُ على جمرٍ من الشوق محرقِ
فكيف وقد أمسيتُ في حالِ قطعةِ
لقد عَجَلَ المقدورُ ما كنتُ أتقي

تمرُّ الليالي لا أرى البينَ ينقضي ولا الصبرَ من ريقِ الشوقِ معتمِي
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سَكُوبِ هاطلِ الوبلِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله :

لحى الله يوماً لستُ فيه بملتقى محيَاك من أجلِ النوى والفرقِ
وكيف يطيبُ العيشُ دون مسرةٍ وأيُّ سرورٍ للكئيبِ المؤرقِ

وكتب في أثناء الكلام بعد الشعر : وكنتِ ربما حشنتني على أن أنبهكِ
على ما أجد فيه عليك تقدأ ، وإنني انتقدت عليك قولك :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً

فإن ذا الرمة قد انتقدَ عليه قوله مع تقديم الدعاء بالسلامة :

ألا يا اسلمي يا دارَ ميِّ على البلى ولا زال منهلاًً بجرعائك القطرُ

إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له ، وأما المستحسن فقول
الآخر :

فسقى ديارك غيرَ مفسدها صوبُ الربيعِ وديمةٌ تهمي

وبسببها خاطب ابنَ عبّدوس بالرسالة المشهورة التي شرحها غيرُ واحد من
أدباء المشاركة كالجمال ابن نُباتة والصفدي وغيرهما ، وفيها من التلميحَات
والتنديدات ما لا مزيد عليه .

وقد ذكر ولادة ابن بشكُوال في « الصلّة » فقال : كانت أديبة ، شاعرة ،
جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق
البرعاء ، وعمرت عمراً طويلاً ، ولم تتزوج قط ، وماتت لليلتين خلتا من صفر
سنة ثمانين ، وقيل : أربع وثمانين وأربعمائة ، رحمها الله تعالى .

وكان أبوها المستكفي بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر ، كما ألعنا به في غير هذا الموضوع ، وكان جاهلاً ساقطاً ، وخرجت هي في نهاية من الأدب والظرف : حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ونخب ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة متدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً بلياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها ، وكثرة مُنتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السيلَ بقلّة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . ولما مرت بالوزير أبي عامر ابن عبلوس وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ، وقد نشر أبو عامر كُميّه ، ونظر في عِطْفِيّه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له :

أنتَ الخصبُ وهذه مصرُ فندققا فكلالما بجرُ

فتركته لا يبحر حرفاً ، ولا يرد طرفاً .

وقال في « المغرب » بعد ذكره أنها بالغرب كعلية بالشرق : إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق ، وأما الأدب والشعر والنادر وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في الغناء ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك ، وفيها يقول ابن زيدون :

بنم وبنًا فما ابتلتُ جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفتُ مآقينا

وقال أيضاً يخاطب ابن عبلوس لاشترائه معه في هواها :

أثرت هزبر الشرى إذ ربضُ ونبتته إذ هذا فاغتمضُ
وما زلت تبسطُ مسترسلاً إليه يدَ البغي لما انقبضُ

حذارِ حذارِ فإنَّ الكَرِيمَ إذا سِيمَ خَسِيفاً أبى فامتعضُ
 وإنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوِ سِ ليسِ بمانعه أن يَعَضَّ
 عمدتَ لشعري ولم تَتَّئِدْ تعارضُ جوهره بالعَرَضِ
 أضاقَتِ أساليبُ هذا القرى ضِ أم قد عفا رسمه فانقرضُ
 لعمرى فوَقَّتْ سهمَ النضالِ وأرسلتهُ لو أصبتَ الغرضُ

ومنها :

وغرَّكَ من عهدِ ولادةٍ سرابٌ تراءى وبرقٌ ومَضُ
 هي الما يعزُّ على قابضٍ ويُمْنَعُ زُبْدَتَهُ من غَضُ

ومن أخبار ولادة مع ابن زيدون ما قاله الفتح في القلائد^١ : إن ابن زيدون كان يكتف بولادة ويهيم ، ويستضيء بنور محياها في الليل البهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتميم السمع والظرف ، بحيثُ تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ، فلما حل بذلك الغرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ، فرَّ إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية موافياها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها بُرده ، ونشر سوسنَه وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح ارتياح جميل بوادي القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوق إلى لقاء ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمله إليها وطلقه ، ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ، ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب جمر^٢ ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده :

إنِّي ذكرتُكِ بالزهراء مشتاقاً والأفق طلقتُ ووجه الأرضِ قد راقا

١ القلائد : ٧٣ .

٢ ويعلمها . . . جمر : سقط هذا من القلائد المطبوع .

وللنسيم اعتلالٌ في أصائله
 والروضُ عن مائه الفضيّ مبتممٌ
 يومٌ كأيّامٍ لذاتٍ لنا انصرفت
 نلهو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ
 كأنّ أعينه إذ عابتُ أرقي
 وردٌ تألّقَ في ضاحي منابته
 سرى يتافحهُ نيلوفرٌ عبقٌ
 كلُّ يهيجُ لنا ذكرى تشوقنا
 لو كان وقى المنى في جمعنا بكمُ
 لا سكنَ اللهُ قلباً عن ذكركمُ
 لو شاء حملي نسيمُ الريحِ حينَ هفا
 يا عليّ الأخطرَ الأسنى الحبيبَ إلى
 كان التجاري بمحضِ الودِّ مذ زمنٍ
 فالآنَ أحمدُ ما كنّا لعهدكمُ

كأنّما رقّ لي فاعتلّ إشفاقا
 كما حللتَ عن اللبّاتِ أطواقا
 بتنا لها حينَ نامَ الدهرُ سرّاً
 جال الندى فيه حتى مالَ أعناقا
 بكتُ لما بي فجال الدمعُ رقرقا
 فازداد منه الضحى في العينِ إشراقا
 وسنان نبتّه منه الصبحُ أحداقا
 إليك ، لم يعدُ عنها الصدرُ أنْ ضاقا
 لكان من أكرمِ الأيّامِ أخلاقا
 فلم يطيرُ بجناحِ الشوقِ خفّاقا
 وافتكمُ بفتنى أضناه ما لاقى
 نفسي إذا ما اقتنى الأحبابُ أعلاما
 ميدانَ أنسٍ جرينا فيه أطلاقا
 سلوتُمُ وبقيننا نحن عشاقا

وقال أيضاً^١ : إن ابن زيدون لم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه
 دونها ويهدّر ، لسوء أثره في ملك قرطبة وواليتها ، وقبائح كان ينسبها إليه
 ويواليها ، أحقدت بني جهور عليه ، وسددت أسهمهم إليه ، فلمّا يئس من لقيها ،
 وحجّب عنه محيّاها ، كتب إليها يستديم عهدا ، ويؤكد ودّها ، ويعتذر
 من فراقها بالخطب الذي غشيه ، والامتحان الذي خشيه ، ويُعلمها أنّه ما سلا
 عنها بخمر ، ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر ، وهي قصيدة ضربت في
 الإبداع بسهم ، وطلعت في كل خاطر ووهم ، ونزعت مترعاً قصر عنه حبيب
 وابن الجهم ، وأولها :

بنم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
تكادُ حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
وأخبار ولادة كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

10 - ومن المشهورات بالأندلس « اعتماد »¹ جارية المعتمد بن عباد ، وأم
أولاده ، وتشتهر بالرّمِيكية ، وفي المسهب والمغرب أنه ركب المعتمد في النهر
ومعه ابن عمّار وزيره ، وقد زردت الريح النهر ، فقال ابن عباد لابن عمار :
أجز :

صنع الريحُ من الماء زَرَدُ

فأطال ابن عمّار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أيّ درعٍ لقتالٍ لو جمَدُ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمّار ، ونظر إليها
فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبه فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت : لا ، فتزوجها .
وولدت له أولاده الملوك النجباء ، رحمهم الله تعالى .
وحكى البعض منهم صاحب « البدائنه » بسنده إلى بعض أدباء الأندلس .
وسمّاه ولم يحضرنني الآن ، أنه هو الذي قال للمعتمد :

أيّ درعٍ لقتالٍ لو جمد

قال : فاستحسنه المعتمد ، وكنّت رابعاً في الإنشاد فجعلني ثانياً ، وأجازني
بجائزة سنية .

قال ابن ظافر : وقد أخذت هذا المعنى ، فقلت أصف روضاً :

١ القلائد : ٢٢ ؛ وانظر المجلد ٣ : ٦٠٦ .

فلو دام ذاك النبتُ كان زبرجداً ولو جمّدتْ أنهاره كان بلّورا
ولما قالَ ابنَ ظافر :

قد أذكتِ الشمسُ على الما لهباً

قال القاضي الأعز :

فكستِ الفضةَ منه ذهباً

رجع :

ولما خلّع المعتمد وسُجن بأغمات قالت له : يا سيدي لقد هُنّا هُنّا ، فقال :

قالتْ لقد هُنّا هُنّا مولاي أينَ جاهنّا
قلّتْ لها إلهنّا صيرنا إلى هُنّا

وحكي أنّها قالت له وقد مرض : يا سيدي ، ما لنا قدرة على مرّضاتك في
مرضاتك .

ولما قال الوزير ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرّميكية أغرت
المعتمد به حتى قتله ، وضربه بالطبرزين ففلق رأسه ، وترك الطبرزين في رأسه ،
فقال الرّميكية : قد بقي ابن عمار هدهداً ، والقصيدَة أوّها :

ألا حيّ بالغرب حيّاً حلالاً أناخوا جِمالاً وحازوا جِمالاً
وعرّجَ بيومينَ أمّ القرى ونمّ فعمى أن تراها خيالاً

ويومين : قرية بإشبيلية كانت منها أولية بني عباد ، وفي هذه القصيدة يقول
معرّضاً بالرّميكية :

تخيرتها من بناتِ الهجانِ رُمَيْكِيَّةٌ ما تساوي عقلاً

فجاءت بكلّ قصير العذارِ لئيمِ النُّجارينِ عمّاً وخالا
 قصارِ القدودِ ولكنّهم أقاموا عليها قروناً طوالا
 أتذكر أيامنا بالصِّبا وأنت إذا لحتَ كنتِ الهلالا
 أعانقُ منك القضيبيّ الرطيبَ وأرشفُ من فيك ماءً زلالا
 وأقنعُ منك بلونِ الحرامِ فتقسّمُ جهدك أن لا حلالا
 سأهتك عرضك شيئا فشيئا وأكشفُ سترك حلالا فحالا
 ومنها :

فيا عامرَ الخليلِ يا زَيْدَها منعتَ القرى وأبحتَ العيالا

وسبب قول ابن عمّار هذه القصيدة أن المعتمد ندّر به وذيل على قصيدته
 الرائية المذكورة في القلائد بعد قوله :

كيف انفلتُ بالخدِيعَةِ من يَدَيِ رجلِ الحقيقةِ من بني عمّارِ
 وسخر به في أبيات مشهورة .

٦٧٠ - [أخبار المعتمد]

قال الفتح في حق المعتمد بعد كلام : وما زالت عقارب تلك الداخلة تدبّ ،
 ويريحها العاصفة تهب ، ونارها تقيد ، وضلوعها تحقن وتحقد ، وتضمير الغدر
 وتعتقد ، حتى دُخِلَ البلد من واديه ، وبدت من المكروه بؤاديه ، وكرّ عليه
 الدهر بعوائده وعوآديه ، وهو مستمسك بعُرَى لذّاته ، منغمس فيها بذاته ،
 ملقى بين جواريه ، مغتر بودائع ملكه وعواريه ، التي استرجعت منه في يومه ،
 ونبّه فواتها من نومه ، ولما انتشر الداخلون في البلد ، وأوهنوا القوّى والجلد ،

خرج والموت يتسعر في الحافظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمصنائه ، ويتوقد عند انتصائه ، فلقبهم برحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها ، وتضعفت من رجعتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فِرَقاً ، وملأتهم فِرَقاً ، وما زال يوالي عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر وما بهم جواد ، وأودعهم حشاه كأتهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه وارثاله ، وعاد إلى قصره واستمسك فيه يومه وليلته مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل عن عزته ، وقد عزم على أفضح أمر ، وقال : يبدي لا بيد عمرو ، ثم صرفه تُقاه ، عما كان نواه ، فترل من القصر بالقصر ، إلى قبضة الأسر ، فقيدَ للحين ، وحن له يوم شر ما ظنَّ أنه يجين ، ولما قيدت قلماه ، وذهبت عنه رقة الكيل ورُحماه ، قال يخاطبه :

إليكَ فلو كانت قُبُودُكَ أسعرتُ تَصَرَّمَ منها كلُّ كَفِّ ومعصمِـ
غافَّةً من كانَ الرجالُ بسَيِّبه ومن سَيِّفه في جَنَّةٍ أو جهنمِـ

ولما آله عَضُّهُ ، ولازمه كسره ورَضُّهُ ، وأوهاه ثقله ، وأعياه نقله ، قال :

تبدلتُ من عزِّ ظلِّ البنودِ بذلُّ الحديدِ وثقلِ القيودِ
وكان حديدي سناناً ذليلاً وعضباً رقيقاً صقيلَ الحديدِ
فقد صارَ ذاكَ وذا أدُهما يعضُّ بساقِيَّ عضَّ الأسودِ

ثم جُمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناسُ قد حشروا بصفتي الوادي ، وبكوا بدموع كالغواصي ، فساروا والنوحُ يحدُّوهم ، والبسوحُ باللوعة لا يعلمهم ، وفي ذلك يقول ابن اللبَّانة :

تبكي السماءُ بمزْنٍ رائجِ غادِ على البهاليلِ من أبناءِ عبَّادِ
على الجبالِ التي هدَّتْ قواعدها وكانت الأرضُ منها ذاتَ أوتادِ

عَرِيْسَةٌ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَيَّ
وَكَعْبَةٌ كَانَتْ الْآمَالُ تَخْدُمُهَا
يَا ضَيْفُ أَقْرَبَيْتُ الْمَكْرَمَاتِ فَخَذْتُ
وَيَا مُؤَمِّلَ وَاذِيهِمْ لَيْسَكُنْهُ
وَأَنْتَ يَا فَارِسَ الْخَيْلِ الَّتِي جَعَلْتُ
أَلْتَقِيَ السَّلَاحَ وَخَلَّ الْمَشْرِفِيُّ فَقَدْ
لَمَّا دَنَا الْوَقْتُ لَمْ تَخْلَفْ لَهُ عِدَّةٌ
إِنْ يُخْلَعُوا فَبِنُو الْعَبَاسِ قَدْ خُلِعُوا
حَمَوًا حَرِيمَهُمْ حَتَّى إِذَا غَلَبُوا
وَأَنْزَلُوا عَن مَتُونِ الشَّهْبِ وَاحْتَمَلُوا
وَعَيْثُ فِي كُلِّ طَوْقٍ مَن دَرَوْعَهُمْ
نَسِيْتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ
وَالنَّاسُ قَدْ مَلَأُوا الْعَبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا
حُطَّةَ الْقِنَاعِ فَلَمْ تُسْتَرْ مَخْدَرَةٌ
حَانَ الْوِدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ
سَارَتْ سَفَاتِنُهُمْ وَالتَّوْحُ يُصْحَبُهَا
كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مَن دَمَعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ

أَسَاوِدُ لَهْمٍ فِيهَا وَأَسَادُ
فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَلَا بَادُ
فِي ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ
خَفَّ الْقَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي
تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهُمْ وَأَعْدَادُ
أَصْبَحَتْ فِي لَهَوَاتِ الضَّيْغِ الْعَادِي
وَكُلُّ شَيْءٍ لَمِيقَاتٍ وَمِيعَادُ
وَقَدْ خَلَّتْ قَبْلَ حِمَصِ أَرْضِ بَغْدَادِ
سَيَقُوا عَلَي نَسَقِي فِي حَبْلِ مَقْتَادِ
فَوْقَ دُهْمٍ لَتَكُ الْخَيْلِ أُنْدَادُ
فَصَيَغَ مِنْهُمْ أَغْلَالٌ لِأَجْيَادِ
فِي الْمَنْشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْحَادِ
مَنْ لَوْلَوْ طَافِيَاتٍ فَوْقَ أَزْيَادِ
وَمُرَّقَتْ أَوْجُهُ تَمْزِيقَ أَبْرَادِ
وَصَارِخٍ مَن مَقْدَاةٍ وَمَن فَادِ
كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُو بِهَا الْحَادِي
تَلِكُ الْقَطَائِعُ مَن قَطَعَاتِ أَكْبَادِ

انتهى ما قصد جلبي من كلام الفتح رحمه الله تعالى وسامحه .
وقال ابن اللبَّانة في كتاب « نظم السلوك في مواظب الملوك في أخبار
الدولة العبادية » : إن طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه ، فأعلم باعتمادها ،
وكشفت له عن مُرادها ، وحُضَّ على هتك حُرْمَها ، وأغرِي بسفك دمها ، فأبى
ذلك مجده الأثيل ، ومذهبه الجميل ، وما خصه الله تعالى به من حسن اليقين ،
وصحة الدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة فانتصروا ببغاث مُسْتَنْسِر ، وقاموا بجمع

غير مستبصر ، فبرز من قصره ، متلافياً لأمره ، عليه غلالة ترفُّ على جسده ،
وسيفه يتلظَّى في يده :

وذاك السيفُ راقٍ وراعٍ حتى كأنَّ عليه شيمَةً منتضيه
كأنَّ الموتَ أودعَ فيه سرّاً ليرفعهُ إلى يومِ كربه

فلقي على باب من أبواب المدينة فارساً مشهوراً بنجدة ، فرماه الفارس برمح
التوى على غلالته ، وعصمه الله تعالى منه ، وصبَّ هو سيفه على عاتق الفارس ،
فشقته إلى أضلاعه ، فخرَّ صريعاً سريعاً ، فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار
تساقطوا منها ، وبعدها أمسكوا الأبواب تحلَّوا عنها ، وأخذوا على غير
طريق ، وهوت بهم ريح الهيبية في مكان سحيق ، فظننا أن البلد من أقدائه قد
صفا ، وثوب العصمة علينا قد ضفا ، إلى أن كان يوم الأحد الحادي والعشرون
من رجب فعظم الأمر في الخطب الواقع ، واتسع الحرق فيه على الراقع ، ودُخل
البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية بادية ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد
وبأسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ،
فشنت الغارة في البلد ، ولم يُبق فيه على سبَد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من
منازلهم ، يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ،
ورأيت الناس سُكاري ، وما هم بسكاري ، ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال
جميع ماله ، لم يصحب معه بلُغة زاد ، ولا بغية مراد ، فأمضيت عزيمتي في
اتباعه ، فوصلت إليه بأغصات عقب ثقاف استنقذه الله منه ، فذكرت به شعراً
كان لي في صديق اتفق له مثل ذلك في الشهر بعينه من العام الماضي ، وهو الأمير
أبو عبد الله ابن الصفار ، وهو :

لم نقلُ في الثقافِ كانَ ثقافاً كنتَ قلباً به وكانَ شغافاً
يمكثُ الزهرُ في الكمامِ ولكنْ بعد مكثِ الكمامِ يدنو قِطافاً
وإذا ما الهلالُ غابَ بغيمٍ لم يكنْ ذلكَ المغيبُ انكسافاً

لَئِمَّا أَنْتَ دَرَّةٌ لِّلْمَعَالِي رَكَبَ الدَّهْرُ فَوْقَهَا أَصْدَافَا
حَجَبَ الْبَيْتُ مِنْكَ شَخْصاً كَرِيماً مِثْلَمَا تَحْجِبُ الدَّنَانُ السُّلَافَا
أَنْتَ لِلْفَضْلِ كَعَبَةٌ وَلَوْ آتَى كُنْتُ أُسْطِيعُ لَأَسْتَطَعْتُ الطَّوَافَا

قال أبو بكر : وجرت بيني وبينه مخاطبات ألد من غفلات الرقيب ،
وأشهى من رشقات الحبيب ، وأدل على السماح ، من فجر على صباح ، انتهى ١ .
ثم قال : ولما خلُع المعتمد وذهب إلى أغمات طلب من حواء بنت تاشفين
خباء عارية ، فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء ، فقال :

هم أوقدوا بينَ جنبيكَ نارا أطلوا بها في حشاك استعارا
أما ينجلُ المجدُ أنْ يُرحلوك ولم يصحبوك خباء معارا
فقد قنعوا المجدَ إن كان ذاك وحاشاهمُ منك خزيًا وعارا
يقولُ لعينيك أن يجعلوا سوادَ العيونِ عليكم شعارا

ثم إنه بقي مأسوراً بأغمات إلى سنة ٤٨٦ ، فأخذ بمالقمة رجل كبير يُعرف
بإبن خلف ، فسُجن مع أصحاب له ، فتقبوا السجن وذهبوا إلى حصن منت ميور
ليلاً فأخرجوا قائدها ، ولم يضره ، وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل ،
فسألوه فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد ، فولوه على أنفسهم ، وظن الناس أنه
الراضي ، فبقي في الحصن ، ثم أقبل مركب من الغرب يُعرف بمركب ابن الزرقاء ،
فانكسر بمرسى الشجرة قريباً من الحصن ، فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من
طعام وعدة فاتسعت بذلك حالتهم ، ثم وصلت أم عبد الجبار إليه ، ثم خاطبه أهل
الجزيرة وأهل أركش فدخلها سنة ٤٨٨ ، ولما بلغ خبر عبد الجبار إلى ابن تاشفين
أمر بثقاف المعتمد في الحديد ، وفي ذلك يقول :

قيدي أما تعلمني مُسليماً أبيتَ أن تشفقَ أو ترحمنا

١ زاد في م ورقة ونصف ورقة ، ولكننا أثرنا عدم إثباتها هنا لأنها سترد في سياق الأخبار من بعد .

يُبصرني فيكَ أبو هاشمٍ فيثني القلبُ وقد هُشما

وبقي إلى أن توفي رحمه الله سنة ٤٨٨ .

وقد ساق الفتح قضية ثورة عبد الجبار بن المعتمد بعبارة البارة فقال^١ :
وأقام بالعلوة برهة لا يروِّعُ له سيربُ وإن لم يكن آمناً ، ولا يثور له كرب
وإن كان في ضلوعه كامناً ، إلى أن ثار أحدُ بنيه بأركش - معقل كان مجاوراً
لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح ، ظاهر على بسائط وبِطاح ، لا يمكن معه عيش ،
ولا يتمكن من منازلته جيش ، فغدا على أهلها بالمكارة وراح ، وضيَّقَ عليهم
المتسع من جهاتها والبَرَاح ، فسار نحوه الأمير سير بن أبي بكر^٢ رحمة الله عليه ،
قبل أن يرتدَّ طرف استقامته إليه ، فوجده وشره قد تشمَّر ، وضره قد
تمرَّ ، وجمره متسر ، وأمره متوعر ، فنزل عدوتَه ، وحلَّ للحزم
حُبوتَه ، وتدارك داءه قبل إعضاله ، ونازله وما أعدَّ آلات نضاله ، وانحشدت
إليه الجيوش من كل قطر ، وأفرغ من مسالكة كل قطر ، فبقي محصوراً
لا يشدَّ إليه إلا سهم ، ولا ينفذ عنه إلا نفس أو وهم ، وامتنك شهوراً
حتى عرضه أحدُ الرماة بسهم فرماه ، فأصماه ، فهوى في مطلعهِ ، وخرَّ
قتيلاً في موضعه ، فدُفن إلى جانب سريره . وأمنَ عاقبة تغريره ، وبقي أهله
مبتنعين مع طائفة من وزرائه حتى اشتد عليهم الحصر . وارتدَّ عنهم
النصر ، وعمهم الجوع ، وأغبَّ أجفانهم الهجوع ، فنزلت منهم طائفة متهاذفته ،
وولت بأنفاس خافتة ، فتبعهم من بقي ، ورجب في التنعم من شقي ، فوصلوا
إلى قبضة الملمات ، وحصلوا في غصة الممات ، فوسمهم الحيف ، وتقسمهم
السيف ، ولما زار الشبيل خيفت سورة الأسد ، ولم يبرج صلاح الكل والبعض
قد فسد ، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها ، وأحلَّ ساحة الخطوب

١ القلائد : ٢٥ .

٢ زاد في م : أمير ابن تاشفين .

وفناءها ، وحين أركبوه أساودا ، وأورثوه حُزناً بات له معاودا ، قال :

غنتك أغماتية الأبحانِ ثقلت على الأرواح والأبدانِ
قد كان كالثعبان رُحكاً في الوري فغدا عليك القيد كالثعبانِ
متمرداً يحميك كل تمرد متعطفاً لا رحمة للعاني
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه ما خاب من يشكو إلى الرحمنِ
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه عن شانِ
هاتيك قبته وذلك قصره من بعد أي مقاصر وقيانِ

ولما فقد من يجالسه ، وبعد عنه من كان يؤانسه ، وتمادى كربه ، ولم تسالنه
حربه ، قال :

تؤمل للنفس الشجية فرجة وتأبى الخطوب السود إلا تماديا
ليالك في زاهيك أصفى صحبتها كذا صحبت قبلي الملوك اللياليا
نعيم وبؤس ذاك لذلك ناسخ وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا

ولما امتدت في الشفاف مدته ، واشتدت عليه قسوة الكيل وشدته ، وأفلقتة
همومه ، وأطبقتة غمومه ، وتوالت عليه الشجون ، وطالت لياليه الجون ، قال :

أنباء أسرك قد طبقتن آفاقا بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى أنت شرقها تنعك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة وأغرق الدمع آساقاً وأحداقا
قد ضاق صدر المعالي إذ نعت لها وقيل : إن عليك القيد قد ضاقا
أنتى غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالين والسباق سباقا
قلت الخطوب أذلتني طوارقها وكان غربي إلى الأعداء طراقا

١ م ق : قبيك .

مى رأيتَ صروفَ الدهرِ تاركةً إذا انبرتَ للنوي الأخطارِ أرماقا

وقال لي من أفتقه : لما نار ابنه حيث نار ، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار ، جزع جزعاً مفراطاً ، وعلم أنه قد صار في أنشودة الشر متورطاً ، وجعل يتشكى من فعله ويتظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول : عرض بي للمحن . ورضي لي أن أمتحن ، ووالله ما أبكي إلاّ انكشاف من أتخلفه بعدي ، ويتحيفه بعدي ، ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهللت أسرته ، وظللت مسرته ، ورأيته قد استجمع ، وتشوف إلى السماء وتطلع ، فعلمت أنه قد رجا عودةً إلى سلطانه وأوبةً إلى أوطانه ، فما كان إلاّ بمقدار ما تنداح دائرة ، أو تلتفت مقلة حائرة : حتى قال :

كذا يهلكُ السيفُ في جفنه	إلى هزّ كفيّ طويلَ الحنينِ
كذا يعطشُ الرمحُ لم أعقله	ولم تروه من نجيحِ يميني
كذا يمنعُ الطرفُ عنك الشكي	م مرتقباً غيرةً في كمينِ
كأنّ الفوارسَ فيه ليوثُ	تراعي فرائسها في عرينِ
ألا شرفُ يرحمُ المشرفي	مما به من شمات الوتينِ
ألا كرمُ ينعشُ السّمهري	ويشفيه من كلّ داءِ دفينِ
ألا حنةُ لابنِ محنية	شديدِ الحنينِ ضعيفِ الأنينِ
يؤمّلُ من صدرها ضمةً	تبوّئه صدرَ كفوٍ معينِ

وكانت طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيها وفَسَقوا ، وانتظموا في سلك الطغيان واتسَقوا . ومنعوا جفون أهلها السنّات ، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات ، وتلقبوا بالإمارة ، وأركبوا السوء نفوسهم الأمارة . حتى كادت أن تقفر على أيديهم ، وتدثر رسومها بإفراط تعدّتهم ، إلى أن تدارك أمير المسلمين رحمه الله تعالى أمرهم ، وأطفأ جمرهم ، وأوجعهم ضرباً ، وأقطعهم ما شاء حزناً وكرباً ، وسجنهم بأغصان . وضمنهم جوانح الملمات ،

والمعتمد إذ ذلك معتقل هناك ، وكانت فيهم طائفة شعرية ، مُذنبة أو بريئة ، فرغبوا إلى سجانهم ، أن يستريحوا مع المعتمد من أشجانهم ، ففخلتى ما بينهم وبينه ، وغمض لهم في ذلك عينه ، فكان المعتمد رحمه الله تعالى يتسلى بمجالستهم ، ويجد أثر مؤانستهم ، ويستريح إليهم بجواه ، ويروح لهم بسرّه ونجواه ، إلى أن شُفّع فيهم وانطلقوا من وثاقهم ، وانفرج لهم مَبْهَمَ أَعْلَاقِهِمْ ، وبقي المعتمد في محبسه^١ يشتكي من ضيق الكبل ، ويكي بدمع كالوَبَل ، فدخلوا عليه مُودَعِينَ ، ومن بثه متوجعين ، فقال :

أما لانسكابِ الدَّمْعِ في الحَدِّ راحَةً لقد آن أن يفتى ، ويفنى به الخلدُ
هبوا دعوةً يا آل فاسٍ لمبتلى بما منه قد عافاكمُ الصمدُ الفردُ
تخلصتم من سجنِ أغماتٍ والتوت عليّ قيودٌ لم يحنْ فكها بعدُ
من الدهمِ أما خلقها فأساودُ تلتوى وأما الأيدُ والبطشُ فالأسدُ
فهنيتمُ النعما ، ودامت لكلكم سعادتُهُ إن كان قدْ خانني سعدُ
خرجتم جماعاتٍ وخلقتُ واحداً ولله في أمري وأمركمُ الحمدُ

ومر عليه في موضع اعتقاله سِرْبُ قَطَأٍ لم يعلق لها جناح ، ولا تعلق بها من الأيام جناح ، ولا عاقها عن أفرانها الأشراك ، ولا أعوزها البشام ولا الأراك ، وهي تمرح في الجو ، وتسرح في مواقع النو ، فتتكد بما هو فيه من الوثاق ، وما دون أحبته من الرقباء والأغلاق ، وما يقاسيه من كبّله ، ويعانيه من وجده وخبّله ، وفكر في بناته وافتقارهنّ إلى نعيم عهدنّه ، وحبور حضرنّه وشهدنّه ، فقال :

بكيّت إلى سربِ القطا إذ مررن بي سوارح لا سجنُ يعوقُ ولا كبّلُ
ولم تكُ ، واللهُ المعيدُ ، حسادةً ولكن حنياً أنْ شكلي لها شكلُ

١ القلائد : في مجله .

فأسرُحُ لا شملي صدعُ ، ولا الحشا
 هنيئاً لها أن لم يُفرقُ جميعها
 وإذا لم تبتْ مثلي تطيرُ قلوبها
 وما ذاك ممّا يعتريه ، وإنما
 لنفسي إلى لُقيا الحمامِ تشوّفُ
 لأعصمَ الله القطا في فراخها
 وجيعٌ . ولا عينا يَبكيهما ثكلُ
 ولا ذاق منها البُعدَ عن أهلها أهلُ
 إذا اهترَبَ بابُ السجنِ أو صلصل الفقلُ
 وصفتُ التي في جبلة الخلق من قبَلُ
 سوايَ يجبُ العيشَ في ساقه كبلُ
 فإنّ فراخي خانها الماء والظلُّ

وفي هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر ابن اللبّانة ، وهو أحد شعراء دولته
 المرتضعين دررّها ، المتجعين دررّها . وكان المعتمد رحمه الله تعالى يميزه
 بالشفوف والإحسان ، ويجوزّه في فرسان هذا الشأن ، فلما رآه وحلقات الكبيل
 قد عضت بساقه عض الأسود ، والتوت عليه التواء الأسود السود ، وهو لا
 يطيق أعمال قدام . ولا يريقُ دمعاً إلا ممزوجاً بدم ، بعدما عهدده فوق منبر
 وسرير ، ووسط جنة وحرير ، تخفقُ عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ،
 وتكيفُ الأمطار من راحته ، وتشرفُ الأقدار بحلول ساحته ، ويرتاع الدهرُ
 من أوامره ونواهيهِ ، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه ، ندبتهُ بكل مقال
 يلهب الأكباد ، ويثير فيها لوعة الحارث بن عبّاد . أبداع من أناشيد معبّد ،
 وأصدع للكبد من مرثي أربد . أو بكاء ذي الرمة بالمربد ، سلك فيها للاحتفاء
 طريقاً لاجباً ، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحباً ، فمن ذلك قوله :

انقضُ يدبك من الدنيا وساكنها
 وقلْ لعالمها السفلي قد كتّمتُ
 فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
 سريرة العالم العلوي أغماتُ
 منْ لم تزل فوقه للعزّ راياتُ
 هنديّةٌ وعطاياهُ هنيّداتُ
 منْ كان بين الندى والبأس أنصله

١ م : أن ألقى .

٢ ق ودوزي : وتشرق .

رماه من حيث لم تستره سابعة
 أنكرت إلا التواءات القيود به
 غلقت بين همايين عقدن له
 وقلت هن ذؤابات فلم عكست
 حسبها من قناه أو أعنته
 دروه ليثا فخافوا منه عادية
 لو كان يفرج عنه بعض آونة
 بحر محيط عهدناه تجمي له
 هفي على آل عبّاد فإنهم
 راح الحيا وغدا منهم بمنزلة
 أرض كأن على أقطارها سرجاً
 وفوق شاطيء واديبها رياض ربي
 كأن واديبها سلك بلبتها
 نهر شربت بعبرته على صور
 وربما كنت أسمو للخليج به
 وبالعروسات لا جفت منابتها

ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وخذلده يتردد بين النكبات والعثرات ،
 ونفسه تنقسم بين الأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمينته ،
 فدفن بأعماق ، وأريح من تلك الأزمات :

وعطلت المآثر من حلاها وأفردت المفاخير من علاها

ورفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت نفائس الأعلاق ، وصار أمره عيرة
 في عصره ، وصاب أندى عبيرة في مصره . وبعد أيام وافى أبو بحر ابن عبد
 الصمد شاعره المتصل به ، المتوصل إلى المنى بسببه ، فلما كان يوم العيد وانتشر

الناس ضُحِّي ، وظهر كلُّ متوارٍ وضُحَا ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم ، واختيالهم بزيتهم وحُلاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتممه ، وخرَّ على تُربه ولثمه :

ملكَ الملوكِ ، أسامعُ فأنادي أم قد عدتُكَ عن السماعِ عوادي
لما خلَّتُ منك القصورُ فلمُ تكنُ فيها كما قد كنتَ في الأعيادِ
قبَلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذتُ قبرك موضعَ الإنشادِ

وهي قصيدة أطلال إنشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانشتر الناس إليه وانخلوا ، وبكوا بيكائه وأعولوا ، وأقاموا أكثر نهارهم مُطيفين به طوافَ الحجيج ، مديمين للبكاء والمعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأقروحا ماقيهم بفيضِ شؤونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ، والأيام لا تدع حياً ، ولا تألو كلَّ نشر طياً ، تطرق رزاياها كل سمع ، وتُفترق مناياها كل جمع ، وتُضمي كل ذي أمر ونهي ، وترمي كل مشيد بوهي ، ومن قبله طوت النعمان ابن الشقيقة ، ولوت مجازه في تلك الحقيقة . انتهى ما قصدنا جلبه من كلام الفتح مما يدخل في أخبار المعتمد بن عباد المناسبة لما مر .

وكلام الفتح كله الغاية ، وليس الخبر كالعيان ، ولذا قال بعض من عرَّف به : إنه أراد أن يفصح الشعراء الذين ذكروهم في كتبه بنثره ، سامحه الله تعالى . وأخبار المعتمد رحمه الله تعالى تحتل مجلدات ، وآثاره إلى الآن بالغرب مخلدات ، وكان من النادر الغريب قولهم في الدعاء للصلاة على جنازته « الصلاة على الغريب » بعد اتساع ملكه ، وانتظام سلكه ، وحكمه على إشييلية وأنحائها ، وقرطبة وزهراتها ، وهكذا شأن الدنيا في تدريسها نحو نُدبها وإغرائها . وقد توجه لسان الدين الوزير ابن الخطيب إلى أغمات لزيارة قبر المعتمد رحمه

١ ق : ما طوت .

الله تعالى ، ورأى ذلك من المهمات ، وأنشد على قبره أبياته الشهيرة التي ذكرتها في جملة نظمه الذي هو أرقّ من النسيم ، وأبهج من المحيّا الوسيم .
قلت : وقد زرت أنا قبر المعتمد والرّمِيكيّة أم أولاده ، حين كنت بمراكش المحروسة عام عشرة وألف ، وعمّي عليّ أمرُ القبر المذكور ، وسألت عنه من تُظن معرفته له ، حتى هداني إليه شيخ طعن في السن ، وقال لي : هذا قبر ملك^١ ملوك الأندلس ، وقبر حظيته التي كان قلبه بجبها خفّاقاً غير مطمئن ، فرأيته في ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله تعالى في الأبيات ، وحصلت لي في ذلك المحل خشية وادكار ، وذهبت بي الأفكار ، في ضروب الآيات ، فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء لا إله غيره وارث الأرض ومنّ عليها وهو خير الوارثين .

وما أحسن قول الوزير ابن عبدون في مطلع رائيته الشهيرة :

الدهرُ يَتَجَجُّ بعد العَيْنِ بالأثرِ فما البكاء على الأشباحِ والصُّورِ

وهو القائل :

يا نائمَ الليلِ في فكرِ الشبابِ أفقٌ فصُبْحُ شيبكَ في أفقِ الشَّهيِ بادي
غَصَّتْ عِناثُكَ أيدي الدهرِ ناسخةً علماً يجهلُ وإصلاحاً يفسادِ
وأسلمتَ للمنايا آلَ مَسَلَمَةٍ وعبّدتَ للرزايا آلَ عِبَادِ
لقد هوتْ منك ، خانتها قوادمها ، بكوكبٍ في سماءِ المجدِّ وَقَادِ

ومنها :

ومالك كان يحمي^٢ شَوْلَ قُرطبةِ أستغفرُ اللهَ ، لا بل شَوْلَ بغدادِ

١ ق : ملك من .

٢ في الأصول : يحمي وهو خطأ ؛ والقول ناظر إلى المثل « الفحل يحمي شوله مغلولا » .

شَقَّ العلومَ نطافاً والعلماً زهراً ثُبِينَ ، ما بين رواد وورادِ
وأين هذه القصيدة في ملحهم من قصيدة الغصن منهم ، وهي قول أبي
الحسن جعفر بن إبراهيم ابن الحاج اللورقي :

تَعَزَّ عن الدنيا ومعروف أهلها إذا عُدِمَ المعروفُ في آلِ عِبَادِ
حَكَلْتُ بهمُ ضيفاً ثلاثةَ أشهرٍ بغيرِ قِرَى ثم ارتحلتُ بلا زادِ
وهذا يدلُّ على أن الشعراء ، لم يَسَلِّمَ من لسانهم مَنْ أحسنَ فضلاً عَمَنَ
أساء ، من العظماء والرؤساء ، وما أمدح قول أبي محمد غانم فيهم :

ومن الغريبِ غروبُ شمسٍ في الثرى وضياؤها باقٍ على الآفاقِ

وقال في المطمح في حق بني عباد وأوليتهم ما صورته^١ : الوزير أبو القاسم
محمد بن عباد ، هذه بقية متمها في لحم ، ومرتمها إلى مفخر ضخم ، وجدتهم
المنذر بن ماء السماء ، ومطلعتهم من جو تلك السماء ، وبني عباد ملوك أنيس
بهم الدهر ، وتنفس منهم عن أعين الزهر ، وعمروا ربع الملك ، وأمروا بالحياة
والهلك ، ومعتضدهم أحد من أقام وأقعد ، وتبوا كاهل الإرهاب واقعد ،
واقترس من عريسته ، واقترس من مكاييد فريسته ، وزاحم بعود ، وهدهد كل
طود ، وأخمل كل ذي زي وشارة ، وختل بوحي وإشارة ، ومعتمدتهم
كان أجود الأملاك ، وأحد نيرات تلك الأفلاك ، وهو القائل ، وقد شغل عن
منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل :

لقد حنَّنتُ إلى ما اعتدتُ من كرمٍ حنينَ أرضٍ إلى مستأخِرِ المطرِ
فهاها خِلعاً أرضي السامح بها محفوفةً في أكفِ الشربِ باليدِ

١ المطمح : ١٠ .

وهو القائل وقد حَنَّ في طريقه ، إلى فريقه :

أدارَ النوى كم طالَ فيكِ تلذذي وكم عُمُتني عن دارِ أهيفِ أغيدِ
حلفتُ به لو قد تعرَّضَ دونه كُماةُ الأعادي في النسيجِ المسردِ
لجرَّدتُ للضربِ المهندَ ، فانقضى مُرادِي ، وعزماً مثلَ حدِّ المهندِ

والقاضي أبو القاسم هذا جدهم ، وبه سَمَرَ مجدهم ، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر ، واختصَّهم منه بالحظ الوافر ، فإنه أخذ الرياسة من أيدي جبابر ، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر ، عندما أناخت بها أطماعُهُم ، وأصاحت إليها أسمعهم ، وامتدت إليها من مستحقها اليد ، وأتلعوا أجياداً زانها الجيد ، وفغرَ عليها فمه حتى هجا بيت العبدى ، وتصدى إليها من تحضَّر وتبَدَّى ، فاقتعد ستامها وغاربا ، وأبعد عنها عجمها وأعاربا ، وفاز من الملك بأوفر حصَّة ، وغدت سِمَتُهُ به صفة محتصة ، فلم يمح رسم القضاء ، ولم يتسم بسمه الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، وما زال يحمي حوزته ، ويجلو غرته ، حتى حوته الرجام ، وخلت منه تلك الآجام ، وانتقل الملك إلى ابنه المعتضد ، وحل منه في روض نَمَقَ له ونُضد ، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه ، وتسمى بالمعتضد بالله ، وارتمى إلى أبعاد غايات الجود بما أناله وأولاه ، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدَّرَ ذلك المنهل ، وعكر أثناء ذلك صفو العَلِّ والنهْلِ ، وما زال للأرواح قابضاً ، وللوثوب عليها رابضاً ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، ويتنصف منهم بالدهاء والمكر ، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد ، فاكتحل منه طرفه الرمد ، وأحمد مجده ، وتقلد منه أيَّ بأسٍ وتجدة ، ونال به الحق مناه ، وجرَّ رسنه ، وأقام في الملك ثلاثاً وعشرين سنة ، لم تعدم له فيها حسنة ولا سيرة مستحسنة ، إلى أن غلبَ على سلطانه ، وذُهب به من أوطانه ، فنُقِل ،

١ م : وتصدر أثناء ذلك المل والنهل ؛ المطمح : وتصور ... الخ .

إلى حيث اعتقل ، وأقام كذلك إلى أن مات ، ووارثه بركة أغمات ، وكان للقاضي
جلده أدب غضّ ، ومذهب مبيضّ ، ونظم يرتجله كل حين ، ويبعثه أعطر من
الرياحين ، فمن ذلك قوله يصف النيلوفر :

يا ناظرين لذا النيلوفرِ البهجِ وطيبِ مخبره في الفوحِ والأرجِ
كأنه جامٌ درّ في تآلقه قد أحكموا وسطه فصاً من السبجِ
انتهى المقصود منه .

٦٧١ - [تراجم مقولة عن الفتح]

[١ - ترجمة ابن النبي من المطمح]

وهو - أعني الفتح - يشيد قصور الشرف إذا مدح ، ويهدم معاقلها إذا
هجا وقدح .

ومن أغراضه قوله في « المطمح » في حق الأديب أبي جعفر ابن النبي^١ :
رافع رايات القريض ، وصاحب آيات التصريح والتعريض ، أقام شرائعه ،
وأظهر بدائعه ، إذا نظم أزرى بالعقود ، وأتى بأحسن من رقم البرود ، وكان
أليف غلمان ، وحليف كفر لا إيمان ، ما نطق مشرعاً ، ولا رمق متورعاً ،
ولا اعتقد حشراً ، ولا صدق بعثاً ولا نشرأ ، وربما تنسك مجوناً وفتكاً ، وتمسك
باسم التقى وقد هتكه هتكاً ، لا يبالي كيف ذهب ، ولا بما تمذهب ، وكانت
له أهاجي جرع بها صاباً ، ودرع منها أوصاباً ، وقد أثبت له ما يرتشف ريقاً ،
ويشرب تحقيقاً ، فمن ذلك قوله يتغزل :

من لي بغرة فتنٍ يختالُ في حُللِ الجمالِ إذا بدا وحليتهِ
لو شمت في وضحِ النهارِ شعاعها ما عاد جنحُ الليلِ بعدَ مضيتهِ

١ المطمح : ٩١ وله ترجمة في القلائد : ٢٩٨ ؛ وانظر النسخ ٣ : ٤٨٧ .

شَرَقْتُ لآلِي الْحَسَنِ حَتَّى خَلَّصْتُ
 فِي صَفْحَتَيْهِ مِنَ الْجَمَالِ أَزَاهِرُ
 ذَهَبِيَّةٌ فِي الْخَدِّ مِنْ فِضِّيَّةِ
 غَلِيثٌ بِوَسْمِيِّ الْحَيَا وَوَلِيَّةِ
 مِنْ سِحْرِ عَيْنَيْهِ ، حُسَامٌ سَمِيَّةِ
 لِقَتْلِ مَحَبَّةِ

وله فيه :

كَيْفَ لَا يَزْدَادُ قَلْبِي
 وَإِذَا قُلْتُ عَالِي^١
 هُوَ كَالْغُصْنِ وَكَالْبَدْرِ
 أَشْرَقَ الْبَدْرُ كَمَالًا
 إِنْ مَنَّ رَامٌ سُلُوبِي
 لَسْتُ أَسْلُو عَنْ هَوَاهُ^٢
 قُلْ لِمَنْ قَصَرَ فِيهِ
 دُونَ أَنْ تُدْرِكَ هَذَا
 مِنْ جَوَى الشُّوقِ خَبَالًا
 بِهَرِّ النَّاسِ جَمَالًا
 رِ قَوَامًا وَاعْتِدَالًا
 وَائْتِنَى الْغُصْنُ اخْتِيَالًا
 عَنْهُ قَدْ رَامَ مَحَالًا
 كَانَ رَشْدًا أَوْ ضَلَالًا
 عَدَّلَ نَفْسِي أَوْ أَطَالَ
 تَسْلُبُ الْأَفْقَ الْمَلَالًا

وكنت بميمورقة وقد حلتها متمسماً بالعبادة ، وهو أسرى إلى الفجور من خيال
 أبي عبادة^١ ، وقد لبس أسمالاً ، ولَبَسَ منه أقوالاً وأفعالاً ، سجوده هجود ،
 وإقراره بالله جحود ، وكانت له رابطة لم يكن للوازمها مرتبطاً ، ولا يسكنها^٢
 معتبطاً ، سماها بالعقيق وسمى فتي كان يتعشقه بالحمي ، وكان لا يتصرف إلا
 في صفاته ، ولا يقف إلا بعرفاته ، ولا يؤرقه إلا جواه ، ولا يشوقه^٣ إلا
 هَوَاهُ ، فإذا بأحد دعاة حبيبه ، ورواة تشيبيه ، قال له : كنت البارحة بحماه ،
 وذكر له خبراً ورى به غني وعماه ، فقال :

١ أبو عبادة البحرى ذكره لإكثاره من وصف طيف الخيال وطروقه .

٢ م : يسكنها .

٣ دوزي : يشرقه .

تنفّسَ بالحِمْيَ مطلولُ أرضِ ١ فأودع نَشْرَهُ نَشْرًا شمالًا
فصبحتِ العيونُ إليَّ كسلي تجرُّ فيهِ أردانًا خضلا
أقولُ وقد شممتُ الترابَ مسكاً بنفّحتِها يميناً أو شمالًا
نسيمٌ جاء يبعثُ منكَ طيباً ويشكو من محبتكَ اعتلا

ولما تقرر عند ناصر الدولة من أمره ما تقرر ، وتردد على سمعه انتهاكُه وتكرّر ، أخرجَه من بلده ونفاه ، وطمس رسم فسقِهِ وعفاه ، فأقلع إلى المشرق وهو جار ، فلما صار من ميورقة على ثلاثة مجار ٢ ، نشأت له ريح صرفته عن وجهته ، إلى فُقد مهجته ، فلما لحق بميورقة أراد ناصر الدولة إماحتَه ، وأخذ ثار الدين منه وإراحتَه ، ثم آثر صفحَه ، وأحمد ذلك الجمر ولَفَّحَه ، وأقام أياماً ينتظر ريحاً علّتها تزجيَه ، ويستهدبها لتخلصه وتنجيه ، وفي أثناء بلوته ، لم يتجاسر أحد على إتيانه من إخوته ، فقال يخاطبهم :

أحببتنا الألى عتبوا علينا فأقصرنا وقد أذفَ الوداعُ
لقد كنتم لنا جدلاً وأنساً فهل في العيشِ بعدكمُ انتفاعُ ؟
أقولُ وقد صدرنا بعدَ يومٍ أشرقُ بالسفينةِ أم نزاعُ ؟
إذا طارت بنا حامتَ عليكم كأنَّ قلوبنا فيها شرعُ

وله يتنزل :

بني العربِ الصميمِ الأرعيمِ ما أترككمُ بأثارِ السّماحِ
رفعتمُ ناركمُ فعشا إليها بوهنِ فارسِ الحيِّ الوقاحِ
فهل في القعبِ فضلٌ تنضحوهُ بهِ من محضِ ألبانِ الأقاحِ
لعلَّ الرّسلَ شابتهُ الثنايا بشهدِ من ندى نورِ الأقاحِ

١ م : روض .
٢ المطح : جوار .

وله أيضاً :

وكأتما رشاً الحمى لئسا بدا لك في مضلعة الحديد المعلم
غصّب الغمام قسيه فأراكها من حُسنِ معطفه قويم الأسهم

وله أيضاً :

نظرتُ إليه فاتقاني بمقلة تردُّ إلى نحري صدورَ رماح
حميتَ الجفونَ النومَ يارشاً الحمى وأظلمتَ أيامي وأنتَ صباحي

وقال :

قالوا تصيبُ طيورَ الجوّ أسهمهُ إذا رماها قفلنا عندنا الخبيرُ
تعلمتُ قوسها من قوسِ حاجبه وأيد السهمَ من أظاظه الحورُ
يروحُ في بردةٍ كالنَّقسِ حالكةٍ كما أضاءَ بيجنحِ الليلةِ القمرُ
وربما راق في خضراءِ مورقةٍ كما تفتحَ في أوراقهِ الزَّهرُ

[٢ - ترجمة ابن لبال من المطمح]

وقال في ترجمة أبي الحسن ابن لبال^١ : شاعر سمح ، متقلد بالإحسان منشح ،
أمّ الملوك والرؤساء ، ويمّم تلك العزّة القعساء ، فانتجع مواقع خيرهم ، واقتطع
ما شاء من مئيرهم ، وتمادت أيامه إلى هذا الأوان ، فجالت به في ميدان الهوان ،
فكسد نفاقه ، وارتدّت آفاقه ، وتوالى عليه حرمانه وإخفاقه ، وأدركته وقد خبثته
سنونه ، وانتظرتّه منونه ، ومحاسنه كعهدها في الانتقاد ، وبُعدها من الانتقاد ،
وقد أثبتتُ منها ما يعذب جنّي وقِطافاً ، ويستعذب استترالاً واستلطافاً ، فمن
ذلك قوله يستنجد الأمير الأجلّ^٢ أبا إسحاق ابن أمير المسلمين :

١ المطمح : ٩٣ وكتب فيه خطأ « ابن لسان » . وفي قم أحياناً : ابن لبال .

قلّ للأمير ابن الأمير بل الذي
 والمجتني بالزرق وهي بنفسج
 جاءتك آمال العفاة ظوامئاً
 وانثر على المداح سيبك، إنهم
 فالناس إن ظلموا فأنت هو الحمى
 أبدا به في المكرمات وفي الندى
 وردّ الجراح مضعقاً ومنضداً
 فاجعل لها من ماء جودك مورداً
 نثروا المدائح لؤلؤاً وزبرجداً
 والناس إن ضلوا فأنت هو الهدى

أخبرني وزير السلطان أن هذه القطعة لما ارتفعت ، اعتنت بجملة الشعراء
 وشققت ، فأبجز لهم الموعد ، وأورق لهم ذلك العود ، وكثر اللفظ في تعظيمها ،
 واستجادة نظيمها ، وحصل له بها ذكر ، وانصقل له بسببها فكر .

وله من قطعة يصف بها سيفاً :

كلُّ نهرٍ توقّدت شقّرتاه
 فهو ماء قد رُكبت فوق نارٍ
 كاتقادِ الشهاب في الظلماء
 أو كنارٍ قد ركبت فوق ماء

وكتب إليّ معزياً عن والدي :

على مثله من مصابٍ وجبّ
 وقلب فروقٍ ولبّ خقوقٍ
 فقد خشعت للتقى هضبة
 من الجاعلات محاريبها
 على من أصيب به المنتجب
 ونفس تشبّ ، وهم نصب
 ذوابتها في صميم العرب
 هوادجها أبدأ والقشّب
 ولا من تسمر إلا الشهب
 تناجي بها ربها من كشب
 مدامع كالغيث لما انسكب
 وقد خلقت ولداً باسلاً
 فصيحاً إذا ما قرأ أو خطب

١ م : أصاب .

يفلُّ السيفَ بأقلامِهِ ويكسرُ صُمَّ القنا بالقَصَبِ

وكان القائد أبو عمرو عثمان بن يحيى بن إبراهيم أجلّ من جال في خلكد ، واستطال على جلكد ، رشاً يحيي باحتشامه ، ويسرد البدر بلثامه ، ويزري بالغصن تشنّيه ، ويشمر الحسن لو دنت قُطوفه لمجتنيه ، مع لوزعية تخالها جريالاً ، وسجية يختال فيها الفضل اختيالاً ، وكان قد بعد عن أنسنا بمحص ، وانتضى من تلك القمص ، وكان بثمر الأشبونة فسدّه ، ولم يفرج لنا من الأنس بعده ما يسدّ مسدّه ، إلى أن صدر ، فأسرع إلينا وابتدر ، فالتقينا وبتنا ليلة نام عنها الدهر وغفّل ، وقام لنا بما شئنا فيها وتكفل ، فبينما نحن نقض ختامها ، ونفرض عتاً غبار الوحشة وقتامها ، إذا أنا بابن لبال هذا وقد دخل إذنه علينا فأمرناه بالتزول والتقيناه بترحيب ، وأنزلناه بمكانٍ من المسرة رحيب ، وسقيناه صغاراً وكباراً ، وأريناه إعظماً وإكباراً ، فلما شرب ، طرب ، وكلما كرعها ، التحف السلوة وتدرعها ، وما زال يشرب أقداحاً ، وينشد فينا أمداحاً ، ويفدي بنفسه ، ويستهدي الاستراحة من أنسه ، فهتكنا الظلام بما أهداه من البديع ، واجتلينا محاسنه كالصديق^١ ، وانفصلت ليلته عن أتم مسرة ، وأعم مبرة ، وارتحل عثمان أعزه الله إلى ثغره ، وأقام به برهة من دهره ، فمشيت بها إليه مجدداً عهداً ، ومتضلعاً من مؤانسته شهداً ، فكتب ابن لبال هذه القطعة من القصيدة يذهب إلى شكره ، ويجتهد في تجديده ذكره :

ما شامَ إنسانَ إنسانٍ كعثمانٍ ولا كبعيته من حُسنِ إحسانٍ
بدرُ السيادةِ يبدو في مطالعِهِ من المحاسنِ محفوقاً بشهبانٍ
له التمامُ وما بالأفقِ من قمرٍ متممٍ دونَ أن يُرمى بنقصانٍ
به الشيبةُ تزهى من نضارتها كما تساقطَ طللٌ فوق بستانٍ

١ الصديق : الصبح .

معصفرُ الحُسنِ للأبصارِ ناصعُهُ
 نبئتُ عنه بأبناءِ إذا نَفَحَتْ
 قامتُ عليه براهينُ تصدَقَها
 قد زادها ابنُ عبيدِ الله من وَضَحِ
 باللهِ بَلَّغَهُ تسليمي إذا بلغتُ
 وليتُ أني لو شاهدتُ أنسكما
 فألفظُ الكَلِمَ المَثورَ بينكما
 للهِ دركٌ يا ذا الخَطِتينِ لقد
 كلاكما البحرُ في جودِ وفي كرمِ
 إن كان فارسَ هيجاءٍ ومَعركِ
 فاذكُرْ أبا نصرِ المَعمرِ مَنْزِلُهُ
 قصائدًا لأخي ودِّ وإن نَزَحَتْ

كأنه فضةٌ شيتُ بعقبيانِ
 تعطلتُ نفحاتُ المسكِ والبانِ
 كالشكلِ قامَ عليه كلُّ برهانِ
 ما زادت الشمسُ نورَ الفجرِ للرائي
 تلكَ الركبُ وعجَلُ غيرَ ليانِ
 على كؤوسِ وطاساتِ وكيزانِ
 كأنما هو من دُرِّ ومرجانِ
 خططتُ بالمدحِ فيه كلَّ ديوانِ
 أو الغمامةُ تسقي كلَّ ظمآنِ
 فأنتَ فارسُ إفصاحِ وتبيانِ
 بالرفدِ ما شئتَ من مثنى ووحدانِ
 بكَ الركبُ إلى أقصى خراسانِ

[٣ - ترجمة عبد المعطي من المطمح]

وقال في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي^١ : بيت شعر ونباهة ، وأبو بكر ممن انتبه خاطره للبدائع أي انتباهة ، وله أدب باهر ، ونظم كما سقرت أزاهر ، وقد أثبت له جمالا^٢ ، يبلغ آمالا^٣ ، فمن ذلك قوله ، وقد اجتمعنا في ليلة لم يضرب لها وعد ، ولم يعزب عنها سعد ، وهو قعدي ، قد شب عن طوق الأتس في الندى ، وما قال خالي عمرو ولا عدي^٤ ، والكهولة قد قبضته ، وأقعدته عن ذلك وما أنهضته :

١ المطمح : ٩٦ .

٢ في الأصول والمطمح : وما قال خلا عمرو ولا عدا ؛ والإشارة هنا إلى المثل « شب عمرو عن الطوق » وهو عمرو بن عدي ، الذي ثار بلذيمة .

إمامُ النثرِ والمنظومِ فَتَنَحُّ جميعُ الناسِ ليلٌ وهو صبحُ
له قلمٌ جليلٌ لا يجارى يقرُّ بفضلِه سيفٌ ورمحُ
بياري المزنَ ما سحتَ سماحاً وإن شحتَ فليسَ لديه شحُّ

وكان مرتسماً في عسكر قرطبة ، وكان ابن سراج يقوم له بكل ما ينبغي تطلبه ، خيفة من لسانه ، ومحافضة على إحسانه ، ولما خرج إلى إقليش خرج معه ، وجعل يساير من شيعته ، فلما حصلوا بفحص سراق ، وهو موضع توديع المفارق للمفارق ، قرب منه أبو الحسين ابن سراج لوداعه ، وأنشده في تفرق الشمل وانصداعه :

هُمُ رحلوا عَنَّا لِأمرِهم عَنَّا فما أحدٌ منهم على أحدٍ حنَّا
وما رحلوا حتى استقادوا نفوسنا كأنهم كانوا أحنَّ بها منا
فيا ساكني نجدٍ لتبعدَ داركمُ ظننَّا بكمُ ظنًّا فأخلفتم الظننَّا
غدرتم ولم أغدرُ ، وخنتم ولم أحنُ وقلم ولم أعتبُ ، وجرتم وما جرنَّا
وأقسمتم أن لا تخونون في الهوى فقد ، وذمامِ الحبِّ ، خنتم وما خننَّا
تُرى تجمعُ الأيامُ بيني وبينكم ويجمعنا دهرٌ نعودُ كما كنَّا

فلما استتم إنشاده لحق بالسلطان واعتذر إليه بمرريض خلكه ، وهو يخاف تلفه ، فأذن له بالانصراف ، وكتب إلى أبي الحسين ابن سراج :

أما والهدايا ما رحلنا ولا حلنَّا وإن عنَّ من دون الرحلِ ما عَنَّا
تركنا ثوابَ الفضلِ والعزِّ للعزى^١ على مريضٍ منا وعدنَّا كما كنَّا
وليس لنا عنكم على البينِ سلوةٌ وإن كان أنتم عندكم سلوةٌ عَنَّا

وجمعنا عشية برَبَضِ الزجالي^٢ بقرطبة ، ومعنا لُمةٌ من الإخوان وهو في

١ كذا في م ق وفي المطبع : للمرى ؛ وفي التجارية : تركنا ثواب الغزو والقصد للمدا .

٢ م : الرحال .

جملتهم ، مناهض لأعيانهم وجليتهم ، بفضل أدبه ، وكثرة سُحبه ، فجعل يرتجل ويروي ، وينشر محاسن الآداب ويطوي ، ويمتدنا بتلك الأخبار ، ويقطعنا منها جانب اعتبار ، ويطلعنا على إقبال الأيام وعلى الإدبار ، ثم قال :

أيا ابنَ عبيد الله يا ابنَ الأكارِمِ لقد بَحَلتْ يَمناكَ صوبَ الغمامِ
لك القلمُ الأعلى الذي عطَّلَ القنا وقلَّ ظُباتِ المرهفاتِ الصوارِمِ
وأخلاقكَ الزُّهرُ الأزاهرُ بالرُّبى ترفُّ بشؤبوبِ الغيوثِ السواجمِ
بقيتَ لتشييدِ المكارِمِ والعلَى تظاهرها بالسالفِ المتقادمِ

واجتمع عند أبيه لُمةٌ من أهل الأدب ، وذوي المنازل والرتب ، في عشية غيم أعقب مطراً ، وخط فيها البرق أسطراً ، والبرْدُ يتساقط كدُرٍّ من نظام ، ويرأى كئنايا غادة ذات ابتسام ، وهو غلام ما نضا بُرد شبابه ، ولا انتضى مرهف آدابه ، فقال معرضاً بهم ، ومتعرضاً لتحقق أدبهم :

كأنَّ الهواءَ غدِيرٌ جَمَدٌ بحيثُ البروقُ تُذيبُ البردُ
خيوطٌ وقد عُقدت في الهواءِ وراحةٌ ريحٍ تحلُّ العُقدُ

وشرب في دار ابن الأعلم في يوم لم يرَ الدهر فيه إساءة ، وليل نَسَخ نورُ أنسه مَساءه ، ومعهم جملة من الشعراء ، وجماعة من الوزراء ، منهم أبناء القَبْطُرنة فوق بينهم عتاب وتَعْدال ، وامتهان في ميدان المشاجرة وابتدال ، آل به إلى تجريد السيف ، وتكدير ما صفا بذلك الخَيْف ، فسكنوه بالاستتزال ، وثنوه عن ذلك النزال .

[٤ - ترجمة ابن بقي من المطمح والقلائد]

وقال في المطمح في حق أبي بكر يحيى بن بقي القرطبي صاحب الموشحات البديعة : كان نبيل السيرة والنظام ، كثير الارتباط في سلوكه والانتظام ، أحرز خصالاً ، وطرز بمحاسنه بكَراً وأصلاً ، وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعاد

أمد ، وبنى من المعارف أثبت عمده ، إلا أن الأيام حرمته ، وقطعت جبل
 رعايته وصرمته ، فلم تم له وطراً ، ولم تُسجَم عليه الحظوة مطراً ، ولا
 سوغت من الحرمة نصيباً ، ولا أنزلته مرعى خصيباً ، فصار راكب سهوات ،
 وقاطع فلوات ، لا يستقر يوماً ، ولا يستحسن يوماً ، مع توهم لا يُظفره
 بأمان ، وتقلب ذهن كالزمان ، إلا أن يحيى بن علي بن القاسم نزعته من
 ذلك الطيش ، وأقطعته جانباً من العيش ، وأرقاه إلى سمائه ، وسقاه صيباً
 نعمائه ، وفيآه ظلاله ، وبوآه أثر النعمة يجوسُ خلاله ، فصرف به أقواله ،
 وشرّف بعواقبه فعاله ، وأفرده منها بأنفس دُرّ ، وقصده منها بقصائد غرّ ؛
 انتهى المقصود جليبه من ترجمته في المطمح .

وقال في حقه في الثلاثد : رافع راية القريض ، وصاحب آية التصريح فيه
 والتعريض ، أقام شرائعته ، وأظهر روائعته ، وصار عصيه طائعه ، إذا نظم
 زرى بنظم العقود ، وأتى بأحسن من رقم البرود ، وطقا عليه حرمانه ،
 فما صفا له زمانه ، انتهى .

وابن بقي المذكور هو القائل :

بأبي غزال غازلتته مُقلتي بين العذيب وبين شطبي بارق

الآبيات المذكورة في غير هذا الموضع .

ومن موشحاته قوله :

غلب الشوقُ بقلبي فاشتكى ألمَ الوجدِ فلبتُ أدمعي

أيها الناسُ فؤادي شغيفُ

وهو من بغي الهوى لا يُنصفُ

كمُ أداريه ودمعي يكيفُ

أيها الشادنُ من علمكما بهامِ اللحظِ قتلَ السبعِ

بدرُ نيمٍ نحت ليلٍ أغطشِ
طالعٌ في غصنٍ بانٍ متشي
أهيفُ القَدِّ بجَدِّ أرقشِ

ساحِرُ الطَّرْفِ وكَمُ ذَا فَتْكَا بِقُلُوبِ الأُسْدِ بَيْنَ الأَضْلَعِ

أَيُّ رِيْمٍ رَمْتُهُ فَاجْتَبَا
وَإِنِّي يَهْتَرُ مِنْ سَكْرِ الصَّبَا
كَفْضِيبِ هَزَّةُ رِيحِ الصَّبَا

قَلْتُ هَبْ لِي يَا حَبِيبِي وَصَلِّكََا وَاطْرَحْ أَسْبَابَ هَجْرِي وَدَعِ

قَالَ خَدَي زَهْرُهُ مُذْ فَوْقَا
جَرَدَتْ عَيْنَايَ سَيْفًا مُرْهَفَا
حَذْرًا مِنْهُ بَأْنَ لَا يُقْطَفَا

إِنَّ مَنْ رَامَ جَنَاهُ هَلَكَا فَأَزَلْ عَنكَ عُلَالَ الطَّمَعِ

ذَابَ قَلْبِي فِي هَوَى ظِي غَرِيرِ
وَجْهَهُ فِي الدَّجَنِ صَبِيحِ مُسْتَنِيرِ
وَقَوَادِي بَيْنَ كَفْيِهِ أُسِيرِ

لَمْ أَجِدْ لِلصَّبْرِ عَنْهُ مَسْلَكَا فَانْتَصَارِي بَانَسْكَابِ الأَدْمَعِ

وقال رحمه الله تعالى :

خُذْ حَلِيبَ الشُّوقِ عَنِ نَفْسِي وَعَنِ الدَّمْعِ الَّذِي هَمَعَا

مَا تَرَى شَوْقِي وَقَدْ وَقَدَا

وَهَمَى دَمْعِي وَاطْرَدَا
وَاجْتَدَى قَلْبِي عَلَيْكَ سُدَى

أَهٍ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ قَبَسٍ بَيْنَ طَرْفِي وَالْحِشَا جَمْعَا

بِأَبِي رَيْمٍ إِذَا سَقَمَا
أَطْلَعَتْ أَرْزَارُهُ قَمَرَا
فَاحْذَرُوهُ كَلَّمَا نَظَرَا

فَبِالْحَاظِ الْجَفُونِ قِيسِي أَنَا مِنْهَا بَعْضٌ مَنْ صُرِعَا

أَرْتَضِيهِ جَارٍ أَوْ عَدَلَا
قَدْ خَلَعْتُ الْعُدْرَةَ وَالْعَدَلَا
لِنَمَا شَوْقِي إِلَيْهِ جَلَا

كَمْ وَكَمْ أَشْكُو إِلَى اللَّعَسِ ظَمْتِي لَوْ أَنَّهُ نَقَعَا

صَالَ عَبْدُ اللَّهِ بِالْحَوْرِ
وَبَطَّرَفِ فَاتِرِ النَّظْرِ
حُكْمُهُ فِي أَنْفُسِ الْبَشْرِ

مِثْلُ حُكْمِ الصَّبْحِ فِي الْغَلَسِ إِنْ تَجَلَّى نُورُهُ صَدَعَا

شَبَّهْتَهُ بِالرَّشَا الْأَمَمِ
فَلَعَمْرِي لِيَنَّهُمْ ظَلَمُوا
فَتَغَنَّى مَنْ بِهِ السَّقَمُ

أَيْنَ ظِيُّ الْقَفْرِ وَالْكُنُسِ مِنْ غَزَالٍ فِي الْحِشَا رَتَعَا

انتهى .

وله أيضاً :

ما ردّني لابسٌ ثوبَ الضنى الدارسُ إلا قَمَرَ
في غُصْنِ مائِسٍ شعاعهُ عاكسٌ ضوء البصرِ
أسيرٌ كالسَيْلِ إليهِ لا باعٌ إلا ودادي
والطيفُ في خيلِ لهنَّ إسرَاعٌ مع الرقادِ
يا كوكبَ الليلِ إن كنتَ ترتاعُ فلم فؤادي
كالأسدِ العابسِ لكنهُ خائِسٌ من الحورِ

ومن نظمه قصيدة مدح يحيى بن علي بن القاسم المذكور بها ، منها في المديح قوله :

نورانٍ لَيْسَا يُحْجَبَانِ عَنِ الْوَرَى كَرَمُ الطَّبَاعِ وَلَا جَمَالُ الْمَنْظَرِ
وَكِلَاهُمَا جُمْعًا لِيَحْيَى فليَدْعُ كَتْمَانَ نَوْرٍ عِلَالِهِ الْمَشْهُرِ
فِي كُلِّ أَفْتَى مِنْ جَمَالِ ثَنَائِهِ عَرَفْتُ يَزِيدُ عَلَى دَخَانِ الْمَجْمِرِ
رِدُّ فِي شَمَائِلِهِ وَرِدُّ فِي جُودِهِ بَيْنَ الْحَدِيقَةِ وَالْغَمَامِ الْمَطْرِ
بِدْرٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَقَارِ سَكِينَةٌ فِيهَا لَقِيبَةٌ كُلُّ لَيْثٍ مَخْدِرِ
مِثْلُ الْحَسَامِ إِذَا انْطَوَى فِي غَمَدِهِ أَلْقَى الْمَهَابَةَ فِي نَفُوسِ الْخُضْرِ
أَرَبِي عَلَى الْمِزْنِ الْمِلْثُ لِأَنَّهُ أَعْطَى كَمَا أَعْطَى وَلَمْ يَسْتَعْبِرِ
ومنها :

أَقْبَلْتُ مَرْتَادًا لِحُودِكَ إِنَّهُ صَوَّبُ الْغَمَامَةِ بِلِ زُلَالِ الْكُوْثِرِ
وَرَأَيْتُ وَجَهَ النَّجْجِ عِنْدَكَ أَيْضًا فَرَكِبْتُ نَحْوَكَ كُلَّ لُجِّ الْخُضْرِ
وهي طويلة .

[استطراد]

وقوله « أَرَبِي عَلَى الْمِزْنِ الْمِلْثُ - البيت » هو معنى تلاعب الشعراء بكرته ،

وأورده كلٌ منهم على حسب مقلرته ، فقال بعض :

من قاسَ جَدَّوَالكَ بِالغَمَامِ فَمَا أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ
أَنْتَ إِذَا جُدَّتْ ضَاحِكٌ أَبْدَأُ وَهُوَ إِذَا جَادَ دَامِعُ الْعَيْنِ

وقال آخر :

مَا نَوَالُ الْغَمَامِ يَوْمَ ربيعِ كَنَوَالِ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءِ
فَنَوَالُ الْأَمِيرِ بَدْرَةَ عَيْنِ وَنَوَالُ الْغَمَامِ قَطْرَةَ مَاءِ

وهما من شواهد البلديع .

وقال أبو عبد الله الحوضي التلمساني في قصيدة مدح بها سلطان تلمسان أبا
عبد الله الرياني :

أَصْبَحَ الْمَرْنُ مِنْ عَطَائِكَ يَحْكِي يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِلْأَنَامِ عَطَاءِ
كَيْفَ يُدْعَى لَكَ الْغَمَامُ شَبِيهَاً وَلَقَدْ فُقِّتَهُ سَنَاءٌ وَسَنَاءِ
أَنْتَ تَعْطِي إِذَا تُقْصِرُ مَالاً وَهُوَ يَعْطِي إِذَا تَطَوَّلَ مَاءِ

رجع - وذكر العماد في الخريدة ابن بقيّ المذكور ، وأورد له جملة من
المقطعات ، ومحاسنه كثيرة رحمه الله تعالى ؛ وبقيّ على وزن عليّ .

رجع إلى بني عبّاد رحمهم الله تعالى :

وقال ابن اللبّانة في بني عبّاد ما نصه : بماذا أصفهم وأحليهم ، وأي منقبة
من الجلالة أوليهم ، فهم القوم الذين تجل مناقبهم عن العد والإحصاء ، ولا يتعرض
لها بالاستيفاء والاستقصاء ، ملوك زينت بهم الدنيا وتجلت ، وترقت حيث
شاءت وحلت ، إن ذكرت الحروب فعليهم يوقف منها الخبر اليقين ، أو عدت
المآثر فهم في ذلك في درجة السابقين ، أصبح الملك بهم مشرق القسام ، والأيام

ذات بهجة وابتسام ، حتى أناخ بهم الحِمام ، وعطلَّ من محاسنهم الوراء والأمام ،
فنقل إلى العدم وجودهم ، ولم يَرَع بأسهم وجودهم ، وكل ملك آدمي فمفقود ،
﴿ وَمَا نُؤَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ (مود : ١٠٤) ، فأول ناشئة ملكهم ،
ومحصل الأمر تحت ملكهم ، عظيمهم الأكبر ، وسابقة شرفهم الأجل الأشهر ،
وزينهم الذي يُعد في الفضائل بالوسطى والخنصر ، محمد بن عبيد ، ويكنى أبا
القاسم ، واسم والده إسماعيل ، ومن شعره قوله :

يا حَبْنَا الياسمينُ إذْ يزهرُ فوقَ غصونٍ رطبيةٍ نُضِرُّ^١
قد امتطى للجبالِ ذروتها فوقَ بساطٍ من سندسٍ أخضرُ
كأنهُ والعيونُ ترمقهُ زمردٌ في حلاله جوهراً

ولنذكر كلام ابن اللبانة وغيره في حقهم فنقول : وصف المعتضد رحمه
الله تعالى بما صورته^١ : المعتضد أبو عمرو عبيد الله رحمه الله تعالى ، لم تخل أيامه في
أعدائه من تقييد قدم ، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم ، حتى لقد
كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلا رؤوساً ، ولا تنبت إلا رئيساً ومرؤوساً ،
فكان نظره إليها أشهى مقترحاته ، وفي التلفت إليها استعمل جلُّ بكره وروحاته ،
فبكي وأرق ، وشتت وفرق ، ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغي أن
تصان عنه الأسماع ، ولا يُتعرض له بتصريح ولا إلماع ، ومن نظمه عفا الله عنه :

أنتك أمُّ الحسنِ تشلو بصوتِ حسنِ
تمدُّ في ألحانها من الغناء المسدني
تقودُ مني ساكناً كأنني في رسنِ
أوراقها أستارها إذا شدت في فتنِ

وقوله :

شربنا وجفنُ الليل يغسلُ كحلتهُ بماء صباحٍ ، والنسيمُ رقيقُ

١ الخيرة (٢ : ٩ - ١٠) .

معتمة كالتيبرِ أما نجارها فضخمٌ ، وأما جسمها فرقيقٌ
وقوله :

قد وجدنا الحبيبَ يصفى ودادهُ وحَمِدنا ضَمِيرَهُ واعتقادهُ
قَرَّبَ الحِبُّ من فؤادِ حَبِّ لا يرى هَجْرَهُ ولا إبعادهُ
وقال عند حصول رُنْدَةٍ في ملكه :

لقد حُصِّلْتُ يا رُنْدَةَ فصرتِ للمكنا عُدَّةُ
أفادتسناكِ أرماسُ وأسيافُ لها حِدَّةُ

وقال رحمه الله تعالى :

اشربْ على وجهِ الصباحِ وانظرِ إلى نورِ الأفاقِ
واعلمْ بأنكَ جاهلٌ ما لم تقلْ بالاصطباحِ
فالدَّهرُ شيءٌ باردٌ ما لم تُسَخِّنْهُ براحِ

٦٧٢ - [ابن جاح والمعتمد]

ومن حكايات المعتمد عبّاد ما ذكره غير واحد أن ابن جاح الشاعر ورد
على حضرته ، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء ، فسألوه ، فقال : إني شاعر ،
فقالوا : أنشدنا من شعرك ، فقال :

إني قصدتُ إليكَ يا عبّادي قصدَ القليقِ بالبحري للوادي

فضحكوا منه وازدروهُ ، فقال بعض عقلائهم : دعوه فإن هذا شاعر ،
وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويندرج في سلكهم ، فلم يبالوا بكلام الرجل ،
وتنادروا على المذكور ، فبقي معهم ، وكان لهم في تلك اللولة يوم مخصوص

لا يدخل فيه على الملك غيرهم ، وربما كان يوم الاثنين ، فقال بعض لبعض : هذه شئعة بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا ، ويجتريء على الدخول معنا ، فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان ، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم ، ويكون ذلك حسماً لعله إقدام مثله عليهم . فلما كان اليوم المذكور ، وقعد السلطان في مجلسه ، ونصب الكرسي لهم ، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم ، فأمر بذلك ، فصعد الكرسي ، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم ، فقال :

قَطَعْتَ يا يومَ النوى أكبادي	وَحَرَمْتَ عن عيني لذيذَ رُقادي
وتركتني أرعى النجومَ مسهداً	والنارُ تُضرمُ في صميمِ فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ أليّةً	لا يَنجلي إلاّ إلى ميعادِ
يا بَيْنَ بَيْنَ أينَ تَقْتادُ النوى	إيلُ الذينَ تَحَمَلوا بسُعادِ
ولربّ خرقَ قَدَ قَطَعْتَ نياطه	والليلُ يرفلُ في ثيابِ حدادِ
بشملةِ حَرَفٍ كأنّ ذَميلها	سُرْحُ الرياحِ وكلُّ برقِ غادي
والنجمُ يحدوها وقد ناديتها	يا ناقي عوجي على عبّادِ
ملكٌ إذا ما أضرمت نارُ الوغى	وتلاقتِ الأجنادُ بالأجنادِ
فترى الجسومَ بلا رؤوسٍ تنثي	وترى الرؤوسَ لَقَى بلا أجسادِ
يا أيها الملكُ المؤمّلُ والذي	قُدماً سما شرفاً على الأندادِ
إنّ القريصَ لكاسدٌ في أرضنا	وله هنا سوقٌ بغيرِ كسادِ
فجلبتُ من شعري إليك قوافياً	يفنى الزمانُ وذكرها متمادي
من شاعري لم يضطلع أديباً ولا	خطتُ يسداهُ صحيفَةَ بمدادِ

فقال له الملك : أنت ابن جاج ؟ فقال : نعم ، فقال : اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء ، وأحسن إليه ، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده . انتهى .

رجع إلى أخبار بقية بني عبّاد :

المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد أبي عمرو عبّاد ابن القاضي أبي القاسم ابن عبّاد رحمه الله تعالى ، ملك مجيد ، وأديب على الحقيقة مُجيد ، وهُمام تحلّى به للملك لبّة وللنظم جيد ، أفنى الطغاة بسيفه وأباد ، وأنسى بسية ذكر الحارث بن عبّاد ، فأطلع أيامه في الزمان حُجولاً وغُرراً ، ونظم معاليه في أجيادها جواهر ودرراً ، وشيد في كل معلوّة فِناه ، وعمر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستظرفة أوقاته وآناه ، فنَفَقَتْ به للمحامد سوق ، وبَسَقَتْ ثمرات إحسانه أيّ بسوق ، منَع وقري ، وراش وبّري ، ووصل وقري ، وكان له من أبنائه عدة أعمار نظمهم نظم السلك ، وزين بهم سماء ذلك الملك ، فكانوا معاقل بلاده ، وحُماة طارفه وتلاده ، إلى أن استدار الزمان كهيبته ، وأخذ البؤسُ في فيئته ، واعتز الخلاف وظهر ، وسلّ الشنات سيفه وشهر ، والمعتمد رحمه الله تعالى يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات ، بين تلك الثبات ، والمقام ، في ذلك المقام ، إلى أن بدل القطب بالواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، فاستعضد بابن تاشفين فورد عليه خطابه يشعر بالوفاء ، فتاب إليه فكر خاطره وفاء ، وثبت خلال تلك المدة للنزال ، ودعا من رام حربَهُ نزال ، إلى أن أصبح والحروب قد نهبت ، والأيام تسرّج منه ما وهبته ، فثل ذلك العرش ، واعتدت الليالي حين أمنت من الأرش ، فنقل من صهوات الخيول إلى بطون الأجناف ، وهذه الدنيا جميعُ ما لديها زائل وكل من عليها فان ، فما أغنت تلك المملكة وما دفعت ، وليتها ما ضرت إذ لم تكن نفعت ، وكلُّ يلقي معجّلَهُ وموَجّلَهُ ، ويبلغ الكتابُ أجله .

وقال الفقيه القاضي أبو بكر ابن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بني عبّاد : وقد ذكر الناسُ للمعتمد من أوصافه ، ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه ، وأنا الآن أذكر نبذاً من أخباره . وأردفها بما وقفت عليه من منظومات

أشعاره ، فإنه رحمه الله تعالى جَمَّ الأدب راقمه ، عالي النظم فاتمه ، كان يسمى بمحمد ، ويكنى بأبي القاسم . على كنية جده القاضي . استبد بالأمر عند موت أبيه المعتضد . وفي ذلك يقول الحصري رحمه الله تعالى :

ماتَ عَبَادٌ وَلَكِنْ بقيَ الفِرْعُ الكَرِيمُ
فَكَأَنَّ المِيتَ حَيٌّ غيرَ أن الضاد ميمُ

قال ابن اللبّانة رحمه الله تعالى : ولم يزل المعتمد بخير إلى أن كانت سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، ووصل اليهودي ابن شاليب لقبض الجزية المعلومة مع قوم من رؤساء النصارى ، وحلّوا بباب من أبواب إشبيلية ، فوجّه لهم المعتمد المال ، مع جماعة من وجوه دولته ، فقال اليهودي : والله لا أخذت هذا العيار ، ولا آخذه منه إلاّ مشجراً ، وبعد هذا العام لا آخذ منه إلاّ أجفان البلاد ، ردوه إليه . فرُدّ المال إلى المعتمد ، وأعلم بالقصة ، فدعا بالهند ، وقال : اتنوني باليهودي وأصحابه ، واقطعوا حبال الحياء ، ففعلوا وجاؤوا بهم ، فقال : اسجنوا النصارى ، واصلبوا اليهودي الملعون ، فقال اليهودي : لا تفعل ، وأنا أفتدي منك بزيتي مالاً ، فقال : والله لو أعطيتني العنوة والأندلس ما قبلتهما منك ، فصُلب ، فبلغ الخبر النصراني ، فكتب فيهم ، فوجّه إليه بهم ، فأقسم النصراني أن يأتي من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل إلى بحر الزقاق ، وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين إذ ذاك محاصر سبتة ، فجاز المعتمد إليه ، ووعدته بنصرته ، فرجع وحث ملوك الأندلس على الجهاد ، ثم وصل ابن تاشفين ، فكانت غزوة الزلاقة المشهورة . ورجع ابن تاشفين إلى المغرب . ثم جاز بعد ذلك إلى الأندلس ، وتوهم ابن عبّاد أنه إذا أخذ البلاد يأخذ أموالها ويترك الأجفان . فعزم ابن تاشفين على أن يخلع ملوك الأندلس ، ودارت إذ ذاك مكابدة جمّة ، ثم وجّه ابن تاشفين من سبتة إلى المعتمد يطلب منه الجزيرة الخضراء وفيها ابنه يزيد ، فكتب إليه معتذراً عنها ، فلم يكن إلاّ كلمح البصر وإذا بمائة شرّاع قد أطلت على الجزيرة ،

فطير ابنه الحمام إليه ، فأمره بإخلائها ، فظهر عند ذلك ابن تاشفين ، وقيل :
لأنه لم يجز المرة الأولى حتى طلب من المعتمد الجزيرة لتكون عدة له ، وكان ذلك
بلديسة بعض أهل الأندلس نصحاً لابن تاشفين . ثم شرع ابن تاشفين في خلع
ملوك الأندلس وقتالهم ، وأرسل إلى كل مملكة جماعة من أهل دولته وأجناده
يحصرونها ، وأرسل إلى حضرة المعتمد لإشيلية ، وشرع في قتالها ، والناس قد
ملوا الدولة العبادية وشموها ، على ما جرت به العادة من حب الحديد ، لا سيما
وقد ظهر من ابن عباد من التهلك في الشرب والملاهي ما لا يخفى أمره ، فتمنى
أكثر الناس الراحة من دولتهم ، ولما اشتدّ مُخَنَّق المعتمد وجهه عن النصارى ،
فأعدّ لهم ابن تاشفين من لقيهم في الطريق ، فهزمهم ، وجهاز ابن تاشفين القطائع
لإشيلية ، وجدّ في حصارها ، والمعتمد مع ذلك منغمس في لذاته ، وقد ألقى
الأمر بيد ابنه الرشيد ، فلم يشعر ابن عباد إلاّ والعسكر معه في البلد ، فأفاق
من نومه ، وصحا من سكره ، وركب فرسه وحسامه في يده ، وليس عليه إلاّ
ثوب واحد ، فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج ، ووافى هنالك طبالاً
فضربه بسيفه ضربة قسمه بها نصفين ، ففر الناس أمامه ، وتراموا من السور ،
ووقف حتى بان الباب ، وفي ذلك يقول الأبيات المذكورة فيما يأتي :

إن يسلب القوم العدا . . . إلخ .

فلما وصل إلى باب الصباغين وجد ابنه مالكا مقتولاً ، فاسترحم له ، ودخل القصر ،
وزاد الأمر بعد ذلك ، ودُخِلَ البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولبن معه ،
فأمّن وجميع من له ، وأعدّت له مراكب ، واجتاز إلى طنجة ، فلقبه الحصري
الشاعر ، وكان قد ألّف له كتاب « المستحسن من الأشعار » فلم يُقْضَ بوصوله
إليه إلاّ وهو على تلك الحالة ، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصري : ارفع
ذلك البساط فخذ ما تحته ، فوالله ما أملك غيره ، فوجد تحته جملة مال ، فأخذه ،
ثم انتقل حتى وصل أعماط ، ولم يزل بها إلى أن مات ، رحمه الله تعالى .

وقال الفتح في ترجمته ما نصه^١ : ملك قَمَعَ العدا ، وجمع البأس والندى ،
 وطلع على الدنيا بدرَ هُدَى ، لم يتعطل يوماً كفته ولا بنانه ، آونةً يراعه وآونة
 سِنَانُهُ ، وكانت أيامه مواسم ، وثغوره بواسم^٢ ، ولياليه كلها درراً ، وللزمان
 حُجُولاً وِغُرُراً ، لم يغفلها من سِمَات عوارف ، ولم يُضحها من ظل إيناس
 وارف ، ولا عطلها من مآثرة بقي أثرها بادياً ، ولقي معتقبه منها إلى الفضل
 هادياً ، وكانت حضرته مطمحاً للهمم ، ومسرحةً لآمال الأمم ، ومقنفاً لكل
 كميٍّ ، وموقفاً لكل ذي أنفٍ حَمِيٍّ ، لم تخلُ من وَفَدٍ ، ولم يصحُّ جوها من
 انسجام رِفْدٍ ، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكُماة ، ومشاهير الحُماة ، أعداد
 يَغْصُ بهم الفضاء ، وأنجاد يُزْهِمِي بهم النفوذ والمضاء ، وطلع في سمائه كل نجم
 مُتَقَدِّمٌ ، وكل ذي فهم مُتَقَدِّمٌ ، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان ، ومضماراً
 لإحراز الحاصل ، في كل معنى وفصل ، فلم يلتحق بزمامه إلا كل بطل نجد ، ولم
 ينسق في نظامه إلا ذكاء ومجد ، فأصبح عصره أجمل عصر ، وغدا مصره أكمل
 مصر ، تُسْفَح فيه دِيمُ الكرم ، ويُفْصَح فيه لسانا سيفٍ وقلم ، ويفضح الرضى
 في وصفه أيام ذي سَلَمٍ ، وكان قومه وبنوه لتلك الحلبنة زيناً . ولتلك الحملة
 عيناً ، إن ركبوا خِلَتِ الأرض فلكاً يحمل نجوماً ، وإن وهبوا رأيت الغمام
 سجوماً ، وإن أقدموا أحجم عترة العبسي ، وإن فخرُوا أفحم عرابة الأوسي .
 ثم انحرفت الأيام فألوت بإشراقه ، وأذوت يانع لإيراقه ، فلم يدفع الرمحُ ولا
 الحسام ، ولم تنفع تلك المذن الحسام ، فتملك بعد الملك ، وحُطَّ من فلكه إلى
 الفُلُك ، فأصبح خائضاً تحمده الرياح ، وناهضاً يزجيه البكاء والصياح ، قد
 ضجعت عليه أياديه ، وارتجت جوانبُ ناديه ، وأضحت منازلُه قد بان عنها الأنس
 والحُبور ، وألوت بيهجتها الصبَا والدَّبُور . فبكت العيون عليه دماً ، وعاد

١ القلائد : ٤ وما بعدها .

٢ م والمطوح : وثغور به بواسم .

موجود الحياة عدماً ، وصار أحرار الدهر فيه خَدَمًا ، فسحقاً لدنيا ما رعت حقوقه ، ولا أبقت شروقه ، فكُم أحياءا لبنينها ، وأبداها راتقةً لمجتنينها ، وهي الأيام لا يتقى من تجنينها^١ ، ولا تبقي على مواليتها ومُلدانيتها ، أدثرت آثار جلق ، وأخمدت نار الملحق ، وذلت عزة ابن شداد ، وهدت القصر ذا الشرفات من سِنْدَاد ، ونعمت ببؤس النعمان ، وأكمنت غدرها له في طلب الأمان ، انتهى .

ثم ذكر الفتح من أخباره وأشعاره ومجالس أنسه وغير ذلك من أمره نبذاً ذكرنا بعضها في هذا الكتاب .

٦٧٣ - [الراضي ابن المعتمد]

وقال في ترجمة ابنه الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد ما نصه^٢ : ملك تفرع من دَوْحَة سَنَاء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وتحدّر من سُلالة أكابر ، ورُقاة أسيرةً ومنابر ، وتصرف أثناء شببته بين دراسة معارف وإفاضة عوارف ، وكلف بالعلم حتى صار مَلْهَجَ لسانه ، وروضة أجفانه ، لا يستريح منه إلاّ إلى متن سائل الغرّة ، ميمون الأسرة ، يسابق به الرياح ، ويحاسن بغرته البدرَ اللياح ، عريق في السناء ، عتيق الاقتناء ، سريع الوخد والإرقال ، من آل أعوج أو لذي العقال^٣ ، إلى أن ولاه أبوه الجزيرة الخضراء ، وضم إليها رُنْدَة الغراء ، فانتقل من متن الجواد ، إلى ذروة الأعواد ، وأقلع عن الدراسة ، إلى تديرير الرياسة ، وما زال يدبّرها بجوده ونُهاه ، ويورد الآمل فيها مُناه ، حتى غدت عِراقاً ، وامتألت إشراقاً ، إلى أن اتفق في أمر الجزيرة ما اتفق ، وخاب

١ وهي . . . تجنينها : سقطت من م .

٢ القلائد : ٣١ .

٣ القلائد : أو ولد العقال ؛ والإشارة إلى قول الشاعر :

ورى الجياد يبتن حول خبائنا من آل أعوج أو لذي العقال

وأعوج والعقال : صعلان من فحول الجياد .

فيها الرجاء وأخفق ، واستحالت بهجتها ، وأحالت عليها من الحال بلجتها^١ ، فانتقل إلى رُنْدَة معقل أشيب ، ومنزل للسّمَاك منتسب ، وأقام فيها رهينَ حصار ، ومهين حماة وأنصار ، ولقيت ربحه كل إعصار ، حتى رمته سهام الخطوب عن قسيّتها ، وأمكنت منه يدي مُسيّتها ، فحواه رَمْسُهُ ، وطواه عن غده أمسه ، حسبما بسطنا القول فيه ، فيما مر من أخبار أبيه ، انتهى .

والذي أشار إليه هنا وأحال عليه فيما تقدم له من أخبار المعتمد هو قوله بعد حكايته قتل المأمون بن المعتمد بقرطبة وسياقة أخبار ذلك ما نصه^٢ : ثم انتقلوا إلى رُنْدَة أحد معاقل الأندلس الممتعة ، وقواعدها السامية المرتفعة ، تطرد منها على بُعد مُرتقاها ، ودنوّ النجوم من ذراها ، عيون لانصبابها دويٌّ كالرعد القاصف ، والرياح العواصف ، ثم تتكوّن وادياً يلتوي بجوانبها التواء الشجاع ، ويزيدها في التورع والامتناع ، وقد نجوت نواحيها وأقطارها ، وتكوّنت فيها لُباناتها وأوطارها ، لا يتعذر لها مطلب ، ولا يتصور فيها عدو إلاّ عكّقه ناب أو مخلب ، فلما أناخوا منها على بُعد ، وأقاموا من الرجاء فيها على غير وعد ، وفيها ابنه الراضي لم يحفل بإناختهم بإزائه ، ولا عدّها من أرزائه ، لامتناعه من منازلهم ، وارتفاعه عن مطاولتهم ، إلى أن انقضى في أمر لإشبيلية ما انقضى ، وأفضى أمر أبيه إلى ما أفضى ، فحمل على مخاطبته ليتزل عن صياصيه ، ويمكّنهم من نواصيه ، فترل برآً بأبيه ، وإبقاء على أرماق ذويه ، بعد أن عاقدهم مستوثقاً ، وأخذ عليهم عهداً من الله وموثقاً ، فلما وصل إليهم ، وحصل في يديهم ، مالوا به عن الحصن وجرعوه الردى ، وأقطعوه الثرى حين أودى ، وفي ذلك يقول المعتمد يرثيها ، وقد رأى قمرية بائحة بشجنها ، نائحة بفسنها على سكنها ، وأمامها وكّر فيه طائران يرددان نغماً ، ويغردان ترحةً وترنماً :

١ القلائد : وبالت عليها من الحوادث بلجتها .

٢ القلائد : ٢٠ .

بكت أن رأت إلفين ضمتهما وكثر
 وناحت فباحت واستراحت بسرهما
 فما لي لا أبكي أم القلب صخرة
 بكت واحداً لم يشجها غير فقده
 بئي صغير أو خليل موافق
 ونجمان زين للزمان احتواهما
 غدرت إذن إن ضن جفني بقطرة
 فقل للنجوم الزهر تبيهما معي
 مساءً وقد أخنى على إلفها الدهر
 وما نطقت حرفاً ييوع به سر
 وكم صخرة في الأرض يجري بها نهر
 وأبكي لآلاف عديدهم كثر
 يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحر
 بقرطبة التكداء^١ أو رندة القبر
 وإن لومت نفسي فصاحبها الصبر
 لملهما فلتحزن الأنجم الزهر

وقال في ترجمة الراضي ما صورته^٢ : وكان المعتمد رحمه الله تعالى كثيراً ما يرميه بلامه ، ويصميه بسهامه ، فربما استلطفه بمقال أفصح من دمع المحزون ، وأملح من روض الحزون ، فإنه كان ينظم من بديع القول لآلء وعقوداً ، تسئل من النفوس سخائم وحقوداً ، وقد أثبت من كلامه في بث آلامه ، واستجارة عذله وملامه ، ما تستبدعه ، وتحمله النفوس^٣ وتودعه ، فمن ذلك ما قاله وقد أنهض جماعة من إخوته وأقعدة ، وأذناهم وأبعده :

أعيذك أن يكون بنا خمول^٤ ويطلع غيرنا ولنسا أفول
 حنانك إن يكن جرمي قبيحاً فإن الصفح عن جرمي جميل
 ألسن بفرعك الزاكي وماذا يرجي الفرع خائنه الأصول

ثم قال الفتح بعد كلام^٤ : ومرت عليه - يعني الراضي - هوادج وقباب ، فيها حباب كن له وأحباب ، ألفهن أيام خلاته من دولة ، وجال معهن في

١ م : التكرام .

٢ القلائد : ٣٢ .

٣ م : النفس .

٤ القلائد : ٣٣ .

ميدان المنى أعظم جولة ، ثم انتزعوا منه بيئته ، وأودعوا الموارج من بعده ،
ووجهوا هدايا إلى العدو ، وألوا بها إلام قريش بدار الندوة ، فقال :

مروا بنا أصلاً من غير ميعاد فأوقدوا نار شوقي أي إيقاد
وأذكروني أياماً هوت بهم فيها ففازوا بيثاري وإحمادي
لا غرو أن زادي وجدي مرورهم فرؤية الماء تذكى غلّة الصادي

ولما وصل المعتمد^١ لورقة أعلم أن العدو قد جيش لها واحتشد ، ونهد نحوها
وقصد ، ليتركها خاوية على عروشها ، طاوية الجوانح على وحوشها ، فتعرض
له المعتمد دون بغيته ، وطلع عليه من ثنيته ، وأمر الراضي بالخروج إليه في عسكر
جرده لمحاربه ، وأعدده لمصادمته ومضاربه ، فأظهر التمارض والتشكي ،
وأضمر التواعس والتلكي ، فراراً من المصادمة ، وإحجاماً عن المساومة ،
وجزاً من منازلة الأقران ، ومقابلة ذوايل المران ، ومقاساة الطعان ، وملاقة
أبطال كالرعان ، ورأى أن المطالعة ، أرجح من المقارعة ، ومعاناة العلوم ، أريح
من مداواة الكلوم ، فقد كان عاكفاً على تلاوة ديوان ، عارفاً بإجادة صدر
وعنوان ، فعلم المعتمد ما نواه ، وتحقق ما لواه ، فأعرض عنه ، ونفض يده منه ،
ووجه المعتمد^٢ مع ذلك الجيش الذي لم تنشر بنوده ، ولا نصرت جنوده ، فعندما
لاقوا العدو لاذوا بالفرار ، وعاذوا بإعطاء الغرة بدلاً من الفرار ، وتفرقوا في
تلك الأماريت^٣ ، وفرقوا من تخطف أولئك الغفاريات ، فتحيّف العدو من بقي
مع المعتد واهتمضمه ، وخضم ما في العسكر وقصمه ، وغدت مضاربه بجر عواليه ،
ومجرى مذاكيه ، وآب أخسر من بائع السدانة^٤ ، ومضيع الأمانة ، فانطبقت
سما المعتمد على أرضه ، وشغلته عن إقامة نوافله وقرضه ، فكتب إليه الراضي :

١ ق م : العدو .

٢ ق م : وتوجه المعتد .

٣ الاماريت : الأراضي المنبسطة ؛ وفي ق م : الأفاريت .

٤ يعني أبا عيشان الذي باع سدانة الكعبة لقصي ، قيل : بزق خسر .

لا يكرثتكَ خطبُ الحادثِ الجاري
 ماذا على ضيغَمٍ أمضى عزيمتهُ
 لئن أتوكَ فمن جبنٍ ومن خورٍ
 عليكَ للناسِ أن تَبقى لنصرتهم
 لو يَعلمُ الناسُ فيما أن تلومَ لهمُ
 ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهمُ
 فما عليكَ بذاك الخطبِ من عاري
 إنْ خانهُ حدُّ أنيابٍ وأظفارٍ
 قد ينهضُ العيرُ نحو الضيغمِ الضاري
 وما عليكَ لهمُ إسعادُ أقدارٍ
 بكَواً لأنكَ من ثوبِ الصبا عاري
 لم يُتَحِفوكَ بشيءٍ غيرِ أعمارٍ

فحجب عنه وجهه رضاه ، ولم يستتر له^٢ بذلك ولا استرضاه ، وتمادى على
 إعراضه ، وقعد عن إظهاره وإنهاضه ، حتى بسطته سوانح السلو ، وعطفته عليه
 جوانح^٣ الخنو ، فكتب إليه بهزل ، غلب فيه كل مترع جزل ، وهو :

الملكُ في طيِّ الدفاترُ
 طفُ بالسريبرِ مُسلماً
 وازحفْ إلى جيشِ المعاءِ
 واطعنْ بأطرافِ اليراءِ
 واضربْ بسكينِ اللوا
 أولستَ رسطاليسَ إنْ
 وأبو حنيفةَ ساقطُ
 وكذلكَ إنْ ذُكرَ الخليةِ
 منْ هُرمسُ منْ سيويدِ
 هذي المكارمُ قد حوِّدِ
 واقعدُ فإنكَ طاعمُ
 فتخلَّ عن قودِ العساكرِ
 وارجعْ لتوديعِ المنايرِ
 رفِ قهبرِ الحبرِ المقامرِ
 عِ نُصرتَ في ثغرِ المحابرِ
 ة مكانَ ماضي الحدِّ باترِ
 ذُكِرَ الفلاسفةُ الأكابرِ
 في الرأي حين تكونُ حاضرِ
 لُ فأنتَ نحوِيٌّ وشاعرُ
 ٤ منْ ابنِ فُوركِ إذ تناظرُ
 تَ فكنْ لمن حاباكِ شاكِرُ
 كاسٍ وقل: هل من مُفاخرُ

١ هذا البيت سقط من ق م .

٢ القلائد : ولم يستمله .

٣ ق م : جوانب ، وأثبتنا رواية القلائد .

لحجبتُ وجهَ رضائيَ عندَ
أولستَ تذكرُ وقتَ لُو
لا يَسْتَقِيرُ مكانَهُ
وأبوكَ كالضُرغامِ خادِرُ
هَلَّا اقتديتَ بفعله
وأطعتهُ إذ ذاكَ أمرُ
قدَ كانَ أبصرَ بالعوا
قبِ والمواردِ والمصادرُ

فكتب إليه الراضي مراجعاً بقطعة منها :

مولايَ قد أصبحتُ كافرُ
وقللتُ سكينَ الدوا
وعلمتُ أنَ الملكَ ما
بينَ الأسنةِ والبواتِرُ
والمجدُ والعلياءُ في
لا ضربِ أقوالِ بأقْد
قد كنتُ أحسبُ مِن سفا
فإذا بها قرعُ لها
لا يدركُ الشرفَ الفتي
وهجرتُ من سميتهمُ
لو كنتَ تهوى مِنِّي
فصحكُ الموالي بالعيي
إنَ كانَ لي فضلُ فمن
أو كانَ بي نقصُ فمن
ذكرتَ عبدكَ ساعةً
يا لَيْتَهُ قد غيبتُ
أتريدُ مِنِّي أنَ أكو
هيهاتَ ذلكَ مَطْمَعُ

بجميع ما تحوي الدفاترُ
ة وظللتُ للأقلامِ كاسرُ
بينَ الأسنةِ والبواتِرُ
ضربِ العساكرِ بالعساكرُ
وال ضعيفاتِ متاكرُ
ه أنها أصلُ المفاخرِ
والجهلُ للإنسانِ عاذرُ
إلا بعسالِ وبساتِرُ
وجحدتُ أنهمُ أكابرُ
لوجدتني للعيشِ هاجرُ
د إذا تؤملَ غيرُ ضائرُ
ك وهلَ لذلكَ النورِ ساترُ
ني غيرَ أنَ الفضلَ غامرُ
يبقى لها ما عاشَ ذاكرُ
عندهما إحدى المقابرُ
ن كمن غدا في الدهرِ نادرُ
يُعيني الأوائِل والأواخرُ

لا تنسَ يا مَوْلَايَ قَوْلَ ضَارِعٍ لَا قَوْلَ فَاحِرٍ
 ضَبَطَ الْجَزِيرَةَ عِنْدَمَا نَزَلَتْ بِعَقْوَتِهَا الْعَاكِرُ
 أَيَّامَ ظَلَّتْ بِهَا قَرِيءٌ لِمَا لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ نَاصِرُ
 إِذْ كَانَ يُعْشِي نَاطِرِي لَمَعُ الْأَسِنَّةِ وَالْبَوَاتِرُ
 وَيُصِمُّ أَسْمَاعِي بِهَا قَرَعُ الْحِجَارَةِ بِالْحَوَافِرُ
 وَهِيَ الْحَضِيضُ سُهولةً لَكِنْ ثَبْتُ بِهَا مَخَاطِرُ
 هَبْنِي أَسَاتُ كَمَا أَسَاتُ أَمَا لِهَذَا الْعَتَبِ آخِرُ
 هَبْ زَلَّتِي لِبُنُوْتِي وَاعْفُرْ فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرُ

فقربه وأدناه ، وصفح عمّا كان جناه ، ولم تزل الحال آخذة في البوار ،
 والأمور معتلة اعتلال حبّ الفرزدق للنّوار ، حتى مضوا لغير طيبة ، وقضوا
 بين الصوامم والرماح الخطيئة ، حسبما سردناه ، وعلى ما أوردناه ، وإذا أراد
 الله سبحانه إنفاذ أمر سبق في علمه ، فلا مرد له ولا معقّب لحكمه ، ولا إله إلاّ
 هو رب العالمين ؛ انتهى كلام الفتح .

وعلى الجملة فكانت دولة بني عبّاد بالأندلس من أهبج الدول في الكرم
 والفضل والأدب ، حتى قال ابن اللبّانة رحمه الله تعالى : إن الدولة العبّادية
 بالأندلس أشبهتُ شيء بالدولة العبّاسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل ،
 ولذلك ألّف فيها كتاباً مستقلاً سماه «الاعتماد في أخبار بني عبّاد» ، ولا يلتفت
 لكلب عقور نبح بقوله :

ممّا يزهدني في أرضِ أندلسِ أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمدٍ
 ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كاهراً يحكي انتفاخاً صورة الأسدِ

لأن هذه مقالة متعسف كافر للنعم ، ومثل ذلك في حقهم لا يقدر ، وما زالت
 الأشراف تُهْجَى وتُملح .

وللمعتمد أولاد ملوك منهم المأمون والرشيد والراضي والمعتمد وغيرهم ، وقد
سررنا خبر بعضهم .

٦٧٤ — [مدائح ابن البانة في بني عماد]

وكان الداني المذكور مائلاً إلى بني عماد بطبعه ، إذ كان المعتمد هو الذي
جذب بضبعه ، وله فيه المدائح الأنيقة ، التي هي أذكى من زهر الخديقة ،
فمن ذلك قوله من قصيدة يمدحه بها ويذكر أولاده الأربعة ، الذين عمروا من
المجد أربعه ، وهم الرشيد عميد الله والراضي يزيد والمأمون والمؤمن ، وكانوا
نجوم ذلك الأفق وغيوث ذلك الزمن ، ولقد أجاد في ذلك كل الإجادة ، وأطال
لمجدهم نجاهه :

يغنيك في محل ، يعينك في ردى يروعك في درع ، يروك في برد
جمال وإجمال وسبق وصوله كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد
بمهجته شاد العلا ثم زادهما بناء بأبناء جحاجة لُد
بأربعة مثل الطباع تركبوا لتعديل ذكر المجد والشرف العِد

والمأمون بن المعتمد قتله متونة بقرطبة ، والراضي يزيد قتلوه برنثة كما
سقنا خبره آنفاً ، وفي حالتهم هذه يقول الشاعر المشهور عبد الجبار بن حمديس
الصقلي :

ولما رحلت بالندى في أكفكم وقلقل رضى منكم وثبير
رفعت لسانى بالقيامه قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير

وفي قصة المعتمد يقول الداني المذكور :

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى في منايهن غايات

والدهرُ في صِفةِ الحرِّباءِ منغمسٌ
ونحن من لُعبِ الشطرنجِ في يده
انقض يدك من الدنيا وزينتها
وقل لعالمها الأرضي قد كتمتُ
وهي طويلة ذكرها الفتح وغيره .

واللداني أيضاً قصيدة عملها في المعتمد وهو بأغامت سنة ٤٨٦^١ :

تنشقُ بريحانِ السلامِ فإنما
وقل لي مجازاً إن عدمت حقيقةً
أفكرُ في عصرٍ مضى بك مشرقاً
وأعجبُ من أفقِ المجرةِ إذ رأى
لئن عظمتُ فيك الرزيةُ إننا
قناة سعتُ للطعن حتى تقسمتُ
أفضّ به مسكاً عليك مختماً
لعلك في نعمي فقد كنت منعماً
فيرجعُ ضوء الصبحِ عندي مظلماً
كسوفك شمساً كيف أطلع أنجماً
وجدناك منها في الرزية أعظماً
وسيفُ أطال الضربَ حتى تثلماً

ومنها :

بكي آلَ عبادِ^٢ ولا كمحمد
حيبٌ إلى قلبي حيبٌ لقوله
صباحهمُ كناً به نحمدُ السرى
وكتار عيننا العزَّ حول حِمَاهُمُ
وقد ألبستُ أيدي الليالي قلوبهم
قصورُ نلتُ من ساكنيها فما بها
وأولاده صوبُ الغمامةِ إذ همي
عمى طللٌ يدنو بهم ولعلماً
فلما عدمناهم سرينا على عمي
فقد أجذب المرعى وقد أفر الحمى
مناسجَ سدَى الغيثُ فيها وألحماً
سوى الأدم تمشي حول واقفة الدثمي

١ سنة ٤٨٦ : سقطت من م .

٢ ق م : محمود .

تجيبُ بها الهامَ الصّدي ولطالما
 كأن لم يكن فيها أنيس ، ولا التقى
 أجابَ القيانُ الطائرَ المترنماً
 بها الوفدُ جمعاً والخميسُ عرمرما
 ومنها :

حكيتَ وقد فارقتَ ملكك مالكا
 مصابٌ هوى بالنيراتِ من العلا
 ولم يُبقِ في أرضِ المكارمِ معلما
 تضيّقُ عليّ الأرضُ حتى كأنما
 خلقتُ وإياها سواراً ومعصما
 ندبتك حتى لم يخلّ ليّ الأسي
 وإني على رسمي مقيمٌ فإن أمتُ
 سألُ للباكينِ رسميَ موسما
 بكالك الحيا والريحُ شقتُ جيوبها
 عليكَ وناحَ الرعدُ باسمك معلما
 ومزق ثوب البرق واكتست الضحى
 حدادا وقامت أنجمُ الجوّ أفحما
 وحارابنك الإصباحُ وجداً فما اهتدى
 وغار أخوك البحرُ غيضاً فما طمى
 وما حلّ بذرُّ التمّ بعدك دارةً
 ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما
 قضى الله أن حطوك عن ظهرٍ أشقرٍ
 بشم وأن أمطوك أشامَ أدهما

وكان قد انفكت عنه القيود : فأشار إلى ذلك بقوله فيها :

قيودك ذابتُ فانطلقتَ لقد غدّت
 عجتُ لأنّ لآنَ الحديدُ وأنّ قسّوا
 قيودك منهم بالملكسارمِ أرحما
 لقد كان منهم بالسريرةِ أعلمنا
 سينجيك منّ نجى من السجن يوسفاً
 ويؤويك منّ آوى المسيح بن مرما

ولأبي بكر الداني المذكور في البكاء على أيامهم وانتثار نظامهم عدة
 مقطوعات وقصائد ، هي قرّة عين الطالب ونجعة الرائد ، وقد اشتمل عليها جزء
 لطيف ، صدر عنه في هيئة تصنيف ، سماه « السلوك في وعظ الملوك » . وروى
 على العتمة وهو بأغنام ، عِدّة وفادات ، لم يخل في جميعها من إفادات ، وقال
 في إحداهما : هذه وفادة وفاء لا وفادة اجتداء .

قال غير واحد : من النادر الغريب أنه نودي في جنازته « الصلاة على الغريب » بعد عظم سلطانه ، وسعة أوطانه . وكثرة صقالبته وحُبِّشانه ، وعظم أمره وشانه ، فتبارك من له العزة والبقاء والدوام ، واجتمع عند قبره جماعة من الأقباط ، الذين لهم في الأدب حصّة ، ولقضية المعتمد في صدورهم غُصّة ، منهم البالغ في البلاغة الأمد ، شاعره أبو بجر عبد الصمد ، وكان به خصيصاً ، وكم ألبسه من بره حلّة وقميصاً ، فقال من قصيدة طويلة أجاد فيها ما شا ، وجلب بها إلى أنفس الحاضرين بعد الأتس إيجاشا ، مطلعها :

مَلِكِ الملوِكِ أَسامِعٌ فَأُنادي أم قد عدتكَ عن السماعِ عَوادي

ومنها :

لما نخلتُ منك القصورُ ولم تكنُ فيها كما قد كنتَ في الأعيادِ
قبَلتُ من هذا الثرى لك خاضعاً وجعلت قبرك موضع الإنشادِ

فلما بلغ من إنشاده . إلى مراده ، قبّل الثرى ومرّغ جسمه وعفّر خده . فبكى كل من حضر وصرفه ذلك عن سرور العيد وصدّه ، إذ كانت هذه القصة يوم عيد ، فسبحان المبدىء المعيد .

ويحكى أن رجلاً رأى في منامه إثر الكائنة على المعتمد بن عباد كأن رجلاً صعد منبر جامع قرطبة فاستقبل الناس وأنشد هذه الأبيات متمثلاً :

ربّ ركبٍ قد أناخوا عيسَهُمُ في ذرى مجدهمُ حينَ بسَقِ
سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ثمّ أبكاهمُ دماً حينَ نَطَقِ

وعاش أبو بكر ابن اللبّانة المعروف بالداني المذكور آنفاً بعد المعتمد ، وقدم ميورقة آخر شعبان سنة ٤٨٩ . ومدح ملكها مبشر بن سليمان بقصيدة مطلعها :

ملكٌ يروعكَ في حلّ ريعانهِ راقبُ بروتقهِ صفاتُ زمانهِ

وأين هذا من أمداحه في المعتمد ؟

وتذكرت هنا من أحوال الداني أنه دخل على ابن عمار في مجلس ، فأراد أن يتندر به وقال له : اجلس يا داني ، بغير ألف ، فقال له : نعم يا ابن عمار ، بغير ميم ، وهذا هو الغاية في سرعة الجواب والأخذ بالتأثر في المزاح .
ونظيره - وإن كان من باب آخر - أن المعتمد مر مع وزيره ابن عمار ببعض أرجاء إشبيلية ، فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط ، فكشفت وجهها ، وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء ، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون به الجبس والخياريين الصانعين للجبير ، يا شيبيلية ، فالتفت المعتمد إلى موضع الخياريين ، وقال : يا ابن عمار الخياريين ، ففهم مراده ، وقال في الحال : يا مولاي والجباسين ، فلم يفهم الحاضرون المراد ، وتحيروا ، فسألوا ابن عمار ، فقال له المعتمد : لا تبعها منهم إلا غالية ، وتفسيرها أن ابن عباد صحف «الحيا زين» بقوله الخياريين إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت ، فقال له والجباسين وتصحيحه «والخناشين» أي : هي وإن كانت جميلة بديعة الحسن لكن الخناشأنا ، وهذا شأو لا يلحق .

ومن أخبار المعتمد أنه جلس يوماً والبزاة تُعرض عليه ، فاستحثَّ الشعراء في وصفها ، فصنع ابن وهبون بديعاً :

للصيدِ قبلكَ سنّةٌ ماثورةٌ لكنّها بكَ أبدعُ الأشياءِ
تمضي البزاة وكلّما أمضيتّها عاطيتها بنخايطِ الشعراءِ

فاستحسنهما ، وأسنى جائزته .

وذكر ابن بسّام أن أبا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد يوماً وقد حُمّل إليه حمول وافرة من قراريط الفضة ، فأمر له بكيسين منها ، وكان بين يديه تماثيل

عبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللاؤلء ، فقال له أبو العرب معرضاً :
 ما يحمل هذين الكيسين إلاّ جمل ، فتبسم المعتمد وأمر له به ، فقال أبو العرب
 بديهاً :

أهديتني أجملاً جونا شفتت به حملاً من الفضة البيضاء لو حملاً
 نتاج جودك في أعطان مكرمة لا قد تصرف من مننع ولا عقلاً
 فاعجب لشأني فشأني كله عجب رفهتي فحملت الحمل والجملاً

وذكر الحجاري هذه القصة فقال : قعد المعتمد في مجلس احتفال في تنصيده
 وإحضار الطرائف الملوكية ، وكان في الجملة تمثال جمل من بلور ، وله عينان
 من ياقوتتين ، وقد حُليّ بنفائس الدر ، فأنشده أبو العرب قصيدة ، فأمر له بلذهب
 كثير ممّا كان بيده من السكة الحديدية ، فقال معرضاً بذلك الجمل : ما يحمل
 هذه الصلة إلاّ جمل ! فقال : خذ هذا الجمل ، فإنه حمال أقال ، فارتجل
 شعراً منه :

رفهتي فحملت الحمل والجملاً

وذكر أن ذلك الجمل بيع بخمسائة مثقال ، فسارت بهذا الخبر الركائب ،
 وتهادته المشارق والمغارب .

وتباحث المعتمد مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم أنه أمير شعره :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

فقال : ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها إلاّ أن فيه نقداً خفيّاً ، ففكروا
 فيه ، فلما فكروا قالوا له : ما وقفنا على شيء ، فقال : الليل لا يطابق إلاّ بالنهار
 لأن الليل كلّي والصبح جزئي . فتعجب الحاضرون ، وأثنوا على تدقيق انتقاده .

١ م . أهديت لي ؛ وقد مرت الأبيات في ج ٣ : ٥٦٩ .

قال الصفدي : قلت : ليس هذا بتقد صحيح ، والصواب مع أبي الطيب .
لأنه قال « أزورهم وسواد الليل يشفع لي » فهذا محب يزور أحبابه في سواد الليل
خوفاً ممن يسي به . فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاة . ودل عليه أهل النيمة ،
والصبح أول ما يغري به قبل النهار ، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلاً . وينصرف
عند انفجار الصبح خوفاً من الرقباء . ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث إلى أن
يتوضح النهار . ويمتلئ الأفق نوراً . فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار ،
والله أعلم ، انتهى .

قلت : كان يخلج في صدري ضعف ما قال الصفدي ، حتى وقفت على
ما كتبه البلر البشتكي . ومن خطه نقلت ما صورته : هو ما انتقد عليه المعنى .
إنما انتقد عليه مطابقة الليل بالصبح ، فإن ذلك فاسد ، انتهى ، فحمدت الله على
الموافقة ، انتهى .

وقال في بدائع البدائه^١ : جلس المعتمد للشرب وذلك في وقت مطر أجرى
كل وهدة نهراً ، وحلّى جيد كل غصن من الزهر جوهرآ ، وبين يديه جارية
تسقيه وهي تقابل وجهها بنجم الكأس في راحة كالثريا ، وتنجل الزهر بطيب
العرف والريآ ، فاتفق أن لعب البرق بحسامه . وأجال سوطه المذهب يسوق
به ركاه ، فارتاعت لحظفته ، وذعرت من خيفته . فقال المعتمد بديهاً :

رَوَّعَهَا الْبَرْقُ وَفِي كَفِّهَا بَرْقٌ مِنْ الْقَهْوَةِ لِمَاعُ
عَجِبْتُ مِنْهَا وَهِيَ شَمْسُ الضَّحَى كَيْفَ مِنَ الْأَنْوَارِ تَرْتَاعُ

فاستدعى عبد الجليل بن وهبون المرسي ، وأنشده البيت الأول مستجيزاً .
فقال عبد الجليل :

وَلَنْ تَرَى أَعْجَبَ مِنْ آئِسٍ مِنْ مِثْلِ مَا يُمْسِكُ بَرْتَاعُ

١ بدائع البدائه ١ : ١٠٠-١٠١ ، وانظر ص : ٩٢ من هذا الجزء .

فاستحسنه ، وأمر له بجائزة .

قال ابن ظافر : وبيته عندي أحسن من بيت المعتمد . انتهى .

وقال ابن بسام^١ : كان في قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطئ بركة يقذف الماء . وهو الذي يقول فيه عبد الجليل بن وهبون من بعض قصيدة :

ويفرغُ فيهِ مثلَ النصلِ بدعُ من الأفيالِ لا يشكو مَلالا
رعى رطبَ اللجينِ فجاء صلداً تراهُ قلتماً يخشى هُزالا

فجلس المعتمد يوماً على تلك البركة والماء يجري من ذلك الفيل . وقد أوقدت شمعتان من جانبيه ، والوزير أبو بكر ابن الملح عنده ، فصنع الوزير فيهما عدة مقاطيع بديها منها :

ومشعلين من الأضواء قد قُرنا بالماء والماء بالدولابِ منزوفُ
لاحا لعيني كالنجمين ، بينهما خَطُّ المجرَّةِ مملودُ ومعطوفُ
وقال أيضاً :

كأتما النارُ فوق الشمعتينِ ستاً والماء من نفذ الأنوبِ منسكبُ
غمامةٌ تحت جناحِ الليلِ هامةٌ في جانبيها حفافُ البرقِ يضطربُ
وقال أيضاً :

وأنبوبِ ماءٍ بين نارينِ ضمنا هوى لكؤوسِ الراحِ تحت الغياهِبِ
كانَ اندفاعَ الماءِ بالماءِ حيةٌ يحركها في الماءِ لمعُ الحياهِبِ
وقال أيضاً :

كانَ سراجي شربهم في التظانها وأنبوبَ ماءِ الفيلِ في سيلانه
كريمٌ تولَّى كبره من كليهما لثيمانِ في إنفاقهِ يعدلانه

١ بدائع البداه ٢ : ١٣٧ .

ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك قال ذو الوزارتين ابن زيدون يرثي
المعتضد ويمدح المعتمد بقصيدة طويلة أولها^١ :

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهرُ فمن شيمِ الأحرار^٢ في مثلها الصبرُ
ستصبرُ صبرَ اليأسِ أو صبرَ حسبة^٣ فلا تؤثر الوجهَ الذي معه الوزرُ
حدارك من أن يعقب الرزءُ فتنةً يضيقُ بها عن مثل إيمانك العذرُ
إذا آسف الثكلُ الليبَ فشقه رأى أفدح الثكلين أن يذهب الأجرُ
مصابُ الذي يأسى بموتِ ثوابه هو البرحُ لا الميتُ الذي أحرز القبرُ
حياةُ الورى نهجٌ إلى الموتِ مهتبعٌ لهم فيه إضاعٌ كما يوضعُ السقرُ
ومنها :

إذا الموتُ أضحى قصدَ كلِّ معمرٍ فإنَّ سواءَ طال أو قصرَ العمرُ
ألم ترَ أنَّ الدينَ ضيمَ ذماره فلم يغنِ أنصارُ عديدهم دثرُ
بمِثِّ استقلَّ الملكُ ثانيَ عطفه وجرَّ من أذياله العسكرُ المجرُ
هو الضيمُ لو غيرُ القضاءِ برومهُ ثناه المرامُ الصعبُ والمسلكُ الوعرُ
إذا عثرتْ جردُ العناجيجِ في القنا بليلِ عجاجٍ ليس يصدعه فجرُ
ومنها :

أعبادُ يا أوفى الملوكِ لقد عدا عليكَ زمانٌ من سَجِيتهِ القَدَرُ
إلى أن قال بعد أبيات كثيرة :

١ ديوان ابن زيدون : ٥٦٢ .

٢ الديوان : الأبرار .

٣ في الأصول : وحشة .

٤ الديوان : أن هلك .

ألا أيها المولى الوصولُ عبيدَه^١ يغاديكَ داعينا السلامُ كعَهْدِه
أعتبُ علينا ذاد عن ذلك الرضى
ومنها :

وكيفَ بنسيانٍ وقد ملأت يدي
وإن كنتُ لم أشكرُ لك المننَ التي
فهل علم الشلو المقدسُ أنتي
وأن متاتي لم يضعه محمدُ
هو الظافرُ الأعلى المؤيدُ بالذي
له^٢ في اختصاصي ما رأيتُ وزادني
وأرغم في برِّي أنوفَ عصابة
إذا ما استوى في الدست عاقد حُبوة
وفي نفسه العلياء لي متبواً
ومنها :

لك الخيرُ إن الرزء كان غياية^٣
فقرت عيونُ كان أسخنها البكا
ومنها :

ولما قدمت الجيش بالأمرِ أشرقَ إليك من الآمالِ آفاقها الغُبرُ

١ الديوان : فنتعب .

٢ الأصول : فلا بقي ؛ وهو خطأ .

٣ الديوان : رأى .

٤ الديوان : يتافسي .

٥ في الأصول والديوان : غياية - بالباء الموحدة - ؛ والغياية : السحابة ، وهو أنسب لذكر البدر .

فقضيتَ من فرضِ الصلاةِ لبانةً
ومن قبل ما قدّمتَ مثنى نوافلٍ
ورحمتَ إلى القصرِ الذي غصَّ طرفه
وأجمل عن الثاوي العزاء فإن ثوى
وما أعطتِ السبعون قبل أولي الحجى
ألستَ الذي إن ضاق ذرعٌ بمجاذبٍ
فلا تُهضِ الدنيا جناحكَ بعده
ولا زلتَ موفورَ العديدِ بقرةٍ
فإنكَ شمسٌ في سماءِ رياسةٍ
شككنا فلم نثبتَ : أيامَ دهرنا
وما إن تغشتها مُغازلةُ الكرى
سوى نشواتٍ من سجايا مملتكِ
أرى الدهرَ إن يبطش فأنتِ يمينه
وكم سائلٍ بالغيبِ عنكَ أجبتُه
هناك الثمى والعلمُ والحلمُ والنهى
همامٌ إذا لاقى المتأجزة ردهُ
محاسن ما للروضِ سامره الندى
متى انتشقت لم تدرى دارينُ مسكها
عطاءً ولا منٌ ، وحكمٌ ولا هوى
قد استوفيتِ النعماءَ فيكَ تمامها

فشيحها نسكٌ وقارنها ١ طهرُ
يلاقى بها من صام من عوزٍ ٢ فطرُ
بعيد التسامي أن غدا غيره القصرُ
فإنك لا الواني ولا الضرعُ الغمرُ
من اللب ما أعطاك عشروك والعمرُ
تبلج منه الوجهُ واتسع الصدرُ
فمنك لمن هاضت نوائبها جبرُ
لعينك مشدوداً بها ذلك الأزرُ
تطلع منهم حولنا أنجمٌ زهرُ
بها وسنٌ أم هز أعطافها سكرُ
وما إن تمشت في معاطفها الخمرُ ٣
يصدق في عليائها الخبرُ الخبرُ
وإن تضحك الدنيا فأنت لها ثغرُ
هناك الأيادي الشفع والسودد الوترُ
وبذلُ اللها والبأسُ والنظمُ والنثرُ
وإقباله خطرٌ وإدباره حصرُ
رواءٌ إذا نصت حلاها ولا نشرُ
حياةٌ ولم تفخرُ بعنبرها الشحرُ
وحلمٌ ولا عجزٌ ، وعزٌ ولا كبرُ
علينا فمنا الحمدُ لله والشكرُ

- ١ الديوان : مشيها . . . وقارطها .
- ٢ في الأصول : غيره .
- ٣ الديوان : في مفاصلها غمر .
- ٤ الديوان : لم تطر .

وكتب ابن زيدون المذكور إلى المعتمد رحمهما الله تعالى يشوقه إلى تعاطي الحميّا ، في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا^١ :

فَزُرْ بالنجاحِ وأحْرِزِ الإقبالا	وخذِ المني وتَنجِزِ الآمالا
وليَهِنِكَ التأييدُ والظفرُ اللدا	صدقاكَ في السمةِ العليّةِ فالا
يا أيتها الملكُ الذي لولاه لَمَ	تجدِ العقولُ الناشداتُ كمالا
أمّا الثريا فالثريا نسبةٌ	وإفادةٌ وإنافسةٌ وجمّالا
قد شاقها الإغبابُ حتى إنَّها	لو تستطيعُ سَرَتْ إليك خيالا
رفهٌ ورودكها لتغنمَ راحةً	وأطلُ مزاركها لتنعَمَ بالا
وتأمَلِ ^٢ القصرَ المباركَ وجنّةً	قد وَسَطَتْ فيها الثريا خالا
وأدرُ هناكَ من المدامِ كؤوسها	وأتمها ^٣ وأشفها جريالا
قصرٌ يُقِرُّ العينَ منهُ مصنعٌ	بِهيجِ الجوانبِ لو مشى لاختالا
لازلتُ تفرشُ السرورَ حدائقاً	فيه وتلتحفُ النعيمَ ظلّالا

وأهدى إليه تفاحاً ، واعتقد أن يكتب معه قطعة ، فبدأ بها ، ثم عرض له غيرها فتركها ثم ابتداءً :

دونكَ الراحَ جامِدهُ	وفدّتَ خيرَ وافدهُ
وجدتُ سوقَ ذَوِيها	عندكَ اليومَ كاسدهُ
فاستحالتُ إلى الجمو	دِ وجاءت مُكايدهُ

وكتب إلى المعتمد^٥ :

-
- ١ ديوان ابن زيدون : ٥٢٠ .
 - ٢ الديوان : وتمثل .
 - ٣ الديوان : أنهما أرجأ زكا .
 - ٤ الديوان : ٢٢٤ .
 - ٥ الديوان : ٦١٦ .

يا أيها الظافر نلت المني
 إن الخلال الزهر قد ضمها
 لا زال للمجد الذي شدته
 وافاك نظم لي في طيه
 مرأته يصعب ما لم يسبح
 ولا أتنا فيك مَحذُورُ
 ثوبٌ عليك الدهرَ مزُورُ
 ربَّعٌ بتعميرك معمورُ
 معنى معنى اللفظ مستورُ
 بالسرِّ قُمريُّ وشُحُورُ

وذكر أبياتاً فيها أسماء طيور عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت
 المطير فيه :

أنت إن تغزُّ ظافرُ
 فليطع من يُنافرُ
 فكته المعتمد وجاوبه ١ :

يا خيرَ مَنْ يلاحظه ناظري
 ومن إذا خطبٌ دجا ليله
 جاءني الطيرُ التي سيرها
 شعرٌ هو السحرُ فلا تُنكروا
 اللفظُ والقرطاسُ إن شبيها
 هوَى لحسنِ الطيرِ من فكرتي
 ولاح لي بيتٌ فؤادي له
 حظُّك من شكري يا سيدي
 فصرتُ في نظمي قاعدرُ فمن
 فأنت إن تنظمُ وتشرُ فقد
 شهادةٌ ما شأنها ٢ زورُ
 لاحَ به من رأيه نورُ
 نظمٌ به قلبي مسرورُ
 أني به ما عشتُ مسحورُ
 قيل هما مسكٌ وكافورُ
 صقرٌ فولتي وهو مقهورُ
 دأباً على ودك مقصورُ
 حظُّ تمالا منك ٣ موفورُ
 ضاهاك في التقصيرِ معنورُ
 أعسوزَ منظومٌ ومثورُ

١ انظر ديوان ابن زيدون : ٦١٨ .

٢ اللديون : شابه .

٣ اللديون : بما بدا لي منك .

لا يَعدُّكُمْ روضٌ من الحظ في الـ إكرامِ والترفيعِ مطورٌ

فكتب إليه ابن زيلون^١ :

حظيَ منْ نَعْماكَ موفورٌ وذبُّ دهري بكَ مغفورٌ
وجاني إنْ رامَهُ أزمَةٌ^٢ حجراً لدى ظِلِّكَ محجورٌ
يا ابنَ الذي سِرْبُ الهدى آمنٌ منذُ انبرى يحميه مخفورٌ
وأميرِ الدهرِ الذي لم يزلْ يُصْغِي إليه منه مأمورٌ
ألبسَ منك الدهرُ^٣ أسى الحلى بظافرٍ منْحاهُ منْصورٌ
يا مرويْ، المأثورِ يا مَنْ لهُ مجدٌ معَ الأيامِ مأثورٌ
عَبْدُكَ إنْ أَكثَرَ منْ شكره فهو بما توليه مكثورٌ
إنْ تَعَفُّ عنْ تقصيره منعماً فاليسرُ أنْ يُقبَلَ معسورٌ
إنْ حلالَ السحرِ إنْ صُغْتَهُ في صُحْفِ الأَنْفَسِ مسطورٌ
نظمٌ زهاني منه إذ جاءني عِلْتُ عَظِيمُ القدرِ منْخورٌ
لا غرو أنْ أَقنَ إذ لاحظتُ فكريَ منه أعينُ حورٌ
تمُّ عنْ معناهُ ألفاظُهُ كما وَشَى بالراحِ بلورٌ
جهلتُ إذ عارضتُهُ غيرَ أنْ لا بدَّ أنْ يَنْفِثَ مَصدورٌ
يا آلَ عبادِ مَوالِاتِكُمْ زَاكٍ منْ الأعمالِ مبرورٌ
إنَّ الذي يَرجو موازاتِكُمْ منْ المناوينَ لَمْغورٌ
مكانُهُ منكم كما انحطَّ عنْ منزلةِ المرفوعِ مجرورٌ
لا زَلَمٌ في غبطةٍ ما انجلى عنْ فَلَاقِ الإصباحِ ديجورٌ

١ ديوانه : ٦٢٠ .

٢ الديوان : إن زمني رامه .

٣ الديوان : الملك .

٤ في الأصول : قام وفي ؛ والمأثور : السيف .

ولا يَزَلُ يَجْرِي بِمَا شَتَمُ أَعْمَارَكُمُ اللَّهُ مَقْسُورُ
وكتب المتعمد إلى ابن زيدون بعد أن فكَّ معمّي كتب به إليه ابن زيدون ما
صورته^١ :

العينُ بعلمك تَقْنِي بكلِّ شيءٍ تَرَاهُ
فليجلُ شخصُك عنها ما بالمغيبِ جناهُ

وقد قدمنا من كلام أبي الوليد ابن زيدون رحمه الله تعالى ما فيه كفاية .

رجع إلى بني عبّاد :

قال ابن حمديس^٢ : لما قدمت وافداً على المتعمد بن عبّاد استدعاني وقال :
افتح الطاق ، فإذا بكير زجاج والنار تلوح من باييه ، وواقدهُ يفتحهما تارة
ويسدُّهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما . وفتح آخر ، فحين تأملتُهما قال لي :
أجز :

انظُرهما في الظلّامِ قد نجما

فقلت :

كما رَنا في الدُّجّةِ الأسدُ

فقال :

يفتحُ عَيْنِيهِ ثُمَّ يُطَبِّقُهَا

فقلت :

فِعْلَ امرئٍ في جُفُونِهِ رَمَدُ

١ ديوان ابن زيدون : ٢١٤ .

٢ انظر هذا الخبر ومقطعات ابن حمديس في ديوانه : ٨ ، ٥٢٣ ، ٥٤٣ ، والخبر في النسخ ٣ :
٦١٦ - ٦١٧ .

فقال :

فأبتزّه الدهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت :

وهل نجا من صروفه أحدٌ

فاستحسن ذلك وأطربه ، وأمر لي بجائزة ، وألزمي الخدمة .

٦٧٧ - [مقطعات لابن حمديس]

وعلى ذكر ابن حمديس فما أحسن فوره .

أراك ركبتَ في الأهوالِ بحرًا عظيمًا ليس يؤمن من خطوبه
تُسَيِّرُ فُلُكُهُ شرقًا وغربًا وتلغُ من صباهُ إلى جنوبه
وأصعبُ من ركوبِ البحرِ عندي أمورٌ ألبأتك إلى ركوبه

ولغيره :

إنَّ ابنَ آدمَ طينٌ والبحرُ ماءٌ يُدِيئُهُ
لولا الذي فيهِ يُتلى ما جازَ عندي ركوبُهُ

وقال ابن حمديس في هذا المعنى :

لا أركبُ البحرَ ، أخشى عليَّ منه المعاطبُ
طينٌ أنا وهو ماءٌ والطينُ في الماءِ ذائبُ

رجع إلى بني عباد رحمهم الله تعالى :

قال ابن بسام^١ : أخيرني الحكيم النديم المطرب أبو بكر ابن الإشبيلي ، قال :
حضرت مجلس الرشيد بن العتمد بن عباد وعنده الوزير أبو بكر ابن عمار ،

١ بدائع البداه ٢ : ١٢٩ .

فلمّا دارت الكأس ، وتمكن الأنس ، وغنيت أصواتاً ذهب الطرب بابن عمّار
كل مذهب ، فارتجل يخاطب الرشيد :

ما ضرَّ أن قيل لإسحاقُ ومَوْصِلُهُ ها أنتَ أنتَ وذو حمصٍ وإسحاقُ
أنتَ الرشيدُ فدع مَنْ قد سمعتَ به وإن تشابهَ أخلاقُ وأعراقُ
للهِ دركٌ دارِكُها مُشعِشَعَةٌ واحضُرْ بساقِيكَ ما قامتْ بنا ساقُ

وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النجبا ، وله أخبار في الكرم يقضي
الناظر فيها من أمرها عجا ، وكذلك لإخوته ، وقد ألعنا في هذا الكتاب بجملة
من محاسنهم ، وأمهم اعتماد الملقبة بالرُمَيْكِيَّة هي التي ترجمناها في هذا الموضع ،
واقترضت المناسبة ذكر أمر بني عبّاد ، فلنعد إلى ما كنا بصدده من أخبارها
رحمها الله تعالى ، فنقول :

[رجع إلى ذكر الرميكية]

قال ابن سعيد في بعض مصنفاته : كان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ،
ويستظرف نوادرها ، ولم تكن لها معرفة بالغناء ، وإنما كانت مليحة
الوجه ، حسنة الحديث ، حلوة النادر ، كثيرة الفكاهة ، لها في كل ذلك
نوادير محكية ، وكانت في عصرها ولاّدة بنت محمد بن عبد الرحمن ، وهي
أبدع منها ملّحاً ، وأحسن افتناناً ، وأجلُّ منصباً ، وكان أبوها أمير قرطبة ،
ويلقب بالمستكفي بالله ، وأخبار أبي الوليد ابن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة ،
انتهى ملخصاً .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنّها
رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتتهت المشي في الطين ، فأمر المعتمد ، فسُحقت
أشياء من الطيب ، وذُرَّتْ في ساحة القصر حتى عمته ، ثم نُصبت الغرايبيل ،
وصُبَّ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين ،

وخاضتها مع جواربها . وغاضبها في بعض الأيام ، فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت ، وهذا مصداق قول نبيتنا صلى الله عليه وسلم في حق النساء « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

قلت : ولعل المعتمد أشار في أبياته الرائية إلى هذه القضية حيث قال في

بناته :

يَطَّانَ فِي الطَّيْنِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مَسْكَاً وَكَافُوراً

ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذرّ الطيب في قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم ، زيادة في التنعّم .

وسبب قول المعتمد ذلك ما حكاه الفتح فقال^١ : وأول عيد أخذه - يعني المعتمد - بأغمات وهو سارح ، وما غير الشجون له مبارح^٢ ، ولازي إلاّ حالة الخمول ، واستحالة الأموال ، فدخل عليه من بنيه ، من يسلم عليه ويهنيه^٣ ، وفيهم بناته وعليهن أطمار ، كأنها كسوف وهن أقمار ، يبكين عند التساؤل ، ويبدن الخشوع بعد التخایل ، والضباع قد غير صورهن ، وحير نظرهن ، وأقدامهن حافية ، وآثار نعيمهن عافية ، فقال^٤ :

فِي مَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُوراً فَسَاءَكَ الْعَيْدُ فِي أَغْمَاتِ مَاسُورَا
تَرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزُلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا
بِرْزَنٍ نَحْوِكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرَا

١ القلائد : ٢٥ .

٢ كذا في ق م ؛ وفي القلائد : مسارح .

٣ في الأصول اضطراب ، وأثبتنا ما في القلائد .

٤ لم تورد نسخة م هذه القصيدة ، لأنها وردت من قبل (الورقة : ٢٣٢) وأثبتت في موضعها : « وقد سبقت هذه الأبيات » .

بطآنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ
لا خدَّةَ إلا تشكَّى الجذبَ ظاهرهُ
أفطرتَ في العيد لا عادت مساءتهُ
قد كانَ دهرُك إن تأمرهُ ممثلاً
من بات بعلك في ملك يُسرُّ به
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
فكانَ فطركَ للأكبادِ تفتيرا
فردكَ الدهرُ منهياً ومأمورا
فلنما بات بالأحلام مغرورا

٦٧٨ - [عود إلى أخبار المعتمد]

وقال الفتح أيضاً^١ : ولما نُقل المعتمد من بلاده ، وأُعريَ من طارفه وتلاده ، وحُمِلَ في السفين ، وأُحِلَّ في العُدوة محلَّ الدفين ، تندبه منابره وأعواده ، ولا يلدنو منه زُواره ولا عُواده . بقي أسيفاً تتصعد زفراته ، وتطرَّد أطراد المذانب عبراته ، لا يخلو بمؤانس ، ولا يرى إلا عريناً بدلاً من تلك المكناس . ولما لم يجد سلواً ، ولم يؤمِّل دنواً ، ولم يرَ وجه مسرةً مجلواً ، تذكر منازلَه فشاقتَه . وتصور بهجتها فراقته ، وتخيل استيحاش أوطانه . وإجهاش قصره إلى قُطانه ، وإظلام جوّه من أقماره ، وخلوة من حُرّاسه وسُمّاره . فقال :

بكي المبارك في إثر ابن عبادِ
بكت ثريّاه لا غُمّت كواكبها
بكي الوحيدُ ، بكي الزاهي وقبته
ماء السماء على أفيائه دِررُ
بكي على إثر غزلانٍ وآسادِ
بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
والنهرُ والتاجُ ، كلُّ ذلكَ بادي
يا بلحة البحرِ دومي ذات إزبادِ

وفي ذلك يقول ابن اللبّانة^٢ :

أستودعُ الله أرضاً عندما وضحت
بشائرُ الصبحِ فيها بُدلتَ حلكا

١ الفلّائد : ٣ .

٢ أوجزت « م » هنا ، لورود الأبيات قبلا .

كان المؤيد بستاناً بساحتها يُجتي النعيم وفي عليائها فلكا
 في أمره لملوك الدهر مُعتبرٌ فليس يَغترُّ ذو مُلكٍ بما ملكك
 نبيكه من جبلٍ خُرت قواعدهُ فكلُّ من كان في بَطْحائه هلكا

وكان القصر الزاهي^١ من أجمل المواضع لديه وأبهاها ، وأحبها إليه وأشهاها ، لإطلاله على النهر ، وإشرافه على القصر ، وجماله في العيون ، واشتماله بالزهر^٢ والزيتون ، وكان له به من الطرب ، والعيش المزري بحلاوة الضرب ، ما لم يكن بحلب لبني حمّدان ، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمّدان ، وكان كثيراً ما يُدير به راحه ، ويجعل فيه انشراحه ، فلما امتد الزمان إليه بعدوانه . وسد عليه أبواب سلوانه ، لم يحنّ إلاّ إليه ، ولم يتمنّ غير الحلول لديه . فقال^٣ :

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرٌ سيبكي عليه منبرٌ وسريرٌ
 وتندبه البيضُ الصوارمُ والقنا وينهلُ دمعٌ بينهن غزيرٌ
 مضى زمنٌ والملكُ مستأنسٌ به وأصبحَ منه اليومَ وهو نقورٌ
 برأي من الدهرِ المضللِ فاسدٌ متى صلحتُ للصالحين دهورٌ
 أذلّ بني ماء السماء زمانهمُ وذُلُّ بني ماء السماء كبيرٌ
 فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً أمامي وخلفي روضةً وغديرٌ
 بمُنبتةِ الزيتونِ مورثةِ العُلا تغني حَمَامٌ أو ترنُّ طيورٌ
 بزاهرها السامي الذي جاده الحيا تشيرُ الثريا نحوّنا ونشيرُ
 ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده غيورين والصبُّ المحبُّ غيورٌ
 تراهُ عسيراً لا يسيراً منالهُ ألا كلُّ ما شاء الإلهُ يسيرٌ

وقال الحِجاري في « المسهب » : إن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أهدى

١ القلائد : الحصن الزاهر .

٢ القلائد : بالشجر .

٣ اختصرت « م » إيراد هذه القصيدة لأن هذه الأبيات تقدمت .

إلى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة ، وأهل العُدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس ، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان المثلثين يتترع بلاد ملوك الطوائف منهم ، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك ، فخرج بها إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية ، وقعد على الراح ، فخطر بفكرها أن غنت عندما انتشى هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسدِ بينَ ضُلُوعِهِمْ وَلَوَوْا عَمَائِهِمْ عَلَى الْأَقْمَارِ
وَتَقَلَّبُوا يَوْمَ الْوَغَى هِنْدِيَّةً أَمْضَى إِذَا انْتَضَيْتِ مِنَ الْأَقْدَارِ
إِنْ خَوْفُوكَ لَقَيْتَ كُلَّ كَرِيهَةٍ أَوْ أَمَّنُوكَ حَلَلْتَ دَارَ قَرَارِ

فوقع في قلبه أنها عرّضت بساداتها ، فلم يملك غضبه ، ورمى بها في النهر ، فهلكت ، انتهى ، فقدر الله تعالى أن كان تمزيقُ ملكه على يدهم تصديقاُ للجارية في قولها :

إِنْ خَوْفُوكَ لَقَيْتَ كُلَّ كَرِيهَةٍ

وحصره جيوش لتوتة المثلثين حتى أخذوه قهراً ، وسبق إلى أمير المسلمين .
والقصة مشهورة .

وقال الفتح في شأن حصار المعتمد ما صورته^١ : ولما تم في الملك أمدّه ، وأراد الله تعالى أن تخرَّ عمُدُه ، وتنقرض أيامُه ، وتتقوض عن عِرَاصِ الملك خيامُه ، نازلته جيوش أمير المسلمين ومحلاته ، وظاهرته فساطيطه ومظلاته ، بعدما نَشَرَتْ حصونه وقلاعه ، وسَعَّرَتْ بالنكاية جوانحه وأضلاعه ، وأخذت عليه الفروج والمضايق ، وثنت إليه الموانع والعوايق ، وطرقته طوارقها بالإضرار ، وأمطرته من النكاية كل ديمةٍ مِدْرَارٍ ، وهو ساهٍ بروضٍ ونسيمٍ ، لاهٍ بِرَاحٍ

١ القلائد : ٢١ .

ومُحِيًّا وسِيم ، زاهٍ بفتاة تناديه ، ناهٍ عن هلم أنس هو هادمه ، لا يصيخ إلى
نباةٍ سمعه ، ولا ينيخ إلا على هو يفرق جموعه جمعه ، وقد ولي المدامة ملامه ،
وثنى إلى ركنها طوافه واستلامه ، وتلك الحيوش تجوس خيالاته ، وتقلص ظلاله ،
وحين اشتد حصاره ، وعجز عن المدافعة أنصاره ، ودلّس عليه ولّاته ، وكثرت
أدواؤه وعيالاته ، فتح باب الفرج ، وقد لفح شواظ الهرج ، فدخلت عليه
من المرابطين زُمرة ، واشتعلت من التغلب جَمرة ، تأجج اضطرامها ،
وسهل بها إيقاد الفتنة وإضرارها ، وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسراً من
مُفاضته ، جاعحاً كالمهر قبل رياضته ، فلحق أوائلهم عند الباب المذكور وقد
انتشروا في جنباته ، وظهروا على البلد من أكثر جهاته ، وسيّفه في يده
يتلمّظ للطلّي والهام ، ويعد بانفراج ذلك الاستبهام ، فرماه أحدُ الداخلين برمح
تخطّاه ، وجاوز مطاه ، فبادره بضرية أذهبت نفسه ، وأغربت شمسه ، ولقي
ثانياً فضربه وقسمه ، وخاض حشاً ذلك الداء وحسمه ، فأجلّوا عنه ،
وولّوا فراراً منه ، فأمر بالباب فسُد ، وبني منه ما هد ، ثم انصرف وقد أراح
نفسه وشفأها ، وأبعد الله تعالى عنه الملامة ونقاها ، وفي ذلك يقول عندما
خُلِع ، وأودع من المكروه ما أودع :

إن يسلب القوم العدى	مُلْكِي وتُسَلِمَنِي الجموعُ
فالقَلْبُ بين ضلوعه	لَمْ تُسَلِّمِ القَلْبَ الضُّلُوعُ
قد رمت يوم نزالهم	أَنْ لَا تَحْصِنِي الدَّرُوعُ
ويرزت ليس سوى القمي	صِرَ عَلَى الحِشَا شَيْءَ دَفُوعُ
أجلى تأخر لم يكن	بِهَوَايَ ذُلِّي والخضوعُ
ما سرت قط إلى القتا	لِ وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرجوعُ
شيم الألى أنا منهم	وَالأَصْلُ تَبَعُهُ الفروعُ

١ القلائد : البقية .

وما زالت عقارب تلك الداخلة تدب ، ثم ذكر الفتح تمام هذا الكلام فراجعه فيما مرّ بنحو ثلاث ورقات .

ومن حكايات مجالس أنسه أيام ملكه ، قبل أن ينظمه صرف الدهر في سلكه ، ما حكاها الفتح^١ عن ذخر الدولة أنه دخل عليه في دار المزينية^٢ والزهر بحسد إشراق مجلسه . والدري يحكي اتساق تأنسه ، وقد رددت الطير شدّوها ، وجودت^٣ طربها وطوها ، وجدّدت كلفها وشجّوها ، والغصون قد التحفت بسندسها ، والأزهار تحيي بطيب تنفسها ، والنسيم يلمُّ بها فتضعه بين أجفانها ، وتودعه أحاديث آذارها ونيسانها ، وبين يديه فتي من فتياته يثنى ثني القضيب ، ويحمل الكأس في راحة أبعي من الكف الحضيبي ، وقد توشح وكأن الثريا وشاحه ، وأثار فكأن الصبح من مَحْيَاه كان اتضاحه ، فكلّما ناوله الكأس خامرته سورّه ، وتحيل أن الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

لله ساقٍ مهفهفٌ غنّجٌ قد قامَ يسقي فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيفِ حكمته في جامدِ الماء ذائبِ الذهبِ

ولما وصل لورقة استدعى ذا الوزارتين القائد أبا الحسن ابن اليسع ليلته تلك في وقت لم يخف فيه زائر من مراقب ، ولم يبد فيه غير نجم ثاقب ، فوصل وما للأمن إلى فؤاده وصول ، وهو يتخيّل أن الجوّ صوّارم ونُصُول ، بعد أن وصّى بما خلف ، وودع من تخلف ، فلما مثل بين يديه آنسه ، وأزال توجّسه ، وقال له : خرجت من إشبيلية وفي النفس غرام طويته بين ضلوعي ، وكففت فيه غرب دموعي ، بفتاة هي الشمس أو كالشمس إخالها ، لا يجول قلبها ولا خلخالها ، وقد قلت في يوم وداعها ، عند تفتّر كبدي وانصداعها :

١ القلائد : ٩ .

٢ ق م : المرينية ؛ القلائد : المزنية .

٣ ق : وجددت ؛ وفي القلائد : وقد رددت الطير شجوها ، وجددت طربها وشجوها .

ولما التقينا للوداع غُدِيَّةً وقد خفقتُ في ساحةِ القصرِ راياتُ
بكينا دَمًا حتى كأنَّ عيوننا لجرى الدموعِ الحمرِ منها جراحاتُ

وقد زارني هذه الليلة في مضجعي ، وأبرأني من توجعي ، ومكنتني من
رُضاها ، وفتنتني بدلالها وخِضاها ، فقلت :

أباحَ لطيفي طيفُها الخدَّ والنَّهدا فعضَّ بها تفاحةً واجتني وردا
ولو قدَّرتُ زارتُ على حالٍ يقظة ولكنَّ حجابُ البين ما بيننا مُدًا
أما وجدتُ عتَا الشجونُ مُعرجًا ولا وجدتُ منَّا خطوبُ النوى بُدًا
سقى الله صوبَ القطرِ أمَّ عبيدة كما قد سقتُ قلبي على حرِّه بردا
هي الظبيُّ جيداً ، والغزاةُ مقلَّةٌ ، وروضُ الرُّبى عرْفًا ، وغصنُ النقا قدًا

فكرَّر استجداته ، وأكثر استعادته ، فأمر له بخمسمائة دينار وولاه لورقة
من حينه .

قال الفتح ^١ : وأخبرني ابن اللبَّانة أنه استدعاه ليلة إلى مجلس قد كساه
الروض وشيئه ، وامتلل الدهر فيه أمره ونهيه ، فسقاه الساقى وحيَّاه ، وسفر
له الأئس عن مونيقي مُحَيَّاه ، فقام للمعتمد مادحاً ، وعلى دَوْحَة تلك النعماء
صادِحاً ، فاستجاد قوله ، وأفاض عليه طوَّله ، فصدر وقد امتلأت يده ،
وغمره جوده ونداه ، فلما حلَّ بمتزله وافاه رسوله بقطيع وكأس من بُلَّار ،
قد أترعا بصيرف العقار ، ومعهما :

جاءتك ليلاً في ثيابِ نهارٍ من نورها وغلالةِ البُلَّارِ
كالمشترى قد لَفَّ من مِرْبِجِه إذ لَفَّه في الماء جَدْوَة نارِ
لَطْفَ الجمودِ لذا وذا فتألَّفَا لم يَلتَقَ ضدُّ ضدَّه بنِفَارِ

يتحير الراءون في نعتيهما أصفَاء ماء أم صَفَاء دراري

وقال الفتح أيضاً^١ : وأخبرني ذخر الدولة أنه استدعاه في ليلة قد ألبسها البدرُ رُوءاه ، وأوقد فيها أضواءه ، وهو على البحيرة الكبرى ، والنجوم قد انعكست فيها تخالفا زهرا ، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا ، وقد أُرِجَتْ نوافجُ الند ، وماست معاطف الرنْد ، وحَسَدَ النسيمُ الروضَ فَوَشَى بأسراره ، وأفشى حديث أسه وعَرَاره ، ومشى مختالاً بين لَبَاتِ النُّورِ وأزواره ، وهو وَجِيمٌ ، ودمعه مُنْسَجِمٌ ، وزفراته تُتْرَجِمُ عن غَرَامه ، وتجمجم عن تلعر مَرَامه ، فلمباً نظر إليه استدناه وقرَّبه ، وشكا إليه من الهجران ما استغربه ، وأنشده :

أيا نفسُ لا تجزعي واصبري وإلاَّ فإنَّ الهوى مُتَلِفٌ
حبيبٌ جفاك ، وقلبٌ عصاك ولاحَ لحاك ، ولا منصفُ
شُجونٍ مُنْعَنَ الجفونَ الكرى وعَوَّضَها أدمعاً تنرفُ

فانصرف ولم يعلمه بقصته ، ولا كشف له عن غُصَّته ، انتهى .
وقال الفتح أيضاً^٢ : أخبرني ذخر الدولة بن المعتضد أنه دخل عليه في ليلة قد ثنى السرور منامها ، وامتطى الحبور غاربا وسنامها ، وراع الأانس فؤادها ، وستر بياضُ الأمانى سوادها ، وغازل نسيم الروض زُوارها وعوَّادها ، ونورُ السُرُجِ قد قلَّصَ أذيالها ، ومحا من بلجين الأرض نياها ، والمجلسُ مُكْتَسَسٌ بالمعالي ، وصوت المثنائي والمثالث عالي ، والبدر قد كمل ، والتحفَ بضوئه القصر واشتمل ، وتزين بسناه وتجمَّل ، فقال المعتمد :

ولقد شربتُ الراحَ يسطعُ نورها والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداء

١ القلائد : ٨ .

٢ القلائد : ٦ .

حتى تبدى البدرُ في جوزائه ملكاً تناهى بهجةً وبهاء
وتناهضتْ زُهرُ النجومِ بحفّةُ لألاؤها فاستكملَ الألاء
لما أراد تنزهاً في غربه جعل المظلةَ فوقه الجوزاء
وترى الكواكبَ كالمواكبِ حوله رفعتْ ثريّاتها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين كواكبٍ وكواعبٍ جمعتْ سنّاً وسناء
إن نَشَرَتْ تلك الدروعَ حنادساً ملأت لنا هذي الكؤوسَ ضياء
وإذا تغنّتْ هذه في ميزهريِّ لم تألُ تلكَ على التريك غناء

وأخبرني ابن إقبال الدولة [بن مجاهد]^١ أنه كان عنده في يوم قد نشر من غيمه رداء نداءً ، وأسكب من قطره ماء ورّد ، وأبدى من برقه لسان نار ، وأظهر من قوس قزحِهِ حنايا آس^٢ حفت بنرجس وجلتار ، والروض قد بعث رِيّاه ، وبث الشكر لسقيّاه ، فكتب إلى الطبيب الأديب أبي محمد المصري :

أيّها الصاحبُ الذي فارقتْ عيِّ في ونفسي منه السنّ والسناء
نحنُ في المجلس الذي يهَبُ الرا حةَ والمسمعَ الغنى والغناء
نتعاطى التي تُنسيّ من الرقّة واللذّةِ الهوى والهواء
فأتبه تُلّفِ راحةً ومحيّا قد أعدّا لك الحيا والحياء

فوافاه وألقى مجلسه وقد أتلت فيهِ أباريقُهُ أجيادها ، وأقامت فيهِ خيل السرور طرادها ، وأعطته الأمانِي انطباعها وانقيادها ، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها ، وخلعت عليه الشمس شعاعها ، ونشرت فيهِ الخلدائقُ إيناعها ، فأديرت الراح ، وتعوطيت الأقداح ، وخامر النفوسَ الابتهاج والارتياح ، وأظهر المعتمد من إيناسه ، ما استرق به نفوسَ جلاسه ، ثم دعا

١ زيادة من القلائد .

٢ الأصول : خبايا آس .

بكبير ، فشربه كالشمس غربت في ثبير ، وعندما تناولها ، قام المصري ينشد
أبياتاً مثلها^١ :

اشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفقاً بشاذمِهترَ ودعْ غمُدانَ لليمنِ
فأنتَ أولى بتاجِ الملكِ تلبسه من هودّةِ بنِ عليّ وابنِ ذي يزنِ

فطرب حتى زحف عن مجلسه ، وأسرف في تأتسه ، وأمر فخلعت عليه
خيلج لا تصلح إلا للخلفاء ، وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء ، وأمر له بدنانير
عدداً ، وملاً له بالمواهب يبدأ .

وله في غلام^٢ رآه يوم العروبة من ثنبيات الوغى طالماً ، ولطلى الأبطال
قارعاً ، وفي الدماء والغا . ولمستبشع كؤوس المنايا سائناً ، وهو ظبي قد فارق
كناسه ، وعاد أسداً صارت القنا أخياسه ، ومتكائف العجاج قد مزقه إشراقه ،
وقلوب الدارين قد شكتها أحداقه ، فقال :

أبصرتُ طِرْفَكَ بَيْنَ مُشْتَجِرِ القَنَا فبدا لَطَرَفِي أَنَّهُ فَلَكَ
أولَيْسَ وَجْهَكَ فَوْقَهُ قَمراً يُجَلِّي بِنِيرِ نورهِ الحلاكُ

وقال فيه :

ولما اقتحمت الوغى دارعاً وقنعت وجهك بالمغفر
حسبنا محياك شمس الضحى عليها سحبٌ من العنبر

وقد جمع بنا القلم في ترجمة المعتمد بن عباد بعض جموح ، وما ذلك إلا
لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله تعالى شديدة الطموح ، وقد جعل
الله تعالى له كما قال ابن الأثير في « الحلة السراء » رقةً في القلوب وخصوصاً

١ نسب المبرد البيتين لشاعر من أهل الري يكنى أبا يزيد أنشدهما عبد الله بن طاهر (الكامل ٢ : ٢٤) .

٢ القلائد : ٨ .

بالمغرب فإن أخباره وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم ، وإن فيها لأعظم
عبرة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى أخبار النساء :

11 - ومنهن العبادية جارية المعتضد عبّاد^١ ، والد المعتمد ، أهداها إليه
مجاهد العامري من دانية ، وكانت أديبة ، ظريفة ، كاتبة ، شاعرة ، ذاكرة
لكثير من اللغة ، قال ابن عليم في شرحه لأدب الكتاب لابن قتيبة ، وذكر
الموسعة وهي خشبة بين حمالين يجعل كل واحد منهما طرفها على عنقه ، ما
صورته : وبذكر الموسعة أغرّبت جارية لمجاهد أهداها إلى عبّاد كاتبة شاعرة
على علماء إشبيلية وباهزيمة^٢ التي تظهر في أذقان بعض الأحداث ، وتعتري بعضهم
في الخدين عند الضحك ، فأما التي في الذقن فهي النونة ، ومنه قول عثمان رضي
الله تعالى عنه : دسّموا^٣ نونته لتدفع العين ، وأما التي في الخدين عند الضحك
فهي الفحصّة ، فما كان في ذلك الوقت في إشبيلية من عرف منها واحدة .
وسهر عباد ليلة لأمرٍ حزّبه وهي نائمة ، فقال :

تَنَامُ وَمُدَّتْهَا يَسْهَرُ وَتَصْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَصْبِرُ

فأجابته بليدة بقولها :

لئن دَامَ هذا وهذا لَهْ سِيهْلِكَ وَجَدّاً وَلَا يَشْعُرُ

ويكفيك هذا شاهداً على فضلها رحمها الله تعالى وساعها^٥ .

١ ترجمتها في الذيل والتكملة (آخر جزء الغرّاء) ، وما أثبتته المقرئ منقول بنصه عنه .

٢ هكذا في الذيل ، وفي ق : وبالفرجة .

٣ م : وسموا ؛ وهي بالدال في الذيل وفوقها علامة « صح » .

٤ الذيل : ولا يصبر .

٥ وساعها : زيادة من ق .

12 - ومنهن : بثينة بنت المعتمد بن عباد ، وأمها الرميكية السابقة الذكر ، وكانت بثينة هذه نحواً من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر ، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت من جملة من سُبي ، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وكنه دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب ، وكان أحد تجّار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرّية ووهبها لابنه ، فنظر من شأنها وهبّت له ، فلما أراد اللخول عليها امتنعت ، وأظهرت نسيها ، وقالت : لا أحل لك إلاّ بعقد النكاح إن رضي أبي بذلك ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبّلها لأبيها ، وانتظار جوابه ، فكان الذي كتبه بخطها من نظمها ما صورته :

اسمّع كلامي واستمع لمقالي	فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أتي سببت وأتني	بنت الملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولّى عصره	وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا	وأذاقنا طعم الأسى عن زاد
قام النفاق على أبي في ملكه	فدنا القراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ	لم يأت في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني	من صانتي إلاّ من الانكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهر	حسن الخلاق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضى	ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعاك يا أبتى تعرفني به	إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها	تدعو لنا باليمن والإسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات ، واقع في شراك الكروب

والأزمات ، سرٌّ هو وأمّها بجياتها ، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها ،
 إذ علما مآل أمرها ، وجبر كسرها ، إذ ذلك أخف الضررين ، وإن كان الكرب
 قد ستر القلب منه حجابُ رَيْنٍ ، وأشهد على نفسه بعقْد نكاحها من الصبي
 المذكور ، وكتب إليها أثناء كتابه ممّا يدل على حسن صبره المشكور :

بنيّ كوني به برةً فقدّ قضي الوقت بإسعافه

وأخبار المعتمد بن عباد ، تذيب الأكباد ، فلنرجع إلى ذكر نساء الأندلس
 فنقول :

13 - ومنهن حفصة بنت حمدون^١ ، من وادي الحجارة ، ذكرها في
 « المغرب » وقال : إنّها من أهل المائة الرابعة ، ومن شعرها :

رأى ابنٌ جميلٌ أن يرى الدهرَ جملاً فكلُّ الوري قد عمهم سيّبُ نعمته
 لهُ خلُقٌ كالخمرِ بعدَ امتراجيها وحسُنٌ فما أحلاه من حين خلقتها
 بوجهٍ كمثلِ الشمسِ يدعو ببشره عيوناً ويُعشيها بإفراطٍ هيبته

ولها :

لي حبيبٌ لا يتثنى لِعتابٍ وإذا ما تركتُه زاد تيبها
 قال لي هل رأيت لي من شبيهٍ قلتُ أيضاً وهل ترى لي شبيها

ولها تدم عبيدها :

يا ربّ إنّي من عبيدي على جمرِ الغضا ، ما فيهم من نجيبٍ
 إمّا جهولٌ أبلهٌ متعبٌ أو فطنٌ من كيده لا يجيبُ

١ ترجمة حفصة بنت حمدون في الليل والتكملة والسيوطي : ٤٦ والمغرب ٢ : ٣٧ .

٢ م : بإطراق .

وقال ابن الأَبَّار : إنَّها كانت أديبة عالمة شاعرة ، وذُكرها ابن فرج صاحب « الخلائق » وأنشد لها أشعاراً منها قولها :

يا وحشني لأحبيتي يا وحشةً متماديةً
يا ليلةً ودعتهم يا ليلةً هي ما هيه

14 - ومنهن زينب المريّة^١ ، كانت أديبة شاعرة ، وهي القائلة :

يا أيها الراكبُ الغادي لطيبته عرَّجْ أنبثكَ عن بعضِ الذي أجدُ
ما عالج الناسُ من وجدٍ تضمَّنهم إلا ووجدني بهم فوق الذي وجلوا
حسبي رضاهُ وأتني في مسرَّتهِ وودّه آخرَ الأيامِ أجتهدُ

15 - ومنهن غَايَة المُنَى^٢ ، وهي جارية أندلسية متأدِّبة ، قلمت إلى المعتصم بن صُمداح ، فأراد اختبارها فقال لها : ما اسمك ؟ فقالت : غَايَة المُنَى ، فقال لها : أجزبي :

اسألوا غَايَة المُنَى

فقالت :

مَنْ كسا جسمي الضنبي
وأراني موهباً سَيَقُولُ الهوى أنا

هكذا أورد السالمي هذه الحكاية في تاريخه .

قال ابن الأَبَّار : وقرأت بخطِّ الثقة حاكياً عن القاضي أبي القاسم ابن حبيش قال : سيقت لابن صُمداح جارية نبيلة تقول الشعر وتحسن المحاضرة ، فقال :

١ سقطت هذه الترجمة من نسخة « م » ؛ وترجمة زينب المريّة في الذيل والتكملة .

٢ ترجمة غَايَة المُنَى في الذيل والتكملة وفيه ما أورده المقرئ .

تُحْمَل إلى الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها ، وكان كفيفاً ، فلماً وصلته
قال : ما اسمك ؟ فقالت : غاية المني ، فقال : أجزري :

سل هوى غايةِ المني من كسا جسمي الضنى

فقالت تبيزه :

وأراني متممياً سيقول الهوى أنا

حكى ذلك لابن صمادح ، فاشتراها ، انتهى .

16 - ومنهن حمدة ، ويقال حملونة بنت زياد المؤدب¹ من وادي آش ،
وهي خنساء المغرب ، وشاعرة الأندلس ، ذكرها الملاحي وغيره ، وممن روى
عنها أبو القاسم ابن البراق .

ومن عجيب شعرها قولها :

ولما أبى الواشونَ إلا فراقنا وما لهمُ عندي وعندك من نارِ
وشتوا على أسمعنا كل غارةٍ وقلَّ حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسيفِ والسيل والنارِ

وبعض يزعم أن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرزاق الغرناطية ، وكونها
لحمدة أشهر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وخرجت حمدة مرة للوادي مع صبية ، فلماً نضت عنها ثيابها وعامت
قالت :

١ ترجمة حمدة (أو حملونة) بنت زياد في التكملة (رقم : ٢١٢٠) والإحاطة ١ : ٤٩٨ ونخبة
القادم : ١٦٢ . المطرب : ١١ والسيوسي : ٤٨ والذيل والتكملة ، وأبوها هو زياد بن يحيى
العوفي ، وهي أخت زينب .

أَبَاحُ الدَّمْعِ أُسْرَارِي بِيَوَادِي لَسَهُ لِلْحَسَنِ آثَارٌ بِيَوَادِي
فَمَنْ نَهْرٍ يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ وَمَنْ رَوْضٍ يَرْفُ بِكُلِّ وَادِي
وَمَنْ بَيْنَ الطَّبَاءِ مَهَاةٌ لِأَنْسٍ لَهَا لِي وَقَدْ مَلَكَتْ فَوَادِي
لَهَا لِحَظٌ تُرْقِدُهُ لِأَمْرِ وَذَلِكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رِقَادِي
إِذَا سَدَلْتَ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي جَنحِ الدَّادِي^١
كَأَنَّ الصَّبِيحَ مَاتَ لَهُ شَقِيقٌ فَمَنْ حَزَنٍ تَسْرِبَلٌ بِالْحَدَادِ

وقال ابن البراق في سَوِّقِ هذه الحكاية : أنشدتنا حمدة العوفية لنفسها ،
وقد خرجت متزهة بالرملة من نواحي وادي آش فرأت ذات وجه وسيم
أعجبها ، فقالت - وبين الروایتين خلاف - : أباح الدمع ، إلى آخره ،
ونسب بعضهم إلى حمدة هذه الأبيات الشهيرة بهذه البلاد الشرقية ، وهي :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
حَلَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوقَ الْمَرْضَعَاتِ عَلَى الْقَطِيمِ
وَأَرْشَقْنَا عَلَى ظَمِئِ زُلَالًا أَلَدَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَبْصُدُ الشَّمْسَ أَنْتَى وَاجْهَتْنَا فَيَحْجِبُهَا وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ
يَرْوَعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعَدَارِي فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النِّظِيمِ

وممن جزم بذلك الرعيني ، وقال : إن مؤرخي بلادنا نسبوها لحمدة من
قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق ، وقد رأيت أن أذكر كلامه
برمته ونصه : كانت من ذوي الألباب ، وفحول أهل الآداب ، حتى إن بعض
المنتحلين تعلق بهذه الأهداب ، وادعى نظم هذين البيتين - يعني : ولما أباي
الواشون ، إلى آخره - لما فيهما من المعاني والألفاظ العذاب ، وما غره في ذلك

١ في الأصول : أفق السواد ؛ واخترنا رواية ابن عبد الملك ؛ والدادي : ثلاث ليال من آخر الشهر ؛
وفي المطرب : رأيت الصبح أشرق في الدادي .

إلاّ بُعدُ دارها ، وخلوّ هذه البلاد المشرقية من أخبارها ، وقد تلبّس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو قولها : وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ، إلى آخره ، وإن هذه الأبيات نسبتها أهلُ البلاد للمنازي من شعرائهم ، وركبوا التعصّب في جادة ادعائهم ، وهي أبيات لم يخلبها غير لسانها ، ولا رقم برديها غير إحسانها ، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهي الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود ، انتهى .
وهو أبو جعفر الأندلسي الغرناطي ، نزيل حلب .

وحكى ابن العديم في تاريخ حلب ما نصّه : وبلغني أن المنازي عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء المعري ، فلما وصل إليه أنشده الأبيات ، فجعل المنازي كلما أنشد المصراع الأوّل من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه ، ولما أنشده قوله :

نزلنا دَوْحَهُ فحنا علينا

قال أبو العلاء :

حُنُوّ الوالداتِ على الفطيم

فقال المنازي : إنّما قلتُ « على اليتيم » فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى .

وهذا يدل على أن الرواية عنده « حنوّ الوالداتِ » وقد تقدّم المرضعات ، والله تعالى أعلم .

وقال ابن سعيد : يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة « العربيات » لمحافظتهنّ على المعاني العربية ، ومن أشهرهن زينب بنت زياد الوادي آشي ، وأختها حمدة ، وحمدة هذه هي القائلة وقد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نساتها فسبحنّ في الماء وتلاعبنّ :

أَبَاحُ الدَّمْعِ أُسْرَارِي بُوَادِي

الآبيات ، انتهى .

17 - ومنهنّ عائشة بنت أحمد القرطبية^١ .

قال ابن حيّان في «المقتبس» : لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يَعدّها علماً وفهماً وأدباً وشِعراً وفصاحة ، تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم بما يعرض لها من حاجة ، وكانت حسنة الخط ، تكتب المصاحف ، وماتت عذراء لم تُنكح سنة أربعمائة .

وقال في «المغرب» : إنّها من عجائب زمانها ، وغرائب أوانها ، وأبو عبد الله الطيب عمّها ، ولو قيل «إنّها أشعر منه» لجاز . ودخلت على المظفر ابن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولد ، فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريدُ	ولا برحتُ معاليه تريدُ
فقد دلتُ محابلهُ على ما	تؤمّله وطلعهُ السعيدُ
تشوّقت الجيادُ له وهزّ الـ	حسامُ هوّى وأشرقت البنودُ
فسوف تراهُ بدرأ في سماء	من العاليا كواكبه الجنودُ
وكيف يخيبُ شبلٌ قد نمتهُ	إلى العاليا ضراغمةُ أسودُ
فأنتم آلَ عامرٍ خيرُ آلٍ	زكا الأبناء منكم والجلودُ
وليدكمُ لدى رأيٍ كشيخٍ	وشيخكمُ لدى حربٍ وليدُ

وخطبها بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه :

أنسا لبوةً لكنّي لا أرتضي	نفسى مُناخاً طولَ دهري من أحدُ
ولو أنّي أختارُ ذلك لم أجب	كلباً وكم غلقتُ سمعي عن أسدُ

١ ترجمة عائشة القرطبية في الصلة : ٦٥٤ والسيوطي : ٧١ واسم أبيها أحمد بن محمد بن قادم .

18 - ومنهنّ مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري^١ .

سكنت إشبيلية ، وأصلها والله أعلم من شلب .
وذكرها ابن دحية في « المطرب »^٢ وقال : إنّها أديبة شاعرة [جزلة] مشهورة ، وكانت تُعلم النساء الأدب ، وتحتشم لدينها وفضلها ، وعمرت عمراً طويلاً ، سكنت إشبيلية ، واشتهرت بها بعد الأربعمائة . وذكرها الحميدي ، وأنشد لها جوابها لما بعث المهدي إليها بلدانير ، وكتب إليها :

ما لي بشكرٍ الذي أوليت من قبلي
يا فذة الظرف في هذا الزمان ويا
أشبهت مريمًا العنراء في ورع
لو أنني حزت نطق اللسن في الحلال
وحيدة العصر في الإخلاص في العمل
وقفت خنساء في الأشعار والمثل
ونصّ الجواب منها :

من ذا يجاريك في قول وفي عمل
ما لي بشكرٍ الذي نظمت في عنقي
حلّيتني بحلّي أصبحت زاهية
لله أخلاقك الغر التي سقيت
أشبهت مروان من غارت بدائمه
من كان والده العضب المهتد لم
ومن شعرها وقد كبرت :

وما يُرتجى من بنت سبعين حجة
تدبُّ ديبَ الطفل تسمى إلى العصا
وسبع كنج العنكبوت المهلهل
وتمشي بها مشي الأسير المكبل

١ ترجمة مريم في الصلة : ٦٥٦ والخذوة : ٣٨٩ (وبنية الملتبس رقم : ١٥٨٤) والسيوطي : ٩٠ .
٢ يبدو أن المقرئ وهم هنا ، فأثبت نص الصلة ونسبه للمطرب ، وليس في المطرب ترجمة لمريم هذه .

19 - ومنهنّ أسماء العامرية^١ ، من أهل إشبيلية ، كتبت إلى عبد المؤمن ابن علي رسالة نمت فيها إليه بنسبها العامري ، وتسأله في رفع الانزال عن دارها ، والاعتقال عن مالها ، وفي آخرها قصيدة أولها :

عرفنا النصرَ والفتحَ المُبينَا لسيدنا أميرِ المؤمنينَا
إذا كان الحديثُ عن المعالي رأيتُ حديثكم فينا شُجُونَا

ومنها :

رويتمُ علمهُ فعلمتموه وصنتم عهدَه فغدا مَصُونَا

20 - ومنهن أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية ، سمعتُ أباه ، وكانت حاضرة النادرة ، سريعة التمثل ، من أهل العلم والفهم والعقل ، ولها تأليف في القبور ، ولما ولي أبوها قضاء المريّة دخل داره وعيناه تدرقان وجدلاً لمفارقة وطنه ، فأنشدته متمثلة :

يا عينُ صارَ الدمعُ عندكِ عادةً تبكينَ في فرحٍ وفي أحزانِ

وهذا البيت من جملة أبيات هي :

جاء الكتابُ من الحبيبِ بأنّه سيزورني فاستعبرتُ أجفاني
غلبَ السرورُ عليّ حتى إنّه من عظم فرط^٢ مسرتي أبكاني

وبعد البيت ، وبعده :

فاستقبلي بالبشر يومَ لقائه ودعي الدموعَ لليلة الهجرانِ

١ ترجمتها في الذيل والتكملة ؛ وما ورد هنا منقول عنه .

٢ م : من فرط عظم .

21 - ومنهنَّ مهجة القرطبية^١ صاحبة ولادة رحمهما الله تعالى ، وكانت من أجلّ نساء زمانها ، وعلقت بها ولادة ، ولازمت تأديبها ، وكانت من أخفّ الناس روحاً ، ووقع بينها وبين ولادة ما اقتضى أن قالت :

ولادةٌ قد صرتِ ولادةً من غيرِ بعلٍ ، فُضِّحَ الكاتمُ
حكّتْ لنا مريمَ لكنّه نخلَةٌ هذي ذكراً قائمٌ

قال بعض الأكابر : لو سمع ابن الرومي هذا لأقرّها بالتقديم .
ومن شعرها :

لئن قد حمى عن ثغرها كلّ حائمٍ فما زال يُحمى عن مُطالبه الثغرُ
فذلكَ تحميه القواضبُ والقنا وهذا حماه من لواظها السحرُ
وأهدى إليها من كان يهيم بها خوفاً ، فكتبت إليه :

يا متحفاً بالخوخِ أجابهُ أهلاً به من مثنجٍ للصدورِ
حكى تُديّ الغيدِ تفليكهُ لكنه أخزى رؤوس الأبورِ

22 - ومنهنَّ هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي ، وكانت أديبة شاعرة ، كتب إليها أبو عامر ابن يتق يدعوها للحضور عنده بعُودها :

يا هندُ هل لكِ في زيارةِ فتيةٍ نبذوا المحارمَ غيرَ شربِ السلسلِ
سمعوا البلابلَ قد شدوا فتذكروا نغماتِ عودِكِ في الثقلِ الأولِ

فكتبت إليه في ظهر رقعتة :

يا سيداً حازَ العُلا عن سادةٍ شُمَّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ

١ ترجمة مهجة في المغرب ١ : ١٤٣ والسيوطي : ٩٣ ونسبتها القرطبية تميزها عن مهجة الفرناطية وقد ترجم لثانية ابن عبد الملك .

حَسْبِي مِنَ الْإِسْرَاعِ نَحْوِكَ أَنْتِي كُنْتُ الْجَوَابَ مَعَ الرَّسُولِ الْمُقْبِلِ

23 - ومنهنَّ الشَّليبية ، قال ابن الأَبَّار : ولم أَقِفْ عَلَى اسْمِهَا ، وَكُتِبَتْ إِلَى السُّلْطَانِ يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ تَتَطَلَّمُ مِنْ وِلَاةِ بَلَدِهَا وَصَاحِبِ خِرَاجِهِ :

قَدْ آنَ أَنْ تُبْكِي الْعُيُونَ الْآبِيَةَ وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْحِجَارَةَ بَاكِيَةَ
يَا قَاصِدَ الْمِصْرِ الَّذِي يُرْجَى بِهِ إِنْ قَدَّرَ الرَّحْمَنُ رُفْعَ كِرَامِيهِ
نَادِ الْأَمِيرَ إِذَا وَقَفْتَ بِبَابِهِ يَا رَاعِيًا إِنْ الرِّعِيَةَ فَانِيهِ
أَرْسَلْتَهَا هَمَلًا وَلَا مَرَعَى لَهَا وَتَرَكْتَهَا نَهَبَ السَّبَاعِ الْعَادِيهِ
شَلْبُ كَلَا شَلْبٍ ، وَكَانَتْ جَنَّةً فَأَعَادَهَا الطَّاغُونَ نَارًا حَامِيهِ
حَافُوا وَمَا خَافُوا عَقُوبَةَ رَبِّهِمْ وَاللَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيهِ

فيقال : إنَّهَا أَلْقَيْتِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى مِصْلَى الْمَنْصُورِ ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ وَتَصَفَّحَهَا بَحْثَ عَنِ الْقِصَّةِ فَوَقَفَ عَلَى حَقِيقَتِهَا . وَأَمْرٌ لِلْمَرْأَةِ بِصَلَّةِ .
وَحَكِي أَنْ بَعْضَ قِضَاةِ لُوشَةَ كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَاقَتْ الْعُلَمَاءَ فِي مَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ وَالنَّوَازِلِ ، وَكَانَ قَبْلَ أَنْ يَتَرَوَّجَهَا ذُكْرَ لَهُ وَصَفَّهَا فَتَرَوَّجَهَا . وَكَانَ فِي مَجْلِسِ قِضَاةِ تَتَرَلُّ بِهِ النَّوَازِلَ ، فَيَقُومُ إِلَيْهَا فَتَشِيرُ عَلَيْهِ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ مَدَاعِبًا بِقَوْلِهِ :

بَلُوشَةَ قَاضٍ لَهُ زَوْجَةٌ وَأَجْكَامُهَا فِي الْوَرَى مَاضِيهِ
فِيَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ قَاضِيًا وَيَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ

فَاطَلَعَ زَوْجَتَهُ عَلَيْهِ حِينَ قَرَأَهُ فَقَالَتْ : نَاوَلَنِي الْقَلَمَ . فَنَاوَلَهَا ، فَكُتِبَتْ بَدِيهَةً :

هُوَ شَيْخٌ سُوءِ مُزْدَرِّي لَهُ شَيْبٌ عَاصِيَةٌ
كَلَّا لَنْ لَمْ يَنْتَهَ لَنْسَفْعًا بِالنَّاصِيَةِ

وسمعتُ بعضَ أشياخنا يحكي القضية عن لسان الدين بن الخطيب ، وأنه هو الذي كتب يُداعب زوج المرأة فكتبت إليه :

إنَّ الإمامَ ابنَ الخطيبِ لهُ شِوبٌ عاصيةٌ

إلى آخره ، فالله أعلم .

24 - ومنهنَّ نزهونُ الفرناطية^١ .

قال في « المغرب » : من أهل المائة الخامسة ذكرها الحجاري في « المسهب » ووصفها بخفة الروح ، والانطباع الزائد ، والحلاوة ، وحفظ الشعر ، والمعرفة بضرب الأمثال ، مع جمال فائق ، وحسن رائق ، وكان الوزير أبو بكر ابن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها ، فكتب لها مرة :

يا مَنْ لَهُ أَلْفُ خَيْلٍ من عاشقٍ وصديقِ
أراكِ خَلَيْتَ للنِّسَاءِ سِـمْتِراً في الطريقِ

فأجابته :

حللتَ أبا بكرٍ محلاً منعتُهُ سواكِ : وهل غيرُ الحبيبِ له صلدي
وإن كانَ لي كم من حبيبٍ فإتِّمَّا يُقدِّمُ أهلُ الحقِّ حُبَّ أبي بكرِ

قيل : لو قالت « وإن كان خلاني كثيراً ... إلخ » لكان أجود .

ولمَّا قال فيها المخزومي :

١ ترجمة نزهون في التحفة : ١٦٤ والمغرب ٢ : ١٢١ والذيل والتكملة والسيوطي : ٩٧ والإحاطة ١ : ٤٣٤ وقال ابن الأبار : إنها عاصرت حمدة أو قاربت عصرها ، ونقل ابن عبد الملك عنه قوله : وهو (أي القليبي) فيما أحسب أبو بكر محمد بن أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب النسائي .

على وجه نزهونٍ من الحسنِ مسحَةٍ* وتحتَ الثيابِ العارُ لو كان باديا
قواصدُ نزهونٍ تواركُ غيرها ومن قصد البحرَ استقلَّ السواقيا

قالت :

إن كانَ ما قُلْتُ حَقًّا من بعض عهدِ كريمِ
فصار ذكري ذميماً يُعزَى إلى كلِّ لومِ
وصرتُ أقبَحَ شيءٍ في صورة المخزومي

وقد تقدمت حكايتها في « الباب الأول » من هذا ، فلترجع .
وقال لها بعض الثقلاء : ما على من أكل معك خمسمائة سوط ؟ فقالت :

وذي شقوة لما رآني رأى لهُ تمنّيه أن يصلي معي جاحمَ الضربِ
فقلتُ لهُ كلها هنيئاً فإنّما خلقتُ إلى لبس المطارف والشربِ

٦٧٩ - [ابن قزمان]

وقال ابن سعيد في طالعه لما وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة واجتماعه
بجنته بقرية الزاوية من خارجها بنزهون القلاعية الأدبية ، وما جرى بينهما .
وأنتها قالت له بعقب ارتجال بديع - وكان يلبس غفارة صفراء على زي الفقهاء
حيثند - أحسنت يا بقرة بني إسرائيل ، إلا أنك لا تسرُّ الناظرين ، فقال لها :
إن لم أسرِّ الناظرين فأنا أسرُّ السامعين ، وإنّما يُطلب سرور الناظرين منك يا فاعلة
يا صانعة ، وتمكن السكر من ابن قزمان ، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى
رموه في البركة ، فما خرج إلا وهو قد شرب كثيراً من الماء ، وثيابه تهطل .
فقال : اسمع يا وزير ، ثم أنشد :

١ إن . . . الناظرين : زيادة من م .

إيه أبا بكر ولا حولَ لي بدَفَعَ أعيانٍ وأنذالِ
وذاث فرجٍ واسعٍ دافقٍ بالماءِ يحكي حالَ أذيايِ
غرقتني في الماءِ يا سيدي كَفَّرَهُ بالتغريقِ في المالِ

فأمر بتجريد ثيابه ، وخلع عليه ما يليق به ، ومَرَّ لهم يوم بَعُدَ عهدهم
بمثله . ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة إلاّ من بعد ما أجزل له الإحسان ، ومدحه
بما هو ثابت له في ديوان أزجاله . وحُكِيَ عنه فيما أظن - أعني ابن قزمان -
ويحتمل أنّه غيره أنّه تبع إحدى الملاجنات ، وكان أحول ، فأطمعته في نفسها ،
وأشارت إليه أن يتبعها ، فاتَّبَعها حتى أتت به سوق الصاغة بإشبيلية ، فوقمت على
صائغ من صيّاغها ، وقالت له : يا معلم مثل هذا يكون فص الخاتم الذي قبلت
لك عنه ، تشير إلى عين ذلك الأحول الذي تبعها ، وكانت قد كلفت ذلك الصائغ
أن يعمل لها خاتماً يكون فصّه عين إبليس ، فقال لها الصائغ : جيئني بالمثال ، فإنّي
لم أرَ هذا ولا سمعته قط ، فجاءته به عن مثال ، وحكاها بعضهم على وجه آخر
وأنها ذهبت إلى الصائغ وقالت له : صورّ لي صورة الشيطان ، فقال لها : اثمّني
بمثال ، فلمّا تبعها ابن قزمان جاءته به ، وقالت له : مثل هذا ، فسأل ابن قزمان
الصائغ فأعلمه فخجل ولعنها ، وكتب أبو بكر ابن قزمان على باب جتته :

وقائلٍ يا حُسْنها جنّةٌ لا يدخلُ الحزنُ على بابها
فقلتُ والحقُّ له صولةٌ أحسنُ منها مجدُّ أربابها

وله :

كثيرُ المالِ تمسكُهُ فيفني وقد يبقى معَ الجودِ القليلُ
ومن غرستُ يدها ثمارَ جودٍ ففي ظلِّ الثناءِ له مُقبلُ

رجع إلى أخبار نزهون بنت القليبي :

حكى أنّها كانت تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى ، فدخل عليهما أبو

بكر الكندي ، فقال يخاطب المخزومي :

لَوْ كُنْتَ تُبْصِرُ مِنْ تَجَالِسِهِ

فَأَفْهَمَ ، وَأَطَالَ الْفِكْرَ فَمَا وَجَدَ شَيْئاً ، فَقَالَتْ نَرْهُون :

لَعَدَوْتَ أَخْرَسَ مِنْ خِلَاخِلِهِ

الْبَدْرُ يَطْلُعُ مِنْ أُرْزَاتِهِ وَالْغَصْنُ يَمْرُحُ فِي غَلَاثِلِهِ

وكانت ماجنة ، ومن شعرها قولها :

لَلَّهِ دَرْءُ اللَّيَالِي مَا أَحْيَسْنَهَا وَمَا أَحْيَسْنَا مِنْهَا لَيْلَةَ الْأَحَدِ
لَوْ كُنْتَ حَاضِرْنَا فِيهَا وَقَدْ غَفَلْتُ عَيْنُ الرِّقِيبِ فَلَمْ تَنْظُرْ بِلَى أَحَدِ
أَبْصَرْتَ شَمْسَ الصُّحَى فِي سَاعِدِي قَمَرٍ بَلْ رِيمَ خَازِمَةٍ فِي سَاعِدِي أُسَدِ

٦٨٠ - [مقطعات لابن الزقاق]

وهذا المعنى متفق مع قول ابن الزقاق^١ :

وَمُرْتَجَّةِ الْأُرْدَافِ أَمَا قَوَامُهَا فَلَدَنْ وَأَمَا رِدْفُهَا فَرَدَاخُ
أَلَّتْ فَبَاتَ اللَّيْلُ مِنْ قِصْرِ بِهَا يَطِيرُ ، وَلَا غَيْرُ السَّرُورِ جَنَاحُ
فَبِتُّ وَقَدْ زَارَتْ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ يِعَانِقُنِي حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحُ
عَلَى عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَمَائِلٌ وَفِي خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدِيَّ وَشَاحُ

وابن الزقاق هذا له في النظم والغوص على المعاني الباع المديد ، ومن نظمه

قوله :

١ انظر مقطعات ابن الزقاق هذه في ديوانه : ١٢٩ ، ٢٩٥ ، ١٧٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٤ ، ١١٣ (وبعضها عن النسخة نفسها) .

رئيسُ الشرقِ محمودُ السجايا
نسميهُ بيحيى وهو ميتٌ
يعافُ الوردَ إن ظمئتُ حشاهُ
يقصّرُ عنْ مدائحه البليغُ
كما أنَّ السليمَ هو اللديغُ
وفي مالِ اليتيمِ له ولوغُ

وقوله :

كتبتُ ولو أنتي أستطيعُ
قددتُ اليراعةَ من أعلي
لإجلالِ قلدركَ بينَ البشرِ
وكان المِدادُ سوادَ البصرِ

وقوله :

غريراً يباري الصبحَ إشراقُ خدهُ
ترفُ فيه ضاحكاً أقحوانةُ
وفي مفرقِ الظلِّماءِ منه نصيبُ
ويهترُ في بُرديه منه قضيبُ

وقوله :

ومهفهفٍ نبتَ الشقيقُ بخدهِ
ماءُ الشيبيةِ والغرامِ أرقُ من
يُحيي الورى بتحيةٍ من وصلهِ
إن كنتُ أهديتُ الفؤادَ له قفلُ
واهترُ أملودُ النقا في بُردهِ
صقلِ الحسامِ المنتقى وفرندهِ
من بعد ما وردوا الحِمامَ بصدِّهِ
أيُّ الجوى بجوانحِ لم يهدهِ

وقوله :

أرقُ نسيمَ الصبا عرْفُهُ
ومرّاً بنا يتهادى وقد
ومدَّ لمبسمه راحةً
أشارتُ بتقيلها للسلامِ
وراقَ قضيبَ النقا عطفُهُ
نضا سيِّفَ أجفانه طرفُهُ
فخلتُ الأفاحَ دنا قطفُهُ
فقال فمي ليتني كفه

وقوله :

بأبي منْ لمْ يدعْ لي لحظهُ
في الهوى من رَمَقٍ حين رَمَقِ

جمعت نكهته في ثغره
وبدت خجلته في خده
عبقاً في نسقٍ يسبي الحدق
شفقاً في فلقٍ تحت غسق

وقال :

وعشية لبتُ ملاء شقيق
أبقتُ بها الشمسُ المنيرةُ مثلَ ما
لو أستطيعُ شربتها كلفاً بها
تُزهي بلونٍ للخدودِ أنيق
أبقى الحياءُ بوجنتي معشوق
وعدلتُ فيها عن كؤوسِ رحيق

وقال في مسامرة كتّاب زعماء :

لله ليلتنا التي استخذي بها
طراتُ عليّ مع النجومِ بأنجم
إن حوربوا فزعوا إلى بيضِ الظبي
فقرى البلاغة إن نظرتَ إليهم
فلقُ الصّباحِ لسُدفةِ الإظلامِ
من فتيةِ بيضِ الوجوهِ كرامِ
أو خوطبوا فزعوا إلى الأعلامِ
والبأسَ بينَ يراعةٍ وحسامِ

وقال :

ومجدّين في السرى قد تعاطوا
جنحوا وانحنوا على العيسِ حتى
نبذوا الغمضَ وهو حلوا إلى أن
غفوات الهوى بغيرِ كؤوسِ
خلتهم يُعْتَبون أيدي العيسِ
وجدّوه سلاقةً في الرؤوسِ

وقال :

وحبّبَ يومَ السبتِ عندي أنّي
ومِنَ أعجبِ الأشياءِ أنّي مسلمٌ
يُنَادِمُنِي فِيهِ الَّذِي أَنَا أَحْيَيْ
حَنِيفٌ وَلَكِنْ خَيْرٌ أَيَّامِي السَّبْتُ

ولتقتصر من نساء الأندلس على هذا المقدار ، ونعدّ إلى ما كتنا فيه من
جلب كلام بلغاء الأندلس ذوي الأقدار ، فنقول :

٦٨١ - قال الخفاجي رحمه الله تعالى ١ :

وهاتفه في البانِ تُملي غرامها علينا وتتلو من صبايتها صُحفا
عجبتُ لها تشكو الفراقَ جهالةً وقد جاوبتُ من كلِّ ناحيةٍ إلفا
ويُشجي قلوبَ العاشقينَ أنينها وما فهموا ممّا تَغَنَّتْ به حرفا
ولو صدقتُ فيما تقولُ من الأسي لما لبست طوقاً ولا خضبتُ كفاً

٦٨٢ - وقال الأستاذ أبو محمد ابن صارة :

مى تلتقي عيناى بدرَ مكارمٍ تودُّ الثريا أنها من مَواطِئِهِ
ولمّا أهلَّ المدبلحونَ بذكره وفاحَ ترابُ البيدِ مسكاً لواطئِهِ
عرفنا بحسنِ الذكرِ حُسنَ صنيعهِ كما عرِفَ الوادي بخصرة شاطئهِ

وقال يتغزل :

يا من تعرّضَ دونه شحطُ النوى فاستشرفتُ لحديثه أسماعي
إتي لمن يحظى بقربك حاسدٌ ونواظري يحسدنَ فيكَ رقاعي
لم تطوكَ الأيامُ عني إنما نَقَلتُكَ من عيني إلى أضلاعي

٦٨٣ - [مقطعات لابن العطار]

وقال الأديب أبو القاسم ابن العطار ٢ :

عبرنا سماءَ الجوّ والنهرُ مشرقٌ وليسَ لنا إلاّ الحجابَ نجومُ
وقد ألبسته الأيكُ بُردَ ظلّالها وللشمسِ في تلك البرودِ رقومُ

١ ديوان ابن خفاجة : ٣٧٠ (عن التمع).

٢ القلائد : ٢٨٥ .

وله أيضاً ١ :

لله بهجة نزهة ضربت به فوق الغدير رواقها الأنشام^٢
فمع الأصيل النهر درع سابغ^٣ ومع الضحى يلتاح فيه حسام^٤

وقال أيضاً ٣ :

هبت الريح بالعشي فحاكت وانجلي البدر بعد هدء^٥ فحاكت
زرداً للغدير ناهيك جنة كفه^٦ للقتال منه أسنة

وقال أيضاً ٥ :

لله حُسن حديقة بسطت لنا منها النفوس سواف^٦ ومعطف^٦
تختال في حلل الربيع وحليه ومن الربيع قلائد^٦ ومطارف^٦

وله ٦ :

وستان ما إن يزال عارضه يعطف قلبي بعطفه اللام
أسلمي للهوى فواحرني أن بزني عفتي وإسلامي
لحاظه أسهم^٦ ، وحاجبه قوس^٦ ، وإنسان عينه رامي

٦٨٤ - واريجل أبو جعفر ابن خاتمة رحمه الله تعالى لما بات في قرية

بيش :

١ القلائد ، والمغرب ١ : ٢٥٤ .

٢ الأنشام - بالشين - نوع من الشجر .

٣ القلائد : ٢٨٥ .

٤ م : هذا .

٥ القلائد : ٢٨٦ .

٦ القلائد : ٢٨٨ والثالث في المغرب .

لله متزلنا بقريسة ييش
رُحنا إليها والبطاح كأنها
كاد الهوى فيها ادكاراً بي يثي
صُحفٌ مذهبةٌ بإبريز العشي

فأجازه الوزير ابن جزري بقوله :

في فتية هزّت حمياً الأنس من
يأتي علاهم بالصحيح ، ولفظهم
أعطافهم فالكلٌ منها متشي
بالمنتقى ، وجمالهم بالمدش

٦٨٥ - وقال السلطان أبو الحجاج التصري مرتجلاً أيام مقامه بظاهر

جبل الفتح سنة ٨١٥ :

ولم يتركوا أوطانهم بمراهم
أقام بها ليلُ التهانى تقلباً
فَعَوَّضَتْهَا ليلَ الصبابةِ بالشرى
ولم يثنى طرفٌ من النورِ فاعسُ
ولا منهضُ الأشبالِ في عُقرِ غيرهم
وعاطبُها صُبْحَ الدباجي مُدامةً
إذا ما قطعنا بالمطبي تنوفاً
بحيثُ التقى موسى مع الخضرِ آيةً
وله :

مَنْ عاذري من غزالِ زانه حورٌ
أحاطه كسيوفِ الهندِ ماضيةً
قد هامَ لما بدا في حُسْنِهِ البشرُ
لها بقلبي وإن سالتها أثرُ

٦٨٦ - وقال القاضي أبو القاسم ابن حاتم :

شكوتَ بما دهاكَ وكان سيراً
فتلكَ مصيبةٌ عادت ثلاثاً
لمنَ ليستَ مودتهُ صحيحةً
لصحبتهِ الشماتةُ والفضيحةُ

٦٨٧ - وقال الفقيه محمد بن سعيد الأندلسي مخاطباً للفقيه الفخار :

خُضِفَ عَلَيْنَا قَلِيلاً أَيُّهَا الْعَلَمُ فَرِيماً كَانَ فِينَا مَنْ بِهِ أَلْمُ
لَا يَسْتَطِيعُ نَهوضاً مِنْ تَأَلَّمِهِ وَإِنْ تَمَادَى قَلِيلاً خَانَتْ الْقَدَمُ
كَفَى وَصِيَّةً مُولَانَا وَسِيدَنَا مُحَمَّدٍ فَاسْمَعُوا مَا قَالَ وَالتَّرْمُوا

٦٨٨ - وقال ابن جبَّير البحصبي فيمن أهلى إليه تفاحاً :

خَلِيلٌ لَمْ يَزَلْ قَلْبِي قَدِيمًا يَمِيلُ بِفِرطٍ صَاغِيَةً إِلَيْهِ
أَتَانِي مُقْبِلًا وَالْبَشْرُ بِيَدِي وَسَائِلَ بَرَّةٍ كَرَمَتْ لَدَيْهِ
وَجَاءَ بِعَرَفٍ تَفَاحٍ ذَكِيٍّ قَلْتُ أَتَى الْخَلِيلُ بِسَيُوبِهِ
فَأَهْلَى مِنْ جَنَاهُ بِكُلِّ شَكْلِ يَلُوحُ جَمَالٌ مُهْدِيهَا عَلَيْهِ

٦٨٩ - وقال قاضي مالقة سيدي إبراهيم البدوي :

قَطَعْتُ بِأَسِيٍّ فَصَنْتُ نَفْسِي عَنْ الْوَقُوفِ لَذِي وَجَاهَةٍ
قَصَدْتُ رَبِّي فَكَانَ حَسْبِي أَلْبَسَنِي فَضْلَهُ وَجَاهَةً
فَلَا يُرَى يَنْشِي عِنَانِي مَدَى حَيَاتِي إِلَّا تَجَاهَةً

٦٩٠ - وقال ابن خليل السكوني في فهرسته : شاهدت بجامع العديس
بإشبيلية ربعة مصحف في أسفار يُنْحَى بِهِ لِنَحْوِ خَطُوطِ الْكَوْفَةِ إِلَّا أَنَّهُ أَحْسَنُ
خَطًّا وَأَبْيَنَهُ وَأَبْرَعَهُ وَأَتَقَنَهُ ، فقال لي الشيخ الأستاذ أبو الحسن ابن الطفيل بن
عظيمة : هذا خط ابن مقلة ، وأنشد :

خَطَّ ابْنَ مَقْلَةَ مَنْ أَرَعَاهُ مَقْلَتَهُ وَدَتَّ جَوَارِحُهُ لَوْ أَنَّهَا مُقَلُّ

ثمَّ قَسْنَا حُرُوفَهُ بِالضَّابِطِ فَوَجَدْنَا أَنْوَاعَهَا تَتَمَاثَلُ فِي الْقَدْرِ وَالْوَضْعِ ، فَالْأَلْفَاتُ
عَلَى قَدْرِ وَاحِدٍ ، وَاللَّامَاتُ كَذَلِكَ ، وَالْكَافَاتُ وَالْوَاوَاتُ وَغَيْرَهَا بِهَذِهِ النِّسْبَةِ ،
انتهى .

قلت : رأيت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مصحفاً
بخط ياقوت المستعصي بهذه المثابة ، وهو من الأوقاف الرستمية . ورأيت بالحجرة
الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام مصحفاً مكتوباً في آخره ما صورته :
كتبه بقلم واحد فقط ما قُطَّ قَطُّ إلا مرة فقط ، انتهى .

رجع :

٦٩١ - وقال ابن عبيدُون رحمه الله تعالى :

أذهبنَ من فَرَقِ الفراقِ نفوسا	ونثرنَ من درّ الدموعِ نقيسا
فتبعتهُ نظرَ الشجيِّ فحدقتُ	رُقبأؤها نحوِي عيوناً شوسا
وحللتِ عَقْدَ الصبرِ إذ ودعني	فحللتِ أَفلاكَ الخدورِ شموسا
حلته إذ حلتهُ حتى خلتهُ	عرشاً لها وحسبتهُ بلقيسا
فازورَّ جانبُها وكان جوابُها :	لو كنتَ تهوانا صحبتَ العيسا

وهي طويلة .

قلت : ما أظن لسان الدين نَسَجَ قصيدته من هذا البحر والروي إلا على
منوال هذه ، وإن كان الحافظ التنسي قال : إنه نسجها على قصيدة أبي تمام
حسبما ذكرنا ذلك في محله ، فليراجع .

٦٩٢ - وقال أبو عبد الله ابن المناصف قاضي بكنسية ومُرسية رحمه

الله تعالى :

ألزمتُ نفسي حُمُولاً	عن رُتْبَةِ الأعلامِ
لا يَخْسِفُ البدرَ إلا	ظهورُهُ في تمامِ

وتذكرت به قول غيره :

لَيْسَ الحمولُ بعارٍ	على امرئ ذي جلالِ
فليلةُ القدرِ تخفي	وتلكَ خيرُ الليالي

٦٩٣ - وقال الوزير ابن عمّار . وقد كتب له أبو المطرف ابن الدباغ شافعاً لسلام طرّاً له عذار :

أتاني كتابك مستشفعاً بوجه أبي الحسن من رده
ومن قبل فضي ختم الكتاب قرأت الشفاعة في خده

٦٩٤ - وقال القاضي الأديب ، والفيلسوف الأريب ، أبو الوليد القشبي قاضي طليطلة^١ :

برّح بي أن علوم الوري قسمان ما إن فيهما من مزيد
حقيقة يُعجزُ تحصيلها وباطلٌ تحصيله لا يفيد

٦٩٥ - وقال أبو عبد الله ابن الصفار وهو من بيت القضاء والعلم بقرطبة :

لا تحب الناس سوا مني ما اشتبهوا فالتاس أطوار
وانظر إلى الأحجار ، في بعضها ماء ، وبعض ضمنه نار
وهذا مثل قول غيره^٢ :

الناس كالأرض ومنها هم من خشن الطبع ومن لين
مرو تشكى الرجل منه الوجي وإتمدُّ يُجعل في العين
ومن نظم ابن الصفار المذكور :

إذا نويت انقطاعاً فاعمل حساب الرجوع

٦٩٦ - وقال أبو مروان الجزيري :

ومن العجائب والعجائب جمّة أن يلهج الأعمى بعيب الأعمور

١ انظر ما تقدم ص : ١٢٧ .

٢ المصري (الكلمة : ٤٣٤) .

٦٩٧ - وقال حسّان بن المصيصي كاتب الظافر بن عباد ملك قرطبة :

لا تأمننّ من العلوّ لبعدهِ
إنّ امرأ القيس اشتكى الطمّاحا

٦٩٨ - وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي في كتابه « الإسفار
عن نتائج الأسفار » : أنشدني الكاتب الأديب أبو عمرو ابن مهيب بإشيلية أبياتاً
عملها في حمود بن إبراهيم بن أبي بكر الهرغي ، وكان أجمل أهل زمانه ،
رآه عندنا زائراً وقد خط عذاره ، فقلت : يا أبا عمرو ، ما تنظر إلى حُسن
هذا الوجه ؟ فعمل الأبيات في ذلك ، وهي :

وقالوا العذارُ جناحُ الهوى إذا ما استوى طار عن وكبره
وليسَ كذلكَ فخبّرهمُ قياماً بعذري أو عنده
إذا كملَ الحسنُ في وجنةٍ فخاتمهُ ويكّ من شعره

قال بعضهم : رأيت آخر الكتاب المذكور بعد فراغه شعراً نسبه إليه ،
وهو :

يا حاضرأ بجماله في خاطري ومُحجّباً بجلاله عن ناظري
إن غبتَ عن عيني فإنك نورها وضميرُ سرّك سائرٌ في سائري
ومن العجائبِ أني أبدأ إلى رؤياك ذو شوقٍ مليدٍ وافرٍ
مع أني ما كنتُ قطُّ بمجلسٍ إلا وكنتُ مُنادِمي ومسامري

٦٩٩ - وأنشد في « الإحاطة » لعبد الله الجذامي :

أيا سيدي أشكو لمجدك أتني صددتُ مراراً عن مثولي بساحتك
شكاةً اشتياقٍ أنتَ حقاً طيبها وما راحتي إلا بتقيلِ راحتك

قال : وهو عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن محمد الجذامي ، فاضل ملازم

للقراءة ، عاكف على الخير ، مشارك في العربية ، خاطب للرياسة الأدبية ،
اختصَّ بالأمر أبي علي المنصور ابن السلطان أيام مقامه بالأندلس ، ومما
خاطبه به معتزلاً :

أيا سيلدي . . . البيتين

انتهى .

٧٠٠ - وقال في ترجمة عبد الله بن أحمد المالقي قاضي غرناطة ، وكان
فقيهاً بارعاً الأدب : إنه كتب إلى أبي نصر صاحب « القلائد » و « المطمح »
أثناء رسالة بقوله :

تفتحت الكتابةُ عن نسيمٍ	نسيم المسك في خلقي كريمٍ
أبا نصرٍ رسمت لها رسوماً	تخالُ رسومها وضح النجومِ
وقد كانت عفت فأنرت منها	سراجاً لاح في الليل البهيمِ
فتحت من الصناعة كل بابٍ	فصارت في طريقٍ مستقيمِ
فكتابُ الزمانِ ولست منهم	إذا راموا مرامك في همومِ
فما قسُّ بأبدع منك لفظاً	ولا سحبانٌ مثلك في العلومِ

٧٠١ - وقال الذهبي ، وقد جرى ذكر محمد بن الحسن المذحجي الأندلسي
ابن الكتاني : إنه أديب شاعر متفنن ذو تصانيف ، حمل عنه ابن حزم ، ومن
شعره :

ألا قد هجرنا الهجرَ واتصل الوصلُ	وبانت ليالي البين واجتمع الشملُ
فسعدى نديمي ، والمدامة ريقها ،	ووجتتها روضي ، وتقبلها النقلُ

٧٠٢ - وقال العلامة محمد بن عبد الرحمن الغرناطي :

الشعبُ ثمَّ قبيلةٌ وعمارةٌ بطنٌ وفخذٌ والفصيلةُ تابعةٌ

فالشعبُ مجتمَعُ القبيلةِ كلتها ثمَّ القبيلةُ للعمارةِ جامعةُ
 والبطنُ تجمعهُ العماثرُ فاعلمنْ والفخذُ تجمعهُ البطونُ الواسعةُ
 والفخذُ يجمعُ للفصائلِ هاكها جاءت على نسقٍ لها متتابعةُ
 فخريمةُ شعبُ ، وإنَّ كنانةً لقبيلةً منها الفصائلُ شائعةُ
 وقريشها تُسمى العمارةَ يافتي وقُصيُّ بطنُ للأعادي قامعهُ
 ذا هاشمُ فخذُ وذا عباسها أثرَ الفصيلةِ لا تُنَاطُ بسابعهُ

وكتبتُ هذه الأبيات وإن لم تشمل على البلاغة لما فيها من الفائدة ، ولأن
 بعض الناس سألني فيها لغرابتها ، والأعمال بالنيات .

٧٠٣ - ولما دخل أبو محمد الكلاعي الجياني على القاضي ابن رشد قام
 له فأنشده أبو محمد بديهة :

قامَ ليَ السيدُ الهمامُ قاضي قضاةِ الورى الإمامُ
 فقلتُ قُمْ بي ، ولا تقم لي فقلتما يؤكَلُ القيامُ

٧٠٤ - وقال أبو عبد الرحمن ابن جحاف البكنسي :

لئن كانَ الزمانُ أرادَ حظي وحاربني بأنيابٍ وظفري
 كفاني أن تصافيتي المعالي وإن عاديتني يا أمَّ دقري
 فما اعتزَّ اللثيمُ وإن تسامى ولا هانَ الكريمُ بغيرِ وقري

٧٠٥ - وقال أبو محمد ابن برطله^١ :

ألا إنَّما سيفُ الفتى صينوُ نفسه فنافِسْ بأوفى ذمَّةٍ وإخاءِ
 يزينُكَ مرأى أو يعينُكَ حاجةً فيحسنُ حالي شدةً ورخاءِ

١ زاد في م : وقد سبق ذكره .

وقال أيضاً^١ :

أنفسي صبراً لا يروِّعكِ حادثٌ بإرتاجه واستشعري عاجلَ الفتحِ
قرباً اشتدادٍ في الخطوبِ لفرجةٍ كما انشقت ليلٌ طال عن فلتتِ الصبحِ^٢

وقال أيضاً :

مَن يَدنو لوعْدكمُ انتِجَازُ ويَبعُدُ من حَقِيقتهِ المِجَازُ
أَيجِملُ أن يَؤمَّكمُ رِجائي فيوقِفَ لا يَردُّ ولا يُجَازُ
وَجَدكمُ كَفيلُ بالأمانِ ومطلوبي قَريبُ مستِجَازُ
إذا ما أمَكتَ فَرصُ المِسامي فمِجَازُ أن يُطاوَلها انتِهازُ
وَمَا أنا قَد هَزَزتكمُ حُساماً ويَحسنُ للمِهَندَةِ اهتِرازُ
فما الإِنصافُ أن يُنصِي كَهامُ ويودِعَ غمَدَه العَضبُ الجِرازُ
كَمَا نَعَم العِراقُ بَعذبِ بَحرٍ وَيَشقِي بِالظِما البَرحِ الحِجازُ
فأَعيبِي النَّاسِ فِي المِقدارِ حُكْمُ تَجاذِبُه خَمولُ واعْتِرازُ

٧٠٦ - وأنشد الشيخ أبو بكر ابن حبيش لابن وضاح البيت المشهور ،

وهو :

أَسْرَى وَأَسِيرٌ فِي الآفاقِ مِنْ قَمَرٍ وَمِنْ نَسِيمٍ وَمِنْ طَيْفٍ وَمِنْ مَثَلٍ

١ م : وقوله وقد أجاد وأبلغ في الموعظة .

٢ زاد في م بعد هذه المقطوعة مقطوعتين لابن برطله وهما قوله :

وأمر كأن المصطلين بحره وإن لم تكن نار ووقوف على الجمر
صبرت له حتى تنام وإنما تفرج أيام الكريمة بالصبر

وقوله :

نفسى تنازحني فقلت لما اصبري موت يريحك أو صعود المنبر
ما قد قضى سيكون فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يقدر

٣ م : المقذور .

وابن حبيش المذكور هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف^١ بن حبيش
 — بفتح الحاء — وقد عرّف به تلميذه ابن رشيد الفهري في رحلته ، فقال بعد
 كلام : أما النظم فيده عنانه ، وأما النثر فإن مال إليه توكتف له بنانه^٢ ، مع
 تواضع زائد ، على صلة مخبره عائد ، لقيته بمتزله ليوم أو يومين من مقلمي
 على تونس ، فتلقي بكل فنّ يونس ، وصادفته بحالة مرض . من وث^٣ في
 رجله عرض ، وعنده جملة من العواد ، من الصلور الأمجاد ، فأذني وقرب .
 وسهّل ورحّب ، وتفاوض أولئك الصلور ، في فنون من الأدب كأنها
 الشنور ، إلى أن خاضوا في الأحاجي ، واستضاءوا بأنوار أفكارهم في تلك
 الدياجى ، فحضت معهم في الحديث ، وأنشدتهم بيتين كنت صنعتها وأنا
 حديث ، لقصة بلغني عن أبي الحسن سهّل بن مالك ، وهي أنه كان يسأل
 أصحابه وهو في المكتب ويقول لهم : أخرجوا اسمي ، فكلّ ينطق على تقديره ،
 فيقول لهم : إنكم لم تصيبوه مع أنه سهل ، فنظمت هذا المعنى فقلت :

وما اسمٌ فكهُ سهلٌ يسيرٌ يكونُ مصغراً نجماً يسيرٌ
 مُصحِّفهُ لهُ في العينِ حُسنٌ وقلبي عندَ صاحبهِ أسيرٌ

وكان الشيخ أبو بكر على فراشه ، فزحف مع ما به من ألم ، إلى محبرة
 وطيرس وقلم ، وكتب البيتين بخطه ، وقال للحاضرين : ارووا هذين البيتين
 عن قائلهما .

ومن شيوخ ابن حبيش المذكور أبو عبد الله ابن عسكر المالقي ، كتب له
 ولأخيه أبي الحسين بخطه إجازة جميع ما يجوز له ، وعنه ، وضمن آخرها هذه
 الأبيات :

١ م : يونس ؛ قلت وصوابه محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس كما أورده ابن رشيد
 في مله العيبة (١٧٣٦ من نسخة الاسكوريال) .
 ٢ ابن رشيد : عنانه .
 ٣ ابن رشيد : من ألم ، وفي هامش الرحلة : وث .

أَجَبْتِكُمْ لَكِنْ مُقِرّاً بِأَنْتِي أَقْصَرُ فِيمَا رَمْتُمَا عَنْ مَدَاكِمَا
فَإِنْكُمَا بِلَدْرَانِ فِي الْعِلْمِ أَشْرَقَا فَسَلِّمَ إِذْعَانَا وَقَسَرَ عِدَاكِمَا
فَسِيرُوا عَلَى حُكْمِ الْوَدَادِ فَإِتِّي أَجُودُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكِمَا

قال ابن رشيد : وقد جمع صاحبنا أبو العباس الأشعري لابن حبيش فهرسة جامعة ، ولما وقف عليها ابن حبيش كتب في أولها ما نصّه : الحمد لله حق حمده ، أحسن هذا الفاضل فيما صنع أحسن الله إليه ، وبالغ فيما جمع بَلَّغَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَشْرَفَ الْمَرَاتِبِ لَدَيْهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ وَاحِدَةً ، مَا سَرِيرَتِي لَهَا بِجَاهِدَةٍ ^١ ، وَأَصْرَحَ بِمَقَالِ ، لَا يَسْعِي كَتْمُهُ بِحَالِ : وَاللَّهِ مَا أَنَا لِلْإِجَازَةِ بِأَهْلٍ ، وَلَا مَرَامُهَا لَدَيَّ بِسَهْلٍ ، إِذْ مِنْ شَرَطِ الْمَجِيزِ أَنْ يَعِدَ فِيمَنْ كَمَلَ ، وَيُعِدَّ الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ ، اللَّتَمَّ غَفْرًا ، كَيْفَ يُنِيلُ مِنْ عَدَمِ وَقَرَأَ ، أَوْ يَجِيزُ مِنْ أَصْبَحَ صَدْرِهِ مِنَ الْمَعَارِفِ قَفْرًا ، وَصَحِيفَتِهِ مِنَ الصَّالِحَاتِ صِفْرًا ، وَكَيْفَ يَرْتَسِمُ فِي دِيْوَانِ الْجَلَّةِ ، مِنْ يَتَسَمُّ بِالْأَفْعَالِ الْمُخَلَّةِ ، وَمَتَى يَقْتَرِنُ الشَّبَهَ بِالْإِبْرِيْزِ ، أَوْ يَوْصَفُ السَّكِيْتِ بِالْتَبْرِيزِ ، وَمَنْ ضَعَفَ النَّهْيُ ، مَجَانَسَةَ الْأَقْمَارِ بِالسُّهَى ، وَمَنْ أَعْظَمَ التَّوْبِيْخَ ، تَشِيْخَ مِنْ لَا يَصْلِحُ لِلتَّشِيْخِ ، وَإِنْ هَذَا الْمَجْمُوعُ لَسِرْوَقٌ وَيُعْجَبُ ، وَلَكِنَّهُ جَمَعَ لِمَنْ لَا يَسْتَوْجِبُ ، وَإِنْ الْقِرَاءَةُ قَدْ تَحْصَلَتْ ، وَلَكِنْ الْقَوَاعِدُ مَا تَأَصَّلَتْ ، وَإِنْ الْقَارِئُ عَلَّمَ ، وَلَكِنْ الْمَقْرُوءُ عَلَيْهِ عَدَمٌ ، وَلَقَدْ شَكَرْتُ لِهَذَا السَّرِيِّ مَا جَلَبَ ، وَكَتَبْتُ مَسْعَفًا لَهُ بِمَا طَلَبَ ، وَقَرَنْتُ إِلَى دُرَّةِ هَذَا الْمَخْشَلَبِ ، قَلْتُ وَحَلِيْبِي عَطَلُ ، وَنَطْقِي خَطَلُ ، مُكْرَهُ أَخَاكَ ^٢ لَا بَطَلُ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْفَعُ بِمَا أَخْلَصَ لَهُ عِنْدَ الْإِعْتِقَادِ ، وَيَسْمَحُ لِلْبَهْرَجِ عِنْدَ الْإِنْتِقَادِ ، كَتَبَهُ الْعَبْدُ الْمَذْنُوبُ [الْمُسْتَغْفِرُ] ^٣ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ يُوْسُفَ بْنِ حَبِيْشِ اللَّخْمِيِّ حَامِدًا لِلَّهِ تَعَالَى

١ ابن رشيد : جاهدة .

٢ ابن رشيد : أخوك .

٣ زيادة من رحلة ابن رشيد .

ومصلياً على نبيه الكريم المصطفى وعلى آله أعلام الطهارة والهدى ومسلماً تسليماً .
 وكتب أيضاً رحمه الله تعالى في جواب استجازة : المسؤول مبنول ،
 إن شاء الله تعالى على التنجيز ، ولكن شروط الإجازة موجودة في المُجاز
 معلومة في المُجيز ، والله تعالى يصفح بكرمه ومَنِّه ، ويشكر كل فاضل على
 تحصيل ظنِّه ، وهو المسؤول سبحانه أن يحفظ بعنايته مُهجاتهم ، ويرفع بالعلم
 والعمل درجاتهم ، ويمتعمهم بالكمال الرائق المعجب ، ويقر بالنجيين عين
 المنجب ، وكتبه ابن حبيش . انتهى .

٧٠٧ - وقال الوزير الكاتب أبو بكر ابن القبطرنة يستجدي بازياً من
 المنصور بن الألفس صاحب بطليوس :

يا أيها الملكُ الذي أبأوهُ شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ
 حلَّيتَ بالنَّعمِ الجسامِ جسيمةً عنقي فحلَّ يَدِي كذاك بأجدلِ
 وامننْ بهِ ضافي الجناحِ كأتما حُدَيْتُ قوائمه بريحِ شمالِ
 متلفتاً والطلُّ ينثرُ بُردَه منهُ على مثلِ اليماني المحمَّلِ
 أغدو بهِ عجباً أُصرِّفُ في يدي ريحاً وآخذُ مطلقاً بمكبَّلِ

٧٠٨ - وأدخلتُ على المعتمد يوماً باكورة نرجس ، فكتب إلى ابن عمَّار
 يستلعيه :

قد زارنا النرجس الذكيُّ وأن من يومنا العشيُّ
 ونحنُ في مجلسِ أُنَيْقِ وقدَ ظمئنا وفيه رِيُّ
 ولي خليلِ غدا سَمِيَّيْ يا ليتَه ساعدَ السَمِيَّيْ

فأجابه ابن عمَّار :

لبيك لبيك من مُنْسادٍ له الندى الرحبُ والندىُّ

ها أنا بالبابِ عبدِ قنّ قِبَلْتَهُ وَجِهْكَ السَّيِّئُ
شَرَّفَهُ وَالِدَاهُ بِاسْمِهِ شَرَّفْتَهُ أَنْتَ وَالنَّبِيُّ

واصطبح المعتمد يوم غَيْمٍ مع أم الربيع ، واحتجب عن الندماء ، فكتب
إليه ابن عمّار :

تجهّم وجهُ الأفقِ واعتلّتِ النفسُ لأن لم تلحُ للعين أنت ولا شمسُ
فإن كانَ هذا منكما من توافقٍ وضمكما أنسُ فيهنكما الأنسُ
فأجابه المعتمد بقوله :

خليلي قولاً هل عليّ ملامةٌ إذا لم أغبُ إلا لتحضرنى الشمسُ
وأهدني بأكواس المدام كواكباً إذا أبصرتها العين هشت لها النفسُ
سلامٌ سلامٌ أنتمُ الأنسُ كلّه وإن غبتما أم الربيع هي الأنسُ

وأستدعى جماعة من إخوان ابن عمار منه شراباً في موضع هو فيه مفقود ،
فبعث لهم به وبرمانتين وتفاحتين ، وكتب لهم مع ذلك :

خذاها مثلما استدعيتهاها عروساً لا تُزَفُّ إلى اللثامِ
ودونكما بها ثديي فتاة أضفتُ إليهما خدّي غلامِ

٧٠٩ - وشرب ذو الوزارتين القائد أبو عيسى ابن لبّون مع الوزراء
والكتاب ببطنحاء لورقة عند أخيه ، وابن اليسع غائب ، فكتب إليه :

لو كنتَ تشهد يا هذا عَشِيَّتَنَا والمزُنُ يسكن أحياناً وينحدرُ
والأرضُ مُصْفَرَّةٌ بالمزُن طافية أبصرتَ دُرّاً عليه التبر يتثرُ

٧١٠ - وقال الحجاري من القصيدة المشهورة :

عليك أحالتي الذِّكْرُ الجميلُ

في وصف زيه البدوي المستقل وما في طيه :

ومثلتي بدنّ فيهِ خمرٌ يحِيفُ بهِ ومنظرُهُ ثقيلٌ

ولمّا انصرف^١ عن ابن سعيد إلى ابن هود عدله ابن سعيد على تحوله عنه ،
فقال : النفس تواقه ، وما لي بغير التغرب طاقة ، ثم قال :

يقولون لي ماذا الملل تقيمُ في محلّ فعند الأّنس تذهب راحلا
فقلتُ لهم مثل الحمام إذا شدا على غصنٍ أمسى بأخر نازلا

٧١١ - وقد رأيت أن أكفر ما تقدّم ذكره من الهزل الذي أتينا به على سبيل
الإحماض بما لا بد منه من الحكيم والمواعظ وما يناسبها ، فنقول :

١ - قال أبو العباس ابن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهموا وأقام أمرهمُ الرشادُ فقاموا
وتوسّموا بمدماع منهلّة تحت الدياجي والأثامُ نيامُ
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً جمعت لها الألباب والأفهامُ
يا صاح لو أبصرت ليلهمُ وقد صفت القلوب وصفت الأقدامُ
لرأيت نور هداية قد حفّتهم فسرى السرور وأشرق الإظلامُ
فهمُ العبيدُ الخادمون مليكهم نعم العبيدُ وأفلح الخدّامُ
سلموا من الآفات لمّا استسلموا فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

٢ - وقال العالم الكبير الشهير صاحب التآليف أبو محمد عبد الحق الإشبيلي
رحمه الله تعالى :

قالوا صف الموت يا هذا وشدّتهُ فقلتُ وامتدّ مني عندها الصوتُ

١ م : انصرف المذكور .

يكفيكم^١ أمته أن الناس إن وصفوا أمراً يروّعهم قالوا هو الموتُ

3 — وقال الخطيب الأستاذ أبو عبد الله محمد بن صالح الكناشي الشاطبي
نزيل بِنجاية :

جعلتُ كتابَ ربي لي بضاعه^٢ فكيف أخاف فقراً أو إضاعه^٣
وأعددتُ القنّاعة رأس مال وهل شيء أعزُّ من القنّاعة^٤ ؟

4 — وقال القاضي الكبير الأستاذ الشهير أبو العباس أحمد بن الغمّاز
البلنّسي نزيل لإفريقية :

هو الموتُ فاحذر أن يجيئك بغتة^٥ وأنتَ على سوء من الفعل عاكف
وإيّاك أن تمضي من الدهر ساعة^٦ ولا لحظة إلا وقلّبتُك واجف
وبادر بأعمالٍ تسرك أن تُرى إذا نُشِرت يوم الحساب الصحائف
ولا تياسن^٧ من رحمة الله إنّه ليربّ العباد بالعباد لطائف

وقال رحمه الله تعالى :

أما آنَ للنفسِ أن تخشعا^٨ أما آنَ للقلبِ أن يُقلعا^٩
أليسَ الثمانون قد أقبلتُ فلم تُبقي في لذّة مطمعا^{١٠}
تقضّي الزّمانُ ولا مطمعٌ لما قد مضى منه أن يرجعا^{١١}
تقضّي الزّمانُ فواحسرتي لما فات منه وما ضيّعنا^{١٢}
ويا ويلناه^{١٣} لذي شبيهة يطيعُ هوى النفس فيما دعا^{١٤}
وبُعداً وسحقاً له^{١٥} إذ غدا يسمع وعظماً ولن يسمعا^{١٦}

١ م ق : يكفيهم .

٢ زاد في م بعد هذا المقطوعتين التاليتين لابن الغمّاز ، وله أيضاً وهو غريب في معناه :

يا صاحب الهم إن الهم منفرج كم من أمور شداد فرج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تياسن فإن الفاتح الله

5 - وقال الأستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي رحمه الله

تعالى^١ :

كلُّ امرئٍ فيما يدين يُدانُ سبحان من لم يَخُلُ منه مكانٌ
يا عامر الدنيا ليسكنها وما هي بالتي يبقى بها سكان
نفني وتبقى الأرض بعدك مثلما يبقى المناخُ وترحل الركبان
أأسرُّ في الدنيا بكلِّ زيادة وزيادتي فيها هي النقصان^٢

وقال أيضاً رحمه الله تعالى^٣ :

وذي غنى أوهمتهُ همتهُ أنَّ الغنى عنهُ غير منفصل

الله حسبك فيما عذت منه به وأين يأمنهم من حسبه الله
إذا قضى الله فاستلم لقدرته ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
سلم إلى الله فيما شاء وأرض به فالخير أجمع فيما يصنع الله

وقال عفا الله عنه وأجاد في قوله ونصحه :

صن النفس واحملها على ما يزينها تعش سالماً والقول منك جميل
وإن قل رزق اليوم فاصبر إلى غد عسى نائبات الدهر عنك تزول
يعز غني النفس إن قل ماله ويفنى فقير النفس وهو ذليل
وما أكثر الأحياب حين تعلمهم ولكنهم في النائبات قليل

١ ديوان الإلبيري (القطعة : ٣٥ في الملحق - نقلا عن النفع) .

٢ زاد هنا في م للإلبيري قوله : وقال عفا الله عنه مبتهلا إلى مولاه :

أتيتك راجياً يا ذا الجلال ففرج ما ترى من سوء حالي
عصيتك سيدي ويلي بجهلي وعيب الذنب لم يخطر ببالي
إلى من يشتكي المملوك إلا إلى مولاه يا مولى الموالي
لعمرى ليت أمي لم تلدني ولم أغضبك في ظلم الليالي
فها أنا عبدك العاصي فقير إلى رحماك فاقبل لي سؤالي
فإن عاقبت يا ربي تصائب محقاً بالمذاب وبالنكال
وإن تعف فعموك قد أراني لأفعالي رأوزاري التكال

٣ زاد في م : في تيه النبي بغناه وهو كلا شيء في عقباه ؛ والقطعة رقم ٣٤ في ديوانه نقلا عن النفع .

يَجْرُ أذْيَالُ عَجْبِهِ بِطَرَا
بَزَّتْهُ أَيْدِي الخُطُوبِ بَزَّتَهُ
فَلَا تَتَّقُ بِالغِي فَاقْتَهُ الـ
كَفَى بِنَيْلِ الكِفَافِ عَنهُ غِي

وقال رحمه الله تعالى ١ :

لَا شَيْءَ أَحْسَرَ صَفْقَةً مِنْ عَالِمٍ
فَعَدَا يَفْرُقُ دِينَهُ أَيْدِي سَبَا
لَا خَيْرَ فِي كَسْبِ الحَرَامِ وَقَلَّمَا
فَحَذَّ الكِفَافِ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ

وقال رحمه الله تعالى ٢ :

الشَّيْبُ نَبَّةٌ ذَا التَّهْيِ فَتَنَّبَهَا
فَلَيْ مَتَى أَلْهُو وَأُخْدَعُ بِالمَنَى
مَا حَسَنُهُ إِلَّا التَّقَى لَا أَنْ يُرَى
أَتَى يِقَاتِلُ وَهُوَ مَفْلُولُ الشَّبَا
حَقَّ الزَّمَانُ هَلَالَهُ فَكَأَنَّمَا
فَعَدَا حَسِيرًا يَشْتَهِي أَنْ يُشْتَهَى
إِنْ أَنْ أَوَاهُ وَأَجْهَشُ بِالبُكََا
لَيْسَتْ تَنَبَّهُ العِظَاتُ وَمِثْلُهُ
فَقَدَّ اللدَاتِ وَزَادَ غِيًّا بَعْدَهُمْ
يَا وَيحُ مَا بِأَلِهِ لَا يَتْتَهَى

وَنهى الجُهولَ فَمَا اسْتَفَاقَ وَلَا انْتَهَى
وَالشَّيْخُ أَقْبَحُ مَا يَكُونُ إِذَا لَهَا
صَبَاً بِأَلْحَاطِ الجَادِرِ وَالمَهَا
كَابِي الجَوَادِ إِذَا اسْتَقَلَّ تَأَوَّمَا
أَبْقَى لَهُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ السَّهَا
وَلَكُم جَرَى طَلُقِ الجُمُوحِ كَمَا اشْتَهَى
لذَنُوبِهِ ضَحِكُ الجُهُولِ وَقَهَقَهَا
فِي سَنَةِ قَدِ آنَ أَنْ يَتْنَهِنَهَا
هَلَاً تَيْقِظَ بَعْدَهُمْ وَتَتَبَهَا
عَنْ غِيِّهِ وَالعَمْرُ مِنْهُ قَدِ انْتَهَى

١ في م : عفا الله عنه في علماء السوء ؛ والقطة رقم : ه في ديوانه .
٢ زاد في م : في المشيب إن حل أوانه ؛ والقطة رقم : ٨ في ديوانه .

6 - وقال الأستاذ وليُّ الله سيدي أبو العباس ابن العريف :

من لم يشافه عالماً بأصوله فيقينه في المشكلات ظنونُ
من أنكر الأشياء دون تيقنٍ وتثبتٍ فمعاندٌ مفتونُ
الكتبُ تذكرة لمن هو عالمٌ وصوابها بمحالها معجونُ
والفكرُ غواص عليها مخرجٌ والحقُّ فيها لؤلؤ مكنونُ

7 - وقال أبو القاسم ابن الأبرش :

أيأسوني لما تعظم ذنبي أتراهم همُ الغفور الرحيمُ
فدَرُونِي وما تعظم منه إنما يغفرُ العَظيمَ العظيمُ^١

8 - وقال أبو العباس ابن صقر الغرناطي أو المري ، وأصله من

سَرَقُسطة^٢ :

أرضِ العلوِّ بظاهر متصنع إن كنت مضطراً إلى استرضائه
كم من فتي ألقى بوجهٍ باسم وجوانحي تنقدُّ من بغضائه

9 - وقال الكاتب الشهير الشهيد أبو عبد الله محمد بن الأبتار القُضاعي

البَلَكَنسي رحمه الله تعالى من أبيات :

١ زاد في م : وقال وقد أحسن ظنه بالمولي تعالي سبحانه :

إذا ما بت من تَرَب فراشي وبت مجاور الرب العظيم
فهتوني صحابي ثم قولوا لك البشري قدمت على كريم

وقال غيره وأظنه من المشاركة :

قدمت على الكريم بغير زاد من الحسنات بالقلب السليم
وحمل الزاد أفتح كل شيء إذا كان القدوم على كريم

٢ هو أحمد بن عبد الرحمن بن صقر الأنصاري أصله من سرقسطة ، وخرج منها أبوه فسكن بلنسية
ثم انتقل إلى المري وبها ولد ابنه سنة ٤٩٢ وتوفي بمراكش سنة ٥٦٩ ؛ انظر التحفة : ٤٩ والوافي

٧ الورقة : ٢٢ .

يا شقيق النفس أوصيك وإن شقّ في الإخلاص ما تنتهجه
لا تبتّ في كمد من كبد ربّ ضيق عادٍ رجاً مخرجه
وبلطف الله أصبح وانقأ كلُّ كرب فعليه فرجه

ولابن الأثير المذكور ترجمة طويلة استوفيت منها ما أمكنتني في «أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها ممّا يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض» .

قال الغبريني في «عنوان الدراية»^١ : لو لم يكن له من الشعر إلاّ قصيدته السينية التي رفعها للأمير أبي زكريا رحمه الله تعالى يستنجد به ويستصرخه لنصرة الأندلس لكان فيها كفاية ، وإن كان قد نقدها ناقد ، وطعن عليه فيها طاعن ، ولكن كما قال أبو العلاء المعري :

تكلّمَ بالقولِ المضللِ حاسدٌ وكلُّ كلامِ الحاسدينَ هراءٌ

ولو لم يكن له من التأليف إلاّ كتابه المسمى بـ «معادن اللجين في مرآة الحسين» لكفاه في ارتفاع درجته ، وعلوّ منصبه وسموّ رتبته .
ثمّ قال : توفي بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفي عشرين لمحرّم سنة ٦٥٨ ، ومولده آخر شهر ربيع سنة ٥٩٥ ببيكنسية ، رحمه الله تعالى وسامحه ، انتهى .
وقال ابن علوان : إنّه يتصل سنده به من طرق ، منها من طريق الراوية أبي عبد الله محمد بن جابر القيسي الوادي آشي عن الشيخ المقرئ المحدث المتبحر أبي عبد الله محمد بن حيّان الأوسمي الأندلسي نزيل تونس عنه ، ومن طريق والذي صاحب «عنوان الدراية» عن الخطيب أبي عبد الله ابن صالح عنه ، انتهى .
قلت : وسندي إليه عن العم عن التنسي عن أبيه عن ابن مرزوق عن جدّه

١ عنوان الدراية : ١٨٥ .

٢ الغبريني : بكتاب .

الخطيب عن ابن جابر الوادي أشي به كما مرّ .

10 - وقال ابن عبد ربه :

بادرْ إلى التَّوبَةِ الخِصَاءِ مجتهداً والموتُ ويحكَ لم يمددْ إليكَ بدا
وارقب من الله وعداً ليسَ يخلفه لا بدَّ لله من إنجاز ما وعدا

11 - وقال الصلبر أبو العلاء ابن قاسم القيسي :

يا واقفَ البابِ في رزقِ يومئلهُ لا تقنطنَ فإنَّ اللهَ فاتحهُ
إن قدرَ اللهُ رزقاً أنتَ طالبهُ لا تياسنَ فإنَّ اللهَ مانحهُ

12 - وقال الأعمى التطيلي^١ :

تنافسَ النَّاسَ في الدنيا وقد علموا أنْ سوفَ تقتلهم لذاتُها بيدا
قلُّ للمحدثِ عن لقمان أو لبيد لم يترك الدهرُ لقماناً ولا لبدا
والذي همهُ البنيان يرفعهُ^٢ إنَّ الردى لم يغادر في الثرى أحدا^٣
ما لابنِ آدمَ لا تفى مطامعه^٣ يرجو غداً وعسى أن لا يعيش غدا

وقال أبو العباس التطيلي^٤ :

والنَّاس كالنَّاس إلا أن تجربهم وللبصيرة حكمٌ ليسَ للبصرِ
كالأيكِ مشتبهات في منابتها وإنما يقعُ التفضيلُ في الثمرِ

13 - وقال القاضي أبو العباس ابن الغماز البكنسي :

١ زاد في م : وقد سبق ذكره مراراً ؛ والقلمة في ديوان الأعمى : ٢٧ .

٢ الديوان : في الشرى أسدا .

٣ الديوان : مطالبه .

٤ م : وقال الفقيه العالم أبو العباس التطيلي ؛ قلت : وهذا يومهم أنه شخص آخر غير الأعمى التطيلي ،

وهو نفسه والبيتان في ديوانه : ٤٨ .

من كان يَعْلَمُ لا محالة أَنَّهُ لا بد أن يُودي وإن طالَ المَدَى
هَلَاً استعدَّ لِشَهْدِ يَجْزِي بِهِ مَنْ قَدْ أَعَدَّ مِنْ اهْتَدَى وَمَنْ اعْتَدَى
وقال أيضاً^١ :

هو الموتُ فاحذر أن يبيثك بغتةً وأنتَ على سوء من الفعل عاكف
وإيّاكَ أن تمضي من الدهرِ ساعة ولا لحظة إلاّ وقلبكَ واجف
فبادر بأعمالِ يسرك أن ترى إذا طُويتَ يوم الحساب الصحائف
ولا تياسنُ من رحمة الله إنّه لربّ العباد بالعباد لطائف

14 - ولما استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودي الشهير بـ ابن نغدة^٢ .
وأعضل داؤه المسلمين ، قال زاهد البيرة وغرناطة أبو إسحاق الإلبيري قصيدته
التونية المشهورة التي منها في إغراء صنهجة باليهود^٣ :

ألا قُلْ لصنهجة أجمعين بُدور الزمانِ وأسد العرين
مقالة ذي مقّة مُشفقٍ صحيح النصيحة دنيا ودين
لقد زلَّ سِدِّكُمْ زلّةً أقرّ بها أعينَ الشامتين
تخيّرَ كاتبه كافرأ ولو شاء كان من المؤمنين
فجزّ اليهودُ به وانتموا وسادوا وناهوا على المسلمين

وهي قصيدة طويلة ، فثارت إذ ذاك صنهجة على اليهود ، وقتلوا منهم
مقتلة عظيمة ، وفيهم الوزير المذكور - وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو
الكاتب - فأراح الله البلاد والعباد ، ببركة هذا الشيخ الذي نور الحق على كلامه
باد .

١ م : وقال رحمه الله أيضاً في الموت وأهواله ؛ وقد مرّت الأبيات ص : ٣١٦ .

٢ هذا وجه من وجوه كتابة هذا الاسم ، وكثيراً ما يرد : التفراه والتفريه .

٣ انظر ديوان الإلبيري : ١٥١ وما بعدها .

15 - وقال أبو الطاهر الجياني المشهور بابن أبي ركب - بفتح الراء وسكون الكاف^١ - :

يقول الناس في مثلٍ تذكّرُ غائباً تراهُ
فما لي لا أرى وطني^٢ ولا أنسى تذكّرهُ

وكان أبو الطاهر هذا في جملة من الطلبة ، فمر بهم رجل معه محبرة ابنوس تأتق في حليتها واحتفل في عملها ، فأراهم إيّاها ، وقال : أريد أن أقصد بها بعض الأكابر ، وأريد أن تتمموا احتفالي بأن تصنعوا لي بينكم أبيات شعر أقلمها معها ، فأطرق الجماعة ، وقال أبو الطاهر :

وأفتك من عددِ العُلا زنجيةً في حلّة من حلية تبخترُ
صفراء سوداء الحليّ كأنّها ليلٌ تطرزه نجوم تزهُرُ

فلم يغب الرجل عنهم إلا يسيراً ، وإذا به قد عاد إليهم ، وفي يده قلم نحاس مذهب ، فقال لهم : وهذا ممّا أعددت له للدفع مع هذه المحبرة ، فتفضّلوا بأكمل الصنيعة عندي بذكّره ، فبدر أبو الطاهر وقال :

حملتُ بأصفرٍ من نجار حليها تخفيه أحياناً وحيناً يظهرُ
خرسان إلاّ حينَ يرضعُ ثديها فراه ينطقُ ما يشاء ويذكرُ

قال ابن الأثير في «تحفة القادِم» : وحضر يوماً في جماعة من أصحابه وفيهم أبو عبد الله ابن زرقون في [عقب] شعبان في مكان ، فلما تملأوا من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجزّ يا أبا عبد الله ، وأنشد :

حمدتُ لشعبان المبارك شعبة تسهلّ عندي الجوع في رمضان

١ مر البيتان ص : ١١٣ ، ١٦٠ والأبيات والترجمة عن تحفة القادِم : ٢٢ بليجاز .
٢ التحفة : سكي .

كما حمدَ الصبَّ المتيِّمُ زورةً تحمَّلَ فيها المهجرَ طولَ زمانٍ
فقال :

دعوها بشعبانية ولو آههم دعوها بشعبانية لكفاني
16 - وقال أبو عبد الله ابن خميس الجزائري :

تحفظ من لسانك ، ليس شيء أحقَّ بطول سجن من لسانٍ
وكن للصمتِ ملتزماً إذا ما أردت سلامة في ذا الزمانِ
وقال أيضاً^١ :

كن حليئس بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك وافعل دائماً حسناً
وإن ظلمت فلا تحقد على أحدٍ إن الصغائن فاعلم تنشأ الفتنة
وقال :

بدا لي أن خيرَ الناسِ عيشاً من آمنه الإلهُ من الأنامِ
فليس لحائف عيشٍ لذيذ ولو ملك العراق مع الشامِ
وله^٢ :

جانب^٣ جميع الناس تسلم منهم إن السلامة في مجانبة الوري
وإذا رأيت من امرئ يوماً أذى لا تجزئه أبداً بما منه ترى
وله^٤ :

١ م : وقال وقد أجاد ونصح بموعظته .

٢ م : وقال في مجانبة الناس والعفر عن ظلمك .

٣ دوزي : سالم .

٤ م : وله في تأديب الصغار والحمد .

من أدب ابناً له صغيراً قرّت به عينه كبيراً
وأرغم الأنف من علوّ يحسدُ نعماءه كثيراً

17 - وقال أبو محمد^١ ابن هرون القرطبي :

بيدِ الإلهِ مفاتِحُ الرزقِ الذي أبوابه مفتوحة لم تُغلقِ
عجباً لذي فقيرٍ يكلفُ مثله في الوقتِ شيئاً عنده لم يخلقِ

وقال أيضاً^٢ :

لعمرك ما الإنسان يرزق نفسه ولكنّما الربّ الكريم يُسخّره
وما بيد المخلوق في الرزق حيلة تقدّمه عن وقته أو تؤخّره

18 - وقال الأديب الأستاذ أبو محمد ابن صارة رحمه الله تعالى :

يا مَنْ يُصيخُ إلى داعي السفاهِ وقد نادى بهِ الناعيانِ الشيبُ والكبرُ
إن كنتَ لا تسمعُ الذكري فقيم ثوى في رأسكِ الواعيانِ السمعُ والبصرُ
ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجل لمْ يهدِه المهاديانِ العين والأثرُ
لا الدهرُ يبقى ولا الدنيا ولا الفلكُ الا أعلى ولا النيرانِ الشمسُ والقمرُ
ليرحلنَّ عن الدنيا وإن كرها فراقها الثاويانِ البدو والحضرُ

وقال رحمه الله تعالى في ابنة ماتت له :

ألا يا موتُ كنتَ بنا رؤوفاً فجددتَ الحياةَ لنا بزوره
حمادٍ لفعلك المشكور لما كفيت مؤونة وسترت عوره
فأنكحنا الضريح بلا صداق وجهزنا الفتاةَ بغيرِ شوره

١ م : وقال محمد .

٢ م : وقال رحمه الله في الرزق وتسخيره .

19 - وأنشد أبو عبد الله ابن الحاج البكري الغرناطي :

يا غادياً في غفلة ورائحا إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخافُ موقفاً يستنطقُ اللهُ بهِ الجوارحا
يا عجباً منكَ وكنتَ مبصراً كيفَ تجنبتَ الطريقَ الواضحا
كيف تكون حين تقرا في غد صحيفةً قد ملئت فضائحا
أم كيف ترضى أن تكون خاسراً يومَ يفوزُ من يكونُ راجحا

وممن روى عنه هذه الأبيات الكاتب الرئيس أبو الحسن ابن الجياب .
وتوفي ابن الحاج المذكور سنة ٧١٥ رحمه الله تعالى .

20 - وقال حافظ الأندلس ومحدثها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم
الكلاعي رحمه الله تعالى :

إلهي مضتَ للعمُرِ سبَّعونَ حجةً ولي حركاتَ بَعْدَها وسكونُ
فيا ليتَ شعري أين أو كيفَ أومئى يكون الذي لا بدّ أن سيكونُ
والصواب أنهما لغيره كما ذكرته في غير هذا الموضع ، وبالجملة فهما
من كلام الأندلسيين . وإن لم يحقّق ناظهما بالتعيين^١ .

21 - وقال أبو بكر يحيى التطيلي رحمه الله تعالى :

إليكَ بسطتُ الكف في فحمة الدجى نداء غريق في الذنوب عريقِ
رجالكَ ضميري كي تخلّصَ جملتي وكم من فريق شافعٍ لفريقِ

22 - وحكي أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب
رقعة في ورقة بيضاء ، إن قرئت في ضوء السراج كانت فضية ، وإن قرئت في

١ انظر ص : ١١٧ وكذلك نسبها لأبي بكر ابن منخل الشلبي في التكملة : ٤٩٦ وإنما أنشدهما أبو
الربيع وقال لتلميذه إنه رآهما في ديوان ابن منخل .

الشمس كانت ذهبية ، وإن قرئت في الظل كانت حبراً أسود ، وفيها هذه الأبيات :

لئن صدتني البحر عن موطني وعيني بأشواقها زاهره
فقد زخرّف الله لي مكّة . بأنوار كعبته الزاهره
وزخرف لي بالنبي يثربا وبالملك الكامل القاهره

فقال الملك الكامل قل :

وطيّب لي بالنبي طيبة وبالملك الكامل القاهره

وأظن أن المغربي أندلسي لقوله : لئن صدني البحر عن موطني . فلذلك أدخلته في أخبار الأندلسيين ولست على تحقيق وبقين ، والله أعلم .

23 - وأنشد ابن الوليد المعروف بابن الخليفة قال : أنشدنا أبو عمر ابن

عبد البر النمري الحافظ :

تذكرت من يبكي عليّ مداوماً فلم أَلْفِ إلا العلم بالدين والخير
علوم كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله مع صحة الأثر
وعلم الألى من ناقيه وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر

وأنشد له أيضاً :

مقالة ذي نصحر وذات فوائده إذا من ذوي الألباب كان استماعها
عليكم بآثار النبي فإنه من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

24 - وقال أبو الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب الأزدي اليبُري ،

وسكن أبوه قُرطبة ١ :

عصبت هوى نفسي صغيراً وعندما رمتي الليالي بالمشيب وبالكبر

١ الذيل والتكملة ٥ : ٢٨ .

أطعت الهوى ، عكس القضية ليثني خُلقتُ كبيراً وانتقلتُ إلى الصغر
وقيل : إن ابنه أبا الحسن علي بن عبد الملك قال بيتاً مفرداً في معنى ذلك ،
وهو :

هنيئاً له^١ إذ لم يكن كابنه الذي أطاعَ الهوى في حالتيه وما اعتبر^١
وقيل : إن هذا البيت رابع أربعة أبيات^٢ .

25 — وقال أبو إسحاق ابن خنقاجة لما اجتمع به أبو العرب^٣ وسأله عن
حاله وقد بلغ في عمره إحدى وثمانين سنة ، فأشده لنفسه :

أيُّ عيشٍ أو غذاءٍ أو سِنَّةٍ لابنٍ إحدى وثمانين سِنَّةً
قلَّصَ الشيبُ به ظلَّ امرئٍ طالما جرَّ صباهُ رسنَه
تارة تسطو به سيئة تُسخِنُ العينَ وأخرى حسنه

26 — وقال أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القيسمي المالقي :

الموتُ حصَّادٌ بلا منجلٍ يسطو على القاطن والمنجلي
لا يقبلُ العذر على حالة ما كان من مشكلٍ أو من جلي

27 — وقال الشيخ عبد الحق الإشبيلي الأزدي صاحب كتاب « العاقبة »

١ الذيل : وما ائتمر ؛ وعن ابن الأبار : وما اعتذر .

٢ قلت : أورد في الذيل والتكملة ثلاثة أبيات قبله وهي :

أبي قال قولاً سار في الهدو والحضر وخلف في الباقيين ذكراً وقد غير
وأسلف إحساناً أو ان اقتباله وخاف من التقصير في حيز الكبر
لذلك ما والى أنيناً وزفرة وأصبح يهوى أن يعاد إلى الصغر
هنيئاً له (البيت)

٣ هو أبو العرب عبد الوهاب التجيبي والأبيات في بنية المتمس ص : ٢٠٣ والمعجم : ٦١ والديوان :

و «الإحكام» وغيرهما :

إنَّ في الموت والمعاد لشُغلاً وادكاراً لذي النهى وبلاغاً
فاغتم خطبتين قبل المنايا صحة الجسم يا أخي والقراغا

28 - وقال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغساني
من أهل جليانة من عمل وادي آش^١ :

ألا إنّما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجنباتِ
وأكثرُ من صاحبت يُغرق إلفه وقلّ فتى يُنجي من الغمراتِ

وكان المذكور من أهل العلم والأدب ، رحل وحج وتجوّل في البلاد ،
ونزل القاهرة المعزية ، وكان أحد السياحين في الأرض ، وله تأليف منها «جامع
أتماط الوسائل في القريض والخطب والرسائل» وأكثره من نظمه ونثره ،
رحمه الله تعالى .

29 - وقال عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعي الطرطوشي :

وما الناسُ إلاّ كالصحائف غيّرت وألسنهم إلاّ كمثل التراجمِ
إذا اشتجر الخصمان في فطنة الفتى فمقوله في ذلك أعدلُ حاكمِ

30 - وقال أبو الحكم عبد المحسن البكنسي :

من كان للدهرِ خيدناً في تصرفه أبدت له صفحةُ الدهرِ الأعاجيبا
من كان خلواً من الآداب سربله مرّ اللبالي على الأيام تأديبا

31 - وقال أبو حاتم عمر بن محمد بن فرج من أهل ميرتكة ، مدينة

بغرب الأندلس ، يمدح «شهاب» القضاعي^٢ :

١ مرأ في ج ٢ : ٦١٤ .

٢ م : يمدح بها شهاب القضاعي المشهور وهي .

شهبُ السماء ضياؤها مستور
فانزع هُدَيْتَ إلى شهاب نوره
تشفي جواهره القلوبَ من العمى
فإذا أتى فيه حديثُ محمدٍ
وترحمنَ على القضاعيِّ الذي
عنا إذا أفلكتُ تواري النورُ
متألقٌ آماله تبصير
ولطالما انشرحت بهنَّ صلور
خذ في الصلاة عليه يا مغرور
وضع الشهاب فسعيه مشكور

32 - وقال الأستاذ أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي :

ثَلَاثَةٌ يُجْهَلُ مِقْدَارُهَا الأَمْنُ وَالصَّحَّةُ وَالقُوَّةُ
فَلَا تَتَّقُ بِالْمَالِ مِنْ غَيْرِهَا لَوْ أَنَّهُ دَرٌّ وَيَاقُوْتُ^١

وتذكرت بهذا قول الآخر :

إذا القوتُ تأتي ل لك والصحة والأمنُ
وأصبحت أخا حزنٍ فلا فارقك الحزنُ

وكلُّ ذلك أصله الحديث النبوي [على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فإنه قال]^٢ : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، معه قوتٌ يومه ، فكأنما سيقت له الدنيا بحذأفيرها » .

وأخبرنا شيخنا القصار أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي مفتي مدينة فاس وخطيبها سنة عشر وألف ، قال : حدثنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي نزيل فاس الشهير بنخروف [قال]^٢ حدثنا الإمام سيدي فرج الشريف

١ زاد في م هنا المقطوعة الآتية : وقال آخر :

قميص من القطن من حله وشربة ماء قراح وقوت
ينال بها المرء ما يبتغي وهذا كثير على من يموت
وتذكرت بالأخرى . . . إلخ .

٢ زيادة من م .

الطحطاوي ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم يقول « من أصبح آمناً في سربه ... الحديث » .

رجع :

33 - وقال الأستاذ العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد بن العريف الأندلسي دفين مراکش ، وقد زرت قبره بها سنة ١٠١٠ :
إذا نزلت بساحتك الرزايا فلا تجزع لها جزع الصبي
فإن لكل نازلة عزاء بما قد كان من فقد النبي

وقال رحمه الله تعالى :

شدوا الرجال وقد نالوا المني بمنى وكسهم بأليم الشوق قد باحا
راحت ركائبهم تندي روائحها طيباً بما طاب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفى لهم راح إذا سكروا من أجله فاحا
يا راحلين إلى المختار من مضر زرتهم جسوماً وزرنا نحن أرواحا
إننا أقمنا على شوق وعن قدر ومن أقام على عندر كن راحا

34 - وقال أبو محمد المحاربي :

داء الزمان وأهله داء يعز له العلاج
أطلعت في ظلماته رأياً كما سطع السراج
لمعاشر أعيا ثقا في من قناتهم اعوجاج
كالدر ما لم تختبر فإذا اختبرت فهم زجاج

١ القطعة في الصفحة : ١٧ والواقي ٨ الورقة : ٥٠ .

٢ م : وقال الأديب .

35 - وقال أبو عبد الله غريب الثقفى القرطبي^١ :

يهددني بمخلوق ضعيف يهابُ من المنيّة ما أهابُ
له أجلٌ ولي أجلٌ وكلُّ سيبلغُ حيثُ يبلغه الكتابُ
وما يلدي لعلّ الموت منه قريبُ أيّنا قبلُ^٢ المصابُ

وله^٣ :

أيّها الآملُ ما ليس لهُ طالما غرّ جهولاً أملهُ
ربّ من بابٍ يُمنّي نفسه خاتهُ دونَ مناهِ أجلهُ
وفتّى بكَرّ في حاجاته عاجلاً أعقبَ ريثاً عجلهُ
قلّ لمن مثّل في أشعاره يدّهَبُ المرءُ ويبقى مثلهُ
نافسِ المحسنِ في إحسانه فسيكفيك مسيئاً عملهُ

قال ابن الأثير : وهذا البيت الأخير في برنامج الطنبلي .

36 - وقال أبو الحسين سليمان بن الطراوة النحوي المالقي^٤ :

وقائلة أتصبو للغواني وقد أضحى بمفرقكَ النهارُ
فقلتُ لها حثت على التصابي «أحقُّ الخيل بالركض المعارُ»

37 - وقال الحافظ أبو الربيع ابن سالم :

إذا برّمتَ نفسي بحالٍ أحلتها على أملٍ ناءٍ فقرتَ به النفسُ

١ غريب بن عبد الله الطليلي من قدامى الشعراء ، وكان أهل بلده يشاورونه في أمورهم ؛ انظر الجذوة : ٣٠٧ (وبنية الملتبس رقم : ١٢٨١) والمغرب ٢ : ٢٣ والقطعة الأولى في المصادر المذكورة .

٢ قبل : رواية الجذوة ، وفي الأصول : أيتامته .

٣ م : وله أيضاً في طول الأمل وما الأمل إلا غرور .

٤ انظر أخبار وتراجم أندلسية (السلفي) : ١٧ .

وَأَنْزِلُ أَرْجَاءَ الرَّجَاءِ رِكَائِي إِذَا رَامَ لِلْمَأْمَى بِسَاحَتِي الْيَأْسَ
وَأِنْشُدُهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِ« الذِّخَائِرِ وَالْأَعْلَاقِ فِي أَدَبِ النَّفُوسِ وَمَكَارِمِ
الْأَخْلَاقِ » :

38 — وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ سَلَامُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامِ الْبَاهِلِيِّ الْإِشْبِيلِيِّ^١ مِمَّا
أَنْشُدَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِ« الذِّخَائِرِ وَالْأَعْلَاقِ فِي أَدَبِ النَّفُوسِ وَمَكَارِمِ
الْأَخْلَاقِ » :

إِذَا تَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ فَضَائِلُهُ وَقَامَتْ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ دَلَائِلُهُ
فَلَا تَنْكَرُ الْأَبْصَارُ مَا هُوَ فَاعِلُهُ وَلَا تَنْكَرُ الْأَسْمَاعُ مَا هُوَ قَاتِلُهُ
وَكَانَ أَبُو الْمَذْكُورِ مِنْ وَرَثَةِ الْمُعْتَمَدِ بْنِ عِبَادٍ ، رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى الْجَمِيعَ .

39 — وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الزُّبَيْدِيُّ اللُّغَوِيُّ :

اتْرَكَ الْمَهْمَ إِذَا مَا طَرَقَكَ^٢ وَكَلَّ الْأَمْرَ إِلَى مِنْ خَلَقَكَ^٣
وَإِذَا أَمَّلَ قَوْمٌ أَحَدًا فِإِلَى رَبِّكَ فَاْمَدِدْ عُنُقَكَ^٤

40 — وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَيْسِيُّ الشُّلَّبِيُّ الْمَعْرُوفُ
بِابْنِ الطَّلَاءِ : فَأَوْضَتْ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ شَبْرِينَ^٢ مَا يَحْذَرُ مِنْ فَتْنَةِ النَّظَرِ إِلَى
الْوَجْهِ الْحَسَنِ ، قَلَّتْ :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى ذِي رَوْتَقٍ أَبَدًا وَاحْذَرِ عُقُوبَةَ مَا يَأْتِي بِهِ النَّظْرُ
فَكَمْ صَرِيحَ رَأْيَانَهُ صَرِيحَ هَوَى مِنْ نَظْرَةٍ قَادَهَا يَوْمًا لَهُ الْقَدْرُ
فَأَجَابَنِي فِي الْمَعْنَى الَّذِي انْتَحَيْتَهُ :

١ سلام — بتخفيف اللام — كان شيخاً جليلاً أديباً شاعراً وله خطب بارعة ومقامات سبع ، وقد أودع
كتابه المذكور جملة وافرة من شعره ؛ توفي بشلب سنة ٥٤٤ هـ (الذيل والتكملة ٤ : ٤٨) .
٢ زاد في م : العالم الفقيه المحدث ، فسألته ما يحدث وما . . . إلخ .

إذا نظرت فلا تُولعُ بتقليبِ فربما نظرة عادت بتعذيبِ

و « رب » هنا للتكثير .

41 - وقال الأستاذ ابن حَوْط الله :

أتلدري أنّكَ الخطَاءُ حقّاً وأنّكَ بالذي تأتي رهينُ
وتغتاب الألى فعلوا وقالوا وذلك الظنُّ والإفكُ المئينُ

قال في « الإحاطة »^١ : أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حَوْط الله الأنصاري الحارثي ، كان فقيهاً جليلاً أصولياً كاتباً أديباً شاعراً متفنناً في العلوم ورعاً ديباً حافظاً ثبناً فاضلاً ، درس كتاب سيويه ومستصفي أبي حامد الغزالي ، وكان ، رحمه الله تعالى ، مشهوراً بالعقل والفضل ، معظماً عند الملوك . معلوم القدر لديهم ، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية ، مقدماً في ذلك بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار ، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبته وسلا وميورقة . فتظاهر بالعدل ، وعُرف بما أبطن من الدين والفضل ، وكان من العلماء العاملين ، بجانب أهل البدع والأهواء ، بارع الخط ، حسن التقييد ، وسمع الحديث ، فحصل له سماع لم يشاركه فيه أحد من أهل الغرب ، وسمع على الجهابذة كإبن بشكّوال وغيره ، وقرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار وصغار ، وكل له على أبي محمد ابن عبد الله بين قراءة وسماع نحو من ستة وثلاثين تأليفاً ، منها الصحيحان ، وأكثر عن ابن حبيش وابن الفخار والسهيلي وغيرهم ، ومولده في محرم سنة ٥٤١ ، ومات بغرناطة سحر يوم الخميس ثاني ربيع الأول سنة ٦١٢ ، ونُقل منها في تابوته الذي أُلحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة إلى مالقة قدفن بها ، رحمه الله تعالى ، انتهى ، وبعضه بالمعنى مختصراً .

١ الإحاطة ، الورقة : ٢١٩ .

وللمذكور ترجمة واسعة جداً ، وألمتُ بما ذكر على وجه التبرك بذكره .
رحمه الله تعالى ورضي عنه .

42 - وقال أبو المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي^١ :

يُجَنِّفِي الْفَقِيرَ وَيَغْشَى النَّاسُ قَاطِبَةً بَابَ الْغَيِّْ ، كَذَا حَكَمَ الْمَقَادِيرِ
وَأِنَّمَا النَّاسُ أَمْثَالُ الْفَرَاشِ فَهَمَّ يَرُونَ حَيْثُ مَصَابِيحُ الدَّنَائِرِ

وقال تلميذه ابن الأثير : أنشدني بعض أصحابنا عنه هذين البيتين ، ولم
أسمعهما منه ، انتهى .

قلت : وبهذا تعرف وَهَمَّ من نسب البيتين إلى عبد المهيمن الحضرمي ، فإن
هذا كان قبل أن يُخَلِّقَ والده عبد المهيمن الحضرمي ، وقد أنشدهما أيضاً ابن
الجلاب الفهري في «روح الشعر وروح الشجر» .

43 - وقال أبو محمد القاسم بن الفتح الحجاري المعروف بابن افریولة :

رَكَابِي بِأَرْجَاءِ الرَّجَاءِ مُنَاحَةٌ وَرَائِدَهَا عِلْمِي بِأَنَّكَ لِي رَبُّ
وَأَنَّكَ عَلَامٌ بِمَا أَنَا قَائِلٌ كَمَا أَنْتَ عَلَامٌ بِمَا أَضْمَرُ الْقَلْبُ
لَنْ آدَهَا ذَنْبٌ تَوَلَّتْ بَعِيْثُهُ لَقَدْ قَرَعْتَ بَاباً بِهِ يُغْفَرُ الذَّنْبُ
وقال أيضاً^٢ :

عَجِباً لِحَبْرٍ قَدْ تَيَقَّنَ أَنَّهُ سِيرَى اقْتِرَافَ يَدِيهِ فِي مِيزَانِهِ
ثُمَّ امْتَطَى ظَهْرَ الْمَعَاصِي جَهْرَةً لَمْ يَثْنِهِ التَّائِبُ عَنْ عَصِيَانِهِ
أَنْتَى عَصَى وَلِكُلِّ جِزْءٍ نِعْمَةٌ مِنْ نَفْسِهِ وَزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ

44 - وقال الشاعر الكبير الشهير أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجير الفهري :

١ انظر ما تقدم ج ٣ : ٣٧٩ .
٢ م : وما ينسب إليه أيضاً قوله .

إن الشدائد قد تغشى الكريم لأن تين فضل سجاياه وتوضحه
كبرد القَيْنِ إذ يعلو الحديد بهِ وليس يأكلُهُ إلا ليصلحه
وقال^١ :

لا تغبط المجذب في علمه وإن رأيت الخصب في حاله
إنّ الذي ضيَّعَ من نفسه فوقَ الذي ثَمَرَ من ماله

45 - وقال أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري المنصفي البكّسي^٢ :

قالَتْ ليَ النفس أذاك الردى وأنّت في بحر الخطايا مقيم
هلاًّ اتخذت الزاد قلتُ اقصري هل يحمل الزاد لدار الكريم

وكان المنصفي المذكور صالحاً ، وله رحلة حجّ فيها ، ومال إلى علم التصوّف ،
رحمه الله تعالى ، وله فيه أشعار حُمِلت عنه .

46 - وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ القرشي الأموي

الأندلسي^٣ مخمّساً أبيات عز الدين بن جماعة قاضي القضاة رحمه الله تعالى :

هَمُّ الأبيّ على مقدار منصبه وبسطُ راحته في طيِّ منصبه
ما أنت والدهر تشكو من تقلّبه يا مبتلئ بقضاء قد بليت بهِ
عليك بالصبرِ واحذر يا أخي جزعك

صبراً فللصبر في حرب العدا عددُ ذرِّ العلوِّ يُمِتُّه الغيظُ والحسدُ
ولا يكن لك إلا الله معتمدُ واعلم بأن جميع الخلق لو قصلوا
أذاك لم يقدرُوا والله قد رفعك

١ م : ومن نكته العجيبة قوله .

٢ انظر ما تقدم ج ٣ : ٥٩٥ .

٣ ترجم له الصفدي (الوافي ٣ : ٣٧٥) ، وكان من لقيه بالقاهرة ، ولقبه بحب الدين وله كنية
أخرى هي « أبو البقاء » .

أَعْلَاكَ فِي رَتَبٍ غَرَّ مَعْظَمَةٌ بِالْعَرَفِ مَعْرُوفَةٌ بِالْعِلْمِ مَعْلَمَةٌ
وَمَنْ يَنَاوِيكَ فِي بَهْمَاءٍ مَظْلَمَةٌ فَاصْرِفْ هَوَاكَ وَجَانِبَ كُلِّ مَظْلَمَةٍ
وَاصْحَبْ فِدَيْتَكَ مِنَ النَّصِيحِ قَدْ نَفَعَكَ

قَدْ اجْتَلَبْتَ مِنَ الْأَيَّامِ تَبْصِرَةً وَقَدْ كَفَاكَ الْهَدَى وَالذِّكْرُ تَذْكَرَةٌ
فَاشْكُرْ وَقَدِّمْ مَعَ الْإِخْلَاصِ مَعْذِرَةً وَاسْأَلْ إِهْلَكَ فِي الْإِسْحَارِ مَغْفِرَةً
مِنْهُ وَكُنْ مَعَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَكَ

وتوفي المذكور بالقاهرة في الطاعون العام سنة ٧٤٩ .

47 - وقال أبو عبد الله الحُمَيْدِيُّ ١ :

النَّاسُ نَبَتْ وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ لَهَا رُوضٌ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ الْمَاءُ وَالزَّهْرُ
مَنْ كَانَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ حَاكِمَهُ فَلَا شُهُودَ لَهُ إِلَّا الْأَلَى ذَكَرُوا
وقال أيضاً :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ عِنْدَ فَتَاةٍ أَرْجٌ فَإِنَّ بَقَاءَهُ كَفَنَاتِهِ
بِالْعِلْمِ يَحْيَا الْمَرْءُ طُولَ حَيَاتِهِ فَإِذَا انْقَضَى أَحْيَاةَ حَسَنٍ ثَنَاتِهِ
وقال أيضاً :

دِينُ الْفَقِيهِ حَدِيثٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ عِنْدَ الْحِجَاجِ وَإِلَّا كَانَ فِي الظُّلْمِ
إِنْ تَاهَ ذُو مَذْهَبٍ فِي قَفْرِ مَشْكَلَةٍ لَاحَ الْحَدِيثُ لَهُ فِي الْوَقْتِ كَالْعَلَمِ
ولمَّا تعرَّضَ بَعْضُ مَنْ لَا يُبَالِي بِمَا ارْتَكَبَ إِلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ :

أَرَى الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا يَظَلُّ كَثِيرُهُ وَيَنْقُصُ نَقْصًا وَالْحَدِيثُ يَزِيدُ

١ م : محمد الحميدي الأندلسي .

فلو كان خيراً كان كالحير كله ولكن شيطان الحديث مرید
 ولا بن معین فی الرجال مقالة سئسأل عنها والمليك شهيد
 فإن يكُ حقاً قوله فهي غيبة وإن يكُ زوراً فالقيصاص شديد

أجابه الإمام أبو عبد الله الحميدي بقصيدة طويلة ، منها :

وإني إلى إبطال قولك قاصد ولي من شهادات النصوص جنود
 إذا لم يكن خيراً كلام نيتنا لديك فإن الحير منك بعيد
 وأقبح شيء أن جعلت لما أتى عن الله شيطاناً وذاك شديد
 وما زلت في ذكر الزيادة معجباً بها تبتدىء التليس ثم تعيد
 كلام رسول الله وحبي ومن يرمُ زيادة شيء فهو فيه عنيد

ومنها ١ في ابن معين :

وما هو إلا واحد من جماعة وكلهم فيما حكوه شهود
 فإن صد عن حكم الشهادة جاهل فإن كتاب الله فيه عتيد
 ولولا رواة الدين ضاع وأصبحت معالمه في الآخرين تبيد
 هم حفظوا الآثار من كل شبهة وغيرهم عما اقتنوه رقود
 وهم هاجروا في جمعها وتبادروا إلى كل أفتي والمرام كؤود
 وقاموا بتعديل الرواة وجرحهم فدام صحيح النقل وهو جديد
 بتبليغهم صنحت شرائع ديننا حدود تحروا حفظها وعهود
 وصح لأهل النقل منها احتجاجهم فلم يبق إلا عاند وحقود
 وحسبهم أن الصحابة بلغوا وعنهم روى لا استطاع جُحود
 فمن حاد عن هذا اليقين فمارق مرید لإظهار الشكوك مرید

١ م : ومن هذه القصيدة .

ولكن إذا جاء الهدى ودليله فليس لموجود الضلال وجود
وإن رام أعداء الديانة كيدها فكيدهم بالمخزيات مكيد

48 - وقال أبو بكر محمد بن محرز الزهري البَلَنْسِي^١ ، والتزم الرءاء في
كل كلمة :

اشكر لربك وانتظر في إثر عسر الأمر يسرا
واصبر لربك وادخر في سر ضر الفقر أجرا
فالدهر يعثر بالورى والصبر بالأحرار أحرى
والوفر أظهر معشرا والفقير بالأخيار يغرى

وقال أيضاً :

اقنع بما أوتيته تنل الغنى وإذا دهتك ملة فتصبر
واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رُما زيادة ذرة لم تقدر
والله أرحم بالعباد فلا تسل بشراً تعش عيش الكرام وتوَجِر
وإذا سخطت لضر حالك مرة ورأيت نفسك قد عدت فاستبصر
وانظر إلى من كان دونك تدكر لعظيم نعمته عليك فتشكر

49 - وقال الحافظ أبو محمد ابن حزم^٢ : أنشدني والذي أحمد بن سعيد
ابن حزم :

إذا شئت أن نحا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيت بلونها

50 - وقال القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البَلَنْسِي نزيل تونس :

وقالوا أما نخشى ذنوباً أتيتها ولم تك ذا جهل فتعذر بالجهل

١ ترجمته في التحفة : ١٤٣ .

٢ الجنوة : ١١٨ .

فقلتُ لهم هبني كما قد ذكرتُمُ تجاوزتُ في قولي وأسرفتُ في فعلي
 أما في رضى مولى الموالي وصفحه رجاءً ومسلاةً لمقترفٍ مثلي
 وأنشد رحمه الله تعالى لنفسه في اليوم الذي مات فيه ، وهو آخر ما سُمع
 منه ليلة عاشوراء سنة ٦٩٣ :

أدعوكَ يا ربَّ مضطراً على ثقة بما وَعَدتَ كما المضطربُ يدعو
 داركُ بعفوكَ عبداً لم يزل أبدأ في كل حال من الأحوال يرجو
 طالَت حياتي ولما أتخذُ عملاً إلا محبةً أقوامٍ أحبُّوكا

51 - وقال ابن الزقاق ، ويقال إنها مكتوبة على قبره ١ :

الإخواننا والموتُ قد حالَ دوننا وللموتِ حُكْمٌ نافذٌ في الخلائقِ
 سبقتكمُ للموتِ والعمرُ طيبةٌ وأعلمُ أن الكُلَّ لا بُدَّ لاحقي
 بعيشكمُ أو باضطجاعي في الترى ألم نكُ في صفو من العيشِ رائقِ
 فمن مرَّ بي فليمضِ لي مترحماً ولا يكُ متَسبياً وفاءً الأصادقِ

52 - وقال الخطيب ٢ أبو عبد الله محمد بن صالح الكتاني الشاطبي ،
 ومولده سنة ٢٦١٤ :

أرى العمرَ يفتني والرجاءُ طويلُ وليسَ إلى قرب الحبيبِ سبيلُ
 جباه إله الخلق أحسن سيرة فما الصبر عن ذاك الجمال جميل
 متى يَشغبي قلبي بلثم ترابه ويسمح دهر بالمزار بجيـل
 دلتُ عليه في أوائل أسطري فذاك نبيُّ مُصطَفَى ورسول

١ ديوانه : ٢٠٥ .

٢ زاد في م : الجليل الصالح الفقيه .

٣ م : الشاطبي الأندلسي ومولده بشاطبة . . . إلخ .

53 - وقال أيمن بن محمد الغرناطي نزيل طيبة على ساكنها الصلاة

والسلام :

أرى حُجراتٍ قد أحاطت عِراصُها ببحر المعالي والمعاني وإن طَمَتُ
لدى بلحة تفتى وعن هوله نبي عمداً المحمود في كلِّ موطن
أبو القاسم المختار من خيرِ معدنِ نبيٍّ إذا أبصرت غرةً وجهه
تيقنت أن العزَّ عزُّ المهيمنِ لك الله من بدر إذا الشمس قابلت
مُحيّاه قالت إنَّ ذا طالعٍ سَيِّ

وله ١ :

كلّ القلوب مطيعة لك في الهوى جانبُ فديتكَ من تشاء ووَآلِ
والحسنُ والِ ، والقُلُوبُ رعيّة وعلى الرعيّة أن تطيع الوالي

وقال أيضاً ٢ :

ألا أيها الباكي على ما يفوته من الحظِّ في الدنيا جهلت وما تلدي
على فوتِ حظِّ من جوارِ محمد حقيقٌ بأن تبكي إلى آخر العمرِ
ستلدي إذا قمنا وقد رفع اللوا وأحمدها ديناً إلى موقف الحشرِ
من الفائز المغبوط في يوم عرضه أجارُ النبيِّ المصطفى أم أخو الوافر

وله :

فررت من الدنيا إلى ساكن الحمى فراراً محبِّ لائذٍ بحبيبِ
بلأت إلى هذا الجناب ، وإتما بلأت إلى سامي العِمادِ رَحيبِ
وناديتُ مولاي الذي عنده الغنى نداءً عليلٍ في الزمانِ غريبِ

١ م : ومن عجب قوله ورقيق تغزله قوله .

٢ م : وقال أيضاً يفخر بسيدنا محمد (ص) .

أمولايَ إنِّي قد أتيتك لاثداً وأنتَ طيبي يا أجلَّ طيب
فقال لك البشرى ظفرت من الرضى بأوفر حظٍّ مُجْزَلٍ ونصيب
تناومتُ في أطلال ليل شيبتي فأدركني بالفجرُ صبحُ مشبي

54 - وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي :

لو لم تكن نارٌ ولا جنَّةَ للمرء إلاَّ أنه يُقْبَرُ
لكان فيه واعظٌ زاجرُ ناهٍ لمن يسمعُ أو يبصرُ

ولقد صدق رحمه الله تعالى ورضي عنه .

55 - ولبعض فقهاء طليبة :

رأيتُ الانقباضَ أجلَّ شيءٍ وأدعى في الأمور إلى السلامة
فهذا الخلقُ سألهمُ ودعهم فرؤيتهم تؤول إلى الندامة
ولا تُعنى بشيءٍ غير شيءٍ يقود إلى خلاصك في القيامة

56 - وأمر الكاتب أبو بكر ابن مغاور بكتِّب هذه الأبيات على قبره ،

وهي له^١ :

أيتها الواقِفُ اعتباراً بقبري استمع فيه قول عظمي الرَّميمِ
أودعوني بطنَ الصريحِ وخافوا من ذنوبِ كلومها بأديمي
قلتُ لا تجزعوا عليَّ فإنِّي حسنُ الظنِّ بالرؤوفِ الرحيمِ
ودعوني بما اكتسبتُ رهيناً غلِقَ الرهنُ عند مولى كريمِ

57 - وقال^٢ الخطيب ابن صفوان :

١ مرت ثلاثة من هذه الأبيات في ج ٢ : ٣٣١ .
٢ م : وقال العالم العلامة .

رَأَيْتُكَ يُدُنِّيَنِي إِلَيْكَ تَبَاعُدِي فَأَبْعَدْتُ نَفْسِي لِابْتِغَائِي فِي الْقَرَبِ
 هَرَبْتُ لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ بِي الْبَعْدُ فِي قَرْبِي فَصَحَّ بِهِ قَرْبِي
 فَيَارِبْ هَلْ نَعْمَى عَلَى الْعَبْدِ بِالرَّضَى يَنَالُ بِهَا فَوْزاً مِنَ الْقَرَبِ بِالْقَرَبِ
 وقال الوادي آشي :

وهذا النظم معناه جليل ، وتكرار القرب وإن قبح عند العروضي فهو عند
 المحب جميل ، وهمُ القومُ يُسَلِّمُ لهم في الأفعال والأقوال ، وترتجى بركتهم
 في كل الأحوال ، انتهى .

58 - وقال بعض قدماء الأندلس :

سَمْتُ الْحَيَاةَ عَلَى حُبِّهَا وَحَقُّ لَذِي السَّقْمِ أَنْ يَسْأَمَا
 فَلَا عَيْشَ إِلَّا لَذِي صِحَّةٍ تَكُونُ لَهُ لِلتَّقَى سَلَامَا
 وذيله آخر منهم فقال :

وَلَا دَاءَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَزَلْ يُقَارِبُ فِي دِينِهِ مَاثِمَا
 فَلَسْتَ تُعَالِجُ جَرَحَ الْهَوَى هُدَيْتَ بِمَثَلِ التَّقَى مَرْهَمَا

59 - وقال أبو جعفر أحمد^١ السياسي القيسمي المري :

إِذَا مَا جَنَى يَوْمًا عَلَيْكَ جَنَايَةً ظُلُومٌ يَدُقُ السَّمْرَ بِأَسَا وَيَقْصِفُ
 فَلَا تَنْتَقِمُ يَوْمًا عَلَيْهِ بِمَا جَنَى وَكَيْلُ أَمْرِهِ لِلدَّهْرِ فَالِدَّهْرِ مَنْصِفُ
 وقال أيضاً^٢ :

لَيْسَ حَلْمٌ الضَّعِيفِ حَلْمًا، وَلَكِنْ حَلْمٌ مِنْ لَوْ يَشَاءُ صَالِ اقْتِدَارَا

١ أحمد : سقطت من ق ؛ ولعل السياسي أن تكون « البياسي » .
 ٢ م : وله أيضاً في الحلم والتجاوز عن سيئات من زل إن هفا .

مَنْ تَغاضَى عَنِ السَّفِيهِ بِحِلْمٍ أَصْبَحَ النَّاسُ دُونَهُ أَنْصَارًا
مَنْ يَزُوجُ كَرِيمَةَ الْهَمَّةِ الْعُلَا يَا عَلَوًّا فَقَدْ أَجَادَ الْخِيَارَا
سْتَرِيهِ عِنْدَ الْوَلَادِ بِنَيْهَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ كِبَارَا

60 - وقال الخطيب الصالح أبو إسحاق ابن أبي العاصي :

اعمل بعلمك تُؤْتِ عَلِمًا إِنَّمَا جَدَّوَى عُلُومِ الْمَرْءِ نَهْجُ الْأَقْوَامِ
وَإِذَا الْفَتَى قَدْ نَالَ عَلِمًا ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ
وقال موطنًا على البيت الأخير :

أَمْوَالِي أَنْتَ الْعَفْوُ الْكَرِيمُ لِبِذْلِ النَّوَالِ وَالْمَعْدْرَةِ
عَلِيَّ ذُنُوبٌ وَتَصْحِيفُهَا وَمِنْ عِنْدِكَ الْجُودُ وَالْمَغْفِرَةُ

61 - وقال الخطيب المتصوف الشهير أبو جعفر أحمد بن الزيات من

بلش مالقة :

يُقَالُ خِصَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَلْفٌ وَمَنْ جَمَعَ الْخِصَالَ الْأَلْفَ سَادَا
وَيَجْمَعُهَا الصَّلَاحُ فَمَنْ تَعَدَّى مَذَاهِبَهُ فَقَدْ جَمَعَ الْفَسَادَا

وقال أيضاً :

إِنْ شِئْتَ فَوْزًا بِمَطْلُوبِ الْكِرَامِ غَدَا فَاَسْأَلُكَ مِنَ الْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ مِنْهَا جَا
وَإِغْلَبْ هَوَى النَّفْسِ لَا يَغْرُرَكَ خَادِعُهُ فَكُلُّ شَيْءٍ يَحِطُّ الْقَدْرُ مِنْهَا جَا

62 - وقال الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة

البكري الشنبري رحمه الله تعالى^١ :

١ انظر أيضاً ما تقدم ص : ١١٧ .

بَنُو الدنْيا بِجَهْلِ عَظَمَواها فَجَلَّتْ عِندَهُم وَهِيَ الحَقِيرَةُ
يُهاشِرُ بَعْضُهُم بَعْضاً عَلَيْها مُهاارِشَةَ الكلابِ عَلى العَقيرةِ

وقال :

أَيُّ عَذْرِ يَكُونُ لا أَيُّ عَذْرِ لابنِ سَبعينِ مُولِحٍ بالصُّبابَةِ
وهُوَ ماءٌ لَمْ تُتَبَّعْ مِنْهُ اللَّيالي في إناءِ الحَياةِ إِلا صُبابَهُ

وقال أيضاً :

ولقد طَلَبْتُ رِضىَ البَريَةِ جَاهدًا فإذا رِضاهُم غَايةٌ لا تُدرَكُ
وأرى القِناعةَ لِلْفَتى كَترًا لَه والبرُّ أَفضَلُ ما بِهِ يَتمسِكُ

63 - وقال أبو محمد ابن صاحب الصلاة الداني ، ويُعرف بعبودون :

وعَجَلَّ شَيبِي أنْ ذَا الفِضْلِ مُبْتَلَى بَدَهْرٍ غِدا ذُو النَقْصِ فيه مُؤمِّلًا
ومِن نَكَدِ الدُّنيا عَلى المرءِ أن يَترى بِها الحُرَّ يَشقى واللَّيْمَ مَموَّلًا
مَتى يَنعمُ المَعزُّ عَينًا إذا اعْتَضى جَوادًا مُقلًّا أو غَنيًا مَبخَلًا

64 - وقال أبو الحكم عبيد الله الأموي مولاهم الأندلسي :

إذا كانَ إِصلاحِي لِجِسمِي واجِبًا فإِصلاحِ نَفسِي لا مَحالةٌ أوْجَبُ
وإن كانَ ما يَفيءُ إلى النَفسِ مَعبِياً فإنَّ الَّذي يَبقى إلى العَقلِ أَعجَبُ

65 - وقال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإليري رحمه

الله تعالى :

لِللهِ أَكياسٌ جَفَوُوا أَوطانَهُم فالأَرْضُ أَجمَعُها لَهم أَوطانُ

انظر التكملة : ٦٩ .

جالت عقولهمُ مجالَ تفكيرٍ وجمالةٍ فبدأ لها الكتمان
ركبت بحار الفهم في فلك النسي وجرى بها الإخلاص والإيمان
فرست بهم لما انتهوا بجفونهم مرسى لهم فيه غنى وأمان

66 - وقال أبو جعفر ابن خاتمة رحمه الله تعالى :

يا من يغيث الورى من بعدما قنطوا
عودتهم بسط أرزاق بلا سبب
وعدت بالفضل في ورد وفي صدر
عوارف ارتببت شم الأنوف لها
يا من تعرف بالمعروف فاعترفت
وعالماً بخفيات الأمور فلا
عبد فقير بباب الجود منكسر
مهما أتى ليمد الكف أخجله
يا واسعاً ضاق خطو الخلق عن نعم
وناشراً بيد الإجمال رحمة
ارحم عبداً بضنك العيش قد قنعوا
إذا توزعت الدنيا فما لهم
لكنهم من ذرا عليك في نمط
ومن يكن بالذي يهواه مجتمعاً

ارحم عبداً أكف الفقر قد بسطوا
سوى جميل رجاء نحوه انبسطوا
بالجود إن أقسطوا والحلم إن قسطوا
وكل صعب بقيد الجود يرتبط
يجم إنعام الأطراف والوسط
وهم يجوز عليه لا ولا غلط
من شأنه أن يوافي حين ينضغط
قبائح وخطايا أمرها فرط
منه إذا خطبوا في شكرها خيطوا
فليس يلحق منه مسرفاً قنط
فأينما سقطوا بين الورى لقطوا
غير الدجنة لحف والثرى بسط
سام رفيع الذرى ما فوقه نمط
فما يبالي أقام الحي أم شحطوا

١ زاد في م أبياتاً قال : وقال الشيخ أبو بكر ابن مغاور (م : مفاوز) وقيل إنها لابن لبال :

ودعتها ومدامي تنهل بالسمع الطليق
فيكت وأذرت أدمعاً في صفحة اللد الأنيق
ومضت تمض ينانها بين التلهف والشهيق
فرايت درأ ساقطاً من نرجسين على شقيق
ورأيت مبيض اللجين يعض محمر العقيق

نحن العبيد وأنتَ الملك ليس سوى
وكلُّ شيءٍ يُرجى بعدَ ذا شَطَطُ
وقال رحمه الله تعالى :

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل
تُفاهُ عُدَّةٌ لصلاح أمرِك
وبادر نحوَ طاعتهِ بعزم
فما تدري متى يمضي بعمرِك
وقال أيضاً^١ :

إذا كنتَ تعلم أنَّ الأمور
بحكم الإلهِ كما قد قضى
فقيمَ التفكر والحكم ماضٍ
ولا ردَّ للحكم مهما مضى
فخلَّ الوجود كما شاءه
مدبَّره وابعِ منه الرضى
وقال^٢ :

إذا ما الدهر نابك منهُ نخطب
وشدَّ عليك من حقِّ عقاله
فكِلْ لله أمرِك لا تفكِّر
ففكرك فيهِ خبط في حباله
وقال^٣ :

علوكَ دارِه ما استطعتَ حتى
يعودَ لديك كالخلِّ الشفيقِ
فما في الأرض أردى من عدوِّ
وما في الأرض أجْدَى من صديقِ
وقال^٤ :

إنَّ أعرضتَ دُنْيَاكَ عنكَ بوجهها
وغدت ومنها في رضاكَ نزاعُ
فاحذر بنيتها واحفظ من شرِّهم
إنَّ البنينَ لأُمَّهم أتباعُ

١ م : في تفويض الأمر إلى الله والاتكال عليه .
٢ م : وقال في معناه في توكيل الأمر إلى الله تعالى .
٣ م : في مداراة العدو ومكايده .
٤ م : وقد أبلغ في النصيحة وأجاد إلى الغاية .

وقال ١ :

يا مجيب المَظْطَرَّ عندَ الدعاءِ منكَ دائي وفي يدكَ دوائي
جَدَّبَتني الدنيا إليها بَضْبِعي ودعتني لمحنتي وشقائي
يا إلهي وأنتَ تعلمَ حالي لا تَدْرَني شماتة الأعداءِ

67 - وقال الحافظ الكبير الشهير أبو عبد الله الحميدي صاحب « الجمع

بين الصحيحين » رحمه الله تعالى ٢ :

كتابُ الله عزَّ وَجَلَّ قَوْلِي وما صحَّتْ بهِ الآثارُ ديني
وما اتفقَ الجميعُ عليه بَدْءاً وعوداً فهوَ عن حقِّ ميين
فدع ما صدَّ عن هذي وخذها تكن منها على عين اليقين

وقال :

طريق الزهدِ أفضلُ ما طريق وتقوى الله باديةُ الحقوقِ
فَشِقُّ بِاللَّهِ يَكْفِيكَ ، واستَعْنَهُ يُعِينِكَ ، وَذَرُّ بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ

68 - وقال أبو بكر مالك بن جبير رحمه الله تعالى :

رحلتُ وإنَّني من غيرِ زاد وما قدمتُ شيئاً للمعادِ
ولكنني وثقتُ بجدِ ربي وهل يشقى المقلُّ مع الجوادِ

وتوفي المذكور بأريولة - أعادها الله تعالى إلى الإسلام - سنة ٥٦١ .

69 - وقال ابن جبير اليحصبي وهو الكاتب أبو عبد الله محمد :

كلِّما رمتُ أن أقدمَ خيراً لمعادي ورمتُ أنِّي أتوبُ

١ م : في التضرع إليه تعالى والابتهاال إليه .

٢ هاتان القطعتان الحميدي وردتا في ج ٢ : ١١٤ .

صرفتني بواعث النفس قسراً فتقاعستُ والذنوبُ ذنوبُ
رَبِّ قَلْبٍ قَلْبِي لِعِزْمَةِ خَيْرٍ لِمَتَابٍ فِي يَدَيْكَ الْقُلُوبُ

ولتعلم أن كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له ، ويرحم الله تعالى لسان
الدين بن الخطيب حيث قال في صلوة الإحاطة : وهذا الغرضُ الذي وضعنا
له هذا التأليف يطيلنا فيه ما قصدنا به من المباهاة والافتخار بالإكثار ، واستيعاب
النظام والنثار ، ويحملنا فيه خوف السامة على الاختصار والاقْتِصَار ، وكفى بهذا
جلاء في الأعذار ، والله تعالى مُقِيل العِثَار ، وساتر العَيْب المِثَار ، بفضلِهِ ، انتهى .

70 - ولنختم هذا الباب بقول أبي زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلبي :

عَفْوُكَ اللَّهُمَّ عَنَّا خَيْرُ شَيْءٍ نَتَمَنَّى
رَبِّ إِنَّا قَدْ جَهِلْنَا فِي الَّذِي قَدْ كَانَ مِنَّا
وَخَطِينَا وَخَلَطْنَا وَهَوْنَا وَمَجَنَّا
إِنْ نَكُنْ رَبَّ أَسَانَا مَا أَسَانَا بِكَ ظَنًّا

وذيلته بقولي :

فَأَنلَنَّا الْحَمَّ بِالْحَسِّ نِي وَإِنْعَامًا وَمَتًّا

آمين .

الباب الثامن

في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها ،
وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره ، واستعماله في أمرها حيل فكره ،
حتى استولى - دمره الله تعالى - عليها ، ومحا منها التوحيد واسمه ، وكتب
على مشاهدتها ومعاهدها وسَمَّه . وقرر مذهب التثليث ، والرأي الخبيث ،
لديها ، واستغاث أهلها استغاثة أضرابها بالنظم والنثر ، أهل ذلك العصر ،
من سائر الأقطار ، حين تعذرت بحصارها ، مع قلة حمايتها وأنصارها ،
المآرب والأوطار . وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد الله تعالى
إليها كلمة الإسلام . وأقام فيها شريعة سيّد الأنام . عليه أفضل الصلاة
والسلام . ورفع يد الكفر عنها وعمّا حواليا . آمين .

[ظهور بلاي وخلفائه]

قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فلّ النصارى بالأندلس - بعد
غلبة العرب لهم - عِلْجٌ يقال له بلاي^١ ، من أهل أشتوريش من جليقية . كان
رهينته عن طاعة أهل بلده . فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن التقي .
الثاني من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها ، وهي
سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن ،
فطردوه وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن ، وكان عدّة من ملك
منهم إلى آخر أيام الناصر لدين الله اثنين وعشرين ملكاً ؛ انتهى .
وقال عيسى بن أحمد الرازي : في أيام عتّبسة بن سحيم الكلبي قام بأرض

١ انظر ما تقدم عن بلاي ج ٣ : ١٧ .

جليقية عِلْج خبيث يقال له بلاي من وقعة أخذ النصارى بالأندلس . وجدَّ^١ الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك ، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية وأجلَّوهم ، وافتتحوا بلادهم ، حتى بلغوا أربولة من أرض الفرنجة ، وافتتحوا بلبونة من جليقية ، ولم يبق إلا الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاي ، فدخلها في ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعاً ، وبقي في ثلاثين رجلاً وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلا العسل يشْتارونه من خروق بالصخرة فيقتوتون به ، حتى أعيأ المسلمين أمرهم ، واختقروا بهم ، وقالوا : ثلاثون عِلْجاً ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لا يخفاء به . وفي سنة ١٣٣ هلك بلاي المذكور . وملك ابنه فافله^١ بعده . وكان ملك بلاي تسع عشرة سنة ، وابنه ستين . فملك بعدهما أذفونش بن بيطر^٢ جد بني أذفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم إلى اليوم ، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم ؛ انتهى باختصار .

وقال المسعودي بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر . ما صورته^٣ : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس ممّا يلي الفرنجة ومدينة أربونة^٤ خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها ممّا كان بأيديهم من المدن والحصون ، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦^٥ من شرق الأندلس طرطوشة ، وعلى سائر بحر الروم ممّا يلي طرطوشة آنخذاً في الشمال إفراغه على نهر عظيم ثم لاردة ؛ انتهى .

١ (Fafila)

٢ (Alphonso) ابن (Pedro) ؛ وكان أذفونش هذا قد تزوج ابنة بلاي واسمها أرمسندا

(Erraensinda) (فجر الأندلس : ٣٤٤) .

٣ مروج الذهب ١ : ١٦٢ .

٤ المزوج : وآخر ما كان . . . مدينة أربونة .

٥ المروج : وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

[الاستيلاء على طليطلة]

ومن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥ ، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال :

يا أهلَ أندلسٍ حُثِّتُوا مَطِيَّتِكُمْ^١ فما المُقامُ بها إلّا من الغلَطِ
الثوبُ يُنسلُ من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسطِ
ونحنُ بينَ عدوٍّ لا يفارقنا كيفَ الحياة مع الحياتِ في سَفَطِ
ويروى صدر البيت الثالث هكذا :

من جاورَ الشرَّ لا يأمنُ بَواقبِهِ^٢ كيفَ الحياة مع الحياتِ في سَفَطِ
وتروى الأبيات هكذا :

حُثِّتُوا رِواحِكُمْ يا أهلَ أندلسٍ فما المُقامُ بها إلّا من الغلَطِ
السلكُ يُنثرُ من أطرافه ، وأرى سلكَ الجزيرة متثوراً من الوسطِ
مَن جاورَ الشرَّ لا يأمنُ عواقبَهُ^٣ كيفَ الحياة مع الحياتِ في سَفَطِ
وقال آخر :

يا أهلَ أندلسٍ رُدُّوا المُعارِ فما في العُرفِ عاريةٌ إلّا مردّاتُ
ألم ترَوا بيَدَ الكفارِ فرزَنَهُ^٤ وشاهُنَا آخرَ الأبياتِ شَهَماتُ

وقال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ ؛ انتهى . وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها ، وسيأتي قريباً بعض ما يؤيده .

قال : وهي مدينة حصينة قديمة أزلية من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير ، ولها قسبة حصينة في غاية المنعة ، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً ، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة ، وطلبيطة هذه دار مملكة الروم ، وبها كان البيت المعلق الذي كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب ؛ انتهى .
وقد تقدم شيء من هذا فيما مر من هذا الكتاب^١ .

وقد حكى ابن بدرون في شرح العبدونية^٢ أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصرأ تأنق في بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسبق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حوالها محيطاً بها متصلاً ببعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتقر ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد :

أتبني بناء الخالدين ، وإنما بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يعتره رحيل

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيراً حتى قضى نحبه ؛ انتهى .
وقال ابن خلكان^٣ : إن طليطلة أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد ؛ انتهى .

١ انظر ما تقدم ج ١ : ١٦١ ، ٢٠٦ .

٢ البسامة : ٢٧١ .

٣ وفيات الأعيان ٤ : ١١٨ .

وقال ابن علقمة : إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلافة في السنة بعدها ، انتهى .

[وقعة الزلافة نقلاً عن الروض المعطار وغيره]

ورأيت أن أذكر هنا وقعة الزلافة التي نشأت عن أخذ طليطلة وما يتبع ذلك من كلام صاحب « الروض المعطار » وغيره فتقول^١ : إنه لما ملك يوسف ابن تاشفين المثنوي المغرب ، وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة ، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة ، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس ، فهمم^٢ بذلك ، وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها ، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا الإمامة بجزيرتهم ، وأعدوا له العدة والعدد ، وصعبت عليهم مدافعتهم ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج من شملهم والمسلمين من جنوبهم . وكانت الفرنج تشتد وطأتها^٣ عليهم ، وتغير تنهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنج تهرب ملك المغرب يوسف بن تاشفين . إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب ، وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال الملتزمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقد الفارس ، والطعنات التي تنظم الكلى ، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتاله ، وكان ملوك الأندلس يفيثون إلى ظله ، ويخندرونه خوفاً على ملكهم ، مهما عبر إليهم وعابن بلادهم ، فلما رأوا ما دهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك ، راسل بعضهم بعضاً يستنجلون آراءهم في أمره ، وكان مفرزتهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد ، لأنه أشجع القوم ، وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم

١ أكثر هذا النص منقول عن ابن خلكان ٦ : ١١٢ وما بعدها .

٢ ق ص : تشتد وطأتها .

على مكاتبتة لما تحقّقوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ،
فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً ، وهو : أما بعد فإنك إن أعرضت
عنا نُسبت إلى كرم ، ولم تُنسب إلى عجز ، وإن أجبنا داعيتك نُسبنا إلى عقل ،
ولم نُنسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم
نسبتك ، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تُسبَق فيه إلى مكرمة ، وإن في استبقائك
ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ، والسلام . فلما وصله الكتاب مع
تُحف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي ، لكنه ذكي
الطبع ، يجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فقال
له : أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظّمونك فيه ، ويعرّفونك أنهم
أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي ،
فإنهم مسلمون وذوو بيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء
الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك
من أهل الغرب ، فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها
الملك اعلم أن تاج الملك وبهجه شاهدته الذي لا يُرد ، فإنه خليق بما حصل في يده
من الملك والمال أن يعفو إذا استعفي ، وأن يهب إذا استُوهب : وكلما وهب
جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم ، فإذا عظم قدره تأصل ملكه ، وإذا تأصل
ملكه تشرف الناس بطاعته ، وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ، ولم يتجشم
المشقة إليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض
الملوك الحكماء الأكابر البُصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن
ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ؛ فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف
بلغته فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : أجيب القوم ، واكتب بما يجب في ذلك ،
واقراً عليّ كتابك ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن
تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . تحية من سالمكم وسلّم عليكم ،
وإنكم ممّا في أيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصين ممّا بأكرم إيثار

وسماحة ، فاستديموا وفاعنا بوفائكم ، واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم ،
والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام . فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن
تاشفين بلسانه ، فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللّمت
التي لا توجد إلاّ ببلاده ، وأنفذ ذلك إليهم ، فلما وصلهم ذلك قرأوا كتابه
فرحوا به ، وعظموه ، وسرّوا بولايته ، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج
عنهم ، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين
ليعبر إليهم ، أو يمدّهم بإعانة منه .

وكان ملك الإفرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف ،
وكان كل من حاز بلداً وتقوى فيه ملكه. وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف ،
فقطع فيهم الأذفونش بسبب ذلك ، وأخذ كثيراً من ثغورهم ، فقوي شأنه ،
وعظم سلطانه ، وكثرت عساكره ، وأخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن
المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها في منتصف
محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فزاد لعنه الله تعالى بملكه طليطلة قوّة إلى قوّته ،
وأخذ يجوسُ خلال الديار ، ويستفتح المعامل والحصون .

قال ابن الأثير في «الكامل»^١ : وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس
ومتملك أكثر بلادها^٢ ، مثل قرطبة وإشبيلية ، وكان - مع ذلك - يؤدي الضريبة
إلى الأذفونش كل سنة ، فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة
المعتادة^٣ ، فلم يقبلها منه ، وأرسل إليه يهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها ،
إلاّ أن يسلم إليه جميع الحصون المتبعة^٤ ، ويبقى السهل للمسلمين ، وكان الرسول
في جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد ، وفرق أصحابه على قواد

١ الكامل ١٠ : ١٤٢ (ط . صادر) .

٢ ابن الأثير : وكان يملك أكثر البلاد .

٣ ابن الأثير : على عادته .

٤ ابن الأثير : الحصون التي بالجل .

عسكره ، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم مَنْ عنده من الكفرة ، وأحضر الرسول وصنّعه^١ حتى خرجت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر ، فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها ، فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ، ويكثر العدد والعدة ، انتهى .

وقال الفقيه أبو عبد الله [محمد] بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار» ما ملخصه^٢ : إنه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المريّة حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها إليه بعد ذلك ، استشاط الطاغية غضباً وتشطط ، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة ، وأمعن في التّجنيّ ، وسأل في دخول امرأته التمجيطة^٣ إلى جامع قرطبة لتلد فيه ، إذ كانت حاملاً ، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة - وهي^٤ التي أنشأ بناءها الناصر لدين الله ، وأمعن في بنائها ، وأغرب في حسنها ، وجكّبت إليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والأقطار ، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل ، وأنفق فيها الأموال العظيمة ، واشتغل بها ، وكان يباشر الصناعات بنفسه ، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات ، وحضر في الرابعة . وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد مُنذر بن سعيد البسّوطي ، فعرض به في الخطبة . ووبخه على رؤوس الملائ ، وقصته في ذلك مشهورة ، وبناء الزهراء أيضاً من أغرب مباني الإسلام ، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان .

١ في بعض أصول ابن الأثير : وضغطة .

٢ الروض : ٨٤ - ٩٥ .

٣ الروض : القطيعة .

٤ وهي . . . ابن حيان : استطراد من المقري ليس في الروض المعطار .

ولنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء والقسوس لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء ، وتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور . وكان السفير في ذلك يهودياً كان وزير الأذفونش ، فامتنع ابن عباد من ذلك . فراجعه ، فأباه وأياسه من ذلك . فراجعه اليهودي في ذلك ، وأغلظ له في القول . وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي ، فأنزل دماغه في حلقة ، وأمر به فصُلب منكوساً بقرطبة ، واستغنى لما سكن غضبه الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي ، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل ، إذ ليس له ذلك ، وقال للفقهاء : إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العلوّ ، وعسى الله أن يجعل في عزمته للمسلمين فرجاً .

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد ، فأقسم بالثمة ليغزونه بإشبيلية ، ويحاصره في قصره ، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمر على لبلة إلى إشبيلية ، وجعل مواعده إياه طريانة للاجتماع معه ، ثم زحف الأذفونش بنفسه في جيش آخر عرّم رم . فسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر ، وكلاهما عاث في البلاد وخرّب ودمّر ، حتى اجتمعا لموعدهما بصفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد ، وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه : كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان ، واشتد عليّ الحر ، فأتحضي من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي ؛ فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : قرأت كتابك ، وفهمت خيالك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللطيفة تروّح منك لا تروح عليك ، إن شاء الله

١ الروض : وشافه .

تعالى . فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عبّاد ، وقرئت عليه . وعلم مقتضاها ،
أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

وفشا في الأندلس توقيع ابن عبّاد . وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف
ابن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس ، وفرحوا بذلك .
وفتحت لهم أبواب الآمال . وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عبّاد
وانفراده برأيه في ذلك ، اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ،
وحذروه عاقبة ذلك ، وقالوا له : الملك عقيم ، والسيقان لا يجتمعان في غمد
واحد ، فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة مثلاً : رَعِيُ الجِمال خير من رَعِيِ
الخنَازير ، ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في
الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قَشْتالة .
وقال لعذاله ولوأمه : يا قوم إني من أمري على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ،
ولا بد لي من إحداهما ، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى
الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه
حالة شك ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله .
وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها
عارضة ، فلا شيء أَدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه ؟ فحينئذ قَصّر أصحابه
عن لومه .

ولما عزم أمر صاحب بَطْلَيْوَسَ المتوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حبّوس
الصنهاجي صاحب غرناطة أن يبعث إليه كلٌّ منهما قاضي حضرته ، ففعلا ،
واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم . وكان أعقل أهل
زمانه ، فلما اجتمع عنده القضاة ياشينيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون ،
وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين ، وأسند إلى القضاة ما يليق
بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد ، وأسند إلى وزيره ما لا بد
منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية ، وكان يوسف بن تاشفين لا تزال

تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين . مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع إليهم . ويُصغي لقولهم . وترقُّ نفسه لهم .

فما عبرت رسل ابن عبّاد البحر إلّا ورسل يوسف بالمرصاد . ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم ، وأكرم مثناهم ، واتصل ذلك بابن عبّاد . فوجه من إشبيلية أسطولاً نحو صاحب سبته : فانتظمت في سلك يوسف . ثمّ جرت بينه وبين الرسل مراوضات ، ثمّ انصرفت إلى مرسلها . ثمّ عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً ، حتى أتى الجزيرة الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيه ، فامتألت المساجد والرحبات بالمطوّعين ، وتواصوا بهم خيراً ، هذا ممّساق صاحب «الروض المعطار» .

وأما ابن الأثير^١ فإنه لما ذكر وقعة الزلاّقة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالأرسال وقتلهم ، وتخوف أكابر الأندلس من الأذفونش ، وأنه اجتمع منهم رؤساء ، وساروا إلى القاضي عبيد الله^٢ بن محمد [بن أدهم] وقالوا له : ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية ، بعد أن كانوا يأخذونها . وقالوا : قد غلب على البلاد الفرنج . ولم يبق إلّا القليل ، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولاً ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك . قال : وما هو؟ قالوا : نكتب إلى عرب إفريقية ، ونبذل لهم إذا وصلوا إلينا شطر أموالنا ، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله ، فقال لهم : إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يجربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية ، ويتركوا الإفرنج ويبدأوا بنا . والمرابطون أصلح منهم . وأقرب إلينا ، فقالوا له : فكاتب أمير المسلمين ، واسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند . فبينما هم في ذلك يترأضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عبّاد

١ الكامل ١٠ : ١٥١ وقد أورده ابن خلكان أيضاً ٤ : ١١٩ .

٢ في ابن الأثير : عبد الله ؛ راجع الصلة : ٢٩٣ .

قرطبة ، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له ابن عباد : أنت رسولي إليه في ذلك ، فامتنع . وإنما أراد أن يبريء نفسه من ذلك : فألح عليه المعتمد . فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . فوجده بسبته ، وأبلغه الرسالة وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس ، وأرسل إلى مراکش في طلب مَنْ بقي من العساكر : فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر . واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً ، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وقصد المطوعة من سائر بلاد الأندلس . ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره . وحشد جنوده ، وسار من طليطلة . وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يُغلظ له في القول ، ويصف ما معه من التهمة والعُدَّة والعُدَّة . وبالغ في ذلك . فلما وصله قرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر ابن التصيرة أن يجيبه . وكان كاتباً مقلماً . فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل ، أحضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره : « الذي يكون ستره » وأرسله إليه . فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له ، وعلم أنه بلي برجل لا طاقة له به .

وذكر ابن خلكان^١ أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبّر منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رُغَاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رُغائها ، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب . فكان يمدق بها عسكره ، ويحضرها للحرب . فكانت خيل الفرنج تجمح منها . وقدّم يوسف بين يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب . كما هي السنة ، ومن جملة ما في الكتاب : بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا . وتمنيت أن

١. وفيات الأعيان ٦ : ١١٥ .

تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسرى عاقبة دعائك ﴿ وما دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (غافر : ٥٠) انتهى بمعناه ، وأكثره بلفظه .

ولنرجع إلى كلام صاحب «الروض المعطار»^١ فإنه أقعد بتاريخ الأندلس ، إذ هو منهم ، وصاحب البيت أدري بالذي فيه^٢ ، قال رحمه الله تعالى : فلما عبر يوسف وجميع جيوشه إلى الجزيرة الخضراء انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل ، وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف ، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية ، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه ، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم ، وركضوا نحوه ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتقى منفردين ، وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكراً نِعَمَ الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرباً إليه ، وافتراقاً ، فعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد إلى جهته ، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين ، وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ، ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا مَنْ بادر أو أعان وخرج أو أخرج ، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف ، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا^٣ . وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما

١ الروض : ٨٧ .

٢ بالذي فيه : سقطت من ق .

٣ في الأصول : وكابروا .

وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالة والإفرنجية ما لا يحصى عدده ، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع ، وبعث الأذفونش إلى ابن عبّاد : إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده ، وخاض البحور ، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ، ولا أكلفكم تعباً ، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم ، وقال لخاصته وأهل مشورته : إني رأيت أنني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادي ، فناجزوني فيها وبين جدّها ، وربما كانت الدائرة عليّ ، يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداً واحدة . ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم ، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلاّ بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي ، وجبر لمكاسري ، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها ، ثمّ برز بالمختار من جنوده ، وأنجاد جموعه على باب دربه . وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء ، فالقلل يقول : المختارون أربعون ألف دارع ، ولكل واحد أتباع . وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ، ويرون أنهم أكثر من ذلك كله . واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة ، ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكبٌ فيلٍ يضرب نقيرة طبل ، فهالته الرؤيا ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ، فلدس يهودياً عمّن يعلم تأويلها من المسلمين ، فدُل على معبّر . فقصّها عليه ، ونسبها لنفسه ، فقال له المعبّر : كذبت ، ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لك إلاّ إن صدقتني بصاحب الرؤيا ، فقال له : اكتم عليّ ، الرؤيا للأذفونش ، فقال المعبّر : صدقت ولا يراها غيره ، والرؤيا تدل على بلاء عظيم : ومصيبة فادحة فيه وفي عسكره ، وتفسيرها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (الفيل : ١) وأما ضربه النقيرة فتأويلها ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَتَذَكِّرَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (المدثر : ١٠٨) . فانصرف اليهودي وذكر للأذفونش

ما وافق خاطره .

ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الأندلس ، وتقدم السلطان يوسف فقصدته ، وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يفتو أثره بجيش فيه حماة الثغور ، ورؤساء الأندلس ، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلاً مكملاً البيت المشهور :

لا بدّ من فرجٍ قريبٍ يأتيك بالعجب العجيبِ
غزوّ علكِ مباركٌ سيعود بالفتح القريبِ
لله سعدك إنّه نكس على دين الصليبِ
لا بدّ من يومٍ يكو ن له أخاً يوم القليبِ^١

ووافت الجيوش كلها بطليوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفتس ، فلقبهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ، وجاءهم الخبر بشخوص الأذفونش ، ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونهم في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكاييد الأذفونش . إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل : إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيقاً بالمحلة ، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات . وقد تقدم كتاب السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث المأمور بها شرعاً ، فامتأ الكافر غيظاً ، وعتا وطغى ، وراجعه بما يدل على شقائه ، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا^٢ صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت ، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ ، وحصّوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفشل والفرار .

١ يوم القليب يعني معركة بدر .

٢ ق : ونصبوا .

وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافقتهم ، فكعّ الأذفونش ، ورجع إلى أعمال المكر والخديعة ، فعاد الناس إلى محلاتهم ، وباتوا ليلتهم ، ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول : غداً يوم الجمعة ، وهو عيدكم . والأحد عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما ، وهو يوم السبت ، فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة ، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كلَّ النهار ، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس . وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي - وكان في محلة ابن عباد - فرحاً مسروراً يقول : إنه رأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك إلى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى .

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحريك الأذفونش ، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عباد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة ، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ، ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين ، فعرفه بجليّة الأمر ، فقال له : قل له إنني سأقرب منه إن شاء الله تعالى ، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي

بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيُضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً
مع ابن عباد .

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد ، فلم يصله إلاّ وقد غشيته جنود الطاغية ،
فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله . ومال الأذفونش عليه بجموعه ، وأحاطوا
به من كل جهة ، فهاجت الحرب ، وحمي الوطيس ، واستحرّ القتل في أصحاب
ابن عباد ، وصبر ابن عباد صبراً لم يُعهد مثله لأحد ، واستبطأ السلطان يوسف
وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد عليه وعلى مَنْ معه البلاء ، وأبطأ
عليه الصحراويون وساءت الظنون ، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه
عبد الله ، وأثنى ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى
وصلت إلى صدغه وجرحت يمين يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعُقرت تحته
ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قُدّم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت ،
ويضرب يمناً وشمالاً . وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مُغرماً به تركه
في إشبيلية عيلاً . وكنيته أبو هاشم ، فقال :

أبا هاشم هَشَمْتَنِي الشَّفَارُ فَلَهِ صَبْرِي لِدَاكِ الْأَوَارِ
ذَكَرْتَ شَخِصِكَ تَحْتَ الْعِجَاجِ فَلَمَّ يَشْنِينِي ذَكَرَهُ الْفِرَارِ

ثمّ كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة ، وكان
بطلاً شجاعاً شهماً ، فنُقِسَ بمجيئه عن ابن عباد ، ثم أقبل يوسف بعد ذلك ،
وطبوله تصعد أصواتها إلى الجو ، فلما أبصره الأذفونش وجّه حملته إليه ،
وقصده بمعظم جنوده ، فبادر إليهم السلطان يوسف ، وصدّمهم بجمعه ، فردهم
إلى مركزهم ، وانتظم به شملُ ابن عباد ، واستنشق ريح الظفر ، وتباشر بالنصر ،
ثمّ صدقوا جميعاً الحملة ، فترلزت الأرض بحوافر خيولهم ، وأظلم النهار
بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ،
ثمّ تراجع ابن عباد إلى يوسف ، وحمل معه حملة جاء معها النصر ، وتراجع

المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفتيين . وصدقوا الحملة .
فانكشف الطاغية ، ومرّ هارباً منهزماً وقد طُعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي ينجم
بها بقية عمره .

وعلى سياق ابن خلكان^١ أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر
العدو في يوم الأربعاء ، وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت ، فغلر الأذفونش
ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد ،
والروم في أثرها ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب ، وبث الخبير
في العساكر فماجرت بأهلها ، ووقع البيهت ، ورجفت الأرض ، وصار الناس
فوضى على غير تعبية ولا أهبة ، ودهمتهم خيل العدو ، فأحاطت بابن عباد ،
وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض خصيداً خلفها ، وجرح ابن عباد
جرحاً أشواه^٢ ، وفر رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها ، وظنوا أنه
وهي لا يُرَقَع ، ونازلة لا تُدفع ، وظنّ الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين
ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين ، وأحدق به أنجاد^٣ خيله ورجله
من صنهاجة رؤساء القبائل ، وقصدوا محلة الأذفونش فاقترحوها ودخلوها ،
وفتكروا فيها ، وقتلوا ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقات ، فاهتزت الأرض ،
وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير
المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين ، فأفرج^٤ لهم عنها ، ثم كر عليهم
فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى
إلى أن أمر أمير المسلمين حشّمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ،

١ انظر ابن خلكان ٦ : ١١٦ وهو ينقل عن كتاب « تذكير العاقل وتنبه الغافل » للياسي .

٢ في الأصول : أساءه .

٣ في الأصول : جباد .

٤ في الأصول : فخرج .

ودخلوا المعتزك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الران^١ ، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها ، وأجحمت^٢ عن أقرانها ، وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الأسود ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به ، فأثبتته في فخذه ، فهتك حلق درعه ، ونفذ من فخذه مع بداد سرجه ، وكان وقت الزوال ، وهبت ريح النصر ، فأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونصّر دينه القويم ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم والرياح تطعنهم ، إلى أن لحقوا ربوة لجأوا إليها واعتصموا بها ، وأحذقت بهم الخيل ، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة ، وأفلتوا بعدما تشبث^٣ بهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتل المشركين ، فاجتمع من ذلك تل عظيم ؛ انتهى ، وبعضه بالمعنى .

رَجَعُ إِلَى كَلَامِ صَاحِبِ «الرَّوْضِ الْمُعْطَارِ» قَالَ^٤ :

ولجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم ، وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن^٥ يؤذنون عليها ، والمخنول ينظر إلى موضع الواقعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالا^٥ محيطاً به وبأصحابه ، وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهناه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن

١ في الأصول : الزان .

٢ ق ص : وأجحمت ، ابن خلكان : وأجحمت .

٣ ابن خلكان : نشبت .

٤ الروض : ٩٣ .

٥ الروض : صوامع .

بلائه وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهمزاهم عنه ، فقال له : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك .

وكتب ابن عبّاد إلى ابنه بإشييلية كتاباً مضمونه : كتابي هذا من المحلّة المنصورة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب ، وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وهزم الكفرة والمشركين ، وأذاقهم العذاب الأليم ، والخطب الحسيم ، فالحمد لله على ما يسّره وسنّاه من هذه المسرة العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، في تشيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره ، أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم ، بعد إتيان النهب على محلاته ، واستتصال القتل في جميع أبطاله وحُماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فله الحمد على جميل صنعه ، ولم يصبني والحمد لله إلاّ جراحات يسيرة آلت لكنها فرجت بعد ذلك ، فله الحمد والمنة ، والسلام . واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضي مراکش أبي مروان عبد الملك المصمودي ، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى .

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قدم ، إلاّ على ميت أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جمعت الغنائم ، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف ، فعف عنها ، وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأّت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه ، وأحبوه وشكروا له ذلك . ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه فققدهم ولم يسمع إلاّ نواح التكتلى عليهم ، اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غمّاً وهمّاً ، وراح إلى أمه الهاوية ، ولم يخلف إلاّ بتناً واحدة جعل الأمر إليها ، فتحصنت بطليطة .

ورحل المعتمد إلى إشييلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين ، فأقام السلطان

يوسف بن تاشفين بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام : ووردت عليه من المغرب أخبار تقتضي العزم فسافر وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة ، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع ، وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر ، وعبر إلى المغرب .

ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس ، وهنّأ بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء ، فأنشدوه ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم ، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارئ ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (التوبة : ٤٠) فقلت : بُعداً لي ولشعري ، والله ما أبت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

ولما عزم السلطان^١ يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر أحد قواده المشاهير . وترك معه جيشاً برسم غزو الفرنج ، فاستراح الأمير المذكور أياماً قلائل ، ودخل بلاد الأذفونش ، وأطلق الغارة ونهب وسبي ، وفتح الحصون المنيعه والمعازل الصعبة العويصة ، وتوغل في البلاد ، وحصل أموالاً و ذخائر عظيمة . ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله ، وكتب له يُعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضييق العيش وأنكده ، وملوك الأندلس في بلادهم وأهلهم في أرغد العيش وأطيبه ، وسأله مرسومه ، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدو ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصرته وقاتله ، ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد ، إلا بعد استيلائك على البلاد ، وكل بلد أخذته فولّ فيه أميراً من عساكرك ؛ فأول من ابتداء به من ملوك الأندلس بنو هود ، وكانوا برؤطة — بضم الراء المهملة ، وبعدها واو ساكنة ، وطاء مهملة مفتوحة ، وبعدها هاء ساكنة ، وهي قلعة منيعة من

١ عاد إلى النقل عن ابن خلكان بإيجاز .

عاصمات الذرا ، وماؤها ينبع من أعلاها . وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تقنيه الأزمان — فحاصرها فلم يقدر عليها ، ورحل عنها ، وجند أجناداً على هيئة الفرنج وزيمهم . وأمرهم أن يقصلوها ويغيروا عليها . وكمن هو وأصحابه بقرب منها ، فلما رأهم أهل القلعة استضعفوهم ، فترلوا إليهم ، ومعهم صاحب القلعة ، فخرج عليه سير المذكور ، وقبضه باليد ، وتسلم الحصن . ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس ، فأسلموا له البلاد ، ولحقوا ببر العدووة . ثم نازل بني صُمادح بالمريّة ، ولها قلعة حصينة ، فحاصروهم وضيق بهم ، ولما علم ابن صُمادح الغلبَ أسف ومات غيباً . فأخذ القلعة واستولى على المريّة وجميع أعمالها . ثم قصد بطليّوس . وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفضس المتقدم ذكره ، فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله : ولم يبق له إلاّ المعتمد بن عباد ، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ، ويسأله مرسومه في ابن عباد . فكتب إليه يأمره أنّه يعرض عليه النقلة لبر العدووة بجميع الأهل والعشيرة : فإن رضي ، وإلاّ فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه . فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف ، وسأله الجواب . فلم يجب بنفي ولا إثبات ، ثم إنّه نازل إشبيلية وحاصره بها وألح عليه فأقام الحصار شهراً . ودخل البلد قهراً . واستخرجه من قصره ، فحُمل وجميع أهله وولده إلى العدووة فأُنزل بأغمات . وأقام بها إلى أن مات . رحمه الله تعالى وعفا عنه .

وأما ابن الأثير ففي كلامه تقديم وتأخير وبعض خلاف لما مر .

وأخبار المعتمد بن عباد . وما رآه من الملك والعز على كل حاضر وباد : وما قاساه في الأسر من الضيق والعسر وسوء العيش أمر عجيب . يتعظ به العاقل الأريب . وأمّا ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم في حالي يُسره وعُسره ، وملكه وأسره . وطيّه ونشره . وتجهّمه وبشره ، فهو كثير . وفي كتب التواريخ منه تنظيم ونثير . وقد قدمنا منه في هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير : وخصوصاً في الباب السابع من هذا التأليف الذي هو عند المنصف أثير ، وفي المعتمد وأبيه

المعتضد يقول بعض الشعراء^١ :

مِنْ بَنِي مُنْذِرٍ وَذَاكَ انْتِسَابٌ زَادَ فِي فخرِهِمْ بَنُو عَبَادِ
فَتِيَةٌ لَمْ تَلِدْ سِوَاهَا الْمَعَالِي وَالْمَعَالِي قَلِيلَةُ الْأَوْلَادِ

وقال ابن القطاع في كتابه « ملح الملح »^٢ في حق المعتمد : إنه أندَى ملوك
الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثِمَاداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك
كانت حضرته ملقى الرجال^٣ ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ،
حتى إنّه لم يجتمع بيباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء ، وأفاضل الأدباء ، ما
كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشيتا جنّابه .

وقال ابن بسام في « الذخيرة »^٤ : للمعتمد شعر ، كما انشق الكيمامُ عن
الزَّهْر ، لو صار مثله ممّن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لكان رائقاً
معجباً ، ونادراً مستغرباً ، [فمن ذلك قوله]^٥ :

أَكثَرْتُ هَجْرَكَ غَيْرَ أَنَّكَ رَبَّمَا عَطَفْتُكَ أحياناً عَلَيَّ أُمُورُ
فَكَأَنَّمَا زَمَنَ التَّهَاجِرَ بَيْنَنَا لَيْلٌ ، وساعات الوصال بُنُورُ

قال : وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من أبيات :

أَسْفَرَ ضُوءَ الصَّبْحِ عَن وَجْهِهِ قَامَ ذَاكَ الْخَالُ فِيهِ بِلَالٌ
كَأَنَّمَا الْخَالُ عَلَيَّ خَدَّهُ سَاعَاتِ هَجْرٍ فِي زَمَانِ الْوِصَالِ

١ ابن خلكان ٤ : ١١٢ .

٢ نقل العمري في المسالك قطعة موجزة من هذا الكتاب ؛ وهذا النص قد نقله المقرئ عن ابن خلكان

٤ : ١١٥ .

٣ ق ص : الرجال .

٤ لا يزال المقرئ يتابع نص ابن خلكان ص : ١١٥ .

٥ زيادة من ابن خلكان .

وعزم على إرسال حَظايابه من قرطبة إلى إشبيلية فخرج معهم يشيعهن
فسايرهنّ من أول الليل إلى الصبح ، فودعهن ورجع ، وأُشدّ أبياتاً منها :

سايرتهم والليل عَقَدَ ثوبه حتى تَبَدَّى للتواظر معلما
فوقفت ثمّ مودّعاً وتسلّمتُ مني يد الإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى في نهاية الحسن ، ثم ذكر من كلامه جملة .

عَوْد وانعطاف :

ولما جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غرناطة^١ - بعدما
حصر بعض حصون الفرنج ، فلم يقدر عليه - خرج إلى لقائه صاحبُ غرناطة عبد
الله بن بلكين ، فسلم عليه ، ثم عاد إلى بلده ليخرج له التقدّم ، فغدر به ودخل
البلد ، وأخرج عبد الله ، ودخل قصره فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يُحَد
ولا يحصى ، ثم رجع إلى مراکش وقد أعجبه حسنُ بلاد الأندلس وبهجتها ،
وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التي لا توجد في بلاد
العدوة ، إذ هي بلاد بربر وأجلاف عربان ، فجعل خواصُّ يوسف يعظمون
عنده بلاد الأندلس ويحسّنون له أخذها ، ويؤوِّغرون قلبه على المعتمد بأشياء
نقلوها عنه ، فتغير على المعتمد وقصد مُشاركة الأندلس .

وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد
وغيره من ملوك الطوائف ، وبقتلهم إن امتنعوا ، فجهز يوسفُ العساكر إلى
الأندلس ، وحاصر سيرُ بنُ أبي بكر أحدُ عظماء دولة يوسف إشبيليةَ وبها
المعتمد ، فكان من دفاعه وشدّة ثباته ما هو معلوم ، ثم أخذ أسيراً ، وصار طرفُ
الملك بعده حسيراً .

١ لم يكن هذا في الجواز الأول ليوسف .

وفي وصف ذلك يقول صاحب القلائد بعد كلام^١ : ثم جُمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم المِصر^٢ ، والناسُ قد حشروا^٣ بصفى الوادي ، ليكون بدموع كالغَوَادي ، فساروا والنوح يحلوهم ، والبوحُ باللوعة لا يعلوهم : انتهى .

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين^٤ من أمر غزوة الزلاّقة المتقدم ذكرها ورجع تكرم له ابن عباد ، وسأله أن ينزل عنده ، فعرّج إلى بلاده إذ أجابه إلى ما طلب ، فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المعتمد - وهي من أحسن المدن وأجلّها منظراً - أمن يوسف النظر فيها وفي عملها ، وهي على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه ، وفي غريبها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلّها تين وعنب وزيتون ، وهذا هو المسمى بشرف إشبيلية ، وتمتارُ بلاد المغرب كلّها بهذه الأصناف منه ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتمد في غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والقروش وغير ذلك ، فأنزل المعتمدُ يوسف بن تاشفين في أحدها ، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينهبونه على حسن تلك الحال وتأمّلها . وما هي عليه من النعمة والإتراف ، ويُغرّونه بانحاذ مثلها ، ويقولون له : إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة ، كما هو المعتمد وأصحابه ، وكان ابن تاشفين داهية^٥ عاقلاً مقتصداً

١ القلائد : ٢٣ .

٢ القلائد : مصر .

٣ ق : حشروا .

٤ عاد لمناجبة ابن خلكان ٦ : ١١٨ وما بعدها .

٥ داهية : سقطت من ق .

في أموره ، غير متطاول ولا مبذر . غير سالك نهج الترف والتأثق في اللذة والنعيم ، إذ ذهب صدْرُ عمره في بلاده بالصحراء في شَطَف العيش ، فأنكر على مَنْ أغراه بذلك الإسراف . وقال له : الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل - يعني المعتمد - أنه مُضَيِّع لما في يده من الملك ، لأن هذه الأموال الكثيرة التي تُصرف في هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً ، فأخذُه بالظلم وإخراجه في هذه الترهات من أفحش استهتار ، ومنْ كانت همته في هذا الخلد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى تستجد^١ همته في ضبط بلاده وحفظها ، وصون رعيته والتوقير لمصالحها ؟ ولعمري لقد صدق في كل ذلك .

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته : هل تختلف فتتقص عمّا عليه في بعض الأوقات ؟ فقبل له : بل كل زمانه على هذا ، فقال : أفكل أصحابه وأنصاره على علوه ومُنْجديه على الملك ينال حظاً من ذلك ؟ فقالوا : لا ، قال : فكيف ترون رضاهم عنه ؟ فقالوا : لا رضى لهم عنه ، فأطرق وسكت ، وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياماً .

وفي أثنائها^٢ استأذن رجلٌ على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رثة ، وكان من أهل البصائر ، فلما مثَّلَ بين يديه قال : أصلحك الله أيها السلطان ؛ وإن من أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن منْ شكر النعمة إهداء النصائح ، وإنتي رجل من رعيته حالي في دولتك إلى الاختلال ، أقربُ منها إلى الاعتدال ، ولكنني مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته ، فمن ذلك خبرٌ وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدلُّ على أنهم يرون أنفسهم ومَلِكِهِمْ أحقَّ بهذه النعمة منك ، وقد رأيتُ رأياً ، فإن آثرت الإصغاء

١ في الأصول : تستجد ؛ وفي دوزي : يستجد همة .

٢ ابن خلكان : وفي بعض تلك الأيام .

إليه قلتُه ، فقال المعتمد له : قله ، فقال له : رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك مستأسد على الملوك ، قد حطم على زنانه ببر العُدوة ، وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يُبقي على واحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك ، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها ، لما قد عاينه من هناة^١ عيشك ، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس^٢ ، وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يودُّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب ، وقد أردى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مِجَنّ ، وبعد فإنه إن فات الأمر في الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم ، فقال له المعتمد : وما هو الحزم اليوم ؟ فقال : أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا ، واعتقاله في قصرك ، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل مَنْ بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تنفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له ، ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألاّ يضمّر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه ، وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فتقسّمه أعز عليه من جميع ما يُلتمَس منه ، فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلاّ له ، وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش ، وتقيم في موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة ويتسع ملكك ، وينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم وتهابك الملوك ، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة مَنْ عاملته هذه المعاملة ، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفاني الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله . فلما سمع المعتمد كلام

١ ابن خلكان : بلهنية .

٢ في الأصول : وإني لمتخيل في مثل ذلك لسائر . . . إلخ .

الرجل استصوبه ، وجعل يفكر في انتهاز الفرصة .
 وكان للمعتمد نداء قد انهمكوا معه في اللذات ، فقال أحدهم لهذا الرجل
 الناصح : ما كان المعتمد على الله - وهو إمام أهل المكرمات - ممن يعامل
 بالحيف ، ويغدر بالضيف ، فقال الرجل : إننا الغدر أخذ الحق من يد
 صاحبه ، لا دَفَع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به ، فقال ذلك النديم :
 ضيِّم مع وفاء ، خيرٌ من حرِّم مع جفاء . ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر
 وتلافاه ، فشكر له المعتمد ووصله بصلة . واتصل هذا الخبر بيوسف فأصبح
 غادياً ، فقدّم له المعتمد الهدايا السنية والتُّحف الفاخرة ، فقبلها ثم رحل .
 انتهى خبر وقعة الزلاقة وما يتبعه ملخصاً من كتب التاريخ .

ولما انقرض بالأندلس مُلك ملوك الطوائف بني عبّاد وبني ذي النون
 وبني الأفطس وبني صُمداح وغيرهم انتظمت في سلك اللّمْتُونيين ، وكانت
 لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة في كتب التواريخ .

[دخول الأندلس في طاعة الموحدين]

ولما مات يوسف بن تاشفين سنة خمسماية قام بالملك بعده ابنه أمير المسلمين
 علي بن يوسف ، وسلك سنن أبيه ، وإن قَصَرَ عنه في بعض الأمور ، ودفع العدو
 عن الأندلس مدة ، إلى أن قبض الله تعالى للثورة عليه محمد بن تومرت الملقب
 بالمهدي الذي أسس دولة الموحدين ، فلم يزل يسعى في هدم بنيان لمتونة إلى
 أن مات ولم يملك حضرة سلطنتهم مراكش ، ولكنه ملك كثيراً من البلاد ،
 فاستخلف عبد المؤمن بن علي ، فكان من استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو
 معروف ، ثم جاز إلى الأندلس وملك كثيراً منها . ثم أخرج الإفرنج من مهدية
 إفريقية ، وملك بلاد إفريقية وضخم ملكه ، وتسمّى بأمر المسلمين .

[عبد المؤمن بن علي]

ولما كانت سنة ٥٤٥ هـ سار الأذفونش صاحبُ طَلَيْطَلَة وبلاد الجلالقة إلى قُرْطُبَة ومعه أربعون ألف فارس فحاصرها ، وكان أهلها في غلاء شديد ، فبلغ الخبر عبد المؤمن ، فجهز إليهم جيشاً يحتوي على اثني عشر ألف فارس ، فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها ، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب ، فسلمها إلى صاحب جيش عبد المؤمن يحيى بن ميمون فبات فيها ، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم ، ونزلوا في المكان الذي كانوا فيه ، فلما عين ذلك رتب هنالك ناساً ، وعاد إلى عبد المؤمن ، ثم رحل الفرنج إلى ديارهم .

وفي السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفاً عليهم الهتاتي ، فصار إليه صاحب غرناطة ميمون وابن هُمُشْكَ وغيرهما ، فدخلوا تحت طاعة الموحدين ، وحرصوا على قصد ابن مرَدَيش ملك شرق الأندلس ، وبلغ ذلك ابن مردنيش ، فخاف وأرسل إلى صاحب برشلونة من الإفرنج يستنجده ، فتجهز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس ، وسار صاحب جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش ، فبلغه أمر البرشلوني الإفرنجي فرجع ، ونازل مدينة المريّة وهي بأيدي الروم فحاصرها ، فاشتد الغلاء في عسكره فرجع إلى إشبيلية فأقام فيها ، وسار عبد المؤمن إلى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر .

ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧ هـ إلى المهديّة فملكها ، وملك إفريقية ، وضم ملكه كما قدمناه .

[يوسف بن عبد المؤمن]

ولما مات بويج بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن ، ولما تمهدت له الأمور ،

١ انظر المعجب : ٢٩٨ حيث جعل سير عبد المؤمن للمهدية سنة ٥٤٣ هـ .

واستقرت قواعد ملكه ، دخل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته^١ وتفقد أحوالها ، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسمائة ، وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحدين والعرب ، فنزل بمحضرة إشبيلية ، وخافه ملك شرق الأندلس - مرسية وما انضاف إليها - الأمير الشهير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، وحمل على قلب ابن مردنيش ، فمرض مرضاً شديداً ومات . وقيل : إنه سُمِّ ، ولما مات جاء أولاده وأهله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو بإشبيلية ، فدخلوا تحت حكمه وسلموا لأحكامه البلاد ، فصاهرهم وأحسن إليهم وأصبحوا عنده في أعز مكان . ثم شرع في استرجاع البلاد التي استولى عليها الإفرنج ، فاتسعت مملكته بالأندلس ، وصارت سراًياه تغير إلى باب طليطلة ، وقيل : إنه حاصرها ، فاجتمع الفرنج كافة عليه ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرجع عنها إلى مراکش حضرة ملكه ، ثم ذهب إلى إفريقية فمهدّها ، ثم رجع إلى حضرتة مراکش ، ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين وخمسمائة ومعه جمع كثيف ، وقصد غربي بلادها ، فحاصر مدينة شنترين ، وهي من أعظم بلاد العدو . وبقي محاصراً لها شهراً ، فأصابه المرض فمات في السنة المذكورة ، وحُمل في تابوت إلى إشبيلية ، وقيل : أصابه سهم من قبيل الإفرنج ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال .

وفي ابنه السيد أبي إسحاق يقول مطرف التجيبي رحمه الله تعالى :

سعد كما شاء العُلا والفتحارُ تصرّف الليل به والنهارُ
 ما دانت الأرض لكمّ عَنوّة وإنما دانت لأمر كُبارُ
 مهدهمُوها ففصفا عيشها واتصل الأمنُ^٢ . فنعم القرارُ

١ تفصيل هذه الأحداث في ابن عذاري ٣ : ٨٨ (ط . المغرب) .

٢ ق ص : الابن .

ومنها :

فالشاة لا يَخْتَلِها ذئبها وإن أقامت معه في وِجارٍ

[يعقوب المنصور]

ولما مات يوسفُ قام بالأمر بعده ابنُه الشهير أميرُ المؤمنين يعقوبُ المنصورُ ابن يوسف بن عبد المؤمن ، فقام بالأمر أحسن قيام ، ولما مات يوسف المذكور رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها :

جلّ الأسي فأسيلُ دمَ الأجفانِ ماء الشؤن لغير هذا الشانِ

ويعقوب المنصور هو الذي أظهر أبهة ملك الموحدين ، ورفع راية الجهاد ، وتنصّب ميزان العدل ، وبسط الأحكام الشرعية ، وأظهر الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأقام الحدود على القريب والبعيد ، وله في ذلك أخبار ، وفيه يقول الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر المشهور :

أزال حجابَه عني وعيني تراه من المهابة في حجابِ
وقربني تفضُّله ولكن بعُدتُ مهابة عند اقترابي

وكثرَت الفتوحات في أيامه ، وأولُ ما نظر فيه عند صيرورة الأمر إليه بلاد الأندلس ، فنظر في شأنها ورتب مصالحها ، وقرر المُقاتلين في مراكزهم ، ورجع إلى كرسي مملكته مراکش المحروسة . وفي سنة ٥٨٦ بلغه أن الإفرنج ملكوا مدينة شلب وهي من غرب الأندلس ، فتوجه إليها بنفسه وحاصرها وأخذها ، وأنفذ في الوقت جيشاً من الموحدين والعرب . ففتح أربع مدُن ممّا بأيدي الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخافه صاحبُ طليطلة ، وسأله الهدنة والصلح ، فهادنه خمس سنين ، وعاد إلى مراکش .

وأُشيد القائد أبو [بكر بن] عبد الله بن وزير الشُّلبي^١ وهو من أمراء
كثائب إشبيلية قصيدةً يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج
كان الشُّلبي المذكور مقدماً فيها :

ولما تلاقينا جرى الطَّعنُ بيننا فمننا ومنهم طائحون عديدُ
وجال غرار الهند فينا وفيهمُ فمينا ومنهم قائمٌ وحصيد
فلا صدرَ إلا فيه صدرٌ مثقَّف وحول الوريد للحسام ورود
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا كلانا على حرِّ الجِلادِ^٢ جليد
ولكن شددنا شدةً فتبلدوا ومن يتبلد لا يزال يتحيد
فولتوا وللسمر الطوال بهامهم ركوع والبيض الرقاق سجود

رَجَع إلى أخبار المنصور بعد هُدنة الإفرنج :

ولما انقضت مدة الهدنة ، ولم يبق منها إلا القليل ، خرج طائفة من الإفرنج في
جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عيثاً فظيعاً ، فانتهى الخبر
إليه ، فتجهز لقصدهم في جيوش مؤفِّرة وعساكر مَكْتَبَة ، واحتفل في ذلك ،
وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١ هـ ، فعلم به الإفرنج ، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي
بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه ، وقيل : إنَّه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض
مرضاً شديداً ، ويُس منه أطباؤه ، فعاث الأذفونش في بلاد المسلمين بالأندلس ،
وانتهز الفرصة ، وتفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان ، فأرسل

١ زدنا ما بين معقنين اعتماداً على ما سيورده المقرئ فيما بعد عند حديثه عن سقوط المرية ؛ وقد أورد
ابن الأبار نسبة على نحو آخر (الجلسة ٢ : ٢٧١) فقال أبو بكر محمد بن سيدراي بن عبد الوهاب
ابن وزير القيسي ، وأورد له الأبيات الدالية التي أوردها المقرئ ، وقال فيه : ولي قصر الفتح
المنسوب إلى أبي دانس عند استرجاعه من أيدي الروم في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسائة ؛
وتوفي في صدر المائة السابعة بعد حضوره بموقعة العقاب .

٢ الجلسة : الطعان .

الأذقونش يتهدد ويتوعد ويُرْعِد ويُبْرِق ، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس ، وخلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى ، وتراحف الفريقان ، فكان المصافى شمالي قُرْطُبة على قرب قلعة رباح في يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١ ، فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين .

وحكي أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيى ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحَقْصِي الذي ملك بعد ذلك إفريقية ، وخطب له ببعض الأندلس ، فقصد الإفرنج الأعلام ظناً أن السلطان تحتها ، فأثروا في المسلمين أثراً قبيحاً ، فلم يرُعهُم إلا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كَسْر شوكتهم ، فهزمهم شرّ هزيمة ، وهرب الأذقونش في طائفة يسيرة ، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر .

وحكي أن الذي حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ، ولم يُسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه ، وربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة . وقيل : إن فل الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح فتحصنوا بها ، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها ، وكانت قبلُ للمسلمين ، فأخذها العدو ، فردت في هذه المرة ، ثم حاصر طُلَيْطلة وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشنّ الغارات على أرجائها ، وأخذ من أعمالها حصوناً وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها وترك الإفرنج في أسوأ حال ، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة ، ثم رجع إلى إشبيلية ، وأقام إلى سنة ٥٩٣ ، فعاد إلى بلاد الفرنج ، وفعل فيها الأفاعيل ، فلم يقلد العدو على لقاءه ، وضائق على الإفرنج الأرض بما رحبت ، فطلبوا الصلح فأجابهم إليه ، لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بإفريقية مع قرأقوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام .

ثم توفي السلطان يعقوب سنة ٥٩٥ . وما يقال «إنه ساح في الأرض

وتخلى عن الملك ووصل إلى الشام ، ودفن بالبقياع « لا أصل له ، وإن حكى ابن خلكان بعضه . وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم ، وقال : إن ذلك من هديان العامة ، لوئعهم بالسلطان المذكور .

[محمد الناصر ووقعة العقاب]

وولي بعده ولده محمد الناصر المشؤوم على المسلمين ، وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص ، فإنه جمع جموعاً اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية »^١ ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش ، فصاف الإفرنج ، فكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي خلا بسببها أكثر المغرب ، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها ، ولم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف فيما قيل ، وهذه الوقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعاً ، وما ذاك إلا لسوء التدبير ، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره ، فشتق بعضهم ، ففسدت النيات ، فكان ذلك من بخت الإفرنج ، والله غالب على أمره ، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩ ، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة محمد .

[نهاية الموحدين]

ولما مات الناصر سنة عشرين وستمائة ولي بعده ابنه يوسف المستنصر ، وكان مؤلماً بالراحة ، فضحفت الدولة في أيامه ، وتوفي سنة ٦٢٠ .

١ الذخيرة السنية : ٤١ .

فتولى عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، فلم يحسن التدبير ، وكان إذ ذاك بالأندلس العادل بن المنصور ، فرأى أنه أحق بالأمر ، فاستولى على ما بقي في أيدي المسلمين من الأندلس بغير كلفة . ولما خلع عبد الواحد وخُتق بمراكش ثارت الإفرنج على العادل بالأندلس ، وتصافَّ معهم ، فانهزم ومنَّ معه من المسلمين هزيمة شنعاء ، فكانت الأندلس قرحاً على قرح ، فهرب العادل ، وركب البحر يروم مراكش ، وترك بإشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ، ودخل العادل مراكش بعد خطوب ، ثم قبض عليه الموحدون ، وقدموا يحيى بن الناصر صغير السن غير مجرب للأمور ، فادعى حينئذ الخلافة أبو العلاء إدريس بإشبيلية ، وبايعه أهل الأندلس ، ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس ، فثار على أبي العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجندامي ، ودعا إلى بني العباس ، فمال الناس إليه ، ورجعوا عن أبي العلاء ، فخرج عن الأندلس - أعني أبا العلاء - وترك ما وراء البحر لابن هود . ولم يزل أبو العلاء يتحارب مع يحيى ابن الناصر إلى أن قتل يحيى ، وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب ، دون الأندلس ، ثم مات سنة ٦٣٠ .

وبويح ابنه الرشيد ، وبايعه بعض أهل الأندلس ، ثم توفي سنة ٦٤٠ .
 وولي بعده أخوه السعيد ، وقُتل على حصن بينه وبين تلمسان سنة ٦٤٦ .
 وولي بعده المرتضى عمر بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ، وفي سنة ٦٦٥ دخل عليه الواثق المعروف بأبي دبوس فقراً ، ثم قبض وسيق إلى الواثق فقتله ، ثم قتل الواثق بنو مَرين سنة ٦٦٨ ، وبه انقرضت دولة بني عبد المؤمن ، وكانت من أعظم الدول الإسلامية ، فاستولى بنو مَرين على المغرب .

[ظهور ابن هود وابن الأحمر]

وأما المتوكل بن هود فملك معظم الأندلس ، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته ، وقتلته غدرًا وزيره ابن الرميبي بالمرية ، واغتم الإفرنج الفرصة بافتراق

الكلمة ، فاستولوا على كثير مما بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون .
ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر ، وخطب بعض أهل الأندلس لأبي
زكريا الحفصي صاحب إفريقية ، وقد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا ،
وأعدناه لتناسق الحديث ، ولما في بعضه من زيادة الفائدة على البعض الآخر ،
وذلك لا يخفى على المتأمل ، وقد بسطنا في الباب الثالث أحوال ابن هود وابن
الأحمر وغيرهما ، رحم الله تعالى الجميع .

[الدولة المرينية]

ثم استفحل ملك يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب وحضرة ملك فاس ،
فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم ، فاجتاز إلى الأندلس
وهزم الإفرنج أشد هزيمة ، حتى قال بعضهم : ما نصر المسلمون من العقاب
حتى دخل يعقوب المريني وفتك في بعض غزواته بملك من النصارى يقال له
ذونته ، ويقال : إنه قتل من جيشه أربعين ألفاً وهزمهم أشد هزيمة ، ثم تتابعت
غزواته بالأندلس وجوّازه للجهاد ، وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة
الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك ، وأعز الله تعالى به الدين بعد ترمّد
الفرنج المعتدين . ولما مات ولي بعده ابنه يوسف بن يعقوب ، ففرّ إليه الأذفونش
ملك النصارى لاثناً به وقبّل يده ، ورهّن عنده تاجه ، فأعانه على استرجاع
ملكه .

ولم يزل ملوك بني مرّين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم
حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو
مذكورة ، ومواقف مشكورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغيرناطة ،
وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرّين يسمونه شيخ الغزاة .

ولما أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني ، وخلص له
المغرب وبعض بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس ،

واهتم بذلك غاية الاهتمام ، فقضى الله تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب بعد أخذهم الجزيرة الخضراء ، وكان الإفرنج جمعوا جموعاً كثيرة برسم الاستيلاء على ما بقي للمسلمين بالأندلس ، فاستنفر أهل الأندلس السلطانَ أبا الحسن المذكور ، فجاء بنفسه إلى سبتة فُرُضَةَ المجاز ومحل أساطيل المسلمين ، فإذا بالإفرنج جاءوا بالسفن التي لا تُحصى ومنعوه العبورَ وإغاثة أهل الأندلس حتى استولوا على الجزيرة الخضراء ، وأنكوه في مراكبه أعظم نكابة ، والله الأمر . وقد أفصح عن ذلك كتابٌ صدرَ من السلطان أبي الحسن المذكور إلى سلطان مصر والشام والحجاز الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى الألفي ، رحم الله تعالى الجميع .

[رسالة من أبي الحسن المريني إلى الملك الصالح ٧٤٥هـ]

وهذه نسخة الكتاب المذكور الذي خاطب به أمير المسلمين السلطان أبو الحسن المريني المذكور ملك المغرب رحمه الله تعالى السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الشهير الكبير الناصر محمد بن قلاوون ، ووصل إلى مصر في النصف - وقيل في العشر الأواخر - من شعبان المكرم سنة ٧٤٥ بعد البسملة والصلاة : من عند عبد الله أمير المسلمين ، المُجاهد في سبيل الله رب العالمين ، المنصور بفضل الله المتوكل عليه ، المعتمد في جميع أموره لديه ، سلطان البرين ، حامى العُدوتين ، مؤثر المِرابطة والمُثاغرة ، مؤازر حزب الإسلام حقّ المؤازرة ، ناصر الإسلام ، مظاهر دين الملك العلام ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المُجاهد في سبيل ربّ العالمين ، فخر السلاطين ، حامى حوزة الدين ، ملك البرين ، إمام العُدوتين ، ممهّد البلاد ، مبدّد شمل الأعداء ، مجتهد الجنود ، المنصور الرايات والبنود ، محط الرحال ، مبلغ الآمال ، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين ، المُجاهد في سبيل ربّ العالمين ، حَسَنَة الأيام ، حُسام الإسلام ، أبي الأملاك ، شجاء أهل العناد والإشراك ، مانع البلاد ، رافع علم الجهاد ،

مُدَوِّخَ أَقْطَارِ الْكُفَّارِ ، مُصْرِّخَ مَنْ نَادَاهُ لِلانْتِصَارِ ، الْقَائِمَ لِلْإِعْلَاءِ دِينَ الْحَقِّ ،
أَبِي يَوْسُفَ يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ الْحَقِّ ، أَخْلَصَ لِلَّهِ لَوَجْهَهُ جِهَادَهُ ، وَيَسَّرَ فِي قَهْرِهِ
عُدَاةَ الدِّينِ مُرَادَهُ .

إِلَى مَحَلِّ وَلَدْنَا الَّذِي طَلَعَ فِي أَفْقِ الْعِلَاءِ بَدْرًا تَمَّتْ ، وَصَدَّعَ بِأَنْوَاعِ الْفَخَارِ
فَجَلًّا ظَلَامًا وَظُلْمًا ، وَجَمَعَ شَمْلَ الْمَمْلُوكَةِ النَّاصِرِيَّةِ فَأَعْلَى مِنْهَا عِلْمًا ، وَأَحْيَا
لَهَا رَسْمًا ، حَائِطَ الْحَرَمِينَ ، الْقَائِمَ بِحِفْظِ الْقَبْلَتَيْنِ ، بَاسِطَ الْأَمَانِ ، قَابِضَ كَفِّ
الْعُدُوِّ ، الْجَزِيلَ النَّوَالِ ، الْكَفِيلَ تَأْمِينَهُ بِحِيَاطَةِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ ، قَطْبَ الْمَجْدِ
وَسِمَاكِهِ ، حَبِيبَ الْحَمْدِ وَمِلَاكِهِ ، السُّلْطَانَ الْجَلِيلِ ، الرَّفِيعَ الْأَصِيلِ ، الْحَافِلَ
الْعَادِلَ ، الْفَاضِلَ الْكَامِلَ ، الشَّهِيرَ الْخَطِيرَ ، الْأَضْحَمَ الْأَفْحَمَ ، الْمُعَانَ الْمُؤَزَّرَ ،
الْمُؤَيَّدَ الْمَظْفَرَ ، الْمَلِكَ الصَّالِحَ أَبُو الْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلَ ، ابْنَ مَحَلِّ أَخِينَا الشَّهِيرِ عَلَاؤُهُ ،
الْمُسْتَطِيرَ فِي الْآفَاقِ ثَنَاؤُهُ ، زَيْنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ ، كَمَالَ عَيْنِ إِنْسَانِ الْمَجْدِ وَإِنْسَانِ
عَيْنِ الْكَمَالِ ، وَارِثَ الدُّوَلِ ، النَّافِثَ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ فِي عَقُودِ أَهْلِ الْمَمْلُوكِ وَالنَّحْلِ ،
حَامِيَ الْقَبْلَتَيْنِ بَعْدَهُ وَحُسَامَهُ ، النَّامِيَ فِي حِفْظِ الْحَرَمِينَ أَجْرًا اضْطِلَاعَهُ بِذَلِكَ
وَقِيَامَهُ ، هَازِمَ أَحْزَابِ الْمَعَانِدِينَ وَجِيُوشِهَا ، هَادِمَ الْكِنَائِسِ وَالْبَيْعِ فِيهَا خَاوِيَةً
عَلَى عُرُوشِهَا ، السُّلْطَانَ الْأَجَلَ ، الْهَمَامَ الْأَحْضَلَ ، الْأَفْحَمَ الْأَضْحَمَ ، الْفَاضِلَ
الْعَادِلَ ، الشَّهِيرَ الْكَبِيرَ ، الرَّفِيعَ الْخَطِيرَ ، الْمَجَاهِدَ الْمُرَابِطَ ، الْمُقْسِطَ عَدْلَهُ فِي
الْجَائِثِ وَالْقَاسِطِ ، الْمُؤَيَّدَ الْمَظْفَرَ ، الْمُنْعَمَ الْمَقْدَسَ الْمَطْهَرَ ، زَيْنَ السُّلْطَانِينَ ، نَاصِرَ
الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدَ ، ابْنَ الْمَلِكِ الْأَرْضِيَّ ، الْهَمَامَ الْأَمْضَى ، وَالِدَ
السُّلْطَانِينَ الْأَخْيَارِ ، عَاقِدَ لُؤَاءِ النَّصْرِ فِي قَهْرِ الْأَرْمَنِ وَالْفَرَنْجِ وَالتَّنَارِ ، وَمُحْيِيَّ
رِسْمِ الْجِهَادِ ، مُعَلِّيَّ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْبِلَادِ ، جَمَالَ الْأَيَّامِ ، ثَمَالَ الْأَعْلَامِ ،
فَاتِحَ الْأَقْطَارِ ، صَالِحَ مَمْلُوكِ عَصْرِهِ الْمُتَقَادِمِ ، الْإِمَامَ الْمُؤَيَّدَ ، الْمَنْصُورَ الْمُسَدَّدَ ،
قَسِيمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا تَقَلَّدَ ، الْمَلِكَ الْمَنْصُورَ سَيْفَ الدُّنْيَا وَالِدِينَ قَلَاوُونَ ، مَكْنَ
اللَّهِ لَهُ تَمَكِينَ أَوْلِيَائِهِ ، وَتَمَسَّى دَوْلَتَهُ الَّتِي أَطْلَعَهَا السُّعْدُ شَمْسًا فِي سَمَائِهِ ، وَأَحْسَنَ
إِزْعَاعَهُ لِلشُّكْرِ أَنْ جَعَلَهُ وَارِثَ آبَائِهِ .

سلام كريم يفوحُ زهر الربى مسراه ، وينافح نسيم الصبا مجراه ، يصحبه رضوان يلوم ما دامت ثقلُ الفلك حركاته ، ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته . أما بعدَ حمد الله مالك الملك ، جاعل العاقبة للتقوى صدعاً باليقين ودفعاً للشك ، وخاذل من أسراً في النفاق التجوى فأصر على اللحن والإفك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محاً بأنوار الهدى ظلم الشرك ، ونبه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك ، ودحابه حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك ، والرضى عن آله وصحبه الذين سلخوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السلك ، وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب أنجح السلك ، وصابروا في جهاد الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهبُ يزيد خلوصاً على السبك ، والدعاء لأولياء الإسلام ، وحماته الأعلام ، بنصر لمضائه في العدا أعظم الفتك ، ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفل بذلك الدرر ، فكتبناه إليكم - كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم - من حضرتنا بمدينة فاس المحروسة ، وصنعُ الله سبحانه يعرف مذاهب الألفاظ ، ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ، ويصرف من أمره العظيم ، وقضائه المتلقى بالتسليم ، ما يتكون بين النون والكاف ، ومكانكم العتيد سلطانه ، وسلطانكم المجيد مكانه ، وولاؤكم الصحيح برهانه ، وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال مبدانه . وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيناً ، وأفاد مقامكم تحصيئاً وتحسيناً ، وسلك بكم من سنن من خلقتموه سبيلاً مبيئاً ، فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى ، ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى ، بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه ، ويقربه مع الأبرار في عليين آتسه ، من مواخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة ، وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذتهاا المحبة والنية الصالحة ، فانعقدت على التقوى والرضوان ، واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازع الأبدان ، حتى استحكمت وصلة الولاء ، والتأمت كلحمة النسب لحمة

الإخاء ، فما كان إلا وشيكاً من الزمان ، ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ، ورد وارد رنق المشارب ، وحقق قول « ومن يسأل الركبان عن كل غائب »^١ ، أنبأ باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية ، وإكثان درته السنية ، وانقلابه إلى ما أعدّه له من المنازل الرضوانية ، بجليل ما وقر لفقده في الصدور ، وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقذور ، حناناً للإسلام بتلك الأقطار ، وإشفاقاً من أن يعتور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارضُ الإضرار ، ومساهمة في مصاب الملك الكريم ، والولي الحميم ، ثم عميت الأخبار ، وطويت طي السجل^٢ الآثار ، فلم نر نخبراً صدقاً ، ولا معلماً بمن استقر له ذلكم الملك حقاً . وفي أثناء ذلك أحفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الأندلس وسلطانها ، وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ، ونحن أثناء ذلكم الشأن ، نستخبر الورد^٢ من تلکم البلدان ، عمّاً أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان ، فبعد لأي وقعنا منها على الخير ، وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير ، وتعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه ، وتداركه الله تعالى منكم بفتح الخير من أبوابه ، فأطفأ بكم نار الفتنة وأحمدها ، وأبرأ من أدواء النفاق ما أعلّ البلاد وأفسدها ، فقام سبيل الحج سابلًا ، وتعبّد طريقه لمن جاء قاصداً وقافلاً ، ولما احتضت بهذا الخبر القرائن ، وتواتر بنقل الحاضر له والمعان ، أثار حفظ الاعتقاد البواعث ، والود الصحيح تجرّه حقاً الموارث ، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفتنة الأطوار ، الجامعة بين الخبر والاستخبار ، الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والذئار ؛ ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجلّ المصائب لفقدانه ، وتحل عرى الاضطيار بموته ولات حين أوانه ، لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين ، والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ، ومثلکم من لا يخفّ وقاره ، ولا يشفّ عن ظهور الجزع الحادث اضطباره ، ومن خلفکم فما مات ذكّره ، ومن

١ تمامه : فلا بد أن يلقي بشيراً وناعياً .

٢ ق : نستجيز الورد .

قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره ، وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالحلب ، وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئاً بما من الأجر اكتسب ، وصار حميداً إلى خير المنقلب ، ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقناً ووهب ، فقد ارتضاكم الله بعدة لحياطة أرضه المقدسة ، وحماية زوار بيته مقيلة أو معرسة . ونحن بعد بسط هذه التعزية ، نهنيكم بما خولكم الله أجمل التهنية ، وفي ذات الله الإيراد والإصدار ، وفي مراضاته سبحانه الإضمار والإظهار ، فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه ، وعقد الظهور عليها نطاقه ، وأعطاهما أمان الزمان عقده وميثاقه ، ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة ، وموالاته مُحَقَّقة ، وثناء كائمه عن أذكي من الزهر غب القطر مُفْتَقَّة .

ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منّا اليمين ، وأوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين ، وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه ، وأورده موارد إحسانه ، في ذلكم من الفعل الجميل ، والصنع الجليل ، ما ناسب مكانه الرفيع ، وشاكله فضله من البر الذي لا يضيع ، حتى طبق فعله الآفاق ذكراً ، وطوق أعناق الوراد والقصاد برآ ، وكان من أجمل ما به تحققتي وأتحف ، وأعظم ما بعرفه إلى رضى الملك العلام في ذلك تعرف ، إذنه للمتوجهين إذ ذاك في شراء ربيع توقف على المصحفين ، ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين ، فجرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد ، ريثما يصلحهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد ، على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة ، واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة ، وقد أمرنا مؤدّي هذا لكمالكم ، وموفده على جلالكم ، كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل ، الأحظى الأكمل ، أبا المجد ، ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى ، الأرضى الأفضل ، الأحظى الأكمل ، المرحوم أبي عبد الله ابن أبي مدين حفظ الله عليه رتبته ، ويسر في قصد

البيت الحرام بغيته ، بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف ، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف ، وأن يتخير لها مَنْ يرتضى لذلك ، ويحمد تصرفه فيما هنالك ، وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن ، جرياً على الود الثابت الأركان ، وإعلاماً بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان ، وكما لكم يقتضي تخليد ذلكم البر الحميل ، وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشيد ما اشتمل عليه من الشكر الأصيل ، والأجر الجزيل ، والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب ، على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرُق الصواب ، وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفوحُ زهر الرُّبى ، ويطارح نغم حمام الأيك مطرباً .

وبحسب المصافاة ، ومقتضى الموالاتة ، نشرح لكم المترادات ، بهذه الجهات ، وننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجتاب : وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ ، ونادى منادٍ للجهاد عزمًا لمثل ندائه يُصيح ، أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صَوْب ، وحتم عليهم باباهم العينُ التناصر من كل أَوْب ، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية ليحافها ، وتنفُص بالمنازلة أرضها من أطرافها ، ليمحوا كلمة الإسلام منها ، ويُقلصوا ظِلَّ الإيمان عنها ، فقدّمنا من يشتغل بالأساطيل من القواد ، وسرنا على إثرهم إلى سبته مُنتهى المغرب الأقصى وباب الجهاد ، فما وصلناها إلا وقد أخذ العدو الكفور ، وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مَجَارَ العبور ، وأتوا من أجفانهم بما لا يُحصَى عدداً ، وأرصلوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا ، وتقلصوا عن الانبساط في البلاد ، واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل مَنْ جمعه من الأعداء ، لكننا مع انسداد تلك السبيل ، وعدم أمورٍ نستعين بها في ذلكم العمل الجليل ، حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد ، وأصّر خضناهم بمن أمكن من الجند ، وجهزنا أجفاناً مختلسين فرصة الإجازة ، تردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه ، وأمرنا لصاحب الأندلس من المال ، بما يجهز به حركته

لمداناة محلة حزب الضلال ، وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة ، وأرضخنا لهم في النوال ما نرجو به ثواب الآخرة ، وجعلت أجنافنا تردد في ميناء السواحل ، وتلج أبواب الخوف العاجل ، لإحراز الأمن الآجل ، مشحونة بالعدد الموفورة ، والأبطال المشهورة ، والخليل المسومة ، والأقوات المقيمة ، فمن ناج حارب دونه الأجل ، وشهيد مضى لما عند الله عز وجل ، وما زالت الأجناف تردد على ذلك الخطر ، حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يُدخّر ، ثم لم تقنع بهذا العمل في الأمداد ، فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله تعالى مساهمةً به لأهل تلك البلاد ، فلقني من هؤل البحر وارتماجه ، وإلحاح العدو ولجاجة ، ما به الأمثال تُضرب ، ويمثله يُتحدث ويُستغرب ، ولما خلاص لتلك العدو بمن أبقته الشدائد ، نزل بإزاء الكافر الجاحد ، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى ، وقد ضرب بعطن يُصايح العدو ويماسيه بحرب بها يُمتى .

وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته ، وقويت في الحرب إدارته ، يئنون البلاء الأصدق ، ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق ، إلا أن المطلولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف ، أدى إلى فناء الأقوات بالبلد ، حتى لم يبق لأهله قوت نصف شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يُربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد ، فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فأذننا له فيه الإذن العام ، إذ في إصراخه وإصراخ من بقطره من المسلمين توخيئنا ذلك المرام ، هنالك دُعي النصارى إلى السلم فاستجابوا ، وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا ، فم الصلح إلى عشر سنين ، وخرج من بها من فرسان ورجال وأهل وبنين ، ولم يبرزوا مالا ولا عددة ، ولا لقوا في خروجهم غير التزوع عن أول أرض مس الجلد تراها شدة ، ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء ، وأسليناهم عما جرى بالحباء ، فمن خييل تزيد على الألف

عِتَاقِهَا ، وَخِلَعِ تَرْبِي عَلَى عَشْرَةِ آلَافِ أَطْوَاقِهَا ، وَأَمْوَالِ عَمَتِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ ، وَرِعَايَةِ شَمَلَتِ الْجَمِيعَ بِالْعَيْشِ النَّضِيرِ ، وَكَفِّ اللَّهِ ضَرَّ الطَّوَاغِيَتِ عَمَّا عَدَاهَا ، وَمَا انْقَلَبُوا بِغَيْرِ مَدْرَةِ عَفَا رَسْمُهَا وَصَمِّ صِلَاهَا .

وَقَدْ كَانَ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ حِينَ قَضَى بِأَخْذِ هَذَا الثَّغْرِ ، أَنْ قَدَّرَ لَنَا^١ فَتْحَ جَبَلِ طَارِقٍ مِنْ أَيْدِي الْكُفْرِ ، وَهُوَ الْمُطِيلُ عَلَى هَذِهِ الْمَدْرَةِ ، وَالْفُرْصَةَ مِنْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَتَيْسَّرَةً ، حَتَّى^٢ يَفْرُقَ عَقْدَ الْكُفَارِ ، وَيَفْرَجَ بِهَذِهِ الْجِهَةِ مِنْهُمْ مَجَاوِرِ هَذِهِ الْأَقْطَارِ ، فَلَوْلَا إِجْلَابُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكُونِهِمْ سَدُوا مَسْلَكَ الْعُبُورِ بِمَا لَجَمِيعِهِمْ مِنَ الْأَجْفَانِ وَالْمَرَائِبِ ، لَمَا بَالَيْتُنَا بِإِصْعَاقِهِمْ ، وَلَحَلَلْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ عَقْدَ اتِّفَاقِهِمْ ، وَلَكِنْ لِلْمَوَانِعِ أَحْكَامٌ ، وَلَا رَادَّ لَهَا جَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَقَدْ أَمَرْنَا لِذَلِكَ الثَّغْرِ بِمَزِيدِ الْمَدَدِ ، وَتَخْيِيرِنَا لَهُ وَلِسَائِرِ تِلْكَ الْبِلَادِ الْعُدَدِ وَالْعُدَدِ ، وَعَدْنَا لِحَضْرَتِنَا فَاسٍ لِنَسْتَرِيحَ الْجِيُوشَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ ، وَتَرْتَبُطَ الْجِيَادَ وَتَتَخَبَّ الْعُدَدَ لَوْ قَتَّ الظُّهُورَ الْمُنْتَظَرَ ، وَتَكُونَ عَلَى أَهْبَةِ الْجِهَادِ ، وَعَلَى مَرَقِبَةِ الْفُرْصَةِ عِنْدَ تَمَكُّنِهَا فِي الْأَعَادِ .

وَعِنْدَ عَوْدِنَا مِنْ تِلْكَ الْمَحَاوِلَةِ ، تَيْسِرَ الرِّكْبَ الْحِجَازِيَّ مُوجَّهًا إِلَى هُنَا لَكُمْ رَوَاحِلِهِ ، فَأَصْدَرْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْخَطَابَ ، لِإِصْدَارِ الْوَدِّ الْخَالِصِ وَالْحُبِّ اللَّبَّابِ ، وَعِنْدِنَا لَكُمْ مَا عِنْدَ أَحْسَنِ الْآبَاءِ ، وَاعْتِقَادُنَا فِيكُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ لَا يَخْشَى جَدِيدُهُ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ غَرَضٍ بِهَذِهِ الْأَنْحَاءِ ، فَمَوْفَى قَصْدُهُ عَلَى أَكْلِ الْأَهْوَاءِ ، مَوَالِي تَتَمِيمُهُ عَلَى أَجْمَلِ الْآرَاءِ ، وَالْبِلَادِ بِاتِّحَادِ الْوَدِّ مُتَّحِدَةً ، وَالْقُلُوبُ وَالْأَيْدِي عَلَى مَا فِيهِ مَرْضَاةُ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، مُنْعَقِدَةً^٣ ، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ خَالِصًا لِرَبِّ الْعِبَادِ ، مَلْخُورًا لِيَوْمِ التَّنَادِ ، مَسْطُورًا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، بِمَنَّةِ وَفَضْلِهِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَصِلُ إِلَيْكُمْ سَعْدًا تَتَفَاخَرُ بِهِ سَعُودَ الْكَوَاكِبِ ،

١ ص : قدم ؛ ق : قد ولينا .

٢ ص : حين .

٣ ق ص : معتقدة .

وتتصافر على الاتقياد له صلورُ المواكب ، وتتناصر عن نيل مجده متطاولات
المناكب ، والسلام الأتم يخصكم كثيراً أثيراً ورحمة الله وبركاته ، وكتب في
يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين
وسبعمائة ، وصورة العلامة ^١ ، وكتب في التاريخ المؤرخ .

[جواب الملك الصالح من إنشاء الصفدي]

ونسخة الجواب عن ذلك من إنشاء خليل الصفدي شارح «لامية العجم»
في سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، بعد البسملة ، في قطع
النصف بقلم الثلث : عبدُ الله ووليه ، صورة العلامة ، ولده إسماعيل بن محمد
السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المتأخر المظفر
المنصور عماد الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ،
مُنصِفِ المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ،
فاتح الأقطار ، واهب الممالك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب
المنابر والأسيرة والتخوت والتهيجان ، ظلُّ الله في أرضه ، القائم بسنته وقرضه ،
مالك البحرين ، خدام الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين ، جامع كلمة
الموحدين ، وليُّ أمير المؤمنين ، أبو القداء إسماعيل ابن السلطان الشهيد السعيد
الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد السعيد الملك
المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون ، خلده الله تعالى سلطانه ، وجعل الملائكة أنصاره
وأعوانه ؛ يخصُّ المقامَ العالي الملك الأجلَّ الكبير المجاهد المؤيد المرابط المتأخر
المعظَّم المكرَّم المظفرَّ المعمر الأوسع الأوسع الأوحده الأجد الأنجد ، السني السري
المنصور أبا الحسن علي ابن أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف



١ في هامش بعض أصول دوزي أن العلامة هكذا

يعقوب بن عبد الحقّ ، أمدّه الله بالظفر ، وقَرَنَ عزمه بالتأييد في الآصال
والبُكر .

سلام وَشَتَّ البروقُ وشائِعَه ، وادَّخَرَت الكواكب ودائِعَه ، واستوعب
الزّمان ماضيهِ ومستقبله ومضارعه ، وثناء اتخذ النّفحات المسكِيّة طلائعَه ، ونبه
للتفريد في الروض سَوَاجعَه ، وجلّى في كأسه من الشفق المحمر مُدامه ومن
النجوم فَوَاقِعَه . بعدَ حمدِ الله على نعم أدت لنا الأمانة في عَوْد سلطنة والدنا
الموروثه ، وأجلستنا على سرير مملكة زَرَابِيئِهَا بين النجوم مبثوثة ، وأحسنّت
بنا الخلف عن سلف عهدُه في الأعناق غيرُ منكورة ولا منكوتة ، وصلاتِهِ
على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى آلِهِ وصحبه الذين بلغ يجهادهم في الكفرة
غاية أمله وسُؤله ، صلاةً تحطُّ بالرضوان سيولها ، وتجر بالغفران ذبولها ، ما
تراسلَ أصحاب ، وتواصلَ أحباب ، ويوضح للعلم الكريم ، ورودَ كتابكم
العظيم ، وخطابكم الفائق على الدرّ النظيم ، تفاخر الحمائلَ سطورُه ، ويتصنّع
خدّ الورد بالخجل منشورُه ، ويحكّي الرياض اليانعة فالألقاتُ غصونه والهمزات
عليها طيورُه ، ويتخلع على الآفاق حُلل الأيام والليالي فالطّرس صباحه
والنّفس دِيَجُورَه ، لفظه يطرب ، ومعناه يعرب فيغرب ، وبلاغته تدلّ
على أنّه آية لأن شمس بيّانها طلعت من المغرب ، فانخذنا سطورَه رِيحاناً ،
ورجّعنا ألفاظه أحياناً ، ورجّعنا إلى الجلد فشبها ألفاته بظلال الرماح ،
وورّقه بصقال الصّقيّاح ، وحروفه المفرقة بأفواه الجراح ، وسطورَه المنتظمة
بالفرسان المزدحمة في يوم الكفاح ، وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ
المسجوع ، والمعنى الذي يطرب طائرُه المسموع ، والبلاغة التي فضح المتطبع
بيانها المطبوع .

فأمّا العزاء بأخيكم الوالد قدّس الله رُوحَه وسقى عهده ، وأحسن لسأفه
خَلَقْنَا بعده ، فلنّا برسول الله أسوة حسنة ، ولولا الوثوق بأنّه في عيدة الشهداء
ما رأى القلبُ قرارَه ولا الطرفُ وسنّه ، عاش سعيداً يملك الأرض ، ومات

شهيداً يَنْقُزُ بِالْحَنَّةِ يَوْمَ الْعَرَضِ ، قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس^١ في الآفاق ، ويوقف على نَصَارَةِ حَدَاتِقِهِ نظرات الأحداق ، وورثنا منه حسن الإخاء لكم ، والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم ، وأمّا الهناء بوراثته ملكه ، والانخراط مع الملوك في سِلْكِه ، فقد شكرنا لكم مَنَحِي هذه المنحة ، وقابلناها ببناء يُعَطِّرُ النَّسِيمَ فِي كُلِّ نَفْحَةٍ ، ووقفنا عليها حمداً جعل الود علينا لإيراده^٢ وعلى أنفاس سَرَّحَةِ الرِّوَضِ شَرَّحَهُ ، وتحققنا به حسن ودكم الجميل ، وكرم إخاتكم الذي لا يَمِيدُ طَوْدُ رَسُوخِهِ ولا يَمِيلُ .

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمَيْنِ المنيفين ، وأنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجلَّ الأسنى الأسمى أبا المجدد ابن كاتبكم أبي عبد الله ابن أبي مَدَّين أعزّه الله تعالى لتفقد أحوالهما ، والنظر في أمر أوقافهما ، فقد وَصَلَ المذكور بمن معه في حِرْزِ السَّلَامَةِ وَأَكْرَمْنَا نَزْلَهُمْ ، وسهلنا بالترحيب سُبُلَهُمْ ، وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شَمَلْتَهُمْ ، وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه ، وسمعنا كلامه وخاطبناه ، وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ، ورسمنا لتوابنا في نواحي أوقافهما بما ذكرتم ، وهذا الوقف المبرور جارٍ على أحسن عادة ألفها ، وأثبت قاعدة عرفها ، مَرَّعِيَّ الْجَوَانِبِ ، محمي المنازل والمضارب ، آمن من إزالة رَسْمِهِ ، أو إزالة حكمه ، بَدْرُهُ أَبَدًا في مطالع تمه ، وزهره دائماً يرقص في كفه ، لا يزداد إلا تخليداً ، ولا إطلاق ثبوته إلا تقييداً ، ولا عُنُقُ اجتهاده إلا تقليداً ، جَرِيًّا على عادة أوقاف ممالكنا ، وقاعدة تصرفاتنا في مسالكنا ، وله مزيد الرعاية ، وإفادة الحماية ، ووفادة العناية .

وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ، ومُنِي به من

١ ص : السر .

٢ ص : أبراده .

الكفار حَزَنُهَا وَسَهْلُهَا ، فَإِنَّهُ شَقَّ عَلَيْنَا سَمَاعَهُ الَّذِي أَنْكَى أَهْلَ الْإِيمَانِ ،
وَعَدَّدَ بِهِ ذُنُوبَ الزَّمَانِ ، كُلَّ قَلْبٍ بِأَنَامِلِ الْخَفَقَانِ ، وَطَالَمَا فَزَمَ بِالظَّفَرِ ، وَرَزَقَمَ
النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ فَجَزَّ ذَيْلَ الْهَزِيمَةِ وَقَرَّ ، وَلَكِنَّ الْحُرُوبَ سِجَالًا ، وَكُلَّ زَمَانَ
لِلدَّوَانَةِ دَوْلَةٌ وَلِرَجَائِهِ رِجَالٌ ، وَلَوْ أَمَكَنْتَ الْمُسَاعَدَةَ لَطَارَتْ بِنَا إِلَيْكُمْ عَقْبَانُ
الْجِيَادِ الْمُسَوِّمَةِ ، وَسَالَتْ عَلَى عَدُوِّكُمْ أَبَاطِحُهُمْ بِقَسِيئِنَا الْمَعْوِجَةِ وَسَهَامِنَا الْمَقْوَمَةِ ،
وَكَحَلْنَا عِيُونَ النُّجُومِ بِمَرَاوِدِ الرَّمَاحِ ، وَجَعَلْنَا لَيْلَ الْعِجَاجِ^١ مَمْرَقًا بِبُرُوقِ
الضَّفَاحِ ، وَاتَّخَذْنَا رُؤُوسَهُمْ لَصُورَالِجِ الْقَوَائِمِ كُرَّاتٍ ، وَفَرَجْنَا مَضَابِقَ الْحَرْبِ
بِتَوَالِي الْكُرَّاتِ ، وَعَظَفْنَا إِلَيْهِمُ الْأَعْتَةَ ، وَخُضْنَا جِدَاوِلَ السُّيُوفِ وَدُسْنَا
شُوكَ الْأَسِنَّةِ ، وَفَلَقْنَا الصَّخْرَاتِ بِالصَّرِخَاتِ ، وَأَسَلْنَا الْعِبْرَاتِ بِالرَّعِبَاتِ ،
وَلَكِنْ أَيْنَ الْغَايَةِ مِنْ هَذَا الْمَدَى الْمُتَطَاوِلِ ؟ وَأَيْنَ الثَّرِيَا مِنْ يَدِ الْمُتَنَاقِلِ ؟ وَمَا لَنَا
غَيْرَ إِمْدَادِكُمْ بِمَجْنُودِ الدَّعَاءِ الَّذِي نَرْفَعُهُ نَحْنُ وَرِعَايَانَا ، وَالتَّوَجُّهُ الصَّادِقَ الَّذِي
تَعْرِفُهُ مَلَائِكَةُ الْقَبُولِ مِنْ سَجَايَانَا .

وَأَمَّا مَا فَقَدْتُمُوهُ مِنَ الْأَجْفَانِ الَّتِي طَرَقَهَا طَيْفُ التَّلَافِ ، وَأَمَّ حَرَمَ فَنَائِهَا
الْفَتَاءِ وَطَافَ بِهِ بَعْدَ الْإِلْطَافِ ، فَقَدْ رَوَعَ هَذَا الْخَيْرَ قَلْبَ الْإِسْلَامِ ، وَنَوَّعَ لَهُ
الْحَزْنَ عَلَى اخْتِلَافِ الْإِصْبَاحِ وَالْإِظْلَامِ ، وَهَذِهِ الدَّارُ مَا يَخْلُو صَفْوُهَا مِنْ كَدْرِ
الْقَدْرِ ، وَطَالَمَا أَنْامَتْ بِالْأَمْنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَخَاطَبَتْ بِالْخَطْبِ فِي السَّحَرِ ، وَلَكِنْ فِي
بِقَائِكُمْ مَا يُسْئَلِي مِنْ خَطْبِ الْعَطَبِ ، وَمَعَ سَلَامَةِ نَفْسِكُمْ الْكَرِيمَةِ فَالْأَمْرُ هَيْنٌ
لِأَنَّ الدَّرَّ يَفْدَى بِالذَّهَبِ .

وَأَمَّا مَا رَأَيْتُمُوهُ مِنَ الصَّلْحِ فَرَأَيْ عَقْدَهُ مَبَارِكًا ، وَأَمْرًا فِيهِ فَارِطٌ عَزْمٌ وَإِنْ
كَانَ فَيْتِدَارِكُمْ ، وَالْأَمْرُ يَجِيءُ كَمَا يَجِبُ لَا كَمَا نَحْبُ ، وَالْحُرُوبُ يُزَوِّرُهَا نَصْرُهَا
تَارَةً وَيَغْبِ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدًا ، وَقَدْ يَرُدُّ اللَّهُ الرَّدَى ، وَيَعِيدُ الظَّفَرَ بِالْعَدَا .
وَأَمَّا عَوْدِكُمْ إِلَى فَاسِ الْمَحْرُوسَةِ طَلِبًا لِإِرَاحَةٍ مِّنْ عِنْدِكُمْ مِنَ الْجُنُودِ ،

١ ق ص : الليل المعجاج .

وتجهيزاً لمن يَصِلُ من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود ، فهذا أمر ضروري التدبير سروري التثمير ، لأن النفوس تمل وتثير المهاد ، فكيف ملازمة صهوات الجياد ، وتسأم من مجالسة الشرب ، فكيف بممارسة الحرب ، وتعرض عن دوام اللذة ، فكيف بمباشرة المنايا الفدّة ، وهذا جبّل طارق الذي فتح الله به عليكم ، وساق هدي هديته إليكم ، لعله يكون سبباً إلى ارتجاع ما شرد ، وحسماً لهذا الطاغية الذي مرّد ، ورداً لهذا النازل الذي قدم ورد الصبر لما ورد ، فعادة الألفاظ الإلهية بكم معروفة ، وعزّما تكم إلى جهات الجهاد مَصْرُوفَة ، وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يَطْرُق ، وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق .

وأما ما منحتموه من الخيل العتاق ، والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق ، والأموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الإنفاق ، فعلى الله عز وجل خلتها ، ولكم في منازل الدنيا والآخرة شرفها ، وإليكم تساق هدايا أثنتها وتحفكم تحفها ، وإذا وصل وفدكم الحاج ، وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم اللاج ، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا ، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا ، يتخولون تحفاً أنتم سببها ، ويتناولون طرفاً في كؤوس الاعتناء بهم تنضد حببها ، وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق ، وسهلنا لهم الرفيق ، وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى ، وسولهم ممن إذا زاروا حجرتة الشريفة حازوا الراحة من العنا ، وفازوا بالغنى ، وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ، ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب ، وغمرناهم بالإحسان في العود إليكم ، وأمرناهم بما ينهونه شفاهاً لديكم ، وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم ، وتوفر لأخذ الثأر حماتكم ، وتخصكم بتأييد تتزلون روضه الأنصر ، وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر ، وتتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه ، وعز لا يمحو شبابه مشيبه ، وتحيته المباركة تغاديكم وترأوحكم ، وتفاوحكم أنفاسها المعنيرة وتنافحكم ، بمنه وكرمه ؛ انتهى .

[إجازة من الصفدي رواية الرسالتين]

ورأيت بخط منشيء هذا الجواب الصلاح الصفدي رحمه الله تعالى إثر ذكره ما نصّه : أما بعد حمد الله تعالى على نعمائه ، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه ، فقد قرأ الشيخ الإمام العالم العامل العلامة المفيد القلوة عز الدين أبو يعلى حمزة ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضي قطب الدين موسى بن أحمد ابن شيخ السلامة الأحمدي^١ - أمتع الله بفوائده - الكتاب الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط أبي الحسن المريني صاحب مراكش تغمّده الله تعالى برحمته . والجواب عنه عن السلطان الشهيد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد قلس الله تعالى رُوحهما من إنشائي ، وأنا أسمع ذلك جميعاً من أولهما إلى آخرهما ، قراءةً أطربت السمع لفصاحتها ، وأمالت العطف لرجاحتها :

وأخجَلتْ وُرق الحمى باللوى إن صدحت في ذروة الغصنِ
تكادُ من لطف ومن رقة تدخل في الأذن بلا إذنِ

وذلك في مجلس واحد في ذي القعدة سنة ٧٥٦ ، بالجامع الأموي بدمشق المحروسة ، فإن رأى رواية ذلك عني فله علو الرأي في تشريفي بذلك ، وكتبه خليل ابن أبيك الصفدي الشافعي عفا الله عنه ؛ انتهى .

[أبو الحسن يكتب ثلاثة مصاحف]

وكان السلطان أبو الحسن المريني المذكور كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه ، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال ، وأوقف عليها أوقافاً جلييلة ، كتب توقيعه سلطان مصر والشام بمساعمتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين ابن نُبّاتة المصري ، ونص ما يتعلّق به الغرض منه هنا قوله : وهو

١ دوزي : الحنبل .

الذي مدَّ يمينه بالسيف والقلم فكتبَ في أصحابها ، وسطر الختمات الشريفة فأيدَ الله حزبَه بما سطر من أحزابها ، واتصلت أخبار ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح ، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق لا بد للفقراء من فتوح ، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي ، وخطَّ سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي ، ورتب عليها أوقافاً تجري أقلام الحسنات في إطلاقها وطلَّقها ، وحبس أملاكاً شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها ، والله تعالى يمتع مَنْ وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف ، وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبَّل من الواقف ؛ انتهى .

قلت : وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة ، وهو الذي ببيت المقدس ، وربعته في غاية الصنعة .

[نبذة من أخبار أبي الحسن]

وقال بعض المشاركة في حق السلطان أبي الحسن ، ما صورته : ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله ، وجرت إلى المشرق أنواء نواله ، وطابت نسَمائُه ، واشتهرت عزَمائُه ، كان حسن الكتابة ، كثير الإنابة ، ذا بلاغة وبراعة ، وشهامة وشجاعة ، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة ، أقام في الملك عشر سنين وسبعة أيام ، ثم صُرف بولده أبي عنان بعد حروب يطول شرحها ، انتهى من كتاب « نزهة الأنام » .

ولما ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق في كتابه « المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن » أمرَ الرُبعة التي أرسلها السلطانُ أبو الحسن بخطه قال ما ملخصه : وأرسل معها للسلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ، ومن الزمرد مائة وثمانية وعشرين ، ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ،

ومن الجواهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين . وأرسل حُللاً كثيرة منها مذهب ثلاثه عشر . ومن الإناق عشرين مذهباً ، ومن الخلاقي ستة وأربعين ، ومن القنوع ستة وعشرين مذهباً ، ومن المحررات المختمة ثمانمائة ، ومن الرصان عشرين شقة . والأكسية المحررة أربعة وعشرين ، والبرانس المحررة ثمانية عشر ، والمشفقات^١ مائة وخمسين ، وأحارم الصوف المحررة عشرين . ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ، وأوجه اللحف المذهب عشرين ، وحائطان حلة وحنابل مائة واثني عشر كلتها حرير^٢ ، وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة ، والسروج عشرة بركب ذهب ومهاميز ذهب كذلك ، وثلاث ركب فضة ، وست مزججة ومذهب ، ومضمتان من ذهب ممّا يليق بالملوك ، وشاشية حرير مطوقة بذهب مكمل بالجواهر ، ومن لزمات الفضة عشرة ، وسرج مخروزة بالفضة عشرة ، وعشر علامات معششة مذهباً ، وعشر رايات مذهباً ، وعشر براقع مذهباً ، وعشر أمثلة^٣ مرقومة ، وثلاثين جلد أشرك^٤ ، وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة ، وخبء قبة كبيرة من مائة بنيقة^٥ لها أربعة أبواب ، وقبة أخرى مضرية من ست وثلاثين بنيقة مبطنه بجلتة مذهباً ، وهي حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وآبنوس وأكبارها من فضة مذهباً ، ومن البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين^٦ ، ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ، ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ، ومن الجمال سبعمائة ، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة ، وأعطى الحرة أم أخته أم

١ ص : والمشققات .

٢ قد شرح دوزي أكثر هذه الألفاظ في ملحق المعاجم ولكنه استمد معانيها من النص نفسه .

٣ ص : أشلة .

٤ ص : وثلاث زجلوا شركي .

٥ دوزي : بنيقة .

٦ هذا العدد والأعداد التالية وردت بصورة الرفع في ص .

ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ، ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ، ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات ، وللرسول المعين للهدية ألفاً ، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ، ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة ، ويرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ، ولشراء ربع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً ؛ انتهى .

وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن الموصوف أهدي هدايا غير هذه لكثير من الملوك ، ومنها لصاحب الأندلس صلة وصدقة في مرات ، ومنها للملك النصارى بعد هداياهم ، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي ، ومنها لصاحب إفريقية ، ومنها لصاحب تلمسان ؛ انتهى .

وقال مؤرخ مصر المقرئ في كتاب « السلوك » في سنة ٧٣٨ ما نصه : وفي ثاني عشرين من رمضان قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ، ومعها هدية جليلة إلى الغاية ، نزل حملها من الإصطبل السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ، كان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حِجْرَةٍ ومائة فحل ومائتا بغل ، وجميعها بسُرُجٍ ولحم مسقطه بالذهب والفضة ، وبعضها سُرجُها وركبها كلها ذهب ، وكذلك لجمها ، وعدتها اثنان وأربعون رأساً ، منها سرجان من ذهب مرصع ببوهر ، وفيها اثنان وثلاثون بازاً ، وفيها سيفٌ قرابه ذهب مرصع ، وحياصته ذهب مرصع ، وفيها مائة كساء ، وغير ذلك من القماش العال ، وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم ، وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح ، وهم جمع كبير جداً ، وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ، ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم ، حتى نفذت كلها سوى الجواهر واللؤلؤ فإنه اختص به ، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ، ثم نُقِلَت الحرة إلى الميدان بمن معها ، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرةً وعشيةً ما عمهم وفضل عنهم ، فكان

مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ، ونصف إردب أرز ، وقنطار حب رمان ، وربع قنطار سكر ، وثمانى فانوسيات شمع ، وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم ، وأجرة حمل أبقالم مبلغ ستين ألف درهم ، ثم خلع على جميع مَنْ قدم مع الحرة ، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم ، حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول ، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجلب قدره ، وقيل لها أن تُملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء ، وإتما تريد عناية السلطان بإكرامها وإكرام مَنْ معها حيث كانوا ، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد أقبغا بتجهيزها اللائق بها ، فقاما بذلك ، واستخدما لها السقائين والضوية ، وهيتا كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوات والسكر والدقيق والبسماط ، وطلبا الحماله لحمل جهازها وأزودتها ، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة ، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل ، ويمثل كل ما تأمر به ، وكتب لأميرى مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة .

وقال في سنة خمس وأربعين وسبعمائة ما نصّه : وفي نصف شعبان قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة ، وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام ، وأن يدعو له الخطباء يوم الجمعة وخطبها ومشايخ الصلاه وأهل الخير بالنصر على عدوهم ، ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك ، وذلك أن في السنة الحالية كانت بينه وبين الفرنج وقعة عظيمة قُتل فيها ولده ، ونصره الله تعالى بمنه على العدو ، وقتل كثيراً منهم ، وملكوا منهم الجزيرة الخضراء ، فعمر الفرنج مائتي شيني ، وجمعوا طوائفهم ، وقصلوا المسلمين ، وأوقعوا بهم على حين غفلة ، فاستشهد عالم كثير ، ونجا أبو الحسن في طائفة من أزمه بعد شدائد ، وملك الفرنج الجزيرة ، وأسروا وسبّوا وغنموا شيئاً يجلب وصفه ، ثم مضوا إلى جهة غرناطة ، ونصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم أهلها على قطيعة يقومون بها ، وتهادنوا مدة عشر سنين ؛ انتهى كلامه .

وقد تقدّم نص هذا الكتاب الموجه من السلطان أبي الحسن فليراجع قريباً .
 وقال ابن مرزوق في « المسند الصحيح الحسن » بعد كلام ما ملخصه :
 وكان - يعني السلطان أبا الحسن - مجتهداً في الجهاد بنفسه وحرمة ، وجاز للأندلس
 يرسم ذلك بنفسه ، وأظهر آثاره الجميلة ، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد
 أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود . إذ كان من عمالته هو
 والجزيرة ورندة ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه
 ليد المسلمين ، وأنفق على بنائه^١ أحمال مال ، واعتنى بتحسينه ، وبنى حصنه
 وأبراجه وسوره وجامعه ودوره ومخازنه . ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برآ وبجراً ،
 فصبر المسلمون صبر الكرام ، فخبب الله تعالى أمل العدو ، وعاد خاسراً^٢ ،
 والمنّة لله ، فرأى أن يحصن سفح الجبل بسور يحيط به من جميع جهاته حتى
 لا يطمع عدوّ في منازلته ، ولا يجد سيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس
 ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطة
 الهالة بالهلال ، وأمّا بناؤه للمحاسن^٣ والطوالع فأمر غير مجهول ؛ انتهى .

[رسائل لسان الدين ابن الخطيب]

[١ - رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين]

وقدرأيت أن أذكر هنا بعض إنشاء لسان الدين ابن الخطيب في شأن ما يتعلق
 بجبل الفتح وغيره من بلاد الأندلس ، وحال العدو الكافر ، وما ينخرط في هذا
 السلك : فمن ذلك على لسان سلطانه يخاطب به أحد السلاطين من أولاد السلطان
 أبي الحسن المريني ، ونصه :
 المقامُ الذي يُصْرخُ ويُنْجِدُ ، ويُنْهَمُ في الفضلِ ويُنْجِدُ ، ويُسْعَفُ

١ ص : وأنفقوا فيه .

٢ ص : ورجعوا خاسرين .

٣ ص : المحارس .

ويُسعد ، ويبرق في سبيل الله ويرعد ، فيأخذ الكفرَ من عزماته المقيمُ المُقعد ، حتى
ينجز من نصر الله تعالى الموعد ، مقامُ محلِّ أُنحينا الذي حُسِنُ الظنِّ بمجده جميل .
وحدُّ الكفرِ بسَعْدِه كليل ، وللإسلام فيه رجاء وتأميل ، ليس للقلوب عنه
مَمِيل ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى وعزمه الماضي لَصَوْلَة
الكفرِ قامعاً ، وتدييره الناجح لشمْل الإسلام جامعاً ، ومُلْكُه الموفق لنداء
الله مطيعاً سامعاً ، معظم مقداره ، وملتزم إجلاله وإكباره ، المعتدُّ في الله بكرم
شيمته وطيب نِجاره ، المستظهر على عدوِّ الله بإسراعه إلى تدمير الكافر وبقاره .
سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته ، أمّا بعدَ حمد الله مجيب دعوة
السائل ، ومُتَقَبِلِ الوسائل ، ومُتَبِّحِ النعم الجلائل ، مُرَبِحٌ مَنْ عامله في
هذا الوجود الزائف الزائل ، والأيام القلائل ، بالمتاع الدائم الطائل . والنعيم غير
الحائل ، ومقيم أودِ الإسلام المائل ؛ بأولي المكارم من أوليائه والفضائل ، والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله المنقذ من الغوائل ، المُنْجِي مِنَ الرَّوْعِ
المائل ، الصادع بدَعْوَة الحق الصائل ، بين العشائر والفضائل ، الذي ختم به
وبرسالته ديوان الرسل والرسائل ، وجَعَلَه في الأواخر شرف الأوائل . فحبه
كنز العائل ، والصلاة عليه زكاة القائل ، والرضى عن آله وصحبه وعيرته وحزبه
تيجان الأحياء والقبائل ، المتميزين بكرم السجايا وطيب الشمائل ، والدعاء لمقام
أخوتكم في البُكر والأصائل ، بالسعد الصادق المخايل ، والصنع الذي تبرج
مواهبه تبرج العقائل ، والنصر الذي تهز له الصُّعاد المُلدِّ عطف المترائح المتخايل .
فإنّا كتبناه إليكم كتب الله لكم عزّاً يانع الحمائل ، ونَصراً يكفل للكاتب
المدونة في الجهاد ومرضاة ربِّ العباد بسرد المسائل وإقناع السائل ، من حمراء
عَرْناطة ، حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استبصار في التوكل
على من بيده الأمور ، وتسبب مشروع تتعلق به بإذن الله تعالى أحكام القدر

المقلوب ، ورجاء فيما وعد به من الظهور ، يتضاعف على توالي الأيام وترادف الشهور ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ، ومقامكم المعروف محله ، الكفيلُ بالإرواء نهلهُ وعكتهُ ، وإلى هذا وصلَّ الله تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى النعم عندنا وعندكم ^١ ، فإتنا في هذه الأيام ، أهمنا من أمر الإسلام ، مارتنق الشراب ونغص الطعام ، وذاد المنام ، لما تحققنا من عمل الكفر على مكابדתه ، وسعي الضلَّال - والله الواقى - في استئصال بقيته ، وعقد النوادي للاستشارة في شأنه ، وشروع الخيل في هدّ أركانه ، ومَن يؤمِّل من المسلمين لدفع الردى وكشف البلوى وبث الشكوى ، وأهله - حاطهم الله تعالى وتولاهم ، وتمم عوائد لطفه الذي أولاهم ، فهو مولاهم - في غفلة ساهون ، وعن المغبة فيه لاهون ، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم ، وعاجلهم عن آجلهم ، وطولُ الأمل ، عن نافع العمل ، إلا مَن نَوَّرَ اللهُ تعالى قلبه بنور الإيمان وتملئ بمناصحة الله تعالى والإسلام تملئ السليم ، واستدل بالشاهد على الغائب ، وصرف الكفر إلى مطالب ^٢ الأمم النوائب ، فلما رأينا أن الدولة المرينية التي هي على مرّ الأيام شججا العدا ، ومتوعداً من يكيد الهدى ، وفيّة الإسلام التي إليها يتحيز . وكهفهُ الذي إليه يلجأ ، قد أذن الله تعالى في صلاح أمورها ، ولمّ شعثها ، وإقامة صغاها . بأن صرفَ اللهُ تعالى عنها هتات الغدر ^٣ . وأراحها من مس الضرّ ، ورد قوسها إلى يد بارئها ، وصيرَ حقها إلى وارثها ، وأقام لرعي مصالحها مَن حَسُنَ الظنُّ بحسبه ودينه ، ورُجِي الخير من ثمرات نُصحته ، ومَن لم يُعلم إلا الخيرُ من سَعْيِهِ ، والسداد من سيرته ، ومَن لا يستريب المسلمون بصحة عقده ، واستقامة قصده ، أردنا أن نخرج لكم عن العهدة في هذا

١ وعندكم : سقطت من ص .

٢ ص : معاطب .

٣ ص : العلو .

٤ من سعيه : سقطت من ق .

الدين الخفيف الذي وَسَمَتْ دعوته وجوه أحبابكم شملهم الله تعالى بالعافية ،
وتشبثت به أنفسٌ مَنْ صار إلى الله تعالى من السلف تغمدهم الله بالرحمة والمغفرة .
وفي هذا القطر الذي بلاده ما بين مكفول يجب رَعِيْهُ طبعاً وشرعاً ، وجار
يلزم حقّه ديناً ودنيا وحميّة وفضلاً ، وعلى الحالين فعليكم بعد الله المُعْوَل ،
وفيكُم المؤمنل ، فأرْعُونَا أسماعكم المباركة نَقْصٌ عليكم ما فيه رضى الله ،
والتنجاة من نكيره ، والفخر والأجر وحفظ النعم ، والخلف في النرية ، بهذا
وعدت الكتب المنزلة ، والرسل المرسله : وهو أن هذا القطر الذي تعددت فيه
المحارب والمتابر ، والراكم والساجد ، والذاكر والعايد ، والعالم واللقيف ،
والأرملة والضعيف ، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام ، وشحّت الأيدي به منذ
أعوام ، وسلم إلى عبدة الأصنام ، وقوبلت ضرائره بالأعدار ، والمواعيد
المستغرقة للأعمار ، وإن عرّضت شواغل وقتن ، وشوآغب وإحن ، فقد كانت
بمحيط لا يقطع السبب بجملته ، ولا يذهب المعروف بكليته :

ولا بد من شكْوَى إلى ذي مروءة يُواسيك أو يُسئلك أو يتَوَجَّعُ^١

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدّسُ
والدُكْم جبلّ الفتح وهو مُنازل أخاه بسجلماسة ، ولا أمدّه ولده السلطان أبو
عنان وهو بمراكش ، وبالأمس بعثنا إلى الجبل وشمانة في جملة ما أهمنا مبلغ
جهد وسداد من عَوَز ، وقد فضلت عن ضرائرنا أموال فُرِضت من أجل الله
على عباده ، وطعام سَمَحْنَا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده ، فلم يسهم
المتغلب منها بلحائب الله بحجة ، ولا أقطعه منها ذرة مستخفّاً به جلّ وعلا ، متهاوناً
بنكيره الذي هو أحق أن يخشى ، فضاعت الأمور ، واختلّت الثغور ، وتشذبت
الحامية ، وتبدّدت العُدُد ، وختلّت المخازن ، وهلكت بها الجرذان ، وعظمت

١ ص ق : يضح .

بها حسرة الإسلام ، أضعاف ما عظمت حيرته أيام ما كانت تكفلها همم الملوك الكرام والخلفاء العظام ، والوزراء والنصحاء ، والأشياخ الأعماد ، قدّس الله تعالى أرواحهم ، وضاعف أنوارهم ، ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس وركاب الجهاد وحسنة بني مَرِين ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسلطان المقدّس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي تَرَدُّ على قبره^١ مع الساعات والأنفاس وُقُودُ الرحمة ، وهدايا الزُلْفَمَة ، وريحان الجنة ، فلولا أنكم على علم من أحواله لَشَرَحْنَا المَجمَل ، وشكلنا المهمل . إنتما هو اليوم شبح مائل ، وطلل بائد ، لولا أن الله تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا إليه ، ولا حوَم طيره إلا عليه ، ولكان بصَدَد أن يتخذهُ الصليب داراً ، وأن يقرَّ به عيناً ، والعُدوة فضلاً عن الأندلس ، قد أوسعها شرّاً ، وأرهق ما يُجاوره عُسراً ، نسأل الله تعالى بنور وجهه أن لا يسودَّ الوجوه بالفَجَع فيه ، ولا يسمع المسلمين الثكلة ، وما دونه فهو - وإن أنعش بالتعليل عليه ووقع بالجهد خلقه - لحم على وَصَم . إلا أن يصل الله تعالى وقابته . ويوالي دفاعه وعصمته ، لا إله إلا هو الولي النصير ، وما زلنا نشكو إلى غير المصمّت ، ونعدّ اليد إلى المدبّر عن الله المعرض . ونخطب له زكاة الأموال من المباني الضخمة ، والحزائن الثرّة ، والأهراء الطامية . والحظ التافه من المفترض برسمه . فتمضي الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلا ضيقاً ، ولا الأحوال إلا شدةً ، ولا الثغر إلا ضعةً ، ولا نعلم أن نظراً وقع له ولا فكراً أعمل فيه إلا ما كان من تسخير رعيته الضعيفة ، وبُلاله مجباه السخيفة ، في بناء قصر بمنت ميور من جباله :

شاده مَرَمَراً وجلّله كلا سَأَ فَلَطَيِّرٍ فِي ذِرَاهُ وَكُورٍ^٢

جلب إليه الزليج^٣ ، واختلفت فيه الأوضاع في رأس نِيقِي . لأمل نَرَوَة ،

١ زاد في ص : منه بعد لفظة قبره .

٢ البيت لعدي بن زيد العبادي .

٣ ص : الازليج .

وسوء فكرة ، فلما تم أقطع الحجران . فهو اليوم ممتنع اليوم وحظ الخراب ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، حتى جاء أمر الله خالي الصحيفة من البر ، صفر اليد من العمل الصالح ، نعوذ بالله من نكيره : ونسأله الإلهام والسداد ، والتوفيق والرشاد ، وقد بذلنا جهدنا قولاً وفعلاً . وموعظة ونصحاً : واستدعينا لتلك الجهة صدقة المسلمين محمولة على أكتاد العباد الضعفاء الذين كانت صدقات فاتحيه رضي الله تعالى عنهم ترفدهم . ونوافله تتعهدهم . فما حرك ذلك الجوار حلوباً ، ولا استدعى مطلوباً ، ولا رفقاً مجلوباً ، فإلى متى تُنصَى ركاب الصبر وقد بلغ الغاية ، واستنفد البلالة ، بعد أن أعاد الله تعالى العهد ، وجبر المال . وأصلح السعي ، وأجرى ينابيع الخير ، وأنشق رياح الإقالة . وجملة ما نريد أن نقرره فهو الباب الجامع ، والقصد الشامل ، والداعي والباعث : أن صاحب قشتالة لما عاد إلى ملكه ، ورجع إلى قطره ، جرت بيننا وبينه المراسلة التي أسفرت بعدم رضاه عن كدّنا لنصره ، ومظاهرتنا إياه على أمره : وإن كنا قد بلغنا جهداً ، وأبعدنا وسعاً ، وأجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلها ، وأغراض صعبة لم نكملها ، ونحن نتحقق أنه إما أن تهيج حفيظته ، وتثور إحنته ، فيكشف وجه المطالبة مستكثراً بالأمة التي داس بها أهل قشتالة . فراجع أمره غلاباً : وحقه ابتزازاً واستلاباً . أو يصرّفها ويهادن المسلمين بخلال ما لا يدع جهة من جهات دينه الغريب إلا عقد معها صلحاً ، وأخذ عليها بإعانتها إياه عهداً ، ثم تفرغ إلى شفاء غليله . وبلوغ جهده . ولا شك أنها تحييه صرفاً لبأسه عن نخورها ، ومقارضة كما وقع باطرية من مضيق صدورها . ومؤسف جمهورها . وكل من له دين ما فهو يحرص على التقرب إلى مسدانه به وكلفه وظائف تكايف . رجاء لوعده وخوفاً من وعيده : وبالله تدفع ما لا نطيق من جموع تداعت من الجزر ووراء البحور والبر المتصل الذي لا تقطعه الرفاق ، ولا نحصي ذرعه الحذاق ، وقد أصبحنا بدار غربة ، ومحل روعة ، ومقرس نبوة . ومظنة فتنة ، والإسلام عدده قليل ، ومنتجعه في هذه البقعة جنديب . وعهده بالإرقاد والإمداد

من المسلمين بعيد ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا - إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ﴾
(البقرة : ٢٨٦) .

وإذا تداعت أمم الكفر نصره لدينها المكذوب ، وحميةً لصلبيها المنصوب ،
فمن يستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن ؟ حيث المآذن
بذكر الله تعالى تملأ الآفاق ، وكلمة الإسلام قد عمت الرُّبى والوهاد ، إنَّما الإسلام
غريق قد تشبَّت بأهدابكم ، يناشدكم الله في بقية الرمتى ، وقبل الرمي تُراش
السهام ، وهذا أوان الاعتناء ، واختيار الحماة ، وإعداد الأقوات ، قبل أن يضيق
المجال ، وتمنع الموانع ، وقد وجَّهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم
مقرراً الضرورة ، منهيّاً الرغبة ، مذكراً بما يقرب عند الله ، مذكراً للذمام
الإسلام ، جالباً على مَنْ وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح
الصدور ، وتسني الآمال ، وتستدعي الدعاء والثناء ، فالؤمن كثير بأخيه ، ويد الله
مع الجماعة ، والمسلمون يدٌ على مَنْ سواهم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان
المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والتعاون على البر والتقوى مشروع ، وفي الذكر
الحكيم مذکور ، وحق الجار مشهور ، وما كان جبريل يوصي به في الصحيح
مكتوب ، وكما راع المسلمين اجتماع كلمة الكفر ، فرجو أن يروِّع الكفر من
العز بالله ، وشدَّ الحيازيم في سبيل الله ، ونفير النفرة لدين الله ، والشعور في
حماية الثغور وعمرانها ، وإزاحة عللها ، وجلب الأقوات إليها ، وإنشاء الأساطيل ،
وجبر ما تلف من عدة البحر ، أمور تدل على ما وراءها ، وتخبر بمشيئة الله تعالى
عما بعدها ، ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ
الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (البقرة : ١٩٧) . ومن خطب علي رضي الله تعالى عنه : أما بعد ،
فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رهبة ألبسه الله تعالى سيما الخسف ،
ووسَّمه بالصغار ، وما بعد الدنيا إلا الآخرة ، وما بعد الآخرة إلا إحدى داري
البقاء ، أفي الله شك ؟ ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
(الحشر : ٩) .

والاعتناء بالحليل عنوان هذا الكتاب ، ومقدمة هذا الباب ، والغفلة عنه مند أعوام قد صيرتنا لا نقنع باليسير ، وقد أبرمته المواعيد ، وغَيَّرَ رسومه الانتظار ، ومن المنقول « ارحموا السائل ولو جاء على فرس » ، والإسراف في الخير أرجح في هذا المحل من عكسه ، وكان بعض الأجواد يقول وقد أقر : اللهم هَبْ لي الكثير ، فإن حالي لا تقوم على القليل ، وعسى أن يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه ، والامتعاض له مكافئاً للإضرار به ، وخلو البحر يغمم لإمداده وإرفاده ، قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطع المدد وسد البحر ، ومن ضيع الخزم ندم ، ولا عذر لمن علم ، والله عزّ وجلّ يطلع من قبلكم على ما فيه شفاء الصدور ، وجبَّرت القلوب ، وشعَّب الصلوع ، وما نقص مال من صدقة ، وطعام الواحد كافٍ لاثنين ، والدين دينكم ، والبلاد بلادكم ، وعمل رباطكم وجهادكم ، وسوق حسناتكم ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨) ، وقد قلدنا العهد الحفيظ علينا ، المصروف العناية بفضل الله تعالى إلينا ، والله المستعان ، وعليه التكلان ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته : انتهى .

وفي اعتقادي أن هذا المكتوب للسلطان أبي فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني ؛ وأن المراد بالمتغلب الوزير عمر بن عبد الله الذي ظفر به أبو فارس المذكور واستقل بالملك بعد محو أثره ، حسبما ذكرناه في غير هذا المحل ؛ والله سبحانه أعلم .

[٢ - رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني]

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه في استنهاض عزم صاحب فاس السلطان المريني لنصرة الأندلس ، ما نصّه : المقام الذي يؤثر حظ الله إذا اختلفت الحظوظ وتعددت المقاصد ، ويشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت

الموارد . وتشمل عادةً حلمه وفضله الشارد ، ويسع وارفُ ظله الصادر والوارد ،
والغائب والشاهد ، ويعيد من نصر الله للإسلام العوائد ، ويسدُّ الذرائع ويدرُّ
الفوائد . مقامُ محلِّ أختينا الذي حسنت في الملك سيره ، وتعاضد في الفضل خبره
وخبِرُهُ . ودلت شواهد مداركه للحقوق ، وتغمده للعقوق ، على أن الله تعالى
لا يهمله ولا يندره ، فسيلكُ فخره متسقة درره ، ووجه ملكه شادخة غرره ،
السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله رفيعاً علاؤه ، هامية
لديه میننُ الله تعالى والآؤه ، مزدانة بكواكب السعد سماؤه ، محروسةً بعز
النصر أرجاؤه : مكماً من فضل الله تعالى في نصر الإسلام ، وكببت عبدة
الأصنام ، أمله ورجاؤه ، معظم قدره الذي يحق له التعظيم ، وموقر سلطانه الذي
له الحسب الأصيل والمجد الصميم ، الداعي إلى الله تعالى باتصال سعاده حتى
ينتصف من عدو الإسلام الغريم ، ويتاح على يد سلطانه الفتح الجسيم . فلان ؛
سلام كريم ، طيب عميم ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي لا يُضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا ينحيب لمن أخلص
الرجبة إليه أملاً . وموفي من ترك له حقه أجره المكتوب متمماً مكماً .
وجاعل الجنة لمن اتقاه حق تقاته نُزلاً ، ملك الملوك الذي جلَّ وعلا ، وجبار
الجبابة الذي لا يجِدُون عن قدره مَحِيصاً ولا من دونه مَوْتِلاً ، والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي أنزل الله تعالى عليه الكتاب مُفَصَّلاً ،
وأوضح طريق الرشد وكان مُغْفَلاً ، وفتح باب السعادة ولولاه كان مُقْفَلاً ،
والرضي عن آله وأصحابه : وعيترته وأحزابه ، الذين ساهموا فيما مرَّ وما حلا .
وخلقوه من بعد بالسير التي راقت مجتلى ، ورفعوا عماد دينة فاستقام لا
يعرف ميلاً . وكانوا في الحلم والعفو مثلاً ، والدعاء لِقَامِكُم الأسمى بالنصر
الذي يلقى نصه صريحاً لا متأولاً ، والصنع الذي يبهر حالاً ومستقبلاً ، والعز
الذي يرسو جبلاً ، والسعد الذي لا يبلغ أمدأ ولا أجلاً ، فإننا كتبناه إليكم
أصحَّ الله تعالى ركابكم حليف التوفيق حلاً ومرتاحلاً ، وعرفكم عوارف

البُسن الذي يثير جدّلاً ، ويدعو وافد الفتح الميين فيرد^١ مستعجلاً . من حمراء
 غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من التشيع
 لمقامكم حرس الله تعالى سلطانه ، ومهّد أوطانه : إلا الخير الذي نسأل بعده
 تحسين العقبى ، وتوالي عادة الرحى : والحمد لله على التي هي أركمى ، وسدل
 جناح السر الأضفى : وصلة اللطائف التي هي أكفل وأكفى ، وأبر وأوفى .
 ومقامكم عندنا العدة التي بها نصول ونرهب ، والعمدة التي نطيل في ذكرها
 ونسهب ، وقد أوفدنا عليكم كل ما زاد لدينا ، أو فتح الله تعالى به علينا .
 ونحن مهما شد المختق بكم نستنصر ، أو تراخى ففي ودكم نستبصر ، أو فتح
 الله تعالى فأبوابكم نهي ونبشر ، وقررنا عندكم أن العدو في هذه الأيام توقف
 عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سرية ، ولا بطشت له يد جريّة . ولا
 افترعت من تلقائه ثنية ، ولا ندري المكيدة تُدبر ، أم آراء تُنقض بحول الله
 وتُتبر ، أو لشاغل في الباطن لا يظهر ، وبعد ذلك وردت على بابنا من بعض
 كبارهم ، وزعماء أقطارهم ، مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل
 النصح ، لأباد سلفت منّا لهم قررها ، ووسائل ذكرها ، فلم يخف عنا
 أنه أمر دبر بليلى ، وخيبة تحت ذيل ، فظهر لنا أن نسبر الغور ، ونستفسر
 الأمر ، فوجهنا إليه - على عادتنا مع سلفه - لنعبر ما لديه ، وننظر إلى مواطن
 أمره ، ونبحث عن زيد قومه وعمره ، فتأتى ذلك وجرّ مفاوضة في الصلح
 أعدنا^٢ لأجلها الرسالة ، واستشعرنا البسالة ، ووازنّا الأحوال واختبرنا ،
 واعتزنا في الشروط ما قدرنا ، ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل
 بها الأقوات المهمة للانتساف ، وتسكن^٣ ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف ،

١ ق ص : ويرد .

٢ ق : أعدنا .

٣ ص : وتسكين .

ونفرغ^١ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف ، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته ، حتى يُظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته ، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أدرنا ، وشموخ الأنف فيما أصدرنا ، إلا ما أشعنا من عزمكم على نُصرة الإسلام ، وارتقَاب خفوق الأعلام ، والخفوف إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الأرض حميةً لله تعالى قد اهترت ، والنفرة^٢ قد غلبت النفوس واستفزت ، واستظهرنا بكتبكم التي تضمنت ضرب المواعد ، وشمرت عن السواعد ، وأن الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعنة ، والثنايا سدتها بروق الأسيئة ، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون ، والأموال قد سمح بها المسلمون ، وهذه الأمور التي تمشت بقربها أو بعيدها أحوال الإسلام ، والأمانى المعدة لترجية الأيام ، ثم اتصل بنا الخير الكارث بما كان من حور العزائم المؤمنة بعد كورها ، وتسويف مواعد النصرة بعد استشعار قورها ، وأن الحركة مُعمّاة إلى مراكش الجهة التي في يديكم زمامها ، وإليكم وإن تراخى الطول ترجع أحكامها ، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة ، ولا يعجزكم عن الصولة ، ولا يطلبكم إن تركتموه . ولا يمنعكم إن طرقتموه وعركتموه ، فسُقِط في الأيدي الممدودة ، واختلفت المواعد المحدودة ، وخسئت الأبصار المرتقبة ، ورجفت المعاملُ الأشبية ، وساءت الظنون ، وذرقت العيون ، وأكذب الفضلاء الخير ، ونفوا أن يعتبر ، وقالوا : هذا لا يمكنُ حيث الدين الحنيف ، والملك المنيف ، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم ، وحمل النصيحة أعناقهم ، هذا المفترض الذي يبعد ، والقائم الذي يقعد ، يأباه الله تعالى والإسلام ، وتأباه العلماء والأعلام ، وتأباه المآذن والمنابر ، وتأباه المهمم والأكابر ، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبأ الذي إن كان باطلاً فهو الظن ، والله المن ، وإن كان خلافه لرأي ترجح ، وتنفق بقرب الملك وتبجح ، فنحن نوفد كل من

١ ق : ونفرع .

٢ ص : والنفرة .

يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر في شفاعته ، ويمد إليه كف ضراعة ، ومن يؤتمُّ بصلاحٍ وعبادة ، ويقصد في الدين بثَّ^١ إفادة ، يتطرحون عليكم في نقض ما أبرم ، ونسخ ما أحكم ، فإنكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد ، وتحلّون عليه ما عقّد ، وهب العذر يُقبل في عدم الإعانة ، وضرورة الاستعانة والاستكانة ، أيُّ عذر يُقبل في الاطّراح ، والإعراض الصّراح ؟ كأن الدين غير واحد^٢ ، كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد ، كأن ذمام الإسلام غير جامع ، كأن الله غير راءٍ ولا سامع ، فنحن نسألکم بالله الذي تسألون به والأرحام ، ونأنف لكم^٣ من هذا الإحجام ، ونتطرح عليكم أن تركوا حظكم في أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا وبين العدو الذي يتكالب علينا بإدباركم ، بعدما تضاعل لاستنفاركم ، ولا نكلفكم غير اقتراب داركم ، وما سامكم المسلمون بها شططاً ، وما حملوكم إلاّ قَصْدًا وسطاً ، وما ذهبتم إليه لا يفوت ، ولا يبعد وقد تجاوزت البيوت ، إنّما الفاتت ما وراءكم ، من حديث تأنف من سماعه أودأؤكم ، ودين يشمت به أعداؤكم ، فأسعفوا بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قصدنا ، وحاشا إحسانكم أن يرضى فيه ردّنا ، وأنتم بعدُ بالخيار فيما يجريه الله على يديكم من قدره ، أو يلهمكم إليه من نصره ، وجوابكم مرتقب بما يليق بكم ، ويحمل بحسبكم ، والله سبحانه يصل سعدكم ، ويحرم مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

[٣ - رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس]

ومن إنشاء لسان الدين أيضاً في مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان

١ ص : بيث .

٢ كأن . . . واحد : سقطت من ص .

٣ لكم : سقطت من ق .

سلطان عرناطة فيما يقرب من الأحياء السابقة . ما نصّه :

المقامُ الذي أقمارُ سعدِهِ في انتظامِ واتساقِ . وحيادُ عزّه إلى الغايةِ القصوى ذاتُ استباقِ ، والقلوبُ على حبه ذاتُ اتفاقِ ، وعنايةِ الله تعالى عليه مدينةِ الرِّوَاقِ . وأياديه الجمّة في الأعناقِ ، ألزم من الأطواقِ ، وأحاديثُ مجده سَمَرِ النوادي وحديثُ الرفاقِ . مقامُ محلِّ أبينَا الذي شأنُ قلوبنا الاهتمامُ بشانه ، وأعظمُ مطلوبنا من الله تعالى سعادةِ سلطانه . السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى والصنائعِ الإلهية تحط بيبابه ، والألطف الخفية تُعرّسُ في جنبه . والنصر العزيز يحفُّ بركابه ، وأسبابُ التوفيق متصلة بأسبابه ، والقلوبُ الشجية لفرقه مسرورة بإيابه ، معظمُ سلطانه الذي له الحقوق المحتومة ، والفواضل المشهورة المعلومة ، والمكارم المسطورة المرسومة ، والمفاخر المنسوقة المنظومة . الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة ، وحفظها على هذه الأمة المرحومة . الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل ابن فرج بن نصر . سلام كريم . طيب برّ عميم . كما سَطَعَتْ في غَيْهَبِ الشدة أنوار الفرج . وهبَّت نواصمِ الطافِ الله عاطرة الأرج ، يخص مقامكم الأعلى . ورحمة الله وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله جالي الظلّم بعد اعتكارها ، ومُقِيلِ الأيام من عثارها ، ومزَيْنِ سماء الملكِ بشموسها المحتجبة وأقمارها ، ومريحِ القلوب من وَحْشَةِ أفكارها : ومنشئِ سحابِ الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها ، وشدة اضطرابها واضطرابها ، ومُتَدَارِكها بالطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطانها ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله صفوة النبوة ومُخْتَارها ، ولُبَابِ مجدها السامي ونِجَارها^١ ، نبيّ الملاحم وخائض تيّارها ، ومُنْذِهِبِ رسومِ الفتن ومطفئ نارها ، الذي لم ترعهُ الشدائد باضطراب بحارها ، حتى بلغت

١ ص : وفخارها .

كلمة الله ما شاعت من سطوع أنوارها ، ووضوح آثارها ، والرضى عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على إحلاء الحوادث وإمرارها ، وباعوا نفوسهم في إعلاء دَعْوَتِهِ الحنيفية وإظهارها ، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها ، وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها ، حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها ، وتعرض على مثابنتكم ذنوبها رغبة في اغتفارها ، فإننا كتبناه إليكم — كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحى الملوك من مواهب إسعاده ، وعرفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإبراده ، وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده ، وجعل العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المين للصالحين من عباده — من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد ، وإلى كنف فضله الاستناد ، ثم ببركة جاه نبينا الذي وضع بهدايته الرشاد ، إلا الصنائع التي تُشام بوارق اللطف من خلالها ، وتجرُ سيماءها بطلوع السعود واستقبالها ، وتدُلّ مخايل يمنها على حسن مآلها ، لله الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها ، ونستدرُّ عذب زلالها ، وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه ، والسرور بسعادة أيامه ، والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه ، ما لا تفي العبارة بأحكامه ، ولا تتعاطى^١ حصر أحكامه ، وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه^٢ ، وصان سلطانكم وتولاه ، فقد علم الحاضر والغائب ، وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب ، ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب ، وأننا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة ، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة ، لا يستقر بقلوبنا القسار ، ولا تتأنى بأوطاننا الأوطار ، تشوقاً لما تتيحه^٣ لكم الأقدار ، ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ،

١ ص ق : يتعاطى .

٢ ق : وعلاكم .

٣ ص ق : تشوقاً لما تنتج .

ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشند على الأوقات وَيَقْوَى ، علماً بأن العاقبة للتقوى ، وفي هذه الأيام عميت الأنباء ، وتكالت في البر والبحر الأعداء ، واختلقت الفصولُ والأهواء ، وعافت الورُادُ الأنواء ، وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ، ولو كنا نجد للاتصال بكم سبباً ، أو نلقي لإعانتكم مذهباً ، لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض ، والعلو بساحتنا في هذه الأيام رَبَّض ، وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء رايةً خافقة ، واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة ناققة ، الشيخ الأجلُّ الأوفى ، الأودُّ الأخلص الأصفى ، أبو محمد ابن أحياناً^١ سنَى الله مأموله ، وبلغه من سعادة أمركم سؤلّه ، وقد ورد على بابنا ، وتمحيز إلى الحاق بجنابنا ، ليتيسر له من جهتنا القلوم ، ويتأتى له بإعانتنا الغرضُ المرُوم ، فبينما نحن فنظر في تميم غرضه ، وإعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه ، إذ اتصل بنا خيرٌ قرقرتين من الأجفان التي استعنم بها على الحركة ، والعزيمة^٢ المقرنة بالبركة ، حطت إحداهما بمرسى المنكبِ والأخرى بمرسى المريّة ، في كنف العناية الإلهية ، فتلقينا^٣ من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها ، والأخبار التي يُغني نصّها عن قياسها ، وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر ، وحركتكم المعروفة باليمن والظفر ، وأنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمن قلوبكم خائفها ، ويؤلف طوائفها ، ويسكن راجفها ، ويصلح أحوالها ، ويسكن أهوالها ، وأنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور ، والسعد الموفور ، واليمن الرائق السفور ، والأسطول المنصور ، فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها ، ونهوض طيور الرجاء من وكونها ، واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرّة عيونها ، وتحقق ظنونها ، وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها العدل والإحسان ، وقللتها قلائد السيّر الحسان ، وما منها إلا من باح بما يخفيه من وجده ، وجهر

١ ص : أجانا .

٢ ق ص : والعزيمة .

٣ ص : تلقينا .

بشكر الله تعالى وحمله ، وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وثنيم
قَصْدُه ، واستثناس نور سعده ، وكم مطل الانتظار بديون آمالها ، والمطاوله من
اعتلالها . وأما نحن فلا تسألوا عن استشعر دنو حبيبه ، بعد طول مغيبه ، إنما
هو صلبر راجعَه فؤاده ، وطرف ألفه رقاده ، وفكر ساعده مراده ، فلمّا
بلغنا هذا الخبر بادرنّا إلى إنجاز ما بدلنا لخدمكم المذكور من الوعد ، واغتمنا
ميقات هذا السعد ، ليصل سببه بأسبابكم ، ويسرع لحاقه بجنابكم ، فعنده
خدمٌ نرجو أن ييسر الله تعالى أسبابها ، ويفتح ببيتكم الصالحة أبوابها ، وقد
شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالشيخ الكريم الوداد ، ونصل له
على بعد المزار ونزوح الأقطار سبب الاعتداد ، ما يغني عن القلم والمداد ، وقد
ألقينا إليه من ذلك كلّ ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد ، وكتبنا إلى من بالسواحل
من ولاتنا نخدمٌ لهم ما يكون عليه عملهم في يرّ من يرد عليهم من جهة أبوتكم
الكريمة ، ذات الحقوق العظيمة والأيدي الحديثة والقديمة ، وهم يعملون في
ذلك بحسب المراد ، وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ، ويعلم الله تعالى أنّنا لو لم تعق
العوائق الكبيرة ، والموانع الكثيرة ، والأعداء الذين دُهِيتَ بهم في الوقت
هذه الجزيرة ، ما قدّمنا عملاً على اللحاق بكم ، والاتصال بسبيكم ، حتى
نوفّي لأبوتكم الكريمة حقّها ، ونوضح من المسرة طرقها ، لكن الأعداء واضحة
وضوح المثل السائر ، والله العالم بالسرائر ، وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح
لكم من التيسير طريقاً ، ويجعل السعد لكم مصاحباً ورفيقاً ، ولا يعدمكم عناية
منه وتوفيقاً ، ويتم سرورنا عن قريب بتعرف أنبائكم السارة ، وسعودكم
الدارّة ، فذلك منه سبحانه غاية آمالنا ، وفيه إعمال ضراعتنا وسؤالنا ، هذا
ما عندنا بادرنّا لإعلامكم به أسرع البدار ، والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار ،
بسعادة ملككم السامي المقدار ، وييسر ما له من الأوطار ، ويصل سعدكم ،

١ ص : ذهبت .

ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .
 وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس
 وسلاطين فاس كثيراً ما يدسُّ لأقارب الملوك القيامَ على صاحب الأمر ، ويزين
 له الثورة ، ويعِدُّه بالإمداد بالمال والعدَّة ، وقصَّدهُ بذلك كلَّه توهين المسلمين ،
 وإفساد تدبيرهم ، ونسخ الدول بعضها ببعض ، لما له في ذلك من المصلحة ، حتى
 بلغ أبعده الله تعالى من أمله الغاية .

[٤ - رسالة إلى السلطان المريني في الاعتذار عن فرار أبي الفضل المريني من غرناطة]

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ، عن سلطان الأندلس
 إلى سلطان فاس المريني ، يعتذر عن فرار الأمير أبي الفضل المريني الذي كان
 مُعتقلاً بغرناطة ، فتحيل الطاغية في أمره حتى خرج طالباً للملك ، ما نصه :
 المقام الذي شهد الليلُ والنهارُ بأصالة سعادته ، وجرى الفلكُ الدوَّارُ بحكم
 إرادته ، وتعود الظفرَ بمن يناوئه فاطَّرد والحمد لله جريان عادته ، فولَّيه متحقق
 لإفادته ، وعلوه مرتقب لإبادته ، وحلَّ الصنائع الإلهية تَضْفُو على أعطاف
 مَجادته ، مقامُ محلِّ أختينا الذي سَهَّمُ سعده صائب ، وأملُ مَنْ كاده خاسر
 خائب ، وسير الفلكِ المدار في مرضاته دائب ، وصنائعُ الله تعالى له تصحبها
 الألفاظ العجائب ، فسيان شاهد منه في عصمة وغائب ، السلطانُ الكذا ابن
 السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى مُسدِّد السهم ، ماضي العزم ،
 تجلُّ سعوده عن تصور الوَهْم ، ولا زال مرهوبَ الحد ممثل الرسم ، موفور
 الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسَم ، فائزاً بفلج الخصام عند لدَد الخصم ،
 معظم قدره ، وملترم بره ، المبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره ،
 وإظهار أمره ، فلان : سلام كريم ، طيب برِّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ،
 ومثابتمكم الفضلى ، التي حازت في الفخر الأمدَّ البعيد ، وفازت من التأيد
 والنصر بالحظ السعيد ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي فَسَّحَ لِمَلِكِكُمْ الرَفِيعِ فِي الْعِزِّ مَدَى ، وَعَرَّفَهُ عَوَارِفِ
آلَاتِهِ وَعَوَائِدِ النُّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِ يَوْمًا وَغَدًا ، وَحَرَسَ سَمَاءَ عِلَّاتِهِ بِشُهْبٍ مِنْ
قَدَرِهِ وَقَضَائِهِ ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ (الجن : ٩)
وَجَعَلَ نَجْحَ أَعْمَالِهِ وَحُسْنَ مَأَلِهِ قِيَاسًا مَطْرَدًا ، فَرَبًّا مَرِيدًا ضَرَّهُ ضَرْهُ نَفْسِهِ
وَهَادِيًّا إِلَيْهِ أَهْدَى وَمَا هَدَى ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ نَبِيِّهِ
وَرَسُولِهِ الَّذِي مَلَأَ الْكُونَ نُورًا وَهَدَى ، وَأَحْيَا مَرَامِ الْحَقِّ وَقَدْ صَارَتْ
طَرَاتِقُ قِدَادَا ، أَعْلَى الْأَنْثَامِ يَدَا ، وَأَشْرَفَهُمْ مَحْتِدَا ، الَّذِي يَجَاهَهُ نَلْبَسُ
أَثْوَابَ السَّعَادَةِ جُدْدًا ، وَنَظْفِرَ بِالنَّعِيمِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا ، وَالرِّضَى عَنْ آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَفَعُوا لِسَمَاءِ سَنَّتِهِ عَمْدًا ، وَأَوْضَحُوا مِنْ سَبِيلِ اتِّبَاعِهِ مَقْصِدًا ،
وَتَقَبَّلُوا شَيْمَةَ الطَّاهِرَةِ رُكْعًا وَسُجْدًا ، سِيوفًا عَلَى مَنْ اعْتَدَى ، وَنُجُومًا لِمَنْ
اهْتَدَى ، حَتَّى عَلَتْ فُرُوعُ مَلَّتِهِ صُعْدًا ، وَأَصْبَحَ بِنَاؤُهَا مَدِيدًا مَخْلَدًا ، وَالِدَعَاءِ
لِمَقَامِكُمْ الْأَسْمَى بِالنُّصْرِ الَّذِي يَتَوَالَى مِثْقَالَ مِثْقَالِ مَوْحِدَا ، كَمَا جَمَعَ لِمَلِكِكُمْ مَا تَفَرَّقَ
مِنَ الْأَلْقَابِ ، عَلَى تَوَالِي الْأَحْقَابِ ، فَجَعَلَ سَيْفِكُمْ سَفَاحًا وَعِلْمِكُمْ مَنْصُورًا
وَرَأْيَكُمْ رَشِيدًا وَعِزْمَكُمْ مُؤِيدًا ، فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ صِنْعًا
يُشْرِحُ لِلْإِسْلَامِ خَلْقًا ، وَنُصْرًا يَقِيمُ لِلدِّينِ الْخَنِيفِ أَوْدًا ، وَعِزْمًا يَمَلَأُ أَفْتَدَةَ
الْكَفْرِ كَمْدًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مَمَّنْ هِيَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ رَشْدًا ، وَيَسِّرَ لَكُمْ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَى
كَمَا وَعَدَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَاللَّهُ أَصْدَقُ مَوْعِدًا - مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ حَرَسَهَا
اللَّهُ وَلَا زَائِدَ بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا اسْتَطْلَاعَ سَعُودِكُمْ فِي آفَاقِ الْعَنَاءِ ، وَاعْتِقَادَ
جَمِيلِ صِنْعِ اللَّهِ فِي الْبِدَايَةِ وَالنَّهَائَةِ ، وَالْعِلْمَ بِأَنَّ مَلِكِكُمْ تَحْدَى مِنْ الظُّهُورِ عَلَى
أَعْدَائِهِ بَأْيَةٍ ، وَأَجْرَى جِيَادِ السَّعْدِ فِي مِيدَانِ لَا يَجِدُ بَغَايَةَ ، وَخَرَقَ حِجَابَ
الْمَعْتَادِ بِمَا لَمْ يَظْهَرِ إِلَّا لِأَصْحَابِ الْكِرَامَةِ وَالْوَلَايَةِ ، وَنَحْنُ عَلَى مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ
السُّرُورِ بِمَا يَهَيِّزُ لِمَلِكِكُمْ الْمَنْصُورِ عِطْفًا ، وَيُسَدِّدُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِصْمَةِ سَجْفًا ،
نَقَاسِمَهُ الْإِرْتِيَاحَ لِمَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى نِصْفًا وَنِصْفًا ، وَنَعْفِدُ بَيْنَ أَنْبَاءِ مَسْرَتِهِ
وَبَيْنَ الشُّكْرِ لِلَّهِ حِلْفًا ، وَنَعْتَدُ التَّشْيِيعَ لَهُ مِمَّا يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، وَنُؤْمَلُ

من إمداده ورتقب من جهاده وقتاً يُكفل به الدين ويكفي ، وتروى غلغلة
النفوس وتشفى .

وإلى هذا وصل الله سعدكم ، ووالى نصركم وعضدكم ، فإننا من لدن
صدرَ عن أحيكم أبي الفضل ما صدر من الاتقياد لحدّ الآمال ، والاعتزاز
بموارد الآل ، وقال رأيه في اقتحام الأهوال ، وتورط في هفوة حار فيها حيرة
أهل الكلام في الأحوال ، وناصب من أمركم السعيد جبلاً قضى الله له بالاستقرار
والاستقبال ، ومن ذا يزاحم الأطواد ويزحزح الجبال ؟ وأخلف الظن منّا
في وفاته ، وأضمر عملاً استأثر عنا بإخفائه ، واستعان من علو الدين بمعين
قلماً يري لمن استنصر به زئبد ، ولا حَقَّق لمن تولاه بالنصر بئد ، وإن الطاغية
أعانه وأنجده ورأى أنه سهم على المسلمين سدّده ، وعَضِبَ للفتنة جرّده ،
فسخر له الفلك ، وأمل أن يستخلمه بسبب ذلك الملك ، فأورده الملك والظلم
الحلك ، علمنا أن طيرفَ سعادته كاب ، وسحاب آماله غير ذات انسكاب ،
وقدم غيرته لم يستقر من السداد في غرر ركاب ، فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط
بنياتها ، وغايات الأمور تظهر في بداياتها ، وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته
لا تُجهل ، ومنّ غالب أمر الله خاب منه الموعول .

فبينما نحن نرتقب خسارة تلك الصفقة المعقودة ، وخمود تلك الشعلة الموقودة ،
وصلنا كتابكم يشرح الصلور ويشرح الأخبار ، ويهدي طرف المسرات على
أكف الاستبشار ، ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدأ ، عن الود الواضح
وضوح النهار ، والتحقّق بخلوصنا الذي يعلمه عالم الأمرار ، فأعاد في الإفادة
وأبدى ، وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى ، فعلم منه مال من رام
أن يقدح زبد الشتات من بعد الالتام ، ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركود
القتام ، هيات تلك قلادة الله تعالى التي ما كان يتركها بغير نظام ، ولم يدر

أنكم نصبتم له من الحزم حباله لا يُفْلِتِهَا قَتِيصٌ . وسَدَّ دَمَ له من السعد سهماً ما له عنه من مَحِيصٍ ، بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد في مَطَارِهِ . حائلاً بينه وبين أوطاره ^١ ، فما كان إلا التسمية والإرسال ، ثم الإمساك والقتال . ثم الاقتيات والاستعمال ، فإيا له من زجر استنطق لسان الوجود فجذله ^٢ ، واستنصر البحر فخذله ، وصارع القدر فجذله ^٣ لما جدَّ له . وإن خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل ^٤ غاية بعيدة ، ومنتسب إلى نصبة غير سعيدة ، وشأنىء غمرته من الكفار . خدام الماء وأولياء النار ، تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشقار ، وتحصل منهم من تحطاه الحِمَامُ في قبضة الإسار ، فعجبنا من تيسير هذا المرام ، وإخماد الله لهذا الضرام ، وقلنا : تكيف لا يحصل في الأوهام ، وتسديد لا تستطيع إصابته السهام ، كلما قدح الخلاف زنداً أطفأ سعدكم شعلته ، أو أظهر الشتات ألباً أبرأ يمن طائركم علته ، ما ذاك إلا لنية صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت ، واسترسلت بركتها وسحت ، وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلكم وتمت ، واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التي أهمت ، فنحن نهنيكم بمنح الله ومنه ، ونسأله أن يلبسكم من عنايته أوقى جنته ، فأملنا أن تطرد آمالكم ، وتنجح في مرضاة الله أعمالكم ، فمقامكم هو العمدة التي يدفَعُ العدوُّ بسلاحها ، وتنبليج ظلمات صفاحها ، وكيف لا نهنيكم بصنع على جهتنا يعود ، وبآفاقنا تطلع منه السعود ، فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكضت ، وديمه بساحة الود قد وكفت ، والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ، ولا يعلمكم عناية وسعادة ، وهو سبحانه يعلي مقامكم ، وينصر أعلامكم ، ويهيئ الإسلام أيامكم ، والسلام الكريم

١ ص : أوكاره .

٢ ق : فجدله .

٣ ق : فخذله .

٤ ص : منموماً .

يخصكم ، ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .
وكان سلطان الأندلس في الأزمان المتأخرة كثيراً ما يشم أَرَجَ الفَرَج في
سِلْم الكفار ومهادنتهم ، حيث لم يقدر في الغالب على مقاومتهم ، ولذلك لما
قُتِلَ السلطان أبو الحجاج الذي كان لسان الدين كاتبه ووزيره ، وقام بالأمر
بعده ابنه محمد الغني بالله الذي ألقى مقاليد لسان الدين — أكد أمر السلم ،
وانتظر ما يبرمه القضاء الجزم ، والقدر الحتم .

[٥ - رسالة على لسان الغني إلى أبي عنان]

ومن إنشاء لسان الدين في ذلك على لسان الغني مخاطباً لسلطان فاس والمغرب
أبي عنان ما صورته :

المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ، ويهز إلى جميل العوائد أعطاف
بأسه وجوده ، ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده ، ونرث من الاعتماد
عليه أسنى ذخْر يرثه الولد عن آبائه وجدوده ، مقام محل أبيننا الذي رَعِي الأذمة
شانه ، وصلة الرعي سجية انفرد بها سلطانه ، ومواعيد النصر ينجزها زمانه ،
والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه ، وتطابق
فيهما إسراره وإعلانه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ،
أبقاه الله تعالى محروساً من غير الأيام جنابُه ، موصولةً بالوقاية الإلهية أسبابه ،
مسلولاً على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه ، مصروفاً عنه من صرف
القدر ما يعجز عن رده بَوَّابُه ، ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التي تدخرها
لأولادها أولياؤه وأحبابه ، ويسطر في صحف الفخر ثوابه ، وتشتمل على مكارم
الدين والدنيا أثوابه ، وتتكفل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام
كتائبه وكتابه ، معظمٌ ما عظم من حقه السائر من إجلاله وشكر خلاله على
لاحب طرقة ، المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه ، الأمير عبدُ الله محمد ابن أمير

المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر : سلام كريم ، طيب برعميم ، يخص مقامكم 'الأعلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي لا راد لأمره ولا معارض لفعله ، مصرف الأمر بحكمته وقدرته وعدله ، الملك الحق الذي بيده ملك الأمر كله ، مقدر الآجال والأعمار فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يبرح عن محله ، جاعل الدنيا مناخ قلعة لا يغتبط العاقل بمائه ولا بظله ، وسبيل رحلة فما أكتب ظعنه من حله ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رسله ، الذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسك بحبله ، ونمد يد الافتقار إلى فضله ، ونجاهد في سبيله من كذب به أو حاد عن سبيله ، ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله ، والرضى عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله ، المستولين من ميدان الكمال على خصله ، والدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره ومضاء فضله ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها ، وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوقها الدهر ورمائها ، وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماتها ، وعزاً يزاحم أجرام الكواكب منتماها - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تواتر لدينا دفعا ونفعا ، وألطفه نعرفها وترأ وشفعا ، ومقامكم الأبوي هو المستند الأقوى ، والمورد الذي ترد أمال الإسلام فتروى ، وتهوي إليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ، ومثابنتكم العدة التي تأسست مبانيها على البر والتقوى .

وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم ، وأبقى مجدكم ، فإننا لما نعلم من مساهمة مجدكم التي تقتضيها كرام الطباع وطباع الكرم ، وتدعو إليها ذم الرعي ورعي الذم ، نعرفكم بعد الدعاء للملكم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه ، وإمتاع المسلمين ببقائه ، بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالشهادة التي ألبسه حلتها ، والشهادة التي في أعماله الزكية كتبها ، والدرجة العالية التي حتمها له وأوجبها ، وبما تصير إلينا من أمره ، وضم بنا من نشره ، وسدك على من

خلفه من ستره ، وإتھا لعبرة لمن ألقى السمع ، وموعظة تهب الجمع وترسل
الدمع ، وحادثة أجمل الله سبحانه فيها الدفع ، وشرح مجملها وإن أخرس اللسان
هو لها ، وأسلم العبارة قوتها وحوْلُها ، أنه رضي الله تعالى عنه لما برز لإقامة
سنّة هذا العيد ، مستشعراً شعارَ كلمة التوحيد ، مظهراً سِمَةَ الخضوع للمولى
الذي تَصَرَّعَ بين يديه رقابُ العبيد ، آمناً بين قومه وأهله . متسربلاً في حُلِّ
نعم الله تعالى وفضله ، قرير العين باكمال عزّه واجتماع شمله ، قد احتسب
بأقصى استطاعته ، واستظهر بخلُصان طاعته ، والأجلُ المكتوبُ قد حضر ،
والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر ، وسجد بعد الركعة الثانية من صلّاته ،
أتاه أمرُ الله ليقاته ، على حين الشبابُ غضُّ جلابُبه ، والسلاح زاحرٌ عبابُه ،
والدين بهذا القطر قد أبيع بالأمن جنبه ، وأمرٌ من يقول للشيء كن فيكون
قد بلغ كتابه ، ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت
الريجات إلى فضله المطلوب ، إلا شقيّ قيضه الله لسعادته غير معروف ولا
منسوب ، وخيِّث لم يكن بمعتبر ولا محسوب ، تخلّل الصفوف المعقودة ،
وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المشهودة ، والأمم المحشورة
إلى طاعة الله المحشودة ، لا تدل العين عليه شارةٌ ولا بيزّةٌ ، ولا تحمل على
الحذر من مثله أنفةٌ ولا عزة ، وإنّما هو خيِّث مرور ، وكلب عقور ،
وحية سمهاً وحياً محنور ، وآلة مُصَرِّفة لينفُذَ بها قنر مقلور ، فلما طعنه
وأثبته ، وأعلق به شركَ الحيتين فما أفلته ، قبض عليه من الخلصان الأولياء
منّ خبر ضميره ، وأحكم تقريره ، فلم يُجب عند الاستفهام جواباً يعقل ،
ولا عثر منه على شيء عنه يُنقل ، لطفاً من الله أفاد براءة النعم ، وتعاورته
للحين أيدي التمزيق ، وأتبع شلّوه بالتحريق ، واحتمل مولانا الولد العزيز رحمه
الله تعالى إلى القصر وبه ذمّاء لم يلبث بعده الفتكة العُمرية إلاّ أيسر من اليسير ،
وتخلف الملك ينظر من الطّرف الحسير ، وينهض بالجنّاح الكسير ، وقد عاد جمع
السلامة إلى التكسير ، إلاّ أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بأن أقامنا مقامه

لوقته وحينه ، ورفع بناء عماد ملكه ولمَّ شَعَثَ دينه ، وكان جميع من حضر
 المشهد من شريف الناس ومشروفهم ، وأعلامهم ولقيفهم ، قد جمعه ذلك
 الميقات ، وحضر الأولياء الثقات ، فلم تختلف علينا كلمة ، ولا شذت منهم
 عن بيعتنا نفس مسلمة ، ولا أخيف بري ، ولا حُنر جري ، ولا فُري قَري ،
 ولا وقع لبس ، ولا استوحشت نفس ، ولا نَبِضَ لفتنة عرق ، ولا أغفل
 للدين حق ، فاستند النقل إلى نصه ، ولم يعلم من فقيدنا غيرُ شخصه ، وبادرنا
 إلى مخاطبة البلاد نمهدا ونسكنها ، وتقرر الطاعة في النفوس ونمكَّنْها ، وأمرنا
 الناسَ بها بكف الأيدي ، ورفعِ التعدي ، والعمل من حفظ شروط المسألة
 المعقودة بما يُجَلِّي ، ومن شره منهم للفرار^١ ، عاجلناه بالإنكار ، وصرفنا على
 النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار ، وخاطبنا صاحب قَشْتَالَة نرى ما عنده في
 صلة السلم إلى أمدها من الأخبار ، واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار ، وعقَى
 على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار ، واستَبَقُوا تطير
 بهم أجنحةُ الابتدار ، جعلنا الله تعالى ممَّنْ قابل الحوادث بالاعتبار ، وكان
 على حَدَرٍ من تصاريف الأقدار ، واختلاف الليل والنهار ، وأعاننا على إقامة
 دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغى والبحر الزخار ، وألمنا
 من شكره لما يتكفل بالمزيد من نعمه ، ولا قطع عنا عوائدَ كرمه .

وإن فقدنا والدنا فأنتم لنا من بعدهِ الوالد ، والذخر الذي تكرم منه العوائد ،
 والحبُّ يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت^٢ منها الشواهد ، ومن أعدتْ
 مثلكم لبنيه ، فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه ، وتأسست قواعد ملكه وتشيدت
 مبانیه ، فالاعتقاد الجميل مَوْصُول ، والفروع لها في التشيع إليكم أصول ، وفي
 تقرير فخركم محصول ، وأنتم رِدء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم

١ ص : الفوار .

٢ ق ص : وضحت .

بإرفاده ، وينصرهم بإنجاده ، ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده .
وعندما استقر هذا الأمر الذي تبعت المحنة فيه المنحة ، وراقت من فضل الله
تعالى ولطفه فيه الصفحة ، وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم
وأعيانهم ، وتزاحمت على رقبها المنشور خطوطُ أيمانهم ، وتأصلت قواعدُ
ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وآذانهم ، وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد
خَبِرَ سَلَفُنَا والحمد لله وفاء ضمانهم ، بادرنا تعريفَ مقامكم الذي نعلم مساهمته
فيما ساء وسرّ وأحلى وأمرّ ، عملاً بمقتضى الخلوص الذي ثبت واستقر ، والحب
الذي ما مال يوماً ولا ازورّ ، وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور ،
وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السُّفور ، وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم
من يبادر إعلامكم بالأمر ، إلاّ أنّه أمرٌ له ما بعده ، وحادث يأخذ حده ،
ونبعث إلى بابكم مَنْ شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأي العيان ،
وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحسان ، ليكون أبلغ في البر
وأشرح للصدر وأوعبَ للبيان ، فوجهنا إليكم وزير أمرنا ، وكاتب سرنا ،
الكذا أبا فلان ، وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى ، واستنادنا
من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبنى ، ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأعنى ،
والثمرة العذبة المَجْتبى ، فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا ،
وقامع أعدائنا ، آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ، ومدار الحال عليه ،
والمرغوبُ من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالي ، والخلافة
السامية المعالي ، والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالي ، ويحفظ
مجدكم من غيرِ الأيام والليالي ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس
مجدكم . ويوالي نصركم وعضدكم ، والسلام الكريم ينخصكم ، ورحمة الله
وبركاته ؛ انتهى .

١ ق : فضله .

وقوله في هذه الرسالة « فوجهنا إليكم وزير أمرنا - إلى آخره » هو لسان الدين رحمه الله تعالى ، إذ هو كان الوزير إذ ذاك والسفير في هذه القضية ، ومن صفحات هذا الكلام يتضح لك ما نال لسانُ الدين رحمه الله تعالى من الرياسة والجاه ونفوذ الكلمة بالأندلس وبالمغرب رحمه الله تعالى ، وقد أكرمه السلطان أبو عنان في هذه الوفادة وغيرها غاية الإكرام ، وكان المقصود الأعظم من هذه الوفادة استعانة سلطان الأندلس الغني بالله بالسلطان أبي عنان على طاغية النصارى ، كما ألعنا بذلك في الباب الثاني من القسم الثاني الذي يتعلق بلسان الدين . وكان السلطان أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن معتبياً بالأندلس غاية الاعتناء ، وخصوصاً بجبل الفتح ، حتى إنته بلغ من اهتمامه به أن أمرَ عليه ولده أبا بكر السعيد ، وهو الذي تولى الملك بعده .

[٦ - رسالة عن الغني إلى الأمير السعيد]

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى على لسان سلطانه ما خاطب به الأميرَ السعيد المذكور إذ قلّده والده جبل الفتح ، وهو :

الإمارةُ التي أشرق في سماء الملك شهابها ، واتصلت بأسباب الغز أسبابها ، واشتملت على الفضل والطهارة أثوابها ، وأجبلت قِدَاحُ المفاخر فكان إلى جهة الله تعالى انتدابها ، إمارةٌ محلّ أخينا الذي تأسّس على مرضاة الله تعالى أصيلُ فخره ، واتّسم بالمُرابط المجاهد على اقتبال سنه وجِدّة عمره ، وبدأ بفضل الجهاد صحيفةً أجره ، وافتتح بالرباط والصلاح ديوانَ نبيه وأمره ، لما يَسْره من سعادة نصيبته وجاه من عز نصره ، الأمير الأجل الأعز الأرفع الأسنى الأطهر الأظهر الأمتع الأصعد الأسمى الموفق الأرضي ، محلّ أخينا العزيز علينا ، المُهداة أبناء مأمول جواره إلينا ، أبي بكر السعيد ابن محلّ والدنا الذي مقاصده للإسلام وأهله على مرضاة الله تعالى جارية ، وعزائمه على نصْر الملة الحنيفية

متبارية ، السلطان الكذا أبو عنان ابن السلطان الكذا أبي الحسن ابن السلطان الكذا
أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، أبقاه الله تعالى سديلة آراؤه ناجحة
أعماله ، ميسرة أغراضه من فضل الله تعالى متممة آماله ، رحياً في السعد مجالته ،
يكنفه من الله تعالى ومحل أينا غمام وارقةً ظلاله ، هامر نواله ، حتى يرضي
الله تعالى مصاعه بين يديه ومصاله ، وتمضي في الأعداء أمام رايته المنصورة
نصاله ، أخوه المسرور بقربه ، المنطوي على مضمرة حبه ، أمير المسلمين محمد
ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر :
سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص أخوتكم الفضلى ، وإمارتكم التي آثار فضلها
بجول الله تثنى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله على ما كيف من أطفاه المشرقة الأنوار ، ويسره لذه
الأوطان بنصرته من الأوطار ، فكلما دجت بها شدة طلع الفرج عليها طلوع
النهار ، وكلما اضطرب منها جانب أعاده بفضل الله تعالى من أقامه لذلك واختاره
إلى حال السكون والقرار ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله
المصطفى المختار ، الذي أكد عليه جبريل صلوات الله عليه حق الجوار ، حتى
كاد يلقه بالوسائل والقرب الكبار ، الذي وصانا بالالتزام ، واتصال اليد
في نصرة الإسلام ، فنحن نقابل وصاته بالبيدار ، ونجري على نهجه الواضح
الآثار ، ونرتجي باتباعه الجمع بين سعادة هذه الدار وتلك الدار ، والرضى
عن آله وأصحابه ، وأنصاره وأحزابه ، أكرم الآل والأصحاب والأحزاب
والأنصار ، الذين كانوا كما أخبر الله تعالى عنهم على لسان الصادق الأخبار ،
رحماء بينهم أشداء على الكفار ، والدعاء لإمارتكم السعيدة السعيدية
بالتوفيق الذي تجري به الأمور على حسب الاختيار ، والعز المنيع الذمار ،
والسعد القويم المدار ، والوقاية التي يأمن بها أهلها من السرار ، فإننا كتبنا إليكم
— كتب الله تعالى لكم أسنى ما كتب للأمرء الأرضياء الأخيار ، ومتعمكم من
بقاء والدكم بالعدة العظمى والسيرة الرحى والجلال الرفيع المقدار — من حمراء

غَرْناطة حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوضح برهانه إلا الأطف باهرة ، وعناية من الله تعالى باطنه وظاهره ، وبشارة بالقبول واردة وبالشكر صادرة ، والله تعالى يصل لدينا نعمه ، ويوالي فضله وكرمه .

وإلى هذا فإننا اتصل بنا في هذه الأيام ما كان من عناية والدكم محلّ أبينا أبقاه الله تعالى بهذه البلاد المستندة إلى تأميل مجده ، وإقطاعها الغاية التي لا فوقها من حسن نظره وجميل قصده ، وتعيينكم إلى المقام بجبل الفتح إبلاغاً في اجتهاده الديني وجدّه ، فقلنا : هذا خبر إن صدق مُخبره ، وتحصّل منتظره ، فهو فخر تجددت أثوابه ، واعتناء تفتحت أبوابه ، وعمل عند الله تعالى ثوابه ، فإن الأندلس—عصمها الله تعالى—وإن أنجده عُدّده وأمواله ، ونجحت في نصرها مقاصده الكريمة وأعماله ، لا تدري موقع النظر لها من نفسه ، وزيادة يومه في العناية على أمسه ، حتى يسمح لها بولده ، ويخصها بقرّة عينه وفليدّة كبدته ، فلما ورد منه^١ الخبر الذي راقته منه الحبير ، ووضحت من سعاداته الغرر ، بإجازتكم البحر ، واختياركم في حال الشيبة الفخر ، وصدق مَخيلة الدين فيكم ، واستقراركم في الثغر الشهير الذي افتتحه سيفُ جدّكم واستنقذه سعدُ أبيكم ، سررنا بقرب المزار ، ودنوّ الدار ، وقابلنا صنع الله تعالى بالاستبشار ، ووثقنا وإن لم نزلْ على ثقة من عناية الله تعالى وعناية محل والدنا بهذه الأقطار ، وحمدنا الله تعالى على هذه الآلاء المشرقة ، والنعم المُغدّقة ، والصنائع المتألّقة ، بادرنا نهني أخوتكم أولاً بما يسره الله تعالى لكم من سلامة المجاز ، ثم بما منحكم الله تعالى من فضل الاختصاص بهذا الغرض والامتياز ، فإمارتكم الإمارة التي أخذت بأسباب السماء ، وركبت إلى الجهاد في سبيل الله تعالى جياذ الحَيْل والماء ، وأصبحت على حال الشيبة شجاً في حلوق الأعداء ، ونحن أحقُّ بهذا

١ منه : زيادة من ق .

الهناء ، ولكنها عادة الود وسنة الإخاء ، فالله عز وجل يجعله مقدماً ميمون الطائر ، متهلل البشائر ، تنهللُ بصنع الله بعده وجوه القبائل والعشائر ، ويجري خبر سعادتكم مجرى المثل السائر ، ويشكر محل والدنا فيما كان من اختياره ، ومزيد إثاره ، ويجازيه جزاء من سمح في ذاته بمظنة ادخاره ، ومد رأينا أن هذا الغرض لا يجترى فيه بالكتابة ، دون الاستنابة ، وجهنا لكم من يقوم بحقه ، ويجري من تقرير ما لدينا على أوضح طرقه ، وهو القائد الكذا ، ومجدكم يُصغي لما يليقه ، ويقابل بالقبول ما من ذلك يؤديه ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام ؛ انتهى .

وكان الطاغية الملعون أيام السلطان أبي عنان رحمه الله تعالى نازلَ جبل الفتح ثم كفى الله تعالى شره في ذلك التاريخ .

[٧ - من أبي الحجاج إلى أبي عنان]

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب أبا عنان سلطان فاس والمغرب وذلك بما نصه :

المقامُ الذي رمى له الملكُ الأصيلُ بأفلاذه ، وأدى منه الإسلام إلى ملجئه الأحمى وملاذه ، وكفلت السعودُ بإمضاء أمره المطاع وإنفاذه ، وشأى حلبة الكرم فكان وحيد آحاده وقد أفذاذه ، وابتدع غرائب الجود فقال لسان الوجود : نعمت البدعة هذه ، مقامُ محل أخينا الذي أركانُ مجده راسية راسخة ، وغررَ عزه بادية باذخة ، وأعلام فخره سامية شامخة ، وآيات سعده محكمة ناسخة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاهُ الله تعالى يجري بسعده الفلك ، ويجلي بنور هديه الحلك ، ويسطر حسنات ملكه الملك ، ويشهد بفضل بأسه

١ ص : حلية .

ونداه النادي والمعتك . مُعْظَمُ حقوقه التي تأكد فرضها ، المُثني على مكارمه التي أعيى الأوصافَ البليغةَ بعضُها ، أميرُ المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، ينحص أختوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أمّا بعد حمد الله الذي هيا لملّة الإسلام ، بمظاهرة ملككم المنصور الأعلام ، إظهاراً وإعزازاً ، وجعل لها العاقبة الحسنى ييمن مقامكم الأسنى تصديقاً لدعوة الحق وإنجازاً ، وسهّل لها بسعدكم كلَّ صعبٍ للرام وقد سامتها صروفُ الأيام ليّاً وإعوازاً ، وأتاح لها منكم وليّاً يسومُ أعداءها استلاباً وابتزازاً ، ويسكن آمالها وقد استشعرت انخفازاً ، حمداً يكون على حُللِ النعم العميمة والآلاء الكريمة طرازاً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بهرت آياته وضوحاً وإعجازاً ، واستحقت الكمالَ صفاته حقيقة لا مجازاً ، ونبيه الذي بينَ للخلق أحكام دينه الحق امتناعاً وجوّازاً ، ويسّر لهم وقد ضلّوا في مفاوز الشك مفازاً ، والرضى عن آله وأصحابه المستولين على ميادين فضائل الدنيا والدين اختصاصاً بها وامتياراً ، فكانوا غيوثاً إن وجلوا محللاً وليوثاً إن شهدوا برازاً ، والدعاء لمقام أختوتكم الأسمى بنصرٍ على أعدائه تُبدي له الجياد الجُرد ارتياحاً والرماح المُتد اهتزازاً ، وعزّ يظاً من أكناف البسيطة وأرجائها المحيطة سهلاً وعزازاً ، ويؤمن يشمل من بلاد الإيمان أقطاراً نازحة ويعمُّ أحوازاً ، وسعد تجول في ميّدان ذكره المذاع أطراف السنة اليراع إسهاباً وإيجازاً ، وفخر يجوب جيوب الأقطار جوبَ المثل السيّار عراقاً وحجازاً ، ولا زالت كتابُ سعده تنتهز فرص الدهر انتهازاً ، وتوسع مملكات الكفر انتهاباً واحتيازاً ، فإنّا كتبناه إلى مقامكم - كتب الله تعالى لكم سعداً ثابت المراكز ، وعزّاً لا تلينُ قناته في يد الغامز ، وثناء لا يثني عِنان سراه عرض المفاوز ، وصنعاً رحيب الجوانب

١ ق ص : ملكات .

رغيب الحوائز - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وفضله ، عز وجل .
 قد أдал العسر يسراً وأحال القبض بسطاً ، وقرب نوازل الآمال بعد أن تناءت
 ديارها شحطاً ، وراض مركب الدهر الذي كان لا يلين لمن استمطى ، وقرب
 غريم الرجاء في هذه الأرجاء وكان مشتطاً ، والتوكل عليه سبحانه وتعالى قد أحكم
 منه اليقين والاستبصار المبين ربطاً ، ومشروط المزيد من نعمه قد لزم من الشكر
 شرطاً ، ومقامكم هو عُدّة الإسلام إذا جدّ حفاظه ، وظلّه الظليل إذا لفح
 للكفر شواطئه ، وملجؤه الذي تنام في كنف أمنه أيقاظه ، ووَزَرُه الذي إلى
 نصره تمدّ أيديه وتشير أخطاه ، فقي أرجاء ثنائه تسرح معانيه وألفاظه ،
 ولحطّب تمجيدته وتحميده يقول قُستّه وتحتفل عكاظه ، وتشيّعنا إلى ذلك الجناب
 الكريم طويل عريض ، ومقدمات ودنا إياه لا يعترضها تقيض ، وأفلاك
 تعظيمنا له ليس لأوجها الرفيع حضيض ، وأنوار اعتقادنا الجميل فيه يشف سواد
 الخبر عن أوجهها البيض .

وإلى هذا - ألبسكم الله تعالى ثوب السعادة المعادة فضفاضاً ، كما صرف
 ببركة إياتكم الكريمة على ربوع الإسلام وجوه الليالي والأيام وقد ازورت لإعراضاً
 وبسطت آماها وقد استشعرت انقباضاً - فإتنا ورد علينا كتابكم الذي كرم
 أنحاء وأغراضاً ، وجالت البلاغة من طرسه الفصيح المقال رياضاً ، ووردت
 الأفكار من معانيه الغرائب وألفاظه المزرية بدرر النحور والترائب بمجوراً
 صافيةً وحياضاً ، فاجتلينا منه حلة من حلال الود سابقة ، وحجة من حجج
 المجد بالغة ، وشمساً في فللك السعد بازغة ، الذي بين المقاصد الكريمة وشرحها ،
 وجلا الفضائل العيمة وأوضحها ، فما أكرم شيم ذلك الجلال وأسمحها ،
 وأفضل خلال ذلك الكمال وأرجحها ، حثم فيه على إحكام السلم التي تمحوط
 الأنفس والحريم بسياج ، ويُدأوى القطر العليل منها بأنجع علاج ، والحال ذات
 احتياج ، وساحة الجبل عصمه الله تعالى ميدان هياج ، ومُتَبَوِّأً أعلاج ،
 ومظنة اختلاف الظنون الموحشة واختلاج ، فحضر لدينا محتمله وزيركم الشيخ

الأجل الأعظم الموقر الأسمى الخاصة الأحظى أبو علي ابن الشيخ الوزير الأجل الحافل الفاضل المجاهد^١ الكامل أبي عبد الله ابن محلي والشيخ الفقيه الأستاذ الأعرف الفاضل الكامل أبو عبد الله ابن الشيخ الفقيه الأجل العارف الفاضل الصالح المبارك المبرور المرحوم أبي عبد الله الفشتالي ، وصل الله سبحانه سعادتهما ، وحرس مجادتهما ، حالين من مراتب ترفيعنا أعلى محل الإعزاز ، وواردين على أحنى القبول الذي لا تُشاب حقيقته بالمجاز ، عملاً بما يجب علينا لمن يصل إلينا من تلك الأنحاء الكريمة والأحواز ، فتلقينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الود الذي كثر مفهوماً ونصاً ، والبر الذي ذهب من مذاهب الفضل والكمال الأمد الأقصى ، وقد كان سبقهما صنع الله جلّ جلاله بما أخلف الظنون ، وشرح الصلور وأقر العيون ، فلم يصل إلينا إلا وقد أهلك الله تعالى الطاغية ، ومزق أحزابه الباغية ، نعمة منه سبحانه وتعالى ومنّة ملأت الصلور انشراحاً ، وعمت الأرجاء أفراحاً ، وعنواناً على سعد مقامكم الذي راق غرراً في المكرمات وأوضاحاً ، ومد يده إلى سهام المواهب الإلهية فحاز أعلاها قداحاً ، فتشوقت^٢ نفوس المسلمين إلى ما كانت تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ، وبدت في القضية التي أشرتم بأعمالها الوجوه ، وانبعثت الآمال بما آلت إليه هذه الحال انبعثاً ، والثالث أمور العلو قصمه الله تعالى الثبائاً ، وانتقض غزله من بعد قوته بفضل الله تعالى أنكاثاً ، واحتملت المسألة التي تفضلتم بعرضها وأشرتم إلى فرضها مأخذاً وأبحاثاً ، فالتقينا في هذه الحال إلى رسولكم أعزهما الله تعالى ما يُلقيانه إلى مقامكم الأعلى ، ومثابنتكم الفضلى ، وما يتزايد عندنا من الأمور فركائب التعريف بها إليكم مثنوثة ، وجزئياتها بين يدي مقامكم الرفيع مبثوثة ، وقد اضطربت أحوال الكفر وقالت آراؤه ، واستحكمت بالشتات داؤه ، وارتجت بزلال الفتن

١ ق : الماجد .

٢ ق : تشوقت .

أرجأؤه ، وتيسرت آمالُ الإسلام بفضل الله تعالى ورجأؤه ، وما هو إلا السعد
يذلل لكم صعب العلو ويرؤضه ، والله سبحانه يهيء لكم فضل الجهاد حتى
تُقضى بكم فروضه .

وأما الذي لكم عندنا من الخلوص الصافية شرائعه ، والثناء الذي هو الروض
تأرج ذائعه ، فأوضح من فلتق الصبح إذا أشرقت طلائعه ، جعله الله تعالى في
ذاته ، ووسيلةً إلى مرضاته ؛ ورسولاكم يشرحان لكم الحال بجزئياته ، ويقرران
ما عندنا من الود الذي سطع نور آياته ، وهو سبحانه وتعالى يصل لكم سعداً سامي
المراتب والمراتي ، ويجمع لكم بعدَ بعدِ المدى وتمهيد دين الهدى بين نعيم
الدنيا والنعيم الباقي ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

[٨ - رسالة عن يوسف النصري]

وأبين من هذا في القضية كتابٌ آخر من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى
صورته :

من أمير المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن
فرج بن نصر ، إلى محل أحنينا الذي نُثني على مجادته أكرم الثناء ، ونجدد
له ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء ، ونُثحِفُه من سعادة الإسلام وأهله
بالأخبار السارة والأنباء ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى رفيع المقدار ، كريم المآثر والآثار ، وعرفه من عوآرف فضله
كل مشرق الأنوار ، كفيل بالحسنى وعقبي الدار : سلام كريم ، بر عميم ،
ينخص جلالكم الأرفع ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على عميم آلائه ، وجزيل نعمائه ، مُيسّر الصعب بعد
إبائه ، والكفيل بتقريب الفرج وإدائاته ، له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه ،
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبياؤه ، الهادي إلى
سبيل الرشد وسوائه ، مُطلع نور الحق يجلو ظلم الشك بضياؤه ، والرضى

عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه وخُلَفائِهِ ، السائرين في الدنيا والآخرة تحت لوائه ، الباذلين نفوسهم في إظهار دينه القويم وإعلانه ، والدعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه ورجائه ، واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتنائه ، فإنّا كتبناه إليكم - كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قوله وعمله من أوليائه ، وعرفكم عوارف السعادة المعادة في نهاية كل أمر وابتدائه - من حمراء غمرناطة ، حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذي أوضح برهانه ، وعظم أمره ورفع شأنه ، ثم بما عندنا من الود الكريم وتجديد العهد القديم لمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ، إلاّ الخير الهامي السحاب ، واليسر المتين الأسباب ، واليسر المفتّح الأبواب ، والسعد الجديد الأثواب ، ومقامكم معتمد بترفيح الجناب ، متعهد بالود الخالص والاعتقاد اللّباب ، معلوم له من فضل الدين وأصالة الأحساب .

وإلى هذا وصلّ الله تعالى سعدكم مديد الأطناب ، ثاقب الشهبان ، وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرة النقب ، فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحالُ إليه بطاغية قشتالة الذي كليب على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار ، وما سامها من الإرهاق والأضرار ، وأنه جرى في ميدان الإملاء والاغترار ، ومُحصّـ المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار ، وأنه نكث العهد الذي عقده ، وحل الميثاق الذي أكّده ، وحمله الطمعُ الفاضح على أن أجلب على بلاد المسلمين بخيله ورجله ، ودَهَمَها بتيار سيّله وقطع ليله ، وأمل أن يستولي على جبل الفتح الذي يدعى منه فتحها ، وطلع للملة المحمدية صُبْحُها ، فضيقه حصاراً ، واتخذ داراً ، وعندما عظم الإشفاق ، وأظلمت الآفاق ، ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصنع العجيب ، ونزل الفرجُ القريب ، وقبيل الدعاء السميع العجيب ، وطرق الطاغية ، جندٌ من جنود الله تعالى أخذة أخذة رابية ، ولم يبق له من باقية ، فهلك على الجبل حتف أنفه ، وغالته غوائلُ حتفه ، فتفرقت جموعه وأحزابه ، وانقطعت أسبابه . وتعجل نار الله تعالى مآبه . وأصبحت البلاد

مستبشرة ، ورحمة الله منتشرة ، ورأينا أن هذه البشارة التي يأخذ منها كل مسلم بالنصيب الموفور ، ويشارك فيما جلبته من السرور ، أنتم أولى من نُشِحِفُهُ بطيب رِيَاها ، ونطلع عليه جميلَ مُحَيَّاها ، لما تقرّر عندنا من دينكم المتين ، وفضلكم المبين . وعملكم من المساهمة على شاكلة صالحى السلاطين ، فما ذلك إلاّ فضل نيتكم للمسلمين في هذه البلاد ، وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد . وقد ورد رسولنا إليكم القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح ، أعزه الله تعالى ، مقرراً ما لديكم من الود الراسخ القواعد ، والخلوص الصافي الموارد ، الواضح الشواهد ، وأثنى على مكارمكم الأصيلة ، وألقى ما عندكم من المذاهب الجميلة ، فقابلنا ذلك بالشكر الذي يتصل سببه ، ويتضح مذهبه ، وسألنا الله أن يجعله ودّاً في ذاته ، ووسيلة إلى مرضاته ، وتعرّفنا ما كان من تفضلكم بالطريفة المفتوحة المؤخر ، وما صدّر عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بالمرية من قبج محاولته ، وسوء معاملته ، فأمرنا بقطع جريته ، وثقافه بمطمورة القصبه جزاء لخيانته ، ولولا أننا توقفنا أن يكون عقيبہ ممّا لا يقع من مقامكم بوقفه ، لمشهور عفافه ورقفه ، بلعلناه نكالاّ لأمثاله ، وعبرة لأشكاله ، وقد وجهنا جفناً سفيرياً لإيساق الخليل التي ذكرتم ، وإيصال ما إليه من ذلك أشرتم ، ويكمل القصد إن شاء الله تعالى تحت لحظ اعتنائكم ، وفضل ولائكم . هذا ما تريد عندنا عرفناكم به ، عملاً على شاكلة الود الجميل ، والولاء الكريم الجملة والتفصيل ، فعرّفونا بما يريد عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة ، ومكارمكم الحافلة ، والله تعالى يصيّلُ سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

[٩ - رسالة في حاجة الأندلس إلى برّ العلوة]

ومن إنشاء لسان الدين فيما يتعلّق بالأندلس وانقطاعها ، وأنها لا غنى لها عن العُدوة وغير ذلك ، ما صورته :

المقامُ الذي بنور سعادته تنجلي الغَمَاءُ وتتصل النعماءُ ، مَنْ نَيْتُهُ قَدْ حَصَلَ مِنْهَا لِحَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى الْإِنْتِمَاءُ ، وَاتَّفَقَتْ مِنْهَا الْمَسْمِيَّاتُ وَالْأَسْمَاءُ ، مَقَامُ مَحَلِّ أَيْبِنَا الَّذِي تَنْفِيًا هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الْغَرِيبِيَّةُ أَفْيَاءُ نَيْتِهِ الصَّالِحَةُ وَعَمَلُهُ ، وَتَثَقُّ بِحَسَنِ الْعَاقِبَةِ اعْتِمَادًا عَلَى وَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنْتَزِلِ عَلَى خَيْرَةِ رُسُلِهِ ، وَتَجَنَّبِي ثَمَارَ النَّجْحِ مِنْ أَفْنَانِ آرَائِهِ الْمَتَأَلِّقَةِ تَأَلَّقْتُ الصَّبْحَ حَالَتِي رَيْثُهُ وَعَجَلَهُ ، وَتَعَرَّفْتُ حَالِي الْمُوَدُّودِ وَالْمَكْرُوهِ عَارِفَةَ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ مِنْ قَبْلِهِ ، أَبْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَحْسِمُ الْأَدْوَاءَ كُلَّمَا اسْتَنْشَرْتُ ، وَيَحِلِّي مَوَارِدَ الْعَاقِبَةِ كُلَّمَا أَمَّرْتُ ، وَيَعْضِي عَلَى آثَارِ الْأَطْمَاعِ الْكَاذِبَةِ مَهْمَا خَدَعْتُ بِخُلْبَيْهَا وَغَرَّتْ ، وَيُضْمِنُ سَعْدَهُ عَوْدَةَ الْأُمُورِ إِلَى أَفْضَلِ مَا عَلَيْهِ اسْتَقَرَّتْ .

مَعْظَمُ مَقَامِهِ الَّذِي هُوَ بِالْتَعْظِيمِ حَقِيقٌ ، وَمَوْقَرٌ مَلِكُهُ الَّذِي لَا يَلْتَبِسُ مِنْهُ فِي الْفَخْرِ وَالْعِزِّ طَرِيقٌ ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي فَضْلِهِ الْعَمِيمِ وَمَجْدِهِ الْكَرِيمِ فَرِيقٌ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الْمَثِيبِ الْمَعَاقِبِ ، الْكَفِيلِ لِأَهْلِ التَّقْوَى بِحَسَنِ الْعَوَاقِبِ ، الْمَشِيدِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى أَرْفَعِ الْمَرَاتِقِ وَالْمَرَاقِبِ ، يَهْدِي مِنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَبِقَضَائِهِ وَقُدْرِهِ اخْتِلَافِ الْمَسَالِكِ وَالْمَذَاهِبِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الْحَاشِرِ الْعَاقِبِ ، وَنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ ذِي الْمَفَاخِرِ السَّامِيَةِ وَالْمُنَاقِبِ ، وَالرَّضِيِّ عَنِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَحْزَابِهِ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ فِي حَيَاتِهِ بِإِعْمَالِ السُّمْرِ الْعَوَالِيِ وَالْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ ، وَخَلْفُوهُ فِي أُمَّتِهِ بِخُلُوصِ الضَّمَائِرِ عِنْدَ شَوِّبِ الشَّوَابِ ، فَكَانُوا فِي سَمَاءِ مَلَّتَهُ كَالنَّجُومِ الثَّوَابِقِ ، وَالِدَعَاءِ لِمَقَامِكُمْ الْأَسْمَى بِالسَّعَادَةِ الْمَعَادَةِ فِي الشَّاهِدِ مِنَ الزَّمَنِ وَالْغَائِبِ ، وَالنَّصْرِ الَّذِي يَقْضِي بَعْزَ الْكُتَائِبِ ، وَالصَّنْعِ الَّذِي تَطَّلَعُ مِنْ ثَنَائِهِ غُرُرَ الصَّنَائِعِ الْعَجَائِبِ ، مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةِ حَرَسِهَا اللَّهُ تَعَالَى وَلَا زَائِدَ بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ الْإِعْتِدَادِ بِمَقَامِكُمْ أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى سُلْطَانِهِ ، وَشَمْلِ بِالْتَمْهِيدِ أَوْطَانِهِ ، إِلَّا تَشِيْعُ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ ، وَإِخْلَاصٌ مَا عَلَيْهِ فِي مَيْدَانِ الْإِسْتِطَاعَةِ مَزِيدٌ ، وَتَعْظِيمٌ أَشْرَفٌ مِنْهُ جَيِّدٌ ، وَثَنَاءٌ رَاقٌ فَوْقَ رِيَاضِهِ تَحْمِيدٌ وَتَمْجِيدٌ .

وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم ، وحرس الطاهر الكريم مجدكم ، فقد

وصلنا كتابكم الذي هو على الخلوص والاعتقاد عنون ، وفي الاحتجاج على الرضى والقبول برهان ، تنطق بالفضل فصوله ، وتشير إلى كرم العقد فروعه الزكية وأصوله ، ويحق أن ينسب إلى ذلك الفخر الأصيل هـَحْصُوله ، عرفتمونا بما ذهب إليه عيسى بن الحسين من الخلاف الذي ارتكبه ، وسبيل الصواب الذي انتكبه ، وتبتهون^١ على ما حده الحق في مثل ذلك وأوجهه ، حتى لا يصل أحد من جهتنا سببه ، ولا يظاهره مهما ندبه ، ولا يسعف في الإيواء طلبه ، فاستوفينا ما استدعاه ذلك البيان الصريح وجلبه ، وخطه القلم الفصيح وكتبه ، وليعلم مقامكم وهو من أصالة النظر غني عن الإعلام ، ولكن لا بد من الاستراحة بالكلام ، والتنفس بنفثات الأقلام ، أننا إنما نجري أمورنا مع هذا العدو الكافر الذي رُمينا بجواره ، وبُلينا والحمد لله بمصادمة تياره ، على تعداد أقطاره ، واتساع براريه وبحاره ، بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق ، وأسواق النفاق غير ذات نفاق ، والجماهير تحت عهد الله تعالى وميثاق ، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلفت بينهما بالعدوتين عقده ، ووقع بينهما في قبول الطاعة رد ، ساءنا واقعه ، وعظمت لدينا مواقعه ، وسألنا أن يتدارك الحرق راقعه ، لما نتوقه من التشاغل عن نصرنا ، وتفرض العدو إلى ضرنا ، فكيف إذا وقعت الفتنة في صقعنا وقطرتنا ، إنما هي شعلة في بعض بيوتنا وقعت ، وحادثه إلى جهتنا أسرع^٢ ، وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها ، وعلى وطننا يعود جناها ، فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها ، وأسعى في إصلاح فسادها ، والمثابرة على كفها واستئسادها ، وما الظن بدار فسد بابها ، وآمال رتت أسبابها ، وجزيرة لا تستقيم أحوال من بها إلا بالسكون ، وسلم العدو المغرور المقتون ، حتى تقضى منه بإعانتكم الديون ، وإن اضطرابها إنما هو داء

١ ق : وتبتهونا .

٢ ق : أسرع ؛ ص : شرعت .

نستنصر من رأيكم فيه بطيب ، وهَدَفَ خطب نرنيه من عزمكم بسهم مصيب ،
وأمر نضرع في تداركه إلى سميع للدعاء مجيب ، ونحن فيه يد أمام يدكم ، ومقصدنا
فيه تَبَعَ لقصدكم ، وتصرفنا على حد إشارتكم جار ، وعزمننا إلى منتهى
مرضاتكم مُتَبَار ، وعَقَدْنَا في مشايعة أمركم غير متوار .

وقد كنّا لأول اتصال هذا الخبر ، القبيح العين والأثر ، بادَرْنَا تعريفكم
بجميع ما اتصل بنا في شأنه ، ولم نطو عنكم شيئاً من إسراره ولا إعلانه ، وبعثنا
رسولنا إلى بابكم العلي نعتدُّ بسلطانه ، ونرتجي تمهيد هذا الوطن بتمهيد أوطانه ،
وبادرنا بالمخاطبة مَنْ وجبت مخاطبته من أهل مربرة وأسطبونة نثبت بصائرهم
في الطاعة وتقويها ، ونعدهم بتوجيه من يحفظ جهاتهم ويحميها ، وعجلنا
إلى بعضها مدداً من الرماة والسلاح ليكون ذلك عُدَّةً فيها ، وعلمنا ما أوجب
الله تعالى من الأعمال التي يُزَلِّفُ بها ويرتضيها ، وكيف لا نظاهر أمركم الذي
هو العدة المنخورة ، والفئة الناصرة المنصورة ، وبالباطل سرّاب يَخْدَعُ ،
والحق إليه يُرْجَعُ ، والبغي يُرْذِي وَيَضْرَعُ ، وكم تقدم في الدهر منترٍ شدَّ
عن الطاعة ، وخرج عن الجماعة ، ومخالف على الدول ، في العصور الأول ،
بهرج الحق زائفه ، ورجمت شهبُ الأسنّة طائفه ، وأخذت عليه الضيقة
وهادهُ وتنافته ، فتملص ظله ، ونبا به محله ، وكما قال يذهب الباطل وأهله ،
لا سيما وسعادة ملككم قد وطأت المسالك ومهدتها ، وقهرت الأعداء وتعبدها .
وأطفأت جداول سيوفكم النار التي أوقدتها ، وكان بالأمور إذا أعملتم فيها
رأيكم السليد وقد عادت إلى خير أحوالها ، والبلاد بيمن تدبيركم قد شفي ما
ظهر من اعتلالها ، وعلى كل حال فإننا نحن على تكميل مرضاتكم مبادرون ، وفي
أغراضكم الدينية واردون وصادرون . وإشارتكم التي تتضمن الخير والخيرة
منتظرون ، عندنا من ذلك عقائد لا يحتمل نصُّها التأويل ، ولا يقبل صحيحها
التعليل ، فلتكن أبحاثكم من ذلك على أوضح سبيل ، فشمس النهار لا تحتاج
إلى دليل ، والله تعالى يُسْتَتِي لكم عوائد الصنع الجميل ، حتى لا يدعَ عزمكم

مغضوباً إلاّ رده ، ولا ثلماً في ثغر الدين إلاّ سدّه ، ولا هدفاً متعاصياً إلاّ هدّه ، ولا عرفاً من الخلاف إلاّ جدّه ، وهو سبحانه يبقي ملككم ويصل سعده ويُعلي أمره ويحرس مجده ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته :
انتهى .

[١٠ - رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا]

ومن إنشائه رحمه الله تعالى من جملة رسالة على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب الرعايا ، ما نصّه محل الحاجة منه :

وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذي جرى في ميدان الأمل جرّي الجَمُوح ، ودارت عليه خمرة النخوة والخيلاء مع الغبوق والصبُوح ، حتى طمع بسكر اغتراره ، ومُحصّ المسلمون على يده بالوقائع التي تجاوز منتهى مقداره ، وتوجهت إلى استئصال الكلمة مطامع أفكاره ، ووثق بأنّه يطفىء نور الله بناره ، ونازل جبل الفتح فشد مُحَنَّق حصاره ، وأدار أشياعه في البر والبحر دَوْرَ السوار على أسواره ، وانتَهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانهبام الأبواب ، والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التلث على التوحيد ، وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة والبحور الزاخرة والمرام البعيد ، وإننا صابرينا بالله تعالى تيار سيّله ، واستضأنا بنور التوكل عليه في جنح هذا الخطب ودُجْنَةِ لَيْلِهِ ، ولبأنا إلى من بيده نواصي الخلائق ، واعتقلنا من حبله المتين بأوثق العلائق ، وفسحنا مجال الأمل في ذلك الميدان المتضائق ، وأخلصنا لله مُقِيلِ العثار ومؤوي أولي الاضطراب قلوبنا ، ورفعنا إليه أمرنا ووقفنا عليه مطلوبنا ، ولم نقصر مع ذلك في إبرام العزم ، واستشعار الخزم ، وإمداد الثغور بأقصى الإمكان ، وبعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاد على الأحيان ، فرحم الله تعالى انقطاعنا إلى كرمه ، والتجاءنا إلى حَرَمِهِ ، فجلّى بفضله

سبحانه ظلّم الشدة ، ومد على الحريم والأطفال ظلال رحمته الممتدة ، وعرفنا عوارف الصنع الذي قدم به العهد على طول المُدّة ، ورماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيجاف الركاب ، واحتشاد الأحزاب ، وأظهر فينا قدرة ملكه عند انقطاع الأسباب ، واستخلاص العباد والبلاذ من بين الظفّر والناب ، فقد كان جَعَجَعَ على الحق بأباطيله ، وسد المَجَازَ بأساطيله ، ورمى الجزيرة الأندلسية بشؤبُوب شرّه ، وصيرها فريسة بين غربان بحره وعقبان برّه ، فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرقبة إلاّ على الخطر الشديد ، والإفلات من يد العلوّ العنيد ، مع توفّر العزائم والحمد لله على العمل الحميد ، والسعي فيما يعود على الدّين بالتأييد .

وبينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم وتقعّد ، وكتّبتُ الأعداء عليه يُبرق ويرعد ، واليأس والرجاء خصمان هذا يقرب وهذا يبعد ، إذ طلّح علينا البشيرُ بانفراج الأزمنة ، وحلّت تلك العزّمة ، وموت شاه تلك الرقعة ، وإبقاء الله تعالى على تلك البقعة ، وأنه سبحانه أخذ الطاغية أكملّ ما كان اغتراراً ، وأعظم أنصاراً ، وزلزل أرض عزه وقد أصابت قرّاراً ، وأن شهاب سعه قد أصبح أفلاً ، وعلم كبره انقلب سافلاً ، وأن من بيده ملكوت السموات والأرض طرّقه بحتّفه ، وأهلكه برغم أنفه ، وأن محلته عاجلها التّبابُ والتّبار ، وعائت في منازلها النار ، وتمخض عن سوء عاقبتها الليلُ والنهار ، وأن حُماتها يخربون بيوتهم بأيديهم ، وينادي بشتات الشمل لسانُ مناديهم ، وتلاحق الفرسان من جبل الفتح المعقل الذي عليه من عناية الله تعالى رِواق مضرّوب ، والرباط الذي منّ حاربه فهو المحروب ، فأخبرت بانفراج الضيق ، وارتفاع العائق لها عن الطريق ، وبرء الداء الذي أشرق بالريق ، وأن النصرارى دمرها الله تعالى جدت في ارتحالها ، وأسرعت بجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها وحالها ، وسمحت للنار والنهب بأسلابها وأموالها ، فبهرنا هذا الصنعُ الإلهي الذي مهد الأقطار بعد رجفانها ، وأنام العيون بعد سُهاد أجفانها ، وسألنا الله تعالى أن يُعيّننا على

شكر هذه النعمة التي إن سلطت عليها قُوى البشر فضحتها ، ورجحتها ، ورأينا سرّ اللطائف الخفية كيف سريانه في الوجود ، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية والحدود ، وقلنا : إنما هو الفتح الأول شُفيع بئان ، وقواعد الدين الحنيف أيدت من صنع الله تعالى بينيان ، اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة ، ومنتك الوافرة ، إنك ولينا في الدنيا والآخرة ؛ انتهى .

[١١ - رسالة توضح ضيق حال الأندلس]

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى مما يتعلق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته :

وإن تشوقتم إلى أحوال هذا القطر ومن به من المسلمين ، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين ، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بجرأ زخاراً ، ونتوقع - إلا إن وقى الله تعالى - خطوباً كباراً ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعداداً به واستظهاراً ، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطاراً ، وينثىء ربح رَوْحِ الله طيبة معطاراً . فإن القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع . ومخالفته لا تستطيع ، رمى هذه الأمة الغربية المقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها ، ولا يحصى فريقها ، التفتت على أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله ، وتبلغه أمله . ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين ، ومناصبه هذا الدين ، واستتصال شأفة المؤمنين ، وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد . ولا عرفها نجد ولا وهُد ، وقد اقتحموا الحدود القريبة ، والله تعالى وليُّ هذه الأمة الغربية ، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يُقوي الضعيف . ويدراً الخطب المخيف ، ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران : ١٧٣)

وهو سبحانه المرجو في حسن العقبي والمآل ، ونَصْرُ فِتْنَةِ الْهَدْيِ عَلَى فِتْنَةِ الضَّلَالِ ، وما قَلَّ من كان الحقُّ كَنْزَهُ ، ولا ذَلَّ من استمد من الله عِزَّهُ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا لِأَحْدَى الْحُسْنَيْنَيْنِ— الآيَةُ﴾ (التوبة : ٥٢) ودعاء مَنْ قَبِلَكُمْ من المسلمين مَدَدٌ موفور ، والله سبحانه على كل حال محمود مشكور : انتهى .

[١٢ - من رسالة طويلة]

ومن أخرى طويلة من جملتها ما صورته :

وقد اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام ، ورَعْيَ الجوار والذِّمَامَ ، وما جعل الله تعالى للمأموم على الإمام ، إيقاظكم من مَرَاقدكم المستغرقة ، وجمع أهوائكم المتفرقة ، وتهيئكم إلى مُصَادمة الشدائد المُرْعِدَةِ المبرقة . وهو أن كبير دين النصرانية الذي إليه يتقادون ، وفي مرضاته يُصَادقون ويُعادون : وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون ، لما رأى الفتن قد أكلتهم خَضَمًا وقَضَمًا ، وأوسعتهم هَضَمًا ، فلم تُبْقِ عَصَبًا ولا عَظْمًا ، ونثرت ما كان نَظْمًا . أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق ، ويرفع ما طرق ، ويرفو ما مَزَّقَ الشتات وخرق ، فرمى الإسلام بأمة عددها القَطْرُ المثل ، وأمرهم وشأنهم الامتثال ، أن يلمثوا لمن ارتضاه من أمتة الطاعة ، ويجمعوا في ملته الجماعة ، وَيَطْلُعَ الكَلَّ على هذه الفئمة القليلة الغريبة بَخْتَةٍ كقيام الساعة ، وأقطعهم — قطع الله تعالى بهم — العباد والبلاد ، والطارف والتلاد ، وسوغهم الحريم والأولاد ، وبالله تعالى نستدفع ما لا نُطِيقُه ، ومنه نسأل عادة الفرج فما سُدَّتْ طريقه ، إلا أَنَا رأينا غَفْلَةَ الناس مُؤذنة البوار ، وأشفقنا للدين المنقطع من وراء البحار ، وقد أصبح مُضْغَةً في لهَوَات الكفار ، وأردنا أن نهزكم بالموعظة التي تكحل البصائر بميل الاستبصار ، فإن جبر الله تعالى الحواطر بالضراعة إليه والانكسار ، ونسخ الإعصار بالإيسار ، وأنجد اليمين بأختها اليسار ، وإلا فقد تعين في الدنيا والآخرة حظ الخسار ، فإن مَنْ ظهر عليه عدو دين الله تعالى وهو من الله مَصْرُوفٌ ،

وبالباطل مشغوف ، وبغير العرف معروف . وعلى الحطام المسلوب عنه ملهوف ،
 فقد تَلَّه الشيطان للجيين ، وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الحسران المبين ،
 وَمَنْ نَفَذَ فِيهِ أَوْ لَهُ قَدْرٌ إِلهٍ عَنْ أَداءِ الواجبِ وَبَدَّلَ المجهود ، وأفرد بالعبودية
 وَجَهَ الواحد الأحد المعبود ، ووطَّن النفسَ على الشهادة المبوَّثة دار الخلود ،
 العائدة بالحياة الدائمة والوجود ، أو الظهور على عدوة المحشور إليه المحشود ،
 صبراً على المقام المحمود ، وبَيْعاً من الله تعالى تكون الملائكة فيه الشهود ، حتى
 تعين يد الله في ذلك البناء المهود ، والسواد الأعظم المملود ، كان على أمره
 بالخيار المردود ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِلهٌ أَحَدٌ الحُسْنَيْنِ - الآية ﴾
 انتهى .

[ضياع المدن الأندلسية]

وقال صاحب « مناهج الفكر » بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها ،
 ما صورته :

ولم تزل هذه الجزيرة منتظمةً للملكها في سلك الانقياد والوفاق ، إلى أن
 طما بمُتْرَفِيها سبيلُ العناد والنفاق ، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مَسْقَطَ
 راسه ، وجعله مَعْقِلاً يعتمص فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم يشن الغارة
 على جاره ، ويحاربه في عَقْرِ داره ، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدوِّ في الدين يعادي ،
 ويرواح مَعاقِلهم بالعَيْثِ وَيُعادي ، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في
 ضمان هدنة مقدرة ، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مُقَرَّرَة ، كان
 ذلك في الكتاب مسطوراً ، وقَدَرَأ في سابق علم الله مقهوراً ؛ انتهى .

وهذا قاله قبل أن يستولي العدو على جميعها ، والله وارث الأرض وَمَنْ
 عليها وهو خير الوارثين .

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أخذ النصارى قواعد الأندلس فنقول :
 قد قدمنا أوائل هذا الباب أن طليطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار
 من المدن العظام بالأندلس ؛ قال ابن بسام^١ : لما توالى على أهل طليطلة الفن
 المظلمة ، والحوادث المصطلمة ، وترادف عليهم البلاء والجلاء ، واستباح
 الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب ما جرى من النوادر
 الدالة على الخذلان أن الخنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ،
 ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها ، فلما كانت السنة التي استولى عليها
 العدو فيها لم ترفع الغلة من الأندلس حتى أسرع فيها الفساد ، فعلم الناس أن
 ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر أراده ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى
 العدو على طليطلة ؛ وأنزل من بها على حكمه ، وخرج ابن ذي النون منها
 على أقبح صورة ، وأفظع سيرة ، وراه الناس وببده إصطراب يأخذ به وقتاً
 يرحل فيه ، فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون ، وبسط الكافر
 العدل على أهل المدينة ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من
 ذلك ما لا يُطاق حملُه ، وشرع في تغيير الجامع كنيسة في ربيع الأول سنة ست
 وتسعين وأربعمائة .

ومما جرى في ذلك^٢ اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي رحمه الله تعالى صار إلى
 الجامع ، وصلى فيه ، وأمر مُريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى
 وتكاثروا لتغيير القبلة ؛ فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته ،
 وعصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة وسجد سجدة ، ورفع رأسه ،
 وبكى على الجامع بكاء شديداً ، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه . وقيل لملك

١ انظر الذخيرة ١/٤ : ١٢٧ ويبدو أن المقري يتقل بالمعنى .

٢ المصدر السابق : ١٩٠ .

النصارى : ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك ، فقال : حتى نأخذ قرطبتهم ، وأعد لذلك ناقوساً تأنق فيه وفيما رَصَّعَ به من الجواهر ، فأكذبه الله وأزعجه . وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين ، وإرغام الكافرين ، واستدراك أمور المسلمين ؛ انتهى ملخصاً : وقد مرّ مطولاً .

[وقعة بطرنة - ٤٥٦]

وكانت قبلها وقعة بطرنة^١ سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن الفرنج - خذلهم الله تعالى - انتدبت منهم قطعة كثيفة ، ونزلت على بلكنسية في السنة المذكورة ، وأهلها جاهلون بالحرب ، مغترون بأمر الطعن والضرب ، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها ، والضعف عن مقاومة مَنْ فيها ، وخدَعوهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعوهم فطمعوا ، وكَمَنُوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زيتهم ، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر ، فاستدرجهم العدو - لعنهم الله تعالى - ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا منهم إلا من حصَّته أجله ، وخلص الأمير نفسه ، ومما حُفِظَ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر :

خليليَّ ليس الرأي في صدر واحد أشيرا عليَّ اليومَ ما ترَيانِ

وفي أهل بلكنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة والترفة :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حللَ الحريرِ عليكمُ ألوانا
ما كانَ أقبحهم وأحسنكمُ بها لو لَمَ يكنْ ببطرنةٍ ما كانا

١ (Paterna) : راجع خبر هذه الوقعة في ابن عذاري ٣ : ٢٥٢ وهو ينقل عن ابن بسام .

قال ابن بسام : وهكذا جرى لأهل طُليطلة ، فإن العدو — خذله الله تعالى — استظهر عليهم ، وقتل جماهيرهم ، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم في ثياب الترفه ألف غنقارة خارجاً عما سواها .

[بربشتر]

وقال ابن حيان^١ : وكان تغلب العدو — خذله الله تعالى — على بربشتر قصبية بلد برطانية ، وهي تقرب من سرقسطة ، سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن جيش الأردمليس^٢ نازها وحاصرها ، وقصّر يوسف بن سليمان بن هُود في حمايتها ، ووكل أهلها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوماً ، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدّد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مُدَرَّع ، فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قُتل فيها خمسمائة إفرنجي ، ثم اتفق أن القنّاة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سَرَب موزون^٣ انهارت وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدّت السَرَب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ، ويش من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى إن الذي خص بعض مُقَدَّمي العدو لحصنه — وهو قائد خيل رومة — نحو ألف وخمسمائة جارية أبقاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى

١ انظر النخيرة (٣ : ٥٨) في الخبر عن بربشتر نقلًا عن ابن حيان .

٢ في النخيرة : جيش الاردمانيين (Nordmanni) .

٣ النخيرة : بتقدير موزون .

والكسوة خمسمائة جمل ، وقُدِّر من قُتِل وأسر بمائة ألف نفس ، وقيل : خمسون ألف نفس ، ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتُنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها فيقول لها : أعطيني ما معك ، فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيره .

قال : وكان السبب في قتلهم أنه خافَ مَنْ يوصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله ، فشرع في القتل لعنه الله تعالى ، حتى قتل منهم نيفاً وستة آلاف قتيل ، ثم نادى الملك بتأمين مَنْ بقي وأمر أن يخرجوا فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم ، ونزلوا من الأسوار في الجبال للخشية من الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء ، وكان قد تميَّز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم ، وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممَّن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله ، وله الأمان ، وأرهقوا وأزعجوا ، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الإفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك ، وأخذ كل واحد داراً بمن فيها من أهلها ، نعوذ بالله تعالى .

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم ، وبرزوا في صور الملوكى من العطش ، فأطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة ، فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله .

قال : وكان الفرنج لعنهم الله تعالى ، لما استولوا على أهل المدينة يفتضونَ البكر بحضرة أبيها ، والثيب بعين زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ، ومَنْ لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهن خَوَّله وغلماهن يعيثون فيهن عيثة ، وبلغ الكفَّرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة . ولما عزم ملك الروم

على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الحواري الأبقار والثيبات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى مَنْ فوقه ، وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفاً وخمسمائة ، ومن الرجال ألفين ؛ انتهى .

قال ابن حيان : وأختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولي الألباب بنادرة منها يكتفى باعتبارها عملاً سواها ، وهي أن بعض تجار اليهود جاء ببربشتر بعد الحادثة ملتصقاً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها حصلن في سَهْم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه ، قال : فهديت إلى منزله فيها ، واستأذنت عليه ، فوجدته جالساً مكان رب الدار ، مستويّاً على فراشه ، راقلاً في نفيس ثيابه ، والمجلسُ والسريّر كما تخلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من ريشهما وزيتهما ، ووصائفه مضمومات الشعور ، قائمات على رأسه ، ساعات في خلتمته ، فرحبَ بي . وسألني عن قصّدي ، فعرفته وجهه ، وأشارت إلى وفور ما أبدله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي ، فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك ! أعرضْ عمّن هنا وتعرّض لمن شئت ممن صبرته لحصني من سبّبي وأسراي أقاربك فيمن شئت ممنهن . فقلت له : أمّا الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه . وبقربك أنست ، وفي كنفك اطمأنت : فسُمتي ببعض من هنا فإني أصير إلى رغبتك ، فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب ، فقال : كأنك تشهني ما ليس عندي . يا مجة^١ . ينادي بعض أولئك الوصائف . يريد « يا بهجة » فغيره بعجمته . قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصنلوق : فقامت إليه وأقبلت بيدَ الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلّى ، فكشف وجعل بين يدي العليج حتى كادت تواري شخصه ، ثم قال لها : أدني إلينا من تلك التخوت . فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر ممّا حار له ناظري وبُهِتَ .

١ النخيرة : يا بهجة .

واستردت ما عندي ، ثم قال لي : لقد كثر هذا عندي حتى ما ألد به . ثم حلف بإلهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بُدِّل له بأجمعه في ثمن تلك ما سَخَتْ بها يدي ، فهي ابنة صاحب المنزل ، وله حسب في قومه ، اصطفتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم ، وقد رد لنا الكرة عليهم ، فصرنا فيما تراه ، وأزيدك بأن تلك الخوذة الناعمة ، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى ، مغنية والديها التي كانت تشلو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته ، يا فلانة — يناديها بلكتته — خذي عودك تغني زائرنا بشجوك ، قال : فأخذت العود ، وقعدت تسويه ، ولأني لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العليج مسحه ، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العليج ، فصار من الغريب أن حثَّ شربه هو عليه ، وأظهر الطرب منه ، فلمّا يشت ممّا عنده قمت منطلقاً عنه ، وارتدّت لتجارتي سواه ، واطّلت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجيبي به ، فهذا فيه مَنع لمن تدبره ، وتذكر لمن تذكّره .

قال ابن حيان : قد أشفينا بشرح هذه الحادثة الفادحة مصائب جلييلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمّن قبلهم من أثاره ، ولا شك عند فوي الألباب أن ذلك ممّا دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جُرفٍ يؤدي إلى الهلكة لا محالة ؛ انتهى ببعض اختصار .

وذكر بعده كلاماً في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس ، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وأن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم ، وبعدهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سدّ ثغورهم ، حتى أطلّ علوهم الساعي لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ، ويستقري بسائط بقاعهم ، ويقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومَنّ لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صُموت عن ذكرهم ، لهاة عن بثهم ، ما إن سمع عندنا بمسجد من

مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مُذَكَّر لهم أو داع ، فضلاً عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم ، حتى كأنهم ليسوا منّا أو كأنّ بثقهم ليس بمفئذٍ إلينا ، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء ، عجائبُ فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، والله عاقبة الأمور ، وإليه المصير .

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، فإن البشَقَ سرى إليهم جميعاً كما ستره ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

وقال قبله : إن بربشتر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الإيمان ، وتُدوّرُ رس القرآن ، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صلر رمضان من العام ، فصلك الأسماع ، وأطار الأفتدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكلّ شغلاً يشغل الناس في التحدث به ، والتساؤل عنه ، والتصوّر لخلول مثله ، أياماً لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجكِلِ ، والاعتزاز بالأمل ، والاستناد إلى أمراء الفرقة الممسك ، الذين هم منهم ما بين فشك ووككَل ، يصلونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم وضوح الدليل ، ولم تزل آفة الناس منذ خلّقوا في صنفين هم كالمخ فيهم الأمراء والفقهاء بصلاحيهم يصلحون وبفسادهم يفسلون ، فقد خصص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفِيهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق ذباداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صلوف عمّا أكده الله تعالى عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا ما بين آكل من حلكوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعرٍ مخافتهم ، آخذ في التقيّة في صدقهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم ، فما القولُ في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ، وما هي إلاّ مُشْفِيّة من بوارها ، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء ، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلاّ الفرع لحفر الخنادق ، وتعليّة الأسوار ، وشدّ الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوّهم عن السوأة

السّوآى من لقائهم يومئذ بأيديهم إليه - أمورٌ قبيحات الصور ، مؤذونات الصلور
بأعجاز الغيّر :

أمور لو تدبّرها حكيمٌ إذا لنهى وهيب ما استطاعا

[استرجاع بربشتر]

ثم قال ابن حيّان : فلما كان عقب جمادى الأولى سنة ٤٥٧ شاع الخبر
بقرطبة برجوع المسلمين إليها ، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المقرط فيها ،
والمتهم على أهلها . لانحرافهم إلى أخيه ، صمّدها مع إمداد لحليفه عبّاد .
وسعى لإصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يحويه إلا
عفوه . فتأهّب لقصد بربشتر في جموع من المسلمين . فجالدوا الكفار بها
جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجمان ،
وحسيّ الوطيسُ بينهم إلى أن نصر الله تعالى أوليائه ، وخذل أعداءه ، وولّوا
الأدبار مقتحمين أبواب المدينة . فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوهم أجمعين .
إلا من فر من مكان الواقعة . ولم يدخل المدينة . فأجبل السيف في الكافرين .
واستؤصلوا أجمعين . إلا من استرق من أصاغرهم ، وقُدّي من أعاظمهم ،
وسبّوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم . وملكوا المدينة بقدره الخلاق
البارئ ، وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حُماة المسلمين الجادين في
نصر الدين ، نحو الخمسين ، كتب الله تعالى شهادتهم ، وقتل فيه من أعداء الله
الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فغسلها المسلمون من رجس
الشرك ، وجلوها من صلب الإفاك ؛ انتهى .

وليت طليظة البائسة استرجعت كهذه ، ومع هذا فقد غلب العدو بعدُ على
الكل ، والله سبحانه المرجو في الإدالة .

[تطيلة وطرسونة]

وقال ابن اليسع : أخذ العدو مدينة تطيلة وأختها طرسونة سنة أربع وعشرين وخمسمائة .

[بلنسية والقنيطور]

ولما صار أمر بلنسية إلى الفقيه القاضي أبي أحمد ابن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكّن الأذفونش من طليطلة ، فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين ، وقتله . ودفع ابن جحاف لما لم يمهّد من تدبير السلطان ، ورجعت عنه طائفة المثلثين الذين كان يعتد بهم . وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيبطله عليه ، وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة رديق الطاغية للاستيلاء على بلنسية ، فدخلها ، وعامله القاضي ابن جحاف ، واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون ، فأقسم أنها ليست عنده ، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله ، فاتفق أنه وجدها عنده ، فأحرقه بالنار ، وعاث في بلنسية ، وفيها يقول ابن خفاجة حينئذ :

عائت بساحتك الظبا يا دارُ ومحا محاسنك البلي والنارُ
فإذا تردّد في جنابك ناظرُ طال اعتبارُ فيك واستعبارُ
أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدارُ
كعبت يدُ الحدّاث في عرّصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديارُ

وكان استيلاء القنيطور - لعنه الله تعالى - عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وقيل : في التي قبلها ، وبه جزم ابن الأبار قائلاً : فم حصار القنيطور لها

١ راجع الخبر عن حادثة بلنسية في ابن حذاري ٤ : ٣١ - ٤٢ والذخيرة (٣ : ٣٠ - ٣٢) .

عشرين شهراً ، وذكر أنه دخلها صلحاً ، وقال غيره : إنه دخلها عنوة ، وأحرقها ، وعاث فيها ، وممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر ابن النبي^١ الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعفا عنه ، فوجه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلي ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وتوالى عليها أمراء المثلثين ، ثم صارت ليحيى بن غانية المثلث حين ولي جميع شرق الأندلس ، فقدم عليها أخاه عبد الله بن غانية . ولما ثارت الفتنة في المائة السادسة أخرجه منها مروان بن عبد العزيز ، إلى أن قام عليه جيش بكنسية سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وبايعوا لابن عياض ملك شرق الأندلس ، ففر مروان إلى المريّة ، ثم رجعت بكنسية إلى أبي عبد الله ابن مرّدّيش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض ، وقدم عليه^٢ أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيس ، إلى أن رجع أبو الحجاج إلى جهة بني عبد المؤمن ، إلى أن ولي عليها السيد أبو زيد عبد الرحمن ابن السيد أبي عبد الله ابن أبي حفص ابن أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي ، فلما ثار العادل بمُرسيّة تمنع واعتز ، وأظهر طاعة في باطنها معصية ، ودام على ذلك مع أبي العلاء المأمون ، وكان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بكنسية الأمير زيان بن أبي الحملات ابن أبي الحجاج ابن مرّدّيش ، فأخرجه من بكنسية ، وملكها ، وفرّ السيد إلى النصارى .

[نهاية بكنسية]

ولم يزل أمر بكنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصراني ، فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبي زكريا ابن أبي حَقْص ،

١ دوزي : أبو جعفر البتي وكذلك كتب في التكملة المطبوعة ؛ ولكن سجع ابن سعيد يدل على أن بنه بالنون « كتاب المنه في حلى قرية بنه » وهي من قرى بكنسية ؛ وقد سبق أن أشرت إلى أن النبي الذي حرقه التنيطور هو غير النبي الذي ترجم له صاحب القلائد .

٢ عليه : سقطت من ص .

وأوفد عليه في هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد الله ابن الأبار القضاعي صاحب كتاب « التكملة » و « إعتاب الكتاب » وغيرهما ، فقام بين يدي السلطان منشداً قصيدته السينية الفريدة التي فضحت من بارأها ، وكبأ دونها من جارأها ، وهي^١ :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت	فلم يزل منك عز النصر ملتتما
وحاش مما تعانیه حشاشتها	فظالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحي أهلها جزراً	للحادثات وأمسى جدّها تعسا
في كل شارقة إلام باثقة	يعود مآمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة	تضي الأمان حذاراً والسرور أسي
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بكتسية منها وقرطبة	ما ينسف النفس أو ما يتزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسماً	جدلان ، وارنحل الإيمان مبتسما
وصيرتها العوادي العائثات بها	يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرسا	ومن كنائس كانت قبلها كئسا
يا للمساجد عادت للعدا بيحاً	وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فاتتها	مدارساً للمثاني أصبحت درسا
وأربعاً نمت أيدي الربيع لها	ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونة	فصوح النصر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب	يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحرباً	عيث الدبا في مغانيها التي كبسا

١ أورد ابن خلدون (٩ : ٢٨٣) هذه القصيدة ، وانظر أزهار الرياض ٢ : ٢٠٧ .

وابتر بزتها مما تحيقتها
فأين عيش جنيناهُ بها خضراً
حما محاسنها طاغٍ أتيح لها
ورج أرجاءها لما أحاط بها
خلا له الجوى فامتدت يده إلى
وأكثر الزعم بالثلث منفرداً
صل حبلاها أيها المولى الرحيم فما
وأحي ما طمست منها العداة كما
أيام صرت لنصر الحق مستبقاً
وقمت فيها بأمر الله منتصراً
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم
وتقتضي الملك الجبار مهجته
هندي رسائلها تدعوك من كذب
وافتك جارية بالشجع راجية
خاضت خضارة^١ يعليها ويخفضها
وربما سبحت والريح عاتية
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي
ملك تقلدت الأملاك طاعته
من كل غاد على يمينه مستلماً
مؤيد لو رمى نجماً لأثبته
تالله إن الذي تُرجى السعود له
إشارة يحمل المقدار رايتهما

١ خضارة : البحر .

ييدي النهار بها من ضوئه شنباً
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت
كأنه البدرُ والعلياء هالته
تدييره وسع الدنيا وما وسعت
قامت على العدل والإحسان دولته
مبارك هديبه باد سكيته
قد نور الله بالتقوى بصيرته
برى العصاة وراش الطائعين فقل
ولم يغادر على سهل ولا جيل
فرب أصيد لا تلفي به صيداً
إلى الملائك ينمي والملوك معاً
من ساطع النور صاغ الله جوهره
له الثرى والثريتا خطتان فلا
حسب الذي باع في الأخطار يركبها
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته
فظل يوطن من أرجائها حرماً
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه
فاستقبل السعد وضاحاً أسرته
وقبل الجود طفاحاً غواربه
يا أيها الملك المنصور أنت لها
وقد تواترت الأنباء أنك من

ويطلع الليل من ظلماته لعتسا
طلق المحيا ووجه الدهر قد عبتسا
تحف من حوله شهب القنا حرسا
وعرف معروفه وآسى الورى وأسا
وأشرت من وجود الجود مارميسا
ما قام إلا إلى حسنى وما جلسا
فما يبالي طروق الخطب ملتبسا
في الليث مفترسا والغيث مرتجسا
حيأ لقاحاً^١ إذا وافيه بخسا
ورب أشوس لا تلقى له شوسا
في تبعة أثمرت للمجد ما غرسا
وصان صيقله أن يقرب اللنسا
أعز من خطيه ما سما ورسا
إليه مجاه أن البيع ما وكسا
عصاه محترماً بالعدل محترسا
وبات يوقد من أضوائها قبسا
آماله ومن العذب^٢ المعين حسا
من البحار طريقاً نحوه يبسا
من صفحة فاض منها النور وانعكسا
من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
علياء توسع أعداء الهدى تعسا
يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا

١ الحيا القاح : الذين لا يدينون للملوك .

٢ ق : المد ؛ والمد : البئر القديمة الفزيرة الماء .

طهّر بلادك منهم لإنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل^١ النجسا
 وأوطىء القيلق الجرار أرضهم^٢ حتى يطأطأ رأساً كلُّ من رأسا
 وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعاً همي زكا ونحسا^٣
 هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت داء متى لم تباشر حسمة انتكسا
 فاملاً هنيئاً لك التأييد ساحتها جرداً سلاهيب أو خطيبة دعسا
 واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعمى

فبادر السلطان بإعانتهم^٣ ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال والأقوات
 والكسبي ، فوجدوهم في هوة الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بكنسية ،
 ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس ، وكان تغلب العدو على بكنسية صلحاً يوم
 الثلاثاء السابع عشر لصفري من سنة ست وثلاثين وستمائة . فهزئت هذه القصيدة
 من الملك عطف أرتياح ، وحركت من جنانه أخفض جناح ، ولشغفه بها وحسن
 موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجابها غير واحد . وحال العدو بين
 بكنسية وبينه ، وتعاهد أهلها مع النصراني على أن يسلمهم في أنفسهم ، وذلك
 سنة سبع وثلاثين وستمائة ، أعادها الله تعالى للإسلام .

[كتنده - ٥١٤]

وقد كانت وقعة كتنده^٤ على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدة ، وكتنده - ويقال
 « كتنده » بالقاف - من حيز دورقة من عمل سرقسطة من الثغر الأعلى ، وكانت

١ قال المقرئ في الأزهار : « نفل النجسا » هكذا ثبت بالنون كما رأيت في بعض النسخ العتيقة
 وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء ، لأن مثله لا يصلح للمخاطبات السلطانية ، ولم يشتهر
 عند أكثر الناس إلا بالتاء ، والصواب ما قلتمته أنه بالنون ، والله أعلم .

٢ الزكا : الزوج ، والنحسا : الفرد .

٣ انظر ابن عذاري ٣ : ٣٤٤ - ٣٤٥ (ط . المغرب) .

٤ في الخبر عن وقعة كتنده راجع معجم أصحاب الصدي (٧ - ٨) ومعجم ياقوت (كتنده) .

الهزيمة على المسلمين جبرهم الله تعالى ، قُتل فيها من المطوّعة نحو من عشرين ألفاً ، ولم يُقتل فيها من العسكر أحد ، وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذي أَلْفَ الفتحُ باسمه « قلائد العقيان » وكانت سنة أربع عشرة وخمسائة ، وممن حضرها الشيخُ أبو علي الصديقي السابق الذكر ، وقربته في الفضل أبو عبد الله ابن الفراء خرجا غازيين ، فكانا ممّن فُقد فيها .

وقال غير واحد : إن العسكر انصرف مقلولاً إلى بَلَنْسِيّة ، وإن القاضي أبا بكر ابن العربيّ كان ممن حضرها ، وسئل مَخْلَصَه منها عن حاله ، فقال : حال من ترك الحباء والعباء ، وهذا مثل عند المغاربة معروف ، يقال لمن ذهب ثيابه وخيامه ، بمعنى أنّه ذهب جميعُ ما لديه .

[لَوْشَة - ٦٢٢]

ودخل العدوّ لَوْشَة سنة اثنتين وعشرين وستمائة^١ ، مع السيد أبي محمد البياسي في الفتنة التي كانت بينه وبين العادل ، فعاثوا فيها أشدّ العَيْثِ ، ثم ردها المسلمون إلى أن أخذت بعد ذلك كما يأتي .

[المَرِيّة - ٥٤٢]

ودخل العدوّ مدينة المَرِيّة يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسائة ، عَتَوَة . وجكى أبو زكريا الجعدي^٢ عن أبي عبد الله ابن سعادة الشاطبي المعمر أن أبا مروان ابن ورد أتاها في النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه في عضديه من خلفه ، وهزه هزاً عنيفاً حتى أُرعبه ، وقال له قل :

١ سنة ٦٢٣ عند ابن عذاري (٣ : ٢٤٩) .
 ٢ الجعدي هو يحيى بن زكريا بن علي بن يوسف الأنصاري البلنسي ، توفي سنة ٦١٩ (التكملة رقم : ٢٠٦٣) . وفي ص : الحميلي ، وهو خطأ .

ألا أيها المغرورُ ويحك لا تنمُ فله في ذا الخلقِ أمرٌ قد انبهمُ
فلا بدَّ أن يرزوا بأمر يسوءهم فقد أحدثوا جرماً على حاكم الأمم

قال : وكان هذا في سنة أربعين وخمسمائة . فلم يمض إلا يسير حتى تغلب الروم على المرية في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة . بعد تلك الرؤيا بعامين أو نحوهما ، وهو مما حكاه ابن الأبار الحافظ في كتاب « التكملة » له .

[ترجمة الرشاطي]

وفي وقعة المزية هذه استشهد الرشاطي الإمام المشهور^١ ، وهو أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر ، اللخمي الرشاطي . المريبي . وكانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ ، وهو صاحب كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار » أخذه الناس عنه . وأحسن فيه . وجمع وما قصر ، وهو على أسلوب كتاب أبي سعد ابن السمعي الحافظ المسمى بـ « الأنساب » . وولد الرشاطي سنة ٤٦٦ بقرية من أعمال مرسية يقال لها أوريواله — بفتح^٢ الهمزة ، وسكون الواو . وكسر الراء . وضم المثناة التحتية . وبعد الألف لام مفتوحة ، وبعدها هاء — وتوفي شهيداً بالمرية عند تغلب العدو عليها صبيحة الجمعة العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ . والرشاطي — بضم الراء . وفتح الشين المخففة — وذكر هو أن أحد أجداده كان في جسمه شامة كبيرة . وكانت حاضنته عجمية ، فإذا لاعبته قالت : رشاطة^٣ . وكثر ذلك منها . فقليل له : الرشاطي ؛ انتهى ملخصاً من « وفيات الأعيان » . وبعضه بالمعنى .

١ سقطت ترجمة الرشاطي من التكملة وهي واردة في معجم أصحاب الصدي (رقم : ٢٠٠) وابن خلكان ٢ : ٢٩١ - ٢٩٢ وعنه ينقل المقرئ ؛ وتذكرة الحفاظ : ١٣٠٧ .
٢ ابن خلكان : يضم .
٣ يعني Roseta .

[استرداد المرية وضياعها نهائياً]

وبعد أخذ النصارى المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين ، واستتقدها الله تعالى على يد الموحدين ، وبقيت بأيدي أهل الإسلام سنين ، وكان أول الولاية عليها حين استولى عليها أميرُ المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلاً يقال له يوسف ابن مخلوف ، فثار عليه أهل المرية وقتلوه وقدّموا على أنفسهم الرميحي ، فأخذها النصارى منه عنوة كما ذكرنا ، وأحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً .

وقال ابن حبيش^١ آخر الحفاظ بالأندلس : كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله تعالى للإسلام ، فتقدّمت إلى زعيم الروم السليطين ، وهو ابن بنت الأذفونش ، وقلت له : إني أحفظ نسبك منك إلى هرقل ، فقال لي : قل ، فذكرته له ، فقال لي : انخرج أنت وأهلك ومن معك طلقاء بلا شيء .
وابن حبيش شيخ ابن دحية وابن حوط الله وأبي الربيع الكلاعي ، رحمهم الله تعالى .

ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصرا النصارى بها . وزحف إليهما أبو عبد الله ابن مردّيش ملك شرق الأندلس محارباً لهما . فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلاً وخارجاً ، ثم رأى ابنُ مردّيش العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل ، فقال النصارى : ما رحل ابنُ مردّيش إلاّ وقد جاءهم مدد ، فاصطلحوا ، ودخل الموحلون المدينة ، وقد خربت وضعفت ، إلى أن أحيا رمقها الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال ، وذلك أن أخته أخذت سبيّة في دخلة عبد المؤمن

١ يعني أبا القاسم الإمام الحافظ عبد الرحمن بن الأنصاري زريل مرسية ، وحبيش هو خاله نسب إليه ، ولد بالمرية سنة ٥٠٤ وتوفي سنة ٥٨٤ وقد ترجم له كل من ابن الأبار (رقم : ١٦١٧) وابن الزبير (انظر تذكرة الحفاظ : ١٣٥٣) .

لبجاجة ، فاحتلت بقصره واعتنت بأخيها ، فولاه بلده ، فصلح به حالها ، وكان جواداً حسن المحاولة كثير الرفق ، واشتهر من ولاتها في مدة بني عبد المؤمن في المائة السابعة الأمير أبو عمران ابن أبي حفص عم ملك إفريقية أبي زكريا .

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثارت الأندلس على مأمون بن عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بِمُرُسيّة قام في المرية بدعوة ابن هود أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى ابن الرميمي ، وجدّه أبو يحيى هو الذي أخذها النصراني من يده ، ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بِمُرُسيّة وولاه وزارته ، وصرف إليه سياسته ، وآل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة المرية ، ويجعلها له عدة ، وهو يبغى ذلك عدة لنفسه ، وترك ابن هود فيها جارية تَعَلَّق ابن الرميمي بها ، واجتمع معها ، فبلغ ذلك ابن هود ، فبادر إلى المرية ، وهو مضمر الإيقاع بابن الرميمي ، فتعدّى به قبل أن يتعشى به ، وأخرج من قصره ميتاً ، ووجهه في تابوت إلى مُرُسيّة في البحر ، واستبدّ ابن الرميمي بملك المرية ، ثم ثار عليه ولده ، وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابنُ الأحمر صاحبُ غرناطة ، وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو الكافر عندما طوي بساط بلاد الأندلس كما سنّبه عليه ، والله غالبٌ على أمره .

[شعر في العقاب]

وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي في هزيمة العقاب
بإشبيلية :

وقائلة أراكَ تُطِيلُ فِكراً كأنك قد وقفت لدى الحسابِ
فقلتُ لها أفكر في عقاب غدا سيباً لمركة العقابِ
فما في أرض أندلس مُقامٌ وقد دخلَ البلاء من كلِّ بابِ

[ابن وزير]

وقول القائد أبي بكر ابن الأمير ملك شلبأبي محمد عبد الله بن وزير
يخاطب منصور بن عبد المؤمن وقد التقى هو وأصحابه مع جماعة من الفرنج
فتناصفوا ، ثم كان الظفر للمسلمين :

ولمّا تلاقينَا جرى الطعنُ بيننَا فمنا ومنهم طائحون عديدُ
وجالَ غرَارُ الهندِ فينا وفيهمُ فمنا ومنهم قائمٌ وحصيد
فلا صدرَ إلاّ فيه صدرُ مُتَقَفٍ وحولَ الوريدِ للحُسامِ ورود
صبرنا ولا كهفِ سوى البيضِ والقنَا كلانا على حرّ الجلالِ جليد
ولكن شدنا شدةً فتبَلَدوا ومن يتبَلَدُ لا يزالُ يحيد
فولتوا وللسمّ الطّوالِ بهامهم ركوعٌ وللبيضِ الرقاقِ سُجود

وكان المذكور من فرسان الأندلس ، وكان ابنة الفاضل أبو محمد غير مقصر
عنه فروسيةً وقدرأً وأدباً وشعراً ، وولاه ناصر بن عبد المؤمن مدينة قصر أبي
دانس في الجهة الغربية ، وقتله ابن هود بإشيلية ، وزعم أنه يروم القيام عليه ،
ومن شعره قوله في ابن عمرو صاحب أعمال إشبيلية :

لا تياسن من الخلافة بعدما ولي ابن عمرو نخطه الأشرافِ
تبياً لدهر هذه أفعاله يضع النوافج في يدي كَنَافِ

[ضياع ماردة]

رجع — ودخل العدو كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست وعشرين

١ قد قدمت التعليق على هذا الاسم ، وهو أبو بكر ابن أبي محمد سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير
القيسي ؛ ومن بني وزير عبد الله بن وزير الذي كان يدافع عن حصن أبي دانس لما كان البرتغاليون
يحاولون الاستيلاء عليه سنة ٦١٤ .

وستماتة ، وكانت مفتتح المصائب على يده ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وهي قاعدة بلاد الجوف في مدة العرب والعجم ، والحضرة المستجدة بعدها هي مدينة بَطْلَيْيُوس ، وبين ماردة وقرطبة خمسة أيام .

[المظفر ابن الأفتس وابنه المتوكل]

وملك بَطْلَيْيُوس وماردة وما إليها المظفر محمد بن المنصور بن الأفتس مشهور ، وهو من رجال « القلائد » و « الذخيرة » وهو أديب ملوك عصره بلا مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بـ « التذكر المظفري » خمسون مجلداً اشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع علوم الأدب ، وقال يوماً : والله ما يمنعني من إظهار الشعر إلاّ كوني لا أقول مثل قول أبي العشائر ابن حمدان^١ :

أقرأت منه ما تخطُّ يد الوغى والبيض تشكّل والأسنة تنقُطُ

. وقول أبي فراس ابن عمه^٢ :

وجرّنا العوالي في مقام^٣ تحدث عنه ربّاتُ الحجالِ
كأنّ الخيل تعلم من عليها ففي بعضٍ على بعضٍ تعالي

فأين هذا من قولي :

أنفت من المدام لأنّ عقلي أعزّ عليّ من أنس المدامِ
ولم أرتح إلى روض وزهر ولكن للحماثل والحسام

١ يتيمة الدهر ١ : ٢١٠ .

٢ ديوان أبي فراس : ٢٨٤ .

٣ الديوان : وعدت أجز رحمي عن مقام .

إذا لم أملك الشهوات قهراً فليم أبغي الشفوف على الأنام^١
وله رحمه الله تعالى :

يا لحظهُ زدْ فُتوراً تزد عليّ اقتساراً
فالحظُّ كالسيف أمضا ه ما يرقُّ غيراً

وابنه المتوكل من رجال « القلائد » و « المسهب » وكان في حضرة بطليوس
كالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، قد أناخت الآمال بحضرتيها ، وشدّت رحال الآداب
إلى ساحتهما ، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواصم بين جنتين ، وينظر
الأدب منهما عن مقلتين ، والمعتمد أشعر . والمتوكل أكتب .

[شعر لأبي عبد الله الفازازي]

رجع - وقال الفاضل الكاتب أبو عبد الله محمد الفازازي ، وقيل : إنَّها
وجدت برقعة في جيبه يوم موته :

الرومُ تضرب في البلاد وتغنمُ والجور يأخذ ما بقى والمغرمُ
والمال يورد كُله قشتالة والجند تسقط والرعية تسلّم
وذوو التعين ليس فيهم مُسلم إلاّ معين في الفساد مُسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلفظ بالجميع ويرحم

وقيل : إن هذه الأبيات رُفعت إلى سلطان بلده . فلما وقف عليها قال
بعدهما بكى : صديق رحمه الله تعالى ، ولو كان حياً ضربت عنقه .

١ سقط البيت من ص .

[ترجمة أبي زيد الفازازي]

وهذا الفازازي أخو الشاعر الشهير الكاتب الكبير أبي زيد عبد الرحمن الفازازي^١ صاحب « الأمداح » في سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وهو كما قال فيه بعضهم : صاحب القلم الأعلى ، والقيدح الملقى ، أبرع من ألف وصنف ، وأبدع من قرط وشتف ، فقد طاع القلم لبنانه ، والنظم والنثر لبيانه ، كان نسيجاً وحده رواية وأخباراً ، ووحيد نسجه روية وابتكاراً ، وفريد وقته خبيراً وإخباراً ، وصدر عصره إيراداً وإصداراً ، صاحب فهم ، ورافع ألوية علوم ، أما الأدب فلا يسبق فيه مضماره ، ولا يشق غباره ، إن شاء إنشاء أنشى ووشى ، سائل الطبع ، عذب النبع ، له في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، بدائع قد خضع لها البيان وسلم ، أعجز بتلك المعجزات نظماً ونثراً ، وأوجز في تحيير تلك الآيات البيئات فجلاً سحرراً ، ورفع للقوافي راية استظهار تحيير فيها الأظهر ، فعجم وعشر وشفع وأوتر ، وأما الأصول فهي من فروعه ، في متفرق منظومه ومنتور مجموعه ، وأما النسب ، فإلى حفظه انتسب ، وأما الأيام والدول ، ففي تاريخه الأواخر والأول ، وقد سبك من هذه العلوم في منتوره وموزونه ، ما يشهد بإضافتها إلى فنونه ، وله سماع في الحديث ورواية ، وفهم بقوانينه ودراية ، سمع من أبي الوليد اليزيد بن عبد الرحمن بن بقي القاضي ، ومن أبي الحسن جابر بن أحمد القرشي التاريخي ، وهو آخر من حدث عنه ، ومن أبي عبد الله التُّجيبِي كثيرأ وهو أول من سمع عنه في حياة الحافظ أبي الطاهر السلفي إذ قدم عليهم تليمان ، وأجازته الحافظ السهيلي وابن خلف

^١ هو عبد الرحمن بن مخلفتن بن أحمد اليجنشي الفازازي . ولد بقرطبة ونشأ بها ثم سكن تلمسان ، وكان عالماً بالحديث متصرفاً في فنونه ، كاتباً شاعراً مجوداً ، مشاركاً في أصول الفقه ، ذا معرفة بعلم الكلام . تجول ببلاد العدو والأندلس كثيراً ، وغلب عليه شمر الزهد والتصوف (التكملة رقم : ١٦٤١) .

الحافظ وغيرهما ، وولد بعد الخمسين والخمسمائة ، وتوفي بمراكش سنة ٦٣٧ ،
رحمه الله تعالى ؛ انتهى ملخصاً .

[سقوط ميورقة عن ابن عميرة]

رجع - ولما ثارت الأندلس على طائفة عبد المؤمن كان الوالي بجزيرة
مَيُورُقة أبو يحيى ابن أبي عمران التينملي^١ فأخذها الفرنج منه ، كذا قال ابن سعيد ،
وقال ابن الأبار : إنها أخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع
وعشرين وستمائة .

وقال المخزومي في تاريخ ميورقة^٢ : إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها
في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحدَ أعيانها ،
ووليها سنة ست وستمائة ، واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة ، فأنفذ طريدة
بحرية وقطعة حرية ، فعلم بها والي طرطوشة ، فجهز إليها من أخذها ، فعظم
ذلك على الوالي ، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم ، وكان ذلك رأياً مشؤوماً .
ووقع بينه وبين الروم ، وفي آخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه
أن مسطحاً من برشلونة^٣ ظهر على يابسة ، ومركباً آخر من طرطوشة انضم إليه .
فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل مرسى يابسة ، ووجد فيه لأهل جنوة
مركباً كبيراً ، فأخذه وسار حتى أشرف على المسطح ، فقاتله وأخذه . وظن أنه
غالب الملوك ، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة^٤ ، وأن الروم لما بلغهم الخبر

١ ق : التيفلي .

٢ هو أبو المطرف ابن عميرة المخزومي ، وقد ألف كتاباً في كائنة ميورقة قال فيه ابن عبد الملك :
إنه نحا فيه منحنى المماد في الفتح القسي ، فالمقري هنا يلخص وينقل بتصرف . (انظر كتاب
« أبو المطرف ابن عميرة » للأستاذ بن شريفة ٢٨٧ - ٢٩١) .

٣ ص : برجلونة .

٤ هو قدار الذي يضرب به المثل في الشؤم .

قالوا للملكهم وهو من ذرية أذفونش : كيف يرضى الملك بهذا الأمر ونحن نقاتل بنفوسنا وأموالنا ؟ فأخذ عليهم العهد بذلك . وجمع عشرين ألفاً من أهل البلاد ، وجهز في البحر ستة عشر ألفاً ، وشرط عليهم حمل السلاح ، وفي سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر أمر هذه الغزوة فاستعد لها الوالي . وميز نيماً على ألف فارس من فرسان الحضرة والرعية مثلهم ، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفاً . وذلك في شهر ربيع الأول من السنة ، ومن سوء الاتفاق أن الوالي أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر . فساقهم وضرب أعناقهم ، وكان فيهم ابنا خاله . وخالهما أبو حفص ابن سيرى ذو المكانة الوجيية . فاجتمعت الرعية إلى ابن سيرى ، فأخبروه بما نزل . وغزوه فيمن قُتل وقالوا : هذا أمر لا يطاق . ونحن كل يوم إلى الموت نساق . وعاهدوه على طلب الثأر ، وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال . والناس من خوفه في أهوال ، ومن أمر العدو في إهمال ، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم . وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي ، وأخبره بأن الروم قد أقبلت ، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع . وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال : إن أسطول العدو قد تظاهر . وقال : إنه عد سبعين شراعاً . فصيح الأمر عنده . فسمح لهم بالصفح والعفو . وعرفهم بخبر العدو . وأمرهم بالتجهز ، فخرجوا إلى دورهم . كآتما تُشِيرُوا من قبورهم . ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد . فإنتهم عدوا مائة وخمسين قلماً . ولما عبر وقصد المرسى أخرج الوالي جماعة تمنعهم النزول ، فباتوا على المرسى في الرّجل والحيل . وفي الثامن عشر من شوال وهو يوم الاثنين . وقع المصاف . وانهزم المسلمون . وارتحل النصارى إلى المدينة . ونزلوا منها على الحربية الخزينة من جهة باب الكحل . ولم يزل الأمر في شدة وقد أشرفوا على أخذ البلد . ولما رأى ابن سيرى^١ أن العدو قد استولى على البلد خرج

١ ق : ابن سيرى .

إلى البادية ، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً ، ولما كان يوم الأحد أخذ البلد ، وأخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قتلوا على دم واحد ، وأخذ الوالي وعُذّب . وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوماً . ومات تحت العذاب . وأما ابن سيرى فإنه صعد إلى الجبل . وهو منبع لا يُنال من تحصن فيه ، وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل ، وما زال يقاتل إلى أن قُتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وجده من آل جبلة بن الأيهم الغساني ، وأما الحصون فأخذت في آخر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام ؛ انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومي ملخصاً .

وكان بميُورقة جماعة أعلام وشعراء ، ومن شعر ابن عبد الولي الميورقي ^١ :

هل أمانٌ من لحظك الفتانِ وقوامٍ يميلُ كالخيزرانِ
مهجتي منك في جحيمٍ . ولكنَّ جفوني قد مُتعت في جنانِ
فتتني لواحظ ساحرات لستُ أخشى من فتنة الشيطانِ

[سعيد بن حكيم في منورقة]

ولما استولى النصارى على ميُورقة في التاريخ المتقدم ثار بجزيرة منورقة ، وهي قرية منها . الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي . وكان وليها من قبل الوالي أبي يحيى المقتول . وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة . واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى . وضبطها أحسن ضبط . قال أبو الحسن علي بن سعيد : أخبرني أحد من اجتمع به أنه لقي منه برآ حبيب إليه الإقامة في تلك الجزيرة المنقطعة . وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف

١ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٤٦٨ .

ضبيقة وقد أثرت في عتقه ، فأمر له بإحسان وغبزاز . وكتب معه :

حمالة السيف تُوهي جيدَ حاملها لا سيّما يومَ إسراعٍ وإنجازِ
وخيرُ ما استعمل الإنسانُ يومئذٍ لحمٌ علّتها إلباسُ غببازِ

والغبباز عند أهل المغرب : صنف من الملبوس غليظ يستر العنق .
وأصل أبي عثمان من مدينة طيبة من غرب الأندلس ، وقد ألقت باسمه
التأليف المشهورة بالمغرب ككتاب « رَوْحُ الشحر وروح الشعر » وغيره ؛
وأخذ العلو منورقة بعد مدة .

[سقوط عدة مدن]

وأخذ العلو جزيرة شقر صلحاً سنة تسع وثلاثين وستمائة في آخرها .
وأخذ العلو - دمره الله تعالى - مدينة سَرَقُسْطَة يوم الأربعاء لأربع خلون من
رمضان سنة اثني عشرة وخمسمائة .

وكان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة وغيرها وإجلاؤهم مَنْ
يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها في شهر رمضان سنة خمس وأربعين
وستمائة .

وكان استيلاء العلو - دمره الله تعالى - على مدينة قُرْطُبَة يوم الأحد الثالث
والعشرين لشوال من سنة ست وثلاثين وستمائة .

وكان تملك العلو مُرْسِيَة صلحاً ظهر يوم الخميس العاشر من شوال . قدم
أحمد بن محمد بن هود ولد والي مرسية بجماعة من وجوه النصارى . فملكهم
إياها صلحاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحصر العلو إشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة . وفي يوم الاثنين الخامس
من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب قشتالة صلحاً بعد منازلها حولاً كاملاً
وخمسة أشهر أو نحوها . وقال ابن الأبار في ترجمة أبي علي الشلوين من « التكملة »

ما صورته : وتوفي بين يدي منازل الروم إشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس وأربعين وستمائة ، وفي العام القابل ملكها الروم .

[هوقعة أنيسة - ٦٣٤ وترجمة أبي الربيع ابن سالم]

وكانت وقعة أنيسة^١ التي قُتل بها الحافظ أبو الربيع الكلاعي رحمه الله تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ولم يزل رحمه الله تعالى متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو ينادي بالمنهزمين : أعن الجنة تفرون ؟ حتى قُتل صابراً محتسباً برَدَّ الله تعالى مضجعه . وكان دائماً يقول : إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها في صغره ، فكان كذلك ، وراثه تلميذه الحافظ أبو عبد الله ابن الأبار بقصيدته الميمية الشهيرة التي أولها^٢ :

أنا بأشلاء العُلا والمكارم تقدت بأطراف القنا والصَّوارم
وعوجا علىها مارباً وحفاوة^٣ مصارع خصت بالطلبي والجماجم
نُحيي وجوهاً في الجنان وجبهة [بما لقيت حمراً وجوه الملاحم]
[وأجساد إيمان كساها نجيعها]^٤ مجاسد من نسج الطُّبي واللهازم
وهي طويلة .

ومن شعر الحافظ أبي الربيع المذكور^٥ :

- ١ انظر الروض المطار : (أنيسة) .
- ٢ أوردتها ابن عبد الملك في الذيل ؛ : ٩٠ - ٩٥ .
- ٣ الأصول : ومفازة .
- ٤ صوبناه عن الذيل بزيادة ما بين معقنين .
- ٥ الذيل والتكملة ؛ : ٨٨ .

تولت ليالٍ للغواية جُونُ
ركاب شبابٍ أزمعت عنك رحلةً
ولا أكذب الرحمنَ فيما أُجِنهُ
ومن لم يحلَّ أنَّ الرياء يشينه
لقد ريعَ قلبي للشباب وفقده
وآلني وخطُّ المشيب بلمستي
وليل شبابي كان أنصَرَ منظرًا
فأها على عيش تكدر صفوه
ويا وينحَ فودي أو فؤادي كلما
حرامٌ على قلبي سكونٌ بغيره^١
وقالوا شباب المرء شعبة جنة
وقالوا شجاك الشيب حدثان ما أتى

وقوله ٢ :

أمولى الموالي ليسَ غيرك لي مولى
تبارك وجهٌ وجهت نحوه المني
وما هو إلا وجهك الدائم الذي
تبرأتُ من حولي إليك وقوتي
وهب لي الرضى ما لي سوى ذاك مبتغى
وما أحد ياربٌ منك بهذا^٣ أولى
فأوزعها شكرًا وأوسعها طولًا
أقلُّ حليَ عليائه يُخرسُ القولا
فكن قوتي في مطلبي وكُن الحولا
ولو لقيت نفسي على نيله الهولا

وكان - رحمه الله تعالى - حافظاً للحديث ، مبرزاً في نقده ، تام المعرفة

١ الذيل : يقره .

٢ الذيل : ٨٧ .

٣ ق : بنا .

بطرقه ، ضابطاً لأحكام أسانيده ، ذاكرراً لرجاله . ريان من الأدب ، خطب ببلنسية . واستقصى ، وكان مع ذلك من أولي الحزم والبسالة والإقدام والجزالة ، حضر الغزوات وباشق القتال بنفسه وأبلى بلاء حسناً . وروى عن أبي القاسم ابن حبش وطبقته ، وصنف كتباً منها « مصباح الظلم » في الحديث . و « الأربعون » عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة ، و « الأربعون السباعية » و « السبعيات » من حديث الصديقي . و « حلية الأملالي في المواقفات والعوالي » و « تحفة الرواد ونجعة الرواد » و « المسلسلات » و « الإنشادات » و « كتاب الاكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء » و « ميدان السابقين وحلية الصادقين المصدقين » في غرض كتاب الاستيعاب ، ولم يكمله ، و « المعجم » فيمن وافقت كنيته [كنية] زوجه من الصحابة ، و « الإعلام بأخبار البخاري الإمام » و « المعجم في مشيخة أبي القاسم ابن حبش » و « برنامج رواياته »^٢ و « جني الرطب في سني الخطب » و « نكتة الأمثال ونقشة السحر الحلال » و « جهد النصيح »^٣ في معارضة المعري في خطبة الفصيح » و « الامتثال لمثال المهج في ابتداء الحكم واختراع الأمثال » و « مفاوضة القلب العليل ومناظرة الأمل الطويل بطريقة المعري في ملقى السيل » و « مجاز قيتا اللحن للاحن الممتحن » مائة مسألة ملغزة . و « نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم في مثال النعل النبوية على لابستها أفضل الصلاة والسلام » . قال ابن رشيد : لو قال وزكاة الثير والتنظيم لكان أحسن . وله كتاب « الصحف المنشرة في القطع المعشرة » و « ديوان رسائله » سفر ، و « ديوان شعره » سفر^٤ . وكتب إلى الأديب الشهير أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي عقب انفصاله من

١ سماه ابن عبد الملك : « تحفة الرواد في العوالي البدلية والاسناد » .

٢ الذيل : مروياته .

٣ الذيل : وجهد النصيح وحظ المنهج .

٤ الذيل : سفر .

أحنُّ إلى نجدٍ ومن حلَّ في نجدٍ
وقدْ أوطنوها وادّعينَ وخلّفوا
تبيّنَ بالبينِ اشتياقي إليهمُ
وضاقت عليّ الأرض حتى كأنّها
إلى الله أشكو ما أُلقي من الجوى
فراقُ أخلاءٍ وصدّهُ أحبّة
فيا سرّحتي نجدِ ، نداءً مقيمٍ
ظمئتُ فهل طلُّ يبرّد لوعي
ويا زمناً قد بانَ غيرَ مُدّمٍ
لياليَ نجّي الأُنس من شجرِ المنى
وسقياً لإخوانٍ بأكنافِ حاجرٍ
وكم لي بنجدٍ من سريّ ممجدٍ
أخو همة كالزهر في بُعدٍ نيلها
تجمعت الأضداد فيه حميدة
أيا راحلاً أودى بصبري رحيله
أتعلم ما يلقي الفؤاد لبعدكم
فيا ليت شعري هل تعود لنا المنى
عسى الله أن يلني السرور بقربكم

[ابن العربي ومعركة ٥٢٧]

وقال الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي في « أحكام القرآن »^٢ عند تفسير

١ ق : وما أبدي .

٢ انظر أحكام القرآن ج ٢ : ٩٤٣ .

قوله تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة : ٤١) ما صورته : ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله تعالى - سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا ، وأسر جيرتنا ، وتوسّط بلادنا في عدّد حدد الناس عدده فكان كثيراً ، وإن لم يبلغ ما حدوده ، فقلت للوالي والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل في الشّرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتكن منكم إلى نصره الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار ، فيحاط به ، فإنه هالك لا محالة إن يسّركم الله له ؛ فغلبت الذنوب ، ورحفت بالمعاصي القلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وجاره ، وإن رأى المكيدة يجاره ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل : انتهى .
ولا خفاء أن هذا كان قبل أخذ العدو شرق الأندلس وسرقسطة وميورقة وغيرها ممّا قلمنا ذكره ، والبدايات ، عثوان على النهايات .

[قصيدة الوقشي في مدح أبي يعقوب]

وقال أبو جعفر الوقشي البلنسي^١ نزيل مالقة بمدح أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي :

أبت غير ماء بالنخيل ورودا	وهامت به عذب الجمام بزودا
وقالت لحاديها أتمّ زيادة	على العشر في وردي له فأزيدا
غلبتك ما هذا القنوع وما أنا	عهلتك لا تثنين عنه وريدا
أنونا إذا ما كنت منه قريبة	وضباً إذا ما كان عنك بعيدا
ردي حضرة الملك الظليل رواقه	لعمري ففيها تحمدين ورودا
بحيث إمام الدين يوسع فضله	جميع البرايا مبدئاً ومُعيدا

١ البلنسي : سقطت من ق : وقد كان أبو جعفر الوقشي وزيراً لابن هشك ، وهو مدوح الرصافي البلنسي .

أعاد إليها الأَنسَ بعدَ شروده وأحيا لَنَا ما كان منه أُعيدا
ولَيِّنَ أَيامَ الزمان بعدله وكانت حديدًا في الخطوب حديدًا
فلا ليلة إلا يروقك حسنها ولا يومَ إلا عاد بفضل عيدا

ومنها يصف حال الأندلس وبيعث على الجهاد :

ألا لَيِّتَ شعري هل يمد لي المدى فأبصرَ شملَ المشركين طريدا
وهل بعدُ يقضى في النصارى بنصرة تغادرهم للمرهُفاتِ حصيدا
ويغزو أبو يعقوبَ في شنتَ ياقب يُعيدُ عميدَ الكافرينَ عميدا
ويلقي على إفرنجهم عبءَ كلِّك فيتركهم فوق الصَّعيدِ هُجودا
يغادرهم جرحَ حَيِّ وقلِّي مبرحاً ركوعاً على وجه الفلا وسُجودا
ويفتكُّ من أيدي الطغاة نواعماً تبدلن من نظمِ الحجول قيودا
وأقبلن في خشن المسوح وطلما سحن من الوشي الرقيق بُرودا
وغبَّرتَ منهن الترابُ ترائباً وخدد منهن الهجيرُ خلودا
فحق لدمعي أن يفيض لأزرقِ تملكها دُعجَ المدامع سودا
وياهلف نفسي من معاصم طفلة تجاورُ بالقِدِّ الأليم نهودا
ويا أسفاً ما إن يزال مُردِّداً على شملِ أعياد أُعيد بديدا
وآهاً تمدُّ الصوتَ منتحباً على خلوة ديار لو يكون مفيدا

وقال في آخرها ، وهو مما استحسنته الناس :

حملتُ إليه من نظامي قلادة يلقبها أهلُ الكلام قصيدا
غدتُ يومَ إنشاد القريض وحيدة كما قصدت في المعلوات وحيدا

ولما تمهدت الأندلس لعبد المؤمن وبنيه كان لهم فيها وقائع مع عدوِّ الدين ،
واجتاز إليها عبدُ المؤمن . ثم لما ولي بعده ملكه ابنه يوسف دخل الأندلس سنة
٥٦٦ ، وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين ، فترز بإشبيلية ،

فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن مرْدَيش صاحبُ شرق الأندلس :
 مُرْسِيَّة وأعمالها وما انضاف إليها ، فحمل على قلبه فمرض فمات ، وشرع
 السلطان يوسف في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج ، فاتسعت مملكته
 بالأندلس ، وأغارت سراياه على طُلَيْطَلَة إذ هي قاعدة ملكهم ، ثم إنّه حاصرها
 فاجتمعت طائفة الفرنج عليه ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرحل عنها وعاد إلى
 حضرة ملكه مراکش المحروسة .

[قصيدة في استنهاض الخفي بعد سقوط بلنسية]

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى — دمرهم الله تعالى — على كثير
 منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار ، بالنظم والثرار ، فلم ينفعهم
 ذلك حتى اتسع الخرق ، وأعضل الداء أهلَ الغرب والشرق ، فمن القصائد
 الموجهة في ذلك قولُ بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا
 ابن عبد الواحد بن أبي حفص :

نادتك أندلسٌ فكبَّ نداءها	واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرختْ بدعوتك العليَّة فاجبها	من عاطفاتك ما بقي حوِّبها
واشدد بجلبك جُردَ خيلك أزرها	تردد على أعقابها أرزاءها
هي دارك القصوى أوت لإيالة	ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى	سُبُل الضراعة يسلكون سواءها
خلعت قلوبهم هناك عزاءها	لما رأت أبصارهم ما ساءها
دُفِعُوا الأبكار الخطوب وعُونِها	فهمُ الغداة يصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت	سراءها وقضتهمُ سراءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا	لم يضمن الفتحُ القريبُ بقاءها
رشٌ أيها المولى الرحيم جناحها	واعقد بأرشية النجاة رِشاءها

أشفي على طرف الحياة ذمائها
حاشاك أن تفتي حشاشتها وقد
طافت بطائفة الهدى آمالها
واستشرقت أمصارها لإمارة
يا حسرتي لعقائل معقولة
إيه بلنسية وفي ذكراك ما
كيف السبيل إلى احتلال معاهد
وإلى ربّي وأباطح لم تعرّ من
طاب المعرّس والمقبيل خلاها
بأبي مدلس كالظلول دوارس
ومصانع كسف الضلال صباحها
راحت بها الوراق تسمع شدّوها
عجبا لأهل النار حلّوا جنّة
أملت لهم فتعجلوا ما أمّلوا
بعداً لنس أبصرت إسلامها
أما العلوج فقد أحالوا حالها
أهدى إليها بالكاره جارج
وكفى أسى أن الفواجع جمّة
هيهات في نظر الإمارة كفت ما
مولاي هاك معادة أنباءها
جرّد ظباك لمحو آثار العدا
واستدع طائفة الإمام لغزوها
لا غرو أن يعزى الظهور للمّة
إن الأعاجم للأعارب نبهة

فاستبق للدين الخفيف ذمائها
قصرت عليك نداءها ورجاءها
ترجّو يحيى المرتضى إحياءها
عقدت لنصر المستضام لواءها
سئم الهدى نحو الضلال هداءها
يمري الشؤون دماءها لا ماءها
شبّ الأعاجم دونها هيّجاءها
حلّل الربيع مصيفها وشتاءها
وتطلعت غرر المني أثناءها
نسخت نواقيس الصليب نداءها
فيخاله الرائي إليه مساءها
وغدت ترجع نوحها وبكاءها
منها تمدّ عليهم أفياءها
أيامهم لا سوّغوا إملاءها
فتوكفت عن حزبها إسلاءها
فمن المطيق علاجها وشفاءها
للكفر كره ماءها وهواءها
فمى يقاوم أسوأ أسوأها
تخشاه . ليت الشكر كان كفاءها
لتتيل منك سعادة أبناءها
تقتل صرّاعمها وتسبّ طباءها
تسبق إلى أمثالها استدعاءها
لم يبرحوا دون الورى ظهراءها
مهما أمرت بغزوها أحياءها

تالله لو دبت لها دبابها
ولو استقلت عوفها لقتلها
أرسل جوارحها تجنك بصيدها
هبوا لها يا معشر التوحيد قد
إن الحفاظ من خلالكم التي
هي نكتة الحيا فحيها بها
أولوا الجزيرة نصره إن العدا
نقصت بأهل الشرك من أطرافها
حاشاكم أن تضمروا إلغاءها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم
وافي الصريح مثوباً يدعو لها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة
هذي رسائلها تُناجي بالتي
ولربما أنهت سواب للنهي
وفدت على الدار العزيزة تجتني
مستسقيات من غيوث غياثها
قد أمنت في سبلها أهواءها
وبحسبها أن الأمير المرتضى
في الله ما ينويه من إدراكها
بشرى لأندلس تحب لقاءه
صدق الرواة المخبرون بأنه
إن دوخ العرب الصعاب مقادة
فكان بفيلقه العرمم فالقاً
أنذرهم بالبطشة الكبرى فقد

لَطَوَتْ عَلَيْهَا أَرْضَهَا وَسَمَاءَهَا
لَا سَقَبَتْ بِالْمَقْرِبَاتِ عَفَاءَهَا
صَيْدًا وَنَادٍ لَطَحْنَهَا أَرْحَاءَهَا
أَنَّ الْهَيْبُوبُ وَأَحْرِزُوا عَلَيْهَا
لَا يَرْهَبُ الدَّاعِي بَيْنَ خَلَاءِهَا
تَجَلَدُوا سَنَاهَا فِي غَدٍ وَسَنَاءِهَا
تَبَغِي عَلَى أَقْطَارِهَا اسْتِيْلَاءَهَا
فَاسْتَحْفَظُوا بِالْمُؤْمِنِينَ نَمَاءَهَا
فِي أَرْزَمَةٍ أَوْ تَضْمُرُوا إِقْصَاءَهَا
رَهْوًا وَجُوبًا نَحْوَهَا بَيْدَاءَهَا
فَلْتَجْمَلُوا قَصْدَ الثَّوَابِ ثَوَاءَهَا
سَاوَتْ بِهَا أَحْيَاؤُهَا شَهْدَاءَهَا
وَقَفَتْ عَلَيْهَا رَيْثُهَا وَنَجَاءَهَا
مِنْ كَائِنَاتٍ حَمَلَتْ أَنْهَاءَهَا
أَلَاءَهَا أَوْ تَجْتَلِي آرَاءَهَا
مَا وَقَعَهُ يَتَقَدَّمُ اسْتِسْقَاءَهَا
إِذْ سَوَّغَتْ فِي ظِلِّهَا أَهْوَاءَهَا
مَرْتَقِبٌ بِفَتْوحِهَا آنَاءَهَا
بِكَلَاءَةِ يَفْقِدِي أَبِي أَكْلَاءَهَا
وَيَحِبُّ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ لِقَاءَهَا
يَشْفِي ضَنْهَا أَوْ يُعِيدُ رُوءَاءَهَا
وَأَبِي عَلَيْهَا أَنْ تَطْبِيعَ إِبَاءَهَا
هَامَ الْأَعَاجِمِ نَاسِقًا أَرْجَاءَهَا
نَذَرَتْ صَوَارِمَهُ الرِّقَاقِ دَمَاءَهَا

لا يعلم الزمن انتصار مؤيد
ملك أمد النيرين بنوره
خضعت جبابرة الملوك لعزه
أبقى أبو حفص إمارته له
سل دَعْوَة المهدي عن آثاره
فغزا عداها واسترق رقاياها
قبضت يده على البسيطة قبضة
فعلى المشارق والمغرب ميسم
تطمو بتونسها بحار جيوشه
وسع الزمان فضاك عنه جلاله
ما أزع الإيغال في أكتافها
دانت له الدنيا وشم ملوكها
ردت سعادته على أدراجها
إن يعتم اللول العزيزة بأسه
تقع الجلائل وهو راس راسخ
كالطود في عصف الرياح وقصفها
سامي النواثب في أعز ذؤابة
بركت بكل حلة بركاته
كالغيث صب على البسيطة صوبه
ينميه عبد الواحد الأرضى إلى
في تبعه كرم وطابت مغرساً
ظهرت لمحتدها السماء وجاوزت
فته كرام لا تكف عن الوغى
وتكب في نار القرى فوق النرا

تسوغ الدنيا به سراءها
وأفاده لألاؤه لألاءها
ونضت بكف صغارها خيلاءها
فسما إليها حاملاً أعباءها
تنيك أن طباه قمن إزاءها
وحمي حماها واسترد بهاءها
قادت له في قده أمراءها
لهناه شرف وسمه أسماءها
فيزور زاخر موجه زوراءها
والأرض طراً ضنكتها وفضاءها
إلا تصيد عزمه زعماءها
فاحتل من رتب العلاء شماءها
ليل الزمان ونهت غلواءها
فالآن بولي جوده إعطاءها
فيها يوقع للسعود جلاءها
لا رهونها يخشى ولا هوجاءها
أعلت على قيم النجوم بناءها
شفعاً يبادر بلها شفعاءها
فسقى عمائرها وجاد قواءها
عليها فتمنح بأسها وسخاءها
وسمت وطالت نضرة نظراءها
لسراقات فخارها جوزاءها
حتى تصرع حولها أكفاءها
من عزرة ألويها وكتباءها

قد خلّفوا الأيام طيبَ خلائقٍ
 يتنصّونَ في طلبِ النفائسِ أنفُساً
 وإذا انتصروا يومَ الكربةِ بيضهمُ
 لا عذرَ عندَ المكرماتِ لهم متى
 قومُ الأميرِ فمن يقومُ بما لهم
 صفحاً جميلاً أيّها الملكِ الرضى
 تقفِ القواني دونهنِ حسيرةً
 فلعلّ عليكُم تسامحٌ راجياً
 فثنت إليهم حمداً وثناءها
 حبسوا على إحرازها إمضاءها
 أبصرتَ فيهم قطعها ومضاءها
 لم تستبن لعفاهم عذراءها
 من صالحاتِ أفحمت شعراءها
 عن محكماتِ لم نُطيقِ إحصاءها
 لا عيبها تُخفي ولا إعياءها
 إصغاءها ومؤملاً إغضاءها

[في رثاء طليطلة]

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى للإسلام :

لثُكِّلكِ كيفَ تبسمِ الثغورُ
 أما وأبي مصابٍ هدّ منه
 لقد قصّمتَ ظهورُ حينَ قالوا
 ترى في الدهرِ مسروراً بعيثِ
 أليس بها أبيّ النفسِ شهيمِ
 لقد خضعت رقابُ كُنْ غلباً
 وهانَ على عزيزِ القومِ ذلّ
 طليطلةُ أباحَ الكفرُ منها
 فليسَ مثالها إيوانُ كسرى
 حصنةُ حصنةُ بعيثِ
 ألم تكِ مقللاً للدينِ صعباً
 وأخرج أهلها منها جميعاً
 سروراً بعدما سُبّيتَ ثغورُ
 ثبيرُ الدينِ فاتصل الثبورُ
 أميرُ الكافرينِ له ظهورُ
 مضى عنا لطيته السرورُ
 يديرُ على الدوائرِ إذ تلورُ
 وزال عتوها ومضى الثغورُ
 وسامح في الحريمِ فتي غيورُ
 حماها . إنّ ذا نبأ كبيرُ
 ولا منها الخورنقُ والسديرُ
 تناولها ومطلبها عنبرُ
 فذله كما شاء القديرُ
 فصاروا حيثُ شاء بهم مصيرُ

وكانت دارَ إيمانٍ وعلمٍ
 فعدت دارَ كفرٍ ومصطفاةً
 مساجدُها كنائسٌ ، أيُّ قلبٍ
 فيا أسفاه يا أسفاه حزناً
 وينشر كل حسن ليس يطوى
 أدبيلت قاصرات الطرف كانت
 وأدركها فتورٌ في انتظار
 وكان بنا وبالقيينات أولى
 لقد سخّنت بحالتهن عيّن
 لئن غبنا عن الإخوان إنّا
 نُدورُ كان للأيام فيهم
 فإن قلنا العقوبة أدركتهم
 فإنّا مثلهم وأشدُّ منهم
 أنامن أن يحلّ بنا انتقام
 وأكلٌ للحرام ولا اضطرار
 ولكن جرأةً في عُقر دار
 يزول السرُّ عن قومٍ إذا ما
 يطولُ عليّ ليلي ، ربّ خطب
 خنوا ثار الليانة وانصروها
 ولا تهنوا وسلّوا كلَّ عَضْبٍ
 وموتوا كلّكم فالوتُ أولى
 أصبراً بعد سبي وامتحان

معالمها التي طمست تُنيرُ
 قد اضطربت بأهلها الأمورُ
 على هذا يقرُّ ولا يطيرُ ؟
 يُكرّرُ ما تكرّرت الدهورُ
 إلى يومٍ يكون به النشورُ
 مصُوناتٍ مساكنها القصورُ
 لسيربٍ في لوحظه فتورُ
 لو انضمت على الكلب القبورُ
 وكيف يصحُّ مغلوبٌ قريرُ
 بأحزانٍ وأشجانٍ حضورُ
 بمهلكهم فقد وفّت النذورُ
 وجاءهم من الله النكيرُ
 نجورُ وكيف يسلم من يجورُ
 وفينا الفسق أجمع والفجورُ
 إليه فيسهل الأمرُ العسيرُ
 كذلك يفعلُ الكلبُ العقورُ
 على العصيان أرحيت الستورُ
 يطولُ هوله الليلُ القصيرُ
 فقد حامت على القتلى النسورُ
 تهابُ مضارباً منه النحورُ
 بكم من أن تُجاروا أو تجوروا
 يلامُ عليهما القلبُ الصبورُ

فَأَمْ الشَّكْلُ مِذْكَارٌ وَلَوْ
نَحُورٌ إِذَا دُهَيْنَا بِالرِّزَايَا
وَنَجِينٌ لَيْسَ نَزَارٌ ، لَوْ شَجَعْنَا
لَقَدْ سَاءَتْ بِنَا الْأَنْجَارُ حَتَّى
أَتْنَا الْكُتُبُ فِيهَا كُلُّ شَرِّ
وَقِيلَ تَجَمَّعُوا لِفِرَاقِ شَمْلٍ
قُتِلَ فِي خِطَّةٍ فِيهَا صَعَارٌ
لَقَدْ صَمَّ السَّمِيعُ فَلَمْ يَعُولُ
تَجَاذِبْنَا الْأَعَادِي بِاصْطِنَاعِ
فَبَاقٍ فِي الدِّيَانَةِ تَحْتَ خَزِي
وَأَخْرَجُ مَارِقٌ هَانَتْ عَلَيْهِ
كَفَى حَزَنًا بِأَنَّ النَّاسَ قَالُوا
أَتَرَكَ دُورَنَا وَنَفَرَ عَنْهَا
وَلَا تَمَّ الضِّيَاعُ تَرَوْقٌ حَسَنًا
وِظَلٌّ وَارْفٌ وَخَرِيرٌ مَاءٌ
وَيُؤَكَلُ مِنْ فَوَاكِههَا طَرِيٌّ
يُؤَدِّي مَغْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ
فَهَمْ أَحْمَى لِحُوزَتِنَا وَأُولَى
لَقَدْ ذَهَبَ الْيَقِينُ فَلَا يَقِينُ
فَلَا دِينَ ، وَلَا دُنْيَا وَلَكِنْ
رَضُوا بِالرِّقِّ يَا اللَّهُ مَاذَا
مَضَى الْإِسْلَامَ فَابْتَكِ دَمًا عَلَيْهِ
وَنُحٌّ وَانْتَلَبَ رِفَاقًا فِي فَلَاحِ
وَلَا تَجْنَحْ إِلَى سَلِيمٍ وَحَارِبِ

وَأَمْ الصَّقِيرِ مِقْلَاتٌ تَنْزُورُ
وَلَيْسَ بِمَعْجَبٍ بِقَرِّ يَنْحُورُ
وَلَمْ نَجِينْ لَكَانَ لَنَا زَيْرُ
أَمَاتِ الْمُخْبِرِينَ بِهَا الْخَبِيرُ
وَبَشَّرْنَا بِأَنْحَسْنَا الْبَشِيرُ
طَلِيظَةٌ تَمْلِكُهَا الْكُفُورُ
يَشِيبُ لِكَرْبِهَا الطُّفْلُ الصَّغِيرُ
عَلَى نَيْلٍ كَمَا عَمِيَ الْبَصِيرُ
فَيَنْجَذِبُ الْمُخَوَّلُ وَالْفَقِيرُ
تَشَبُّهُ الشُّوَيْهَةَ وَالْبَعِيرُ
مِصَابُ دِينِهِ فَلَهُ السَّعِيرُ
إِلَى أَيْنِ التَّحَوُّلِ وَالْمَسِيرُ
وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ الْبَحْرِ دُورُ
نَبَاكِرْهَا فَيَعْجِبُنَا الْبِكُورُ
فَلَا قَرٌّ هُنَاكَ وَلَا حَرُورُ
وَيُشْرَبُ مِنْ جَدَاوِلِهَا نَمِيرُ
وَيُؤَخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ
بِنَا وَهَمْ الْمَوَالِي وَالْعَشِيرُ
وَعَرَّ الْقَوْمَ بِاللَّهِ الْغَرُورُ
غُرُورٌ بِالْمَعِيشَةِ مَا غُرُورُ
رَأَاهُ وَمَا أَشَارَ بِهِ مُشِيرُ
فَمَا يَنْفِي الْجُحَى النَّمْعُ الْغَزِيرُ
حِيَارَى لَا تَحْطُّ وَلَا تَسِيرُ
عَسَى أَنْ يُجَبَّرَ الْعَظْمُ الْكَسِيرُ

أنعمى عن مرشدنا جميعاً
 ونقلى واحداً ويفرُّ جمعٌ
 ولو أنا ثبتنا كانَ خيراً
 إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ
 ألا رجلٌ له رأيٌ أصيلٌ
 يكرُّ إذا السيوف تناولتهُ
 ويطعن بالقتال الخطار حتى
 عظيم أن يكون الناسُ طرّاً
 أذكر بالفراع الليث حرصاً
 يادرُ خرقتها قبل اتساع
 يوسع للذي يلقاه صدراً
 تغصت الحياةُ فلا حياةُ
 قليلٌ فيه همٌ مستكنٌ
 ونرجو أن يتبيح الله نصرأ
 وما إن منهم إلا بصيرُ
 كما عن قانصٍ فرّت حميرُ
 ولكن ما لنا كرمٌ وخيرُ
 فليس بتافع عددٌ كثيرُ
 به ممّا نخاذرُ نستجيرُ
 وأين بنا إذا ولّت كرورُ
 يقول الرمح ما هذا الخطيرُ
 بأندلسٍ قتيلاً أو أسيرُ
 على أن يقرع البيض الذكورُ
 لخطبٍ منه تنخسف البلورُ
 فقد ضاقت بما تلقى صدورُ
 وودع جيرة إذ لا مجيرُ
 ويومٌ فيه شرٌّ مستطيرُ
 عليهم ، إنه نعم النصيرُ

[فونية الرندي وشيء من شعره]

ومن مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف
 الرندي رحمه الله تعالى^١ :

١ هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم ابن علي بن شريف يكنى بأبي
 الطيب وأبي البقاء ؛ كان فقيهاً حافظاً متفهماً في الترتيب والنظم ؛ وله مقامات ومختصر في الفرائض
 وكتاب اسمه الوافي (أو الكافي) في نظم القوافي (منه عدة مخطوطات ، إحداها بالرباط رقم ك :
 ١٧٣٠) انظر ترجمته في الذيل والتكملة ٤ : ١٣٧ ومسالك الأبحار ١١ : ٤٨٠ والإحاطة
 (المخطوطة المغربية : ١٧٩ ونسخة الاسكوريال رقم : ١٦٨٣ ومجلة معهد الدراسات الإسلامية
 : ٦ (٢١١) .

للكل شيء إذا ما تمَّ نُقِصَانُ
هي الأمور كما شاهدتها دُولُ
وهذه الدار لا تُبْقِي على أحد
يمزقُ الدهرُ حتماً كلَّ سَابِغَةٍ
ويتنضي كلَّ سيفٍ للفناء ولو
أين الملوكة ذُوو التيجان من يمنٍ
وأين ما شاده شدَّ أدُّ في لآرم
وأين ما حازه قارون من ذهب
أتى على الكلَّ أمرٌ لا مردَّ له
وصبار ما كان من مُلكٍ ومن ملكٍ
دارَ الزمانُ على داراً وقَاتِلِهِ
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
فجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوَعَةٌ
وللحوادثِ سُلُوانٌ يسهلها
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له
أصابها العين في الإسلام فامتحنَتْ
فاسأل بكتنسية ما شأن مَرْمِيَةٍ
وأين قرطبة دارُ العلوم ، فكم
وأين حمصٌ وما تحويه من نَزَه
قواعد كنَّ أركان البلاد فما
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف
على ديار من الإسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كئناس ما
حتى المحارِب تبكي وهي جاملة

فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ
من سره زمنٌ ساءته أزمانُ
ولا يلوم على حال لما شانُ
إذا نَبَتْ مشرفياتٌ وخرُصانُ
كان ابن ذي يزن والغمد غمدانُ
وأين منهم أكاليل وتيجانُ
وأين ما ساسه في القرمس ساسانُ
وأين عادٌ وشدَّ أدُّ وقحطانُ
حتى قضوا فكأنَّ القوم ما كانوا
كما حكى عن خيال الطيف وسنانُ
وأمرٌ كسرى فما آواه ليوانُ
يوماً ولا ملك الدنيا سليمانُ
وللزمانِ مَسَرَّاتٌ وأحزانُ
وما لا حلَّ بالإسلام سُلُوانُ
هوى له أحدٌ وانهدَّ شلانُ
حتى خلت منه أقطارٌ وبلدانُ
وأين شاطبة أم أين جِيَانُ
من عالمٍ قد سَمَا فيها له شانُ
ونهرها العذب قِيَاضٌ وملآنُ
عسى البقاء إذا لم تَبْقَ أركانُ
كما بكى لفراق الإلفِ هَيْمَانُ
قد أقرت ولها بالكفر عُمُرَانُ
فيهن إلا نواقيس وصلبانُ
حتى المناير ترثي وهي عيدانُ

يا غافلاً وله في الدهر موعظة
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
يا راكبين عناق الخيل ضامرة
وحاملين سيوف الهند مرهقة
وراعين وراء البحر في دعة
أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
ألا نفوس أبيات لها همم
يا من لذلة قوم بعد عزهم
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
ولو رأيت بيكاهم عند بيعهم
يا رب أم وطفل حيل بينهما
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
يقودها العليج للمكروه مكرهة
لمثل هذا يلوب القلب من كد
إن كنت في سنة فالدهر يقظان
أبعد حمص تغر المرء أوطان
وما لها مع طول الدهر نسيان
كأنها في مجال السبق عقبان
كأنها في ظلام النقع نيران
لهم بأوطانهم عز وسلطان
فقد سرى بحديث القوم ركبان
قتلى وأسرى فما يهتز لإنسان
وأنتم يا عباد الله إخوان
أما على الخير أنصار وأعوان
أحال حالهم كفر وطغيان
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
عليهم من ثياب اللذات ألوان
لهالك الأمر واستهوتك أحزان
كما تفرق أرواح وأبدان
كأنما هي ياقوت ومرجان
والعين باكية والقلب حيران
إن كان في القلب إسلام وإيمان

انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة
وبسطة وغيرها مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف ، وما اعتمده
منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه ، ومن له أدنى ذوق علم أن ما
يزيلون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ، وغالب ظني أن تلك الزيادة
لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك

بالمشرق والمغرب ، فكأن بعضهم لما أعجبتهم قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك في « أزهار الرياض »^١ فليراجع .

وصالح بن شريف الرندي صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس ، ومن بديع نظمه قوله^٢ :

سَلِّمْ عَلَى الْحَيِّ بِذَاتِ الْعَرَارِ	وَحَيٍّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الدِّيَارِ
وَحَلٍّ مَنْ لَمْ عَلَى حَبِّهِمْ	فَمَا عَلَى الْعُشَّاقِ فِي الذَّلِّ عَارِ
وَلَا تَقْصِرْ فِي اغْتِنَامِ الْمُنَى	فَمَا لِيَالِي الْأَنْسِ إِلَّا قِصَارِ
وَإِنَّمَا الْعَيْشُ لَمَنْ رَامَهُ	نَفْسٌ تَدَارَى وَكُؤُوسٌ تَدَارِ
وَرَوْحُهُ الرَّاحُ وَرِيحَانُهُ	فِي طَيْبِهِ بِالْوَصْلِ أَوْ بِالْعُقَارِ
لَا صَبْرَ لِلشَّيْءِ عَلَى ضِدِّهِ	وَالْحَمْرُ وَالْهَمُّ كَمَا وَنَارِ
مُدَامَةَ مُدْنِيَةِ الْمُنَى	فِي رَقَّةِ الدَّمْعِ وَلَوْنِ النَّضَارِ
مِمَّا أَبُو رَيْقٍ أَبَارِقُهَا	تَنَافَسَتْ فِيهَا النُّفُوسُ الْكِبَارِ
مُعَلِّيَّ وَالْبِرَّ مِنْ عَلِيٍّ	مَا أَطِيبَ الْخَمْرَةَ لَوْلَا الْخُمَارِ
مَا أَحْسَنَ النَّارَ الَّتِي شَكَّلَهَا	كَالْمَاءِ لَوْ كَفَّ شَرَارَ الشَّرَارِ
وَبِي وَإِنْ عُدَّتْ فِي حَبِّهِ	يَبْعُدُهُ عَلَى اقْتِرَابِ الْمَزَارِ
ظِيٌّ غَرِيرٌ نَامَ عَنْ لَوْعَتِي	وَلَا أَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَارِ
ذُو وَجْتَةٍ كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ	قَدْ بُهِرَ الْوَرْدُ بِهَا وَالْبَهَارِ
رَجَعْتُ لِلصَّبُوةِ فِي حَبِّهِ	وِطَاعَةَ اللَّهْوِ وَخَلْعَ الْعِيدَارِ
يَا قَوْمُ قُولُوا بِدِمَامِ الْهَوَى	أَهْكَذَا يَفْعَلُ حُبُّ الصِّغَارِ
وَلَيْلَةٌ نَبَّهْتُ أَجْفَانَهَا	وَالْفَجْرُ قَدْ فَجَّرَ نَهْرَ النَّهَارِ
وَاللَّيْلُ كَالْمَهْزُومِ يَوْمَ الْوَعَى	وَالشُّهْبُ مِثْلُ الشُّهْبِ عِنْدَ الْفَرَارِ

١ أزهار الرياض ١ : ٤٧ .

٢ بعضها في الإحاطة : ١٨٦ .

كأتما استخفي السها خيفةً وطولبَ النجمُ بشارَ فثار
لذاك ما شابت نواصي الدجى وطارَحَ النسرُ أخاهُ فطار
وفي الشريفا قمرٌ سافرٌ عن غرةٍ غيرَ منها السفار
كأنّ عنقوداً تثنى بهُ إذ صار كالعرجون عند السّرار
كأنّها تسبِكُ دينارَه وكفّها يفتلُ منهُ السوار
كأتما الظلماء مظلومة تحكّمَ الفجرُ عليها فجار
كأتما الصبحُ لمشتاقِه عزُّ غنّي من بعد ذلِّ افتقار
كأتما الشمسُ وقدْ أشرقتُ وجهُ أبي عبد الإله استتار
محمدٌ محمدٌ كاسمه له في كلِّ معنى يشار
أما المعالي فهو قطبٌ لها والقطبُ لا شكّ عليه المدار
مؤنثُ المجدِ صريحُ العلا مهذبُ الطبعِ كريمُ التجار
تزهى بهِ لحمٌ وساداتها وتنمي قيسٌ له في الفخار
يفيضُ من جودِ يديه على عافيه ما منهُ تحارُ البحار
اليمنُ من يُمناه حُكم جري واليسرُ من شيمته تلكَ اليسار
أخٌ صفا منهُ لنا واحدٌ فالدهرُ مما قد جنى في اعتذار
فإن شكرنا فضلهُ مرّةً فقد سكرنا من نداءهُ مرار
ونحن منهُ في جوار العلا تدورُ للسعدِ بنا منهُ دار
الحافظُ الله وأسماؤه لذلكَ الجارِ وذلكَ الجوار

[رسالة ابن عميرة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية]

رجع - وقد رأيت أن أثبت هنا رسالةً خاطب بها الكاتب البارع القاضي
أبو المطرف ابن عميرة المخزومي الشيخ الحافظ أبا عبد الله ابن الأبار ، يذكر له

١ الإحاطة : بها مائل .

أخذ العدو مدينة بكتسية وهي^١ :

ألا فَيْئَةً للدمر تَدْنُو بِيَمَنِ نَأَى وَبُقْيَا يرى منها خلاف الذي رأى
ويا مَنْ عذيري منه ، يَغْذُر مَنْ أوى إليه ولا يدري سوى خُلْفٍ من وأى^٢
ذخائر ما في البر والبحر صيدهُ فلا لؤلؤاً أبقي عليه ولا وأى

أيها الأخ النبي دُشِشَ ناظري لكتابه ، بعد أن أدهش خاطري من إغبابه ،
وسرني من بشره إيماض ، بعد أن ساءني من جهته إعراض . جرت على ذكره
الصلة ققوم قِدْحَ نَبَعْتِهَا ، وروى أكناف تلعتها ، وأحدث ذكراً من عهدنا
الماضي فَنَقَطَ وجه عروسه ، وشعشع خمر كؤوسه ، وسقى بماء الشيبية ثراه ،
وأبرز مثل مرآة الغريبة مرآه ، فبورك فيه أحوذياً وصلَ رحمته ، وكسا منظره
من البهجة ما كان حَرَمَهُ ، وحيّاً الله تعالى منه ولياً على سالف عهدي تهادى ،
وبشعار ودي نادى ، وبينَ الإحسانَ شيمته ، وأبان والبيانُ لا تنجابُ عنه
ديمته ، ولا تغلو بغير قلمه قيمته ، واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها ، ودعوة
ذكر وجوم النادي لها ، ثم أرسلها تَرَجُفُ بوادرها من خيفة ، وتوغر بوغم^٣
صدر قلم وصحيفة ، وتندر من ربحانة قريش أن تمنعه عرفها . وتحديق إليه
طرفها ، واتقى غارة على غيرة ، من الناجي برأس طِمِيرَةٍ ، ولم يأمن هجران
المهاجر بعد وصله ، وعكر عكرمة المغطي بحلمه على أبي جهله . وعند ذكر
كتيبة خالد أجم ، وذكر يوم أحاطت به فارس فاستلحم ، فاعتذر عما قال ،
وأضمر الحذر إلا أن يقال ، فمهلاً أيها الموفى على علمه ، النافث بسحر
قلمه ، أتظن مترلتك في البلاغة ومهيعتها لاحب ، ومترعها بالعقول لاحب ،
تسفل وقد ترفعت ، أو تخفي وإن تلفعت ، عرفناك يا سودة ، وشهرت حلة

١ ورد بعض هذه الرسالة في الروض المطار : ٤٨ .

٢ وأى : وعد . ٣ في الأصول : رغم ؛ والرغم : الحقد والتره .

عطارِدِ الملاحَةِ والجودة ، فلم حين تهب الأُخ الأُوحد من قُصَيّ غطاريفِها ، ولو استثار من حفاظِها تالدها وطريفِها ، لم يذكر يد قومه عند أبيها ، وقد رام خِطّةَ أشرف على تآبِيتها ، حين أهاب بكم لهُمّةً ، ودعا منكم أخاه لأُمَّه ، ولولا ذلك لما خلا له وَجْهُ الكعبةِ ، ولا خلص من تلك المضايق الصعبة ، وبأن أعرتموه نجدتكم الموصوفة ، غلب على ما كان بأيدي صُوفَةٍ ، فكيف نجد اليد عند عمنا ، أو نشخذ أسنّة الألسنة لدمنا ، أو كيف نلقاكم بجدنا ، وأبوكم أبو بكر مَعَدُنَا ، وما تَيَامُنُكُمْ إلى سبأ بن يشجب^١ ، وإن أطلنا فيه التعجب ، بالذي يقطع أرحامنا ، ويمنع اشتباكنا والتحامنا ، بعد أن شدنا فعالنا بفعالكم ، ورأينا أقدامنا في نِعالكم ، ولو شتمتُم توعدتُم بأسود سؤددكم عند الإقدام ، وإلحاق إلحافكم في ضَرْبِ الهام ، لكن نقول إن قومنا لكِرَام ، ولو شاءوا كان لنا منهم شِيرةٌ وعُرَام .

وأعود من حيثُ بدأ الأُخ الذي أبته شوقي ، وأتطمع حلاوة عشرته باقية في حاسة ذوقي ، طارِحَتِي^٢ حديث مَوْرِدِ جَفّ ، وقطين خَفّ ، فيا لله لأترباب دَرَجُوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وإتما هو القتل أو الأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدي سبأ ، وانتشروا ملء الوهاد والرُّبى ، ففي كل جانب عَوِيلٌ وزَقْرَةٌ ، وبكل صدر غليل وحَسْرَةٌ ، ولكل عين عبْرَةٌ ، لا ترقأ من أجلها عبْرَةٌ ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتى سَجَى على موتاها ، وشَجَا ليومها الأطول كهلها وفتاها ، وأنذر بها في القوم بجران أنيجة^٣ ، يوم أثاروا أسدها المهيجّة ، فكانت تلك الحطمة طَلّ الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب ، أنكلتنا إخواناً أبكانا نعيئهم ، والله أحوذبيهم

١ بعد أن ألمح إلى مآثر مخزوم وذكر بعض رجالها ، عاد يتحدث عن قضاة ومواقفها ، ثم تحولها بنسبها إلى يمن .

٢ من هنا في الروض المطار .

٣ يريد أن البحرين (أي المرض) الذي أصاب أنيجة كان إنذاراً بما بعده من سقوط بلنسية .

وَالْمَعِيَهُمْ^١ ، ذاك أبو ربيعنا^١ ، وشيخ جميعنا ، سعد بشهادة يومه ، ولم يرَ ما يسوءه في أهله وقومه ، وبعد ذلك أخذ من الأم بالمخنق ، وهي بِلَنَسِيَّة ذات الحسن والبهجة والرونق ، وما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان ، وأخرج من جسدها روح الإيمان ، فَبَرِحَ الخفاء ، وقيل : « على آثار مَنْ ذهب العفاء » ، وانعطفت النواذب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء ، فأودت الخفة والحصافة ، وذهب الجِسْرُ والرُّصافة ، ومزقت الحلة والشملة ، وأوحشت الجرف والرملة ، ونزلت بالحارة وقعة الحرّة^٢ ، وحصلت الكنيسة^٣ من جآذرها وظبايتها على طول الحسرة ، فأين تلك الحمائل ونضرتها ، والجداول وخضرتها ، والأندية وأرجها ، والأودية ومُنْعَرَجُها ، والنواصم وهبوب مُبْتَلِّها ، والأصائل وشحوب معتلِّها ، دار ضاحكت الشمس بُحْرها وبُحَيْرتها ، وأزهار ترى من أدمع الطَّلِّ في أعينها تردُّدُها وحيَرتها ، ثم زحفت كتيبة الكفر بزُرْقها وشقْرِها ، حتى أحاطت بجزيرة شقْرها ، فأها لمسقط الرأس هوى نجمه ، ولفادح الخطب سرى كلمه ، ويا لجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها ، وروضة أجاد أبو إسحاق^٣ نعتها ، وإنما كانت داره التي فيها دبّ ، وعلى أوصاف محاسنها أكب ، وفيها أته منيته كما شاء وأحب ، ولم تعدم بعده محيين قشبيهم إليها ساقوه ، ودعمهم عليها أراقوه ، وقد أثبت من النظم ما يليق بهذا الموضوع ، وإن لم يكن له ذلك الموقع :

أَقْلُوا ملامِي أو فقولوا وأكثروا مَلُومُكُمْ عَمَّا به ليس يُقْصِرُ
 وهل غَيْرُ صَبٍّ ما تَتِي عيراته إذا صعِدت أنفاسه تُتَحَدِرُ
 يحنُّ وما يجلي عليه حنينه إلى أربُعٍ معروفها متنكرُ

١ هو أبو الربيع ابن سالم شيخ ابن الأبار الذي استشهد في أنيعة مقبلا غير مدبر وهو يخص الناس على القتال ، وقد طعن في السن .

٢ يعدد أبو المطرف هنا المعالم البارزة في بلنسية .

٣ يعني ابن خفاجة وهو بلدي أبي المطرف فهما من جزيرة شقر .

ويندبُ عهداً بالمشقرِ فاللوى
تغيرَ ذاكَ العهدُ بعدي وأهله
وأقفرَ رَسْمُ الدَّارِ إِلَّا بَقِيَّةَ
فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا زَفْرَةٌ لِثَرِّ زَفْرَةٍ
وإلا اشتياقٌ لا يزالُ يَهْزُنِي
أقولُ لساري البرقِ في جنحِ ليلةٍ
تعرِّضُ مجتازاً فكانَ مذكراً
أتأوي لقلبٍ مثل قلبك خافقٍ
وتحملُ أنفاساً كَوْمَضِكِ نارها
يقرّ بعيني أن أعاين من نأى
وأن يراءك الخليطُ الذين همُ
كفى حزنًا أنا كأهلٍ مُحَصَّبٍ
وأنّ كليتنا من مَشُوقٍ وشائقٍ
ألا ليتَ شعري والأمانِي ضلّةُ
هل النهرُ عقدٌ للجزيرةِ مثلما
وهل للصبا ذيلٌ عليه تجرّهُ
وتلك المغاني هل عليها طلاوةُ
ملاعبُ أفراسِ الصبابةِ والصبا
وقليّ ذاكَ النهرِ كانت معاهدُ
بحيث بياضُ الصبحِ أزرار جيبه
ليالٍ بماء الوردِ ينضحُ ثوبها
ويالجبلُ الأدنى هناكَ خُطِي لَنَا
جَنابُ بأعلاهُ بهارٍ ونرجسٍ
وموردنا في قلبٍ قلتِ كَمَقَلَةٍ

وأين اللوى منهُ وأين المشقرُ
ومن ذا على الأيامِ لا يتغيرُ
لسائلها عن مثلِ حاليّ تُخبرُ
ضلوعي لها تنقذُ أو تنفطرُ
فلا غايةُ تدنو ولا هو يقرُّ
كلانا بها قد بات يبكي ويسهرُ
بعهد اللوى والشئِ بالشئِ يُذكرُ
ودمع سفوحٍ مثل قطركِ يقطرُ
إذا رُفعت تبدو لمن يتنورُ
لما أبصرته منك عيناى تبصرُ
بقلبي وإن غابوا عن العينِ حُضِرُ
بكلِّ طريقٍ قد نفرنا ونفترُ
بنارِ اغترابٍ في حشاهُ تسعرُ
وقولي ألا يا ليتَ شعري تحيرُ
عهدنا وهل حصاؤه وهي جوهرُ
فيزورُ عنه موجهُ المتكسرُ
بما راقَ منها أو بما رقَّ تسحرُ
تروحُ إليها تارةً وتبكرُ
بها العيشُ مطلولُ الخميعةِ أخضرُ
تطيبُ وأردانُ النسيمِ تُعطرُ
وطيب هواءٍ فيه مسكٌ وعنبرُ
إلى اللهى لا تكبو ولا تتعثرُ
فأبيضُ مفرُّ الثنايا وأصفرُ
حذاراً علينا من قدى العينِ تسرُ

وكم قد هبطنا القاع نذعر وحشته
 نقودُ إليه طائعا كلَّ جارح
 إذا ما رميناهُ به عيشت به
 تضمُّ لأروى النيقِ حزانَ سهلها
 وقد فُقدت فيها مهاةً وجؤذرُ
 وأندر باليينِ المشتتِ منلرُ
 وفرقهم أيدي سبًا وأصابعهم
 على غيرةٍ منهم قضاءً مقدرُ
 ويا حسنه مستقبلا حينَ يذعرُ
 له منخرٌ رجبٌ وخصرٌ مضمرُ
 مؤلثةُ الأطراف عنهن تكشرُ

ونعود إلى حيثُ كنا من تبدد شمل الجيرة ، وطَيَّ بساط الجزيرة : أما شاطبة فكانت من قصبته شوساء الطرف ، وببطحاتها عروساً في نهاية الظرف ، فتخلتني عن النروة منْ أخلاها ، وقيل للكافر : شأنك وأعلاها ، فقيل أن تضع الحرب أوزارها ، كَشَطَ عنها إزارها ، فاستحلَّ الحرمة أو تأولها ، وما انتظر أقصر المدة ولا أطولها ، وأما تُدمير فجاد عودها على المَصْر ، وأمكنك عدوها من القَصْر ، فداجى الكفر الإيمان ، وناجى الناقوس الأذان ، وما وراءها من الأصقاع التي باض الكفرُ فيها وفرَّخ ، وأنزل بها ما أنسى التاريخ ومنْ أرَّخ ، فوصفكم على الحادثة فيها أتى ، وفي ضمان القدرة الانتصاف من عدوِّ عشا وعتا ، وإننا لرجوها كرة تفك البلاد من أسرها ، وتجيرها بعد كَسْرها ، وإن كانت الدولة العامرية منعت بالقراع ذِمَّارها ، ورفعت على اليقاع نارها ، فهذه العمرية بتلك المتقبة أخلق ، والعدوُّ لها أهيب ومنها أفرق ، وما يستوي نسب مع البقل نبت ، وبالمستفيض من النقل ما نبت ، وآخر علت سماؤه على اللمس ، ورسا ركنه في الإسلام رُسُو قواعده الخمس ، وكان كما قال أبو حنيفة في خبر المسح : جاءنا مثل الشمس ، والأيام العمرية هي أم الوقائع المحكية ، ومن شاء عدوها من اليرموكية إلى الأركية ، وهذه الأيام الزاهرة هي زبلدة حلاوتها ، وسجلده تلاوتها ، وإمامتها العظمى أيدها الله تعالى ، تُسهِّلُ الكافر مدَّة إملائه ، ثم تشفي الإسلام من دائه ، وتطهر الأرض بنجس دمائه ، بفضل الله تعالى ، المرجو

زيادة نعمه قبلها وآلائه .

راجعت سيدي مؤدياً ما يجب أداؤه ، ومقتدياً وما كلُّ أحدٍ يحسُنُ اقتداؤه ، وإنما ناضلتُ تُعَلِيّاً^١ ، وعهدي بالنضال قديم ، وناظرتُ جدلياً ، وما عندي للمقال تقديم ، وأطعتهُ في الجواب ولقريحتي يعلم الله تعالى نُكُول ، ورويتي لولا حق المسألة بطير الحوادث المرسله عَصْفٌ مأكول ، أتم الله تعالى عليه آلاءه ، وحفظ مودته وولاءه ، ومتع بحلته الكريمة أخلاءه ، بمنه ، والسلام ؛ انتهت الرسالة .

ورأيت في رحلة ابن رشيد لما ذكر أبا المطرف ما صورته : وأما الكتابة فقد كان حامل لوائها ، كما قال بعض أصحابنا : ألان الله تعالى له الكلام ، كما ألان الحديد للداود عليه السلام ، وأخبرني شيخنا أبو بكر أن شيخه أبا المطرف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فأعطاه حزمة أقلام ، وقال : استعن بهذه على كتابتك ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ انتهى .

[رسالة ابن الأبار التي أجاب أبو المطرف عنها]

وبعد كتبي لهذه الرسالة رأيت أن أذكر رسالة الحافظ ابن الأبار التي هذه جوابٌ عنها ، وهي من غرض ما نحن فيه فلنقتبس نور البلاغة منها ، وهي :

سيدي وإن وَجَمَ لها النادي ، وجمجم بها النادي ، ذلك لصغرها عن كبره في المعارف الأعلام ، وصلرها يوغر صدور الصحائف والأقلام ، وأعيد رِيحانة قريش ، أن تروح من حفيظتها في جيش ، قد هابتها مغاوير كل حي ، وأجابتها الغطاريف من قُصَيِّ ، تدلف بين يديها كتيبة خالد ، وتحلف لا قلدحت نار الهيجاء بزئد صالده ، أو تنصف من غامطها ، وتقذف به وسط غُطامطها^٢ ،

١ أي من بني ثعل وهم مضرب المثل في رمي سهام .

٢ الغطاط : الموج المرتفع .

لا جرم أتيت من جريمتي حذر ، وعمّا وضحت به قيمتي للمجد معتذر . إلا أن يصوح من الروض نبتة وجنّاته ، ويصرح بالقبول حلمه وأناته ، الحديث عن القديم شجون ، والشأن بتقاضي الغريم شؤون ، فلا غرو أن أطارحه إياه ، وأفاتحه الأمل في لُقياه ، ومن لي بمقالة مستقلة ، أو إخالة غير مُحَاة ، أبت البلاغة إلا عمادها ، وعلى ذلك فاستنبيء عمادها : درجت اللدات والأتراب ، وخرجت الرومُ بنا إلى حيث الأعراب ، أيام دفعنا لأعظم الأخطار ، وفجعنا بالأوطان والأوطار ، فإلامَ نداري برَحّ الألم ، وحتّامَ نساري النجم في الظلم ، جمع أوصاب ما له من انفضاض ، ومضض اغتراب شد عن ابن مُضاض^١ ، فلو سمع الأول بهذا الحادث ، ما ضرب المثل بالحارث ، يا لله من جلاء ليس به يدان ، وثناء قلّما يُسفر عن تدان ، وعد الجدد العائر لقاءه فأجز ، ورام الجدل الصابر انقضاه فأعجز ، هؤلاء الاخوان ، مكنتهم لا يتمتع به أوان ، وبينهم كتبت الأرض ألوان ، بين هائم بالسرى ، ونائم في الثرى ، من كل صنيدي بطل ، أو منطيق غير ذي خطل ولا خطل . قامت عليه النوادب . لما قعدت النوائب ، وهجمت بيوتها لمنعاه الجماجم والنوائب ، وأمّا الأوطان المحببُ عهدا بحكم الشباب ، المشببُ فيها بمحاسن الأحباب ، فقد ودّعنا معاهدا وداع الأبد ، وأخني عليها الذي أخني على لبّد ، أسلمها الإسلام ، وانتظمها الانتثار والاصطلام ، حين وقعت أنسرُها الطائرة ، وطلعت أنحسُها الغائرة ، فغلب على الجدل الحزن ، وذهب مع المسكن السكّن :

كزعزع الريح صكّ اللوح عاصفها فلم يدع من جنّي فيها ولا غصن
واهاً وآهاً يموتُ الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبن
أين بلسنسية ومغانياها ، وأغاريد ورقيها وأغانياها ، أين حلّي رصافتها

١ يريد الحارث بن مضاض الجرهمي وله في تفرق جرهم قصيدة باكية ؛ ولكن أين تفرق قومه بما حل بيلنسية ؟

وجسرها . ومنزلا عطاها ونصرها ؟ أين أفاؤها تندى غصارة ، وذكاؤها تيلو من خضارة ؟ أين جداولها الطفاحة وخمائلها ؟ أين جنايبها النفاحة وشمائلها ؟ شدة ما عطل من قلائد أزهارها نحرها ، وخلعت شعشعانية ضحاها بحيرتها وبحرُها ، فأية حلية لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى بانة إلا روتق الحق وبشاشة الإيمان ، ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دبَّ إلى جزيرة شقرها ، فأمرَ عذبها التمر ، وذوى غصنها النضير ، وخرسَت جمائم أدواحها ، وركلت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت من الأيام دانية ، فنزحت قطوفها وهي دانية ، ويا لشاطبة وبطحائها ، من حيف الأيام وإنعائها ، والتهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها ، وجيان وقلاعها ، وقرطبة ونواديها ، وحمص وواديها ، كلتها رعي كلؤها ، ودهي بالتفريق والتمزيق مكلؤها ، عض الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها ، وتلك إليرة بصدد البوار ، وريّة في مثل حلقة السوار ، ولا مريّة في المريّة وخفضها على الجوار ، إلى بنيات ، لواحق بالأمهات ، ونواطق بهاك لأول هاتف بهات .

ما هذا التفخ بالمعمور ؟ أهو التفخ في الصور ؟ أم التقر عارياً من الحج المبرور ؟ وما لاندلس أصيبت بأشرافها ، ونقصت من أطرافها ؟ قوض عن صوامعها الأذان ، وصمت بالنواقيس فيها الآذان ، أجتت ما لم تجن الأصقاع ؟ أعقت الحق فحاق بها الإيقاع ؟ كلا بل دانت للسنة ، وكانت من البدع في أحسن جنة : هذه المروانية مع اشتداد أركانها ، وامتداد سلطانها ، أقت حُب آل النبوة في حبات القلوب ، وألوت ما ظفرت من خلعه ولا قلعه بمطلوب ، إلى المرابطة بأقاصي الثغور ، والمحافظة على معالي الأمور ، والركون إلى الهضبة المنيع ، والروضة المريّة ، من معاداة الشيعة ، وموالة الشريعة ، فليت شعري بم استوثق تمحيصها ؟ ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها ؟ اللهم غفراً ظلماً ضرّاً ضجر ، ومن الأبناء ما فيه مُزدجر ، جرى بما لم نُقدّره المقلور ، فما عسى أن ينفت به المصلور ؟ وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا

التفويض له والتسليم ، ويا عجباً لبني الأصفر أنسيت مَرَجَ الصَّفَرِ ، ورميها يوم اليرموك بكل أغلب غَضَنْفَرٍ ؟ دع ذا فالعهد به بعيد ، ومن اتعظ بغيره فهو سعيد ، هلاًّ تذكرتِ العامرية وغزواتها ، وهابتِ العمرية وهبواتها ، أما الجزيرة بجيها محذقة ، وبأحاديث فتحها مصدقة ، هذا الوقت المرتقب ، والزمان الذي زجيت له الشهور والحقب ، وهذه الإمامة أيدها الله تعالى هي المتقلبة من أسرها ، والمنفذة لسلطانها مراسمَ نصرها ، فيتاح الأخذ بالنار ، ويُزاح عن الجنة أهل النار ، ويعلم الكافر لمن عَقَبِي الدار .

حاورتُ سيدي بشار الفاجي الفاجع ، وحاولت براء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع ، وبودّي لو تقع في الأرجاء مُصاقبة ، فترفع من الأرزاء معاقبة ، أليس لديه أسوأُ المكلم ، وتدارك المظلوم ؟ ويديه أزمّةُ المنتور والمنظوم : خيال يَحْتَرُ (؟) في إقناع إِيَاد ، وصوصغ ما لم يخطر على قلب زيد ولا بخاطر زياد ، بُسَّتِ الجبال الطوامح فما بستُ وأبو فتحها^١ ، وغبضت البحار الطوافح فمن يعبأ بالركايا وَمَتَّحَهَا ، أين أبو الفضل ابن العميد من العماد الفاضل ، وصنمُ صامة عمرو من قلمه الفاضل ؟ هذا مِدْرَهْمُها الذي فعل الأفاعيل ، وأحمدها^٢ الذي سما على إبراهيم وإسماعيل^٣ ، وهما إماما الصناعة ، وهما البراعة والبراعة ، بهما فَخَرٌ من نطق بالصاد ، وبسببهما حسدت الحروف الصاد ، لكن دفعهم بالراح ، وأعرى مُدْرَعَهُم من المراح ، وشرف دونهم ضعيف القصب على صُمِّ الرماح ، أبقاه الله تعالى وبيانه صادق الأنواء ، وزمانه كاذب الأسواء ، ولا زال مكانه مجاوزاً ذُوَابَةَ الجوزاء ، وإحسانه مكافئاً بأحسن الجزاء ؛ والسلام .

١ يشير إلى أبي الفتح البستي ؛ وفي الأصول : « لا » .

٢ أحمدها : هو أحمد بن عميرة المخزومي ، يريد أنه تفوق في النثر على أولئك الأعلام .

٣ إبراهيم هو الصابي أبو إسحاق ، وإسماعيل هو الصاحب بن عباد .

[فصول من درر السمط لابن الأبار]

وقد عرفت بابن الأبار في « أزهار الرياض » بما لا مزيد عليه ، غير أنني رأيت هنا أن أذكر فصولاً مجموعة من كلامه في كتابه المسمى بـ « درر السمط في خبير السبط » .

قال رحمه الله تعالى^١ : رَحْمَةُ اللهِ وبركاته عليكم أهل البيت ، فروع النبوة والرسالة ، وبتناييح السماحة والبسالة ، صفوة آل أبي طالب ، وسرارة^٢ بني لؤي بن غالب الذين حياهم^٣ الروح الأمين ، وحلائهم الكتاب المبين ، قتل في قوم شرعوا الدين القيسم ، ومنعوا اليتيم أن يقهر والأيم ، ما قد من أديم آدم أطيب من أبيهم طينة ، ولا أخذت الأرض أجمل من مساعيهم زينة ، لولاهم ما عبد الرحمن ، ولا عهد الإيمان ، وعقد الأمان ، ذؤابة غير أشابة ، فضلهم ما شأنه نقص ولا شابه ، سرارة محلثهم سر المطلوب ، وقرارة محبتهم حبات القلوب ، أذهب الله عنهم الرجس ، وشرّف بخلقهم الجنس ، فإن تميزوا فبشريعتهم البيضاء ، أو تميزوا فلعشيرتهم الحمراء ، من كل يعسوب الكتيبة ، منسوب لنجيب ونجيبية ، نجارهُ الكرم ، وداره الحرم ، نمتته العرّانين من هاشم إلى النسب الأصرح الأوضح^٤ ، إلى نبعة قرعها في السماء ومغرسها سرّة الأبطح ، أولئك السادة أحيي وأفدي ، والشهادة بجهنم أوفي وأؤدي ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه .

فصل^٥ - ما كانت خديجة لتأتي بخديج^٦ ، ولا الزهراء لتلد إلاّ أزاهر

١ درر السمط : الورقة الأولى .

٢ الدرر : وسرارة .

٣ الدرر : حياهم .

٤ الأوضح : سقطت من الدرر .

٥ الدرر : ١٥ .

٦ الخديج : الناقص .

كالسراج ، مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً ، ولا تضع إلا طيباً ، خلدت بنتُ
 خُوَيْلِدٍ ليزكو عقبها من الحاشر: العاقب^١ ، ويسمُو مَرَقِبِها على النجم الثاقب .
 لم تَحِدْ بمثلها المهاري ، ولم يلد له غيرها من المهاري ، آمت من بعولتها قبله .
 لتصل السعادة بجبلها حبله ، ملاك العمل خواتمه ، رَبَّ رَبَّاتِ حِجَالِ . أنفذ
 من فحول رجال :

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ^٢

هذه خديجة من أخيها حزام أحزم ، ولشعار الصدق من شعارات القص
 ألزم ، ركنت إلى الركن الشديد ، وسُدَّتْ للهدى كما هديت للتسديد . يوم
 نبيء خاتم الأنبياء ، وأنبيء بالنور المنزل عليه والضيء .

فصل^٣ — وكان قبيل المبعث ، وبين يدي لمَّ الشعث ، يثابر على كل حسنى
 وحسنة ، ويجاور شهراً من كل سنة ، يتحرى حِراءَ بالتعهد . ويزجي تلك
 المدة في التعب ، وذلك الشهر المقصور على التبر ، المقدور فيه رفع الضرر ،
 شهر رمضان ، المنزل^٤ فيه القرآن ، فيبناه ، لا ينام قلبه وإن نامت عيناه ، جاءه
 الملك مبشراً بالنُّجْحِ ، وقد كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفَلَقَ الصبح . فغمره
 بالكلاءة ، وأمره بالقراءة ، وكلما تحبَّس له غَطَّه ثم أرسله ، وإذا أراد الله
 بعبد خيراً عسله :

تريدين إدراك المعالي رخيصةً ولا بُدَّ دون الشَّهْدِ من إبر النحلِ
 كذلك حتى عاذ بالأرق من الفرق ، وقد عَلِقَ فاتحة العلق . فلا يجري

١ الحاشر العاقب من أسماء الرسول (ص) .

٢ من قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة .

٣ الدرر : ١٨ .

٤ الدرر : الذي أنزل .

غيرها على لسانه ، وكأنما كتبت كتاباً في جَنَانِهِ .

فصل ١ - ولَمَّا أَصْبَحَ يَوْمُ الْأَهْلِ ، وتوسط الجبل يريد السهل ، وقد قضى الأجل ، وما نضا الوجل ، نوجي بما في الكتاب المسطور ، ونودي كما نودي موسى من جانب الطُّور ، فعرض له في طريقه ، ما شغله عن فَرِيْقِهِ ، فرفع رأسه متأملاً ، فأبصر الملك في صورة رجل متمثلاً ، يُشْرِفُهُ بالنداء ، ويعرفه بالاجتباء ، وإنما عضد خبير الليلة بعيان اليوم ، وأري في اليقظة مصداق ما أسمع في النوم ، ليحق الله الحق بكلماته ، وعلى ما ورد في الأثر ، وسرد رُوَاة السِّير ، فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن وغير بدع ولا بعيد ، أن يبدأ الوحي بعيد كما ختم بعيد ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة : ٣) فيهِت عليه السلام لما سمعه وراءه ، وثبت لا يتقدم أمامه ولا يرجع وراءه :

وَقَفَ الْهَوَىٰ بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي مُتَقَدِّمٌ عَنْهُ وَلَا مُتَأَخِّرٌ ٢

ثم جعل في الخوف والرجاء ٣ ، لا يقلب وجهه في السماء ، إلا تعرض له في تلك الصورة ، وعرض عليه ما أعطاه الله سبحانه من السورة ، فيقف موقف التوكل ، ويمسك حتى عن التأمل ٤ :

تتوق إليك النفس ثم أردّها حياء ، ومثلي بالحياء حقيق
أذود سوام الطرف عنك ، وما له إلى أحد إلا إليك طريق

فصل ٦ - وَفَطِنَتْ خَلِيْجَةَ لِاحْتِيَاْسِهِ ، فأمعنت في التماسه ، تزوجوا الودود

١ الدرر : ٢٠ .

٢ البيت مغير القافية وصوابه « متأخر عنه ولا متقدم » وهو لأبي الشيمس الخزاعي . (الأغاني ١٥ :

٣٣٦ والشمر والشعراء : ٧٢٢) .

٣ الدرر : بين الرجاء والخوف .

٤ الشعر للمجنون (ديوانه : ٢٠٧) .

٥ الديوان : أرد سواء .

٦ الدرر : ٢٤ .

الولود ، ولفورها بل لفوزها بعثت في طلبه رُسُلَهَا ، وانبعثت تأخذ عليه شعاب
مكَّة وسُبُلَهَا :

إنَّ المحبَّ إذا لم يُسْتَزَرَ زارا

طال عليها الأمد ، فطار إليها الكمد ، والمحِب حَقِيقَة ، من لا يَفِيقُ فِيقَة ،
بالنفس النفيسة سماحه وجوده ، وفي وجود المحبوب الأشرف وجوده^١ :

كَأَنَّ بِلادَ اللَّهِ ما لم تكن بها وإن كان فيها الخلق طَرّاً بلاع
أَقْضَى نهارِي بالحديث وبالْمَتَى ويجمعي والهمَّ بالليلِ جامع
نهارِي نهار الناس حتى إذا دجا ليَ الليلُ هزني إليك المضاجع
لقد ثبتت في القلبِ منك حَبَّة كما ثبتت في الراحتينِ الأصابع

لفصل ٢ - وبعد لأي ما ورد عليها ، وقعد مضيئاً إليها ، فطفقت بحكم الإجلال
تمسح أركانها ، وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه ، فباح لها بالسر المغيب ،
وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب ، فعلمت أنه الصادق المصدوق ،
وحكمت بأنه السابق لا المسبوق ، اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وما
زالت حتى أزال ما به من الغمّة ، وقالت : إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة :

إنني تفرستُ فيكَ الخَيْرَ أعرفه والله يعلمُ أن ما خانني البَصَرُ
أنتَ النبيُّ ومَنْ يجرمُ شفاعتهُ يوم الحساب فقد أزرى به القدرُ

لا ترهب فسوف تبهر ، وسيبندُ وأمرُ الله تعالى ويظهر ، أنتَ النبي سَجعت
به الكهان ، ونزلت له من صوامعها الرهبان ، وسارت بنجر كرامته الركبان ،
أنتَ النبي ما حَمَلتْ أخفَّ منه حامل ، ودَرَّتْ ببركته الشاةُ فإذا هي حافل :

١ ينسب الشعر للمجنون (ديوانه : ١٨٥) كما ينسب لابن الدميثة (ديوانه : ٨٨) .

٢ - الدرر : ٢٦ .

وأنتَ لما ولدتِ أشرقَتِ الـ أرضُ وضاعتِ بنُوركِ الأفقِ
فحنُّ في ذلكِ الضياءِ وفي النورِ وسبيلَ الرِّشادِ نحترقِ

فصل ١ - وما لبثت أن غلقت أبوابها ، وجمعت عليها أثوابها ، وانطلقت إلى ورقة بن نوفل ، تطلبه بتفسير ذلك الجمل ، وكان يرجع إلى عقل حصيف ، ويبحث عن يبعث بالدين الخفيف ، فاستبشر به ناموسا ، وأخبر أنه الذي كان يأتي موسى ، فازدادت إيمانا ، وأقامت على ذلك زمانا ، ثم رأت أن خبر الواحد قد يلحقه التفتيد ، ودرت أن المجتهد لا يجوز له التفتيد ، طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فرجعت أدرجها في ارتياد الإقناع ، وألقي في روعها إلقاء الحمار والقناع ، فهناك وصح لها البرهان ، وصح لها أن الآتي ملك لا شيطان :

تدلى عليه الروحُ من عند ربه يتزلُّ من جوِّ السماء ويرفعُ
نشاوره فيما نريدُ وقصدنا إذا ما انتهى أنا نطيعُ ونسمعُ

فصل ٣ - سبقت لها من الله تعالى الحسنى ، فصنعت حسنا وقالت حسنا ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ما فتر الوحي بعدها ، ولا مطلق الحق الحي وبعدها ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، دانت لحب ذي الإسلام ، فحيها الملك بالسلام من الملك السلام ، من كان لله كان الله له ، أغنت غناء الأبطال ، فغناها لسان الحال :

هل تذكرينَ قد تَكِ النفسُ مجلسنا يومَ التقينا فلمْ أنطق من الحصرِ

١ الدرر : ٣٠ .

٢ الدرر : لديها .

٣ الدرر : ٣٢ .

٤ الدرر : دانت بالحق دين الإسلام .

٥ الدرر : ففتتها .

لا أرفعُ الطرفَ حولي من مراقبةٍ بُقياً عليّ ، وبعضُ الخزمِ في الحنيرِ
يُسّرُ لاحتِمالِ الأذى والنصبِ ، فبشرتُ بيتَ في الجنّةِ من قَصَبِ ،
هل أمنتُ^١ إذ أمنتُ من الرعبِ ، حتى غنيتُ عن الشبعِ بما في الشعبِ :

لا تحسبِ المجدَ تمرّاً أنتَ آكله لن تبلغُ المجدَ حتى تلعقِ الصَّيرَ^٢

وهاً لها احتملتُ عضَ الحصارِ ، وما أطاقتُ فقَدَ المختارِ :

يطولُ اليومُ لا ألقاكُ فيهِ وشهرٌ^٣ نلتقي فيهِ قصيرٌ^٤

والحبيبُ سَمِعُ المحبِّ وبصره ، وله طولُ محياه وقصره :

أنتَ كلُّ الناسِ عندي فإذا غيبتَ عن عيني لم ألقَ أحدَ

مكثتُ للرياسة^٥ مواسيةً وآسيةً ، فثلثتُ في مجبوحةِ الجنّةِ مريمَ وآسيةً ، ثم
رَبعتُ البتُولَ فبرعتُ ، نطقتُ بذلك الآثارَ وصدعتُ ، خيرَ نساءِ العالمينَ أربعَ .

فصل^٦ - إلى البتُولِ سِيرَ بالشرفِ التالِدِ . وسبقَ الفخرُ بالأمِ الكريمةِ والوالدِ ،

حلتُ في الجليلِ الجليلِ ، وتحلّتُ بالمجدِ الأثيلِ . ثم تولتُ إلى الظلِ الظليلِ :

وليسَ يصحُّ في الأفهامِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

وأبيها إن أم أبيها ، لا تجدُ لها شبيهاً ، نثرةُ النبي : وطلّةُ الوصي ، وذاتُ

١ الدرر : ما أمنت .

٢ الشعر في أمالي القالي (١ : ١١٢) لبعض العرب .

٣ الدرر : وحول .

٤ البيت لجميل بغيته في ديوانه : ٩٩ وأمالي القالي ١ : ٢٠٢ والزهرة : ٦٠ وروايته : يطول اليوم
إن شحطت نواها ، وحول . . . إلخ .

٥ الدرر : الرسالة .

٦ الدرر : ٣٧ .

الشرف المستولي على الأمدِ القَصِي ، كلُّ ولدِ الرسولِ دَرَجَ في حياته ، وحملت هي ما حملت من آياته ، ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء ، لا فرع للشجرة المباركة مِن سواها ، فهل جَدَّوَى أوفر من جَدِّواها ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، حُفَّتْ بالتطهير والتكريم ، وزُفَّتْ إلى الكفؤِ الكريم ، فوردا صفو العارفة والمنَّة ، وولدا سيدي شباب أهل الجنة ، عوضت من الأمتعة الفاخرة ، بسيدي الدنيا^١ والآخرة ، ما أثقل نحوها ظهراً ، ولا بذل غير درعه مهراً ، كان صِفْرَ اليدين من البيضاء والصفراء ، وبجالة لا حيلة معها في إهداء الحيلة السِّيراء ، فصاهره الشارع وخالته^٢ ، وقال في بعض^٣ صلوك لا مال له ، نرفع درجات من نشاء .

فصل :

أنتهبُ الأيامُ أفلاذَ أحمد وأفلاذُ من عاداهمُ تتعدَّدُ^٣
ويضحى ويظنما أحمد وبناته وبنْتُ زيادٍ وردها لا يُصَرِّدُ
أبي دينة في أمنه في بلاده تضيقُ عليهم فسحةٌ تتورِّدُ
وما الدين إلا دين جدِّهم الذي به أصدرُّوا في العالمين وأوردوا

انتهى ما سنح لي ذكره من « درر السمط » وهو كتاب غاية في بابه ، ولم أورد منه غير ما ذكرته ، لأن في الباقي ما تُشم منه رائحة التشيع ، والله سبحانه يساعده بمنه وكرمه .

رجع إلى ما كنا بسيله ، فتقول : قد ذكرنا في الباب الثاني رسالة أبي المطرف ابن عميرة إلى أبي جعفر ابن أمية^٤ ، وهي مشتملة على التلطف على الجزيرة الأندلسية ، حين أخذ العلو بكنسية ، وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقي

١ الدرر : سيد في الدنيا .

٢ صرح بإسه في الدرر - وهو معاوية - ولعل المقرئ كنى عنه تقوى وورعاً .

٣ في الأصول : تتودد ، وصوناه عن الدرر .

٤ انظر الجزء الأول من النسخ ص : ٣٠٥ .

من الأندلس ، فراجعها فيما سبق ، وإن كان التناسب التام في ذكرها هنا
فالمناسبة هناك حاصلة أيضاً ، والله سبحانه الموفق . وذكرنا هناك أيضاً جملة
غيرها من كلامه - رحمه الله تعالى - تتعلق بهذا المعنى وغيره ، فلتراجع
ثمّة .

[نهاية الأندلس كما يصورها كتاب «جنة الرضى» لابن عاصم]

ورأيت أن أثبت هنا ما رأيته بخط الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد
الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته^١ :
حدثني الفقيه العدل سيدي حسن ابن القائد الزعيم الأفضل سيدي إبراهيم العراف
أنه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة
من غرناطة بسبب البناء والإصلاح ، وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوباً فيه :

إيوانُ غرناطةَ الغراء معتبرٌ طلسمُه بولاةِ الحالِ دوارٌ
وفارسٌ رُوْحُه رِيحٌ تدبِّرُه من الجمادِ ، ولكن فيه أسرارٌ
فسوف يبقى قليلاً ثم تطرقه دَهْيَاءٌ ينجربُ منها الملكُ والدارُ

وقد صدق قائل هذه الأبيات ، فإنه طرقت الدهماء ذلك القطر الذي ليس
له في الحسن مثال ، ونسَلَ الخطب إليه من كل حدب وانثال ، وكل ذلك من
اختلاف رؤسائه وكبرائه ، ومُقَدِّميه وقضاته وأمرائه ووزرائه ، فكلُّ يرومُ
الرياسة لنفسه ، ويمجر نازهاً لقرصه ، والنصارى - لعنهم الله تعالى - يضربون
بينهم بالخداع والمكر والكيد ، ويضربون عمراً منهم بزئبد ، حتى تمكنوا من
أخذ البلاد ، والاستيلاء على الطارف والتلاد . قال الرانس القاضي العلامة الكاتب
الوزير أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى في كتابه «جنة الرضى في التسليم

١ انظر هذا الخبر والشرع عن الطلسم في أزهار الرياض ٣ : ٣١٤ .

لما قدر الله تعالى وقضى « ما صورة محل الحاجة منه ^١ : ومن استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى - دمرهم الله تعالى - لم يدركوا في المسلمين ثاراً ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً ، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة ، وتحريشهم بالكيدهم والحيلولة بين حُماها في الفتن المييرة ، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة ، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة ، والعلماء بمعاونة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة ، فالحرب إذ ذاك سجال ، والله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رَحْب ومَجَال ، وروية وارتجال .

إلى أن قال : وتناولت الأيام ما بين مُهادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ، وموافقة وممانعة ، ومحاربة وموادة ، ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضممار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، وهو يُظهر أنه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه مُنطَوٍ لأهله على المقصد الأسنى ، ومهمٌ بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهُورهم ، وهو يُسِرُّ حَسَواً في ارتغائه ، ويُعْمَل الحيلة في التماس هُلك انوطن وابتغائه ، فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصدق هذا الكذب بوجهٍ أو بحال ، وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكّر في نفسه ، وعرض هذا المسموع على ملركات حسّه ، وراجع أوليَّات عقله وتجريبات حدسه ، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه ، فأنا أناشده الله هل بات قطُّ بمصالح النصارى وسلطانهم مهمتاً ، وأصبح من خطبٍ طرّفهم مغتماً ، ونظر لهم نظر المفكّر في العاقبة الحسنة ، أو قصد لهم قصد المدبر

١ من هنا يشترك النفع مع أزهار الرياض ١ : ٥٠ - ٥٥ في النقل عن كتاب ابن عاصم .

في المعيشة المستحسنة ، أو خطر على قلبه أن يُنفظ في سبيل القرنه أربابهم وصُنبانهم ، أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أحبارهم ورُهبانهم . فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ، ولم يُشرب قلبه حُبَّ التلث . ويكون صادق اللهجة ، منصفاً عند قيام الحجّة ، فسيُعرف أن ذلك لم يخطر له قطُّ على خاطر ولا مرّة له ببال ، وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط وبنعله ذا اهتبال . وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشد على قلبه من وقع انببال . هذا وعقده التوحيد ، وصلاته التحميد ، وملته الغراء ، وشريعته اليضاء ، ودينه الحنيف القويم ، ونبية الرؤوف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم . ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم ، فكيف نعتقد هذه المربية الكبرى ، والمتعبة الشهري . لمن عقده التلث ، ودينه المليث ، ومعبوده الصليب ، وتسميته الصليب . وملته المنسوخة ، وقضيته المنسوخة ، وختانه التغطيس ، وغافر ذنبه القسيس . وربه عيسى المسيح ، ونظره ليس البين ولا الصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضُرجَ بالدماء ، وسُقي الخلل عوض الماء ، وأن اليهود قتلته مصلوباً ، وأدركته مطلوباً ، وقهرته مغلوباً ، وأنه جزع من الموت وخاف ، إلى سوى ذلك ممّا يناسب هذه الأقاويل السخّاف ، فكيف يرجي من هؤلاء الكفرة ، من الخير مقدار الذرّة ، أو يُطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة ؟ اللهم احفظنا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين .

ثم قال بعد كلام ما صورته : كانت خزانة هذه الدار النصيرية مشتملة على كل نفيسة من الباقوت ، وبتيمة من الجوهر ، وفريدة من الزمرد . وثمينة من الفيروزج ، وعلى كل واقٍ من اللدروع ، وحامٍ من العُدّة ، وماضٍ من الأسلحة . وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عقود فذة ، وسلوك جمّة : وأقراط تفضل على قُرطبي ماريّة نفاسة فائقة وحسناً رائعاً ، ومن سيوف شواذ في الإبداع غرائب في الإعجاب ، منسوبات الصفائح في الطبع ، خالصات الخلي من التبر ، ومن دروع مقدرة السرد متلاحمة النسيج ، واقية للناس في يوم

الحرب ، مشهورة النسبة إلى داود نبي الله ، ومن جَوَاشِنٍ سَابِغَةِ اللبسة ، ذهبية الخلية ، هندية الضرب ، ديباجية الثوب ، ومن بيضات عسجدية الطَّرَق ، جوهرية التنضيد ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ، ومن مناطق لُجَيْنِيَّة الصَّوْغ ، عريضة الشكل ، مزججة الصفح ، ومن دَرَقٍ لَطِيَّة ، مصممة المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ، ومن قِيسِيٍّ ناصعة الصبغة ، هلالية الخِلْقَةِ ، منعطفة الجوانب ، زارية بالحواجب ، إلى آلات فاخرة من أتوار^١ نحاسية ، ومنابر بلورية ، وطيافير^٢ دمشقية ، وسبحات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيرية ، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العد ، وكل ذلك التهيه شُواظِ الفتنه ، والتقمه تِيَّارِ الخلاف والفرقة ، فرزئت الدار منه بما يتعلم إتيان الدهور بمثله ، وتقصر ديار الملوك المؤتلة النعمة عن بعضه فضلاً عن كَلِّهِ ؛ انتهى كلامه رحمه الله تعالى^٣ .

رجع — ولما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومُرْسِيَّة وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة ونحوها ، وضاق الملك بعد اتساعه ، وصار تنين العلوّ يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً ، ويهصر من دَوْحِ تلك البلاد غُصْنًا ، وملك هذا التزرّ السيرَ الباقي من الجزيرة ملوكُ بني الأحمر ، فلم يزالوا مع العلوّ في تعب وممارسة كما ذكره ابن عاصم قريباً ، وربما أثنوا في الكفار كما علّم في أخبارهم ، وانتصروا بملوك فاس بني مَرِين ، في بعض الأحيان .

ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مَرِين يستنجدونه ، وعينوا للرسالة الشيخ

١ ص ق : أتاور ؛ والأتوار : الآنية ، والمفرد تور .

٢ الطيافير : أطباق مستديرة عميقة قاعها مستو وحافاتها مرتفعة .

٣ إلى هنا وقف النقل في أزهار الرياض .

أبا إسحاق ابن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي
نفع الله تعالى بهم ؛ ثم بعد سقرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف
فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل ، ولم يوافقهم سلطان المغرب ، فقضى الله
تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كُسِرَ النصراني في الساعة التي كسر خواطِرَهُمْ
فيها صاحبُ المغرب ، وظهرت في ذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي
رحمه الله تعالى .

ثمَّ إن بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجبل كانوا
في جهاد وجِلاد في غالب أوقاتهم ، ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم المهرمُ
الذي يلحق اللول ، فلما كان زمانُ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النَّصْرِي
الغالبِي الأحمري ، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمد
ابن سعد المدعو بالزَّغَل قد بويغ بمالقة ، بعد أن جاء به القواد من عند النصراني
وبقي بمالقة برهة من الزمان ، ثم ذهب إلى أخيه ، وبقي مَن بمالقة من القواد
والرؤساء فَوْضَى ، وآل الحالُ إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن ،
وانقضت الفتنة . واستقلَّ السلطانُ أبو الحسن بملك ما بقي بيد المسلمين من بلاد
الأندلس ، وجاهد المشركين ، وافتتح عدَّة أماكن ، ولاحت له بارقة الكرة
على العدوِّ الكافر ، وخافوه ، وطلبوا هُدُنَه ، وكثرت جيوشه ، فأجمع على
عرضها كلها بين يديه ، وأعدَّ لذلك مجلساً أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة
غرناطة ، وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة عام اثنين
وثمانين وثمانمائة ، ولم تزل الجنود تُعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من
محرم السنة التي تليها ، وهو يوم ختام العرض ، وكان معظم المنتزهين والمتفرجين
بالسيكة وما قارب ذلك ، فبعث الله تعالى سيلاً عَرِمًا على وادي حَدْرَه بججارة
وماء غزير كأفواه القيرب ، عقاباً من الله سبحانه وتأديباً لهم لمجاهرتهم بالفسق
والمنكر ، واحتمل الوادي ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر
وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق ، وبلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم ،

ولم يُسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد . وكان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف ، فبعضهم استقل بملك قرطبة ، وبعض بإشبيلية ، وبعض بشرّيش ، وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات ، وركن إلى الراحة ، وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورَفَضَ الجهاد والنظر في الملك ، ليقضي الله تعالى ما شاء ، وكثرت المغارم والمظالم ، فأنكر الخاصّة والعامّة ذلك منه ، وكان أيضاً قد قتل كبار القوّاد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعدُ البلاد ، ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد . واتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب ، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون ، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد ، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد ، وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر ، وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية ، وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية ، فخيّف أن يقدم أولاد الرومية ، على أولاد بنت عمّه السنية ، وحدث بين خدّام الدولة التنافر والتعصب ، لميل بعضهم إلى أولاد الحرّة ، وبعض إلى أولاد الرومية ، وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمدٍ حدّوده وضربوه ، ولما تم أمدُ الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد ، وتشكى الناسُ مع ذلك بالوزير والعمال لسوء ما عاملوا به الناس من الحيف والجور ، فلم يُصنغ إليهم ، وكثر الخلاف واشتدّ الخطب ، وطلب الناسُ تأخير الوزير ، وتفاقم الأمر ، وصح عند النصارى - لعنهم الله تعالى - ضَعْفُ الدولة واختلاف القلوب فبادروا إلى الحامّة^١ فأخذوها غلراً آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمئة ، وغدوا للقلعة ، وتحصّنوا بها ، ثم شرعوا في أخذ البلد ، فملأوا الطرق خيّلاً ورجالاً ، وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ، ونهبوا

١ ص ق : الحمة .

الحريم ، والناسُ في غفلة نيام من غير استعداد كالسكارى ، فقتل من قضى الله تعالى بتمام أجله ، وهرب البعض وترك أولاده وحرمه ، واحتوى العدو على البلد بما فيه ، وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم ، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماشٍ وفارس ، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه ، وإذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا ، فرجع العدو إلى البلد ، فحاصرهم المسلمون ، وشدّوا في ذلك ، ثم تكاثر المسلمون خيلاً ورجالاً من جميع بلاد الأندلس ، ونازلوا الحامة ، وطمعوا في منع الماء عن العدو ، وتبين للعامة أن الجند لم ينصحوا ، فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير ، وبينما هم كذلك إذا بالندير جاء أن النصارى أقبلوا في جمع عظيم لإغاثة من بالحامة من النصارى ، فأقلع جندُ المسلمين من الحامة ، وقصلوا ملاقاته الواردين من بلاد العدو ، ولما علم بهم العدو وتوا الأدبار من غير ملاقاته محتجين بقلّتهم ، وكان رئيسهم صاحب قرطبة .

ثم إن صاحب إشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصارى الفرسان والرجالة ، وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى ، وعندما صبح هذا عند العسكر اجتمعوا ، وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد ، والصلاحُ الرجوعُ إلى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة والعدد ، فعندما أقبل المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون ، وتشاوروا في إخراجها أو سكنائها ، واتفقوا على الإقامة بها ، وحصنوها ، وجعلوا فيها جميع ما يحتاج إليه ، وانصرف صاحب إشبيلية ، وترك أجناده ، وفرّق فيهم الأموال ، ثم عاد المسلمون لحصارها ، وضيقوا عليها ، وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة عنه ، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين ، وخاب السعد بذلك بأن شَعَرَ بهم النصارى ، فعادوا عليهم ، وتردّى بعضهم من أعلى الجبل ، وقتل أكثرهم ، وكانوا من أهل بسطة ووادي آش ، فانقطع أملُ الناس من الحامة ، ووقع الإياس من ردها .

وفي جمادى الأولى من السنة تواترت الأخبار أن صاحب قشتالة أتى في جنود لا تُحصَى ولا تحصر . فاجتمع الناسُ بغرناطة ، وتكلموا في ذلك ، وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصداً أن يضيفها إلى الحامة . وجاء بالعدة والعدد . وأغار على النصارى جملة من المسلمين ، فقتلوا مَنْ لحقوه ، وأخذوا جملة من المدافع الكبار . ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة ، وناوشوا النصارى ، فألجؤوهم إلى الخروج عن الخيام ، وأخذوها وغيرها . فهرب النصارى ، وتركوا طعاماً كثيراً وآلة ثقيلة ، وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة .

وفي هذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حَظِيته الرومية ثُرَيّا ، واستقرا بوادي آش . وقامت بدعوتهما . ثمَّ بايعتهما تلك البلاد المريةُ وبَسَطَةُ وغرناطة ، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة .

وفي صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميع رؤساء النصارى . وقصدوا قرى مالقة وبلش ، في نحو الثمانية آلاف . وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة وغيرهم . فلم يتمكنوا من أخذ حصن ، ونشوا في أوعار ومضايق وخنادق وجبال ، واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة ، وصار المسلمون ينالون منهم في كل محل ، حتى بلغوا مالقة ، ففر كبيرهم ، ومَنْ بقي أُسر أو قُتل ، وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب ، وبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند ، وقُتل من النصارى في هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف ، وأسر نحو ألفين ، من جملتها خال السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب أنتقيرة وغيرهم ، وهم نحو الثلاثين من الأكابر ، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة ، وبعقب ذلك سافر أهل مالقة لبلاد النصارى ، فكسروا هنالك كسرة شنيعة قُتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس .

ولما استقرّ السلطان أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها ، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية ، والتقوا في موضع يُعرف بالدب ، فكُسر السلطان أبو عبد الله .

ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأن عمّه بمالقة غنم من النصارى أعمال السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية ، وذلك في ربيع الأول من السنة ، إلى أن بلغ نواحي لشانة ، وقتل وأسر وغنم ، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعه كبير قبيرة ، وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار ، فانكسر الجند ، وأسر من الناس كثير وقتل آخرون ، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبد الله ، ولم يُعرف ، ثم علم به صاحب لشانة ، وأراد صاحب قبيرة أن يأخذه منه ، فهرب به ليلاً ، وبلغه إلى صاحب قشتالة ، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد ، وتفاعل به ، فقلما توجه لجهة أو بعث سريةً إلاّ وبعثه فيها .

ولما أسر السلطان أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس ، وذهبوا لمالقة للسلطان أبي الحسن ، وذهبوا به لغرناطة ، وبايعوه ، مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره ، وأصابه ضرر ، ولما تعذر أمره قدّم أخاه أبا عبد الله ، وخلع له نفسه ، ونزل بالمنكب ، فأقام بها إلى أن مات ، واستقل أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده .

وأما أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن فهو في أسر العدو .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو في قوة إلى نواحي مالقة ، بعد أن كان في السنة قبلها استولى على حصون ، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون ، وقصد ذكوان ، فهدّ أسوارها ، وكان بها جملة من أهل الغربية ورندة ، ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة ، فأظفر الله تعالى بهم أهل ذكوان ، فقتلهم جميعاً ، ثم طلبوا الأمان وخرجوا .

ثم انتقل في جمادى الأولى إلى رُنْدَة وحاصرها ، وكان أهلها خرجوا إلى نصره ذكوان وسواها ، فحاصر رُنْدَة وهدّ أسوارها ، وخرج أهلها على الأمان ، وطاعت له جميع تلك البلاد ، ولم يبق بغربي مالقة إلاّ مَنْ دخل في طاعة الكافر وتحت ذمته ، وضيق بمالقة ، وفرّق حصصه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة ، وعاد إلى بلاده .

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحبُ غرناطة لتحصين بعض البلاد ، وبينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه أن محلة العدوّ خارجة لذلك الحصن .
وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنودُ النصارى على الحصن ، كانوا قد سرّوا إليه ليلاً ، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين ، فقاتلهم المسلمون من غير تعبئة ، فاختل نظامُ المسلمين ، ووصل النصارى إلى خباء السلطان ، ثم التحم القتال واشتد ، وقوّى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شراً هزيمة ، وقتل منهم خلائق ، وقصر المسلمون خوفاً من محلة سلطان النصارى إذ كانت قادمة في أثر هذه ، ولما رجعت إليهم الفلّول رجعوا القهقري ، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات ، وجعلوا ذلك كله بالحصن ، ولم يحدث شيء بعد إلى رمضان ، فتوجه الكافر لحصن قنيل ونازله وهدّ أسواره ، ولما رأى المسلمون أن الحصن قد دُخِلَ طلبوا الأمان ، وخرجوا بأموالهم وأولادهم مؤمنين ، وفرّ الناس من تلك المواضع من البراجلة هاربين ، واستولى العدوّ على عدّة حصون مثل مشافر وحصن اللوز ، وضيق العدوّ بجميع بلاد المسلمين ، ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ، ولا قصّدَ جهة إلا أطاعته وحصلها ، ثم إن العدوّ دبّر الحيلة مع ما هو عليه من القوة ، فبعث إلى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسره وكساه ووعد به بكل ما يتمناه ، وصرفه لشرقي بسطة ، وأعطاه المال والرجال ، ووعد به أن مَنْ دخل تحت حكمه من المسلمين وباعه من أهل البلاد فإنه في الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلطانين ، وخرج لبش فأطاعه أهلها ، ودخلت لبش في طاعته ، ونودي بالصلح في الأسواق ، وصرخت

به في تلك البلاد الشياطين ، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة ، وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى ، وتبعهم بعضُ المفسدين المحبين في تفريق كلمة المسلمين ، وممن مال إلى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة ، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتحسين ، إلى أن قام ربّصُ البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسوراً عند المشركين ، ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها بين المسلمين لما أَرادَه اللهُ تعالى من استيلاء العدو على تلك الأقطار ، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة ، وعظم الخطب ، وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة ، ودامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام ، وبلغ الخبر أن السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزَّغَل صاحب قلعة غرناطة ، بأن العم يكون له الملك ، وابن أخيه تحت إِيالته بلوشة أو بأي المواضيع أحب ، ويكونون يداً واحدة على عدوِّ الدين ، وبينما هم في هذا إذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدَدَ وعدَدَ ، ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبد الله الذي كان أسيراً ، وضيق بها الحصار ، وقد كان دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد ولمعاضدة وليهم ، وخاف أهلُ غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة ، فلم يأت لنصرتهم غير البيازين ، واشتد عليهم الحصار ، وكثرت الأقاويل ، وصرَّحت الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ، ودخل على أهل لوشة في ربّصهم ، وخافوا من الاستئصال ، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم ، فوفى لهم صاحبُ قشتالة بذلك ، وأخذ البلد في السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . وهي - أعني لوشة - كانت بلد سلف الوزير لسان الدين ابن الخطيب ، كما ذكرناه مستوفى في غير هذا الموضع . وهاجر أهلُ لوشة إلى غرناطة ، وبقي السلطان أبو عبد الله الذي كان مأسوراً مع النصراني بلوشة ، فصرح عند ذلك أهلُ غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليُدخِلَ إليها العدو الكافر ،

ويجعلها فداء له ، وقيل : إنَّه سَرَّحَ له حيثُذ ابنه إذ كان مرهوناً في الفداء ، وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين في ذلك ، وظهر بذلك ما كان كامناً في القلوب ، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور .

وفي نصف جمادى الثانية خرج إلى البيرة فهدّ بعض الأسوار ، وتوعدّ الناس ، فأعطاه أهله الحصن على الأمان ، فخرجوا وقدموا على غرناطة ، ثم فعل بخصم المتلین^١ مثل ذلك ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، ولما ضاقوا ذرعاً أعطوه بالمقادة على الأمان ، فخرجوا إلى غرناطة وأطاع أهل قلنبيرة من غير قتال ، فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى منّت فريد ، فرمى عليهم بالمرحقات وغيرها وأحرق دار العدة ، فطلبوا الأمان ، وخرجوا إلى غرناطة ، وانتقل للصخرة فأخذها ، وحصن هذه الحصون كلها ، وشحنها بالرجال والعدة ، ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة . ثم عاد الكافر لبلاده ، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأن من دخل في حكمه وتحت أمره فهو في الأمان التام ، وأشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية ، فخرج لبلى وأطاعته ، ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق . وأن من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه ، وأن معه وثائق بخطوط السلاطين ، فلم يقبل الناس ذلك ، إلا القليل منهم مثل أهل البيازين ، فلهجوا بهذا الصلح ، وأقاموا على صحته الدلائل ، وتكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح ، مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب ، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتبعه الناس ، وقاموا بدعوته من غير التباس ، فأتى على حين غفلة ، ولم يكن يظن إتيانه بنفسه ، فأتى البيازين ودخلها ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح ، فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة ، وقالوا : ما بعهد لوشة من قديم ، ودخل ربض البيازين سادس شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ، وعمّه بالحمراء .

١ هذا ما ثبت في ص : وفي ق : المتلين ، وفي دوزي : المتلين .

انتقل للقلعة ، واشتد أمر الفتنة ، ثم إن صاحب قشتالة أمدَّ صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها ، واشتد أمره بذلك ، وعظمت أسباب الفتنة ، وفشا في الناس القتل والنهب ، ولم يزل الأمر كذلك إلى السابع والعشرين من محرّم سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عنوةً ، وتكلم أهل العلم فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته ، ومن أطاعه عصى الله ورسوله ، ودخلوا على أهل البيازين دخول فشكل ، ثم إن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكبّ وبلش ومالقة وجميع الأقطار ، وتجمعوا بغرناطة ، وتعاملوا ، وتحالفوا على أن يدهم واحدة على أعداء الدين ، ونصرة من قصده العدو من المسلمين ، وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلته قاصداً نواحي بلش . وكان صاحب البيازين بعث وزيره إلى ناحية مالقة وإلى حصن المنشأة يذكر ويخوف ، ومعه النسخة من عقود الصلح ، فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته ، ودخلوا في إيمانه خوفاً من صاحب قشتالة وصوّلته ، وطمعاً في الصلح وصحته . ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة ، والسبب الحامل لهم على ذلك ، فلم يرجع أهل بلش عمّا عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق .

وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة ، ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ، ولما صبح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس ، فأشاروا بالمسير لإغاثة بلش للعهد الذي عقده ، وأتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات ، وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ، ووصل بلش ، فوجد العدو نازلاً عليها برأً وبحراً ، فترل بجبل هنالك ، وكثر لفظ الناس ، وحملوا على النصارى من غير تسمية ، وحين حرّكهم للحملة بلغ السلطان الرّغْل أن غرناطة بايعت صاحب البيازين ، فالتقوا مع النصارى فشلين وقبل الالتحام انهزموا ، وتبددت جموعهم مع كون

النصارى خائفين وجيلين منهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فرجعوا منهزمين ، وقد شاع عند الخوارج ثورة غرناطة على السلطان ، فقصدوا وادي آش . وعاد النصارى إلى بلش بعد أن كانوا رتبوا جيوشهم للقاء السلطان وأهل غرناطة ، فلمّا عادوا إلى بلش دخلوا عنوة ربضها ، وضيقوا بها ، وكانت ثورة غرناطة خامس جمادى الأولى .

ولمّا رأى أهل بلش تكالب العدو عليهم وإدبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان ، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة . وأطاعت النصارى جميع البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش .

ثمّ انتقل العدو إلى حصار مالقة ، وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين ، وأتى إليها النصارى بالميرة ، ولمّا نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان مأسوراً عندهم ، فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش ، وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها برآً وبحراً ، وقاتله أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم . وطال الحصار حتى أداروا على مالقة من البر الخنادق والصور والأجفان من البحر ، ومنع الداخل إليها ، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار . وحاربوا حرباً شديداً ، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض ، وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن في ما عندهم من الطعام^١ فأكلوا المواشي والخيل والحمر ، وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد ، وأثر فيهم الجوع . وفشا في أهل نجدتهم القتل ، ولم يُظهروا مع ذلك هتاعاً ولا ضعفاً ، إلى أن ضعف حالهم . ويشوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر ، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم ، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء ، وقيل لهم

١ من الطعام : سقطت من ص .

لما تحقق العدو التجاءهم : تؤمّنونَ من الموت ، وتعطون مفتاح القلعة والحصن ، والسلطان ما يعاملكم إلاّ بالخير إذا فعلتم ، وهذا خلداع من الكفار ، فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسرى ، وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، ولم يبق في تلك النواحي موضع إلاّ وملكه النصارى .

وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو الكافر إلى الشرقية وبلش التي كانت في الصلح ، فاستولى عليها ، واحتجوا بالصلح ، فلم يلتفت إليهم ، وأخذ تلك البلاد كلّها صلحاً ، ثم رجع لبلاده .

وفي عام أربعة وتسعين وثمانمائة خرج لبعض حصيون بسطة فأخذها بعد حرب . واستولى على ما هنالك من الحصون ، ثم نازل بسطة ، وكان صاحب وادي آش لما تعين العدو بمحلتة بعث جميع جنده وقوّاده ، وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش والمرية والمُنكَب والبشرات ، فلما نزل العدو بسطة أتت الحشود المذكورة ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تفهقر العدو عن قرب بسطة ، ولم يقدر على منع الداخل والخارج ، وبقي الأمر كذلك رجياً وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد ، ثم إن العدو شد الحصار وجدّ في القتال ، وقرب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخل والخارج بعض منع ، واشتد الحال في ذي القعدة وذو الحجة وقلّ الطعام ، وفي آخر ذي الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا إلاّ القليل ، وكانوا طامعين في إقلاع العدو عند دخول فصل الشتاء ، وإذا بالعدو بنى وعزم على الإقامة ، وقوي اليأس على المسلمين ، فتكلّموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن ، وظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء ، وأن ذلك هو الملجئ لهم للكلام ، وفهموا عنه ذلك ، فاحتالوا في إظهار جميع أنواع الطعام بالأسواق ، وأبدوا للعدو القوة مع كونهم في غاية الضعف ، والحرب خلدعة ، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عيّن ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس ، وعند تحققهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون من أعانهم من أهل

وادي آش والمنكبّ والمرية والبشرات ، فإن دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الأمان .
وإلاّ فلا ، فلم يوافق أهلُ البلد على هذا ، وطال الكلام ، وخاف أهل البلد
من كشف السر ، فاتفقوا على أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية
والمنكبّ والبشرات ، ففعلوا ذلك ، ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو على شروط
شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم ، وقبض الخواص مالاّ ،
وحصلت لهم فوائد .

وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة
بسطة وملكوها ، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام ، وقالوا
لهم : مَنْ بقي بموضعه فهو آمن ، ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالماً ،
ثم أخرج العدو المسلمين من البلد ، وأسكنهم بالرَبَض خوف الثورة ، ثم ارتحل
العدوّ للمرية ، وأطاعته جميعُ تلك البلاد ، ونزل صاحبُ وادي آش للمرية
ليلقاه بها ، فلقيه وأخذ الحصون والقلاع والبروج ، وباع له السلطان أبو عبد الله
على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب ، فوعده بذلك ،
وانصرف معه إلى وادي آش . ومكّنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور ،
وأطاعته جميعُ البلاد ، ولم يبق غير غرناطة وقرها ، وجميعُ ما كان في حكم
صاحب وادي آش صار للنصارى في طَرْفة عين ، وجعل في كل قلعة قائداً
نصرانياً ، وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالاّ من عند
صاحب قشتالة إكراماً منه لهم بزعمهم ، فتبّاً لعقولهم ، وما ذلك منه إلاّ توفير
لرجالهِ وعُدّته ودفع بالتي هي أحسن ، ثم أخذ برج الملاحه وغيره ، وبناء
وحصّنه ، وشحن الجميع بالرجال والنخيرة ، وأظهر الصحبة والصلح مع
صاحب وادي آش ، وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرماً منه
وخذاعاً ودهاء ، ثم بعث في السنة نفسها رسلاً لصاحب غرناطة أن يمكنه من
الحمراء كما مكّنه عمّه من القلاع والحصون ، ويكون تحت إيلاته ، ويعطيه مالاّ
جزيلاً على ذلك ، وأي بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه ، قالوا :

وأطمعه صاحبُ غرناطة في ذلك . فخرج العدو في حملاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة ، وهذا في سر بين السلطانين ، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامّة وأخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمّه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه ، وليس لنا إلا إحدى خصلتين : الدخول تحته . أو القتال ، فاتفق الرأي على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح ، وخرج بمحلته . ثم إن صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة ، وطلب من أهل غرناطة الدخول في طاعته . وإلا أفسد عليهم زروعهم ، فأعلنوا بالمخالفة ، فأفسد الزرع ، وذلك في رجب سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ، ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت . وهدم بعض حصون ، وأصلح برج همدان والملاحنة ، وشحنهما بما ينبغي ، ثم رجع إلى بلاده ، وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التي في يد النصارى ففتحها عنوة ، وقتل من فيها من النصارى ، وأسكنها المسلمين ، ورجع لغرناطة ، ثم أعمل الرحلة إلى البشرات في رجب المذكور ، فأخذ بعض القرى . وهرب من بها من النصارى والمرتدين أصحابهم ، ثم أتى حصن أندرش فتمكن منه ، وأطاعته البشرات ، وقامت دعوة الإسلام بها . وخرجوا عن ذمة النصارى ، وهنالك عمّه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملته واقرة ، فقصدهم في شعبان من غرناطة ، واستقرّ عمّه بالمرية . وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجة ، ثم تحرك عمّه مع النصارى إلى أندرش فأخذها لرمضان ، وخرج صاحب غرناطة لقرية همدان ، وكان برجها العظيم مشحوناً بالرجال والعدة والطعام ، فحاصره أهل غرناطة ، ونصبوا عليه أنواعاً من الحرب . ومات فيه خلق كثير منهم ، وتقبوا البرج الأول والثاني والثالث ، وأجثوهم للبرج الكبير ، وهو القلعة ، فتقبوها ثم أسروا من كان بها ، وهم ثمانون ومائة ، واحتوا على ما هنالك من عدة وآلات حرب .

وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب ، فلما وصل حصن شلوبانية نزله ، وأخذة عنوة بعد حصاره ، وامتنعت القلعة ، وجاءتهم الأمداد من مالقة بجرأ فلم تقلد على شيء ، وضيقوا بالقلعة ، فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة ، فارتحل صاحب غرناطة عن قلعة شلوبانية ، وجاء غرناطة ثالث شوال ، وبعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجنون ، وبعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحه وإخلائه وبرج آخر ، وتوجه إلى وادي آش ، فأخرج المسلمين منها ، ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الربض ، وهدم قلعة أندرش ، وحاف على البلاد ، ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدو فجاز لوهران ، ثم لتلمسان ، واستقر بها ، وبها نسله إلى الآن يُعرفون ببني سلطان الأندلس ، ودخل صاحب قشتالة لأقاصي مملكته بسبب فتنة بينه وبين الإفرنج ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها وأخذها ، وأسر من كان بها من النصارى وأرادت فتياه^١ القيام على النصارى ، فجاء صاحب وادي آش ففتك فيهم .

وفي ذي القعدة من السنة رفع صاحب غرناطة من السند وخلت تلك الأوطان من الإنس .

وفي ثاني عشري جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة ، وأفسد الزرع ، ودوخ الأرض ، وهدم القرى ، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير ، وأحكم بناءه ، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرّف الهمة إلى الحصار والإقامة ، وصار يُضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية

١ ق ص : رفتهاه .

جبل شلّير ، إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكتب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد
 باب المرافق ، وقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ،
 واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث
 والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب ، وذلك أول عام
 سبعة وتسعين وثمانمائة ، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء
 دون الحرب ، ففرّ ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات ، ثم اشتد الأمر في شهر
 صفر من السنة ، وقل الطعام ، ثم تفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع مَنْ يشار إليه
 من أهل العلم ، وقالوا : انظروا في أنفسكم وتكلّموا مع سلطانكم ، فأحضر
 السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلّموا في هذا المعنى ، وأن العدو
 يزداد مدّده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يُقلع عنا في فصل
 الشتاء ، فخاب الظن ، وبني وأسّس ، وأقام ، وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم
 وأولادكم ، فانفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع
 بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى
 الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ما كان في صلح
 وادي آش : منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنه
 من حمراء غرناطة والمعازل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في العهود ،
 وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام
 في ذلك امتنّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق
 على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقادوا إليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا
 البيعة لصاحب قشتالة ، وقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء .

وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني ستة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى
 النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة
 من الأعيان رهناً خوفاً للخر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير
 والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم

وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبيل سلطانهم قبل ، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نص عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه للملكه ولا سواه . والسلطان يدفع ثمنه للملكه ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يُعطون عشر ما لهم والكراء^١ . وأن لا يؤخذ أحد بدينه غيره ، وأن لا يُقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى^٢ ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة . وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثه ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين . ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله . ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره .

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد . ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح ، وشملهم حكمه على هذه الشروط ، ثم أمر العدو الكافر ببناء ما يحتاج إليه في

١ ثم . . . والكراء : سقطت من ص .

٢ أيام . . . النصارى : سقطت من ص .

الحمراء وتحصينها ، وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها ، وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحطته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر ، فدخل المدينة ، وتطوّف بها ، وأحاط خبراً بما يرومه ، ثم أمر سلطان المسلمين أن يتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له وسكناه بأندرش ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتال في ارتحاله لبر العدو ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له ، فصرف في الحين بنص هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً ، وكان قبل طلب الجواز لناحية مراکش ، فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء ووباء .

ثم إن النصارى نكثوا العهد . وتقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك . وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً ، ولما فحش هذا الأمر قام أهل اليازير على الحكام وقتلهم ، وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكيم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت ، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر : واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسيياً ، إلا ما كان من جبل بلنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من ما لهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين

يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقبض الله لهم ناصرأ ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المعرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمرووا قراها الحالية وبلادها ، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ، ومحييت رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله ، واسطة عقدهم ، ومشيد مبانيهم الأنيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس ، العائد منها للملكة في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس ، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب ، وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع ، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج

[ابن إسماعيل] بن يوسف بن نصر بن قيس ، الأنصاري ، الخزرجي ، رحمهم الله تعالى جميعاً .

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتزلاً عمّاً أسلفه ، متلهفاً على ما خلفه ، وبني بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها ، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ، ودفن بإزاء المصلّى خارج باب الشريعة وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن ، وعهدي بئرته بفاس سنة ١٠٢٧ ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويُعدّون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .

[رسالة المخلوع أبي عبد الله إلى الشيخ الوطاسي]

وقد رأيت أن أذكر هنا الرسالة التي كتب بها المخلوع المذكور إلى سلطان فاس الشيخ الوطاسي^١ ، وهي من إنشاء الكاتب المجيد البارع البليغ أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العُقَيْلي رحمه الله تعالى وسماها : « الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » ونصها بعد الافتتاح :

مولى الملوكِ ملوكِ العربِ والعجمِ
بكّ استجرنا ونعم الجار أنت لمن
حتى غدا ملكه بالرغمِ مستلباً
حكمٌ من الله حتمٌ لا مردٌ له
وهي الليالي وقالك الله صولتها
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دولٌ

رَعِيّاً لا مثله يُرعى من الذمّمِ
جار الزمانُ عليه جورٌ متقمِ
وأفطعُ الخطبِ ما يأتي على الرغمِ
وهلّ مردٌ لحكمٍ منه منحمِ
تصولٌ حتى على الآسادِ في الأجَمِ
نمنا بها تحت أفنانٍ من النعمِ

١ وردت هذه الرسالة في أزهار الرياض ١ : ٧٢ - ١٠٢ .

فَأَيْقَظْتَنَا سَهَامٌ لِرَدَى صَيْبٍ
فَلَا تَمَّ تَحْتَ ظِلِّ الْمَلِكِ نَوْمَتَنَا
يَبْكِي عَلَيْهِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْرِفُهُ
كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَمْ يَبْرَحْ كَمَا زَعَمُوا
وَصِلْ أَوْاصِرٌ قَدْ كَانَتْ لَنَا اشْتَبَكَتْ
وَابَسَطَ لَنَا الْخُلُقَ الْمَرْجُوَّ بِاسْطُهُ
لَا تَأْخُذْنَا بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ
فَمَا أَطَقْنَا دِفَاعاً لِلْقَضَاءِ ، وَلَا
وَلَا رَكُوباً بِإِزْعَاجِ لِسَابِحَةِ
وَالْمَرْءُ مَا لَمْ يُعِنَهُ اللَّهُ أَضْيَعُ مِنْ
وَكَوَلَّ مَا كَانَ غَيْرَ اللَّهِ يَحْرُسُهُ
كَنَّ كَالسَّمَوَالِ إِذْ سَارَ الْهَمَامُ لَهُ
فَلَمْ يَبِجْ أَدْرَعُ الْكَنْدِيِّ وَهُوَ يَرَى
أَوْ كَالْمَعْلَى مَعَ الضَّلِيلِ الْارْوَعِ إِذْ
وَصَارَ يَشْكُرُهُ شُكْرًا يَكْفِيءُ مَا
وَلَا تَعَاتَبَ عَلَى أَشْيَاءٍ قَدْ قَلَّدَتْ
« وَعَدَّ عَمَّا مَضَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ »^٢
إِيهِ حَتَانِيكَ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ عَلَى

بُرْمَى بِأَفْجَعِ حَتَفٍ مَنُ مِنْ رُمِي
وَأَيَّ مَلِكٍ بِظُلِّ الْمَلِكِ لَمْ يَنْمِ
بِأَدْمُعٍ مُزْجَتِ أَمْوَاهُهَا بِدَمِ
يُشْمُ بَوَّ الصَّغَارِ الْأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ
فَالْمَلِكُ بَيْنَ مَلُوكِ الْأَرْضِ كَالرَّحِمِ
وَاعْطَفَ وَلَا تَنْحَرِفَ وَاعْذِرْ وَلَا تَلْمِ
تُذْنِبُ وَلَوْ كَثُرَتْ أَقْوَالُ ذِي الْوَحْمِ^١
أَرَادَتْ أَنْفُسُنَا مَا حَلَّ مِنْ نِقَمِ
فِي زَاخِرٍ بِأَكْفِ الْمَوْجِ مَلْتَطَمِ
طِفْلِ تَشَكَّتِي بِفَقْدِ الْأُمِّ فِي الْيَمِّ
فَإِنَّ مَحْرُوسَهُ لَحِمٌّ عَلَى وَضَمِ
فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ مَرْتَكَمِ^٣
أَنَّ ابْنَهُ الْبَرَّ قَدْ أَشْفَى عَلَى الرَّجَمِ
أَجَارَهُ مِنْ أَعَارِبٍ وَمِنْ عَجَمِ
أَسْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْآلَاءِ وَالنِّعَمِ
وَخُطَّ مَسْطُورُهَا فِي اللَّوْحِ بِالْقَلَمِ
وَعُدَّ أَحْرَارَنَا فِي جَمَلَةِ الْخَدَمِ
« ضَيْفِ أَلْمِ بِفَاسٍ غَيْرِ مَحْتَشَمِ »^٤

- ١ من قول كعب بن زهير :
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ فَلَمْ
٢ من قول الأعشى :
كَنَّ كَالسَّمَوَالِ إِذْ طَافَ الْهَمَامُ بِهِ
٣ مضمّن من الشعر القديم .
٤ اقتبس صدر بيت المتنبي ، وعجزه « السيف أحسن فلامنه بالعم » .

فَأَنْتَ أَنْتَ ، ولولا أَنْتَ ما نهضت
رحمك يا راحماً بنمي إلى رُحماً
فكم مواقف صدق في الجهاد لنا
والسيفُ يخضب بالحمرة من علق
ولا ترى صدرَ عَضْب غير منقصف
حتى دُهينا بدھيا لا اقتدار بها
فقال من لم يشاهدها فربّما
هيهات لو زبنته الحرب كان بها
تالله ما أضمرت غشاً ضمائرنا
لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت
فخانا عنده الجدد الخوون ، ومن
فاسود ما اخضر من عيش دھته عدداً
وشتت الين شملاً كان متظماً
فربّ مبنی شديد قد أناخ به
قمنا لديه أصيلاً نائله
وما ظنننا بأن نبقي إلى زمن
لكن رضی بالقضا الجاري وإن طويت
لبيتك يا من دعانا نحو حضرته
واعط الأمان الذي رُصت قواعده
خليفة الله وافاك العبيد فكن
وبين أسلافنا ما قد علمت به

بنا إليها خطأ الوخادة الرثم
في النفس والأهل والأتباع والحشم
والخيل عالكة الأشداق للججم
ما ابيض من سبل واسود من لم
ولا ترى متن لندن غير منحطم
سوى على الصون للأطفال والحرم
يخال جاعها يقتاد بالخطم
أعيى يداً من يد جالت على رحم
ولا طوت صحة منها على سقم
ولأتنا قبلنا في الأعصر الدهم
تعد به نكبات الدهر لم يقم
بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخدم
واليين أقطع للموصول من جلم
ركب البلا فقرته أدمع الديم
أعيا جواباً وما بالربع من إرم
نرى به غرر الأحباب كالحمم
متا الضلوع على برح من الألم
دعاء إبراهيم الحجاج للحرم
على أساس وفاء غير منهدم
في كل فضل وطول عند ظنهم
من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم

١ يشير إلى قولهم « أذل من يد في رحم » .

٢ من قول النابغة :

وقفت فيها أصيلاً أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد

وأنتَ منهم كأصلٍ مُطلعٍ غُصْنًا
وقد خَطَوْتَ خُطَاهُمْ فِي مَأْتَرِهِمْ
وصيتُ مولى الورى الشيخ الإمام غدا
سلالةُ الأمراءِ الجليلةِ الكبرا
بنو مَرين ليوثُ في عرينِ ابوا
النازلين من البيضاء وسطِ حِمَى
والجائسين بدُهُم الخليلِ كل ذرا
يريكَ فارسُهُم إن هزَّ عاملُهُ
ليثاً على أجدلِ عارٍ مِن أجنحةِ
في اللامِ بدغمُ من عَسَالِهِ أَلْفًا
أهلُ الحفيظةِ يومِ الروعِ يحفظُهُم
يا من تطيرُ شرارِ منه محرقةُ
هُمُ بطائفةِ التلثِ قد فتكوا
وإن يلثمُهُمُ يومِ الوغى رهجُ
تضيءُ آراؤُهُمُ في كلِّ معضلةِ
هذا ولو من حياةِ ذابِ محتشمُ
طابت مدائحُهُم إذ طابت أنفسهمُ
للهِ درُهُمُ والسُّحْبُ باخللةِ
بجيثِ آفاقِ بَرى من لونِ حمرةِ
هناكَ تنهلُ أيديهِم بصوبِ حياً
وأنَّ بَيْتِي زياداً طالما ذُكرا
أحلامُ عادٍ وأجسامُ مطهَّرةُ

١ زياد : النابتة الديباني .

يرونَ حقّاً عليهم حفظ جوارهم -
 فروعه بالدواهي لا يراع ، ولا
 همُّ البحار سماحاً غير أنّ بها
 وليس يسلم من حتف محاربتهم
 كمّ فيهم من أميرٍ أوحد ندس
 ولا كسبط أبي حسون^١ من حسنت
 هذاكم ابن أبي ذكرى الهمام فقل
 خليفة الله حقّاً في خليقته
 مهما تر قسّات منه نيرة
 فوجهه يدجى أو كفه يجدى
 وفضله وله الفضل المين جرى
 وجوده المتوالي للبرية ما
 إذا ابتغت نِعماً منه العفاة له
 وإن يعبس زمان في وجوههم
 وجه تبين سمات المكرمات به
 وراحة لم تزل في كل آونة
 لله ما التزمتة من نوافله
 أنسى الخلائف في حلم وفي شرف
 فجاز معتمداً منهم ومعتضداً
 وناصر الدين في الإقبال فاق ، وفي
 أفعال أعدائه معتلةً أبداً

فلم يُضّر نازل فيهم ولم يُضم
 يغم منها بما يعرو من الغم
 ما قد أناف على الأطوار من هم
 حتى يكون إليهم ملقي السّم
 يُقرطس الغرض المقصود بالفهم
 أمداحه حُسن ما فيه من الشيم
 في أصله المتقى من مجده العم
 كنائب ناب في حكم عن الحكم
 تئل بنازله ما جل من نعم
 أبهى من الزهر أو أندى من الديم
 كجري الأمثال في الأقطار والأم
 وجوده بينها طراً بمنهم
 لم يسمعوا كلمة منه سوى نعم
 لم يبصروا غير وجه منه مبسم
 كما تبين سمات الصدق في الكلم
 في نيلها راحة الشاكي من العدم
 أيام لا قرص مفروض بلمتم
 وفي سخاء وفي علم وفي فهم
 وامتاز عن واثق منهم ومعتم
 محبة العلم أزرى بابنه الحكم
 متى يرمّ جزمها بالخذف تنجزم

١ أبو حسون : هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى بن زيان الوطاسي ويعرف
 بابن حسون الباذمي ، بويغ بفاس أول مرة سنة ٩٣٢ .

فويل أهل القلى من حية ذكر
 راموا عداوة من إن شاء غادرهم
 فسوف يأكلهم من جيشه لجيب
 وإن آعراب إذ ساروا لغايته
 وهم كما قاله ماض «أرى قديمي
 فقل إذن للمناوي الناو لان أذى
 له صوارم لو ناجتكَ ألسنها
 وأن روحك عن قرب سيقبضه
 فهو الذي ما له نداء يشابهه
 يدبر الأمر تديراً يختصه
 ويبصر الغيب لحظُ الذهن منه إذا
 وينعم النظر المفضي بناظيره
 ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه
 ومستمع ليس يصغي للوشاة فلم
 فعقله لا توازيه العقول ، وهل
 إليه جميع الورى من بدو أو حضر
 شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تهنوا
 هذا الإمام المريني السعيد له
 قد أقسمت أنه المنصور السنة
 فشيءه ووالوه تروا عجباً
 والحمد لله إذ أبى خلافته
 حيز حريز وعز قائم وندى
 دامت ودام لها سعد يساعدها
 فالله عز اسمه قد زانها بحلى

للمتلتب اللهم المجر ملتقم
 مثل الأحاديث عن عاد وعن إرم
 بكل قرم إلى لحمانهم قرم
 لسائرون إلى لقم على لقم
 بسعيه نحوحتفي قد أراق دمي
 ياغر غرك ما أبصرت في الحلم
 لبشرتك بعمر منك منصرم
 قبض المسلم ما قد حاز من سلم
 من كل متصف بالدهي متمم
 مما عسى أن يرى فيه من الوهم
 تعنى عن أدراكه الحاظ كل عمي
 لصوب وجه صواب واضح اللقم
 عن مبطل بخصام المبطل الخصم
 ينفق لديه الذي عنهم إليه نمي
 يوازن الطود ما قد طال من أكم
 نداء مرتبط بالنصر مرتسم
 قد لفها الليل بالسواقفة الحطم
 سعد يؤيده في كل مصطدم
 من نخبة الأوليا مبرورة القسم
 وتظفروا معه بالأجر والغنم
 كهفاً لنا من يخيم فيه لم يرم
 غمر دراك بلا من ولا سام
 في كل مبتدا منه وغتتم
 من غر أمداحه كالدُر في النظم

الواهبُ الألفُ بعد الألف من ذهب
 والفاعلُ الفعلُ لم يهجمَ بهِ أحدٌ
 ذاكم هو الشيخ فاعجب إنّه هَرَمٌ
 وحَسَبنا أن أيدينا بهِ اعتصمت
 فما مخالفه يوماً بمضطهدٍ
 ولا موافيه في جهْدٍ بمطرحٍ
 ولا محيّا محييه بمُنكسِفٍ
 وما تَكَرّمهُ سراً بمُنكشِفٍ
 وليسَ لامحُ مرآهٍ بمكتشِبٍ
 ولا مقبَلٌ يمتناهُ الكريمةَ في
 وما وسيلتنا العظمى إليه سوى
 وإنما هي وما أدراك ما هي من
 نبيّنا المصطفى الهادي بنيرِ هدى
 داعي الورى من أولي خيم وأهل قبرى
 عليه منّا صلاة الله ما ذُكرتْ
 وما تشقّع فيها بالشقيع له

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . أنت وليّنا
 فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا ، وإليك
 المصير ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ، نعم المولى
 ونعم النصير .

أما بعد حمد الله الذي لا يُحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة والسلام
 على سيدنا ومولانا محمد الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح . يدعو إلى سبيل

١ صدر قصيدة البوصيري المشهورة في مدح الرسول (ص) .

كل فلاح ، أولي قلوب غافلة ونفوس سواه ، والرضى عن آله وأصحابه وعبرته الأكرمين وأحزابه الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ، وعزروه ونصروه في حال قربه ونواه ، فيا مولانا الذي أولانا من النعم ما أولانا لا حطاً الله تعالى لكم من العزة رواقاً ، ولا أذوى للوحة دولتكم أغصاناً ولا أوراقاً ، ولا زالت منخضة العود ، مبتسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود ، ممطورة بسحاب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود ، هذا مقام العائد بمقامكم ، المتعلق بأسباب زمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم ، وما الذي يقول مَنْ وجهه خجل ، وفؤاده وجيل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل ، بيدَ أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر ، واحترامي إليه أكبر : اللهم لا بريء^١ فأعتذر ، ولا قوي فأنتصر ، لكني مستقيل ، مستنيل مستعتب مستغفر ﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (يوسف : ٥٣) ، هذا على طريق التنزل والإنصاف ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف ، وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق^٢ : « والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقول ما لم يكن ، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني ، فأقول ما قاله أبو يوسف : صبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . على أني لا أنكر عيوبي فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبي فأنا جبلُ الذنوب ، إلى الله أشكو عَجْرِي وَبُجْرِي ، وسَقَطَاتِي وَغَلَطَاتِي ، نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول ، المشنع المهول ، الناطق بقم الشيطان المُسَوَّل ، ومن أمثالهم « سُبِّي واصدق ، ولا تَقْتَرِ ولا تَخْلُق » ، أمثلي كان يفعل أمثالها ، ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحماها ؟ ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياداً بالله

١ ص ق : لا بريئة .

٢ انظر إمتاع الأساع : ٢٠٩ مع اختلاف في النص .

من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضللت إذأ وما أنا من المهتمدين ،
 وإيتمُّ الله لو علمت شعرة في فؤوديَّ تميل إلى تلك الجهة لقطعتها ، بل لقطفت
 ما تحت عمامتي من هامتي وقطعتها ، غير أن الرعاع في كل وقت وأوان ،
 للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ، كان أحمق أو أجهل من أبي ثروان^١ ،
 أو أعقل أو أعلم من أشجَّ بني مروان^٢ ، رُبَّ متهم بري ومسربلٍ بسربال
 وهو منه عري ، وفي الأحاديث صحيح وسقيم ، ومن التراكيب المنطقية منتج
 وعقيم ، ولكنَّ ثمَّ ميزان عقل ، تُعتبر به أوزان النقل ، وعلى الراجح الاعتماد ،
 ثمَّ إشاعة الأحقاد ، المتصل المتعاد ، وللمرجوح الأطراح ، ثمَّ التزام^٣ الصراح ،
 بعد النفض من الراح ، وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلاَّ من
 عصمه الله تعالى إليه منجذب ، ولقد قُدِّفنا من الأباطيل بأحجار ، ورُمينا بما لا
 يُرمى به الكفَّار ، فضلاً عن الفجَّار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد
 وعمرو ما لديكم منه حفظ الجار ، وإذا عظم الإنكاء ، فعلى تكاءة التجلد الاتكاء ،
 أكثر المكثرون ، وجهد في تعيرنا المتعشرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا
 في سلك الملاحدة ، أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً^٤ اللهم غفراً ، أعد نظراً يا عبد
 قيس ، فليس الأمر على ما خيَّلَ لك ليس ، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ، ممن
 رام مَحَقَّه ومَحَقَّنَا ، فطاردنا في سبيله عُدَاة كانوا لنا غائطين ، فانفتق علينا فتق
 لم يمكننا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين . وبعد فاسأل أهل الحل والعقد ، والتميز
 والنقد ، فعند جُهَيْسِنْتَهُم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يؤثمننا فيوبقنا
 أو ييرثنا فيقينا ، إيه يا من اشرأبَّ إلى ملامنا ، وقدح حتى في إسلامنا ، رويداً
 رويداً ، فقد وجدت قوة وأيداً ، ويحك إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء

١ هو هبنقة القيسي مضرب المثل في الحق .

٢ هو عمر بن عبد العزيز .

٣ ق ص : الزم .

٤ ص ق : غداً .

إلينا . لأن الزمان لنا مصغر ولك مكبر ، والأمر عليك مُقبِل وعنا مُدبر ، كما قال كاتب الحجاج الموبر ، وعلى الجملة فهبنا صرنا إلى تسليم مقالك جديلاً ، وذهبتنا فأقرنا بالخطأ في كل وِرْد وصدَر . فله درُ القائل ١ :

إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأ القدر

وكأننا بعتسِف إذا وصل إلى هنا ، وعدمُ إنصافه يَعَلِّمُه إلنا ، قد ازورَّ متجانفاً . ثمَّ اقترَّ متهانفاً . وجعل يتمثل بقولهم : إذا عيَّروا قالوا مقادير قدرت ، وبقولهم : المرء يعجزه المحال ، فيعارض الحق بالباطل ، والحالي بالعاطل ، ومنزع بقول القائل : ربَّ مسمع هائل ، وليس تحته [من] طائل ، وقد فرغنا أول أمس من جوابه . وتركنا الضغن يلصق حرارة^٢ الجوى به . وسلم الآن بما يوسعُه تسكيناً . ويقطعه تبكيناً . فنقول له : ناشدناك الله تعالى . هل اتفق لك قطُّ وغرض . خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض ؟ مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك . في وقوعه على وفق اقتراحك ومُرادك ، أو جميع ما تزاوله بإدارتك ، لا يقع إلاً مطابقاً لإرادتك . أو كل ما تقصده وتنويه ، تحرزه كما تشاء وتحويه ؟ فلا بد أن يقر اضطراراً ، بأن مطلوبه يشذ عنه مراراً ، بل كثيراً ما يفلت صيده من أشراكه . ويطلبه فيعجز عن إدراكه . فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل : أيها النبيه النبيل : ثم نسرده له من الأحاديث النبوية ماشيناً ، ممّا يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا . كقوله صلى الله عليه وسلم « كلَّ شيء بقضاء وقدر . حتى العجز والكيس » وقوله أيضاً « لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه » أو كما قال ، صلى الله عليه وسلم ،

١ هو أبو العتاهية (ديوانه : ٤٤٩) وقبله :

هي المقادير فلي أو قدر تجري المقادير على غرز الإبر

٢ ص : حرازة .

فأخْلِقْ به أن يلوذ بأكتاف الإحجام . ويزمّ على نفثة فيه كأنما ألجم بلجام ، حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاه ، وقهره بحجته وعلاه : ليس لك من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله . وفي مُحاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم ، ويرحضُ عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من درن الوصم ، وكيفما كانت الحال ، وإن ساء الرأي والانتحال . ووقعنا في أوجال وأوحال ، فقلّ عرشنا ، وطويت فُرُشنا ، ونكس لِيوانا . ومُلك مثرانا ، فنحن أمثل من سوانا ، وفي الشر خيار ، ويد اللطائف تكسر من صوأة الأغيار ، فحتى الآن لم نقتد من اللطيف تعالى لطفاً ، ولا عدنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفاً ، وإلاّ فتلك بغداد دار السلام ، ومُتَبَّوْا الإسلام . المحفوف بفرسان السيوف والأقلام ، مثابة الخلاقة العباسية ، ومقر العلماء والفضلاء أُولي السِّير الأُوَيْسِيَّة ١ . والعقول الإياسية ٢ . قد نوزلت بالجوش ونزلت . وزوولت بالزحوف وزلزلت . وتحيف جوانبها الخيف ، ودخلها كفار التتار عتوة بالسيف ، ولا تسَلْ إذ ذاك عن كيف ، أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبيدة . وجرت الدماء في الشوارع والطرق كالأنهار والأودية : وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المُنتَضاة بالعمائم في رقايبهم والأردية ، وللنجيع سيول . تخوضها الخيول : فتخضبها إلى أرساغها ، وتهم ظمأؤها بوردها فتنكل عن تجرعها ومساغها . فطاح عاصمها ومستعصمها ، وراح ولم يَعُدْ ظالمها ومتظلمها . وخربت مساجدها وديارها ، واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها ، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف ، حسبما عرفت أو حسبما تعرف ، فلا تلك متشككاً متوقفاً ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا ، فأين تلك الجحافل . والآراء المدارة في المحافل ؟ حين أراد الله تعالى

١ نسبة إلى أويس القرني الزاهد .

٢ نسبة إلى إيّاس بن معاوية القاضي الذي يضرب به المثل في الزكّاة .

بإدالة الكفر، لم تُجَدِ ولا قلامه ظفر، إذن فمن سلمت له نفسه التي هي رأسُ ماله، وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله، وكلّ أو جلّ أو أقلّ^١ ريشه، وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه، ثم وجد مع ذلك سبيلاً إلى الخلاص، في حال مياسرة ومساهلة دون تصعب واعتياص، بعدما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص، فما أحقّه حينئذٍ وأولاه، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسداه إليه من رِفْدِه وخيره، ومعافاته ممّا ابتلي به كثير من غيره، ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار، فالدهر غدّار، والدنيا دار مشحونة بالأكدار، والقضاء لا يُردّ، ولا يُصدّ، ولا يغالب، ولا يطالب، والدائرات تدور، ولا بدّ من نقص وكمال للبدور، والعبد مطيع لا مطاع، وليس يطاع إلاّ المستطاع، وللخالق القدير جلّت قدرته في خليقته علم غيبٍ للأذهان عن مداه انقطاع.

وما لي والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول، بين يدي ذي الجلال والمجادة والفضل والطول؟ فله من العقل الأرجح، ومن الخلق الأسجح، ما لا تلتاظ معه تهمني بصفه^٢، ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عدّ من نقره، ولا فاز قدحُه بظفره، والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب، وتجرب براحتها إلى المتاعب، وقديماً للأكياس من الناس خدعت، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت، وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب تلك التي جبت وجدعت، ولئن رهصت وهصرت، فقد نبهت وبصرت، ولئن قرعت وأمعضت، لقد أرشدت ووعظت، ويا ويلنا من تنكرها لنا بكرة، ورميها لنا في غمرة أيّ غمرة، أيام قلبت لنا ظهر المجن، وغيم أفقها المصحى وأدجن، فسرعان ما عايننا حبالها منبته، ورأينا منها ما لم نحسب كما تقوم الساعة بغتة، فمن استعاذ من شيء

١ ق ص : أعقل . ٢ يريد : لا تملق بقلبه .

فليستعد ممّا صرنا إليه من الحَوَر بعد الكَوَر ، والانحطاط من التجدد إلى الغور :

فبينما نسوس الناس والأمرُ أمرنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصّف^١
فأفّ لَدنيا لا يدوم نعيمها تَقَلَّبُ تارات بنسا وتصرفُ

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً ، ولم نفرع إلى غير بابكم المتبع الجنب ، المنفتح حين سُدَّت الأبواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب ، وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف في الأجنان من الأجنان ، ووجهُ الله تعالى يبقى وكلُّ مَنْ عليها فاني ، وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول : حسبي هذا وكفان .

ولا ريب في اشتغال العلم الكريم ، على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم ، من الأخذ باليد عند زلّة القَدَم ، وقرع الأسنان وعض البنان من الندم ، ديناً تديننت حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة اطردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان .

ولقد عرض علينا صاحب قَسْثالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُّفَر ، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهراي الكفر ، ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنا من المطالب المشاغب حمةً شرّاً لنا لاسعة ، وادكرنا أيّ ادكار ، قول الله المنكبر لذلك غاية الإنكار ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ وقول الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام « أنا بريء من مؤمن مع كافر لا تراءى ناراهما »^٢ وقول الشاعر الحاث على

١ ورد البيتان في قصة حرة بنت النعمان تخاطب فروة بن إيّاس بن قبيصة (المحاسن والأضداد :

. (١١٥)

٢ نص الحديث : أنا بريء من كل مسلم مع مشرك ، قيل : لم يارسول الله؟ قال : لا تراءى ناراهما.

حث المطية ، المتثاقلة عن السير في طريق منجياتها البطيّة :

وما أنا والتلذذ نحو نجد وقد غصت تهامة بالرجال

ووصلت أيضاً من الشرق إلينا ، كتب كريمة المقاصد لدينا ، تستدعي الانحياز إلى تلك الجنبات . وتتضمن ما لا مزيد عليه من الرغبات ، فلم نجتز إلا دارنا التي كانت دار آباءنا من قبلنا . ولم نرتض الانضواء إلا لمن بجبله وصل حبنا ، وبريش نبله ريش نبلنا ، إدلالاً على محل إخاء متوارث لا عن كلاله ، وامتنالاً لوصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة ، إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا ، في الإيضاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا ، أن لا يبتغوا إذا دهمهم داهم بالحضرة المرينية بدلاً ، ولا يجلوا عن طريقها في التوجه إلى فريقيها^١ معدلاً ، فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج ، وركبنا إلى البحر الفترات ظهر البحر الأجاج ، فلا غرور أن نرد منه على ما يقر العين . ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ، ومن توصل هذا التوصل ، وتوسل بمثل ذلك التوسل ، تطارحاً على سدة أمير المؤمنين ، المحارب للمحاربين ، والمؤمن للمستأمنين ، فهو الخليق الحقيقي بأن يسوغ أصفى مشاربه ، ويبلغ أوفى مآربه ، على توالي الأيام والشهور والسنين ، ويخلص من الثبور إلى الحبور ، ويخرج من الظلمات إلى النور ، خروج الجنين ، ولعل شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة قبول إقباله تسري إلينا ، فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر^٢ :

عظماً أمير المؤمنين فإتسنا في دوحه العلياء لا نتفرك
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدأ ، كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك . فإتني أنا عاطل منها وأنت مطوق

١ ص : افريقيا .

٢ ديوان الرضي ٢ : ٤٢ .

لا بل الأحرى بنا والأحجى ، والأنجح لسعينا والأرجى ، أن نعدل عن هذا المنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج ، وينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج^١ :

الناسُ يَفْقدونكَ اضطراراً منهم ، وأفديكَ باختيارٍ
وبعضُهمُ في جوارِ بعضٍ وأنتَ حتى أموتَ جاري
فعشُ نجزي وعشُ لثائي وعشُ لداري وأهلِ داري

ونستوهب من الوهاب تعالى جلَّتْ أسماؤه ، وتعاضمت نعمائوه ، رحمةً تجعل في يد الهداية أعينتنا ، وعصمةً تكون في مواقف المخاوف جُنَّتنا ، وقبولاً يعطف علينا نوافر القلوب ، وصنعاً يُسنِّي لنا كلَّ مرغوب ومطلوب ، ونسأله وطالما بَلَغَ السائل سؤالاً وأموراً . متاباً صادقاً على موضوع الندم محمولاً : ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً : عن أرض أورثها مَنْ شاء من عباده معقبا لهم ومُديلاً ، وسادلاً عليهم من ستور الإماء الطويلة سُدولاً ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح : ٢٣) فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، لم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قَدراً مقدوراً . ألا وإن لله سبحانه ، في مقامكم العلي الذي أيده وأعانه ، سرّاً من النصر يترجم عنه لسان من النصل ، وترجع فروع البشائر الصادقة ، بالفتوحات المتلاحقة ، من قاعدته المتأصلة ، إلى أصل ، فبمثله يجب اللياذ ، والعياذ ، ولشبهه يحق الالتجاء ، والارتجاء ، ولأمر ما آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ، ومنه جلّ جلاله نرغب أن يَخِيرَ لنا ولجميع المسلمين ، ويؤوينا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع أمين ، آمين آمين ، ونرجو أن يكون ربنا . الذي هو في جميع الأمور حسيبنا ، قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا ،

١ من أبيات لابن حجاج في أبي الفضل الشيرازي (اليتيمة ٣ : ٤٧) .

وساقنا توفيقه وحدانا ، إلى الاستجارة بملك حقي ، كريم وفي ، أعزّ جاراً من أبي دواد ، وأحمى أنفاً من الحارث بن عبّاد ، يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد ، إن أغاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان يُذكر ، وإن أنعش حُشاشة هالكٍ فما كعب بن مامة^١ على فعله وحده يُشكر ، جليسه كجليس القعقاع بن شور^٢ ، ومُذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب إلى ثور^٣ ، إلى التحلي بأمهات الفضائل ، التي أضدادها أمهات الرذائل ، وهي الثلاث : الحكمة والعدل والعفة التي تشملها الثلاثة الأقوال والأفعال والشمائل ، وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم ، وعلم وحلم ، وتيقظ وتحفظ ، واتقاء وارتقاء ، وصول وطول ، وسماح ونائل ، فبنور حلاه المشرق ، يفتخر المغربُ على المشرق ، وبمحتده السامي خطرته في الأخطار ، وبيته الذي ذكره في النباهة والنجابة قد طار ، يباهي جميع ملوك الجهات والأقطار ، وكيف لا وهو الرفيع المنتسب والنَّجار ، الراضع من الطهارة صقّو ألبان ، الناشئ من السراوة وسط أحجار ، في ضيضيء المجد وبجوح الكرم ، وسراوة أسرة المملكة التي أكتافها حرم ، وذؤابة الشرف التي مجاذبتها لم تُرم ، من معشر أيّ معشر بخلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم ، وجبّئوا إن لم يحموا سوى ذمارهم ، بنو مرين ، وما أدراك ما بنو مرين :

سَمُّ العُدَاةِ وآقَةُ الجُرُورِ^٤

النازلونَ بكلِّ معرِكٍ والطيبونَ معاهد الأزرِ

لهم من الهفوات انتفاء ، وعندهم من السيّر النبوية اكتفاء ، انتسبوا إلى بر

١ مضرب المثل في الإيثار لأنه آثر صاحبه النمري على نفسه بالماء ومات ظمأ .

٢ يضرب به المثل في حسن المجالسة ، قال الشاعر :

وكننت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس

٣ يريد سفيان الثوري ، والرباب مجموعة قبائل فيها ثور وعوف وضبة .

٤ صدر هذا البيت من شعر الخرنق « لا يبعدن قومي الذين هم » .

ابن قيس ، فخرجوا في البرُّ عن القيس^١ ، ما لهم القديم المعروف ، قد نفذ في سبيل المعروف ، وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف ، من طرق القنا والسيوف ، علي الحسن من المقاصد موقوف ، تحمُّد من صغيرهم وكبيرهم ذابلهم ولدتهم ، قلله آباء أنجبوهم وأمهاة ولدنهم :

ثُمَّ الأَنُوفِ مِنَ الطَّرَازِ الأَوَّلِ^٢

إليهم في الشدائد الاستناد وعليهم في الأزمات المَعْوَل ، ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الحَظْوِ الواسع والباع الأطول ، كأئما عناهم بقوله جَرُول^٣ :

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أَحْسَنُوا البنا وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عقدوا شدُّوا
وإن كانت التعماء فيهم جزَّوا بها وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا
وتعدِّلني أبناء سَعَدٍ عَلَيهِمْ وما قلتُ إلاّ بالتي علمتُ سعد

ويقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه^٤ :

قَوْمٌ إذا عَقَدُوا عَقْدًا لِحارِهِمْ شلوا العنَاجَ وشلوا فوقه الكَرَباءُ^٥

يزيحون عن التزليل كل نازح قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهم أحق بما قاله في منقر قيس^٦ بن عاصم :

١ القيس : المقايمة .

٢ عجز بيت لحسان ، صدره « بيض الوجوه كريمة أحسابهم » .

٣ ديوان الخطيئة : ٤١

٤ ديوان الخطيئة : ١٦ .

٥ العنَاج : حبل يجمل في أسفل الدلو تشد به العراقي ، والكرب عقد منى يشد على العراقي ، والمعنى : إذا عقدوا أوفوا لمن عقدوا وكان عقدهم وثيقاً .

٦ من الحماسية ٦٨٦ (شرح المرزوقي : ١٥٨٤) وروى القتيبي في عيون الأخبار (١ : ٢٨٦) أنه قال هذا الشعر حين بلغه أن ابن أخيه قتل ابنه .

لا يَقْتَنُونَ لَعَيْبِ جَارِهِمْ^١ وَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِمْ قُطْنُ^٢

حُلاَمُ هَذِهِ الْغَرِيْزَةُ الَّتِي لَيْسَتْ بِاسْتِكْرَاهٍ وَلَا جَعَلٌ ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ دَامَ نَصْرُهُ قَسِيمَهُمْ فِيهَا حَلْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، ثُمَّ هُوَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ سِوَاهُمْ بِالْأَوْصَافِ الْمَلُوكِيَّةِ مُسْتَعْلٍ ، أَرَفَضَ مُزْتَمَهُ مِنْهُ عَنْ غَيْثِ مَلِيَّتِهِ يَمْحُو آثَارَ اللَّزْبَةِ ، وَانْشَقَّ غَيْلَهُمْ مِنْهُ عَنْ لَيْثِ ضَارٍ مُتَقَبِّضٍ عَلَى بَرَائِثِهِ لِلوُثْبَةِ ، فَقَلَّ لِسُكَّانِ الْقَلَا : لَا تَفْرَنْكُمْ أَعْدَادُكُمْ وَأَمْدَادُكُمْ ، فَلَا يَبَالِي السَّرْحَانُ الْمَوَاشِي سِوَاءَ مَشَى إِلَيْهَا النَّقَرَى أَوْ الْجَفَلَى^٣ ، بَلْ يَصْدَمُهُمْ صَدْمَةٌ تَحْطُمُ مِنْهُمْ كُلَّ عِرْنَيْنٍ ، ثُمَّ يَتَلَعُّ بَعْدَ أَشْلَاءِهِمْ الْمَعْفَرَةَ ابْتِلَاعَ التَّنِينِ . فَهُوَ هُوَ كَمَا عَرَفُوهُ ، وَعَهْدُوهُ وَالْفَوَّهُ ، أَخُو الْمَنِيَا ، وَابْنُ جَلَا وَطَّلَاعِ الثَّنِيَا ، مَجْتَمِعٌ أَشَدُّهُ ، قَدْ احْتَنَكَتْ سَنَهُ وَبَانَ رَشْدُهُ ، جَادٌ مَجْدٌ ، مُحْتَرَمٌ بِجَزَامِ الْحَزْمِ مَشْمَرٌ عَنْ سَاعِدِ الْجِلْدِ :

لَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا مِنْ قَلْبِ دَمٍ^٤ وَلَا يَبِيْتُ لَهُ جَارٌ عَلَى وَجَلٍ^٥

أَسَدِي الْقَلْبِ أَدْمِي الرِّوَاءِ ، لَا بَسَّ جِلْدِ النَّمْرِ يَزُوي الْعِنَادَ وَالنَّوَاءَ^٦ :

وَلَيْسَ بِشَاوِيٍّ عَلَيْهِ دِمَامَةٌ^٧ إِذَا مَا سَعَى يَسْعَى بِقَوْسٍ وَأَسْهَمٍ
وَلَكِنَّهُ يَسْعَى عَلَيْهِ مُفَاضَةً^٨ دَلَاصٌ كَأَعْيَانِ الْجِرَادِ الْمُنْظَمِ

فَالنَّجَاءُ النَّجَاءُ سَامِعِينَ لَهُ طَائِعِينَ ، وَالوَحْيُ الْوَحْيُ لَاحِقِينَ بِهِ خَاضِعِينَ ، قَبْلَ أَنْ تَسَاقُوا إِلَيْهِ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، وَيَعْيَا الْقَدَاءُ بِتَفَائِسِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ عَلَى الْقَادِ ، حَيْثُ يَعْبُضُ ذُو الْجَهْلِ وَالْقَدَامَةُ ، عَلَى يَدَيْهِ حَسْرَةٌ وَتَدَامَةٌ ، إِذَا رَأَى

١ النَّقَرَى : الدَّعْوَةُ الْخَاصَّةُ ، وَالْجَفَلُ : الْعَامَّةُ ، يَعْنِي وَحْدَهُ أَوْ مَعَ جَمَاعَةٍ .

٢ الْبَيْتُ لِأَبِي سَعِيدِ الْخَزْرَمِيِّ (أَمْوَالِي الْقَالِي ١ : ٢٥٩) .

٣ أَنْظَرَ السَّانَ (شَوْه - عَيْن) .

٤ الشَّوِي : صَاحِبُ الشَّاهِ .

٥ فِي قِصَصِ : وَالْوَجَلُ الْوَجَلُ .

أبطال الجنود، تحت خوافق الرايات والبُنود . قد لفحتهم نار ليست بذات خمود ، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عادٍ وثمود ، زعقات تؤزّ الكتاب أزاً ، وهمزاً محققاً للخيل بعد المد المشبع للأعنة همزاً ، وسلاً للهندية سلاً وهمزاً للخطيّة همزاً ، حتى يقول النسر للذئب : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ (مریم : ٩٢) ، ثق خليفة الله بذلك ، في كل من رام أذى رعيتك أو أذاك ، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى في ذوي الشقاق والنفاق ، الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق ، وينصبون حبال البغي والفساد في جميع النواحي والآفاق ، فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين ، أتى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يُصلح عمل المفسدين ، ولا يهدي كيد الخائنين ، وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم ، بعدما زيننا معاطفها باستعفافكم بدرّ ثناء أبى من در العقد النظيم ، متظمين في سلك أوليائكم ، متشرفين بخدمة عليائكم ، ولا فقَدَ عزة ولا عدما ، من قصد مئابتكم العزيزة وخدمها ، وإن المرامي على سنائكم ، بلدير بحرمتكم واعتنائكم ، وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصناً حصيناً ، عاش بقية عمره محروساً من الضيم مصوناً ، وقد قيل في بعض الكلام : من فعلت به نكاية الأيام ، أقامته إغاثة الكرام ، ومولانا أيده الله تعالى ولياً ما يرفقه إلينا من مكرمة بكر ، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر ، ويروي معنن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر ، وغيره من ينم عن ذلك فيوقظ ، ويسترسل مع الغفلة حتى يُذكر ويوعظ ، وما عهد منذ وُجد إلا سريعا إلى داعي الندى والتكرم ، بريئاً من الضجر بالمطال والتبرم ، حافظاً للجار الذي أوصى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بحفظه ، مستفرغاً وسعه في رعيه المستمر ولحظه ، آخذاً من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه :

١ ص : وعزاً .

فهو من دَوْحَةِ السَّنَا فرُعٌ عَزٌّ ليس يَحْتَاجُ مَجْتَنِيهِ لَهْزٌ
 كَفَّهُ فِي الْأَعْمَالِ أَغْزَرُ وَبَلٌّ وذَرَاهُ فِي الْخَوْفِ أَمْنَعُ حَرِزٌ
 حَلْمُهُ يُسْفِرُ اسْمُهُ لَكَ عَنْهُ فَتَمَهُمُ يَا مُدَّعِي الْفَهْمِ لَغْزِي
 لَا تَسْلَهُ شَيْئاً وَلَا تَسْتَلُهُ نَظْرَةٌ مِنْهُ فِيكَ تَغْنِي وَتَجْزِي
 فَتَدَاهُ هُوَ الْفُتْرَاتُ الَّذِي قَدْ عَامٌ فِيهِ الْأَنَامُ عَوَمَ الْإَوْزُ
 وَحِمَاهُ هُوَ الْمَنْعُ الَّذِي تَرَى جَعَّ عَنْهُ الْخَطُوبُ مَرَجَعُ عَجْزِي
 فَدَعَا ذَهَنُهُ يَزَاوِلُ قَوْلِي فَهُوَ أَدْرَى بِمَا تَضْمَنُ رَمْزِي
 دَامَ يَجِيَا بِكُلِّ صَنْعٍ وَمَنْ وَيَعَافِي مِنْ كُلِّ بَوْسٍ وَزَجْزِي

وكأننا به قد عمل على شاكلة جلاله ، من مد ظلاله ، وتمهيد حلاله ، وتلقى
 ورودنا بحسن تهلله واستهلاله ، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله ، وإيرادنا على
 حوض كوثره المترع بزلاله ، والله سبحانه يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حله
 وارتحاله ، ومآله وحاله ، ويؤيد جنده المظفر ويؤيدنا بتأييده على نزال علوه
 واستنزاله ، وهز النوابل لإطفاء ذُباله ، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن يريه
 قرّة العين في نفسه وأهله وخدامه وأمواله ، وأنظاره وأعماله ، وكافة شؤونه
 وأحواله ، وأحق ما نصل بالسلام وأولى ، على المقام الجليل مقام الخليفة المولى ،
 أركى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه وأرساله ، سيدنا ومولانا محمد ، صلى الله
 عليه وسلم وعلى جميع أصحابه وآله ، صلاة وسلاماً دائمين أبداً موصولين
 بلام الأبد واتصاله ، ضامين لمجددهما ومرددهما صلاح فاسد أعماله ،
 وبلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وإفضاله ؛ انتهى .

[ترجمة محمد العربي كاتب الرسالة قلاً عن الوادي آشي]

وكاتب هذه الرسالة على لسان السلطان المخلوع ، قال الوادي آشي في حقه^١ :

١ انظر تعريفاً بالفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي العربي صاحب هذه الرسالة في أزهار الرياض ١ : ١٠٣ .

إنه إمام الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة الذي قطف الكمال لما نور ، ورتب محاسن البديع في درر فقره وطوره ، وغرف من بحر عجاج ، واقتطف من خاطر وهاج ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، وما أحسن قوله فيمن قد ظفر به المسلمون :

ألا ربَّ مغرورٍ تنصّر ضلّةً فحاقَ بهِ شؤمُ الضلالِ وشرُّه
 فإن يرتفع عند النصارى بالابتدا فكم عندنا من حرف جبلٍ يجرُّه

وقال الوادي آشي أيضاً في موضع آخر ما نصه : ولشاعر العصر ، ومالك زمامي النظم والنثر ، والفقير العالم المتقن المتفنن العارف الأوحى النبيه النبيل ، سيدي محمد العربي وصل الله تعالى رفعة قدره ، وحرس من غير الأيام أشعة بدره^١ :

الحبُّ في جُمهورِ أنواره فأينَ الاخوانُ والاحبابُ
 وأين أينَ الاجتماعاتِ ، قد تَهَيَّأتْ لهنَّ الاسبابُ
 وأين بنت الجبن ؟ مهما بدتْ طارت إليها شوقاً البابُ
 وأين الالبانُ لأكوابها في برَمِ الأرزِ تسكابُ
 واللحمُ بالبسباسِ قد ألفتْ لطبخه في القدرِ الاحطابُ
 والعودُ ذو دندنةٍ يطبي آثارها للطَّارِ دبدابُ
 ومُلحِ الأصواتِ قد طورحتْ وجاء معبدهُ وزريابُ^٢
 وفُضَّ للهوى ختامُ ولم يُسدَّ في وجهِ الهوى بابُ
 وقيلَ للوقارِ قمُ قبلَ أن تُسَلَبَ عنكَ الآنَ الاثوابُ
 وكلُّ إنسانٍ وما يشتهي ليسَ على مناهُ حُجَّابُ

١ قد تعرأ القصيدة معربة بشيء من التعسف ، ولكني أعتقد أنها قد تعد من الشعر الملحون .

٢ سقط هذا البيت من ص .

مسترسلاً ليس له عدلٌ كلاً ولا عليه رقابٌ
في راحة خلعت أرسانها مثلها تُعصرُ الاعنابُ
فكلُّ بستانٍ قد استأسدتُ فيه النواويرُ والاعشابُ
وأطلعَ الترابُ أذواحَه كأنها العُربُ الاترابُ
لما تحلَّتْ بجلى زهرها داخلها بالحسنِ الاعجابُ
عرائسٌ ليس لها في سوى مائةٍ أو يئنةٍ خطابُ
أيام تبسدي ثمرات بدا في جنباتهنَّ الارطابُ
كأنه في العينِ ياقوت أو كأنه في الفمِ جلابُ
هيهات هيهات أمان لها خلَّبُ برقٍ لكِ خلابُ
ما حوتِ الرؤوسُ أمثالها فكيف تحوينَّ الاذئابُ
قد عاقَ عن ذلك دهرٌ به تُعدمُ الافراحُ والاطرابُ
يرومُ الانسانُ غلاباً له والدهرُ للانسانِ غلابُ

وقال رحمه الله تعالى لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة :

بالطبلِ في كلِّ يومٍ وبالتفجيرِ نراعُ
وليسَ من بعد هذا وذلكَ إلا القيراعُ
يا ربَّ جبركَ يرجو من هيصَ منه الذراعُ
لا تسلبني صبراً منه لقلبي ادراعُ

وله رحمه الله تعالى في الموشحات اليدُ الطولى ، فمن ذلك قوله :

بدرَ أهلِ الزمان الرفيعِ القدرِ
لا تزلُ في أمان من كسوفِ البدرِ

وله من أخرى :

هَلْ يَصِحُّ الْأَمَانُ مِنْ شَيْبِهِ الْبَدْرُ
وهو مثل الزمان مُنْتَمِسٌ لِلْعَدْرِ
لم يَغْرَ الْأَغْرَ غَيْرَ غَيْرِ جَاهِلِ
عَيْشُهُ الْحَلْوَى مَرَّ وَهُوَ فِيهِ نَاهِلِ
وَالصَّبَا الْغَضَّ مَرَّ وَهُوَ عَنْهُ ذَاهِلِ
مَرشَفُ الْبَهْرَمَانِ فَوْقَ ثَغْرِ الدَّرِّ
مَطْمَعٌ لِلْأَمَانِ بِاقْتِرَابِ الدَّرِّ

وعارض رحمه الله تعالى بهاتين الموشحتين الموشحة المشهورة :

ضاحكٌ عَنْ جُمَانِ سَافِرٍ عَنِ بَدْرِ
ضاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحَوَاهِ صَدْرِي

ومتن عارض هذه الموشحة ابن أرقم إذ قال :

مبسمُ الْبَهْرَمَانِ فِي الْمِحْيَا الدُّرِّي
صَادَ قَلْبِي وَبَانَ وَأَنَا لَمْ أُدْرِ

والإنصاف أن معارضة العربي أحسن من هذه .

وله أيضاً معارضتان غير ما تقدم : الأولى قوله :

بَانَ لِي ثُمَّ بَانَ ذَا خُلُودِ حُمْرِي
يَشْنِي مِثْلَ بَانَ فِي ثِيَابِ خَضْرِي

والثانية قوله :

هَلْ لِمِرَّكَ ثَانَ فِي سَنَاهُ الدُّرِّي
أَوْ لِحَوْبَائِي ثَانَ عَنْ هَوَاهَا الْعُنْدَرِي

يا مليحاً جلا عن عيّا جميل
 همتُ فيه ولا هيمان جميل
 ملّ قليلاً إك من إلكَ يميل
 عاشقٌ فيكَ فانّ كاتم للسرّ
 لكَ منه مكان في صميم الصدر

ومن نظم العربي المذكور لما عرض عليه السلطان رياسة كتابه من قصيدة :

أوجهُ سَعْدِي انْحَطَّ عَنْهُ اللَّثَامُ أم بَدْرُ أَفْقٍ فُضَّ عَنْهُ الْغَمَامُ
 أم أنا في حالي لا عقلَ لي أم حلمٌ قد لاح لي في المنام
 يا لكَ مَرَأَى مَنْ رَأَى حَسَنَهُ هيح للقلب غراماً فهام
 كأنما أقبس نور البهّا من وجه مولانا الإمام الهمام
 ابن أبي الحسن الأسرى الذي قد كان للأملاك مسك الختام
 ضرغام قدا أنجبَ شبيهاً لهُ في صدقِ بأسٍ ومضاء اعترام
 نامى وسامى فأفَاعيلُهُ تَنَقَّلُهَا أَبْنَاءُ سَامٍ وَحَامٍ
 لهُ النَّصْرُ الَّذِي جَاءَهُ والسيف من طلى أعاديه دام
 فيا أمير المؤمنين الذي له بعروة اليقين اعتصام
 أبشر بجده مُقْبِلٍ لم يؤل إلى انصرافٍ لا ولا لانصرام
 وعزة لم يُفَضِّ بنيانها إلى انهدادٍ لا ولا لانهدام
 لله منكَ مَلِكٌ جُنْدُهُ زُهرُ النجوم^٢ وهو بَدْرُ التمام

ومنها :

يطرب من مادحه مثلما يطرب قلب الصبّ سجج الحمام

١ قد : سقطت من ق ص .

٢ ق : الدراري .

فيفعل الشعر بأعطفِفه ما ليس تفعل بين المدام
وإن حكي في حسنه يوسفاً فمدحه يُشبه زهر الكمام
ومنها :

قداره لَيْسَتْ يَغْتَدِادُهُمْ مَعْ أَنهَا تُدْعَى بدار السلام
ومنها :

أسأله الإعفاء مِنْ كلِّ ما أعجزُ عن حملِ له والتزام
ومنها :

مُسْتَشْفِعاً لَهُ بِخَيْرِ الْوَرَى مُحَمَّدَ عَلَيْهِ أَزْكَى السَّلَامِ
ومنها :

وكلُّ إنسانٍ وما اختاره ورُبَّ ذي عذِرٍ قد أضحى يلام
وآخرها :

فالحمدُ لله على أن غدا للشَّمْلِ بعدَ الانصراعِ التَّامِ
ولنختتم هذه الترجمة بقوله^١ :

جز بالبساتين والرياض فما أبهج مرثيها^٢ وأحلاه
واعجب بها للنبات ولتلك في أسفله ناظراً وأعلاه
وقدس الله عند ذلك وقل سبحانه لا إله إلا هو

سبحان وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والحمد لله رب العالمين.

انتهى المجلد الرابع

١ الأبيات في أزهار الرياض ١ : ١٠٣ .
٢ ق : مرآها .

محتويات المجلد الرابع

٢٤٩ - ٥

الباب السابع (تمة)

- ٤٧٦ - بين أبي بكر ابن القبطرنة وابن صارة ٥
- ٤٧٧ - مراسلات شعرية بين أبي بكر الزبيدي والحاجب المصحفي ، وشيء من شعر الزبيدي ٧
- ٤٧٨ - تفوق سهل بن مالك في مجلس شعري بسبته ٨
- ٤٧٩ - بين ابن مطروح البلنسي وأبي الربيع ابن سالم ٨
- ٤٨٠ - أبو أمية ابن حمدون على باب الشلوين ٩
- ٤٨١ - هجاء النحلي لابن صمادح وعفو هذا عنه ٩
- ٤٨٢ - الرصافي يتشوق إلى بلده بلنسية ٩
- ٤٨٣ - شعر لأبي بكر الشلطيشي ١٠
- ٤٨٤ - « لأبي بكر ابن العطار الباسي ١٠
- ٤٨٥ - « لمحمد بن حسن الجبلي النحوي ١٠
- ٤٨٦ - « لمحمد بن حرب ١٠
- ٤٨٧ - محمد بن اليسع وإهداؤه الورد لعارض الجيش ١١
- ٤٨٨ - شعر لأحمد بن أفلح ١١
- ٤٨٩ - « لأحمد بن تليد الكاتب ١١
- ٤٩٠ - « لإسحاق بن المنادي ١٢
- ٤٩١ - « لغالب بن عبد الله الثغري ١٢
- ٤٩٢ - « لابن الإمام الفرناطي في هجاء مراکش ١٢
- ٤٩٣ - « لابن الحمارة في أبي القاسم ابن عشرة ، وموشحة للتطيلي ١٣
- ٤٩٤ - بين محمد بن عباد وابن القابلة السبي ١٣
- ٤٩٥ - شعر لابن خروف (والصحيح لابن طلحة الصقلي) ١٤
- ٤٩٦ - ابن خضاجة وابن عائشة وابن الرقاق في بستان ١٤

- ٤٩٧ - ابن زنون وكتاب « التحف والطرف » ومعارضات سينية . ١٥
- ٤٩٨ - شعر لأبي بكر ابن حبيش ١٦
- ٤٩٩ - « لأبي بكر ابن يوسف اللخمي ١٦
- ٥٠٠ - بين أبي زيد ابن أبي العافية وابن العطار القرطبي ١٧
- ٥٠١ - ثلاثة أدباء من مرسية يصلون خلف إمام يخطيء في القراءة ١٨
- ٥٠٢ - شعر لابن خفيف في أحلب وصبي ١٨
- ٥٠٣ - « لأبي الصلت في الخمول ١٨
- ٥٠٤ - « لبعض المعاربة كتب به لأبي العباس ابن مضاء ١٩
- ٥٠٥ - « لأبي عبد الله القرطبي يستنجز وعداً ١٩
- ٥٠٦ - « لابن هذيل كتب به إلى الغني بالله ١٩
- ٥٠٧ - « لابن الزقاق في غلام يهودي ١٩
- ٥٠٨ - « لأبي حيان الجياني ١٩
- ٥٠٩ - بين أحد أدباء مرسية وأبي العباس ابن سعيد ٢٠
- ٥١٠ - شعر للسميسر في قرابة السوء ٢٠
- ٥١١ - « لابن خفاجة في الأندلس ٢٠
- ٥١٢ - « لبعض الأندلسيين ٢٠
- ٥١٣ - « لأبي يحيى ابن هشام القرطبي في خائط ٢٠
- ٥١٤ - « لأبي جعفر ابن عبد الولي البلنسي ٢١
- ٥١٥ - « لأبي العباس التيجاطي ٢١
- ٥١٦ - « لابن جحاف البلنسي ٢٢
- ٥١٧ - « لأبي العباس المالقي ٢٢
- ٥١٨ - بين ابن عبد المنعم وأبي عبد الله الشاطبي وابن قوشرة ٢٢
- ٥١٩ - ابن الصائق النحوي يذيل على بيتي الحريري ٢٣
- ٥٢٠ - عبادة يمدح أبا بكر والد الوزير أبي الوليد ابن زيدون ٢٣
- ٥٢١ - شعر لابن قرمان الزجال ، وترجمة له ٢٣
- ٥٢٢ - نقول عن المطمح : ٢٥ - ٥٥

- ٢٥ 1 - ابن القوطية
- ٢٥ 2 - ابن مغيث
- ٢٥ 3 - ابن سيده
- ٢٨ 4 - أبو محمد غانم المخزومي
- ٢٨ 5 - أبو عمر ابن عيد البر
- ٣٠ 6 - أبو بكر ابن أبي الدوس
- ٣١ 7 - أبو الفضل ابن الأعلم
- ٣٥ 8 - يوسف بن هارون الرمادي
- ٤٠ 9 - محمد بن هافه
- ٤٦ 10 - ابن فرج صاحب «الحدائق»
- ٤٨ 11 - أبو عبد الله ابن الحداد
- ٥١ 12 - الأعمد بن بليطة
- ٥٢ 13 - عيادة بن ماء السماء
- ٥٣ 14 - ابن عائشة
- ٥٥ ٥٢٣ - ترجمة ابن أبي خالد اللخمي الإشبيلي عن «تحفة القادام»
- ٥٩ ٥٢٤ - شعر للأعمى التطيلي في وصف السفينة
- ٥٩ ٥٢٥ - لابن وهبون في وصف الأسطول
- ٦٠ ٥٢٦ - لابن خفاجة
- ٧٦ - ٦٠ ٥٢٧ - قطعة منقولة عن المغرب
- ٦٠ 1 - عبيد الله بن جعفر الإشبيلي
- ٦١ 2 - علي بن جحدر الزجاج
- ٦١ 3 - أحمد المقرئ الكساد
- ٦٢ 4 - أبو القاسم المنشي
- ٦٢ 5 - أبو زيد العثماني
- ٦٢ 6 - أبو زكريا الأركشي
- ٦٣ 7 - أبو عمران الطرياني
- ٦٣ 8 - أبو عمرو ابن حكيم
- ٦٣ 9 - علي بن الجعد القرموني
- ٦٤ 10 - أبو الحسن ابن لبال

- ٦٤ 11 - أبو جعفر الشريشي .
- ٦٤ 12 - أبو العباس ابن شكيل الشريشي .
- ٦٥ 13 - أبو عمرو ابن غياث .
- ٦٥ 14 - ابن عبد العزيز يخاطب ابن عبدون .
- ٦٥ 15 - أبو القاسم ابن عبد العزيز .
- ٦٥ 16 - أبو عبد الله الجزيري الثائر .
- ٦٦ 17 - بين المنصور وعبد الملك الجزيري .
- ٦٧ 18 - بين الحجاري وابن حصن الجزيري .
- ٦٨ 19 - بين ابن سعيد وأبي العباس ابن بلال .
- ٦٩ 20 - أبو الوليد القسطلي .
- ٧٠ 21 - أبو كثير الطريفي .
- ٧٠ 22 - أبو عامر ابن الجلد .
- ٧٠ 23 - أبو عبد الله محمد الشلبي .
- ٧٠ 24 - أبو بكر ابن الملح .
- ٧١ 25 - أبو القاسم ابن الملح .
- ٧٢ 26 - أبو بكر ابن عبد القادر الشلبي .
- ٧٢ 27 - أخو ابن السيد البطليوسي .
- ٧٢ 28 - أبو بكر ابن الروح الشلبي .
- ٧٣ 29 - أبو بكر ابن المنخل الشلبي .
- ٧٣ 30 - أبو بكر ابن عمار .
- ٧٣ 31 - أبو الفضل ابن الأعلم .
- ٧٤ 32 - الرمادي .
- ٧٤ 33 - أبو الفضل ابن الأعلم .
- ٧٥ 34 - إدريس بن اليمان العبدي .
- ٧٥ 35 - بين الميثم وطيفور (مهاجاة) .
- ٧٦ 36 - أبو عمران ابن سعيد عند ابن حمدين .
- ٦٩ ٥٢٨ - شعر لبعض أهل الأندلس .
- ٧٧ ٥٢٩ - رسالة الأعلم الشتمري في معنى « المسهب » .
- ٧٩ ٥٣٠ - رسالة الأعلم الشتمري في المسألة الزنبورية وسيبويه .

- ٨٦ ٥٣١ - شعر لأبي إسحاق الإلبيري .
- ٨٦ ٥٣٢ - لابن صارة في أبي الفضل ابن الأعلم .
- ٨٦ ٥٣٣ - لابن هانيء الأندلسي .
- ٨٧ ٥٣٤ - للقسطلي في أسطول المنصور .
- ٨٧ ٥٣٥ - للجراوي ، وفي معناه لصفوان وابن مجير .
- ٨٨ ٥٣٦ - لبعضهم في الباذنجان .
- ٨٩ ٥٣٧ - لابن خروف .
- ٨٩ ٥٣٨ - لأبي القاسم ابن هشام .
- ٨٩ ٥٣٩ - لبعضهم .
- ٩٠ ٥٤٠ - لأبي الوليد الرقشي .
- ٩٠ ٥٤١ - لأبي الحسن ابن عيسى .
- ٩٠ ٥٤٢ - لأبي ذر الحشني .
- ٩٠ ٥٤٣ - لابن أبي خالص الرندي .
- ٩٠ ٥٤٤ - لابن مفوز المعافري .
- ٩٠ ٥٤٥ - لأبي الوليد ابن زيدون .
- ٩١ ٥٤٦ - للهيم .
- ٩١ ٥٤٧ - لابن عياض القرطبي .
- ٩١ ٥٤٨ - لأبي الحسين النفزي .
- ٩١ ٥٤٩ - لابن صارة .
- ٩٢ ٥٥٠ - أشعار للمعتمد بن عبّاد .
- ٩٤ ٥٥١ - شعر لابن زيدون في المعتضد .
- ٩٤ ٥٥٢ - للمعتمد في وصف مجن .
- ٩٤ ٥٥٣ - مجلس غناء ينثر بنهاية الرشيد ابن المعتمد .
- ٩٦ ٥٥٤ - المغني السوسي عند المعتضد في مجلس مماثل .
- ٩٦ ٥٥٥ - شعر للمعتمد بعدما خلّع وسُجن .
- ٩٦ ٥٥٦ - ابن الباتة يزور المعتمد بأغمات .

- ٩٨ ٥٥٧ - لسان الدين يزور قبر المعتمد .
- ٩٩ ٥٥٨ - مقطعات لابن زيلون .
- ١٠٠ ٥٥٩ - شعر للأسعد بن بليظة .
- ١٠٠ ٥٦٠ - و لابن خلسة المكفوف .
- ١٠١ ٥٦١ - و لابن الحداد في مدح المعتصم .
- ١٠٢ ٥٦٢ - و لعبد الجليل بن وهيون .
- ١٠٢ ٥٦٣ - و لابن أبي وهب الأندلسي .
- ١٠٢ ٥٦٤ - و لابن الباتة .
- ١٠٣ ٥٦٥ - و للقرزاز في مدح ابن صمادح .
- ١٠٣ ٥٦٦ - أشعار وخمسة لأبي الحسن ابن الحاج .
- ١٠٦ ٥٦٧ - أشعار لابن خفاجة .
- ١٠٧ ٥٦٨ - شعر لابن الرفاء .
- ١٠٧ ٥٦٩ - و لأبي محمد ابن عبد البر .
- ١٠٨ ٥٧٠ - أشعار للسميسر .
- ١٠٩ ٥٧١ - شعر لابن شاطر السرقسطي .
- ١٠٩ ٥٧٢ - و للحصري .
- ١٠٩ ٥٧٣ - و لابن عبد الصمد .
- ١٠٩ ٥٧٤ - و لابن عبد الحميد البرجي .
- ١٠٩ ٥٧٥ - و لعبادة .
- ١١٠ ٥٧٦ - و لابن المطرف المنجم .
- ١١٠ ٥٧٧ - و لأبي الحسن ابن اليسع .
- ١١٠ ٥٧٨ - و للمستنصر وجوابه من ابن عميرة .
- ١١٠ ٥٧٩ - و لأبي العباس الرصافي .
- ١١١ ٥٨٠ - و لأبي الربيع ابن سالم .
- ١١١ ٥٨١ - أشعار لأبي القاسم ابن الأبرش .
- ١١٢ ٥٨٢ - بيت لابن حريق .

- ٥٨٣ - شعر لابن العطار الإشبيلي ١١٢
- ٥٨٤ - قول شعرية من التكملة : ١١٢
- 1 - 22 - القص ، الإلييري ، ابن مسلمة ، ابن أبي ركب ، أبو المعالي الإشبيلي ،
ابن الأتقر ، ابن فتح الثغري ، ابن نصير ، ابن ميمون ، ابن الحداد ،
بعض الجزريين ، المعتمد ، البرياني ، السيسر ، أبو الربيع الكلامي ،
عبد الحق الإشبيلي ، ابن صارة ، أبو محمد الطائي ، ابن حزم ، أبو
عبد الله الجبلي ، محمد بن عبد الله الحضرمي ١١٢-١١٩
- ٥٨٥ - أشعار لابن الأبار القضاعي ١١٩
- ٥٨٦ - كتاب الحل التيجانية ١٢١
- ٥٨٧ - مقطعات لابن مفوز ١٢١
- ٥٨٨ - أشعار لابن مكنون وتصحيح ما نسب إليه خطأ ١٢٢
- ٥٨٩ - اتصال صاحب المسهب بعبد الملك بن سعيد ١٢٣
- ٥٩٠ - ابن مرزقان يصف شمعة ١٢٤
- ٥٩١ - أشعار لأبي الأصبح ابن رشيد الإشبيلي ١٢٤
- ٥٩٢ - أشعار لأبي بكر ابن حجاج الناقبي ١٢٥
- ٥٩٣ - شعر لأبي وهب ابن عبد الرؤوف النحوي ١٢٦
- ٥٩٤ - (لفظا ١٢٦
- ٥٩٥ - (لابن المبارك الحبيبي ١٢٦
- ٥٩٦ - (لأحمد بن عثمان المرواني ١٢٦
- ٥٩٧ - (لعبد الله المرواني ١٢٧
- ٥٩٨ - (لإبراهيم بن إدريس العلوي ١٢٧
- ٥٩٩ - قصة هذيل الإشبيلي مع سائل عريان ١٢٧
- ٦٠٠ - حكاية ابن عمار مع شيخ ذي نادرة ١٢٧
- ٦٠١ - قصة السارق المشهور بالبازي الأشهب ١٢٨
- ٦٠٢ - قصة منصور بن عبد المؤمن مع أحد البتائين ١٢٩
- ٦٠٣ - أشعار لأحمد المقرئ الكساد ١٢٩
- ٦٠٤ - رأي القرموطي الرمسي وقد عرض عليه الأذفونش تغيير دينه ١٣٠

- ٦٠٥ - شعر لابن سالم الفرقاطي على السنة الأطباء ١٣٠
- ٦٠٦ - « لابن عمر الإشبيلي الخطيب ١٣٠
- ٦٠٧ - « لعبد الرحمن العثماني ١٣٠
- ٦٠٨ - « لأبي عمران موسى الطرياني ١٣١
- ٦٠٩ - بين مجاهد والمنصور الأصغر ، وموقف الوزير التاكر في ١٣٢
- ٦١٠ - شاعر يهجو رندة ١٣٢
- ٦١١ - شعر لحبلاص الرندي ١٣٣
- ٦١٢ - « لابن سعيد في مجلس ذكر فيه صديقه الأندلي ١٣٣
- ٦١٣ - « لأرقم لما فقاء بنو ذي النون من نسبهم ١٣٤
- ٦١٤ - بين ابن سفيان وأبي أمية ابن عصام ١٣٤
- ٦١٥ - شعر لابن أرفع رأسه في مجلس المأمون بن ذي النون ١٣٤
- ٦١٦ - « لأبي أحمد عبد المؤمن الطليطلي ١٣٥
- ٦١٧ - « لابن العسال الزاهد ١٣٥
- ٦١٨ - أشعار لأبي جعفر الوقشي وشميء من أشعاره ١٣٥
- ٦١٩ - « لأبي الوليد الوقشي ١٣٧
- ٦٢٠ - مروءة أبي الحسين ابن أبي جعفر الوقشي وظرفه ١٣٨
- ٦٢١ - أبو الحسين علي بن الحمارة ومهارته في الموسيقى ١٣٩
- ٦٢٢ - أمثلة من تبحر أهل الأندلس في العلم ١٣٩
- ٦٢٣ - رسالة ابن حبيش في جواز « ماذا » التكريرية دلالة على الحفظ ١٤١
- [ترجمة البيهقي النحوي المترجم على ابن حبيش] ١٤٦
- رجع إلى كلام الأندلسيين ١٤٧
- ٦٢٤ - مقطوعتان لصالح بن شريف الرندي ١٤٧
- ٦٢٥ - شعر لبعض الأندلسيين ١٤٧
- ٦٢٦ - شعر يرجح أنه لأندلسي ، في المقص ١٤٧
- ٦٢٧ - مؤلفون يردون على كتاب « المقرب » لابن عصفور ١٤٨
- ٦٢٨ - من شعر حلزم ومعارضة التجاني له ١٤٨
- ٦٢٩ - بين أبي بكر ابن الملح وابنه ١٤٨

- ٦٣٠ - قصيدة لابن صفوان الملقبي ١٤٩
- ٦٣١ - شعر لابن إدريس القضاعي الاصططوني ١٥٠
- ٦٣٢ - قصيدة لمحمد التطيلي الهذلي الفرناطي ١٥٠
- ٦٣٣ - بين ابن حسداي ويحيى الجزار في عودته إلى الجزائر ١٥٢
- ٦٣٤ - شعر لأبي الحسن ابن الحداد ١٥٣
- ٦٣٥ - د لابن مطروح في عزل وال ١٥٣
- ٦٣٦ - د لابن الحاج البليقي ١٥٣
- ٦٣٧ - د لأبي الحجاج يوسف القهري الداني ١٥٣
- ٦٣٨ - د لبعضهم في الرثاء ١٥٤
- ٦٣٩ - د لأبي جعفر البغيل ١٥٤
- ٦٤٠ - د لأبي جعفر المائي الملقبي ١٥٤
- ٦٤١ - د لأبي جعفر ابن طلحة ١٥٤
- ٦٤٢ - د لأبي جعفر النسائي الوادي آثم ١٥٥
- ٦٤٣ - د لأبي بكر ابن بقي ١٥٥
- ٦٤٤ - د للمتوكل بن الأفضس وبعض المشاركة ١٥٥
- ٦٤٥ - د لابن خلصة الضرير ١٥٦
- ٦٤٦ - د لابن اللبابة ١٥٦
- ٦٤٧ - د لابن اليمان العبدي ١٥٦
- ٦٤٨ - د لابن اللودين البلنسي ١٥٧
- ٦٤٩ - د لابن أبي الحصال ١٥٧
- ٦٥٠ - د لغالب الحجام ١٥٧
- ٦٥١ - أشعار لابن عائشة ١٥٧
- ٦٥٢ - شعر لأبي محمد ابن سفيان ١٥٨
- ٦٥٣ - د لابن الرقاق ١٥٨
- ٦٥٤ - مقطعات ليحيى السرقسطي ١٥٩
- ٦٥٥ - شعر للرصائي في دولاب ١٥٩
- ٦٥٦ - د للصابوني . وابن أبي ركب ١٥٩

- ٦٥٧ - شعر لبعضهم مخاطب به ابن حزم ، وجوابه عليه ١٦٠
- ٦٥٨ - و للصباني وخير عنه ١٦٠
- ٦٥٩ - و لابن مجير أنهم ابن القطان بانتحاله ١٦١
- ٦٦٠ - مجلس فيه أبو بكر ابن طاهر والحشفي وأبو حفص ابن عمر ١٦٢
- ٦٦١ - صديق أمي لأبي الحسين الصوفي يقول شعراً ١٦٢
- ٦٦٢ - عجاياة بين الوقشي وابن سراج ١٦٢
- ٦٦٣ - ترجمة أبي الحسن ابن أضحى ١٦٣
- ٦٦٤ - ذكر جملة من نساء الأندلس : ١٦٦
- 1 - أم السعد بنت عصام الحبيري ١٦٦
- 2 - حسانة التميمية ١٦٧
- 3 - أم العلاء بنت يوسف الحجازية ١٦٩
- 4 - أمة العزيز ١٦٩
- 5 - أم الكرام الصادحية ١٧٠
- 6 - النسائية البجانية ١٧٠
- 7 - العروضية مولاة أبي المطرف ابن غلبون ١٧١
- 8 - حفصة بنت الحاج الركونية ١٧١
- ٦٦٥ - [استطراد بقصتين] ١٧١
- رجع إلى أخبار حفصة ١٧٢
- ٦٦٦ - [سلمى بنت القراطيسي] ١٧٨
- رجع إلى حفصة ١٧٨
- ٦٦٧ - [أبو جعفر ابن سعيد] ١٧٩
- ٦٦٨ - [أخيل الرندي] ٢٠٢
- ٦٦٩ - [ترجمة الص] ٢٠٣
- رجع إلى أخبار أبي جعفر ابن سعيد ٢٠٤
- رجع إلى أخبار النساء ٢٠٥
- 9 - ولادة بنت المستكفي ٢٠٥
- 10 - اعتماد الرميكية ، زوجة المعتد ٢١١
- ٦٧٠ - [أخبار المعتد] ٢١٣

٢٢٨	.	.	.	٦٧١ - [تراجم منقولة عن الفتح]
٢٢٨	.	.	.	١ - ترجمة ابن النبي .
٢٢١	.	.	.	٢ - ابن ليال .
٢٢٤	.	.	.	٣ - عبد المعطي أبي بكر .
٢٢٦	.	.	.	٤ - ابن بقي .
٢٤١	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .
٢٤٣	.	.	.	٦٧٢ - [ابن جاج والمتضد]
٢٤٥	.	.	.	رجع إلى أخبار بقية بني عبّاد.
٢٤٩	.	.	.	٦٧٣ - [الراضي ابن المعتد]
٢٥٦	.	.	.	٦٧٤ - [مدائح ابن البابة في بني عبّاد]
٢٥٩	.	.	.	٦٧٥ - [مقطعات من أخبار المعتد]
٢٦٤	.	.	.	٦٧٦ - [ابن زيدون عند بني عبّاد]
٢٧٠	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .
٢٧١	.	.	.	٦٧٧ - [مقطعات لابن حمديس]
٢٧١	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .
٢٧٢	.	.	.	[رجع إلى ذكر الرميكية]
٢٧٤	.	.	.	٦٧٨ - [عود إلى أخبار المعتد]
٢٨٣	.	.	.	رجع إلى أخبار النساء
٢٨٣	.	.	.	11 - العبادية جارية المعتضد .
٢٨٤	.	.	.	12 - يثينة بنت المعتد .
٢٨٥	.	.	.	13 - حفصة بنت حمدون .
٢٨٦	.	.	.	14 - زينب المرية .
٢٨٦	.	.	.	15 - غاية المنى .
٢٨٧	.	.	.	16 - حمدة بنت زياد المؤدب .
٢٩٠	.	.	.	17 - عائشة بنت أحمد القرطبية .
٢٩١	.	.	.	18 - مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري .
٢٩٢	.	.	.	19 - أسماء العامرية .
٢٩٢	.	.	.	20 - أم الهناء بنت القاضي ابن عطية .
٢٩٢	.	.	.	21 - مهجة القرطبية .

٢٩٣	22 - هند جارية أبي محمد الشاطبي .
٢٩٤	23 - الشلية .
٢٩٥	24 - زهون الفرناطية .
٢٩٦	٦٧٩ - [ابن قزمان]
٢٩٧	رجع إلى أخبار زهون .
٢٩٨	٦٨٠ - مقطعات لابن الزقاق .
٣٠١	٦٨١ - شعر للخفاجي .
٣٠١	٦٨٢ - مقطوعتان لابن صارة .
٣٠١	٦٨٣ - مقطعات لابن المطار .
٣٠٢	٦٨٤ - بين ابن خاتمة وابن جزى .
٣٠٣	٦٨٥ - شعر للسلطان أبي الحجاج النصري .
٣٠٣	٦٨٦ - و لأبي القاسم ابن حاتم .
٣٠٤	٦٨٧ - و للقيه محمد بن سعيد الأندلسي
٣٠٤	٦٨٨ - و لابن جبير اليحصبي .
٣٠٤	٦٨٩ - و لقاضي مالقة إبراهيم البدوي .
٣٠٤	٦٩٠ - مصحف في جامع العديس بخط ابن مقلة .
٣٠٥	٦٩١ - شعر لابن عيلون .
٣٠٥	٦٩٢ - و لابن المناصف وآخر
٣٠٦	٦٩٣ - و لابن عمار .
٣٠٦	٦٩٤ - و لأبي الوليد الوقشي .
٣٠٦	٦٩٥ - و لأبي عبد الله ابن الصفار وغيره .
٣٠٦	٦٩٦ - و لأبي مروان الجزيري .
٣٠٧	٦٩٧ - و لحسان المصبيعي .
٣٠٧	٦٩٨ - و لأبي عمرو بن مهيب .
٣٠٧	٦٩٩ - و لعبد الله الجذامي .
٣٠٨	٧٠٠ - و لعبد الله بن أحمد الملقب قاضي غرناطة .
٣٠٨	٧٠١ - و لابن الحسن الملاحمي .

- ٧٠٢ - شعر لمحمد بن عبد الرحمن القرناطي في الشعب والقبيلة والعمارة . . . الخ ٣٠٩
 ٧٠٣ - د لأبي محمد الكلاعي الجياني وقد دخل على ابن رشد . . . ٣٠٩
 ٧٠٤ - د لأبي عبد الرحمن ابن جحاف البلنسي . . . ٣٠٩
 ٧٠٥ - د لأبي محمد ابن برطله . . . ٣٠٩
 ٧٠٦ - د وترجمة لأبي بكر ابن حبيش . . . ٣١٠
 ٧٠٧ - د لأبي بكر ابن القبطرنة في طلب باز . . . ٣١٣
 ٧٠٨ - بين المعتمد وابن عمّار . . . ٣١٣
 ٧٠٩ - شعر للذي الوزارتين أبي عيسى ابن ليون . . . ٣١٤
 ٧١٠ - خبير الحجاري صاحب المسهب وانصرافه إلى ابن هود . . . ٣١٤
 ٧١١ - أشعار في الزهد . . . ٣١٥ - ٣٤٩

1 - 70 - ابن خليل ، عبد الحق الإشبيلي ، ابن صالح الكنتاني ، ابن
 قنماز ، الإلييري ، ابن العريف ، ابن الأبرش ، ابن صقر ،
 ابن الأبار ، ابن عبد ربه ، ابن قاسم ، الأحمى التطلبي ، ابن
 قنماز ، الإلييري ، ابن أبي ركب ، ابن خميس ، ابن هارون
 القرطبي ، ابن صارة ، ابن الحاج البكري ، أبو الربيع ابن
 سالم ، يحيى التطلبي ، مغربي لعله أندلسي ، ابن عبد البر ،
 ابن عياش ، عبد الوهاب المالقي ، عبد الحق الإشبيلي ، الجياني ،
 عبد العليم الطرطوشي ، عبد المحسن البلنسي ، ابن فرج الميرتلي ،
 غانم المالقي ، ابن العريف ، المحاربي ، غريب الطليطي ، ابن
 الطراوة ، أبو الربيع سلام الباهسلي ، الزبيدي ، ابن
 الطلاء ، ابن حوط الله ، الهيثم الإشبيلي ، ابن افريرة ، ابن
 جبر ، أبو الحاج المنصفي ، ابن الصائغ الأموي ، الحسيني ، ابن
 محرز ، ابن حزم ، ابن الفزاز ، ابن الزقاق ، ابن صالح
 الشاطبي ، أيمن القرناطي ، الزبيدي ، فقيه طلييري ، ابن
 مفاور ، ابن صفوان ، بعض الأندلسيين ، أبو جعفر القيسي ،
 ابن أبي العاصي ، ابن الزيات ، ابن صارة ، ابن صاحب
 الصلاة الداني ، أبو الحكم الأموي ، الإلييري ، ابن خاتمة ،
 الحسيني ، أبو بكر ابن جبير ، ابن جبير الجصبي ، القلبي .

الباب الثامن

في تغلب العدو على الأندلس واستغاثة أهلها معاصريهم لإنقاذها ٣٥٠ - ٥٥٣

٣٥٠	.	٤	.	.	.	ظهور بلاي وخطافته .
٣٥٢	الاستيلاء على طليطلة .
٣٥٤	وقعة الزلاقة قتلاً عن الروض وغيره .
٣٧٧	دخول الأندلس في طاعة الموحدين
٣٧٨	عبد المؤمن بن علي .
٣٧٨	يوسف بن عبد المؤمن .
٣٨٠	يعقوب المنصور .
٣٨٢	محمد الناصر ووقعة المقاب .
٣٨٢	نهاية الموحدين .
٣٨٤	ظهور ابن هود وابن الأحمر .
٣٨٥	الدولة المرينية .
٣٨٦	رسالة من أبي الحسن المريني إلى الملك الصالح
٣٩٤	جواب الملك الصالح من إنشاء الصفدي .
٣٩٩	إجازة من الصفدي رواية الرسالتين
٣٩٩	أبو الحسن يكتب ثلاثة مصاحف .
٤٠٠	نبذة من أخبار أبي الحسن المريني .
٤٠٤	رسائل لسان الدين ابن الخطيب .
٤٠٤	١ - رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين .
٤١١	٢ - رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني .
٤١٥	٣ - رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس .
٤٢٠	٤ - رسالة إلى السلطان المريني في الاعتذار عن فرار أبي الفضل المريني من غرناطة
٤٢٤	٥ - رسالة على لسان الغني باقة إلى أبي عنان .
٤٢٩	٦ - رسالة عن الغني باقة إلى الأمير السعيد .

- ٧ - رسالة على لسان أبي الحجاج إلى أبي حنّان . ٤٣٢ . . .
- ٨ - رسالة على لسان يوسف النصري . ٤٣٦ . . .
- ٩ - رسالة في حاجة الأندلس إلى بر الدولة . ٤٣٨ . . .
- ١٠ - رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا . ٤٤٢ . . .
- ١١ - رسالة توضح ضيق حال الأندلس . ٤٤٤ . . .
- ١٢ - من رسالة طويلة . ٤٤٥ . . .
- ضياح المدن الأندلسية : ٤٤٦ . . .
- طليطلة - ٤٧٨ . ٤٤٧ . . .
- وقمة بطرنة - ٤٥٦ . ٤٤٨ . . .
- يريشتر - ٤٥٦ . ٤٤٩ . . .
- استرجاع بريشتر . ٤٥٤ . . .
- تطيلة وطرسونة . ٤٥٥ . . .
- بلنسية والقنيطور . ٤٥٥ . . .
- نهاية بلنسية . ٤٥٦ . . .
- قصيدة ابن الأبار السنية . ٤٥٧ . . .
- كتندة - ٥١٤ . ٤٦٠ . . .
- لوشة - ٦٢٢ . ٤٦١ . . .
- المرية - ٥٤٢ . ٤٦١ . . .
- [ترجمة الرشاطي] . ٤٦٢ . . .
- استرداد المرية وضياعها نهائياً . ٤٦٣ . . .
- [شعر في معركة العقاب] . ٤٦٤ . . .
- [ابن وزير] . ٤٦٥ . . .
- ضياح ماردة . ٤٦٥ . . .
- [المنظر وابنه المتوكل] . ٤٦٦ . . .
- [شعر لفازاني] . ٤٦٧ . . .
- [ترجمة الفاازاني] . ٤٦٨ . . .
- سقوط ميورقة نقلاً عن ابن عميرة . ٤٦٩ . . .
- [سعيد بن حكيم في منورقة] . ٤٧١ . . .
- سقوط عدة مدن (شقر ، سرقسطة ، شاطبة ، قرطبة ، إشبيلية) ٤٧٢ . . .

٤٧٣	.	.	.	موقعة أنيشة وترجمة أبي الريح ابن سالم
٤٧٦	.	.	.	[ابن العربي وموقعة ٥٢٧]
٤٧٧	.	.	.	[قصيدة الوقفي في مدح أبي يعقوب]
٤٧٩	.	.	.	[قصيدة في استنهاض الحفصي بعد سقوط بلنسية]
٤٨٣	.	.	.	[قصيدة في رثاء طليطلة]
٤٨٦	.	.	.	[نونية الرندي وشيء من شعرة]
٤٩٠	.	.	.	[رسالة ابن عميرة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية]
٤٩٦	.	.	.	[رسالة ابن الأبار التي أجاب أبو المطرف عنها]
٥٠٠	.	.	.	[فصول من درر السمط لابن الأبار]
٥٠٧	.	.	.	نهاية الأندلس عن كتاب «جنة الرضى» لابن عاصم
٥٢٩	.	.	.	[رسالة المخلوع أبي عبد الله إلى الشيخ الوطاسي]
٥٤٨	.	.	.	[ترجمة كاتب الرسالة محمد العربي]

Abu 'l-'Abbās A. al-Maqqarī

NAFH AT-TĪB

IV

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon

1968

